تفسير أبى السعود

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضى القضاة أبى السعود بن محمد العمادى الحنفى

٩٠٠ هـ - ٩٨٢ هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

تفسير أبي السعود

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي

٩٠٠هـ — ٩٨٢هـ

تحقيق

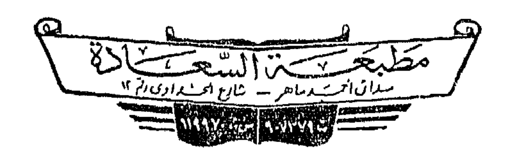
عبد القادر أحمد عطا

الجزء الثاني

يطلب من الناشر

مكتبة الرياض الحديثة

بالرياض


مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر — شارع الحمزاوي رقم ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المائدة مدنية وهى مائة وعشرون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ الوفاء القيام بموجب العقد ، وكذا الإيفاء ، والعقد هو العهد الموثق المشبه بعقد الحبل ونحوه والمراد بالعقود ما يعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية وما يعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها ، مما يجب الوفاء به أو يحسن دينا بأن يحمل الأمر على معنى يعم الوجوب والندب أمر بذلك أولا على وجه الإجمال .

ثم شرع فى تفصيل الأحكام التى أمر بالإيفاء بها وبدىء بما يتعلق بضروريات معايشهم فقيل :

الأحكام التى يجب الوفاء بها

﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام ﴾ البهيمة كل ذات أربع ، وإضافتها إلى الأنعام للبيان كثوب الخز ، وإفرادها لإرادة الجنس ، أى أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام ، وهى الأزواج الثمانية المعدودة فى سورة الأنعام ، وألحق بها الظباء وبقر الوحش ونحوهما ، وقيل هى المرادة بالبهيمة ههنا لتقدم بيان حل الأنعام ، والإضافة لما بينهما من المشابهة والمماثلة فى الاجترار وعدم الأنياب ، وفائدتها الإشعار بعلة الحكم المشتركة بين المضافين ، كأنه قيل أحلت لكم البهيمة الشبيهة بالأنعام التى بين إحلالها فيما سبق ، المماثلة لها فى مناط الحكم ، وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من إظهار العناية بالمقدم ، لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر ، فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة إلى وروده ، فيتمكن عندها فضل تمكن .

﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ استثناء من بهيمة ، أى إلا محرم ما يتلى عليكم من قوله تعالى : (حرمت عليكم الميتة) ونحوه أو إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه ﴿غير محلى الصيد﴾ أى الاصطياد فى البر أو أكل صيده وهو نصب على الحالية من ضمير لكم ، ومعنى عدم إحلالهم له تقرير حرمته عملا واعتقادا ، وهو شائع فى الكتاب والسنة . وقوله تعالى ﴿ وأنتم حرم ﴾ أى محرمون ، حال من الضمير فى محلى، وفائدة تقييد إحلال بهيمة الأنعام بما ذكر من عدم إحلال الصيد حال الإحرام على تقدير كون المراد بها الظباء ونظائرها ظاهرة لما أن إحلالها غير مطلق ، كأنه قيل أحل لكم الصيد حال كونكم ممتنعين عنه عند إحرامكم .

وأما على التقدير الأول ففائدته إتمام النعمة وإظهار الامتنان بإحلالها بتذكير احتياجهم إليه ، فإن حرمة الصيد فى حالة الإحرام من مظان حاجتهم إلى إحلال غيره حينئذ ، كأنه قيل أحلت لكم الأنعام مطلقا حال كونكم ممتنعين عن تحصيل ما يغنيكم عنها فى بعض الأوقات محتاجين إلى إحلالها وفى إسناد عدم الإحلال إليهم بالمعنى المذكور مع حصول المراد بأن يقال غير محال لكم . أو محرما عليكم الصيد حال إحرامكم مزيد تربية للامتنان ، وتقرير للحاجة ببيان علتها القريبة ، فإن تحريم الصيد عليهم إنما يوجب حاجتهم إلى إحلال ما يغنيهم عنه باعتبار تحريمهم له عملا واعتقادا مع ما فى ذلك من وصفهم بما هو اللائق بهم ، ﴿ إن الله يحكم ما يريد ﴾ من الأحكام حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، فيدخل فيها ما ذكر من التحليل والتحريم دخولا أوليا ، ومعنى الإيفاء بهما الجريان على موجبهما عقدا وعملا ، والاجتناب عن تحليل المحرمات وتحريم بعض المحللات كالبحيرة ونظائرها التى سيأتى بيانها .

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ لما بين حرمة إحلال الإحرام الذى هو من شعائر الحج عقب ذلك ببيان حرمة إحلال سائر الشعائر وإضافتها إلى الله عز وجل لتشريفها وتهويل الخطب فى إحلالها ، وهى جمع شعيرة وهى

اسم لما أشعر ، أى جعل شعارا وعلما للنسك من مواقيت الحج ومرامى الجمار والمطاف والمسعى والأفعال التى هى علامات الحج يعرف بها من الإحرام والطواف والسعى والحلق والنحر ، وإحلالها أن يتهاون بحرمتها ويحال بينها وبين المتنسكين بها ويحدث فى أشهر الحج ما يصد به الناس عن الحج وقيل المراد بها دين الله لقوله تعالى (ومن يعظم شعائر الله) أى دينه وقيل حرمات الله وقيل فرائضه التى حدها لعباده ، وإحلالها الإخلال بها ، والأول أنسب بالمقام ﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ أى لا تحلوه بالقتال فيه ، وقيل بالنسيء ، والأول هو الأولى بحال المؤمنين ، والمراد به شهر الحج ، وقيل الأشهر الأربعة الحرم ، والإفراد لإرادة الجنس ﴿ ولا الهدى ﴾ بأن يتعرض له بالغصب أو بالمنع عن بلوغ محله ، وهو ما أهدى إلى الكعبة من إبل أو بقر أو شاء ، جمع هدية كجدى وجدية ﴿ ولا القلائد ﴾ هى جمع قلادة وهى ما يقلد به الهدى من نعل أو لحاء شجر ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له . والمراد النهى عن التعرض لذوات القلائد من الهدى وهى البدن . وعطفها على الهدى مع دخولها فيه لمزيد التوصية بها لمزيتها على ما عداها ، كما عطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام ، كأنه قيل والقلائد منه خصوصا ، أو النهى عن التعرض لنفس القلائد مبالغة فى النهى عن التعرض لأصحابها ، على معنى لا تحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها ، كما نهى عن إبداء الزينة بقوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) مبالغة فى النهى عن إبداء مواقعها ﴿ ولا آمين البيت الحرام ﴾ أى لا تحلوا قوما قاصدين زيارته بأن تصدوهم عن ذلك بأى وجه كان ، وقيل هناك مضاف محذوف أى قتال قوم أو أذى قوم آمين الخ ، وقرىء ولا آمى البيت الحرام بالإضافة ، وقوله تعالى ﴿ يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ﴾ حال من المستكن فى آمين لا صفة له ، لأن المختار أن اسم الفاعل إذا وصف بطل عمله أى قاصدين زيارته حال كونهم طالبين أن يثيبهم الله تعالى ويرضى عنهم ، وتنكير فضلا ورضوانا للتفخيم ، ومن ربهم متعلق بنفس الفعل ، أو بمحذوف وقع صفة لفضلا مغنية عن وصف ما عطف عليه بها ، أى فضلا كائنا من ربهم ورضوانا كذلك .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم والإشعار بحصول مبتغاهم وقرىء تبتغون على الخطاب فالجملة حينئذ حال من ضمير المخاطبين فى لا تحلوا ، على أن المراد بيان منافاة حالهم هذه للمنهى عنه لا تقييد النهى بها ، وإضافة الرب إلى ضمير الآمين للإيماء إلى اقتصار التشريف عليهم، وحرمان المخاطبين عنه وعن نيل المبتغى ، وفى ذلك من تعليل النهى وتأكيده والمبالغة فى استنكار المنهى عنه ما لا يخفى ، ومن ههنا قيل المراد بالآمين هم المسلمون خاصة ، وبه تمسك من ذهب إلى أن الآية محكمة ، وقد روى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « سورة المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها » . وقال الحسن رحمه الله تعالى : ليس فيها منسوخ ،وعن أبى ميسرة : فيها ثمان عشرة فريضة وليس فيها منسوخ .

وقد قيل هم المشركون خاصة لأنهم المحتاجون إلى نهى المؤمنين عن إحلالهم دون المؤمنين ، على أن حرمة إحلالهم ثبتت بطريق دلالة النص ، ويؤيده أن الآية نزلت فى الحطم بن ضبعة البكرى وقد كان أتى المدينة نخلف خيله خارجها فدخل على النبي عليه الصلاة والسلام وحده ووعده أن يأتى بأصحابه فيسلموا ثم خرج من عنده عليه السلام فمر بسرح المدينة فاستاقه ، فلما كان فى العام القابل خرج من اليمامة حاجا فى حجاج بكر بن وائل ومعه تجارة عظيمة وقد قلد الهدى ، فسأل المسلمون النبي صلى الله عليه وسلم أن يخلى بينهم وبينه فأباه النبي عليه الصلاة والسلام فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) الآية ، وفسر ابتغاء الفضل بطلب الرزق بالتجارة ، وابتغاء الرضوان بأنهم كانوا يزعمون أنهم على سداد من دينهم ،وأن الحج يقربهم إلى الله تعالى ،فوصفهم الله تعالى بظنهم ، وذلك الظن الفاسد وإن كان بمعزل من استتباع رضوانه تعالى لكن لا بعد فى كونه مدارا لحصول بعض مقاصدهم الدنيوية وخلاصهم عن المكاره العاجلة لا سيما فى ضمن مراعاة حقوق الله تعالى وتعظيم شعائره ، وقال قتادة : هو أن يصلح معايشهم فى الدنيا ولا يعجل لهم العقوبة فيها ، وقيل هم المسلمون والمشركون لما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن

المسلمين والمشركين كانوا يحجون جميعا فنهى الله المسلمين أن يمنعوا أحداً عن حج البيت بقوله تعالى (لاتحلوا) الآية ، ثم نزل بعد ذلك ، (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام) وقوله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) وقال مجاهد والشعبي لاتحلوا نسخ بقوله تعالى (اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ولا ريب فى تناول الآمين للمشركين قطعا ، إما استقلالا وإما اشتراكا لما سيأتى من قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم) الخ فيتعين النسخ كلا أو بعضا ، ولابد فى الوجه الأخير من تفسير الفضل والرضوان بما يناسب الفريقين ، فقيل : ابتغاء الفضل أى الرزق للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة ، ويجوز أن يكون الفضل على إطلاق شاملا للفضل الأخروى أيضاً ، ويختص ابتغاؤه بالمؤمنين ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ تصريح بما أشير إليه بقوله تعالى (وأنتم حرم) من انتهاء حرمة الصيد بانتفاء موجبها ، والأمر للإباحة بعد الحظر كأنه قيل : إذا حللتم فلا جناح عليكم فى الاصطياد ، وقرىء أحللتم ، وهو لغة فى حلى وقرىء بكسر الفاء بالقاء حركة همزة الوصل عليها وهو ضعيف جداً .

﴿ ولا يجرمنكم ﴾ نهى عن إحلال قوم من الآمين خصوا به مع اندراجهم فى النهى عن إحلال الكل كافة ، لاستقلالهم بأمور ربما يتوهم كونها مصححة لإحلالهم داعية إليه وجرم جار مجرى كسب فى المعنى وفى التعدى ، إلى مفعول واحد وإلى اثنين ، يقال جرم ذنبا نحو كسبه وجرمته ذنبا نحو كسبته إياه ، خلا أن جرم يستعمل غالبا فى كسب مالا خير فيه، وهو السبب فى إيثاره ههنا على الثانى . وقد ينقل الأول من كل منهما بالهمزة إلى معنى الثانى ، فيقال أجرمته ذنبا وأكسبته إياه ، وعليه قراءة من قرأ يجرمنكم بضم الياء ﴿ شنآن قوم ﴾ بفتح النون وقرىء بسكونها وكلاهما مصدر أضيف إلى مفعوله ، لا إلى فاعله كما قيل ، وهو شدة البغض وغاية المقت ﴿ أن صدوكم ﴾ متعلق بالشنآن بإضمار لام العلة أى لأن صدوكم عام الحديبية ﴿ عن المسجد الحرام ﴾ عن زيارته والطواف به للعمرة ، وهذه آية بينة فى عموم آمين للمشركين قطعا ، وقرىء إن

صدوكم على أنه شرط معترض أغنى عن جوابه لا يجرمنكم ، قد أبرز الصد المحقق فيما سبق فى معرض المفروض للتوبيخ والتنبيه على أن حقه لا يكون وقوعه إلا على سبيل الفرض والتقدير ﴿ أن تعتدوا ﴾ أى عليهم ، وإنما حذف تعويلا على ظهوره وإيماء إلى أن المقصد الأصلى من النهى منع صدور الاعتداء عن المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر ، لا منع وقوعه على القوم مراعاة لجانبهم وهو ثانى مفعولى يجرمنكم ، أى لا يكسبنكم شدة بغضكم لهم لصدهم إياكم عن المسجد الحرام اعتداءكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفى ، وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيا للشنآن عن كسب الاعتداء للمخاطبين ، لكنه فى الحقيقة نهى لهم عن الاعتداء على أبلغ وجه وآكده ، فإن النهى عن أسباب الشىء ومباديه المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهانى ، وإبطال للسببية ، وقد يوجه النهى إلى المسبب ويراد النهى عن السبب كما فى قوله: لا أرينك ههنا. يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه ، ولعل تأخير هذا النهى عن قوله تعالى ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ مع ظهور تعلقه بما قبله للإيذان بأن حرمة الاعتداء لا تنتهى بالخروج عن الإحرام كانتهاء حرمة الاصطياد به ، بل هى باقية ما لم تنقطع علاقتهم عن الشعائر بالكلية وبذلك يعلم بقاء حرمة التعرض لسائر الآمين بالطريق الأولى .

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ لما كان الاعتداء غالبا بطريق التظاهر والتعاون أمروا إثر ما نهوا عنه بأن يتعاونوا على كل مكان ما هو من باب البر والتقوى ، ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى ، فدخل فيه مانحن بصدده من التعاون على العفو والإغضاء عما وقع منهم دخولا أوليا ، ثم نهوا عن التعاون فى كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصى بقوله تعالى ﴿ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ فاندرج فيه النهى عن التعاون على الاعتداء والانتقام بالطريق البرهانى، وأصل لا تعاونوا لا تتعاونوا فحذف منه إحدى التاءين تخفيفا ، وإنما أخر النهى عن الأمر مع تقدم التخلية على التحلية مسارعة إلى إيجاب ما هو مقصود بالذات . فإن المقصود من إيجاب ترك التعاون على الإثم والعدوان إنما هو تحصيل التعاون

على البر والتقوى . ثم أمروا بقوله تعالى ﴿ واتقوا الله ﴾ بالاتقاء فى جميع الأمور التى من جملتها مخالفة ما ذكر من الأوامر والنواهى فثبت وجوب الإتقاء فيها بالطريق البرهانى ثم علل ذلك بقوله تعالى ﴿ إن الله شديد العقاب ﴾ أى لمن لا يتقيه فيعاقبكم لا محالة إن لم تتقوه ؛ وإظهار الاسم الجليل لما مر مرارا من إدخال الروعة وتربية المهابة وتقوية استقلال الجملة ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ شروع فى بيان المحرمات التى أشير إليها بقوله تعالى ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ والميتة ما فارقه الروح من غير ذبح ﴿ والدم ﴾ أى المسفوح منه لقوله تعالى ﴿ أو دما مسفوحا ﴾ وكان أهل الجاهلية يصبونه فى الأمعاء ويشوونه ويقولون لم يحرم من فزد له أى من فصد له ﴿ ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ﴾ أى رفع الصوت لغير الله عند ذبحه كقولهم باسم اللات والعزى ﴿ والمنخنقة ﴾ أى التى ماتت بالخنق ﴿ والموقوذة ﴾ أى التى قتلت بالضرب بالخشب ونحوه من وقذته إذا ضربته ﴿ والمتردية ﴾ أى التى تردت من علو أو إلى بئر فماتت ﴿ والنطيحة ﴾ أى التى نطحتها أخرى فماتت بالنطح والتاء للنقل وقرىء والمنطوحة ﴿ وما أكل السبع ﴾ أى وما أكل منه السبع فمات ؛ وقرىء بسكون الباء ، وقرىء وأكيل السبع . وفيه دليل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما صادته لم يحل ﴿ إلا ما ذكيتم ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وفيه بقية حياة يضطرب اضطراب المذبوح . وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع .

والذكاة فى الشرع بقطع الحلقوم والمرىء بمحدد ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ قيل هو مفرد وقيل جمع نصاب ، وقرىء بسكون الصاد وأيا ما كان فهو واحد الأنصاب وهى أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة ، وقيل هى الأصنام ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ جمع زلم وهو القدح أى وحرم عليكم الاستقسام بالقداح وذلك أنهم إذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة قداح مكتوب على أحدها أمرنى ربى ، وعلى الثانى نهانى ربى ، وعلى الثالث غفل ، فإن خرج الآمر مضوا ذلك ، وإن خرج الناهى اجتنبوا عنه ، وإن خرج الغافل أجالوها مرة أخرى ، فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم

بالأزلام ، وقيل هو استقسام الجزور بالأقداح على الأنصباء المعهودة ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام ، ومعنى البعد فيه للإشارة إلى بعد منزلته فى الشر ﴿ فسق ﴾ تمرد وخروج عن الحد ودخول فى علم الغيب وضلال باعتقاد أنه طريق إليه ، وافتراء على الله سبحانه إن كان هو المراد بقولهم ربى ، وشرك وجهالة إن كان هو الصنم ، وقيل ذلكم إشارة إلى تناول المحرمات المعدودة لأن معنى تحريمها تحريم تناولها .

﴿ اليوم ﴾ اللام للعهد والمراد به الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الماضية والآتية وقيل يوم نزولها ، وقد نزلت بعد عصر الجمعة يوم عرفة فى حجة الوداع والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على العضباء فكادت عضد الناقة تندق لثقلها فبركت ، وأيا ما كان فهو منصوب على أنه ظرف لقوله تعالى ﴿ يئس الذين كفروا من دينكم ﴾ أى من إبطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث أو غيرها ، أو من أن يغلبوكم عليه لما شاهدوا من أن الله عز وجل وفى بوعده حيث أظهره على الدين كله وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿ فلا تخشوهم ﴾ أى أن يظهروا عليكم ﴿ واخشون ﴾ أى وأخلصوا إلى الخشية ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد وتقديم الجار والمجرور للإيذان من أول الأمر بأن الإكمال لمنفعتهم ومصلحتهم كما فى قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) وعليكم فى قوله تعالى ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ﴾ متعلق بأتممت لا بنعمتى لأن المصدر لا يتقدم عليه معموله وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرات أى أتممتها بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكها والنهى عن حج المشرك وطواف العريان ، أو بإكمال الدين والشرائع أو بالهداية والتوفيق ، قيل معنى أتممت عليكم نعمتى أنجزت لكم وعدى بقولى ولأتم نعمتى عليكم ﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ أى اخترته لكم من بين الأديان وهو الدين عند الله لا غير ، عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن رجلا من اليهود قال له : يا أمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرؤنها لو علينا معشر اليهود نزلت

لاتخذنا ذلك اليوم عيدا ، قال : أى آية ؟ قال : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) الآية . قال عمر رضى الله تعالى عنه قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذى أنزلت فيه على النبى عليه الصلاة والسلام وهو قائم بعرفه يوم الجمعة ، أشار رضى الله تعالى عنه إلى أن ذلك اليوم عيد لنا، وروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضى الله تعالى عنه فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : ما يبكيك يا عمر ؟ قال أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا ، فإذا كمل فإنه لايكمل شىء إلا نقص ، فقال عليه الصلاة والسلام « صدقت » فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما لبث بعد ذلك إلا أحدا وثمانين يوما .

﴿ فمن اضطر ﴾ متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض بما يوجب أن يجتنب عنه وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضى أى فمن اضطر إلى تناول شىء من هذه المحرمات ﴿ فى مخمصة ﴾ أى فى مجاعة يخاف معها الموت أو مباديه ﴿ غير متجانف لإثم ﴾ قيل غير مائل ومنحرف إليه ، بأن يأكلها تلذذا أو مجاوزا حد الرخصة أو ينتزعها من مضطر آخر كقوله تعالى (غير باغ ولا عاد) ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ لايؤاخذه بذلك ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم ﴾ شروع فى تفصيل المحللات التى ذكر بعضها على وجه الإجمال إثر بيان المحرمات كأنهم سألوا عنها عند بيان أضدادها ، ولتضمن السؤال معنى القول أوقع على الجملة ، فماذا مبتدأ وأحل لهم خبره ، وضمير الغيبة لما أن يسألون بلفظ الغيبة فإنه كما يعتبر حال المحكى عنه فيقال أقسم زيد لأفعلن ، يعتبر حال الحاكى ، فيقال أقسم زيد ليفعلن ، والمسؤول ما أحل لهم من المطاعم ﴿ قل أحل لكم الطيبات ﴾ أى مالم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه كما فى قوله تعالى : (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) ﴿ وما علمتم من الجوارح ﴾ عطف على الطيبات بتقدير المضاف على أن ما موصول والعائد محذوف ، أى وصيد ما علمتموه ، أو مبتدأ على أن ما شرطية والجواب فكلوا ، وقد جوز كونها مبتدأ على تقدير كونها موصولة أيضا والخبر كلوا ، وإنما دخلته الفاء تشبيها للموصول باسم الشرط ومن الجوارح

حال من الموصول أو ضميره المحذوف ، والجوارح الكواسب من سباع البهائم والطير ، وقيل سميت بها لأنها تجرح الصيد غالبا ﴿ مكلبين ﴾ أى معلمين لها الصيد والمكلب مؤدب الجوارح ومضريها بالصيد ، مشتق من الكلب لأن التأديب كثيرا ما يقع فيه ، أو لأن كل سبع يسمى كلبا لقوله عليه الصلاة السلام فى حق عتبة بن أبى لهب حين أراد سفر الشام فقال النبى عليه الصلاة والسلام « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » فأكله الأسد[1] . وانتصابه على الحالية من فاعل علمتم وفائدتها المبالغة فى التعليم لما أن اسم المكلب لا يقع إلا على التحرير فى علمه وقرىء مكلبين بالتخفيف والمعنى واحد ﴿ تعلمونهن ﴾ حال ثانية منه أو حال من ضمير مكلبين أو استئناف ﴿ مما علمكم الله ﴾ من الحيل وطرق التعليم والتأديب فإن العلم به إلهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذى هو منحة منه أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه بدعائه وإمساك الصيد عليه وعدم أكله منه ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم ﴾ قد مر فيما سبق أن هذه الجملة على تقدير كون ما شرطية جواب الشرط ، وعلى تقدير كونها موصولة مرفوعة على الابتداء خبر لها ، وأما على تقدير كونها عطفا على الطيبات فهى جملة متفرعة على بيان حل صيد الجوارح المعلمة مبينة للمضاف المقدر الذى هو المعطوف ، وبه يتعلق الإحلال حقيقة ومشيرة إلى نتيجة التعليم وأثره ، داخلة تحت الأمر ، فالفاء فيها كما فى قوله : أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ، ومن تبعيضية لما أن البعض مما لا يتعلق به الأكل كالجلود والعظام والريش وغير ذلك وما موصولة أو موصوفة حذف عائدها وعلى متعلقة بأمسكن أى فكلوا بعض ما أمسكنه عليكم وهو الذى لم يأكلن منه وأما ما أكلن منه فهو مما أمسكنه على أنفسهن لقوله عليه الصلاة والسلام لعدى بن حاتم « وإن أكل منه فلا تأكل ، إنما أمسك على نفسه » وإليه ذهب أكثر الفقهاء .

---

(١) بل ضربه بيده ضربة مات منها . وتفاصيل القصة فى دلائل النبوة لأبى نعيم .

وقال بعضهم لا يشترط عدم الأكل فى سباع الطير لما أن تأديبها إلى هذه الدرجة متعذر وقال آخرون : لا يشترط ذلك مطلقاً وقد روى عن سلمان وسعد بن أبى وقاص وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهم أنه إذا أكل الكلب ثلثيه وبقى ثلثه وقد ذكرت اسم الله عليه فكل ﴿ واذكروا اسم الله عليه ﴾ الضمير لما علمتم أى سموا عليه عند إرساله ، أو لما أمسكنه ، أى سموا عليه إذا أدركتم ذكاته ﴿ واتقوا الله ﴾ فى شأن محرماته ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أى سريع إتيان حسابه ، أو سريع تمامه إذا شرع فيه يتم فى أقرب ما يكون من الزمان ، والمعنى على التقديرين أنه يؤاخذكم سريعا فى كل ما جل ودق ، وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم .

﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ﴾ قيل المراد بالأيام الثلاثة وقت واحد ، وإنما كرر للتأكيد ، ولاختلاف الأحداث الواقعة فيه حسن تكريره ، والمراد بالطيبات ما مر ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب ﴾ أى اليهود والنصارى واستثنى على رضى الله تعالى عنه نصارى بنى تغلب ، وقال ليسوا على النصرانية ، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر ، وبه أخذ الشافعى رضى الله عنه ، والمراد بطعامهم ما يتناول ذبائحهم وغيرها ﴿ حل لكم ﴾ أى حلال ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال : لا بأس ، وهو قول عامة التابعين ، وبه أخذ أبو حنيفة رضى الله عنه وأصحابه ، وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عنده . وقال صاحباه : هما صنفان ، صنف يقرءون الزبور ويعبدون الملائكة عليهم السلام ، وصنف لا يقرءون كتابا ، ويعبدون النجوم ، فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب . وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب فى أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحى نسائهم » . ﴿ وطعامكم حل لهم ﴾ فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوه منهم ، ولو حرم عليهم لم يجز ذلك.

﴿ والمحصنات من المؤمنات ﴾ رفع على أنه مبتدأ حذف خبره لدلالة ما تقدم عليه أى حل لكم أيضاً ، والمراد بهن الحرائر العفائف ، وتخصيصهن

بالذكر للبعث على ما هو الأولى لا لنفى ما عداهن ، فإن نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق ، وكذا نكاح غير العفائف منهن ، وأما الإماء الكتابيات فهن كالمسلمات عند أبى حنيفة رضى الله عنه خلافا للشافعى رضى الله عنه ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ أى هن أيضاً حل لكم، وإن كن حربيات ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا تحل الحربيات ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أى مهورهن ، وتقييد الحل بإيتائها لتأكيد وجوبها والحث على الأولى ، وقيل المراد بإيتائها التزامها ، وإذا ظرفية عاملها حل المحذوف ، وقيل شرطية حذف جوابها ، أى إذا آتيتموهن أجورهن حللن لكم ﴿ محصنين ﴾ حال من فاعل آتيتموهن أى حال كونكم أعفاء بالنكاح وكذا قوله تعالى ﴿ غير مسافحين ﴾ وقيل حال من ضمير محصنين ، وقيل صفة محصنين ، أى غير مجاهرين بالزنا ﴿ ولا متخذى أخدان ﴾ أى ولا مسرين به والخدن الصديق يقع على الذكر والأنثى ، وهو إما مجرور عطفا على مسافحين وزيدت لا لتأكيد النفى المستفاد من غير ، أو منصوب عطفا على غير مسافحين باعتبار أوجهه الثلاثة ﴿ ومن يكفر بالإيمان﴾ أى ومن ينكر شرائع الإسلام التى من جملتها ما بين ههنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة ، ويمتنع عن قبولها ﴿ فقد حبط عمله ﴾ الصالح الذى عمله قبل ذلك ﴿ وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ هو مبتدأ من الخاسرين خبره ، وفى متعلقة بما تعلق به الخبر من الكون المطلق ، وقيل بمحذوف دل عليه المذكور أى خاسر فى الآخرة ، وقيل بالخاسرين على أن الألف واللام للتعريف لا موصولة ، لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها . وقيل يغتفر فى الظرف ما لا يغتفر فى غيره كما فى قوله :

ربيته حتى إذا تمعددا كان جزائى بالعصا أن أجلدا

شعائر الصلاة

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ شروع فى بيان الشرائع المتعلقة بدينهم بعد بيان ما يتعلق بدنياهم ﴿ إذا قمتم إلى الصلوة ﴾ أى أردتم القيام إليها كما فى قوله تعالى ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ عبر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها

مجازاً للإيجاز ، والتنبيه على أن من أراد الصلاة حقه أن يبادر إليها بحيث لا ينفك عن إرادتها ، أو إذا قصدتم الصلاة إطلاقا لاسم أحد لازميها على لازمها الآخر وظاهر الآية الكريمة يوجب الوضوء على كل قائم إليها وإن لم يكن محدثا ، لما أن الأمر للوجوب قطعا ، والإجماع على خلافه ، وقد روى أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد فقال عمر رضى الله تعالى عنه : صنعت شيئاً لم تكن تصنعه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « عمداً فعلته يا عمر » يعنى بيانا للجواز ، وحمل الأمر بالنسبة إلى غير المحدث على الندب مما لا مساغ له ، فالوجه أن الخطاب خاص بالمحدثين بقرينة دلالة الحال ، واشتراط الحدث فى التيمم الذى هو بدله ، وما نقل عن النبي عليه الصلاة والسلام والخلفاء من أنهم كانوا يتوضأون لكل صلاة فلا دلالة فيه على أنهم كانوا يفعلونه بطريق الوجوب أصلا ، كيف لا وما روى عنه عليه الصلاة والسلام من قوله : « من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات » صريح فى أن ذلك كان منهم بطريق الندب ، وما قيل من أنه كان ذلك أول الأمر ثم نسخ يرده قوله عليه الصلاة والسلام : « المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها » ﴿ فاغسلوا وجوهكم ﴾ أى أمروا عليها الماء ، ولا حاجة إلى الدلك خلافا لمالك ﴿ وأيديكم إلى المرافق ﴾ الجمهـــور على دخول المرفقين فى المغسول ، ولذلك قيل إلى بمعنى مع كما فى قوله تعالى ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ وقيل هى إنما تفيد معنى الغاية مطلقاً ، وأما دخولها فى الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه ، وإنما هو أمر يدور على الدليل الخارجى ، كما فى حفظت القرآن من أوله إلى آخره ، وقوله تعالى (فنظرة إلى ميسرة) فإن الدخول فى الأول والخروج فى الثانى متيقن بناء على تحقق الدليل ، وحيث لم يتحقق ذلك فى الآية وكانت الأيدى متناولة للمرافق حكم بدخولها فيها احتياطا ، وقيل إلى من حيث إفادتها للغاية تقتضى خروجها ، لكن لما لم تتميز الغاية ههنا عن ذى الغاية وجب إدخالها احتياطيا .

﴿ وامسحوا برؤسكم ﴾ الباء مزيدة وقيل للتبعيض ، فإنه الفارق بين قولك مسحت المنديل ومسحت بالمنديل ، وتحقيقه أنها تدل على تضمين الفعل معنى الإلصاق ، فكأنه قيل وألصقوا المسح برؤسكم ، وذلك لا يقتضى الاستيعاب كما يقتضيه ما لو قيل وامسحوا رؤسكم ، فإنه كقوله تعالى ﴿ فاغسلوا وجوهكم ﴾ واختلف العلماء فى القدر الواجب ، فأوجب الشافعى أقل ما ينطلق عليه الاسم أخذا باليقين ، وأبو حنيفة ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث مسح على ناصيته وقدرها بربع الرأس ، ومالك مسح الكل أخذا بالاحتياط ﴿ وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ بالنصب عطفا على وجوهكم ، ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة والتحديد ، إذ المسح لم يعهد محدوداً وقرىء بالجر على الجوار ونظيره فى القرآن كثير ، كقوله تعالى (عذاب يوم أليم) ونظائره ، وللنحاة فى ذلك باب مفرد وفائدته التنبيه على أنه ينبغى أن يقتصد فى صب الماء عليها ويغسلها غسلا قريبا من المسح ، وفى الفصل بينه وبين أخواته إيماء إلى أفضلية الترتيب ، وقرىء بالرفع أى وأرجلكم مغسولة ﴿ وإن كنتم جنبا فاطهروا ﴾ أى فاغتسلوا وقرىء فاطهروا أبدانكم وفى تعليق الأمر بالطهارة الكبرى بالحدث الأكبر إشارة إلى اشتراط الأمر بالطهارة الصغرى بالحدث الأصغر .

﴿ وإن كنتم مرضى ﴾ مرضا يخاف به الهلاك أو ازدياده باستعمال الماء ﴿ أو على سفر ﴾ أى مستقرين عليه ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾ من لابتداء الغاية وقيل للتبعيض وهى متعلقة بامسحوا وقرىء فأموا صعيدا وقد مر تفسير الآية الكريمة مشبعا فى سورة النساء فليرجع إليه، ولعل التكرير ليتصل الكلام فى أنواع الطهارة ﴿ ما يريد الله ﴾ أى ما يريد بالأمر بالطهارة للصلاة أو بالأمر بالتيمم ﴿ ليجعل عليكم من حرج ﴾ من ضيق فى الامتثال به .

﴿ ولكن يريد ﴾ ما يريد بذلك ﴿ ليطهركم ﴾ أى لينظفكم أو ليطهركم عن الذنوب ، فإن الوضوء مكفر لها أو ليطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء ، فمفعول يريد فى الموضعين محذوف ، واللام للعلة . وقيل مزيدة والمعنى ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرج فى باب الطهارة حتى لا يرخص لكم فى التيمم ، ولكن يريد أن يطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء ﴿ وليتم ﴾ بشرعه ماهو مطهرة لأبدانكم ومكفرة لذنوبكم ﴿ نعمته عليكم ﴾ فى الدين ، أو ليتم برخصه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ نعمته .

ومن لطائف الآية الكريمة أنها مشتملة على سبعة أمور كلها مثنى ، طهارتان أصل وبدل والأصل اثنان مستوعب وغير مستوعب ، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح ، وباعتبار المحل محدود وغير محدود ، وأن آلتهما مائع وجامد ، وموجبهما حدث أصغر وأكبر ، وأن المبيح للعدول إلى البدل مرض وسفر ، وأن الموعود عليهما تطهير الذنوب وإتمام النعمة ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ بالإسلام لتذكركم المنعم وترغبكم فى شكره ﴿ وميثاقه الذى واثقكم به ﴾ أى عهده المؤكد الذى أخذه عليكم وقوله تعالى :

﴿ إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ ظرف لواثقكم به ، أو لمحذوف وقع حالا من الضمير المجرور فى به أو من ميثاقه ، أى كائنا وقت قولكم سمعنا وأطعنا ، وفائدة التقييد به تأكيد وجوب مراعاته بتذكر قبولهم والتزامهم بالمحافظة عليه وهو الميثاق الذى أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله عليه الصلاة والسلام على السمع والطاعة فى حال العسر واليسر والمنشط والمكره ، وقيل هو الميثاق الواقع ليلة العقبة وفى بيعة الرضوان ، وإضافته إليه مع صدوره عنه عليه الصلاة والسلام لكن المرجع إليه كما نطق به قوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وقال مجاهد : هو الميثاق الذى أخذه الله تعالى على عباده حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام ﴿ واتقوا الله ﴾ أى فى نسيان نعمته ونقض ميثاقه أو فى كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أى بخفياتها الملابسة لها ملابسة تامة مصححة لإطلاق الصاحب

عليها فيجازيكم عليها ، فما ظنكم بجليات الأعمال ، والجملة اعتراض تذييلى وتعليل للأمر بالاتقاء وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة .

علاقة الإنسان بغيره

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ شروع فى بيان الشرائع المتعلقة بما يجرى بينهم وبين غيرهم إثر بيان ما يتعلق بأنفسهم ﴿كونوا قوامين لله﴾ مقيمين لأوامره ممتثلين لها معظمين لها مراعين لحقوقها ﴿شهداء بالقسط﴾ أى بالعدل ﴿ولا يجرمنكم﴾ أى لا يحملنكم ﴿شنآن قوم﴾ أى شدة بغضكم لهم ﴿على ألا تعدلوا﴾ فلا تشهدوا فى حقوقهم بالعدل ؛ أو فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيا وغير ذلك ﴿اعدلوا هو﴾ أى العدل ﴿أقرب للتقوى﴾ الذى أمرتم به ، صرح لهم بالأمر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور ، وبين أنه مقتضى الهوى ، وإذا كان وجوب العدل فى حق الكفار بهذه المثابة فما ظنك بوجوبه فى حق المسلمين ﴿واتقوا الله﴾ أمر بالتقوى إثر ما بين أن العدل أقرب له اعتناء بشأنه وتنبيها على أنه ملاك الأمر ﴿إن الله خبير تعملون﴾ من الأعمال فيجازيكم بذلك ؛ وتكرير هذا الحكم إما لاختلاف السبب كما قيل إن الأول نزل فى المشركين وهذا فى اليهود أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة فى إطفاء ثائرة الغيظ ؛ والجملة تعليل لما قبلها وإظهار الجلالة لما مر مرات[1] .

وحيث كان مضمونها منبئا عن الوعد والوعيد عقب بالوعد لمن يحافظ على طاعته تعالى وبالوعيد لمن يخل بها فقيل ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ التى من جملتها العدل والتقوى .

﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ حذف ثانى مفعول وعد استغناء عنه بهذه الجملة فإنه استئناف مبين له ؛ وقيل الجملة فى موقع المفعول ، فإن الوعد ضرب من

---

(١) أى لتربية المهابة فى القلوب .

القول فكأنه قيل وعدهم هذا القول ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ التى من جملتها ما تلى من النصوص الناطقة بالأمر بالعدل والتقوى ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر وتكذيب الآيات ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ ملابسوها ملابسة مؤبدة . من السنة السنية القرآنية شفع الوعد بالوعيد ، والجمع بين الترغيب والترهيب ، إيفاء لحق الدعوة بالتبشير والإنذار ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ تذكير لنعمة الإنجاء من الشر إثر تذكير نعمة إيصال الخير الذى هو نعمة الإسلام وما يتبعها من الميثاق ، وعليكم متعلق بنعمة الله ، أو بمحذوف وقع حالا منها وقوله تعالى ﴿ إذ هم قوم ﴾ على الأول ظرف لنفس النعمة ، وعلى الثانى لما تعلق به عليكم ، ولا سبيل إلى كونه ظرفا لاذكروا لتنافى زمانيهما ، أى اذكروا إنعامه تعالى عليكم ، أواذكروا نعمته كائنة عليكم فى وقت همهم ﴿ أن يبسطوا إليكم أيديهم ﴾ أى بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك ، يقال بسط إليه يده ، وبسط إليه لسانه إذا شتمه ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلى بيان رجوع ضرر البسط وغائلته إليهم ، حملا لهم من أول الأمر على الاعتداد بنعمه دفعة ، كما أن تقديم لكم فى قوله عز وجل (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض) للمبادرة الى بيان كون المخلوق من منافعهم تعجيلا للمسرة ﴿ فكف أيديهم عنكم ﴾ عطف على هم ، وهو النعمة التى أريد تذكيرها ، وذكرا لهم للإيذان بوقوعها عند مزيد الحاجة إليها والفاء للتعقيب المفيد لتمام النعمة وكمالها ، وإظهار أيديهم فى موقع الإضمار لزيادة التقرير ، أى منع أيديهم أن تمد إليكم عقيب همهم بذلك . لا أنه كفها عنكم بعد ما مدوها إليكم ، وفيه من الدلالة على كمال النعمة من حيث أنها لم تكن مشوبة بضرر الخوف والانزعاج الذى قلما يعرى عنه الكف بعد المد مالا يخفى مكانه وذلك ما روى أن المشركين لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان فى غزوة ذى أنمار وهى غزوة ذات الرقاع وهى السابعة من مغازيه عليه الصلاة والسلام ، قاموا إلى الظهر معا فلما صلوا ندم المشركون ألا كانوا قد أكبوا عليهم ، فقالوا إن لهم بعدها صلاة هى أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم

يعنون صلاة العصر ، وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها ، فرد الله تعالى كيدهم بأن أنزل صلاة الخوف ، وقيل هو ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى قريظة ومعه الشيخان وعلى رضى الله تعالى عنهم يستقرضهم لدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ يحسبهما مشركين ، فقالوا نعم يا أبا القاسم إجلس حتى نطعمك ونعطيك ما سألت ، فأجلسوه فى صفة وهموا بالفتك به ، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحا عظيمة يطرحها عليه فأمسك الله تعالى يده. ونزل جبريل عليه السلام فأخبره ، فخرج عليه الصلاة والسلام . وقيل هو ما روى أنه عليه الصلاة والسلام نزل منزلا وتفرق أصحابه فى العضاة يستظلون بها ، فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه بشجرة ، فجاء أعرابى فأخذه وسله فقال : من يمنعك منى فقال صلى الله عليه وسلم : « الله تعالى » فأسقطه جبريل عليه السلام من يده ، فأخذه الرسول عليه الصلاة والسلام فقال : « من يمنعك منى » فقال : لا أحد ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﴿ واتقوا الله ﴾ عطف على اذكروا أى اتقوه فى رعاية حقوق نعمته ولا تخلوا بشكرها أو فى كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا ﴿ وعلى الله ﴾ أى عليه تعالى خاصة دون غيره استقلالا واشتراكا ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ فإنه يكفيهم فى إيصال كل خير ودفع كل شر ، والجملة تذييل مقرر لما قبله ، وإيثار صيغة أمر الغائب وإسنادها إلى المؤمنين لإيجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهانى، وللإيذان بأن ماوصفوا به عند الخطاب من وصفه الإيمان داع إلى ما أمروا به من التوكل والتقوى ، وازع عن الإخلال بهما ، وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة التذييلية .

خيانات بنى إسرائيل

﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ﴾ كلام مستأنف مشتمل على ذكر بعض ما صدر عن بنى إسرائيل من الخيانة ونقض الميثاق وما أدى إليه ذلك من التبعات مسوق لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى ومراعاة حق الميثاق.

الذى واثقهم به ، وتحذيرهم من نقضه ، أو لتقرير ما ذكر من الهم بالبطش ، وتحقيقه على تقدير كون ذلك من بنى قريظة حسبما مر من الرواية ببيان أن الغدر والخيانة عادة لهم قديمة توارثوها من أسلافهم ، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتفخيم الميثاق وتهويل الخطب فى نقضه ، مع ما فيه من رعاية حق الاستئناف المستدعى للانقطاع عما قبله ، والالتفات فى قوله تعالى ﴿ وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ﴾ للجرى على سنن الكبرياء ، أو لأن البعث كان بواسطة موسى عليه السلام كما سيأتى ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، والنقيب فعيل بمعنى فاعل مشتق من النقب ، وهو التفتيش ، ومنه قوله تعالى (فنقبوا فى البلاد) سمى بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم وأسرارهم . قال الزجاج وأصله من النقب وهو الثقب الواسع . روى أن بنى إسرائيل لما استقروا بمصر بعد مهلك فرعون أمرهم الله عز وجل بالمسير إلى أريحاء أرض الشام ، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون ، وقال لهم : إنى كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإنى ناصركم ، وأمر موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا أمينا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم ، فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل وتكفل إليهم النقباء ، وسار بهم ، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا أجراما عظيمة وقوة وشوكة ، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا ، وقد نهاهم موسى عن ذلك ، فنكثوا الميثاق إلا كالب بن يوقنا نقيب سبط يهوذا ، ويوشع بن نون نقيب سبط أفراييم ابن يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ، قيل لما توجه النقباء إلى أرضهم للتجسس لقيهم عوج بن عنق ، وكان طوله ثلاثة آلاف سنة ، وكان على رأسه حزمة حطب ، فأخذهم وجعلهم فى الحزمة وانطلق بهم إلى امرأته ، وقال انظرى إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا ، فطرحهم بين يديها وقال ألا أطحنهم برجلى ، فقالت : لا بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ، ففعل فجعلوا يتعرفون أحوالهم ، وكان لا يحمل عنقود عنبهم إلا خمسة رجال ،

أو أربعة ، فلما خرج النقباء قال بعضهم لبعض إن أخبرتم بنى إسرائيل بخبر القوم ارتدوا عن نبى الله ؛ ولكن اكتموه إلا عن موسى وهرون عليهما السلام، فيكونان هما يريان رأيهما ، فأخذ بعضهم على بعض الميثاق ثم انصرفوا إلى موسى عليه السلام وكان معهم حبة من عنبهم وقر رجل، فنكثوا عهدهم وجعل كل منهم ينهى سبطه عن قتالهم ، ويخبرهم بما رأى إلا كالب ويوشع ، وكان معسكر موسى فرسخا فى فرسخ فجاء عوج حتى نظر إليهم ثم رجع إلى الجبل ، فقور منه صخرة عظيمة على قدر العسكر ثم حملها على رأسه ليطبقها عليهم فبعث الله تعالى الهدهد فقور من الصخرة وسطها المحاذى لرأسه ، فانتقبت فوقعت فى عنق عوج ، وطوقته فصرعته ، وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع ، وكذا طول العصا ، فترامى فى السماء عشرة أذرع ، فما أصاب العصا إلا كعبه وهو مصروع فقتله ، قالوا فأقبلت جماعة ومعهم الخناجر حتى حزوا رأسه .

﴿ وقال الله ﴾ أى لبنى إسرائيل فقط إذ هم المحتاجون إلى ما ذكر من الترغيب والترهيب كما ينبىء عنه الالتفات مع ما فيه من تربية المهابة وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد ﴿ إنى معكم ﴾ أى بالعلم والقدرة والنصرة ، لا بالنصرة فقط ، فإن تنبيههم على علمه تعالى بكل ما يأتون وما يذرون وعلى كونهم تحت قدرته وملكوته مما يحملهم على الجد فى الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه ، كأنه قيل إنى معكم أسمع كلامكم وأرى أعمالكم وأعلم ضمائركم ، فأجازيكم بذلك ، هذا وقد قيل المراد بالميثاق هو الميثاق بالإيمان والتوحيد، وبالنقباء ملوك بنى اسرائيل الذين ينقبون أحوالهم ، ويلون أمورهم بالأمر والنهى ، وإقامة العدل ، وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿ لئن أقمتم الصلوة وآتيتم الزكوة وآمنتم برسلى ﴾ أى بجميعهم واللام موطئة للقسم المحذوف وتأخير الإيمان عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع كونهم من الفروع المترتبة عليه لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم لتكذيب بعض الرسل عليهم السلام ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى ﴿ وعزرتموهم ﴾ أى نصرتموهم وقويتموهم وأصله الذب وقيل التعظيم والتوقير والثناء بخير . وقرىء وعزرتموهم

بالتخفيف ﴿ وأقرضتم الله ﴾ بالإنفاق فى سبيل الخير . أو بالتصدق بالصدقات المندوبة ، وقوله تعالى ﴿ قرضا حسنا ﴾ إما مصدر مؤكد وارد على غير صيغة المصدر ، كما فى قوله تعالى (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا) ومفعول ثان لأقرضتم على أنه اسم للمال المقرض ، وقوله تعالى ﴿ لأ كفرن عنكم سيآتكم ﴾ جواب للقسم المدلول عليه باللام ساد مسد جواب الشرط ﴿ ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ عطف على ما قبله داخل معه فى حكم الجواب متأخر عنه فى الحصول أيضا ضرورة تقدم التخلية على التحلية ﴿ فمن كفر ﴾ أى برسلى أو بشىء مما عدد فى حيز الشرط والفاء لترتيب بيان حكم من كفر على بيان حكم من آمن ، تقوية للترغيب بالترهيب ﴿ بعد ذلك ﴾ الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم الموجب للإيمان قطعا ﴿ منكم ﴾ متعلق بمضمر وقع حالا من فاعل كفر ، ولعل تغيير السبك حيث لم يقل وإن كفرتم عطفا عن الشرطية السابقة لإخراج كفر الكل عن حيز الاحتمال ، وإسقاط من كفر عن رتبة الخطاب ، وليس المراد إحداث الكفر بعد الإيمان ، بل ما يعم الاستمرار عليه أيضا ، كأنه قيل فمن اتصف بالكفر بعد ذلك خلا أنه قصد بإيراد ما يدل على الحدوث بيان ترقيهم فى مراتب الكفر ، فإن الاتصاف بشىء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث ﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ أى وسط الطريق الواضح ضلالا بينا ، وأخطأه خطأ فاحشا ، لا عذر معه أصلا ، بخلاف من كفر قبل ذلك ، إذ ربما يمكن أن يكون له شبهة ، ويتوهم له معذرة

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ الباء سببية ، وما مزيدة لتأكيد الكلام وتمكينه فى النفس ، أى بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لا بشىء آخر استقلالا أو انضماما ﴿ لعناهم ﴾ طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ، أو مسخناهم قردة وخنازير ، أو أذللناهم بضرب الجزية عليهم . وتخصيص البيان بما ذكر مع أن حقه أن يبين بعد بيان تحقق نفس اللعن والنقض بأن يقال مثلا فنقضوا ميثاقهم فلعناهم ضرورة تقدم هيئة الشىء البسيطة على هيئته المركبة للإيذان بأن تحققهما أمر

جلى غنى عن البيان ، وإنما المحتاج إلى ذلك ما بينهما من السببية والمسببية ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ بحيث لا تتأثر من الآيات والنذر ، وقيل أملينا لهم ولم نعاجلهم بالعقوبة حتى قست ، أو خذلناهم ومنعناهم الألطاف حتى صارت كذلك وقرىء قسية ، وهي إما مبالغة قاسية ، وإما بمعنى رديئة ، من قولهم درهم قسى ، أى ردىء ، إذا كان مغشوشا له يبس وخشونة ، وقرىء بكسر القاف إتباعا لها بالسين ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ استئناف لبيان مرتبة قساوة قلوبهم فإنه لا مرتبة أعظم مما يصحح الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل والافتراء عليه ، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار ، وقيل حال من مفعول لعناهم ﴿ ونسوا حظا ﴾ أي تركوا نصيبا وافرا ﴿ مما ذكروا به ﴾ من التوراة ومن اتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، وقيل حرفوا التوراة وزلت أشياء منها عن حفظهم ، وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴾ أى خيانة على أنها مصدر كلاغية وكاذبة أو فعلة خائنة ، أى ذات خيانة ، أو طائفة خائنة ، أو شخص خائنة ، على أن التاء للمبالغة ، أو نفس خائنة ، ومنهم متعلق بمحذوف وقع صفة لها ، خلا أن من على الوجهين الأولين ابتدائية أى على خيانة أو على فعلة خائنة كائنة منهم صادرة عنهم ، وعلى الوجوه الباقية تبعيضية ، والمعنى أن الغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولأسلافهم بحيث لا يكادون يتركونها ويكتمونها فلا تزال ترى ذلك منهم .

﴿ إلا قليلا منهم ﴾ استثناء من الضمير المجرور فى منهم على الوجوه كلها ، وقيل من خائنة على الوجوه الثلاثة الأخيرة ، والمراد بهم الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه ، وقيل من خائنة على الوجه الثانى ، فالمراد بالقليل الفعل القليل ، ومن ابتدائية كما مر ، أى إلا فعلا قليلا كائنا منهم ﴿ فاعف عنهم واصفح ﴾ أى إن تابوا وآمنوا أو عاهدوا والتزموا الجزية ، وقيل مطلق نسخ بآية السيف ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ تعليل للأمر وحث على الامتثال به وتنبيه على أن العفو على الإطلاق من باب الإحسان .

من قبائح النصارى

﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ﴾ بيان لقبائح النصارى وجناياتهم إثر بيان قبائح اليهود وخياناتهم ، ومن متعلقة بأخذنا ، إذ التقدير وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم ، وتقديم الجار والمجرور للاهتمام به ولأن ذكر حال إحدى الطائفتين مما يوقع فى ذهن السامع أن حال الأخرى ماذا ؟ فكأنه قيل ومن الطائفة الأخرى أيضا أخذنا ميثاقهم ، وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع خبراً لمبتدأ محذوف قامت صفته أو صلته مقامه ، أى ومنهم قوم أخذنا ميثاقهم ، أومن أخذنا ميثاقهم ، وضمير ميثاقهم راجع إلىالموصوف المقدر ، وأما فى الوجه الأجه الأول فراجع إلى الموصول ، وقيل راجع إلى بنى إسرائيل ، أى أخذنا من هؤلاء ميثاق أولئك ، أى مثل ميثاقهم من الإيمان بالله والرسل ، وبما يتفرع على ذلك من أفعل الخير ، وإنما نسب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم دون أن يقال ومن النصارى إيذانا بأنهم فى قولهم نحن أنصار الله بمعزل من الصدق ، وإنما هو تقول محض منهم ، وليسوا من نصرة الله تعالى فى شىء ، أو إظهارا لكمال سوء صنيعهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم ، فإن ادعاءهم لنصرته تعالى يستدعى ثباتهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه ﴿ فنسوا ﴾ عقيب أخذ الميثاق من غير تلعثم ﴿ حظا ﴾ وافرا ﴿ مما ذكروا به ﴾ فى تضاعيف الميثاق من الإيمان بالله تعالى وغير ذلك حسبما مر آنفا ، وقيل هو ما كتب عليهم فى الإنجيل من أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام فتركوه ونبذوه وراء ظهورهم ، واتبعوا أهواءهم فاختلفوا وتفرقوا نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصارا للشيطان ، ﴿ فأغرينا ﴾ أى ألزمنا وألصقنا ، من غرى بالشىء إذا لزمه ولصق به ، وأغراه غيره ، ومنه الغراء وقوله تعالى ﴿ بينهم ﴾ إما ظرف لأغرينا أو متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله ، أى أغرينا ﴿ العداوة والبغضاء ﴾ كائنة بينهم ، ولا سبيل إلى جعله ظرفا لهما ، لأن المصدر لا يعمل فيما قبله وقوله تعالى ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ إما غاية للإغراء أو

للعداوة والبغضاء ، أى يتعادون ويتباغضون إلى يوم القيامة حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة وآراؤهم الزائغة المؤدية إلى التفرق إلى الفرق الثلاث ، فضمير بينهم لهم خاصة ، وقيل لهم ولليهود ، أى أغرينا العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى ﴿ وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ وعيد شديد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت ، أى يجازيهم بما عملوه على الاستمرار من نقض الميثاق ونسيان الحظ الوافر مما ذكروا به ، وسوف لتأكيد الوعيد ، والالتفات إلى ذكر الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة لتشديد الوعيد ، والتعبير عن العمل بالصنع للإيذان برسوخهم فى ذلك ، وعن المجازاة بالتنبئة للتنبيه على أنهم لايعلمون حقيقة ما يعملونه من الأعمال السيئة واستتباعها للعذاب ، فيكون ترتيب العذاب عليها فى إفادة العلم بحقيقة حالها بمنزلة الإخبار بها .

دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام

﴿ يا أهل الكتاب ﴾ التفات إلى خطاب الفريقين على أن الكتاب جنس شامل للتوراة والإنجيل إثر بيان أحوالهما من الخيانة وغيرها من فنون القبائح ودعوة لهم إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن وإيرادهم بعنوان أهلية الكتاب لانطواء الكلام المصدر به على ما يتعلق بالكتاب وللمبالغة فى التشنيع ، فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام، وقد فعلوا من الكتم والتحريف مافعلوا وهم يعلمون ﴿ قد جاءكم رسولنا ﴾ الإضافة للتشريف ، والإيذان بوجوب اتباعه وقوله تعالى ﴿ يبين لكم ﴾ حال من رسولنا وإيثار الجملة الفعلية على غيرها للدلالة على تجدد البيان ، أى قد جاءكم رسولنا حال كونه مبينا لكم على التدريج حسبما تقتضيه المصلحة ﴿ كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾ أى التوراة والإنجيل كبعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، وآية الرجم فى التوراة وبشارة عيسى بأحمد عليهما السلام فى الإنجيل وتأخير كثيرا عن الجار والمجرور لما مر

مرارا من إظهار العناية بالمقدم ، لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر لأن ما حقه التقديم إذا أخر لاسيما مع الإشعار بكونه من منافع المخاطب تبقى النفس مترقبة إلى وروده ، فيتمكن عندها إذا ورد فضل تمكن ، ولأن فى المؤخر ضرب تفصيل ربما يخل تقديمه بتجاذب أطراف النظم الكريم ، فإن مما متعلق بمحذوف وقع صفة لكثيرا ، وماموصولة اسمية وما بعدها صلتها ، والعائد إليها محذوف ، ومن الكتاب متعلق بمحذوف هو حال من العائد المحذوف ، والجمع بين صفتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرارهم على الكتم والإخفاء ، أى يبين لكم كثيرا من الذى تخفونه على الاستمرار حال كونه من الكتاب الذى أنتم أهله ، والمتمسكون به ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ أى ولا يظهر كثيراً مما تخفونه ، إذا لم تدع إليه داعية دينية صيانة لكم زيادة الافتضاح كما يفصح عنه التعبير عن عدم الإظهار بالعفو ، وفيه حث لهم على عدم الإخفاء ترغيبا وترهيبا ، والجملة معطوفة على الجملة الحالية داخلة فى حكمها ، وقيل يعفو عن كثير منكم ولا يؤاخذه ، وقوله تعالى :

﴿ قد جاءكم من الله نور ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان أن فائدة مجىء الرسول ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفوه ، بل له منافع لا تحصى ، ومن الله متعلق بجاء ، ومن لابتداء الغاية مجازا ، أو بمحذوف وقع حالا من نور ، وأياً ما كان فهو تصريح بما يشعر به إضافة الرسول من مجيئه من جنابه عز وجل ، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون المجىء من جهته العالية ، والتشويق إلى الجائى . ولأن فيه نوع تطويل يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم ، كما فى قوله تعالى (وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) وتنوين نور للتفخيم ، والمراد به وبقوله تعالى ﴿ وكتاب مبين ﴾ القرآن ، لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك وإبانة ما خفى على الناس من الحق والإعجاز البين ، والعطف لتنزيل المغايرة بالعنوان منزلة المغايرة بالذات ، وقيل المراد بالأول هو الرسول عليه الصلاة والسلام وبالثانى القرآن ﴿ يهدى به الله ﴾ توحيد الضمير المجرور لاتحاد المرجع بالذات

أو لكونهما فى حكم الواحد أو أريد يهدى بما ذكر وتقديم الجار والمجرور للاهتمام ، وإظهار الجلالة لإظهار كمال الاعتناء بأمر الهداية ، ومحل الجملة الرفع على أنها صفة ثانية لكتاب ، أو النصب على الحالية منه لتخصصه بالصفة ﴿ من اتبع رضوانه ﴾ أى رضاه بالإيمان به ، ومن موصولة أو موصوفة ﴿ سبل السلام ﴾ أى طرق السلامة من العذاب والنجاة من العقاب ، أو سبل الله تعالى وهى شريعته التى شرعها للناس ، قيل هو مفعول ثان ليهدى ، والحق أن انتصابه بنزع الخافض على طريقة قوله تعالى (واختار موسى قومه) وإنما يعدى إلى الثانى بإلى أو باللام كما فى قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) ﴿ ويخرجهم ﴾ الضمير لمن ، والجمع باعتبار المعنى كما أن الإفراد فى اتبع باعتبار اللفظ ﴿ من الظلمات ﴾ أى ظلمات فنون الكفر والضلال ﴿ إلى النور ﴾ إلى الإيمان ﴿ بإذنه ﴾ بتيسيره أو بإرادته ﴿ ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ هو أقرب الطرق إلى الله تعالى ، ومؤد إليه لا محالة ، وهذه الهداية عين الهداية إلى سبل السلام ، وإنما عطفت عليها تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) .

كفر النصارى

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ أى لا غير ، كما يقال الكرم هو التقوى ، وهم اليعقوبية القائلون بأنه تعالى قد يحل فى بدن إنسان معين ، أو فى روحه ، وقيل لم يصرح به أحد منهم ، لكن حيث اعتقدوا اتصافه بصفات الله الخاصة وقد اعترفوا بأن الله تعالى موجود ، فلزمهم القول بأنه المسيح لا غير ، وقيل لما زعموا أن فيه لاهوتا وقالوا لا إله إلا واحد ، لزمهم أن يكون هو المسيح ، فنسب إليهم لازم قولهم توضيحا لجهلهم، وتفضيحا لمعتقدهم ﴿ قل ﴾ أى تبكيتا لهم وإظهاراً لبطلان قولهم الفاسد وإلقاما لهم الحجر والفاء فى قوله تعالى ﴿فمن يملك من الله شيئا ﴾ فصيحة ، ومن استفهامية

للإنكار والتوبيخ ، والملك الضبط والحفظ التام عن حزم ، ومن متعلقة به على حذف المضاف ، أى إن كان الأمر كما تزعمون فمن يمنع من قدرته تعالى وإرادته شيئا وحقيقته فمن يستطيع أن يمسك شيئا منهما ﴿ إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ﴾ .

ومن حق من يكون إلهاً ألا يتعلق به ولا بشأن من شئونه ، بل بشيء من الموجودات قدرة غيره بوجه من الوجوه ، فضلا عن أن يعجز عن دفع شيء منها عند تعلقها بهلاكه ، فلما كان عجزه بينا لا ريب فيه ظهر كونه بمعزل عما تقولوا فى حقه . والمراد بالإهلاك الإماتة والإعدام مطلقا ، لا بطريق السخط والغضب ، وإظهار المسيح على الوجه الذى نسبوا إليه الألوهية فى مقام الإضمار لزيادة التقرير ، والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره وملكوته تعالى ونفى المالكية المذكورة بالاستفهام الإنكارى عن كل أحد مع تحقق الإلزام والتبكيت بنفيها عن المسيح فقط ، بأن يقال فهل يملك شيئاً من الله إن أراد الخ لتحقيق الحق بنفى الألوهية عن كل ماعداه سبحانه . وإثبات المطلوب فى ضمنه بالطريق البرهانى ، فإن انتفاء المالكية المستلزم لاستحالة الألوهية متى ظهر بالنسبة إلى الكل ظهر بالنسبة إلى المسيح على أبلغ وجه وآكده فيظهر استحالة ألوهيته قطعا وتعميم إرادة الإهلاك للكل مع حصول ما ذكر من التحقق بقصرها عليه ، بأن يقال فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ، لتهويل الخطب وإظهار كمال العجز ببيان أن الكل تحت قهرة تعالى وملكوته ، لا يقدر أحد على دفع ما أريد به فضلا عن دفع ما أريد بغيره ، وللإيذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات فى كونه عرضة للهلاك كما أنه أسوة لها فيما ذكر من العجز وعدم استحقاق الألوهية ، وتخصيص أمه بالذكر مع اندراجها فى ضمن من فى الأرض لزيادة تأكيد عجز المسيح ، ولعل نظمها فى سلك من فرض إرادة إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام ، بجعل حالها أنموذجا لحال بقية من فرض

إهلاكه ، كأنه قيل : قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن فى الأرض ، وقد أهلك أمه فهل مانعه أحد ، فكذا حال من عداها من الموجودين وقوله تعالى ﴿ والله ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى ما بين قطرى العالم الجسمانى لا بين وجه الأرض ومقعر فلك القمر فقط، فيتناول ما فى السموات من الملائكة عليهم السلام وما فى أعماق الأرض والبحار من المخلوقات تنصيص على كون الكل تحت قهره تعالى وملكوته إثر الإشارة إلى كون البعض أى من فى الأرض كذلك ، أى له تعالى وحده ملك جميع الموجودات والتصرف المطلق فيها إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة لا لأحد سواه استقلالا ، ولا اشتراكا فهو تحقيق لاختصاص الألوهية به تعالى إثر بيان انتفائها عن كل ما سواه .

وقوله تعالى ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبهة فى أمر المسيح لولادته من غير أب ، وخلق الطير وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، أى يخلق ما يشاء من أنواع الخلق والإيجاد على أن ما نكرة موصوفة محلها النصب على المصدرية ، لا على المفعولية ، كأنه قيل يخلق أى خلق يشاؤه فتارة يخلق من غير أصل كخلق السموات والأرض ، وأخرى من أصل كخلق ما بينهما ، فينشىء من أصل ليس من جنسه كخلق آدم وكثير من الحيوانات ، ومن أصل يجانسه إما من ذكر وحده كخلق حواء أو أنثى وحدها ، كخلق عيسى عليه السلام ، أو منهما كخلق سائر الناس ، ويخلق بلا توسط شىء من المخلوقات كخلق عامة المخلوقات وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر كخلق الطير على يد عيسى عليه السلام معجزة له وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك فيجب أن ينسب كله إليه تعالى لا إلى من أجرى ذلك على يده ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله ، وإظهار الاسم الجليل للتعليل وتقوية استقلال الجملة .

دعاوى باطلة

﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة وبيان لبطلانها بعد ذكر ما صدر عن أحدهما وبيان بطلانه أى قالت اليهود نحن أشياع ابنه عزير وقالت النصارى نحن أشياع ابنه المسيح ، كما قيل لأشياع أبى خبيب وهو عبد الله بن الزبير الخبيبيون ، وكما يقول أقارب الملوك عند المفاخرة نحن الملوك ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إن النبى عليه الصلاة والسلام دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام وخوفهم بعقاب الله تعالى فقالوا كيف تخوفنا به ونحن أبناء الله وأحباؤه وقيل إن النصارى يتلون فى الإنجيل أن المسيح قال لهم إنى ذهب إلى أبى وأبيكم ، وقيل أرادوا أن الله تعالى كالأب لنا فى الحنو والعطف ، ونحن كالأبناء له فى القرب والمنزلة ، وبالجملة أنهم كانوا يدعون أن لهم فضلا ومزيدية عند الله تعالى على سائر الخلق ، فرد عليهم ذلك ، وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ قل ﴾ إلزاما لهم وتبكيتا ﴿ فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ أى إن صح ما زعمتم فلأى شىء يعذبكم فى الدنيا بالقتل والأسر والمسخ ، وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم فى الآخرة بالنار أياما بعدد أيام عبادتكم العجل ، ولو كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ، ولما وقع عليكم ما وقع ، وقوله تعالى ﴿ بل أنتم بشر ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ، أى لستم كذلك بل أنتم بشر ﴿ ممن خلق ﴾ أى من جنس من خلقه الله تعالى من غير مزية لكم عليهم ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ أن يغفر له من أولئك المخلوقين ، وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ أن يعذبه منهم ، وهم الذين كفروا به وبرسله مثلكم ﴿ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ من الموجودات لا ينتمى إليه سبحانه شىء منها إلا بالمملوكية والعبودية والمقهورية تحت ملكوته ، يتصرف فيهم كيف يشاء إيجادا وإعداما ، إحياء وإماتة ، وإثابة وتعذيبا ، فأنى لهم ادعاء ما زعموا ﴿ وإليه المصير ﴾ فى الآخرة خاصة لا إلى غيره استقلالا أو

اشتراكا فيجازى كلا من المحسن والمسيء بما يستدعيه عمله من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ تكرير للخطاب بطريق الالتفات ولطف فى الدعوة ﴿ قد جاءكم رسولنا يبين لكم ﴾ حال من رسولنا ، وإيثاره على مبينا لما مر فيما سبق ، أى يبين لكم الشرائع والأحكام الدينية المقرونة بالوعد والوعيد ، ومن جملتها ما بين فى الآيات السابقة من بطلان أقاويلكم الشنعاء ، وما سيأتى من أخبار الأمم السالفة ، وإنما حذف تعويلا على ظهور أن مجيء الرسول إنما هو لبيانها ، أو يفعل لكم البيان ، ويبذله لكم فى كل ما تحتاجون فيه إلى البيان من أمور الدين ، وأما تقدير مثل ما سبق فى قوله تعالى ﴿ كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾ كما قيل فمع كونه تكريرا من غير فائدة ، يرده قوله عز وجل ﴿ على فترة من الرسل ﴾ فإن فتور الإرسال وانقطاع الوحى إنما يحوج إلى بيان الشرائع والأحكام لا إلى بيان ما كتموه وعلى فترة متعلق بجاءكم على الظرفية كما فى قوله تعالى (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان) أى جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحى ، ومزيد احتياج إلى بيان الشرائع والأحكام الدينية ، أو بمحذوف وقع حالا من ضمير يبين ، أو من ضمير لكم ، أى يبين لكم ما ذكر حال كونه على فترة من الرسل ، أو حال كونكم عليها أحوج ما كنتم إلى البيان ، ومن الرسل متعلق بمحذوف وقع صفة لفترة ، أى كائنة من الرسل مبتدأة من جهتهم .

قوله تعالى ﴿ أن تقولوا ﴾ تعليل لمجيء الرسول بالبيان على حذف المضاف أى كراهة أن تقولوا معتذرين عن تفريطكم فى مراعاة أحكام الدين ﴿ ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ وقد انطمست آثار الشرائع السابقة ، وانقطعت أخبارها وزيادة من فى الفاعل للمبالغة فى نفى المجيء ، وتنكير بشير ونذير للتقليل ، وهذا كما ترى يقتضى أن المقدر أو المنوى فيما سبق هو الشرائع والأحكام لا كيفما كانت ، بل مشفوعة بما ذكر من الوعد والوعيد وقوله تعالى ﴿ فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ متعلق بمحذوف ينبىء عنه الفاء الفصيحة وتبين أنه معلل به وتنوين بشير ونذير للتفخيم أى لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم بشير أى بشير

ونذير أى نذير ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ فيقدر على الإرسال تترى كما فعله بين موسى وعيسى عليهما السلام حيث كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألف نبى وعلى الإرسال بعد الفترة كما فعله بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، حيث كان بينهما ستمائة سنة أوخمسمائة وتسع وستون سنة أوخمسمائة وست وأربعون سنة وأربعة أنبياء على ما روى الكلبي ثلاثة من بنى إسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسى ، وقيل لم يكن بعد عيسى عليه السلام إلا رسول الله عليه السلام وهو الأنسب بما فى تنوين فترة من التفخيم اللائق بمقام الامتنان عليهم بأن الرسول قد بعث إليهم عند كمال حاجتهم إليه بسبب مضى زمان طويل بعد انقطاع الوحى ليهشوا إليه ويعدوه أعظم نعمة من الله تعالى ، وفتح باب إلى الرحمة ، وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم من غفلتهم .

اليهود ينقضون الميثاق

﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان مافعلت بنو إسرائيل بعد أخذ الميثاق منهم ، وتفصيل كيفية نقضهم له وتعلقه بما قبله ، من حيث أن ما ذكر فيه من الأمور التى وصف النبي عليه السلام بيانها ، ومن حيث اشتماله على انتفاء فترة الرسل فيما بينهم ، وإذ نصب على أنه مفعول لفعل مقدرخوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق تلوين الخطاب ، وصرفه عن أهل الكتاب ليعدد عليهم ما صدر عن بعضهم من الجنايات . أى واذكر لهم وقت قول موسى لقومه ناصحا لهم ومستميلا لهم بإضافتهم إليه ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها ، لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ، ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه تفصيلا ، فإذا استحضر كان ما وقع فيه حاضراً بتفاصيله ، كأنه مشاهد عيانا ، وعليكم متعلق بنفس النعمة إذا جعلت مصدراً ، وبمحذوف

وقع حالا منها إذا جعلت اسما ، أى اذكروا إنعامه عليكم ، وكذا إذ فى قوله تعالى ﴿ إذ جعل فيكم أنبياء ﴾ أى اذكروا إنعامه تعالى عليكم فى وقت جعله أو اذكروا نعمته تعالى كائنة عليكم فى وقت جعله فيما بينكم من أقربائكم أنبياء ذوى عدد كثير وأولى شأن خطير ، حيث لم يبعث من أمة من الأمم ما بعث من بنى إسرائيل من الأنبياء ﴿ وجعلكم ملوكا ﴾ عطف على جعل فيكم أو منكم ملوكا كثيرة ، فإنه قد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء ، وإنما حذف الظرف تعويلا على ظهور الأمر أو جعل الكل فى مقام الامتنان عليهم ملوكا ، لما أن أقارب الملوك يقولون عند المفاخرة نحن الملوك ، وإنما لم يسلك ذلك المسلك فيما قبله لما أن منصب النبوة من عظم الخطر وعزة المطلب وصعوبة المنال ليس بحيث يليق أن ينسب إليه ولو مجازاً من ليس ممن اصطفاه الله تعالى له . وقيل كانوا مملوكين فى أيدى القبط فأنقذهم الله تعالى فسمى إنقاذهم ملكا ، وقيل الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار ، وقيل من له بيت وخدم ، وقيل من له مال لا يحتاج معه إلى تكلف الأعمال وتحمل المشاق ﴿ وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين ﴾ من فلق البحر وإغراق العدو وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك مما آتاهم الله تعالى من الأمور العظام ، والمراد بالعالمين الأمم الخالية إلى زمانهم وقيل من عالمى زمانهم .

﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴾ كرر النداء بالإضافة التشريفية اهتماما بشأن الأمر ومبالغة فى حثهم على الامتثال به والأرض هى أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين . وقيل هى الطور وما حوله ، وقيل دمشق وفلسطين وبعض الأردن ، وقيل هى الشام ﴿ التى كتب الله لكم ﴾ أى كتب فى اللوح المحفوظ أنها تكون مسكنا لكم إن آمنتم وأطعتم لقوله تعالى لهم بعد ما عصوا (فإنها محرمة عليهم) وقوله تعالى ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ فإن ترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط الكتب بالمجاهدة المترتبة على الإيمان والطاعة

قطعا ، أى لا ترجعوا مدبرين خوفا من الجبابرة فالجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ترتدوا ، ويجوز أن يتعلق بنفس الفعل ، قيل لما سمعوا أحوالهم من النقباء بكوا وقالوا : ياليتنا متنا بمصر ، تعالوا نجعل لنا رأسا ينصرف بنا إلى مصر ، أو لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق بالله تعالى ، وقوله ﴿ فتنقلبوا ﴾ إما مجزوم عطفا على ترتدوا ، أو منصوب على جواب النهى ، والخسران خسران الدين والدنيا لا سيما دخول ما كتب لهم .

﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى نشأ من مساق الكلام كأنه قيل : فماذا قالوا بمقابلة أمره عليه السلام ونهيه ، فقيل : قالوا غير ممتثلين بذلك ﴿ يا موسى إن فيها قوما جبارين ﴾ متغلبين لا يتأتى منازعتهم ولا يتسنى مناصبتهم . والجبار العاتى الذى يجبر الناس ويقسرهم كائنا من كان على ما يريده كائنا ما كان ، فعال من جبره على الأمر أى أجبره عليه ﴿ وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ﴾ من غير صنع من قبلنا ، فإنه لا طاقة لنا بإخراجهم منها ﴿ فإن يخرجوا منها ﴾ بسبب من الأسباب التى لا تعلق لنا بها ﴿ فإنا داخلون ﴾ حينئذ ، أتوا بهذه الشرطية مع كون مضمونها مفهوما مما سبق من توقيت عدم الدخول بخروجهم منها تصريحا بالمقصود وتنصيصا على أن امتناعهم من دخولها ليس إلا لمكانهم فيها ، وأتوا فى الجزاء بالجملة الاسمية المصدرة بحرف التحقيق دلالة على تقرر الدخول وثباته عند تحقق الشرط لا محالة . وإظهاراً لكمال الرغبة فيه ، وفى الامتثال بالأمر .

﴿ قال رجلان ﴾ استئناف كما سبق كأنه قيل : هل اتفقوا على ذلك أو خالفهم البعض ؟ فقيل : قال رجلان ﴿ من الذين يخافون ﴾ أى يخافون الله تعالى دون العدو ويتقونه فى مخالفة أمره ونهيه ، وبه قرأ ابن مسعود ، وفيه تعريض بأن من عداهما لا يخافونه تعالى . بل يخافون العدو . وقيل من الذين يخافون العدو أى منهم فى النسب لا فى الخوف ، وهما يوشع بن نون وكالب ابن يوقنا من النقباء ، وقيل هما رجلان من الجبابرة أسلما وسارا إلى موسى عليه

السلام ، قالوا حينئذ لبني اسرائيل ، والموصول عبارة عن الجبابرة ، وإليهم يعود العائد المحذوف ، أي من الذين يخافهم بنو إسرائيل ويعضده قراءة من قرأ يخافون على صيغة المبني للمفعول أي المخوفين ، وعلى الأول يكون هذا من الإخافة أي من الذين يخوفون من الله تعالى بالتذكير أو يخوفهم الوعيد ﴿ أنعم الله عليهما ﴾ أي بالتثبيت وربط الجأش والوقوف على شئونه تعالى والثقة بوعده ، أو بالإيمان وهو صفة ثانية لرجلان ، أو اعتراض ، وقيل : حال من الضمير في يخافون أو من رجلان لتخصصه بالصفة ، أي قالا مخاطبين لهم ومشجعين ﴿ ادخلوا عليهم الباب ﴾ أي باب بلدهم وتقديم الجار والمجرور عليه للاهتمام به لأن المقصود إنما هو دخول الباب وهم في بلدهم أي باغتوهم وضاغطوهم في المضيق وامنعوهم من البروز إلى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالا ﴿ فإذا دخلتموه ﴾ أي باب بلدهم وهم فيه ﴿ فإنكم غالبون ﴾ من غير حاجة إلى القتال فإنا قد رأيناهم وشاهدنا أن قلوبهم ضعيفة ، وإن كانت أجسادهم عظيمة ، فلا تخشوهم واهجموا عليهم في المضايق فإنهم لا يقدرون فيها على الكر والفر . وقيل : إنما حكما بالغلبة لما علماها من جهة موسى عليه السلام ومن قوله تعالى (كتب الله لكم) أو لما علما من سنته تعالى في نصره رسله وما عهدا من صنعه تعالى لموسى عليه السلام من قهر أعدائه ، والأول أنسب بتعليق الغلبة بالدخول .

﴿ وعلى الله ﴾ تعالى خاصة ﴿ فتوكلوا ﴾ بعد ترتيب الأسباب ولا تعتمدوا عليها فإنها بمعزل من التأثير ، وإنما التأثير من عند الله العزيز القدير ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي مؤمنين به تعالى مصدقين لوعده فإن ذلك مما يوجب التوكل عليه حتما ﴿ قالوا ﴾ استئناف كما سبق أي قالوا غير مبالين بهما وبمقالتهما مخاطبين لموسى عليه السلام إظهارا لإصرارهم على القول الأول وتصريحا بمخالفتهم له عليه السلام ﴿ ياموسى إنا لن ندخلها ﴾ أي أرض الجبابرة فضلا عن دخول بابهم وهم في بلدهم ﴿ أبدا ﴾ أي دهرا طويلا ﴿ ما داموا فيها ﴾ أي في أرضهم وهو بدل من أبدا بدل البعض أو عطف بيان ﴿ فاذهب ﴾ الفاء

فصيحة أى فإذا كان الأمر كذلك فاذهب ﴿ أنت وربك فقاتلا ﴾ أى فقاتلاهم إنما قالوا ذلك استهانة واستهزاء به سبحانه وبرسوله ، وعدم مبالاة بهما ، وقصدوا ذهابهما حقيقة كما ينبىء عنه غاية جهلهم وقسوة قلوبهم ، وقيل أرادوا إرادتهما وقصدهما كما تقول : كلمته فذهب يجيبنى ، كأنهم قالوا فأريدا قتالهم واقصداهم . وقيل : التقدير فاذهب أنت وربك يعينك ، ولا يساعده قوله تعالى ﴿ فقاتلا ﴾ ولم يذكروا هرون ولا الرجلين كأنهم لم يجزموا بذهابهم أو لم يعبأوا بقتالهم وقوله تعالى ﴿ إنا ههنا قاعدون ﴾ يؤيد الوجه الأول وأرادوا بذلك عدم التقدم لا عدم التأخر .

﴿ قال ﴾ عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العناد على طريقة البث والحزن والشكوى إلى الله تعالى مع رقة القلب التى بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة ﴿ رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ﴾ عطف على نفسى وقيل على الضمير فى إنى على معنى إنى لا أملك إلا نفسى وإن أخى لا يملك إلا نفسه وقيل على الضمير فى لا أملك للفصل ﴿ فافرق بيننا ﴾ يريد نفسه وأخاه والفاء لترتيب الفرق أو الدعاء به على ما قبله ﴿ وبين القوم الفاسقين ﴾ الخارجين عن طاعتك المصرين على عصيانك بأن تحكم لنا بما نستحقه وعليهم بما يستحقونه وقيل بالتبعيد بيننا وبينهم وتخليصنا من صحبتهم .

﴿ قال فإنها ﴾ أى الأرض المقدسة والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الدعاء ﴿ محرمة عليهم ﴾ تحريم منع لا تحريم تعبد لا يدخلونها ولا يملكونها لأن كتابتها لهم كانت مشروطة بالإيمان والجهاد وحيث نكصوا على أدبارهم حرموا ذلك وانقلبوا خاسرين وقوله تعالى ﴿ أربعين سنة ﴾ إن جعل ظرفا لمحرمة يكون التحريم مؤقتا لا مؤبدا ، فلا يكون مخالفا لظاهر قوله تعالى (كتب الله لكم) فالمراد بتحريمها عليهم أنه لا يدخلها أحد منهم فى هذه المدة لكن لا بمعنى أن كلهم يدخلونها بعدها بل بعضهم بقى حسبما روى أن موسى عليه السلام سار بمن بقى من بنى إسرائيل إلى أريحا ، وكان يوشع بن نون على مقدمته ففتحها وأقام بها ما شاء الله تعالى ثم قبضه عليه السلام ، وقيل لم يدخلها

أحد ممن قال لن ندخلها أبدا ، وإنما دخلها مع موسى عليه السلام مع النواشىء من ذرياتهم ، فالمؤقت بالأربعين فى الحقيقة تحريمها على ذرياتهم ، وإنما جعل تحريمها عليهم لما بينهما من العلاقة التامة المتاخمة للاتحاد وقوله تعالى ﴿ يتيهون فى الأرض ﴾ أى يتحيرون فى البرية استئناف لبيان كيفية حرمانهم ، أو حال من ضمير عليهم ، وقيل الظرف متعلق بيتيهون فيكون التيه مؤقتا والتحريم مطلقا ، قيل كانوا ستمائة ألف مقاتل ، وكان طول البرية تسعين فرسخا ، وقد تاهوا فى ستة فراسخ أو تسعة فراسخ فى ثلاثين فرسخا ، وقيل فى ستة فراسخ فى اثنى عشر فرسخا .

روى أنهم كانوا كل يوم يسيرون جادين حتى إذا أمسوا إذا هم بحيث ارتحلوا ، وكان الغمام يظلهم من حر الشمس ويطلع بالليل عمود من نور يضىء لهم ، وينزل عليهم المن والسلوى ، ولا تطول شعورهم وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله ، وهذه الإنعامات عليهم مع أنهم معاقبون لما أن عقابهم كان بطريق العراك والتأديب . قيل كان موسى وهرون معهم ولكن كان ذلك لهما روحا وسلامة كالنار لإبراهيم وملائكة العذاب عليهم السلام ، وروى أن هرون مات فى التيه ومات موسى بعده فيه بسنة ودخل يوشع أريحا بعد موته بثلاثة أشهر ، ولا يساعده ظاهر النظم الكريم ، فإنه تعالى بعد ما أقبل على بنى إسرائيل وعذبهم بالتيه بعيد أن ينجى بعض المدعو عليهم أو ذراريهم ويقدر وفاتهما فى محل العقوبة ظاهرا ،وإن كان ذلك لهما منزل روح وراحة وقد قيل إنهما لم يكونا معهم فى التيه وهو الأنسب بتفسير الفرق بالمباعدة ، ومن قال بأنهما كانا معهم فيه فقد فسر الفرق بما ذكر من الحكم بما يستحقه كل فريق .

﴿ فلا تأس ﴾ فلا تحزن ﴿ على القوم الفاسقين ﴾ روى أنه عليه السلام ندم على دعائه عليهم فقيل لا تندم ولا تحزن فإنهم أحقاء بذلك لفسقهم .

﴿ واتل عليهم ﴾ عطف على مقدر تعلق به قوله تعالى (وإذ قال موسى) الخ وتعلقه به من حيث أنه تمهيد لما سيأتى من جنايات بنى إسرائيل بعد ما كتب

عليهم ما كتب وجاءتهم الرسل بما جاءت به من البينات ﴿ نبأ ابنى آدم ﴾ هما قابيل وهابيل ، ونقل عن الحسن والضحاك أنهما رجلان من بنى إسرائيل بقرينة آخر القصة وليس كذلك . أوحى الله عز وجل إلى آدم أن يزوج كلا منهما توأمة الآخر وكانت توأمة قابيل أجمل واسمها إقليما لحسده عليها أخاه وسخط وزعم أن ذلك ليس من عند الله تعالى بل من جهة آدم عليه السلام فقال لهما عليه السلام قربا قربانا فمن أيكما قبل تزوجها ففعلا فنزلت نارعلى قربان هابيل فأكلته ولم تتعرض لقربان قابيل ، فازداد هابيل حسدا وسخطا وفعل ما فعل ﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر محذوف ، أى تلاوة ملتبسة بالحق والصحة ، أو حالا من فاعل اتل أو من مفعوله ، أى ملتبسا أنت أو [اتل][1] نبأهما بالحق والصدق حسبما تقرر فى كتب الأولين ﴿ إذ قربا قربانا ﴾ منصوب بالنبأ ظرف له أى اتل قصتهما ونبأهما فى ذلك الوقت ، وقيل بدل منه على حذف المضاف أى اتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت ، ورد عليه بأن إذ لا يضاف إليها غير الزمان كوقتئذ وحينئذ والقربان اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من نسك أو صدقة كالحلوان اسم لما يحلى أى يعطى ، وتوحيده لما أنه فى الأصل مصدر ، وقيل تقديره إذ قرب كل منهما قربانا ﴿ فتقبل من أحدهما ﴾ هو هابيل قيل كان هو صاحب ضرع وقرب جملا سمينا فنزلت نار فأكلته ﴿ ولم يتقبل من الآخر ﴾ هو قابيل ، قيل كان هو صاحب زرع وقرب أردأ ما عنده من القمح فلم تتعرض له النار أصلا .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل : فماذا قال من لم يتقبل قربانه ؟ فقيل : قال لأخيه لتضاعف سخطه وحسده لما ظهر فضله عليه عند الله عز وجل ﴿ لأقتلنك ﴾ أى والله لأقتلنك بالنون المشددة وقرىء بالمخففة ﴿ قال ﴾ استئناف كما قبله أى قال الذى تقبل قربانه لما رأى أن حسده لقبول قربانه وعدم قبول قربان نفسه ﴿ إنما يتقبل الله ﴾ أى القربان

---

(١) سقطت من ط .

﴿من المتقين﴾ لا من غيرهم ، وإنما تقبل قربانى ورد قربانك لما فينا من التقوى وعدمه ، أى إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلى فلم تقتلنى ، خلا أنه لم يصرح بذلك بل سلك مسلك التعريض حذار من تهييج غضبه وحملا له على التقوى والإقلاع عما نواه ولذلك أسند الفعل إلى الاسم الجليل لتربية المهابة ، ثم صرح بتقواه على وجه يستدعى سكون غيظه لو كان له عقل وازع حيث قال بطريق التوكيد ﴿لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك﴾ حيث صدر الشرطية باللام الموطئة للقسم وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح إيذانا من أول الأمر برجوع ضرر البسط وغائلته إليه ، ولم يجعل جواب القسم السادّ مسدّ جواب الشرط جملة فعلية موافقة لما فى الشرط بل اسمية مصدرة بما الحجازية المفيدة لتأكيد النفى بما فى خبرها من الباء للمبالغة فى إظهار براءته عن بسط اليد ببيان استمراره على نفى البسط كما فى قوله تعالى (وماهم بمؤمنين) وقوله (وما هم بخارجين منها) فإن الجملة الاسمية الإيجابية كما تدل بمعونة المقام على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام وذلك باعتبار الدوام والاستمرار بعد اعتبار النفى لا قبله حتى يرد النفى على المقيد بالدوام فيرفع قيده أى والله لئن باشرت قتلى حسبما أوعدتنى به وتحقق ذلك منك ما أنا بفاعل مثله لك فى وقت من الأوقات ثم علل ذلك بقوله :

﴿إنى أخاف الله رب العالمين﴾ وفيه من إرشاد قابيل إلى خشية الله تعالى على أبلغ وجه وآكده ما لا يخفى ، كأنه قال : إنى أخافه تعالى إن بسطت يدى إليك لأقتلك أن يعاقبنى وإن كان ذلك منى لدفع عداوتك عنى فما ظنك بحالك وأنت البادىء العادى ، وفى وصفه تعالى بربوبية العالمين تأكيد للخوف قيل كان هابيل أقوى منه ولكن تحرج عن قتله واستسلم خوفا من الله تعالى لأن القتل للدفع لم يكن مباحا حينئذ ، وقيل تحريا لما هو الأفضل حسبما قال عليه السلام : « كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل » ويأباه التعليل بخوفه تعالى إلا أن يدعى أن ترك الأولى عنده بمنزلة المعصية فى استتباع الغائلة مبالغة فى التنزه وقوله تعالى ﴿إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك﴾ تعليل آخر لامتناعه

عن المعارضة على أنه غرض متأخر عنه كما أن الأول باعث متقدم عليه ، وإنما لم يعطف عليه تنبيها على كفاية كل منهما فى العلية والمعنى إنى أريد باستسلامى لك وامتناعى عن التعرض لك أن ترجع بإثمى أى بمثل إثمى لو بسطت يدى إليك وبإثمك ببسط يدك إلى كما قوله عليه السلام «المستبان ما قالا فعلى البادىء مالم يعتد المظلوم » أى على البادىء عين إثم سبه ومثل سب صاحبه بحكم كونه سببا له ، وقيل معنى بإثمى إثم قتلى ومعنى بإثمك إثمك الذى لأجله لم يتقبل قربانك ، وكلاهما نصب على الحالية أى ترجع ملتبسا بالإثمين حاملا لهما ولعل مراده بالذات إنما هو عدم ملابسته للإثم لا ملابسة أخيه له وقيل المراد بالإثم عقوبته ولا ريب فى جواز إرادة عقوبة العاصى ممن علم أنه لا يرعوى عن المعصية أصلا ويأباه قوله تعالى ﴿فتكون من أصحاب النار﴾ فإن كونه منهم إنما يترتب على رجوعه بالإثمين لا على ابتلائه بعقوبتهما ، وحمل العقوبة على نوع آخر يترتب عليها العقوبة النارية يرده قوله تعالى ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ فإنه صريح فى أن كونه من أصحاب النار تمام العقوبة وكمالها ، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها ، ولقد سلك فى صرفه عما نواه من الشر كل مسلك من العظة والتذكير بالترغيب تارة والترهيب أخرى ، فما أورثه ذلك إلا الإصرار على الغى والانهماك فى الفساد .

﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه ﴾ أى وسعته وسهلته من طاع له المرتع إذا اتسع ، وترتيب التطويع على ما حكى من مقالات هابيل مع تحققه قبلها أيضاً كما يفصح عنه قوله (لأقتلنك) لما أن بقاء الفعل بعد تقرر ما يزيله من الدواعى القوية وإن كان استمراراً عليه بحسب الظاهر ، لكنه فى الحقيقة أمر حادث وصنع جديد ، كما فى قولك وعظته فلم يتعظ ، أو لأن هذه المرتبة من التطويع لم تكن حاصلة قبل ذلك بناء على تردده فى قدرته على القتل لما أنه كان أقوى منه . وإنما حصلت بعد وقوفه على استسلام هابيل وعدم معارضته له، والتصريح بأخوته لكمال تقبيح ما سولته نفسه[1] . وقرىء فطاوعت على أنه فاعل بمعنى

(١) فى ١٠ : ماسولت له نفسه:

فعل ، أو على أن قتل أخيه كأنه دعى نفسه إلى الإقدام عليه فطاوعته ، ولم تمتنع ، وله لزيادة الربط كقولك حفظت لزيد ماله ﴿ فقتله ﴾ قيل لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل ، فتمثل إبليس وأخذ طائراً ووضع رأسه على حجر ثم شدخها بحجر آخــــر فتعلم منه فرضخ رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم لايستعصى عليه ، وقيل اغتاله وهو نائم ، وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة واختلف فى موضع قتله فقيل عند عقبة حراء ، وقيل بالبصرة فى موضع المسجد الأعظم ، وقيل فى جبل بود ، ولما قتله تركه بالعراء لايدرى مايصنع به فخاف عليه السباع فحمله فى جراب على ظهره أربعين يوما ، وقيل سنة ،حتى أروح وعكفت عليه الطيور والسباع تنظر متى يرمى به فتأ كله ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ ديناودنيا .

﴿ فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ﴾ روى أنه تعالى بعث غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفرله بمنقاره ورجليه حفرة فألقاه فيها ، والمستكن فى يريه لله تعالى أو للغراب ، واللام على الأول متعلقة ببعث حتما ، وعلى الثانى بيبحث ، ويجوز تعلقها ببعث أيضاً وكيف حال من ضمير يوارى والجملة ثانى مفعولى يرى ، والمراد بسوءة أخيه جسده الميت ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل : فماذ قال عند مشاهدة حال الغراب ؟ فقيل : قال ﴿ ياويلتى ﴾ هى كلمة جزع وتحسر والألف بدل من ياء المتكلم والمعنى ياويلتى احضرى ، فهذا أوانك والويل والويلة الهلكة ﴿ أعجزت أن أكون ﴾ أى عن أن أكون ﴿ مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ﴾ تعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب وقوله تعالى فأوارى بالنصب عطف على أن أكون ، وقرىء بالرفع أى فأنا أوارى ﴿ فأصبح من النادمين ﴾ أى على قتله لما كابد فيه من التحير فى أمره وحمله على رقبته مدة طويلة . روى أنه لما قتله اسود جسده وكان أبيض ، فسأله آدم عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلا ، قال : بل قتلته ولذلك اسود جسدك ، ومكث آدم بعده مائة سنة لايضحك وقيل : لما قتل قابيل هابيل هرب إلى عدن

من أرض اليمن ، فأتاه إبليس فقال له إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يخدمها ويعبدها ، فإن عبدتها أيضاً حصل مقصودك ، فبنى بيت نار فعبدها وهو أول من عبد النار .

تحريم القتل وجزاؤه

﴿ من أجل ذلك ﴾ شروع فيما هو المقصود من تلاوه النبأ من بيان بعض آخر من جنايات إسرائيل ومعاصيهم وذلك إشارة إلى عظم شأن القتل وإفراط قبحه المفهومين مما ذكر فى تضاعيف القصة من استعظام هابيل له وكمال اجتنابه عن مباشرته ، وإن كان ذلك بطريق الدفع عن نفسه واستسلامه لأن يقتل خوفا من عقابه وبيان استتباعه لتحمل القاتل لإثم المقتول ومن كون قابيل بمباشرته من جملة الخاسرين دينهم ودنياهم ومن ندامته على فعله مع ما فيه من العتو وشدة الشكيمة وقساوة القلب ، والأجل فى الأصل مصدر أجل شراً إذا جناه ، استعمل فى تعليل الجنايات كما فى قولهم من جراك فعلته أى من أن جررته وجنيته ، ثم اتسع فيه واستعمل فى كل تعليل ، وقرىء من إجل بكسر الهمزة وهى لغة فيه ، وقرىء من أجل بحذف الهمزة وإلقاء فتحتها على النون ومن لابتداء الغاية متعلقة بقوله تعالى ﴿ كتبنا على بنى إسرائيل ﴾ وتقديمها عليه للقصر أى من ذلك ابتداء الكتب ومنه نشأ لا من شيء آخر أى قضينا عليهم وبينا ﴿ أنه من قتل نفسا ﴾ واحدة من النفوس ﴿ بغير نفس ﴾ أى بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿ أو فساد فى الأرض ﴾ أى فساد يوجب إهدار دمها وهو عطف على ما أضيف إليه غير على معنى نفى كلا الأمرين ، كما فى قولك من صلى بغير وضوء أو تيمم بطلت صلاته ، لا نفى أحدهما كما فى قولك من صلى بغير وضوء أو ثوب بطلت صلاته ومدار الاستعمالين اعتبار ورود النفى على ما يستفاد من كلمة أو من الترديد بين الأمرين المنبىء عن التخيير والإباحة واعتبار العكس ، ومناط الاعتبارين اختلاف حال ما أضيف إليه غير من الأمرين بحسب اشتراط نقيض الحكم بتحقق أحدهما ، واشتراطه بتحققهما

معاً . ففى الأول يرد النفى على الترديد الواقع بين الأمرين قبل وروده فيفقد نفيهما معا وفى الثانى يرد الترديد على النفى فيفيد نفى أحدهما حتما إذ ليس قبل ورود النفى ترديد حتى يتصور عكسه .

وتوضيحه أن كل حكم شرط بتحقق أحد شيئين مثلا فنقيضه مشروط بانتفائهما معا ، وكل حكم شرط بتحققهما معاً فنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شيء مشروط بنقيض شرطه ، ولاريب فى أن نقيض الإيجاب الجزئى كما فى الحكم الأول هو السلب الكلى . ونقيض الإيجاب الكلى ، كما فى الحكم الثانى هو رفعه المستلزم للسلب الجزئى ، فثبت اشتراط نقيض الأول بانتفائهما معا واشتراط نقيض الثانى بانتفاء أحدهما ، ولما كان الحكم فى قولك من صلى بوضوء أو تيمم صحت صلاته مشروطا بتحقق أحدهما مهما كان نقيضه فى قولك من صلى بغير وضوء أو تيمم بطلت صلاته مشروطا بنقيض الشرط المذكور ألبتة ، وهو انتفاؤهما معا ، فتعين ورود النفى المستفاد من غير على الترديد الواقع بين الوضوء والتيمم بكلمة أو فانتفى تحققهما معا ضرورة عموم النفى الوارد على المبهم ، وعلى هذا يدور ما قالوا إنه إذا قيل جالس العلماء أو الزهاد ثم أدخل عليه لا الناهية امتنع فعل الجميع ، نحو (ولا تطع منهم آثما أو كفوراً) إذ المعنى لا تفعل أحدهما فأيهما فعله فهو أحدهما وأما قولك من صلى بوضوء أو ثوب صحت صلاته فحيث كان الحكم فيه مشروطا بتحقق كلا الأمرين كان نقيضه فى قولك من صلى بغير وضوء أو ثوب بطلت صلاته مشروطا بنقيض الشرط المذكور وهو انتفاء أحدهما فتعين ورود الترديد على النفى فأفاد نفى أحدهما ولا يخفى أن إباحة القتل مشروطة بأحد ما ذكر من القتل والفساد ومن ضرورته اشتراط حرمته بانتفائهما معا فتعين ورود النفى على الترديد لامحالة كأنه قيل من قتل نفسا بغير أحدهما ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ فمن قال فى تفسيره أو بغير فساد فقد أبعد عن توفية النظم الكريم حقه ، وما فى كأنما كافة مهيئة لوقوع الفعل بعدها ، وجميعاً حال الناس أو تأكيد من ، ومناط التشبيه اشتراك الفعلين فى هتك حرمة الدماء

والاستعصاء على الله تعالى وتجسير الناس على القتل وفى استتباع القود واستجلاب غضب الله تعالى وعذابه العظيم .

﴿ ومن أحياها ﴾ أى تسبب لبقاء نفس واحدة موصوفة بعدم ما ذكر من القتل والفساد فى الأرض إما بنهى قاتلها أو استنقاذها من سائر أسباب الهلكة بوجه من الوجوه ﴿ فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ وجه التشبيه ظاهر والمقصود تهويل أمر القتل وتفخيم شأن الإحياء بتصوير كل منهما بصورة لائقة به فى إيجاب الرهبة والرغبة ، ولذلك صدر النظم الكريم بضمير الشأن المنبىء عن كمال شهرته ونباهته وتبادره إلى الأذهان عند ذكر الضمير الموجب لزيادة تقرير ما بعده فى الذهن ، فإن الضمير لايفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده فضل تمكن كأنه قيل إن الشأن الخطير هذا ﴿ ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ﴾ جملة مستقلة غير معطوفة على كتبنا أكدت بالتوكيد القسمى وحرف التحقيق لكمال العناية بتحقق مضمونها وإنما لم يقل ولقد أرسلنا الخ للتصريح بوصول الرسالة إليهم ، فإنه أدل على تناهيهم فى العتو والمكابرة أى وبالله لقد جاءتهم رسلنا حسبما أرسلناهم بالآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم تأكيدا لوجوب مراعاته وتأييدا لتحتم المحافظة عليه .

﴿ ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك ﴾ أى بعد ماذكر من الكتب وتأكيد الأمر بإرسال الرسل تترى وتجديد العهد مرة بعد أخرى ووضع اسم الإشارة موضع الضمير للإيذان بكمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للإيماء إلى علو درجته وبعد منزلته فى عظم الشأن وثم للتراخى فى الرتبة والاستبعاد ﴿ فى الأرض ﴾ متعلق بقوله تعالى ﴿ لمسرفون ﴾ وكذا الظرف المتقدم ولايقدح فيه توسط اللام بينه وبينهما لأنها لام الابتداء وحقها الدخول على المبتدأ ، وإنما دخولها على الخبر لمكان إن فهى فى حيزها الأصلى والإسراف فى كل أمر التباعد عن حد الاعتدال مع عدم مبالاة به ،

أى مسرفون فى القتل غير مبالين به ، ولما كان إسرافهم فى أمر القتل مستلزما لتفريطهم فى شأن الإحياء وجودا وذكرا وكان هو أقبح الأمرين وأفظعهما اكتفى بذكره فى مقام التشنيع .

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حكم نوع من أنواع القتل ومايتعلق به من الفساد بأخذ المال ونظائره وتعيين موجبه العاجل والآجل إثر بيان عظم شأن القتل بغير حق وأدرج فيه بيان ما أشير إليه إجمالا من الفساد المبيح للقتل قيل أى يحاربون رسوله وذكر الله تعالى للتمهيد والتنبيه على رفعة محله عنده عز وجل ومحاربة أهل شريعته وسالكى طريقته من المسلمين محاربة له عليه السلام فيعم الحكم من يحاربهم ولو بعد أعصار بطريق العبارة دون الدلالة والقياس لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول فيحتاج فى تعميمه لغيرهم إلى دليل آخر وقيل جعل محاربة المسلمين محاربة لله تعالى ورسوله تعظيما لهم والمعنى يحاربون أولياءهما وأصل الحرب السلب والمراد ههنا قطع الطريق وقيل المكابرة بطريق اللصوصية وإن كانت فى مصر ﴿ويسعون فى الأرض﴾ عطف على يحاربون والجار والمجرور متعلق به وقوله تعالى ﴿فسادا﴾ إما مصدر وقع موقع الحال من فاعل يسعون أى مفسدين أو مفعول له أى للفساد أو مصدر مؤكد ليسعون لأنه في معنى يفسدون على أنه مصدر من أفسد بحذف الزوائد أو اسم مصدر . قيل نزلت الآية فى قوم هلال بن عويمر الأسلمى وكان وادعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يعينه ولا يعين عليه ، ومن أتاه من المسلمين فهو آمن لا يهاج ، ومن مر بهلال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو آمن لا يهاج ، فمر قوم من بنى كنانة يريدون الإسلام بناس من قوم هلال ولم يكن هلال يومئذ شاهدا فقطعوا عليهم وقتلوهم وأخذوا أموالهم . وقيل نزلت فى العرنيين وقصتهم مشهورة . وقيل فى قوم من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا فى الأرض ، ولما

كانت المحاربة والفساد على مراتب متفاوتة ووجوه شتى من القتل بدون أخذ المال ومن القتل مع أخذه وأخذه بدون القتل ومن الإخافة بدون قتل وأخذ، شرعت لكل مرتبة من تلك المراتب عقوبة معينة بطريق التوزيع فقيل :

﴿ أن يقتلوا ﴾ أى حدا من غير صلب إن أفردوا القتل ولو عفا الأولياء لا يلتفت إلى ذلك، لأنه حق الشرع، ولافرق بين أن يكون القتل بآلة جارحة أو لا ﴿ أو يصلبوا ﴾ أى مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذ بأن يصلبوا أحياء وتبعج بطونهم برمح إلى أن يموتوا ، وفى ظاهر الرواية أن الإمام مخير إن شاء اكتفى بذلك ، وإن شاء قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وقتلهم وصلبهم ، وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقرىء بالتخفيف فيهما ﴿ أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ﴾ أى أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن اقتصروا على أخذ المال من مسلم أو ذمى وكان المقدار بحيث لو قسم عليهم أصاب كلا منهم عشرة دراهم أو ما يساويها قيمته أما قطع أيديهم فلأخذ المال وأما قطع أرجلهم فلإخافة الطريق بتفويت أمنه ﴿ أو ينفوا من الأرض ﴾ إن لم يفعلوا غير الإخافة والسعى للفساد والمراد بالنفى عندنا هو الحبس فإنه نفى عن وجه الأرض لدفع شرهم عن أهلها ويعزرون أيضاً لمباشرتهم منكر الإخافة وإزالة الأمن ، وعند الشافعى رضى الله عنه النفى من بلد إلى بلد لا يزال يطلب وهو هارب فزعا ، وقيل هو النفى عن بلده فقط ، وكانوا ينفونهم إلى دهلك وهو بلد فى أقصى تهامة ، وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة .

﴿ ذلك ﴾ أى ما فصل من الأحكام والأجزية ، قيل هو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ لهم خزى ﴾ جملة من خبر مقدم على المبتدأ وقوله تعالى ﴿ فى الدنيا ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لخزى أو متعلق بخزى على الظرفية والجملة فى محل الرفع على أنها خبر لذلك ، وقيل خزى خبر لذلك ولهم متعلق بمحذوف وقع حالا من خزى ، لأنه فى الأصل صفة له ، فلما قدم انتصب حالا ، وفى الدنيا إما صفة لخزى أو متعلق به على ما مر ، والخزى الذل والفضيحة ﴿ ولهم فى الآخرة ﴾

غير هذا ﴿عذاب عظيم﴾ لا يقادر قدره لغاية عظم جناياتهم فقوله تعالى (لهم) خبر مقدم و(عذاب) مبتدأ مؤخر و(فى الآخرة) متعلق بمحذوف وقع حالا من عذاب ، لأنه فى الأصل صفة له فلما قدم انتصب حالا أى كائنا فى الآخرة ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله عز وجل كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ أما ما هو من حقوق الأولياء من القصاص ونحوه فإليهم ذلك إن شاءوا عفوا وإن أحبوا استوفوا ، وإنما يسقط بالتوبة وجوب استيفائه لا جوازه ، وعن على رضى الله عنه أن الحرث بن بدر جاءه تائبا بعد ما كان يقطع الطريق فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة .

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ لما ذكر عظم شأن القتل والفساد وبين حكمهما وأشير فى تضاعيف ذلك إلى مغفرته تعالى لمن تاب من جنايته أمر المؤمنون بأن يتقوه تعالى فى كل ما يأتون وما يذرون بترك ما يجب اتقاؤه من المعاصى التى من جملتها ماذكر من القتل والفساد وبفعل الطاعات التى من زمرتها السعى فى إحياء النفوس ودفع الفساد والمسارعة إلى التوبة والاستغفار ﴿وابتغوا﴾ أى اطلبوا لأنفسكم ﴿إليه﴾ أى إلى ثوابه والزلفى منه ﴿الوسيلة﴾ هى فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويتقرب إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصى من وسل إلى كذا أى تقرب إليه بشىء ، وإليه متعلق بها قدم عليها للاهتمام به وليست بمصدر حتى لا تعمل فيما قبلها ، ولعل المراد بها الاتقاء المأمور به فإنه ملاك الأمر كله كما أشير اليه ، وذريعة لنيل كل خير ومنجاة من كل ضير فالجملة حينئذ جارية مما قبلها مجرى البيان والتأكيد ، أو مطلق الوسيلة وهو داخل فيها دخولا أوليا . وقيل الجملة الأولى أمر بترك المعاصى والثانية أمر بفعل الطاعات ، وحيث كان فى كل من ترك المعاصى المشتهاة للنفس وفعل الطاعات المكروهة لها كلفة ومشقة عقب الأمر بهما بقوله تعالى ﴿وجاهدوا فى سبيله﴾ بمحاربة أعدائه البارزة والكامنة ﴿لعلكم تفلحون﴾ بنيل مرضاته والفوز بكراماته ﴿إن الذين كفروا﴾ كلام مبتدأ مسوق لتأكيد وجوب الامتثال

بالأوامر السابقة وترغيب المؤمنين فى المسارعة الى تحصيل الوسيلة إليه عز وجل قبل انقضاء أوانه ببيان استحالة توسل الكفار يوم القيامة بأقوى الوسائل إلى النجاة من العذاب فضلا عن نيل الثواب .

﴿ لو أن لهم ﴾ أى لكل واحد منهم كما فى قوله تعالى (ولو أن لكل نفس ظلمت) الخ لا لجميعهم إذ ليس فى ذلك هذه المرتبة من تهويل الأمر وتفظيع الحال ﴿ ما فى الأرض ﴾ أى من أصناف أموالها وذخائرها وسائر منافعها قاطبة وهو اسم أن ولهم خبرها ومحلها الرفع بلا خلاف ، خلا أنه عند سيبويه رفع على الابتداء ولا حاجة فيه إلى الخبر لاشتمال صلتها على المسند والمسند إليه ، وقد اختصت من بين سائر مايؤول بالاسم بالوقوع بعد لو ، وقيل الخبر محذوف ثم قيل يقدر مقدما أى لو ثابت كون ما فى الأرض لهم . وقيل يقدر مؤخرا أى لو كون ما فى الأرض لهم ثابت وعند المبرد والزجاج والكوفيين رفع على الفاعلية والفعل مقدر بعد لو أى لو ثبت أن لهم ما فى الأرض وقوله تعالى ﴿ جميعا ﴾ توكيد للموصول أو حال منه ﴿ ومثله ﴾ بالنصب عطف عليه وقوله تعالى ﴿ معه ﴾ ظرف وقع حالا من المعطوف والضمير راجع إلى الموصول وفائدته التصريح بفرض كينونتهما لهم بطريق المعية لا بطريق التعاقب تحقيقا لكمال فظاعة الأمر مع ما فيه من نوع إشعار بكونهما شيئاً واحدا وتمهيدا لإفراد الضمير الراجع إليهما واللام فى قوله تعالى ﴿ ليفتدوا به ﴾ متعلقة بما تعلق به خبر أن ، أعنى الاستقرار المقدر فى لهم وبالخبر المقدر عند من يرى تقدير الخبر مقدما أو مؤخرا ، وبالفعل المقدر بعد لو على رأى المبرد ومن نحا نحوه ، ولا ريب فى أن مدار الإفتداء بما ذكر هو كونه لهم لا ثبوت كونه لهم وإن كان مستلزما له ، والباء فى به متعلقة بالافتداء والضمير راجع إلى الموصول ومثله معا ، وتوحيده إما لما أشير إليه ، وإما لإجرائه مجرى اسم الإشارة كأنه قيل بذلك كما فى قوله .

* كأنه فى الجلد توليع البهق *

أى كأن ذلك ، وقيل هو راجع إلى الموصول والعائد إلى المعطوف أعنى مثله محذوف ، كما حذف الخبر من قيار فى قوله :

* فإنى وقيار بها لغريب *

أى وقيار أيضاً غريب ، وقد جوز أن يكون نصب ومثله على أنه مفعول معه ناصبه الفعل المقدر بعد لو تفريعا على مذهب المبرد ، ومن رأى رأيه ، وأنت خبير بأنه يؤدى إلى كون الرافع للفاعل غير الناصب للمفعول معه لأن المعنى على اعتبار المعية بين مافى الأرض ومثله فى الكينونة لهم ، لا فى ثبوت تلك الكينونة وتحققها ، ولا مساغ لجعل ناصبه الاستقرار المقدر فى لهم ، لما أن سيبويه قد نص على (أن)[1] اسم الإشارة وحرف الجر المتضمن للاستقرار لا يعملان فى المفعول معه وأن قوله هذا لك وأباك قبيح وإن جوزه بعض النحاة فى الظروف وحرف الجر وقوله تعالى ﴿من عذاب يوم القيامة﴾ متعلق بالافتداء أيضاً ، أى لو أن مافى الأرض ومثله ثابت لهم ليجعلوه فدية لأنفسهم من العذاب الواقع يومئذ .

﴿ ماتقبل منهم ﴾ ذلك ، وهو جواب لو وترتيبه على كون ذلك لهم لأجل افتدائهم به من غير ذكر الافتداء بأن يقال وافتدوا به مع أن الرد والقبول إنما يترتب عليه لا على مباديه ، للإيذان بأنه أمر محقق الوقوع غنى عن الذكر ، وإنما المحتاج إلى الفرض قدرتهم على ماذكر أو للمبالغة فى تحقيق الرد وتخييل أنه وقع قبل الافتداء على منهاج مافى قوله تعالى (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده) حيث لم يقل فأتى به فرآه فلما الخ ، ومافى قوله تعالى (وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه) من غير ذكر خروجه عليه السلام عليهن ورؤيتهن له والجملة الامتناعية بحالها خبر إن الذين كفروا ، والمراد تمثيل لزوم العذاب لهم واستحالة نجاتهم منه بوجه من الوجوه المحققة والمفروضة

---

(١) سقط من ط .

وعن النبي عليه الصلاة والسلام : « يقال للكافر أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدى به ، فيقول : نعم ، فيقال له : قد سئلت أيسر من ذلك وهو كلمة الشهادة » وقوله تعالى ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ تصريح بما أشير إليه بعدم قبول فديتهم لزيادة تقريره وبيان هوله وشدته . قيل محله النصب على الحالية ؛ وقيل الرفع عطفاعلى خبر إن ، وقيل عطف على إن الذين فلا محل له كالمعطوف عليه ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار ﴾ استئناف مسوق لبيان حالهم فى أثناء مكابدة العذاب مبنى على سوال نشأ مما قبله ، كأنه قيل : فكيف يكون حالهم ؟ أو ماذا يصنعون ؟ فقيل : يريدون الخ ، وقد بين فى تضاعيفه أن عذابهم عذاب النار ، قيل إنهم يقصدون ذلك ويطلبون المخرج فيلفحهم لهب النار ويرفعهم إلى فوق ، فهناك يريدون الخروج ولات حين مناص ، وقيل يكادون يخرجون منها لقوة النار وزيادة رفعها إياهم ، وقيل يتمنونه ويريدونه بقلوبهم وقوله عز وجل ﴿ وما هم بخارجين منها ﴾ إما حال من فاعل يريدون ، أو اعتراض ، وأيا ما كان فإيثار الجملة الاسمية على الفعلية مصدرة بما الحجازية الدالة بما فى خبرها من الباء على تأكيد النفى لبيان كمال سوء حالهم باستمرار عدم خروجهم منها ، فإن الجملة الاسمية الإيجابية كما تفيد بمعونة المقام دوام الثبوت تفيد السلبية أيضا بمعونة دوام النفى لا نفى الدوام ، كما مر فى قوله تعالى (ما أنا بباسط) الخ وقرىء أن يخرجوا على بناء المفعول من الإخراج ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ تصريح بما أشير إليه آنفا من عدم تناهى مدته بعد بيان شدته .

أحكام السرقة

﴿ والسارق والسارقة ﴾ شروع فى بيان حكم السرقة الصغرى بعد بيان أحكام الكبرى وقد عرفت اقتضاء الحال لإيراد ما توسط بينهما من المقال ولما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال صرح بالسارقة أيضاً مع أن المعهود فى الكتاب والسنة إدراج النساء فى الأحكام الواردة فى شأن الرجال بطريق الدلالة لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة فى الزجر وهو مبتدأ خبره عند سيبويه محذوف تقديره وفيما يتلى عليكم أو وفيما فرض عليكم السارق والسارقة أى

حكمهما وعند المبرد قوله تعالى ﴿ فاقطعوا أيديهما ﴾ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، إذ المعنى الذى سرق والتى سرقت ، وقرئ بالنصب وفضلها سيبويه على قراءة الرفع ، لأن الإنشاء لا يقع خبرا إلا بتأويل وإضمار ، والسرقة أخذ مال الغير خفية ، وإنما توجب القطع إذا كان الأخذ من حرز والمأخوذ يساوى عشرة دراهم فما فوقها مع شروط فصلت فى موقعها ، والمراد بأيديهما أيمانهما كما يفصح عنه قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : والسارقات فاقطعوا أيمانهم ، ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما فى قوله تعالى (فقد صغت قلوبكما) اكتفاء بتثنية المضاف إليه ، واليد اسم لتمام الجارحة ولذلك ذهب الخوارج إلى أن المقطع هو المنكب ، والجمهور على أنه الرسغ ، لأنه عليه الصلاة والسلام أتى بسارق فأمر بقطع يمينه منه .

﴿ جزاء ﴾ نصب على أنه مفعول له أى فاقطعوا للجزاء ، أو مصدر مؤكد لفعله الذى يدل عليه فاقطعوا ، أى فجاوزوهما جزاء وقوله تعالى ﴿ بما كسبا ﴾ على الأول متعلق بجزاء وعلى الثانى باقطعوا ، وما مصدرية ، أى بسبب كسبهما أو موصولة أى ما كسباه من السرقة التى تباشر بالأيدى ، وقوله تعالى ﴿ نكالا ﴾ مفعول له أيضاً على البدلية من جزاء لأنهما من نوع واحد ، وقيل القطع معلل بالجزاء والقطع المعلل معلل بالنكال ، وقيل هو منصوب بجزاء على طريقة الأحوال المتداخلة ، فإنه علة للجزاء والجزاء علة للقطع كما إذا قلت ضربته تأديباً له إحسانا إليه ، فإن الضرب معلل بالتأديب والتأديب معلل بالإحسان ، وقد أجازوا فى قوله عز وجل (أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من من فضله على من يشاء من عباده) أن يكون بغيا مفعولا له ناصبه أن يكفروا ، ثم قالوا إن قوله تعالى (أن ينزل الله) مفعول له ناصبه بغيا على أن التنزيل علة للبغى ، والبغى علة للكفر ، وقوله تعالى ﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لنكالا كائنا منه تعالى ﴿ والله عزيز ﴾ غالب على أمره يمضيه كيف يشاء من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه ﴿ حكيم ﴾ فى شرائعه لا يحكم إلا بما تقتضيه[1]

---

(١) فى ط : ما تقتضيه .

الحكمة والمصلحة ، ولذلك شرع هذه الشرائع المنطوية على فنون الحكم والمصالح ﴿ فمن تاب ﴾ أى من السراق إلى الله تعالى ﴿ من بعد ظلمه ﴾ الذى هو سرقته والتصريح به مع أن التوبة لاتتصور قبله لبيان عظم نعمته تعالى بتذكير عظم جنايته ﴿ وأصلح ﴾ أى أمره بالتفصى عن تبعات ما باشره والعزم على ترك المعاودة إليها ﴿ فإن الله يتوب عليه ﴾ أى يقبل توبته فلا يعذبه فى الآخرة ، وأما القطع فلا تسقطه التوبة عندنا . لأن فيه حق المسروق منه ، وتسقطه عند الشافعى فى أحد قوليه :

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ مبالغ فى المغفرة والرحمة ولذلك يقبل توبته وهو تعليل لما قبله وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم وتأييد استقلال الجملة وكذا فى قوله عز وجل ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ فإن عنوان الألوهية مدار أحكام ملكوتهما ، والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ ، والجملة خبر لأن ، وهى مع ما فى حيزها سادة مسد مفعولى تعلم عند الجمهور ، وما فيه من تكرير الإسناد لتقوية الحكم ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين . وقيل لكل أحد صالح للخطاب ، والاستفهام الإنكارى لتقرير العلم والمراد به الاستشهاد بذلك على قدرته تعالى على ما سيأتى من التعذيب والمغفرة على أبلغ وجه وأتمه ، أى ألم تعلم أن الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهما وفيما فيهما إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة إلى غير ذلك حسبما تقتضيه مشيئته ﴿ يعذب من يشاء ﴾ أن يعذبه ﴿ ويغفر لمن يشاء ﴾ أن يغفر له من غير ند يساهمه ولا ضد يزاحمه ، وتقديم التعذيب على المغفرة لمراعاة ما بين سببيهما من الترتيب والجملة إما تقرير لكون ملكوت السموات والأرض له سبحانه ، أو خبر آخر لأن ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة، والإظهار فى موقع الإضمار لما مر مرارا والجملة تذييل مقرر لما قبلها .

تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم

﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ﴾ خوطب عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للتشريف والإشعار بما يوجب عدم الحزن والمسارعة فى الشيء الوقوع فيه بسرعة ورغبة وإيثار كلمة فى على كلمة إلى الواقعة فى قوله تعالى ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ﴾ الخ للإيماء إلى أنهم مستقرون فى الكفر لا يبرحونه ؛ وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلى بعض آخر منها كإظهار موالاة المشركين ، وإبراز آثار الكيد للإسلام ونحو ذلك كما فى قوله تعالى (أولئك يسارعون فى الخيرات) فإنهم مستمرون على الخير مسارعون فى أنواعه وأفراده ، والتعبير عنهم بالموصول للإشارة بما فى حيز صلته إلى مدار الحزن ، وهذا وإن كان بحساب الظاهر نهيا للكفرة عن أن يحزنوه عليه الصلاة والسلام بمسارعتهم فى الكفر لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن التأثر من ذلك والمبالاة بهم على أبلغ وجه وآكده ، فإن النهى عن أسباب الشيء ومباديه المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهانى ، وقلع له من أصله ، وقد يوجه النهى إلى المسبب ويراد به النهى عن السبب كما فى قوله لا أرينك ههنا يريد نهى مخاطبه عن الحضور بين يديه وقرىء لا يحزنك من أحزنه منقولا من حزن بكسر الزاى وقرىء يسرعون يقال أسرع فيه الشيب أى وقع فيه سريعا أى لا تحزن ولا تبال بتهافتهم فى الكفر بسرعة وقوله تعالى :

﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ﴾ بيان للمسارعين فى الكفر ، وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يسارعون ، وقيل من الموصول أى كائنين من الذين الخ ، والباء متعلقة بقالوا لا بآمنا وقوله تعالى ﴿ ولم تؤمن قلوبهم ﴾ جملة حالية من ضمير قالوا وقيل عطف على قالوا وقوله تعالى ﴿ ومن الذين هادوا ﴾ عطف على من الذين قالوا الخ وبه يتم بيان المسارعين فى الكفر بتقسيمهم إلى قسمين : المنافقين واليهود ، فقوله تعالى ﴿ سماعون للكذب ﴾ خبر لمبتدأ محذوف

راجع إلى الفريقين أو إلى المسارعين ، وأما رجوعه إلى الذين هادوا فمخل بعموم الوعيد الآتى ومباديه للكل كما ستقف عليه ، وكذا جعل قوله : (ومن الذين) الخ خبرا على أن قوله سماعون صفة لمبتدأ محذوف أى ومنهم قوم سماعون الخ لأدائه إلى اختصاص ما عدد من القبائح وما يترتب عليها من الغوائل الدنيوية والأخروية بهم ، فالوجه ماذكر أولا أى هم سماعون واللام إما لتقوية العمل وإما لتضمين السماع معنى القبول ، وإما لام كى والمفعول محذوف والمعنى هم مبالغون فى سماع الكذب ، أو فى قبول ما يفتريه أحبارهم من الكذب على الله سبحانه وتحريف كتابه ، أو سماعون أخباركم وأحاديثكم ليكذبوا عليكم بأن يمسخوها بالزيادة والنقص والتبديل والتغيير ، أو أخبار الناس وأقاويلهم الدائرة فيما بينهم ليكذبوا فيها بأن يرجعوا بقتل المؤمنين وانكسار سراياهم ونحو ذلك مما يضر بهم ، وأيا ما كان فالجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهى، فإن كونهم سماعين للكذب على الوجوه المذكورة وابتناء أمورهم على مالا أصل له من الأباطيل والأراجيف مما يقتضى عدم المبالاة بهم وترك الاعتداد بما يأتون وما يذرون للقطع بظهور بطلان أكاذيبهم واختلال ما بنوا عليها من الأفاعيل الفاسدة المؤدية إلى الخزى والعذاب كما سيأتى ، وقرىء سماعين للكذب بالنصب على الذم وقوله تعالى :

﴿ سماعون لقوم آخرين ﴾ خبر ثان للمبتدأ المقدر مقرر للأول ومبين لما هو المراد بالكذب على الوجهين الأولين ، واللام مثل ما فى سمع الله لمن حمده فى الرجوع إلى معنى من أى قبل منه حمده ، والمعنى مبالغون فى قبول كلام قوم آخرين ، وأما كونها لام التعليل بمعنى سماعون منه عليه الصلاة والسلام لأجل قوم آخرين وجهوهم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام ، أو كونها متعلقة بالكذب على أن سماعون الثانى مكرر للتأكيد بمعنى سماعون ليكذبوا لقوم آخرين فلا يكاد يساعده النظم الكريم أصلا وقوله تعالى : ﴿ لم يأتوك ﴾ صفة أخرى لقوم أى لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبرا وإفراطا فى البغضاء ، قيل هم يهود خيبر والسماعون بنو قريظه وقوله تعالى :

﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ صفة أخرى لقوم وصفوا أولا بمغايرتهم للسماعين تنبيها على استقلالهم وأصالتهم فى الرأى والتدبير ، ثم بعدم حضورهم مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام إيذانا بكمال طغيانهم فى الضلال ، ثم باستمرارهم على التحريف بيانا لإفراطهم فى العتو والمكابرة والاجتراء على الافتراء على الله تعالى وتعيينا للكذب الذى سمعه السماعون ، أى يميلونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها إما لفظا بإهماله أو تغيير وضعه وإما معنى بحمله على غير المراد وإجرائه فى غير مورده ، وقيل الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ناعية عليهم شنائعهم . وقيل خبر مبتدأ محذوف راجع إلى القوم وقوله تعالى :

﴿ يقولون ﴾ كالجملة السابقة فى الوجوه المذكورة ويجوز أن يكون حالا من ضمير ويحرفون وأما تجويز كونها صفة لسماعون أو حالا من الضمير فيه فمما لا سبيل إليه أصلا كيف لا وإن مقول القول ناطق بأن قائله ممن لا يحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والمخاطب به ممن يحضره فكيف يمكن أن يقوله السماعون المترددون عليه عليه الصلاة والسلام لمن يحوم حوله قطعا وادعاء قول السماعين لأعقابهم المخالطين للمسلمين تعسف ظاهر مخل بجزالة النظم الكريم ، والحق الذى لا محيد عنه أن المحرفين والقائلين هم القوم الآخرون ، أى يقولون لأتباعهم السماعين لهم عند إلقائهم إليهم أقاويلهم الباطلة مشيرين إلى كلامهم الباطل ﴿ إن أوتيتم ﴾ من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ هذا فخذوه ﴾ واعملوا بموجبه فإنه الحق ﴿ وإن لم تؤتوه ﴾ بل اوتيتم غيره ﴿ فاحذروا ﴾ أى فاحذروا قبوله وإياكم وإياه ، وفى ترتيب الأمر بالحذر على مجرد عدم إيتاء المحرف من المبالغة فى التحذير ما لا يخفى . روى أن شريفا من خيبر زنى بشريفه وهما محصنان وحدهما الرجم فى التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطا منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقالوا إن أمركم بالجلد والتحميم[1] فاقبلوا ، وإن أمركم بالرجم فلا

(١) أى تسويد الوجه .

تقبلوا وأرسلوا الزانيين معهم فأمرهم بالرجم فأبوا أن يأخذوا به فقال جبريل عليه السلام: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له فقال عليه الصلاة والسلام «هل تعرفون شابا أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا ؟» قالوا نعم وهو أعلم يهودى على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى بن عمران فى التوراة ، قال « فأرسلوا إليه » ففعلوا فأتاهم فقال له النبى عليه الصلاة والسلام «أنت ابن صوريا» قال نعم قال عليه الصلاة والسلام «وأنت أعلم اليهود» قال كذلك يزعمون قال لهم « أترضون به حكما » قالوا نعم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنشدك الله الذى لا إله إلا هو الذى فلق البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى ورفع فوقكم الطور وأنزل عليكم التوراة فيها فى حلاله وحرامه هل تجدون فى كتابكم الرجم على من أحصن » قال نعم ، والذى ذكرتنى به لولا خشيت أن تحرقنى التوراة إن كذبت أو غيرت ما اعترفت لك ، ولكن كيف هى فى كتابك يا محمد ؟ قال عليه الصلاة والسلام « إذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخل فيها كما يدخل الميل فى المكحلة وجب عليه الرجم » قال ابن صوريا والذى أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله فى التوراة على موسى فوثب عليه سفلة اليهود ، فقال خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب ، ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله النبى الأمى العربى الذى بشر به المرسلون وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب المسجد(١) .

﴿ ومن يرد الله فتنته ﴾ أى ضلالته أو فضيحته كائنا من كان فيندرج فيه المذكورون اندراجا أوليا وعدم التصريح بكونهم كذلك للإشعار بكمال ظهوره واستغنائه عن ذكره ﴿ فلن تملك له ﴾ فلن تستطيع له ﴿ من الله شيئا ﴾ فى دفعها والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ومبينة لعدم انفكاكهم عن القبائح المذكورة

(١) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول والأجهورى عن جماعة فى إرشاد الرحمن

أبدا ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين من المنافقين واليهود وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ أى من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهما كهم فيهما وإصرارهم عليهما وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية بالكلية كما ينبىء عنه وصفهم بالمسارعة فى الكفر أو لا، وشرح فنون ضلالتهم آخرا، والجملة استئناف مبين لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتغاء ﴿لهم فى الدنيا خزى﴾ أما المنافقون فخزيهم فضيحتهم وهتك سترتهم بظهور نفاقهم فيما بين المسلمين، وأما خزى اليهود فالذل والجزيه والإفتضاح بظهور كذبهم فى كتمان نص التوراة، وتنكير خزى للتفخيم وهو مبتدأ ولهم خبره وفى الدنيا متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار، وكذا الحال فى قوله تعالى:

﴿ولهم فى الآخرة﴾ أى مع الخزى الدنيوى ﴿عذاب عظيم﴾ هو الخلود فى النار، وضمير لهم فى الجملتين للمنافقين واليهود جميعا لا لليهود خاصة، كما قيل، وتكرير لهم مع اتحاد المرجع لزيادة التقرير والتأكيد، والجملتان استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل أفعالهم وأحوالهم الموجبة للعقاب، كأنه قيل: فما لهم من العقوبة؟ فقيل: لهم فى الدنيا، الآية.

﴿سماعون للكذب﴾ خبر آخر للمبتدأ المقدر كرر تأكيدا لما قبله وتمهيدا لما بعده من قوله تعالى ﴿أكالون للسحت﴾ وهو أيضاً خبر آخر للمقدر وارد على طريقة الذم، أو بناء على أن المراد بالكذب ما يفتعله الراشون عند الأكالين، والسحت بضم السين وسكون الحاء فى الأصل كل ما يحل كسبه، وقيل هو الحرام مطلقا من سحته إذا استأصله. سمى به لأنه مسحوت البركة، والمراد به ههنا إما الرشا التى كان يأخذها المحرفون على تحريفهم وسائر أحكامهم الزائغة وهو المشهور، أو ما كان يأخذه فقراؤهم من أغنيائهم من المال ليقيموا على اليهودية كما قيل، وإما مطلق الحرام المنتظم لما ذكر انتظاما أوليا، وقرىء للسحت بضم السين والحاء وبفتحهما وبفتح السين وسكون الحاء وبكسر السين

وسكون الحاء وعن النبي عليه الصلاة والسلام : « كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به » .

﴿ فإن جاءوك ﴾ لما بين تفاصيل أمورهم الواهية وأحوالهم المختلفة الموجبة لعدم المبالاة بهم وبأفاعيلهم حسبما أمر به عليه الصلاة والسلام خوطب عليه الصلاة والسلام ببعض ما يبتنى عليه من الأحكام بطريق التفريغ ، والفاء فصيحة ، أى وإذا كان حالهم كما شرح فإن جاءوك متحاكمين إليك فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿ فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾ غير مبال بهم ولا خائف من جهتهم أصلا ، وهذا كما ترى تخيير له عليه الصلاة والسلام بين الأمرين ، فقيل هو فى أمر خاص هو ما ذكر من زنا المحصن ، وقيل فى قتيل قتل من اليهود فى بنى قريظة والنضير فتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بنو قريظة : إخواننا بنو النضير ، أبونا واحد وديننا واحد ، وإذا قتلوا منا قتيلا لم يرضوا بالقود وأعطونا سبعين وسقا من تمر ، وإذا قتلنا منهم قتلوا القاتل وأخذوا منا الضعف مائة وأربعين وسقا من تمر ، وإن كان القتيل إمرأة قتلوا بها الرجل منا وبالرجل منهم الرجلين منا وبالعبد منهم الحر منا ، فاقض بيننا . فجعل عليه الصلاة والسلام الدية سواء ، وقيل هو عام فى جميع الحكومات ، ثم اختلفوا فمن قائلا إنه ثابت وهو المروى عن عطاء والنخعى والشعبي وقتادة وأبى بكر الأصم وأبى مسلم ، وقائل إنه منسوخ وهو قول ابن عباس الحسن ومجاهد وعكرمة ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم ينسخ من المائدة إلا آيتان قوله تعالى (لا تحلوا شعائر الله) نسخها قوله تعالى (فاقتلوا المشركين) وقوله تعالى (فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) نسخها قوله تعالى (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) وعليه مشايخنا ﴿ وإن تعرض عنهم ﴾ بيان لحال الأمرين إثر تخييره عليه الصلاة والسلام بينهما ، وتقديم حال الإعراض للمسارعة إلى بيان ألا ضرر فيه حيث كان مظنة الضرر لما أنهم كانوا لا يتحاكمون إليه عليه الصلاة والسلام إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم ، فإذا أعرض عنهم وأبى الحكومة بينهم شق ذلك عليهم ، فتشتد عداوتهم ومضارتهم له عليه الصلاة

والسلام ، فأمنه الله عز وجل بقوله ﴿ فلن يضروك شيئاً ﴾ من الضرر فإن الله عاصمك من الناس .

﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾ بالعدل الذى أمرت به كما حكمت بالرجم ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ ومن ضرورته أن يحفظهم عن كل مكروه ومحذور ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ تعجب من تحكيمهم لمن يؤمنون به وبكتابه والحال أن الحكم منصوص عليه فى كتابهم الذى يدعون الإيمان به وتنبيه على أنهم ماقصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع وإنما طلبوا به ما هو أهون عليهم وإن لم يكن ذلك حكم الله على زعمهم فقوله تعالى (وعندهم التوراة) حال من فاعل يحكمونك وقوله تعالى (فيها حكم الله) حال من التوراة إن جعلت مرتفعة بالظرف وإن جعلت مبتدأ فهو حال من ضميرها المستكن فى الخبر ، وقيل استئناف مسوق لبيان أن عندهم ما يغنيهم عن التحكيم وتأنيثها لكونها نظيرة المؤنث فى كلامهم كموماة ودوداة ﴿ ثم يتولون ﴾ عطف على يحكمونك داخل فى حكم التعجيب وثم للتراخى فى الرتبة وقوله تعالى ﴿ من بعد ذلك ﴾ أى من بعد ما حكموك تصريح بما علم قطعا بتأكيد الاستبعاد والتعجيب ، أى ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم من بعد ما رضوا بحكمك وقوله تعالى ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ تذييل مقرر لفحوى ما قبله ووضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للقصد إلى إحضارهم فى الذهن بما وصفوا به من القبائح إيماء إلى علة الحكم وإلى أنهم قد تميزوا بذلك عن غيرهم أكمل تمييز حتى انتظموا فى سلك الأمور المشاهدة ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتهم فى العتو والمكابرة أى وما أولئك الموصوفون بما ذكر بالمؤمنين أى بكتابهم ، لإعراضهم عنه أولا ، وعن حكمك الموافق له ثانياً أو بهما ، وقيل وما أولئك بالكاملين فى الإيمان تهكما بهم .

مكانة التوراة والإنجيل

﴿ إنا أنزلنا التوراة ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة ووجوب

مراعاة أحكامها وأنها لم تزل مرعية فيما بين الأنبياء ومن يقتدى بهم كابراً عن كابر مقبولة لكل أحد من الحكام والمتحاكمين محفوظة عن المخالفة والتبديل تحقيقاً لما وصف به المحرفون من عدم إيمانهم بها ، وتقريراً لكفرهم وظلمهم وقوله تعالى ﴿ فيها هدى ونور ﴾ حال من التوراة ، فإن مافيها من الشرائع والأحكام من حيث إرشادها للناس إلى الحق الذى لا محيد عنه هدى ومن حيث إظهارها وكشفها نور ما استبهم من الأحكام وما يتعلق بها من الأمور المستورة بظلمات الجهل ، وقوله تعالى ﴿ يحكم بها النبيون ﴾ أى أنبياء بنى اسرائيل ، وقيل موسى ومن بعده من الأنبياء جملة مستأنفة مبينة لرفعة رتبتها وسمو طبقتها ، وقد جوز كونه حالا من التوراة فيكون حالا مقدرة أى يحكمون بأحكامها ويحملون الناس عليها ، وبه تمسك من ذهب إلى أن شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم تنسخ ، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مراراً من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر ، ولأن فى المؤخر وما يتعلق به نوع طول ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقوله تعالى ﴿ الذين أسلموا ﴾ صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح دون التخصيص والتوضيح ، لكن لا للقصد إلى مدحهم بذلك حقيقة ، فإن النبوة أعظم من الإسلام قطعا ، فيكون وصفهم به بعد وصفهم بها تنزلا من الأعلى إلى الأدنى ، بل لتنويه شأن الصفة فإن إبراز وصف فى معرض مدح العظماء منبىء عن عظم قدر الوصف لا محالة كما فى وصف الأنبياء بالصلاح ووصف الملائكة بالإيمان عليهم السلام ، ولذلك قيل أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف ، وفيه رفع لشأن المسلمين وتعريض باليهود وأنهم بمعزل من الإسلام والاقتداء بدين الأنبياء عليهم السلام لاسيما مع ملاحظة ما وصفوا به فى قوله تعالى .

﴿ للذين هادوا ﴾ وهو متعلق بيحكم أى يحكمون فيما بينهم ، واللام إما لبيان اختصاص الحكم بهم أعم من أن يكون لهم أو عليهم ، كأنه قيل لأجل الذين هادوا ، وإما للإيذان بنفعه للمحكوم عليه أيضاً بإسقاط التبعة عنه ، وإما للإشعار بكمال رضاهم به وانقيادهم له كأنه أمر نافع لكلا الفريقين ، ففيه

تعريض بالمحرفين ، وقيل التقدير للذين هادوا وعليهم فحذف ما حذف لدلالة ما ذكر عليه ، وقيل هو متعلق بأنزلنا وقيل بهدى ونور وفيه فصل بين المصدر ومفعوله ، وقيل متعلق بمحذوف وقع صفة لهما أى هدى ونور كائنان للذين هادوا ﴿والربانيون والأحبار﴾ أى الزهاد والعلماء من ولد هرون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : الربانيون الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم بصغاره قبل كباره ، والأحبار هم الفقهاء واحده حبر بالفتح والكسر والثانى أفصح ، وهو رأى الفراء ، مأخوذ من التحبير والتحسين ، فإنهم يحبرون العلم ويزينونه ويبينونه ، وهو عطف على (النبيون أى هم أيضا يحكمون بأحكامها وتوسيط المحكوم لهم بين المعطوفين للإيذان بأن الأصل فى الحكم بها وحمل الناس على ما فيها هم النبيون ، وإنما الربانيون والأحبار خلفاء ونواب لهم فى ذلك كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿بما استحفظوا﴾ أى بالذى استحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل على الإطلاق ، ولا ريب فى أن ذلك منهم عليهم السلام استخلاف لهم فى إجراء أحكامها من غير إخلال بشىء منها ، وفى إبهامها أولا ثم بيانها ثانيا بقوله تعالى ﴿من كتاب الله﴾ من تفخيمها وإجلالها ذاتا وإضافه ، وتأكيد إيجاب حفظها والعمل بما فيها ما لا يخفى ، وإيرادها بعنوان الكتاب للإيماء إلى إيجاب حفظها عن التغيير من جهة الكتابة ، والباء الداخلة على الموصول متعلقة بيحكم لكن لا على أنها صلة كالتى فى قوله تعالى بها ، ليلزم تعلق حرفى جر متحدى المعنى بفعل واحد ، بل على أنها سببية أى ويحكم الربانيون والأحبار أيضا بسبب ما حفظوه من كتاب الله حسبما وصاهم به أنبياؤهم وسألوهم أن يحفظوه ، وليس المراد بسببيته لحكمهم ملك سببيته من حيث الذات بل من حيث كونه محفوظا ، فإن تعليق حكمهم بالموصول مشعر بسببية الحفظ المترتب لا محالة على ما فى حيز الصلة من الاستحفاظ له ، وقيل الباء صلة لفعل مقدر

معطوف على قوله تعالى ﴿ يحكم بها النبيون ﴾ عطف جملة على جملة ، أى ويحكم الربانيون والأحبار بحكم كتاب الله الذى سألهم أنبياؤهم أن يحفظوه من التغيير .

﴿ وكانوا عليه شهداء ﴾ أى رقباء يحمونه من أن يحوم حوله التغيير والتبديل بوجه من الوجوه ، فتغيير الأسلوب لما ذكر من المزايا ، وقيل بما استحفظوا بدل من قوله تعالى بها بإعادة العامل وهو بعيد ، وكذا تجويز كون الضمير فى استحفظوا للأنبياء والربانيين والأحبار جميعا على أن الاستحفاظ من جناب الله عز وجل أى كلفهم الله تعالى أن يحفظوه ويكونوا عليه شهداء ، وقوله تعالى وتقدس ﴿ فلا تخشوا الناس ﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات ، وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهى بطريق الدلالة دون العبارة ، والفاء لترتيب النهى على ما فصل من حال التوراة ، وكونها معتنى بشأنها فيما بين الأنبياء عليهم السلام ومن يقتدى بهم من الربانيين والأحبار المتقدمين عملا وحفظا ، فإن ذلك مما يوجب الاجتناب عن الإخلال بوظائف مراعاتها والمحافظة عليها بأى وجه كان فضلا عن التحريف والتغيير ولما كان مدار جراءتهم على ذلك خشية ذى سلطان أو رغبة فى الحظوظ الدنيوية نهوا عن كل منهما صريحا ، أى إذا كان شأنهما كما ذكر فلا تخشوا الناس كائنا من كان واقتدوا فى مراعاة أحكامها وحفظها بمن قبلكم من الأنبياء وأشياعهم ﴿ واخشون ﴾ فى الإخلال بحقوق مراعاتها فكيف بالتعرض لها بسوء .

﴿ ولا تشتروا بآياتى ﴾ الاشتراء استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه لا بذل الثمن لتحصيلها كما قيل ، ثم استعير لأخذ شىء بدلا مما كان له عينا كان أو معنى أخذا منوطا بالرغبة فيما أخذ والإعراض عما أعطى ، ونبذ كما فصل فى تفسير قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) فالمعنى لا تستبدلوا بآياتى التى فيها بأن تخرجوها منها أو تتركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلا منها ﴿ ثمنا قليلا ﴾ من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية ، فإنها وإن جلت قليلة مسترذلة فى نفسها ، لا سيما بالنسبة إلى ما فات عنهم بترك العمل بها ، وإنما

عبر عن المشترى الذى هو العمدة فى عقود المعاوضة والمقصد الأصلى بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة إلى تحصيله وأبرزت الآيات التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون فى معرض الآيات والوسائط حيث قرنت بالباء التى تصحب الوسائل إيذانا بمبالغتهم فى التعكيس بأن جعلوا المقصد الأقصى وسيلة والوسيلة الأدنى مقصدا ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ كائنا من كان دون المخاطبين خاصه فإنهم مندرجون فيه اندراجا أوليا أى من لم يحكم بذلك مستهينا به منكرا كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله تعالى اقتضاء بينا ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى من ، والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها ﴿ هم الكافرون﴾ لاستهانتهم به ، وهم إما ضمير الفصل أو مبتدأ وما بعده خبره والجملة لأولئك وقد مر تفصيله فى مطلع سورة البقرة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير وتحذير عن الإخلال به أشد تحذير حيث علق فيه الحكم بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى ، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه لاسيما مع مباشرة ما نهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضعه وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا .

﴿ وكتبنا﴾ عطف على أنزلنا التوراة ﴿عليهم﴾ أى على الذين هادوا وقرىء وأنزل الله على بنى إسرائيل ﴿فيها﴾ أى فى التوراة ﴿ أن النفس بالنفس ﴾ أى تقاد بها إذا قتلتها بغير حق ﴿ والعين ﴾ تفقأ ﴿ بالعين ﴾ إذا فقئت بغير حق ﴿ والأنف ﴾ بجدع ﴿ بالأنف ﴾ المقطوع بغير حق ﴿ والأذن ﴾ تصلم ﴿ بالأذن﴾ المقطوعة ظلما ﴿ والسن ﴾ تقلع ﴿ بالسن ﴾ المقلوعة بغير حق ﴿والجروح قصاص﴾ أى ذات قصاص إذا كانت بحيث تعرف المساواة ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة فنزلت ، وقرىء وإن الجروح قصاص وقرىء والعين إلى آخره بالرفع عطفا على محل أن النفس لأن المعنى كتبنا عليهم النفس بالنفس إما لإجراء كتبنا مجرى قلنا ، وإما لأن معنى الجملة التى هى قولك النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما يقع عليه القراءة تقول كتبت الحمد لله وقرأت سورة أنزلناها

﴿ فمن تصدق ﴾ أى من المستحقين ﴿ به ﴾ أى بالقصاص ، أى فمن عفا عنه والتعبير عنه بالتصديق للمبالغة فى الترغيب فيه ﴿ فهو ﴾ أى التصديق ﴿ كفارة له ﴾ أى للمتصدق يكفر الله تعالى بها ذنوبه ، وقيل للجانى إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه ، وقرىء فهو كفارته له ، أى فالمتصدق كفارته التى يستحقها بالتصدق له لا ينقص منها شىء وهو تعظيم لما فعل كقوله تعالى (فأجره على الله) .

﴿ ومن لم يحكم ﴾ كائنا من كان فيتناول من لا يرى قتل الرجل بالمرأة من اليهود تناولا بينا ﴿ بما أنزل الله ﴾ من الأحكام والشرائع كائنا ما كان فيدخل فيها الأحكام المحكية دخولا أوليا ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ المبالغون فى الظلم المتعدون لحدوده تعالى الواضعون للشىء فى غير موضعه والجملة تذييل مقرر لإيجاب العمل بالأحكام المذكورة ﴿ وقفينا على آثارهم ﴾ شروع فى بيان أحكام الإنجيل إثر بيان أحكام التوراة وهو عطف على أنزلنا التوراة أى آثار النبيين المذكورين يقال قفيته بفلان إذا أتبعته إياه فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه أى قفيناهم ﴿ بعيسى ابن مريم ﴾ أى أرسلناه عقيبهم ﴿ مصدقا لما بين يديه من التوراة ﴾ حال من عيسى عليه السلام ﴿ وآتيناه الإنجيل ﴾ عطف على قفينا وقرىء بفتح الهمزة ﴿ فيه هدى ونور ﴾ كما فى التوراة وهو فى محل النصب على أنه حال من الإنجيل أى كائنا فيه ذلك كأنه قيل مشتملا على هدى ونور وتنوين هدى ونور للتفخيم ويندرج فى ذلك شواهد نبوته عليه السلام ﴿ ومصدقا لما بين يديه من التوراة ﴾ عطف عليه داخل فى حكم الحالية وتكرير ما بين يديه من التوراة لزيادة التقرير ﴿ وهدى وموعظة للمتقين ﴾ عطف على مصدقا منتظم معه فى سلك الحالية جعل كله هدى بعد ما جعل مشتملا عليه حيث قيل فيه هدى وتخصيص كونه هدى وموعظة بالمتقين لأنهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه .

﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ أمر مبتدأ لهم بأن يحكموا

ويعملوا بما فيه من الأمور التى من جملتها دلائل رسالته عليه الصلاة والسلام وشواهد نبوته وما قرره الشريعة الشريفة من أحكامه ، وأما أحكامه المنسوخة فليس الحكم بهما حكما بما أنزل الله فيه بل هو إبطال وتعطيل له ، إذ هو شاهد بنسخها وانتهاء وقت العمل بها ، لأن شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة شهادة بنسخها ، وبأن أحكامه ما قررته تلك الشريعة التى شهد بصحتها كما سيأتى فى قوله تعالى (يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل) الآية ، وقيل هو حكاية للأمر الوارد عليهم بتقدير فعل معطوف على آتيناه أى وقلنا ليحكم أهل الإنجيل الخ وقرىء وأن ليحكم على أن أن موصولة بالأمر كما فى قولك أمرته بأن قم ، كأنه قيل وآتيناه الإنجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل الخ وقرىء على صيغة المضارع ولام التعليل على أنها متعلقة بمقدر كأنه قيل وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه آتيناه إياه ، وقد عطف على هدى وموعظة على أنهما مفعول لهما ، كأنه قيل : وللهدى والموعظة آتيناه إياه وللحكم بما أنزل الله فيه .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ منكرا له مستهينا به ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ المتمردون الخارجون عن الإيمان والجملة تذييل مقرر لمضمون الجملة السابقة ومؤكد لوجوب الامتثال بالأمر ، وفيه دلالة على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام ، وأن عيسى عليه السلام كان مستقلا بالشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الأحكام قلت أو كثرت ، لا بما فى التوراة خاصة ، وحمله على معنى وليحكم بما أنزل الله فيه إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر .

مكانة القرآن وأنصاره وخصومه

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب ﴾ أى الفرد الكامل الحقيق بأن يسمى كتابا على الإطلاق لحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوى وتفوقه على بقية أفراده وهو القرآن الكريم ، فاللام للعهد والجملة عطف على أنزلنا وما عطف عليه وقوله تعالى ﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا مؤكدة من

الكتاب أى ملتبسا بالحق والصدق ، وقيل من فاعل أنزلنا ، وقيل من الكاف فى إليك وقوله تعالى ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ حال من الكتاب أى حال كونه مصدقا لما تقدمه إما من حيث أنه نازل حسبما نعت فيه ، أو من حيث أنه موافق له فى القصص والمواعيد والدعوة إلى الحق والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش ، وأما مايتراءى من مخالفته له فى بعض جزئيات الأحكام المتغيرة بسبب تغير الأعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى موافقة لها من حيث أن كلا من تلك الأحكام حق بالإضافة إلى عصره متضمن للحكمة التى عليها يدور أمر الشريعة ، وليس فى المتقدم دلالة على أبدية أحكامه المنسوخة حتى يخالفه الناسخ المتأخر[1] ، وإنما يدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها ، بل نقول هو ناطق بزوالها لما أن النطق بصحة ما ينسخها نطق بنسخها وزوالها وقوله تعالى ﴿ من الكتاب ﴾ بيان لما ، واللام للجنس ، إذ المراد هو الكتاب السماوى وهو بهذا العنوان جنس برأسه ، وإن كان فى نفسه نوعا مخصوصا من مدلول لفظ الكتاب ، وعن هذا قالوا اللام للعهد ، إلا أن ذلك لاينتهى إلى خصوصية الفردية بل إلى خصوصية النوعية التى هى أخص من مطلق الكتاب وهو ظاهر ، ومن الكتاب السماوى أيضاً حيث خص بما عدا القرآن ﴿ ومهيمنا عليه ﴾ أى رقيبا على سائر الكتب المحفوظة من التغيير لأنه يشهد لها بالصحة والثبات ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها ، ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها ، ولا ريب فى أن تمييز أحكامها الباقية على المشروعية أبدا عما انتهى وقت مشروعيته وخرج عنها من أحكام كونه مهيمنا عليه ، وقرىء ومهيمنا عليه على صيغة المفعول أى هومن عليه وحوفظ من التغيير والتبديل كقوله عز وجل (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)

---

(١) فى ١٠ حتى يخالف المتأخر المتقدم .

والحافظ إما من جهته تعالى كما فى قوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أو الحفاظ فى الأعصار والأمصار والفاء فى قوله تعالى :

﴿ فاحكم بينهم ﴾ لترتيب ما بعدها على ماقبلها ، فإن كون شأن القرآن العظيم حقا مصدقا لما قبله من الكتب المنزله على الأمم مهيمنا عليه من موجبات الحكم المأمور به ، أى إذا كان القرآن كما ذكر فاحكم بين أهل الكتابين عند تحاكمهم إليك ﴿ بما أنزل الله ﴾ أى بما أنزله إليك فإنه مشتمل على جميع الأحكام الشرعية الباقية فى الكتب الإلهية ، وتقديم بينهم للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم ، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على علية ما فى حيز الصلة للحكم ، والالتفات بإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم .

﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ الزائغة ﴿ عما جاءك من الحق ﴾ الذى لا محيد عنه، وعن متعلقة بلا تتبع على تضمين معنى العدول ونحوه ، كأنه قيل ولا تعدل عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم ، وقيل بمحذوف وقع حالا من فاعله ، أى لاتتبع أهواءهم عادلا عما جاءك وفيه أن ماوقع حالا لا بد أن يكون فعلا عاما ووضع الموصول موضع ضمير الموصول الأول للإيماء بما فى حيز الصلة من مجيء الحق إلى ما يوجب كمال الاجتناب عن اتباع الأهواء وقوله تعالى .

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ كلام مستأنف جيء به لحمل أهل الكتابين من معاصريه عليه الصلاة والسلام على الانقياد لحكمه بما أنزل إليه من القرآن الكريم ببيان أنه هو الذى كلفوا العمل به دون غيره من الكتابين ، وإنما الذين كلفوا العمل بهما من مضى قبل نسخهما من الأمم السالفة والخطاب بطريق التلوين والالتفات للناس كافة لكن لا للموجودين خاصة بل للماضين أيضا بطريق التغليب ، واللام متعلقة بجعلنا المعتدى لواحد ، وهو إخبار بجعل ماض لا إنشاء ، وتقديمها عليه للتخصيص ومنكم متعلق بمحذوف وقع صفة لما عوض عنه تنوين كل ولا ضير فى توسط جعلنا بين الصفة والموصوف كما فى قوله تعالى (أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات) الخ والمعنى لكل أمة كائنه

منكم أيها الأمم الباقية والخالية جعلنا أى عينا وضعنا شرعة ومنهاجا خاصين بتلك الأمة لاتكاد أمة تتخطى شرعيتها التى عينت لها . فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام شرعيتهم التوراة والتى كانت من مبعث عيسى إلى مبعث النبى عليهما الصلاة والسلام شرعتهم الإنجيل ، وأما أنتم أيها الموجودون فشرعتكم القرآن ليس إلا ، فآمنوا به واعملوا بما فيه والشرعة والشريعة هى الطريقة إلى الماء شبه بها الدين لكونه سبيلا موصولا إلى ماهو سبب للحياة الأبدية ، كما أن الماء سبب للحياة الفانية ، والمنهاج الطريق الواضح فى الدين من نهج الأمر إذا وضح ، وقرىء شرعة بفتح الشين، قيل فيه دليل على أنا غير متعبدين بشرائع من قبلنا ، والتحقيق أنا متعبدون بأحكامها الباقية من حيث أنها أحكام شرعتنا لا من حيث أنها شرعة للأولين .

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ متفقة على دين واحد فى جميع الأعصار من غير اختلاف بينكم وبين من قبلكم من الأمم فى شىء من الأحكام الدينية ولا نسخ ولا تحويل ومفعول المشيئة محذوف تعويلا على دلالة الجزاء عليه ، أى ولو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم الخ ، وقيل المعنى لو شاء الله اجتماعكم على الإسلام لأجبركم عليه (١) .

﴿ ولكن ليبلوكم ﴾ متعلق بمحذوف يستدعيه النظام ، أى ولكن لم يشأ ذلك أى أن يجعلكم أمة واحدة بل شاء ما عليه السنة الإلهية الجارية فيما بين الأمم ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿ فيما آتاكم ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها وقرونها هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى المشيئة الإلهية المبنية على أساس الحكم البالغة والمصالح النافعة لكم فى معاشكم ومعادكم أو تزيغون عن الحق وتتبعون الهوى وتستبدلون المضرة بالجدوى وتشترون الضلالة بالهدى ، وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة المذكورة ليس

---

(١) فى ١٠ : على ذلك .

مجرد الابتلاء بل العمدة فى ذلك ما أشير إليه من انطواء الاختلاف على مافيه مصلحتهم معاشا ومعادا كما ينبىء عنه قوله عز وجل ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ أى إذا كان الأمر كما ذكر فسارعوا إلى ماهو خير لكم فى الدارين من العقائد الحقة والأعمال الصالحة المندرجة فى القرآن الكريم وابتدروها انتهازا للفرصة وإحرازاً لسابقة الفضل والتقدم ، ففيه من تأكيد الترغيب فى الإذعان للحق وتشديد التحذير عن الزيغ ما لايخفى وقوله تعالى ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ استئناف مسوق مساق التعليل لاستباق الخيرات بما فيه من الوعد والوعيد وقوله تعالى ﴿ جميعا ﴾ حال من ضمير الخطاب والعامل فيه إما المصدر المنحل إلى حرف مصدرى وفعل مبنى للفاعل أو مبنى للمفعول وإما الاستقرار المقدر فى الجار ﴿ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ أى فيفعل بكم من الجزاء الفاصل بين المحق والمبطل مالا يبقى لكم معه شائبة شك فيما كنتم فيه تختلفون فى الدنيا ، وإنما عبر عن ذلك بما ذكر لوقوعه موقع إزالة الاختلاف التى هى وظيفة الإخبار.

﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ عطف على الكتاب ، أى أنزلنا إليك الكتاب والحكم بما فيه والتعرض لعنوان إنزاله تعالى إياه لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر ، أو على الحق أى أنزلناه بالحق وبأن احكم وحكاية إنزال الأمر بهذا الحكم بعد ما مر من الأمر الصريح بذلك تأكيد له وتمهيد لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ أى يصرفوك عن بعضه ولو كان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق ، وإظهار الاسم الجليل لتأكيد الأمر بتهويل الخطب وأن بصلته بدل اشتمال من ضميرهم أى احذر فتنتهم ، أو مفعول له أى احذرهم مخافة أن يفتنوك ، وإعادة ما أنزل الله لتأكيد التحذير بتهويل الخطب .

روى أن أحبار اليهود قالوا اذهبوا بنا إلى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فذهبوا إليه صلى الله عليه وسلم وقالوا يا أبا القاسم قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضى لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك ، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

فنزلت ﴿فإن تولوا﴾ أى أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى وأرادوا غيره ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أى بذنب توليهم عن حكم الله عز وجل ، وإنما عبر عنه بذلك إيذانا بأن لهم ذنوبا كثيرة هذا مع كمال عظمة واحد من جملتها ، وفى هذا الإبهام تعظيم للتولى كما فى قول لبيد * أو يرتبط بعض النفوس حمامها * يريد به نفسه أى نفسا كبيرة ونفسا أى نفس ﴿وإن كثيرا من الناس لفاسقون﴾ أى متمردون فى الكفر مصرون عليه خارجون عن الحدود المعهودة وهو اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله .

﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ إنكار وتعجيب من حالهم وتوبيخ لهم ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية ، وتقديم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب لأن التولى عن حكمه عليه الصلاة والسلام وطلب حكم آخر منكر عجيب وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب ، والمراد بالجاهلية إما الملة الجاهلية التى هى متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة فى الأحكام فيكون تعييرا لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التى هى هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحى ، وإما أهل الجاهلية وحكمهم ما كانوا عليه من التفاضل فيما بين القتلى ، حيث روى أن بنى النضير لما تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خصومة قتل وقعت بينهم وبين بنى قريظة طلبوا إليه عليه الصلاة والسلام أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « القتلى سواء » فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك فنزلت ، وقرىء برفع الحكم على أنه مبتدأ ويبغون خبره والراجع محذوف[1] حذفه فى قوله تعالى (أهذا الذى بعث الله رسولا) وقد استضعف ذلك فى غير الشعر، وقرىء بتاء الخطاب إما بالالتفات لتشديد التوبيخ وإما بتقدير القول أى قل لهم أفحكم إلخ وقرىء بفتح الحاء والكاف أى أفحكما كحكام الجاهلية يبغون

(١) فى ١٠ والضمير محذوف .

﴿ ومن أحسن من الله حكما ﴾ إنكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى أو مساو له ، وإن كان ظاهر السبك غير متعرض لنفى المساواة وإنكارها ، وقد مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) ﴿ لقوم يوقنون ﴾ أى عندهم ، واللام كما فى هيت لك ، أى هذا الاستفهام لهم فإنهم الذين يتدبرون الأمور بأنظارهم ،فيعلمون يقينا أن حكم الله الله عز وجل أحسن الأحكام وأعدلها .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب يعم حكمه كافة المؤمنين من المخلصين وغيرهم وإن كان سبب وروده بعضاً منهم كما سيأتى ، ووصفهم بعنوان الإيمان لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه بقوله عز وجل ﴿ لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ فإن تذكير اتصافهم بضد صفات الفريقين من أقوى الزواجر عن موالاتهما ، أى لا يتخذ أحد منكم أحدا منهم وليا ، بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الأحباب ومعاشرتهم لا بمعنى لا تجعلوهم أولياء لكم حقيقة ، فإنه أمر ممتنع فى نفسه لا يتعلق به النهى ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ أى بعض كل فريق من ذينك الفريقين أولياء بعض آخر من ذلك الفريق لا من الفريق الآخر ، وإنما أوثر الإجمال فى البيان تعويلا على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين فريقى اليهود والنصارى رأسا ، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهى وتأكيد لإيجاب الإجتناب عن المنهى عنه أو بعضهم أولياء بعض متفقون على كلمة واحدة فى كل ما يأتون وما يذرون ومن ضرورته إجماع الكل على مضادتكم ومضارتكم بحيث يسومونكم السوء ويبغونكم الغوائل ، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة وقوله تعالى ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ حكم مستنتج منه ، فإن انحصار الموالاة فيما بينهم يستدعى كون من يواليهم منهم ضرورة أن الاتحاد فى الدين الذى عليه يدور أمر الموالاة حيث لم يكن بكونهم ممن يواليهم من المؤمنين تعين أن يكون ذلك يكون من يواليهم منهم ، وفيه زجر شديد للمؤمنين عن إظهار صورة الموالاة لهم وإن لم تكن موالاة فى الحقيقة وقوله تعالى :

﴿ إن الله لايهدى القوم الظالمين ﴾ تعليل لكون من يتولاهم منهم أى لايهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم فيقعون فى الكفر والضلالة ، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيها على أن توليهم ظلم لما أنه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالد ووضع للشيء فى غير موضعه وقوله تعالى ﴿ فترى الذين فى قلوبهم مرض ﴾ بيان لكيفية توليهم ، وإشعار بسببه وبما يؤول إليه أمرهم ، والفاء للإيذان بترتبه على عدم الهداية والخطاب إما للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين ، وإما لكل أحد ممن له أهلية له ، وفيه مزيد تشنيع للتشنيع ، أى لايهديهم بل يذرهم وشأنهم فتراهم الخ،وإنما وضع موضع الضمير الموصول ليشار بما فى حيز صلته إلى أن ما ارتكبوه من التولى بسبب ما فى قلوبهم من مرض النفاق ورخاوة العقد فى الدين وقوله تعالى ﴿ يسارعون فيهم ﴾ حال من الموصول والرؤية بصرية ، وقيل مفعول ثان والرؤية قلبية ، والأول هو الأنسب بظهور نفاقهم ، أى تراهم مسارعين فى موالاتهم،وإنما قيل فيهم مبالغة فى بيان رغبتهم فيها وتهالكهم عليها وإيثار كلمة فى على كلمة إلى للدلالة على أنهم مستقرون فى الموالاة ، وإنما مسارعتهم من بعض مراتبها إلى بعض آخر منها كما فى قوله تعالى .

(أولئك يسارعون فى الخيرات) لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها كما فى قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) وقرىء فيرى بياء الغيبة على أن الضمير لله سبحانه ،وقيل لمن تصح منه الرؤية،وقيل الفاعل هو الموصول والمفعول هو الجملة على حذف أن المصدرية ، والرؤية قلبية أى ويرى القوم الذين فى قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم ، فلما حذفت أن انقلب الفعل مرفوعا كما فى قول من قال :

٭ ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى ٭

والمراد بهم عبد الله بن أبى وأضرابه الذين كانوا يسارعون فى موادة اليهود ونصارى نجران وكانوا يعتذرون إلى المؤمنين بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم صروف الزمان وذلك قوله تعالى ﴿ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ وهو حال

من ضمير يسارعون ، والدائرة من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها، أى تدور علينا دائرة من دوائر الدهر ودولة من دوله بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار ، وقيل نخشى أن يصيبنا مكروه من مكاره الدهر كالجدب والقحط فلا يعطونا الميرة والقرض . روى أن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لى موالى من اليهود كثيراً عددهم وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم ، وآوى[1] إلى الله ورسوله . فقال عبد الله ابن أبى: إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى وهم يهود بنى قينقاع ولعله يظهر للمؤمنين أنه يريد بالدوائر المعنى الأخير ويضمر فى نفسه المعنى الأول وقوله تعالى :

﴿ فعسى الله أن يأتى بالفتح ﴾ رد من جهة الله تعالى لعللهم الباطلة وقطع لأطماعهم الفارغة وتبشير للمؤمنين بالظفر ، فإن عسى منه سبحانه وعد محتوم، لما أن الكريم إذا أطمع أطعم لا محالة فما ظنك بأكرم الأكرمين ، وأن يأتى فى محل النصب على أنه خبر عسى وهو رأى الأخفش ، أو على أنه مفعول به وهو رأى سيبويه ، لئلا يلزم الإخبار عن الجثة بالحدث كما فى قولك عسى زيد أن يقوم ، والمراد بالفتح فتح مكة قاله الكلبى والسدى ، وقال الضحاك فتح قرى اليهود من خيبر وفدك ، وقال قتادة ومقاتل هو القضاء الفصل بنصره عليه الصلاة والسلام على من خالفه وإعزاز الدين ﴿ أو أمر من عنده ﴾ بقطع شأفة اليهود من القتل والإجلاء ﴿ فيصبحوا ﴾ أى أولئك المنافقون المتعللون بما ذكر وهو عطف على ما يأتى داخل معه فى حيز خبر عسى ، وإن لم يكن فيه ضمير يعود إلى اسمها ، فإن فاء السببية مغنية عن ذلك ، فإنها تجعل الجملتين كجملة واحدة ﴿ على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ﴾ وهو ما كانوا يكتمونه فى أنفسهم من الكفر والشك فى أمره عليه الصلاة والسلام ، وتعليق الندامة به لا بما كانوا يظهرونه من موالاة الكفرة لما أنه الذى كان يحملهم على المولاة

---

(١) فى ط : وأو ، تحريف .

ويغريهم عليها فدل ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها

﴿ ويقول الذين آمنوا ﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة وقرىء بغير واو على أنه جواب سؤال نشأ مما سبق كأنه قيل فماذا يقول المؤمنون حينئذ ، وقرىء ويقول بالنصب عطفا على يصبحوا ، وقيل على يأتى باعتبار المعنى كأنه قيل: فعسى أن يأتى الله بالفتح ويقول الذين آمنو والأول أوجه ، لأن هذا القول إنما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة المنافقين لا عند إتيان[1] الفتح فقط ، والمعنى ويقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون دولتهم ويظهرون لهم غاية المحبة وعدم المفارقة عنهم فى السراء والضراء عند مشاهدتهم لخيبة رجائهم وانعكاس تقديرهم بوقوع ضد ما كانوا يترقبونه ويتعللون به تعجيبا للمخاطبين من حالهم وتعريضا بهم ﴿ أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ﴾ أى بالنصر والمعونة كما قالوا فيما حكى عنهم وإن قوتلتم لننصرنكم ، واسم الإشارة مبتدأ وما بعده خبره ، والمعنى إنكار ما فعلوه واستبعاده وتخطئتهم فى ذلك ، أو يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين إلى المنافقين أيضاً أهؤلاء الذين أقسموا للكفرة إنهم لمعكم ، فالخطاب فى معكم لليهود على التقديرين إلا أنه على الأول من جهة المؤمنين وعلى الثانى من جهة المقسمين وهذه الجملة لا محل لها من الإعراب لأنها تفسير وحكاية لمعنى أقسموا لكن لا بألفاظهم وإلا لقيل إنا لمعكم وجهد الإيمان أغلظها وهو فى الأصل مصدر ونصبه على الحال على تقدير وأقسموا بالله يجهدون جهد أيمانهم ، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ، ولا يبالى بتعريفه لفظا لأنه مؤول بنكرة أى مجتهدين فى أيمانهم أو على المصدر أى أقسموا إقسام اجتهاد فى اليمين وقوله تعالى .

﴿ حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾ إما جملة مستأنفه مسوقة من جهته تعالى لبيان مآل ما صنعوه من ادعاء الولاية والإقسام على المعيه فى والمنشط

(١) فى ١٠ ط : حصول الفتح .

والمكره إثر الإشارة إلى بطلانه بالاستفهام الإنكارى ، وإما خبر ثان للمبتدأ عنه من يجوز كونه جملة كما فى قوله تعالى (فإذا هى حية تسعى) أو هو الخبر والموصول مع ما فى حيز صلته صفة لاسم الإشارة فالاستفهام حينئذ للتقرير ، وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم ، والمعنى بطلت أعمالهم التى عملوها فى شأن موالاتكم وسعوا فى ذلك سعياً بليغاً حيث لم تكن لكم دولة فينتفعوا بما صنعوا من المساعى وتحملوا من مكابدة المشاق وفيه من الاستهزاء بالمنافقين والتقريع للمخاطبين ما لا يخفى ، وقيل قاله بعض المؤمنين مخاطبا لبعض تعجبا من سوء حال المنافقين واغتباطا بما من الله تعالى على أنفسهم من التوفيق للإخلاص أهؤلاء الذين أقسموا لكم بأغلظ الأيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين الناس، وأنت خبير بأن ذلك الكلام من المؤمنين إنما يليق بما لو أظهر المنافقون حينئذ خلاف ما كانوا يدعونه ويقسمون عليه من ولاية المؤمنين ومعاضدتهم على الكفار فظهر كذبهم وافتضحوا بذلك على رءوس الأشهاد وبطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين المؤمنين ، ولا ريب فى أنهم يومئذ أشد ادعاء وأكثر إقساما منهم قبل ذلك ، فضلا عن أن يظهروا خلاف ذلك ، وإنما الذى يظهر منهم الندامة على ما صنعوا وليس ذلك علامة ظاهرة الدلالة على كفرهم وكذبهم فى ادعائهم ، فإنهم يدعون أن ليست ندامتهم إلا على ما أظهروه من موالاة الكفرة خشية إصابة الدائرة .

﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ﴾ وقرىء يرتدد بالفك على لغة الحجاز والإدغام لغة تميم لما نهى فيما سلف عن موالاة اليهود والنصارى وبين أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين وفصل مصير أمر من يواليهم من المنافقين شرع فى بيان حال المرتدين على الإطلاق وهذا من الكائنات التى أخبر عنها القرآن قبل وقوعها . روى أنه ارتد عن الإسلام إحدى عشره فرقة ثلاث فى عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار ، وهو الأسود العنسى ، كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده فأخرج منها

عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب عليه الصلاة والسلام إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن فأهلكه الله الله تعالى على يدى فيروز الديلمى بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلة قتل فسر به المسلمون وقبض عليه الصلاة والسلام من الغد وأتى خبره فى آخر شهر ربيع الأول، وبنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب تنبأ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك .

فأجاب عليه الصلاة والسلام : « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فحاربه أبو بكر رضى الله عنه بجنود المسلمين وقتل على يدى وحشى قاتل حمزة رضى الله عنه . وكان يقول : قتلت فى جاهليتى خير الناس وفى إسلامى شر الناس ، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد ، تنبأ فبعث إليه أبو بكر رضى الله عنه خالد ابن الوليد فانهزم بعد القتال إلى الشام فأسلم وحسن إسلامه ، وسبع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه فزاره قوم عيينة بن حصن ، وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيرى ، وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل ، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة ، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة ، التى زوجت نفسها من مسيلمة الكذاب ، وفيها يقول أبو العلاء المعرى فى كتاب استغفر واستغفرى:

آمت سجاح ووالاها مسيلمة كذابة فى بنى الدنيا وكذاب

وكندة قوم الأشعث بن قيس ، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم ابن زيد ، وكفى الله تعالى أمرهم على يد أبى بكر رضى الله عنه ، وفرقة واحدة فى عهد عمر رضى الله عنه غسان قوم جبلة بن الأيهم نصرته اللطمة ، وسيرته إلى بلاد الروم وقصته مشهورة وقوله تعالى ﴿فسوف يأتى الله﴾ جواب الشرط والعائد إلى اسم الشرط محذوف أى فسوف يأتى الله مكانهم بعد إهلاكهم ﴿بقوم يحبهم﴾ أى يريد بهم خيرى الدنيا والآخرة ، ومحل الجملة الجر على أنها صفة لقوم ، وقوله تعالى ﴿ويحبونه﴾ أى يريدون طاعته ويتحرزون عن معاصيه معطوف عليها داخل فى حكمها ، قيل هم أهل اليمن لما روى أن النبى

عليه الصلاة والسلام أشار إلى أبي موسى الأشعري وقال قوم هذا، وقيل هم الأنصار رضي الله عنهم وقيل هم الفرس لما روى أنه عليه السلام سئل عنهم فضرب بيده الكريمة على عاتق سلمان رضي الله عنه وقال: «هذا وذووه» ثم قال: «لو كان الإيمان معلقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس» وقيل هم ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وثلاثة آلاف من أفناء الناس جاهدوا يوم القادسية .

﴿ أذلة على المؤمنين ﴾ جمع ذليل لا ذلول فإن جمعه ذلل أي أرقاء رحماء متذللين ومتواضعين لهم واستعماله بعلى إما لتضمين معنى العطف والحنو أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم، أو لرعاية المقابلة بينه وبين ما في قوله تعالى ﴿ أعزة على الكافرين ﴾ أي أشداء متغلبين عليهم من عزه إذ غلبه كما في قوله عز وعلا (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وهما صفتان أخريان لقوم ترك بينهما العاطف للدلالة على استقلالهم بالاتصاف بكل منهما ، وفيه دليل على صحة تأخير الصفة الصريحة من الجملة والظرف ، كما في قوله تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) وقوله تعالى (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقوله تعالى (ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) وما ذهب إليه من لا يجوزه من أن قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) كلا معترض وأن مبارك خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ محذوف وأن من ربهم ومن الرحمن حالان مقدمتان من ضمير محدث تكلف لا يخفى ، وقرىء أذلة وأعزة بالنصب على الحالية من قوم لتخصصه بالصفة .

﴿ يجاهدون في سبيل الله ﴾ صفة أخرى لقوم مترتبة على ما قبلها مبينة مع ما بعدها لكيفية عزتهم أو حال من ضمير في أعزة ﴿ ولا يخافون لومة لائم ﴾ عطف على يجاهدون بمعنى أنهم جامعون بين المجاهدة في سبيل الله وبين التصلب في الدين وفيه تعريض بالمنافقين فإنهم كانوا إذا خرجوا في جيش المسلمين خافوا أولياءهم اليهود فلا يكادون يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جهتهم ، وقيل هو حال من فاعل يجاهدون بمعنى أنهم يجاهدون وحالهم خلاف حال المنافقين واعترض عليه بأنهم نصوا على أن المضارع المنفي بلا أو ما

كالمثبت فى عدم جواز مباشرة واو الحال له واللومة المرة من اللوم ، وفيها وفى تنكير لائم مبالغة لا تخفى .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف الجليلة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتها فى الفضل ﴿ فضل الله ﴾ أى لطفه وإحسانه لا أنهم مستقلون فى الاتصاف بها ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ إيتاء إياه ويوفقه لكسبه وتحصيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ والله واسع ﴾ كثير الفواضل والألطاف ﴿ عليم ﴾ مبالغ فى العلم بجميع الأشياء التى من جملتها من هو أهل للفضل والتوفيق والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله ، وإظهار الاسم الجليل للإشعار بالعلة وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية .

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ لما نهاهم الله عز وجل عن موالاة الكفرة وعلله بأن بعضهم أولياء بعض لا يتصور ولايتهم للمؤمنين ، وبين أن من يتولاهم يكون من جملتهم ، بين ههنا من هو وليهم بطريق قصر الولاية عليه كأنه قيل : لا تتخذوهم أولياء ، لأن بعضهم أولياء بعض وليسوا بأوليائكم ، إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا تتخطوهم إلى غيرهم ، وإنما أفرد الولى مع تعدده للإيذان بأن الولاية أصالة لله تعالى وولايته عليه السلام ، وكذا ولاية المؤمنين بطريق التبعية لولايته عز وجل ﴿ الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة ﴾ صفة للذين آمنوا لجريانه مجرى الاسم أو بدل منه أو نصب على المدح أو رفع عليه ﴿ وهم راكعون ﴾ حال من فاعل الفعلين أى يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى ، وقيل هو حال مخصوصة بإيتاء الزكاة والركوع ركوع الصلاة ، والمراد بيان كمال رغبتهم فى الإحسان ومسارعتهم إليه ، وروى أنها نزلت فى على رضى الله عنه حين سأله سائل وهو راكع فطرح إليه خاتمه كأنه كان مرجا فى خنصره غير محتاج فى إخراجه إلى كثير عمل يؤدى إلى فساد الصلاة ، ولفظ الجمع حينئذ لترغيب الناس فى مثل فعله رضى الله عنه ، وفيه دلالة على أن صدقة التطوع تسمى زكاة ﴿ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ أوثر

الإظهار على أن يقال ومن يتولهم رعاية لما مر من نكتة بيان أصالته تعالى فى الولاية كما ينبىء عنه قوله تعالى :

﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ حيث أضيف الحزب إليه تعالى خاصة وهو أيضا من باب وضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى من ، أى فإنهم الغالبون لكنهم جعلوا حزب الله تعالى تعظيما لهم وإثباتا لغلبتهم بالطريق البرهانى ، كأنه قيل ومن يتول هؤلاء فإنهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا ﴾ روى أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الإسلام ثم نافقا وكان رجال من المؤمنين يوادونهما فنهوا عن موالاتهما ، ورتب النهى على وصف يعمهما وغيرهما تعميما للحكم وتنبيها على العلة وإيذانا بأن من هذا شأنه جدير بالمعاداة فكيف بالموالاة ﴿ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ بيان للمستهزئين والتعرض لعنوان إيتاء الكتاب لبيان كمال شناعتهم وغاية ضلالتهم لما أن إيتاء للكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسس على الكتاب المصدق لكتابهم ﴿ والكفار ﴾ أى المشركين خصوا به لتضاعف كفرهم وهو عطف على الموصول الأول ففيه إشعار بأنهم ليسوا بمستهزئين كما ينبىء عنه تخصيص الخطاب بأهل الكتاب فى قوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب هل تنقمون منا ﴾ الآية وقرىء بالجر عطفا على الموصول الأخير ويعضده قراءة أبى ومن الكفار وقراءة عبد الله ومن الذين أشركوا فهم أيضا من جملة المستهزئين ﴿ أولياء ﴾ وجانبوهم كل المجانبة .

﴿ واتقوا الله ﴾ فى ذلك بترك موالاتهم أو بترك المناهى على الإطلاق فيدخل فيه ترك موالاتهم دخولا أوليا ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى حقا فإن قضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلوة اتخذوها ﴾ أى الصلاة أو المناداة ، ففيه دلالة على شرعية الأذان ﴿ هزوا ولعبا ﴾ بيان لاستهزائهم بالدين على الإطلاق إظهارا لكمال شقاوتهم . روى أن نصرانيا بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمدا رسول الله يقول أحرق الله الكاذب فدخل

خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطايرت منه شرارة فى البيت فأحرقته وأهله جميعا ﴿ذلك﴾ أى الاستهزاء المذكور ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿قوم لا يعقلون﴾ فإن السفه يؤدى إلى الجهل بمحاسن الحق والهزؤ به ولو كان لهم عقل فى الجملة لما اجترءوا على تلك العظيمة ﴿قل﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق تلوين الخطاب بعد نهى المؤمنين عن تولى المستهزئين بأن يخاطبهم ويبين أن الدين منزه عما يصحح صدور ما صدر عنهم من الاستهزاء ويظهر لهم سبب ما ارتكبوه ويلقمهم الحجر أى قل لأولئك الفجرة ﴿يا أهل الكتاب﴾ وصفوا بأهلية الكتاب تمهيداً لما سيأتى من تبكيتهم وإلزامهم بكفرهم بكتابهم ﴿هل تنقمون منا﴾ من نقم منه كذا إذا عابه وأنكره وكرهه ينقمه من حد ضرب وقرىء بفتح القاف من حد علم وهى أيضا لغة أى ماتعيبون وماتنكرون منا ﴿إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ من القرآن المجيد ﴿وما أنزل من قبل﴾ أى من قبل إنزاله من التوراة والإنجيل المنزلين عليكم وسائر الكتب الإلهية ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ أى متمردون خارجون عن الإيمان بما ذكر فإن الكفر بالقرآن مستلزم للكفر بما يصدقه لا محالة وهو عطف على أن آمنا على أنه مفعول له لتنقمون والمفعول الذى هو الدين محذوف ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه دلالة واضحة فإن اتخاذ الدين هزوا ولعبا عين نقمه وإنكاره والإيمان بما فصل عين الدين الذى نقموه خلا أنه أبرز فى معرض علة نقمهم له تسجيلا عليهم بكمال المكابرة والتعكيس حيث جعلوه موجبا لنقمه مع كونه فى نفسه موجبا لقبوله وارتضائه ، فالاستثناء من أعم العلل أى ما تنقمون منا ديننا لعلة من العلل إلا لأن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل من كتبكم ، ولأن أكثركم متمردون غير مؤمنين بواحد مما ذكر حتى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحة كتابنا لآمنتم به وإسناد الفسق إلى أكثرهم لأنهم الحاملون(1) لأعقابهم على التمرد والعناد ، وقيل عطف عليه على أنه مفعول

---

(1) فى ١٠ حاملون.

لتنقمون منا لكن لا على أن المستثنى مجموع المعطوفين بل هو ما يلزمهما من المخالفة كأنه قيل ما تنقمون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا الإيمان وأنتم خارجون عنه ، وقيل على حذف المضاف أى واعتقاد أن أكثركم فاسقون ، وقيل عطف على ما أى ما تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وبأنكم فاسقون ، وقيل عطف على علة محذوفة أى لقلة إنصافكم ولأن أكثركم فاسقون وقيل الواو بمعنى مع أى ما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم الخ وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف أى وفسقكم معلوم أى ثابت والجملة حالية أو معترضة ، وقرىء بإن المكسورة والجملة مستأنفة مبينة لكون أكثرهم فاسقين متمردين .

﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك ﴾ لما أمر عليه الصلاة والسلام بإلزامهم وتبكيتهم ببيان أن مدار نقمهم للدين إنما هو اشتماله على ما يوجب ارتضاءه عندهم أيضا وكفرهم بما هو مسلم لهم أمر عليه الصلاة والسلام عقيبه بأن يبكتهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب حقيقة ما هم عليه من الدين المحرف وينعى عليهم فى ضمن البيان جناياتهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها على منهاج التعريض لئلا يحملهم التصريح بذلك على ركوب متن المكابرة والعناد ويخاطبهم قبل البيان بما ينبىء عن عظم شأن المبين ويستدعى إقبالهم على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة إلى المخبر به والتنبئة المشعرة بكونه أمرا خطيرا لما أن النبأ هو الخبر الذى له شأن وخطر وحيث كان مناط النقم شرية المنقوم حقيقة أو اعتقادا وكان مجرد النقم غير مفيد لشريته البتة ، قيل بشر من ذلك ولم يقل بأنقم من ذلك تحقيقا لشرية ما سيذكر وزيادة تقرير لها ، وقيل إنما قيل ذلك لوقوعه فى عبارة المخاطبين حيث أتى نفر من اليهود فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دينه فقال عليه الصلاة والسلام « أومن بالله وما أنزل إلينا إلى قوله : ونحن له مسلمون » فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام قالوا : لا نعلم شرا من دينكم ، وإنما اعتبر الشرية بالنسبة إلى الدين وهو منزه عن شائبة الشرية بالكلية مجاراة معهم على زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته ليثبت أن دينهم شر من

كل شر ، أى هل أخبركم بما هو شر فى الحقيقة مما تعتقدونه شرا ، وإن كان فى نفسه خيرا محضا ﴿ مثوبة عند الله ﴾ أى جزاء ثابتا فى حكمه ، وقرىء مثوبة وهى لغة فيها كمشورة ومشورة وهى مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر ، وإنما وضعت ههنا موضعها على طريقة قوله :

* تحية بينهم ضرب وجيع *

ونصبها على التمييز من بشر وقوله عز وجل ﴿ من لعنه الله وغضب عليه ﴾ خبر لمبتدأ محذوف بتقدير مضاف قبله مناسب لما أشير إليه بكلمة ذلك أى دين من لعنه الخ أو بتقدير مضاف قبلها مناسب لمن . أى بشر من أهل ذلك ، والجملة على التقديرين استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الجملة الاستفهامية إما على حالها وهو الظاهر المناسب لسياق النظم الكريم ، وإما باعتبار التقدير فيها فكأنه قيل : ما الذى هو شر من ذلك ؟ فقيل : هو دين من لعنه الله الخ أو قيل فى السؤال من ذا الذى هو شر من أهل ذلك فقيل هو من لعنه الله ، ووضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة وتهويل أمر اللعن وما تبعه والموصول عبارة عن المخاطبين حيث أبعدهم الله تعالى من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهما كهم فى المعاصى بعد وضوح الآيات وسنوح البينات .

﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ أى مسخ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم كفار مائدة عيسى عليه السلام ، وقيل كلا المسخين فى أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة وشيوخهم خنازير وجمع الضمير الراجع إلى الموصول فى منهم باعتبار معناه كما أن إفراد الضميرين الأولين باعتبار لفظه وإيثار وضعه موضع ضمير الخطاب المناسب لأنبئكم للقصد إلى إثبات الشرية بما عدد فى حيز صلته من الأمور الهائلة الموجبة لها على الطريقة البرهانية مع ما فيه من الاحتراز عن تهييج لجاجهم ﴿ وعبد الطاغوت ﴾ عطف على صلة من وإفراد الضمير لما مر وكذا عبد الطاغوت على قراءة البناء للمفعول ورفع الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بمعنى صار معبودا ، فالراجع إلى الموصول

محذوف على القراءتين ، أى عبد فيهم أو بينهم وتقديم أوصافهم المذكورة بصدد إثبات شرية دينهم على وصفهم هذا مع أنه الأصل المستتبع لها فى الوجود وأن دلالته على شريته بالذات ، لأن عبادة الطاغوت عين دينهم البين البطلان ودلالتها عليها بطريق الاستدلال بشرية الآثار على شرية ما يوجبها من الاعتقاد والعمل إما للقصد إلى تبكيتهم من أول الأمر بوصفهم بما لا سبيل لهم إلى الجحود لا بشريته وفظاعته ولا باتصافهم به وإما للإيذان باستقلال كل من المقدم والمؤخر بالدلالة على ما ذكر من الشرية ولو روعى ترتيب الوجود ، وقيل من عبد الطاغوت ولعنه الله وغضب عليه الخ لربما فهم أن علة الشرية هو المجموع وقد قرىء عابد الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بالإضافة على أنه نعت كفطن ويقظ ، وكذا عبدة الطاغوت ، وكذا عبد الطاغوت بالإضافة على أنه جمع عابد كخدم أو على أن أصله عبدة حذفت تاؤه للإضافة بالنصب فى الكل عطفا على القردة والخنازير ، وقرى عبد الطاغوت بالجر عطفا على من بناء على أنه مجرور بتقدير المضاف ، وقد قيل إن من مجرور على أنه بدل من شر على أحد الوجهين المذكورين فى تقدير المضاف ، وأنت خبير بأن ذلك مع اقتضائه إخلاء النظم الكريم عن المزايا المذكورة بالمرة مما لا سبيل إليه قطعا ضرورة أن المقصود الأصلى ليس مضمون الجملة الاستفهامية بل هو كما مر مقدمة سيقت أمام المقصود لهزؤ المخاطبين وتوجيه أذهانهم نحو تلقى ما يلقى إليهم عقيبها بجملة خبرية موافقة فى الكيفية للسؤال الناشىء عنها وهو المقصود إفادته ، وعليه يدور ذلك الإلزام والتبكيت حسبما شرح ، فإذا جعل الموصول بما فى حيز صلته من تتمة الجملة الاستفهامية فأين الذى يلقى إليهم عقيبها جوابا عما نشأ منها من السؤال ليحصل به الإلزام والتبكيت ، وأما الجملة الآتية فبمعزل من صلاحية الجواب ، كيف لا ولا بد من موافقته فى الكيفية للسؤال الناشىء عن الجملة الاستفهامية ، وقد عرفت أن السؤال الناشىء عنها يستدعى وقوع الشر من تتمة المخبر عنه لا خبرا كما فى الجملة المذكورة ، وسيتضح ذلك مزيد اتضاح بإذن الله تعالى ، والمراد بالطاغوت العجل ، وقيل هو الكهنة وكل من أطاعوه فى معصية

الله عز وجل فيعم الحكم دين النصارى أيضا ، ويتضح وجه تأخير ذكر عبادته عن العقوبات المذكورة ، إذ لو قدمت عليها لتوهم اشتراك الفريقين فى تلك العقوبات ولما كان مآل ما ذكر بصدر التبكيت أن ما هو شر مما نقموه دينهم أو أن من هو شر من أهل ما نقموه أنفسهم بحسب ماقدر من المضافين ، وكانت الشرية على كلا الوجهين من تتمة الموضوع غير مقصودة الإثبات لدينهم أولأنفسهم عقب ذلك بإثباتها لهم على وجه يشعر بعلية ما ذكر من القبائح لثبوتها لهم بجملة مستأنفة مسوغة من جهته سبحانه شهادة عليهم بكمال الشرارة والضلال ، أو داخلة تحت الأمر تأكيدا للإلزام وتشديدا للتبكيت فقيل :

﴿ أولئك شر مكانا ﴾ فاسم الإشارة عبارة عمن ذكرت صفاتهم الخبيثة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الشرارة أى أولئك الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شر مكانهم جعل مكانا شرا ليكون أبلغ فى الدلالة على شرارتهم ، وقيل شر مكانا أى منصرفا ﴿ وأضل عن سواء السبيل ﴾ عطف على شر مقرر له أى أكثر ضلالا عن الطريق المستقيم وفيه دلالة على كون دينهم شرا محضا بعيدا عن الحق لأن مايسلكونه من الطريق دينهم ، فإذا كانوا أضل كان دينهم ضلالا مبينا لا غاية وراءه ، وصيغة التفضيل فى الموضعين للزيادة مطلقا لا بالإضافة إلى من يشاركهم فى أصل الشرارة والضلال .

﴿ وإذا جاؤكم قالوا آمنا ﴾ نزلت فى ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظهرون له الإيمان نفاقا ، فالخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والجمع للتعظيم أوله مع من عنده من المسلمين أى إذا جاؤكم أظهروا الإسلام ﴿ وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ﴾ أى يخرجون من عندك ملتبسين بالكفر كما دخلوا لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك ، والجملتان حالان من فاعل دخلوا وخرجوا .

﴿ وترى ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب والرؤية بصرية ﴿ كثيراً منهم ﴾ من اليهود والمنافقين وقوله

تعالى ﴿ يسارعون فى الإثم ﴾ حال من كثيراً وقيل مفعول ثان والرؤية قلبية والأول أنسب بحالهم وظهور نفاقهم والمسارعة المبادرة والمباشرة للشيء بسرعة وإيثار كلمة فى على كلمة إلى الواقعة فى قوله تعالى ﴿ وسارعوا إلى مغفرة ﴾ الخ لما ذكر فى قوله تعالى ﴿ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ﴾ والمراد بالإثم الكذب على الإطلاق ، وقيل الحرام وقيل كلمة الشرك وقولهم عزير ابن الله وقيل هو ما يختص بهم من الآثام ﴿ والعدوان ﴾ أى الظلم المتعدى إلى الغير أو مجاوزة الحد فى المعاصى ﴿ وأكلهم السحت ﴾ أى الحرام خصه بالذكر مع الدراجة فى الإثم للمبالغة فى التقبيح ﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾ أى لبئس شيئاً كانوا يعملونه والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار .

﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار ﴾ قال الحسن : الربانيون علماء الإنجيل ، والأحبار علماء التوراة . وقيل كلهم فى اليهود وهو تحضيض للذين يقتدى بهم أفناؤهم ويعلمون قباحة ما هم فيه وسوء مغبته على نهى أسافلهم عن ذلك مع توبيخ لهم على تركه ﴿ عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ﴾ مع علمهم بقبحهما ومشاهدتهم لمباشرتهم لهما ﴿ لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ وهذا أبلغ مما قيل فى حق عامتهم لما أن العمل لا يبلغ درجة الصنع ما لم يتدرب فيه صاحبه ولم يحصل فيه مهارة تامة ، ولذلك ذم به خواصهم ، ولأن ترك الحسنة أقبح من مواقعة المعصية ، لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها ولا كذلك ترك الإنكار عليها ، فكان جديراً بأبلغ ذم وفيه مما ينبغى على العلماء توانيهم فى النهى عن المنكرات ما لا يخفى . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها أشد آية فى القرآن ، وعن الضحاك : ما فى القرآن آية أخوف عندى منها .

﴿ وقالت اليهود ﴾ قال ابن عباس وعكرمة والضحاك : إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله سبحانه بأن كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبوه كف عنهم

ما بسط عليهم فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء ﴿ يد الله مغلولة ﴾ وحيث لم ينكر عليه الآخرون ورضوا به نسبت تلك العظيمة إلى الكل كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا ، وإنما القاتل واحد منهم وأرادوا بذلك لعنهم الله أنه قال ممسك يقتر بالرزق فإن كلا من غل اليد وبسطها مجاز عن محض البخل والجود من غير قصد فى ذلك إلى إثبات يد وغل أو بسط ألا يرى أنهم يستعملونه حيث لا يتصور فيه ذلك كما فى قوله :

جاد الحمى بسط اليدين بوابل   شكرت نداه تلاعه ووهاده

وقد سلك لبيد هذا المسلك السديد حيث قال :

وغداة ريح قد شهدت وقرة   إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فإنه إنما أراد بذلك إثبات القدرة التامة للشمال على التصرف فى القرة كيفما تشاء على طريقة المجاز من غير أن يخطر بباله أن يثبت لها يدا ولا للقرة زماما ، وأصله كناية فيمن يجوز عليه إرادة المعنى الحقيقى كما مر فى قوله تعالى (ولا ينظر إليهم يوم القيامة) فى سورة آل عمران ، وقيل أرادوا ما حكى عنهم بقوله تعالى (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) ﴿ غلت أيديهم ﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم والمسكنة أو بالفقر والنكد أو بغل الأيدى حقيقة ، بأن يكونوا أسارى مغلولين فى الدنيا ويسحبوا إلى النار بأغلالها فى الآخرة فتكون المطابقة حينئذ من حيث اللفظ وملاحظة المعنى الأصلى كما فى سبنى سب الله دابره ﴿ ولعنوا ﴾ عطف على الدعاء الأول أى أبعدوا من رحمة الله تعالى ﴿ بما قالوا ﴾ أى بسبب ما قالوا من الكلمة الشنعاء وقيل كلاهما خبر .

﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أى كلا ليس كذلك بل هو فى غاية ما يكون من الجود ، وإليه أشير بتثنية اليد فإن أقصى ماينتهى إليه همم الأسخياء أن يعطوا مايعطونه بكلتا يديهم ، وقيل التثنية للتنبيه على

منحه تعالى لنعمتى الدنيا والآخرة ، وقيل على إعطائه إكراما ، وعلى إعطائه استدراجا ﴿ ينفق كيف يشاء ﴾ جملة مستأنفة واردة لتأكيده كمال وجوده وللتنبيه على سر ما ابتلوا به من الضيق الذى اتخذوه من غاية جهلهم وضلالهم ذريعة إلى الاجتراء على تلك الكفرة العظيمة والمعنى أن ذلك ليس لقصور فى فيضه ، بل لأن إنفاقه تابع لمشيئته المبنية على الحكم التى عليها يدور أمر المعاش والمعاد، وقد اقتضت الحكمة بسبب مافيهم من شؤم المعاصى أن يضيق عليهم كما يشير إليه ما سيأتى من قوله عز وجل (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) الآية، وكيف ظرف ليشاء والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير ينفق أى ينفق كائنا على أى حال يشاء أى كائنا على مشيئته أى مريدا وترك ذكر ما ينفقه لقصد التعميم .

﴿ وليزيدن كثيرا منهم ﴾ وهم علماؤهم ورؤساؤهم ﴿ ما أنزل إليك ﴾ من القرآن المشتمل على الآيات وتقديم المفعول للاعتناء به وتخصيص الكثير منهم بهذا الحكم لما أن بعضهم ليس كذلك ﴿ من ربك ﴾ متعلق بأنزل كما أن إليك كذلك ، وتأخيره عنه مع أن حق المبتدأ أن يتقدم على المنتهى لاقتضاء المقام الاهتمام ببيان المنتهى لأن مدار الزيادة هو النزول إليه عليه السلام كما فى قوله تعالى (وأنزل لكم من السماء ماء) والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام ﴿ طغيانا وكفرا ﴾ مفعول ثان للزيادة أى ليزيدنهم طغيانا على طغيانهم وكفرا على كفرهم القديمين إما من حيث الشدة والغلو وإما من حيث الكم والكثرة ، إذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم بحسب المقدار كما أن الطعام الصالح للأصحاء يزيد المرضى مرضاً .

﴿ وألقينا بينهم ﴾ أى بين اليهود ، فإن بعضهم جبرية وبعضهم قدرية وبعضهم مرجئة وبعضهم مشبهة ﴿ العداوة والبغضاء ﴾ فلا يكاد تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم ، والجملة مبتدأة مسوقة لإزاحة ما عسى يتوهم من ذكر

طغيانهم وكفرهم من الاجتماع على أمر يؤدى إلى الإضرار بالمسلمين ، قيل العداوة أخص من البغضاء ، لأن كل عدو مبغض بلا عكس كلى ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ متعلق بألقينا وقيل بالبغضاء .

﴿ كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ﴾ تصريح بما أشير إليه من عدم وصول غائلة ماهم فيه إلى المسلمين أى كلما أرادوا محاربة الرسول عليه الصلاة والسلام ورتبوا مباديها وركبوا فى ذاك متن كل صعب وذلول ردهم الله تعالى وقهرهم ، أو كلما أرادوا حرب أحد غلبوا ، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله تعالى عليهم بخت نصر ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومى ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين ، وللحرب إما صلة لأوقدوا أو متعلق بمحذوف وقع صفة لنارا ، أى كائنة للحرب ﴿ ويسعون فى الأرض فسادا ﴾ أى يجتهدون فى الكيد للإسلام وأهله وإثارة الشر والفتنة فيما بينهم مما يغاير ماعبر عنه بإيقاد نار الحرب وفسادا إما مفعول له أو فى موقع المصدر أى يسعون للفساد أو يسعون سعى فساد ﴿ والله لا يحب المفسدين ﴾ ولذلك أطفأ ثائرة إفسادهم واللام إما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا ، وإما للعهد ووضع المظهر مقام الضمير للتعليل وبيان كونهم راسخين فى الإفساد .

﴿ ولو أن أهل الكتاب ﴾ أى اليهود والنصارى على أن المراد بالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والإنجيل ، وإنما ذكروا بذلك العنوان تأكيدا للتشنيع، أهلية الكتاب توجب إيمانهم به وإقامتهم له لا محالة فكفرهم به وعدم إقامتهم له وهم أهله أقبح من كل قبيح وأشنع من كل شنيع فمفعول قوله تعالى .

﴿ آمنوا ﴾ محذوف ثقة بظهوره مما سبق من قوله تعالى (هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون) وما لحق من قوله تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة) الخ ،أى ولو أنهم مع صدور ماصدر عنهم من فنون الجنايات قولا وفعلا آمنوا بما نعى عنهم الإيمان به فيندرج

فيه فرض إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وأما إرادة إيمانهم به عليه السلام خاصة فيأباها المقام لأن ما ذكر فيما سبق وما لحق من كفرهم به عليه السلام إنما ذكر مشفوعا بكفرهم بكتابهم أيضا قصدا إلى الإلزام والتبكيت ببيان أن الكفر به عليه الصلاة والسلام مستلزم للكفر بكتابهم فحمل الإيمان هٰهنا على الإيمان به عليه السلام خاصة مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم ﴿ واتقوا ﴾ ما عددنا من معاصيهم التي من من جملتها مخالفة كتابهم ﴿ لكفرنا عنهم سيئاتهم ﴾ التي اقترفوها وإن كانت في غاية العظم ونهاية الكثرة ولم نؤاخذهم بها ﴿ ولأدخلناهم ﴾ مع ذلك ﴿ جنات النعيم ﴾ وتكرير اللام لتأكيد الوعد وفيه تنبيه على كمال عظم ذنوبهم وكثرة معاصيهم وأن الإسلام يجب ماقبله من السيئات وإن جلت وجاوزت كل حد معهود .

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ﴾ بمراعاة مافيهما من الأحكام التي من جملتها شواهد نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ومبشرات بعثته فإن إقامتهما إنما تكون بذلك لا بمراعاة جميع مافيهما من الأحكام لانتساخ بعضها بنزول القرآن فليست مراعاة الكل من إقامتهما في شيء ﴿ وما أنزل إليهم من ربهم ﴾ من القرآن المجيد المصدق لكتبهم وإيراده بهذا العنوان للإيذان بوجوب إقامته عليهم لنزوله إليهم ، وللتصريح ببطلان ما كانوا يدعونه من عدم نزوله إلى بني إسرائيل ، وتقديم إليهم لما مر من قبل ، وفي إضافة الرب إلى ضميرهم مزيد لطف بهم في الدعوة إلى الإقامة ، وقيل المراد بما أنزل إليهم كتب أنبياء بني إسرائيل مثل كتاب شعياء وكتاب حبقوق وكتاب دانيال فإنها مملوءة بالبشارة بمبعثه صلى الله عليه وسلم ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أي لوسع عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم بركات السماء والأرض ، أو بأن يكثر ثمرات الأشجار وغلال الزروع أو بأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار فيجتنوا ماتهدل منها من رءوس الأشجار ويلتقطوا ما تساقط منها على الأرض ، وقيل المراد المبالغة في شرح السعة والخصب لا تعيين الجهتين، كأنه قيل لأكلوا من كل جهة ومفعول أكلوا محذوف بقصد التعميم أو للقصد إلى نفس الفعل كما في قوله: فلان يعطي

ويمنع ، ومن فى الموضعين لابتداء الغاية وفى هاتين الشرطيتين من حثهم على ماذكر من الإيمان والتقوى والإقامه بالوعد بنيل سعادة الدارين وزجرهم عن الإخلال به بماذكر ببيان إفضائه إلى الحرمان عنها وتنبيههم على أن ما أصابهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جناياتهم لا لقصور فى فيض الفياض ما لا يخفى.

﴿ منهم أمة مقتصدة ﴾ جملة مستأنفة مبنية على سؤال نشأ من مضمون الجملتين المصدرتين بحرف الامتناع الدالتين على انتفاء الإيمان والاتقاء وإقامة الكتب المنزلة من أهل الكتاب ، كأنه قيل هل كلهم كذلك مصرون على عدم الإيمان الخ فقيل منهم أمة مقتصدة إما على أن منهم مبتدأ باعتبار مضمونه أى بعضهم أمة ، وإما بتقدير الموصوف أى بعض كائن منهم كما مر فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله) الآية ، أى طائفة معتدلة وهم المؤمنون منهم كعبد الله ابن سلام وأضرابه وثمانية وأربعون من النصارى ، وقيل طائفة حالهم أمم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وكثير منهم ﴾ مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره ﴿ ساء مايعملون ﴾ أى مقول فى حقهم هذا القول أى بئسما يعملون وفيه معنى التعجب أى ما أسوأ عملهم من العناد والمكابرة وتحريف الحق والإعراض عنه ، والإفراط فى العداوة وهم الأجلاف المتعصبون ككعب بن الأشرف وأشباهه والروم .

﴿ يا أيها الرسول ﴾ نودى عليه السلام بعنوان الرسالة تشريفا له وإيذانا بأنها من موجبات الإتيان بما أمر به من تبليغ ما أوحى إليه ﴿ بلغ ما أنزل إليك ﴾ أى جميع ما أنزل إليك من الأحكام وما يتعلق بها كائنا ما كان وفى قوله تعالى ﴿ من ربك ﴾ أى مالك أمورك ومبلغك إلى كمالك اللائق بك عدة ضمنية بحفظه عليه السلام وكلاءته ، أى بلغه غير مراقب فى ذلك أحدا ولا خائف أن ينالك مكروه أبدا ﴿ وإن لم تفعل ﴾ ما أمرت به من تبليغ الجميع بالمعنى المذكور كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ فإن ما لاتتعلق به الأحكام أصلا من الأسرار الخفية ليست مما يقصد تبليغه إلى الناس ، أى فما بلغت شيئاً من رسالته وانسلخت مما شرفت به من عنوان الرسالة بالمرة لما أن بعضها

ليس أولى بالأداء من بعض فإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها لإدلاء كل منها بما يدليه غيرها وكونها لذلك فى حكم شىء واحد ولاريب فى أن الواحد لايكون مبلغا غيرمبلغ مؤمنا به غير مؤمن به ولأن كتمان بعضها إضاعة لما أدى منها كترك بعض أركان الصلاة فإن عرض الدعوة ينتقض بذلك وقيل فكأنك ما بلغت شيئاً منها كقوله تعالى (فكأنما قتل الناس جميعاً) من حيث أن كتمان البعض والكل سواء فى الشناعة واستجلاب العقاب وقرىء فما بلغت رسالاتى وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن كتمت آية لم تبلغ رسالاتى وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «بعثنى الله برسالاته فضقت بها ذرعا فأوحى الله إلى إن لم تبلغ رسالاتى عذبتك وضمن لى العصمة فقويت» وذلك قوله تعالى :

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فإنه كما ترى عدة كريمة بعصمته من لحوق ضررهم بروحه العزيز باعثة له عليه السلام على الجد فى تحقيق ما أمر به من التبليغ غير مكترث بعدواتهم وكيدهم وعن أنس رضى الله عنه أنه عليه السلام كان يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم فقال انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمنى الله من الناس وقوله تعالى ﴿ إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ تعليل لعصمته تعالى له عليه السلام أى لا يمكنهم مما يريدون بك من الأضرار، وإيراد الآية الكريمة فى تضاعيف الآيات الواردة فى حق أهل الكتاب لما أن الكل قوارع يسوء الكفار سماعها، ويشق على الرسول صلى الله عليه وسلم مشافهتهم بها وخصوصاً ما يتلوها من النص الناعى عليهم كما ضلالاتهم ولذلك أعيد الأمر فقيل :

﴿ قل يا أهل الكتاب ﴾ مخاطبا للفريقين ﴿ لستم على شىء ﴾ أى دين يعتد به ويليق بأن يسمى شيئاً لظهور بطلانه ووضوح فساده، وفى هذا التعبير من التحقير والتصغير ما لا غاية وراءه ﴿ حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ أى تراعوهما وتحافظوا على ما فيهما من الأمور التى من جملتها دلائل رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وشواهد نبوته فإن إقامتهما إنما تكون بذلك، وأما مراعاة

أحكامهما المنسوخة فليست من إقامتهما فى شىء ، بل هى تعطيل لهما ورد لشهادتهما ، لأنهما شاهدان بنسخها وانتهاء وقت العمل بها ، لأن شهادتهما بصحة ما ينسخها شهادة بنسخها وخروجها عن كونها من أحكامهما وأن أحكامهما ما قرره النبى الذى بشر فيهما ببعثته وذكر فى تضاعيفهما نعوته فإذن إقامتهما بيان شواهد النبوة والعمل بما قررته الشريعة من الأحكام كما يفصح عنه قوله تعالى :

﴿ وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ أى القرآن المجيد بالإيمان به ، فإن إقامة الجميع لا تتأتى بغير ذلك وتقديم إقامة الكتابين على إقامته مع أنها المقصودة بالذات لرعاية حق الشهادة واستنزالهم عن رتبة الشقاق وإيراده بعنوان الإنزال إليهم لما مر من التصريح بأنهم مأمورون بإقامته والإيمان به لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب ، وفى إضافة الرب إلى ضميرهم ما أشير إليه من اللطف فى الدعوة ، وقيل المراد بما أنزل إليهم كتب أنبياء بنى إسرائيل كما مر ، وقيل الكتب الإلهية فإنها بأسرها آمرة بالإيمان لمن صدقته المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة له . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن جماعة من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألست تقرأ أن التوراة حق من عند الله تعالى ؟ فقال عليه السلام : بلى ، فقالوا فإنا مؤمنون بها ولا نؤمن بغيرها فنزلت وقوله تعالى ﴿ وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ﴾ جملة مستأنفة مبينة لشدة شكيمتهم وغلوهم فى المكابرة والعناد وعدم إفادة التبليغ نفعا ، وتصديرها بالقسم لتأكيد مضمونها وتحقيق مدلولها والمراد بالكثير المذكور علماؤهم ورؤساؤهم ونسبة الإنزال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نسبته فيما مر إليهم للإنباء عن انسلاخهم عن تلك النسبة ﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ أى لا تتأسف ولا تحزن عليهم لإفراطهم فى الطغيان والكفر بما تبلغه إليهم ، فإن غائلته آيلة إليهم وتبعته حائقة [1] لا تتخطاهم وفى المؤمنين مندوحة لك عنهم ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالرسوخ فى الكفر .

---

(١) فى ١٠ نازلة بهم .

﴿ إن الذين آمنو ﴾ كلام مستأنف مسوق لترغيب من عدا المذكورين في الإيمان والعمل الصالح أى الذين آمنوا بألسنتهم فقط وهم المنافقون وقيل أعم من أن يواطئها قلوبهم أولا ﴿ والذين هادوا ﴾ أى دخلوا فى اليهودية ﴿ والصابئون والنصارى ﴾ جمع نصران وقد مر تفصيله فى سورة البقرة وقوله تعالى والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخر عما فى حيز إن والتقدير إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كيت وكيت والصابئون كذلك كقوله .

* فإنى وقيار بها لغريب *

وقوله :

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا فى شقاق

خلا أنه وسط بين اسم إن وخبرها دلالة على أن الصابئين مع ظهور ضلالهم وزيغهم عن الأديان كلها حيث قبلت توبتهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فغيرهم أولى بذلك وقيل الجملة الآتية خبر للمبتدأ المذكور وخبر إن مقدر كما فى قوله :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقيل النصارى مرفوع على الابتداء كقوله تعالى والصابئون عطفا عليه وهو مع خبره عطف على الجملة المصدرة بإن ولا مساغ لعطفه وحده على محل إن واسمها لاشتراط ذلك بالفراغ عن الخبر وإلا لارتفع الخبر بإن والابتداء معا واعتذر عنه بأن ذلك إذا كان المذكور خبراً لهما وأما إذا كان خبر المعطوف محذوفا فلا محذور فيه ولا على الضمير فى هادوا لعدم التأكيد والفصل ولاستلزامه كون الصابئين هودا وقرىء والصابيون بياء صريحة بتخفيف الهمزة وقرىء والصابون وهو من صبا يصبو لانهم صبوا إلى اتباع الهوى والشهوات فى دينهم وقرىء والصابئين وقرىء يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون وقوله تعالى ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ﴾ إما فى محل الرفع على أنه مبتدأ خبره .

﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط وجمع الضمائر الأخيرة باعتبار معنى الموصول كما أن إفراد ما في صلته باعتبار لفظه ، والجملة خبر إن والعائد إلى اسمها محذوف ، أي من آمن منهم ، وإما في محل النصب على أنه بدل من اسم إن وما عطف عليه ، والخبر قوله تعالى (فلا خوف) والفاء كما في قوله عز وعلا (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم) الآية ، فالمعنى على تقديم كون المراد بالذين آمنوا المنافقين وهو الأظهر أي من أحدث من هذه الطوائف إيمانا خالصا بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق لا كما يزعمه أهل الكتاب فإن ذلك بمعزل من أن يكون إيمانا بهما وعمل عملا صالحا حسبما يقتضيه الإيمان بهما فلا خوف عليهم حين يخاف الكفار والعقاب ولا هم يحزنون حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب ، والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا لأن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ، وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا مطلق المتدينين بدين الإسلام المخلصين منهم والمنافقين فالمراد بمن آمن من اتصف منهم بالإيمان الخالص بالمبدأ والمعاد على الإطلاق سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كما هو شأن المخلصين أو بطريق إحداثه وإنشائه كما هو حال من عداهم من المنافقين وسائر الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين المبالغة في ترغيب الباقين في الإيمان ببيان أن تأخرهم في الاتصاف به غير مخل بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين الإعلام ، وأما ماقيل المعنى من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ أو المعاد عاملا بمقتضى شرعه فمما لاسبيل إليه أصلا كما مر تفصيله في سورة البقرة .

من جنايات بني إسرائيل

﴿ لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل ﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان بعض آخر من جناياتهم المنادية باستبعاد الإيمان منهم أي بالله لقد أخذنا ميثاقهم بالتوحيد وسائر الشرائع والأحكام المكتوبة عليهم في التوراة .

﴿ وأرسلنا إليهم رسلا ﴾ ذوى عدد كثير وأولى شأن خطير ليقرروهم على مراعاة حقوق الميثاق ويطلعوهم على ما يأتون ويذرون فى دينهم ويتعهدوهم بالعظة والتذكير وقوله تعالى ﴿ كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم ﴾ جملة شرطية مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الإخبار بأخذ الميثاق وإرسال الرسل وجواب الشرط محذوف ، كأنه قيل : فما فعلوا بالرسل ؟ فقيل : كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما لاتحبه أنفسهم المنهمكة فى الغى والفساد من الأحكام الحقة والشرائع عصوه وعادوه وقوله تعالى .

﴿ فريقا كذبوا وفريقا يقتلون ﴾ جواب مستأنف عن استفسار كيفية ما أظهروه من آثار المخالفة المفهومة من الشرطية على طريقة الإجمال كأنه قيل : كيف فعلوا بهم ؟ فقيل: فريقا منهم كذبوهم من غير أن يتعرضوا لهم بشىء آخر من المضار وفريقا آخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم بل قتلوهم أيضاً ، وإنما أوثر عليه صيغة المضارع على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها الهائلة للتعجيب منها وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر وللمحافظة على رؤس الآى الكريمة وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع إلى ما فعلوا به لا للقصر هذا وأما جعل الشرطية صفة لرسلا كما ذهب إليه الجمهور فلا يساعده المقام أصلا ضرورة أن الجملة الخبرية إذا جعلت صفة أوصلة ينسخ ما فيها من الحكم وتجعل عنوانا للموصوف تتمة له فى إثبات أمر آخر له ولذلك يجب أن يكون الوصف معلوم الانتساب إلى الموصوف عند السامع قبل جعله وصفا له ومن ههنا قالوا إن الصفات قبل العلم بها أخبار ، والأخبار بعد العلم بها أوصاف ، ولا ريب فى أن ما سبق له النظم إنما هو بيان أنهم جعلوا كل من جاءهم من رسل الله تعالى عرضة للقتل أو التكذيب حسبما يفيده جعلها استئنافا على أبلغ وجه وآكده ، لا بيان أنه تعالى أرسل إليهم رسلا موصوفين بكون كل منهم كذلك كما هو مقتضى جعلها صفة ﴿ وحسبوا ألا تكون فتنة ﴾ أى حسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم من الله تعالى بما أتوا من الداهية الدهياء والخطة الشنعاء بلاء وعذاب ، وقرىء لاتكون بالرفع على أن أن هى المخففة من أن،

واسمها ضمير الشأن المحذوف ، وأصله أنه لا تكون فتنة وتعليق فعل الحسبان بها وهي للتحقيق لتنزيله منزلة العلم لكمال قوته وأن بما في حيزها ساد مسد مفعوليه »

﴿ فعموا ﴾ عطف على حسبوا والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها أى أمنوا بأس الله تعالى فتمادوا فى فنون[1] الغى والفساد وعموا عن الدين بعد ما هداهم الرسل إلى معالمه الظاهرة وبينوا لهم مناهجه الواضحة ﴿ وصموا ﴾ عن استماع الحق الذى ألقوه عليهم ولذلك فعلوا بهم ما فعلوا وهذا إشارة إلى المرة الأولى من مرتى إفساد بنى إسرائيل حين خالفوا أحكام التوراة وركبوا المحارم وقتلوا شعياء وقيل حبسوا أرمياء[2] عليهما السلام لا إلى عبادتهم العجل كما قيل ، فإنها وإن كانت معصية عظيمة ناشئة عن كمال العمى والصمم لكنها فى عصر موسى عليه السلام ولا تعلق لها بما حكى عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاؤوهم بعده عليه السلام بأعصار ﴿ ثم تاب الله عليهم ﴾ حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد بعد ما كانوا ببابل دهرا طويلا تحت قهر بخت نصر أسارى فى غاية الذل والمهانة فوجه الله عز وجل ملكا عظيما من ملوك فارس إلى بيت المقدس ليعمره ونجى بقايا بنى إسرائيل من أسر بخت نصر بعد مهلكه وردهم إلى وطنهم وتراجع من تفرق منهم فى الأكناف فعمروه ثلاثين سنة فكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا عليه وقيل لما ورث بهمن ابن اسفنديار الملك من جده كستاسف ألقى الله عز وجل فى قلبه شفقة عليهم فردهم إلى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام ، فاستولوا على من كان فيها من أتباع بخت نصر فقامت فيهم الأنبياء فرجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه

---

(١) فى ١٠ فى ضروب .

(٢) بل حبسوه يقينا قبيل خراب أورشليم لأنه أنذرهم بخرابها ، أنظر حياة أرمياء القس (ماير) .

من الحال ، وذلك قوله تعالى (ثم رددنا لكم الكرة عليهم)[1] وأما ماقيل من أن المراد قبول توبتهم عن عبادة العجل فقد عرفت أن ذلك لا تعلق له بالمقام ولم يسند التوبة إليهم كسائر أحوالهم من الحسبان والعمى والصمم تجافيا عن التصريح بنسبة الخير إليهم وإنما أشير إليها فى ضمن بيان توبته تعالى عليهم تمهيدا لبيان نقضهم إياها بقوله تعالى :

﴿ ثم عموا وصموا ﴾ وهو إشارة إلى المرة الآخرة من مرتى إفسادهم وهو اجتراؤهم على قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام لا إلى طلبهم الرؤية كما قيل لما عرفت سره فإن فنون الجنايات الصادرة عنهم لا تكاد تتناهى خلا أن انحصار ما حكى عنهم ههنا فى المرتين وترتبه على حكاية مافعلوا بالرسل عليهم السلام يقضى بأن المراد ما ذكرناه والله عنده علم الكتاب وقرىء عموا وصموا بالضم على تقدير عماهم الله وصمهم أى رماهم وضربهم بالعمى والصمم كما يقال نزكته إذا ضربته بالنيزك وركبته إذا ضربته بركبتك وقوله تعالى ﴿ كثير منهم ﴾ بدل من الضمير فى الفعلين وقيل خبر مبتدأ محذوف أى أولئك كثير منهم .

﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أى بما عملوا وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورتها الفظيعة ورعاية للفواصل والجملة تذييل أشير به إلى بطلان حسبانهم المذكور ووقوع العذاب من حيث لم يحتسبوا إشارة إجمالية اكتفى بها تعويلا على ما فصل نوع تفصيل فى سورة بنى إسرائيل والمعنى حسبوا أن لا يصيبهم عذاب ففعلوا ما فعلوا من الجنايات العظيمة المستوجبة لأشد العقوبات والله بصير بتفاصيلها فكيف لا يؤاخذهم بها ومن أين لهم ذلك الحسبان الباطل ولقد وقع ذلك فى المرة الأولى حيث سلط الله تعالى عليهم بخت نصر عامل لهراسب على بابل وقيل جالوت الجزرى وقيل سنجاريب من أهل نينوى والأول هو الأظهر فاستولى على بيت المقدس

---

(١) بل الدلائل البلاغية واللفظية والتاريخية تؤكد أن هذه الكرة ما هو حادث الآن . فليس فى هذه الكرة السابقة علو كبير ولا نفير كثير كالحاصل الآن والله أعلم .

فقتل من أهله أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية إلى أرضه فبقوا هناك على أقصى ما يكون من الذل والنكد إلى أن أحدثوا توبة صحيحة فردهم الله عز وجل إلى ما حكى عنهم من حسن الحال ثم عادوا إلى المرة الآخرة من الإفساد فبعث الله تعالى عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه خيدرود ، وقيل خيدروس ، ففعل بهم ما فعل ، قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم فقالوا دم قربان لم يقبل منا ، فقال ما صدقونى ، فقتل عليه ألوفا منهم ، ثم قال : إن لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا فقالوا : إنه دم يحيى عليه السلام ، فقال بمثل هذا ينتقم الله منكم ، ثم قال : يا يحيى قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل ألا أبقى أحدا منهم فهدأ .

قبائح النصارى ومحاسنهم

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ شروع فى تفصيل قبائح النصارى وإبطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود ، وهؤلاء هم الذين قالوا إن مريم ولدت إلهاً قيل هم الملكانية والمار يعقوبية منهم ، وقيل هم اليعقوبية خاصة ، قالوا ومعنى هذا أن الله تعالى حل فى ذات عيسى واتحد بذاته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

﴿ وقال المسيح ﴾ حال من فاعل قالوا بتقدير قد مفيدة لمزيد تقبيح حالهم ببيان تكذيبهم للمسيح وعدم انزجارهم عما أصروا عليه بما أوعدهم به ، أى قالوا ذلك وقد قال المسيح مخاطبا لهم ﴿ يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ﴾ فإنى عبد مربوب مثلكم ، فاعبدوا خالقى وخالقكم ﴿ إنه ﴾ أى الشأن ﴿ من يشرك بالله ﴾ أى شيئاً فى عبادته أو فيما يختص به من صفات الألوهية ﴿ فقد حرم الله عليه الجنة ﴾ فلن يدخلها أبدا ، كما لا يصل إليه المحرم عليه المحرم ، فإنها دار الموحدين ، وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة ﴿ ومأواه النار ﴾ فإنها هى المعدة للمشركين وهذا بيان لابتلائهم بالعقاب إثر بيان حرمانهم الثواب .

﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أى مالهم من أحد ينصرهم بإنقاذهم من النار إما بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة ، والجمع لمراعاة المقابلة بالظالمين ، واللام إما للعهد والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا ، ووضعه على الأول موضع الضمير للتسجيل عليهم بأنهم ظلموا بالإشرك وعدلوا عن طريق الحق والجملة تذييل مقرر لما قبله ، وهو إما من تمام كلام عيسى عليه السلام ، وإما وارد من جهته تعالى تأكيدا لمقالته عليه السلام ، وتقريرا لمضمونها ، وقد قيل إنه من كلامه عز وجل على معنى أنهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عليه السلام ، فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ، ورده وأنكره ، وإن كانوا معظمين له بذلك ، ورافعين من مقداره . أو من قول عيسى عليه السلام على معنى لاينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن المعقول ، وأنت خبير بأن التعبير عما حكى عنه عليه السلام من مقابلته لقولهم الباطل بصريح الرد والإنكار ، والوعيد بحرمان الجنة ودخول النار بمجرد عدم مساعدته على ذلك ، ونفى نصرته له ، مع خلوه عن الفائدة تصوير للقوى بصورة الضعيف وتهوين للخطب فى مقام تهويله ، بل ربما يوهم ذلك بحسب الظاهر مالا يليق بشأنه عليه السلام من توهم المساعدة والنصرة ، لاسيما مع ملاحظة قوله ، وإن كانوا معظمين له الخ ، إلا أن يحمل الكلام على التهكم بهم ، وكذا الحال على تقدير كونه من تمام كلامه عليه السلام ، فإن زجره عليه السلام إياهم عن قولهم الفاسد بما ذكر من عدم الناصر والمساعد بعد زجره إياهم بما مر من الرد الأكيد والوعيد الشديد بمعزل من الإفادة والتأثير ، ولا سبيل ههنا إلى الاعتذار بالتهكم .

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ شروع فى بيان كفر طائفة أخرى منهم ، ومعنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ، ولذلك منع الجمهور أن ينصب مابعده بأن

يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة ، وإنما ينصبه إذا كان مابعده دونه بمرتبة[1] كما فى قولك عاشر تسعة وتاسع ثمانية ، قيل إنهم يقولون إن الإلهية مشتركة بين الله سبحانه وتعالى وعيسى ومريم ، وكل واحد من هؤلاء إله ، ويؤكده قوله تعالى (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) فقوله تعالى (ثالث ثلاثة) أى أحد ثلاثة آلهة[2] وهو المتبادر من ظاهرقوله تعالى ﴿ وما من إله إلا إله واحد ﴾ أى والحال أنه ليس فى الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث أنه مبدأ جميع الموجودات إلا إله موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشركة ، ومن مزيدة للاستغراق ، وقيل : إنهم يقولون الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس ، وإنهم يريدون بالأول الذات وقيل الوجود ، وبالثانى العلم ، وبالثالث الحياة ، فمعنى قوله تعالى (وما من إله إلا إله واحد) إلا إله واحد بالذات ، منزه عن شائبة التعدد بوجه من الوجوه .

﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ﴾ من الكفر الشنيع ولم يوحدوا وقوله تعالى ﴿ليمسن الذين كفروا﴾ جواب قسم محذوف ساد مسد جواب الشرط ، أى وبالله إن لم ينتهوا ليمسنهم وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول لتكرير الشهادة عليهم بالكفر فمن فى قوله تعالى ﴿منهم﴾ بيانية ، أى ليمسن الذين بقوا منهم على ما كانوا عليه من الكفر فمن تبغيضيه ، وإنما جىء بالفعل المنبىء عن الحدوث تنبيها على أن الاستمرار عليه بعد ورود ما ينحى عليه بالقلع عن نص عيسى عليه السلام وغيره كفر جديد وغلو زائد على ما كانوا عليه من أصل الكفر ﴿ عذاب أليم﴾ أى نوع شديد الألم من العذاب[3] وهمزة الاستفهام فى قوله تعالى ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ﴾ لإنكار الواقع واستبعادة لا لإنكار

---

(١) فى ١٠ : مرتبة (٢) فى ١٠ آلهة ثلاثة .
(٣) فى ط من الألم من العذاب .

الوقوع[1] وفيه تعجيب من إصرارهم ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائغة والأقاويل الباطلة فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول ، فمدار الإنكار والتعجيب عدم الانتهاء وعدم التوبة معا أو أيسمعون هذه الشهادات المكررة والتشديدات المقررة فلا يتوبون عقب ذلك ، فمدارهما عدم التوبة عقيب تحقق ما يوجبها من سماع تلك القوارع الهائلة وقوله عز وجل ﴿ والله غفور رحيم ﴾ جملة حالية من فاعل يستغفرونه مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار ، أى والحال أنه تعالى مبالغ فى المغفرة فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله .

﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول ﴾ استئناف مسوق لتحقيق الحق الذى لا محيد عنه ، وبيان حقيقة حاله عليه السلام وحال أمه بالإشارة أولا إلى أشرف ما لهما من نعوت الكمال التى صارا من زمرة أكمل أفراد الجنس وآخرا إلى الوصف المشترك بينهما وبين جميع أفراد البشر ، بل أفراد الحيوان استنزالا لهم بطريق التدريج عن رتبة الإصرار على ماتقولوا عليهما[2] وإرشادا لهم إلى التوبة والاستغفار أى هو مقصور على الرسالة لا يكاد يتخطاها وقوله تعالى ﴿ قد خلت من قبله الرسل ﴾ صفة لرسول منبئة عن اتصافه بما ينافى الألوهية . فإن خلو الرسل السالفة عليهم السلام منذر بخلوه المقتضى لاستحالة ألوهيته أى ما هو إلا رسول كالرسل الخالية من قبله خصه الله تعالى ببعض من الآيات كما خص كلا منهم ببعض آخر منها ، فإن أحيى الموتى على يده فقد أحيي العصا فى يد موسى عليه السلام وجعلت حية تسعى ، وهو أعجب

---

(١) إنكار الواقع يعنى أنه وقع بالفعل واستنكر عليهم . وإنكار الوقوع يعنى أنه لم يقع مع إنكار أن يقع . ومثله شمول النفى ونفى الشمول التى ترد كثيرا فى الكتاب . فنفى الشمول معناه أنه وقع من البعض دون البعض وشمول النفى يعنى عدم وقوعه البتة .

(٢) أى على المسيح وأمه .

منه ، وإن خلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم وهو أغرب منه وكل ذلك من جنابه عز وجل ، وإنما موسى وعيسى مظاهر لشئونه وأفعاله ﴿ وأمه صديقة ﴾ أى وما أمه أيضا إلا كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق أو التصديق ، ويبالغن فى الاتصاف به ؛ فما رتبتهما إلا رتبة بشرين أحدهما نبي والآخر صحابى ، فمن أين لكم أن تصفوهما بما لا يوصف به سائر الأنبياء وخواصهم ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ استئناف مبين لما أشير اليه من كونهما كسائر أفراد البشر فى الاحتياج إلى ما يحتاج إليه كل فرد من أفراده بل من أفراد الحيوان وقوله عز وجل ﴿ انظر كيف نبين لهم الآيات ﴾ تعجيب من حال الذين يدعون لهما الربوبية ولا يرعوون فى ذلك بعد ما بين لهم حقيقة حالهما بيانا لا يحوم حوله شائبة ريب ، وكيف معمول لنبين والجملة فى حيز النصب معلقة لأنظر ، أى أنظر كيف نبين لهم الآيات الباهرة المنادية ببطلان ما تقولوا عليهما نداء يكاد يسمعه صم الجبال ﴿ ثم أنى يؤفكون ﴾ أى كيف يصرفون عن استماعها والتأمل فيها والكلام فيه كما فيما قبله وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة فى التعجيب ، وثم لإظهار ما بين العجبين من التفاوت أى إن بياننا للآيات أمر بديع فى بابه بالغ لأقاصى الغايات القاصية من التحقيق والإيضاح وإعراضهم عنها مع انتفاء ما يصححه بالمرة وتعاضد ما يوجب قبولها أعجب وأبدع .

﴿ قل ﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بإلزامهم وتبكيتهم إثر تعجيبه من أحوالهم ﴿ أتعبدون من دون الله ﴾ أى متجاوزين إياه وتقديمه على قوله تعالى ﴿ ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعا ﴾ لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، والموصول عبارة عن عيسى عليه السلام ، وإيثاره على كلمة من لتحقيق ما هو المراد من كونه بمعزل من الألوهية رأسا ، ببيان انتظامه عليه السلام فى سلك الأشياء التى لا قدرة لها على شيء أصلا ، وهو عليه السلام وإن كان يملك ذلك بتمليكه تعالى إياه لكنه لا يملكه من ذاته ، ولا يملك

مثل ما يضربه الله تعالى من البلايا والمصائب ، وما ينفع به من الصحة . وتقديم الضرر على النفع لأن التحرز عنه أهم من تحرى النفع[1]، ولأن أدنى درجات التأثير دفع الشر ، ثم جلب الخير . وقوله تعالى ﴿ والله هو السميع العليم ﴾ حال من فاعل أتعبدون مؤكد للإنكار والتوبيخ ، ومقرر للإلزام والتبكيب ، والرابط هو الواو أى أتشركون بالله تعالى ما لا يقدر على شىء من ضركم ونفعكم والحال أن الله تعالى هو المختص بالإحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات التى من جملتها ما أنتم عليه من الأقوال الباطلة ، والعقائد الزائغة ، والأعمال السيئة ، وبالقدرة الباهرة على جميع المقدورات التى من جملتها مضاركم ومنافعكم فى الدنيا والآخرة .

﴿ قل يا أهل الكتاب ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى فريق أهل الكتاب ، بطريق الالتفات على لسان النبى عليه الصلاة والسلام بعد إبطال مسلك كل منهما ، للمبالغة فى زجرهم عما سلكوه من المسلك الباطل ، وإرشادهم إلى الأمم المثناء[2] ﴿ لا تغلوا فى دينكم ﴾ أى لا تتجاوزوا الحد ، وهو نهى للنصارى عن رفع عيسى عن رتبة الرسالة إلى ما تقولوا فى حقه من العظيمة ، ولليهود عن وضعهم له عليه السلام عن رتبته العلية إلى ما تقولوا عليه من الكلمة الشنعاء[3] وقيل هو خاص بالنصارى كما فى سورة النساء فذكرهم بعنوان أهلية الكتاب لتذكير أن الإنجيل أيضاً ينهاهم عن الغلو وقوله تعالى ﴿ غير الحق ﴾

---

(١) ومن هنا ذهب التابعون إلى القول بأن التطهر من الآثام أفضل من عمل النوافل ، وقالوا : إن قليل الشر وكثيره سواء وإذا خالط الشر الخير صار الخير شراً كله ، أنظر باب معرفة النفس من آداب النفوس للحارث بن أسد المحاسبى . خط

(٢) معنى الأمم المثناء أى الطريق الذى يؤتى ثمار الرضا والحب من الله تعالى .

(٣) هى قولهم إنه ابن غير شرعى ليوسف النجار . ولا زال اليهود إلى الآن يزعمون أن للمسيح الحق قد بعث عام ١٩١٩ فى فلسطين . أنظر كتاب [الحق يحرركم] من مطبوعات جماعة شهود يهوه اليهودية العالمية .

نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي لا تغلوا فى دينكم غلوا غير الحق ، أى غلوا باطلا أو حال من ضمير الفاعل أى لا تغلوا مجاوزين الحق ، أو من دينكم أى لا تغلوا فى دينكم حال كونه باطلا ، وقيل نصب على الاستثناء المتصل وقيل على المنقطع ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ﴾ هم أسلافهم وأئمتهم الذين ضلوا من الفريقين ، أو من النصارى على القولين قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلاة فى شريعتهم . ﴿ وأضلوا كثيراً ﴾ أى قوما كثيرا ممن شايعهم فى الزيغ والضلال ، أو إضلالا كثيرا والمفعول محذوف ﴿ وضلوا ﴾ عند بعثة النبي عليه الصلاة والسلام وتوضيح محجة الحق وتبيين مناهج الإسلام ﴿ عن سواء السبيل ﴾ حين كذبوه وحسبوه وحسدوه وبغوا عليه ، وقيل الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل والثانى إلى ضلالهم عما جاء به الشرع .

لعن أهل الكتاب وأسبابه

﴿ لعن الذين كفروا ﴾ أى لعنهم الله عز وجل وبناء الفعل للمفعول للجرى على سنن الكبرياء ﴿ من بنى إسرائيل ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من فاعل كفروا وقوله تعالى ﴿ على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴾ متعلق بلعن أى لعنهم الله تعالى فى الزبور والإنجيل على لسانهما ، وقيل : إن أهل أيلة لما اعتدوا فى السبت دعا عليهم داود عليه السلام وقال اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخهم الله قردة ، وأصحاب المائدة لما كفروا قال عيسى عليه السلام اللهم عذب من كفر بعدما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين ، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت ، فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل مافيهم امرأة ولا صبي ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى اللعن المذكور وإيثاره على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازه عن نظائره وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ، ومافيه من معنى البعد للإيذان بكمال فظاعته وبعد درجته فى الشناعة ، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ والجملة

مستأنفة واقعة موقع الجواب عما نشأ من الكلام كأنه قيل بأى سبب وقع ذلك؟ فقيل : ذلك اللعن الهائل الفظيع بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر كما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل ، وينبىء عنه قوله تعالى ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴾ فإنه استئناف مفيد بعبارته لاستمرار عدم التناهى عن المنكر ، ولا يمكن استمراره إلا باستمرار تعاطى المنكرات ، وليس المراد بالتناهى أن ينهى كل واحد منهم الآخر عما يفعله من المنكر كما هو المعنى المشهور لصيغة التفاعل ، بل مجرد صدور النهى عن أشخاص متعددة ، من غير اعتبار أن يكون كل واحد منهم ناهيا ومنهيا[1] معا ، كما فى تراءوا الهلال ، وقيل التناهى بمعنى الانتهاء يقال تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع عنه وتركه ، فالجملة حينئذ مفسرة لما قبلها من المعصية والاعتداء ، ومفيدة لاستمرارهما صريحا ، وعلى الأول مفيدة لاستمرار انتفاء النهى عن المنكر ، بأن لا يوجد فيما بينهم من يتولاه فى وقت من الأوقات ، ومن ضرورته استمرار فعل المنكر حسبما سبق ، وعلى كل تقدير فما يفيده تنكير المنكر من الوحدة نوعية لا شخصية ، فلا يقدح وصفه بالفعل الماضى فى تعلق النهى به ، لما أن متعلق الفعل إنما هو فرد من أفراد ما يتعلق به النهى ، والانتهاء من[2] مطلق المنكر باعتبار تحققه فى ضمن أى فرد كان من أفراده ، على أن المضى المعتبر فى الصفة إنما هو بالنسبة إلى زمان النزول لا إلى زمان النهى حتى يلزم كون النهى بعد الفعل ، فلا حاجة إلى تقدير المعاودة أو المثل أو جعل الفعل عبارة عن الإرادة ، على أن المعاودة كالنهى لا تتعلق بالمنكر المفعول فلا بد من المصير إلى أحد ما ذكر من الوجهين ، أو إلى تقدير المثل أو إلى جعل الفعل عبارة عن إرادته وفى كل ذلك تعسف لا يخفى .

﴿ لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ تقبيح لسوء أعمالهم وتعجيب منه بالتوكيد

---

(١) أى لا يأخذون على يد فاعل المنكر أيا كان فاعله ، وأيا كان الآخذ على يده .
(٢) فى ط : عن مطلق .

القسمى كيف لا وقد أداهم إلى ما شرح من اللعن الكبير وليس فى تسببه بذلك دلالة على خروج كفرهم عن السببية ، مع الإشارة إلى سببيته له فيما سبق من قوله تعالى (لعن الذين كفروا) فإن إجراء الحكم على الموصول مشعر بعلية مافى حيز الصلة له ، لما أن ما ذكر فى حيز السببية مشتمل على كفرهم أيضا .

﴿ ترى كثيرا منهم ﴾ أى من أهل الكتاب ككعب بن الأشرف وأضرابه حيث خرجوا إلى مشركى مكة ليتفقوا على محاربة النبى عليه الصلاة والسلام ، والرؤية بصرية وقوله تعالى ﴿ يتولون الذين كفروا ﴾ حال من كثيرا لكونه موصوفا ، أى يوالون المشركين بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل من منافقى أهل الكتاب يتولون اليهود . وهو قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومجاهد والحسن ، وقيل يوالون المشركين ويصافونهم ﴿ لبئس ماقدمت لهم أنفسهم ﴾ لبئس شيئاً قدموا ليردوا عليه يوم القيامة ﴿ أن سخط الله عليهم ﴾ هو المخصوص بالذم على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، تنبيها على كمال التعلق والارتباط بينهما كأنهما شىء واحد . ومبالغة فى الذم أى أى موجب سخطه تعالى . ومحله الرفع على الابتداء والجملة قبله خبره . والرابط عند من يشترطه هو العموم . أو لاحاجة إليه . لأن الجملة عين المبتدأ . أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف ينبىء عنه الجملة المتقدمة، كأنه قيل : ماهو ؟ أو أى شىء هو؟ فقيل: هو أن سخط الله عليهم، وقيل المخصوص بالذم محذوف وما اسم تام معرفة فى محل رفع بالفاعلية لفعل الذم ، وقدمت لهم أنفسهم جملة فى محل الرفع على أنها صفة للمخصوص بالذم قائمة مقامه ، والتقدير لبئس الشىء شىء قدمته لهم أنفسهم ، فقوله تعالى : أن سخط الله عليهم بدل من شىء المحذوف، وهذا مذهب سيبويه ﴿ وفى العذاب ﴾ أى عذاب جهنم ﴿ هم خالدون ﴾ أبد الآبدين ﴿ ولو كانوا ﴾ أى الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب ﴿ يؤمنون بالله والنبى ﴾ أى نبيهم ﴿ وما أنزل إليه ﴾ من الكتاب أو لو كان المنافقون يؤمنون بالله ونبينا إيمانا صحيحا ﴿ ما اتخذوهم ﴾ أى المشركين أو اليهود ﴿ أولياء ﴾ فإن الإيمان بما ذكر وازع عن توليهم قطعا ﴿ ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾

خارجون عن الدين والإيمان بالله ونبيهم وكتابهم أو متمردون فى النفاق مفرطون فيه.

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من قبائح اليهود وعراقتهم فى الكفر، وسائر أحوالهم الشنيعة التى من جملتها موالاتهم للمشركين. أكدت بالتوكيد القسمى اعتناء ببيان تحقق مضمونها، والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لكل أحد صالح له، إيذانا بأن حالهم مما لا يخفى على أحد من الناس. والوجدان متعد إلى اثنين، أحدهما أشد الناس، والثانى اليهود وما عطف عليه وقيل بالعكس لأنهما فى الأصل مبتدأ وخبر، ومصب الفائدة هو الخبر لا المبتدأ ولا ضير فى التقديم والتأخير إذ دل على الترتيب دليل، وههنا دليل واضح عليه، وهو أن المقصود بيان كون الطائفتين أشد الناس عداوة للمؤمنين، لا كون أشدهم عداوة لهم الطائفتين المذكورتين، وأنت خبير بأنه بمعزل من الدلالة على ذلك، كيف لا والإفادة فى الصورة الثانية أتم وأكمل مع خلوها عن تعسف التقديم والتأخير، إذ المعنى أنك إن قصدت أن تعرف من أشد الناس عداوة للمؤمنين وتتبعت أحوال الطوائف طرا وأحطت بما لديهم خبرا، وبالغت فى تعرف أحوالهم الظاهرة والباطنة، وسعيت فى تطلب ما عندهم من الأمور البارزة والكامنة، لتجدن الأشد تينك الطائفتين لا غير فتأمل.

واللام الداخلة على الموصول متعلقة بعداوة مقوية لعملها ولا يضر كونها مؤنثة بالتاء مبنية عليها، كما فى قوله: ورهبة عقابك، وقيل متعلقة بمحذوف هو صفة لعداوة، أى كائنة للذين آمنوا، وصفهم الله تعالى بذلك لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم، وانهماكم فى اتباع الهوى، وقربهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الأنبياء، والاجتراء على تكذيبهم ومناصبتهم. وفى تقديم اليهود على المشركين بعد لزهما فى قرن واحد إشعار بتقدمهم عليهم فى العداوة، كما أن فى تقديمهم عليهم فى قوله تعالى (ولتجدنهم

أحرص الناس على حيوة ومن الذين أشركوا) إيذانا بتقدمهم عليهم فى الحرص ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا ﴾ أعيد الموصول مع صلته روما لزيادة التوضيح والبيان ﴿ الذين قالوا إنا نصارى ﴾ عبر عنهم بذلك إشعاراً بقرب مودتهم حيث يدعون أنهم أنصار الله وأود أهل الحق وإن لم يظهروا اعتقاد حقية الإسلام ، وعلى هذه النكتة مبنى الوجه الثانى فى تفسير قوله تعالى (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم) والكلام فى مفعولى لتجدن وتعلق اللام كالذى سبق ، والعدول عن جعل ما فيه التفاوت بين الفريقين شيئا واحدا قد تفاوتا فيه بالشدة والضعف أو بالقرب والبعد بأن يقال آخراً ولتجدن أضعفهم عداوة الخ ، أو بأن يقال أولا لتجدن أبعد الناس مودة الخ للإيذان بكمال تباين ما بين الفريقين من التفاوت ببيان أن أحدهما فى أقصى مراتب أحد النقيضين ، والآخر فى أقرب مراتب النقيض الآخر .

﴿ ذلك ﴾ أى كونهم أقرب مودة للمؤمنين ﴿ بأن منهم ﴾ أى بسبب أن منهم ﴿ قسيسين ﴾ وهم علماء النصارى وعبادهم ورؤساهم ، والقسيس صيغة مبالغة من تقسس الشىء إذا تتبعه وطلبه بالليل ، سموا به لمبالغتهم فى تتبع العلم ، قاله الراغب[1] وقيل القس بفتح القاف تتبع الشىء ومنه سمى عالم النصارى قسيسا لتتبعه العلم . وقيل قص الأثر وقسه بمعنى ، وقيل : إنه أعجمى ، وقال قطرب : القس والقسيس العالم بلغة الروم وقيل : ضيعت النصارى الإنجيل وما فيه ، وبقى منهم رجل يقال له قسيس لم يبدل دينه ، فمن راعى هديه ودينه قيل له قسيس . ﴿ ورهبانا ﴾ وهو جمع راهب كراكب وركبان وفارس وفرسان ، وقيل : إنه يطلق على الواحد وعلى الجمع وأنشد فيه قول من قال :

لو عاينت رهبان دير فى قلل لأقبل الرهبان يعدو ونزل

والترهب التعبد فى الصومعة ، قال الراغب : الرهبانية الغلو فى تحمل التعبد من فرط الخوف ، والتنكير لإفادة الكثرة ، ولا بد من اعتبارها فى القسيسين

---

(١) هو الراغب الأصفهانى فى كتاب مفردات القرآن . والكتاب مطبوع .

أيضاً ، إذ هى التى تدل على مودة جنس النصارى للمؤمنين ، فإن اتصاف أفراد كثيرة لجنس بخصلة مظنة لاتصاف الجنس بها ، وإلا فمن اليهود أيضاً قوم مهتدون ألا يرى إلى عبد الله بن سلام وأضرابه ، قال تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) الخ لكنهم لما لم يكونوا فى الكثرة كالذين من النصارى لم يتعد حكمهم إلى جنس اليهود ﴿ وأنهم لا يستكبرون ﴾ عطف على أن منهم ، أى وبأنهم لا يستكبرون عن قبول الحق إذا فهموه ، ويتواضعون ولا يتكبرون كاليهود[1] ، وهذه الخصلة شاملة لجميع أفراد الجنس فسببيتها لأقربيتهم مودة للمؤمنين واضحة ، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمود وإن كان ذلك من كافر .

﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﴾ عطف على لا يستكبرون أى ذلك بسبب أنهم لا يستكبرون ، وأن أعينهم تفيض من الدمع عند سماع القرآن ، وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ، ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم إبائهم إياه ﴿ ترى أعينهم تفيض من الدمع ﴾ أى تمتلىء بالدمع فاستعير له الفيض الذى هو الانصباب عن امتلاء مبالغة ، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها ﴿ مما عرفوا من الحق ﴾ من الأولى لابتداء الغاية ، والثانية لتبيين الموصول ، أى ابتدأ الفيض ونشأ من معرفه الحق وحصل من أجله وبسببه ، أن تكون الثانية تبعيضية ، لأن ما عرفوه بعض الحق وحيث أبكاهم ذلك فما ظنك بهم لو عرفوا كله ، وقرءوا القرآن ، وأحاطوا بالسنة ، وقرىء ترى أعينهم على صيغة المبنى للمفعول ﴿ يقولون ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم عند سماع القران كأنه قيل : ماذا يقولون فقيل يقولون ﴿ ربنا آمنا ﴾ بهذا أو بمن أنزل هذا عليه أو بهما : وقيل حال من الضمير فى عرفوا أو من

---

(١) تجلى كبر اليهود فى قولهم : نحن شعب الله المختار ، ورفضوا من ليس من أسباطهم ولو كان على دين الحق وقد شذ عنهم بولس وتبع المسيح ، ونادى بنظرية معا كسة لتعصبهم هذا . ومن هذا الكبر كانت لعنة الله لهم .

الضمير المجرور فى أعينهم ، لما أن المضاف جزؤه ، كما فى قوله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أى الذين شهدوا بأنه حق أو بنبوته ، أو مع أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة ، وإنما قالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم فى الإنجيل كذلك .

﴿ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ﴾ كلام مستأنف قالوه تحقيقا لإيمانهم ، وتقريراً له بإنكار سبب انتفائه ونفيه بالكليه ، على أن قوله تعالى لا نؤمن حال من الضمير فى لنا ، والعامل ما فيه من الاستقرار أى أى شىء حصل لنا غير مؤمنين على توجيه الإنكار والنفى إلى السبب والمسبب جميعاً ، كما فى قوله تعالى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) ونظائره لا إلى السبب فقط مع تحقق المسبب كما فى قوله تعالى (فما لهم لا يؤمنون) وأمثاله فإن همزة الاستفهام كما تكون تارة لإنكار الواقع كما فى أتضرب أباك وأخرى لإنكار الوقوع كما فى أأضرب أبى، كذلك ما الاستفهامية قد تكون لإنكار سبب الواقع ونفيه فقط كما فى الآية الثانية ، وقوله تعالى (مالكم لاترجون لله وقاراً) فيكون مضمون الجملة الحالية محققا ، فإن كلا من عدم الإيمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أنكروا نفى سببه ، وقد يكون الإنكار سبب الوقوع ونفيه ، فيسريان إلى المسبب أيضاً كما فى الآية الأولى ، فيكون مضمون الجملة الحالية مفروضا قطعا ، فإن عدم العبادة أمر مفروض حتما وقوله تعالى ﴿ ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾ حال أخرى من الضمير المذكور بتقدير مبتدأ ، والعامل فيها هو العامل فى الأولى مقيدا بها ، أى أى شىء حصل لنا غير مؤمنين، ونحن نطمع فى صحبة الصالحين ، أو من الضمير فى لا نؤمن على معنى أنهم أنكروا على أنفسهم عدم إيمانهم ، مع أنهم يطمعون فى صحبة المؤمنين ،وقيل معطوف على نؤمن على معنى ومالنا نجمع بين ترك الإيمان وبين الطمع المذكور .

﴿ فأثابهم الله بما قالوا ﴾ أى عن اعتقاد ، من قولك هذا قول فلان أى معتقده ، وقرىء فآتاهم الله ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها

وذلك جزاء المحسنين ﴾ أى الذين أحسنوا النظر والعمل أو الذين اعتادوا الإحسان فى الأمور ، والآيات الأربع روى أنها نزلت فى النجاشى وأصحابه بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه فقرأه ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه وأحضر القسيسين والرهبان ، فأمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سوره مريم ، فبكوا وآمنوا بالقرآن ، وقيل نزلت فى ثلاثين أو سبعين رجلا من قومه وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم سورة مريم فبكوا وآمنوا (١) .

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ عطف التكذيب بآيات الله على الكفر مع أنه ضرب منه لما أن القصد إلى بيان حال المكذبين وذكرهم بمقابلة المصدقين بها جمعا بين الترغيب والترهيب .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا ما أحل الله لكم ﴾ أى ماطاب ولذ منه ؛ كأنه لما تضمن ما سلف من مدح النصارى على الترهيب ترغيب المؤمنين فى كسر النفس ورفض الشهوات ، عقب ذلك بالنهى عن الإفراط فى الباب ، أى لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم أو لا تقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم فى العزم على تركها تزهدا منكم وتقشفا . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف القيامة لأصحابه يوما فبالغ وأشبع الكلام فى الإنذار فرقوا واجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على ألا يزالوا صائمين قائمين وألا يناموا على الفرش ، ولا يأكلوا اللحم والودك ، ولا يقربوا النساء والطيب ، ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح ، ويسيحوا فى الأرض ، ويجبوا مذاكيرهم ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : إنى لم أومر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا ، فإنى أقوم وأنام وأصوم

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن كثير من طرقهما المتعددة فى قصة طويلة . وكذلك السيوطى فى الدر المنثور .

وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »[1] فنزلت :

﴿ ولا تعتدوا ﴾ أى لا تتعدوا حدود ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم ، أو ولا تسرفوا فى تناول الطيبات ، أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلما فنهى عن مطلق الاعتداء ليدخل تحته النهى عن تحريمها دخولا أوليا لوروده عقيبه ، أو أريد ولا تعتدوا بذلك ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾ تعليل لما قبله ﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ﴾ أى ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله ، فحلالا مفعول كلوا ، ومما رزقكم إما حال منه تقدمت عليه لكونه نكرة ، أومتعلق بكلوا ، ومن ابتدائية ، أو هو المفعول وحلالا حال من الموصول ، أو من عائده المحذوف ، أو صفة لمصدر محذوف ، أى أكلا حلالا ، وعلى الوجوه كلها لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة ﴿ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾ توكيد للوصية بما أمر به ، فإن الإيمان به تعالى يوجب المبالغة فى التقوى والانتهاء عما نهى عنه .

من تشريع القرآن

﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ اللغو فى اليمين الساقط الذى لا يتعلق به حكم وهو عندنا أن يحلف على شىء يظن أنه كذلك وليس كما يظن ، وهو قول مجاهد قيل كانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنه قربة ، فلما نزل النهى قالوا : كيف بأيماننا ؟ فنزلت ، وعند الشافعى رحمه الله تعالى[2] ما يبدو من المرء من غير قصد كقوله : لا والله وبلى والله ، وهو قول عائشة رضى الله تعالى عنها ، وفى أيمانكم صلة يؤاخذكم أو اللغو لأنه مصدر أو حال منه

---

(١) أخرجه البخارى والواحدى فى أسباب النزول والسيوطى من طرق فى لباب النقول . وخلاصة الرأى أن المسلم مكلف بوضع الدنيا فى يده وإخراجها من قلبه ، وبأن يستعملها فى قوام حياته دون إسراف ، وبإنفاق الفضل فى سبيل الله .

(٢) فى ط : تعالوا خطأ .

﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ أى بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها عليه بالقصد والنية والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتموه إذا حنثتم أو بنكث ما عقدتم فحذف للعلم به وقرىء بالتخفيف وقرىء عاقدتم بمعنى عقدتم ﴿ فكفارته ﴾ أى فكفارة نكثه وهى الفعلة التى من شأنها أن تكفر الخطيئة وتسترها ، واستدل بظاهره عن جواز التكفير قبل الحنث ، وعندنا لا يجوز ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام : « من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا فليأت الذى هو خير ثم ليكفر عن يمينه » ﴿ إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ أى من أقصده فى النوع أو المقدار ، وهو نصف صاع من بر لكل مسكين ، ومحله النصب لأنه صفة مفعول محذوف تقديره أن تطعموا عشرة مساكين طعاما كائنا من أوسط ما تطعمون ، أو الرفع على أنه بدل من إطعام ، وأهلون جمع أهل كأرضون جمع أرض ، وقرىء أهاليكم بسكون الياء على لغة من يسكنها فى الحالات الثلاث كالألف ، وهذا أيضا جمع أهل كالأراضى فى جمع أرض والليالى فى جمع ليل وقيل جمع أهلاة ﴿ أو كسوتهم ﴾ عطف على إطعام أو على محل من أوسط على تقدير كونه بدلا من إطعام وهو ثوب يغطى العورة وقيل ثوب جامع قميص أو رداء أو إزار ، وقرىء بضم الكاف وهى لغة كقدوة فى قدوة وأسوة فى إسوة ، وقرىء أو كأسوتهم على أن الكاف فى محل الرفع تقديره أو إطعامهم كأسوتهم بمعنى أو كمثل ما تطعمون أهليكم إسرافا وتقتيرا تواسون بينهم وبينهم إن لم تطعموهم الأوسط ﴿ أو تحرير رقبة ﴾ أى أو إعتاق إنسان كيفما كان ، وشرط الشافعى رضى الله تعالى عنه فيه الإيمان قياسا على كفارة القتل، ومعنى أو إيجاب إحدى الخصال مطلقا وخيار التعيين للمكلف .

﴿ فمن لم يجد ﴾ أى شيئا من الأمور المذكورة ﴿ فصيام ﴾ أى فكفارته صيام ﴿ ثلاثة أيام ﴾ والتتابع شرط عندنا لقراءة ثلاثة أيام متتابعات ، والشافعى رضى الله عنه لا يرى للشواذ حجة ﴿ ذلك ﴾ أى الذى ذكر ﴿ كفارة أيمانكم إذا حلفتم ﴾ أى وحنثتم ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ بأن تضنوا بها

ولا تبذلوها كما يشعر به قوله تعالى ﴿إذا حلفتم﴾ وقيل بأن تبروا فيها ما استطعتم ولم يفت بها خير ، أو بأن تكفروها إذا حنثتم ، وقيل احفظوها كيف حلفتم بها ولا تنسوها تهاونا بها ﴿كذلك﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الآتى لا إلى تبيين آخر مفهوم مما سبق والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ، ومحله فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير : يبين الله تبيينا كائنا مثل ذلك التبيين ، فقدم على الفعل لإفادة القصر ، واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة ، فصار نفس المصدر لا نعتا له وقد مر تفصيله فى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) أى ذلك البيان البديع ﴿يبين الله لكم آياته﴾ أعلام شريعته وأحكامه لا بيانا أدنى منه ، وتقديم لكم على المفعول لما مر مرارا ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج .

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب﴾ أى الأصنام المنصوبة للعبادة ﴿والأزلام﴾ سلف تفسيرها فى أوائل السورة الكريمة ﴿رجس﴾ قذر تعاف عنه العقول ، وإفراده لأنه خبر الخمر وخبر المعطوفات محذوف ثقة بالمذكور ، أو المضاف محذوف أى شأن الخمر والميسر . الخ ﴿من عمل الشيطان﴾ فى محل الرفع على أنه صفة رجس ، أى كائن من عمله لأنه مسبب من تسويله وتزيينه ﴿فاجتنبوه﴾ أى الرجس أو ما ذكر ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى راجين فلاحكم ، وقيل لكى تفلحوا بالاجتناب عنه وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (لعلكم تتقون) ولقد أكد تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صدرت الجملة بإنما وقرنا بالأصنام والأزلام ، وسميا رجسا من عمل الشيطان تنبيها على أن تعاطيها شر بحت ، وأمر بالاجتناب عن عينهما وجعل ذلك سببا يرجى عنه الفلاح ، فيكون ارتكابهما خيبة ومحقة، ثم قرر ذلك ببيان ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقيل ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر﴾ وهو إشارة إلى مفاسدهما الدنيوية ﴿ويصدكم عن ذكر الله

وعن الصلاة ﴾ إشارة إلى مفاسدهما الدينية وتخصيصهما بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال للتنبيه على أن المقصود بيان حالها ، وذكر الأصنام والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما فى الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام « شارب الخمر كعابد الوثن » وتخصيص الصلاة بالإفراد مع دخولها فى الذكر للتعظيم والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان لما أنها عماده ، ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ما تقدم من أصناف الصوارف فقيل ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ إيذانا بأن الأمر فى الزجر والتحذير وكشف ما فيهما من المفاسد والشرور قد بلغ الغاية وأن الأعذار قد انقطعت بالكلية .

﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ عطف على اجتنبوه أى أطيعوهما فى جميع ما أمرا به ونهيا عنه ﴿ واحذروا ﴾ أى مخالفتهما فى ذلك فيدخل فيه مخالفة أمرهما ونهيهما فى الخمر والميسر دخولا أوليا ﴿ فإن توليتم ﴾ أى أعرضتم عن الامتثال بما أمرتم به من الاجتناب عن الخمر والميسر وعن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام والاحتراز عن مخالفتهما ﴿ فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ وقد فعل ذلك بما لامزيد عليه وخرج عن عهدة الرسالة أى خروج ، وقامت عليكم الحجة وانتهت الأعذار وانقطعت العلل ، وما بقى بعد ذلك إلا العقاب . وفيه من عظم التهديد وشدة الوعيد مالا يخفى ، وأما ماقيل من أن المعنى فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول لأنه ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات وقد فعل ؛ وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه فلا يساعده المقام ، إذ لايتوهم منهم ادعاء أنهم بتوليهم يضرونه عليه الصلاة والسلام حتى يرد عليهم بأنهم لايضرونه ؛ وإنما يضرون أنفسهم .

﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ﴾ أى إثم وحرج ﴿ فيما طعموا ﴾ أى تناولوا أكلا أو شربا فإن استعماله فى الشرب أيضا مستفيض منه قوله تعالى (ومن لم يطعمه فإنه منى) قيل : لما أنزل الله تعالى تحريم الخمر بعد غزوة الأحزاب قال رجال من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام: أصيب فلان يوم بدر وفلان يوم أحد وهم يشربونها ، ونحن نشهد أنهم فى الجنة ، وفى

رواية أخرى: لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة رضى الله تعالى عنهم: يارسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وفى رواية أخرى قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : يارسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القمار ، فنزلت ، وليست كلمة ما فى ما طعموا عبارة عن المباحات الخاصة ، وإلا لزم تقييد إباحتها باتقاء ما عداها من المحرمات لقوله تعالى ﴿ إذا ما اتقوا ﴾ واللازم منتف بالضرورة ، بل هى على عمومها موصولة كانت أو موصوفة ، وإنما تخصصت بذلك القيد الطارىء عليها والمعنى ليس عليهم جناح فيما تناولوه من المأكول والمشروب كائنا ما كان إذا اتقوا أن يكون فى ذلك شىء من المحرمات ، وإلا لم يكن نفى الجناح فى كل ما طعموه بل فى بعضه ولا محذور فيه ، إذ اللازم منه تقييد إباحة الكل بأن لا يكون فيه محرم لا تقييد إباحة بعضه باتقاء بعض آخر منه كما هو اللازم من الأول ﴿ وآمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى واستمروا على الإيمان والأعمال الصالحة وقوله تعالى ﴿ ثم اتقوا ﴾ عطف على اتقوا داخل معه فى حيز الشرط ، أى اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك مع كونه مباحا فيما سبق ﴿ وآمنوا ﴾ أى بتحريمه . وتقديم الاتقاء عليه إما للاعتناء به أو لأنه الذى يدل على التحريم الحادث الذى هو المؤمن به ، أو واستمروا على الإيمان ﴿ ثم اتقوا ﴾ أى ما حرم عليهم بعد ذلك مما كان مباحا من قبل ، على أن المشروط بالاتقاء فى كل مرة إباحة كل ما طعموه فى ذلك الوقت لا إباحة كل ما طعموه قبله ، لانتساخ إباحة بعضه حينئذ ﴿ وأحسنوا ﴾ أى عملوا الأعمال الحسنة الجميلة المنتظمة لجميع ما ذكر من الأعمال القلبية والقالبية ، وليس تخصيص هذه المرات بالذكر لتخصيص الحكم بها ، بل لبيان التعدد والتكرر بالغا ما بلغ ، والمعنى أنهم إذا اتقوا المحرمات واستمروا على ما هم عليه من الإيمان والأعمال الصالحة ، وكانوا فى طاعة الله ومراعاة أوامره ونواهيه بحيث كلما حرم عليهم شىء من المباحات اتقوه ، ثم وثم ، فلا جناح عليهم فيما طعموه فى كل مرة من المطاعم والمشارب ، إذ ليس فيها شىء محرم عند طعمه .

وأنت خبير بأن ما عدا اتقاء المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة لا دخل لها فى انتفاء الجناح ، وإنما ذكرت فى حيز إذا شهادة باتصاف الذين سئل عن حالهم بها ، ومدحا لهم بذلك وحمداً لأحوالهم ، وقد أشير إلى ذلك حيث جعلت تلك الصفات تبعا للاتقاء فى كل مرة تمييزا بينها وبين ما له دخل فى الحكم ، فإن مساق النظم الكريم بطريق العبارة وإن كان لبيان حال المتصفين بما ذكر من النعوت فيما سيأتى بقضية كلمة : إذا ما ، لكنه قد أخرج مخرج الجواب عن حال الماضين لإثبات الحكم فى حقهم فى ضمن التشريع الكلى على الوجه البرهانى بطريق دلالة النص ، بناء على كمال اشتهارهم بالاتصاف بها ، فكأنه قيل ليس عليهم جناح فيما طعموه إذ كانوا فى طاعته تعالى مع ما لهم من الصفات الحميدة ، بحيث كلما أمروا بشىء تلقوه بالامتثال . وإنما كانوا يتعاطون الخمر والميسر فى حياتهم لعدم تحريمها إذ ذاك ، ولو حرما فى عصرهم لاتقوهما بالمرة .

هذا وقد قيل التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة ، أو باعتبار الحالات الثلاث : استعمال الإنسان التقوى بينه وبين نفسه ، وبينه وبين الناس ، وبينه وبين الله عز وجل . ولذلك جىء بالإحسان فى الكرة الثالثة بدل الإيمان إشارة إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام فى تفسيره ، أو باعتبار المراتب الثلاث : المبدأ والوسط والمنتهى ، أو باعتبار ما يتقى ، فإنه ينبغى أن يترك المحرمات توقيا من العقاب ، والشبهات توقيا من الوقوع فى الحرام ، وبعض المباحات حفظا للنفس عن الخسة وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة[1] وقيل التكرير لمجرد التأكيد كما فى قوله تعالى (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) ونظائره وقيل المراد بالأول اتقاء الكفر ، وبالثانى اتقاء الكبائر ، وبالثالث اتقاء الصغائر .

---

(١) هذه هى مراتب الزهد . فترك الحرام زهد مفروض ، وترك الشبهة ورع عنها مخافة الوقوع فى الحرام وترك بعض المباح سلوك نبوى كريم . والمراد به التقلل ، أو عدم التعلق به كطيبات الرزق ، أو تركه كالجلوس فى الطرقات .

ولا ريب فى أنه لا تعلق لهذه الاعتبارات بالمقام فأحسن التأمل ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله أبلغ تقرير .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله ﴾ جواب قسم محذوف أى والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليتعرف أحوالكم ﴿ بشيء من الصيد ﴾ أى من صيد البر مأكولا أو غير مأكول ما عدا المستثنيات من الفواسق ، فاللام للعهد ، نزلت عام الحديبية . ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون كانت الوحوش تغشاهم فى رحالهم بحيث كانوا متمكنين من صيدها أخذا بأيديهم وطعنا برماحهم وذلك قوله تعالى ﴿ تناله أيديكم ورماحكم ﴾ فهموا بأخذها فنزلت ، وروى أنه عن لهم حمار وحش فحمل عليه أبو اليسر بن عمرو فطعنه برمحه وقتله ، فقيل له : قتلته وأنت محرم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن ذلك فأنزل الله تعالى الآية . فالتأكيد القسمى فى ليبلونكم إنما هو لتحقيق أن ما وقع من عدم توحش الصيد عنهم ليس إلا لابتلائهم لا لتحقيق وقوع المبتلى به كما لو كان النزول قبل الابتلاء ، وتنكير شيء للتحقير المؤذن بأن ذلك ليس من الفتن الهائلة التى تزل فيها أقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفس وإتلاف الأموال ، وإنما هو من قبيل ما ابتلى به أهل أيلة من صيد البحر ، وفائدته التنبيه على أن من لم يتثبت فى مثل هذا كيف يتثبت عند شدائد المحن ، فمن فى قوله تعالى (من الصيد) بيانية قطعا أى بشيء حقير هو الصيد وجعلها تبعيضية يقتضى اعتبار قلته وحقارته بالنسبة إلى كل الصيد لا بالنسبة إلى عظائم البلايا فيعرى الكلام عن التنبيه المذكور .

﴿ ليعلم الله من يخافه بالغيب ﴾ أى ليتميز الخائف من عقابه الأخروى وهو غائب مترقب لقوة إيمانه ، فلا يتعرض للصيد ممن لا يخافه كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه ، وإنما عبر عن ذلك بعلم الله تعالى اللازم له إيذانا بمدار الجزاء ثوابا وعقابا أدخل فى حملهم على الخوف : وقيل المعنى ليتعلق علمه تعالى بمن يخافه بالفعل ، فإن علمه تعالى بأنه سيخافه وإن كان متعلقا به قبل

خوفه لكن تعلقه بأنه خائف بالفعل وهو الذى يدور عليه أمر الجزاء إنما يكون عند تحقق الخوف بالفعل ، وقيل هناك مضاف محذوف والتقدير ليعلم أولياء الله ، وقرىء ليعلم من الإعلام على حذف المفعول الأول أى ليعلم الله عباده الخ والعلم على القراءتين متعد إلى واحد ، وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ أى بعد بيان أن ما وقع ابتلاء من جهته تعالى لما ذكر من الحكمة لا بعد تحريمه أو النهى عنه كما قاله بعضهم ، إذ النهى والتحريم ليس أمراً حادثا يترتب عليه الشرطية ، بالفاء ، ولا بعد الابتلاء كما اختاره آخرون ، لأن نفس الابتلاء لا يصلح مدارا لتشديد العذاب ، بل ربما يتوهم كونه عذرا مسوغا لتخفيفه ، وإنما الموجب للتشديد بيان كونه ابتلاء ، لأن الاعتداء بعد ذلك مكابرة صريحة ، وعدم مبالاة بتدبير الله تعالى ، وخروج عن طاعته ، والانخلاع عن خوفه وخشيته بالكلية . أى : فمن تعرض للصيد بعد ما بينا أن ما وقع من كثرة الصيد وعدم توحشه منهم ابتلاء مؤد إلى تمييز المطيع من العاصى ﴿ فله عذاب أليم ﴾ لما ذكر من أنه مكابرة محضة ولأن من لا يملك زمام نفسه ولا يراعى حكم الله تعالى فى أمثال هذه البلايا الهينة لا يكاد يراعيه فى عظائم المداحض . والمراد بالعذاب الأليم عذاب الدارين ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : يوسع ظهره وبطنه جلدا وينزع ثيابه .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ شروع فى بيان ما يتدارك به الاعتداء من الأحكام إثر بيان ما يلحقه من العذاب ، والتصريح بالنهى فى قوله تعالى ﴿ لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ مع كونه معلوما لا سيما من قوله تعالى ﴿ غير محلى الصيد وأنتم حرم ﴾ لتأكيد الحرمة وترتيب ما يعقبه عليه ، واللام فى الصيد للعهد حسبما سلف ، وحرم جمع حرام ، وهو المحرم وإن كان فى الحل ، وفى حكمه من فى الحرم وإن كان حلالا ، كردح جمع رداح ، والجملة حال من فاعل لا تقتلوا ، أى لا تقتلوه وأنتم محرمون ﴿ ومن قتله ﴾ أى الصيد المعهود وذكر

القتل فى الموضعين دون الذبح للإيذان بكونه فى حكم الميتة ﴿منكم﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل قتله أى كائنا منكم .

﴿متعمداً﴾ حال منه أيضا أى ذاكرا لإحرامه عالما بحرمة قتل ما يقتله ، والتقييد بالتعمد مع أن محظورات الإحرام يستوى فيها العمد والخطأ لما أن الآية نزلت فى المتعمد كما مر من قصة أبى اليسر ، ولأن الأصل فعل المتعمد والخطأ لاحق به للتغليظ وعن الزهرى : نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : لا أرى فى الخطأ شيئاً أخذا باشتراط التعمد فى الآية ، وهو قول داود عن مجاهد والحسن: أن المراد بالتعمد هو تعمد القتل مع نسيان الإحرام ، أما إذا قتله عمدا وهو ذاكر لإحرامه فلا حكم عليه وأمره إلى الله عز وجل ، لأنه أعظم من أن يكون له كفارة . ﴿فجزاء مثل ما قتل﴾ برفعهما ، أى فعليه جزاء مماثل لما قتله ، وقرىء برفع الأول ونصب الثانى على إعمال المصدر ، وقرى بجر الثانى على إضافته إلى مفعوله وقرىء فجزاؤه مثل ما قتل على الابتداء والخبرية ، وقرى بنصبهما على تقدير فليجز جزاء أو فعليه أن يجزى جزاء مثل ما قتل ، والمراد به عند أبى حنيفة وأبى يوسف رضى الله عنهما المثل باعتبار القيمة ، يقوم الصيد حيث صيد أو فى أقرب الأماكن إليه ، فإن بلغت قيمته قيمة هدى يخير الجانى بين أن يشترى بها قيمة الصيد فيهديه إلى الحرم . وبين أن يشترى بها طعاما فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره ، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوما ، فإن فضل مالا يبلغ طعام مسكين تصدق به أو صام عنه يوما كاملا ، إذ لم يعهد فى الشرع صوم ما دونه فيكون قوله تعالى ﴿من النعم﴾ بيانا للهدى المشترى بالقيمة على أحد وجوه التخيير فإن من فعل ذلك يصدق عليه أنه جزى بمثل ما قتل من النعم وعن مالك والشافعى رحمهما الله تعالى ومن يرى رأيهما هو المثل باعتبار الخلقة والهيئة لأن الله تعالى أوجب مثل المقتول مقيدا بالنعم فمن اعتبر المثل بالقيمة فقد خالف النص ، وعن الصحابة رضى الله

عنهم أنهم أوجبوا فى النعامة بدنه ، وفى الظبي شاة ، وفى حمار الوحش بقرة ، وفى الأرنب عناقا ، وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال « الضبع صيد وفيه شاة إذا قتله المحرم » ولنا أن النص أوجب المثل والمثل المطلق فى الكتاب والسنة وإجماع الأمة والمعقول يراد به إما المثل صورة ومعنى، وإما المثل معنى وأما المثل صورة بلا معنى فلا اعتبار له فى الشرع أصلا ، وإذا لم يمكن إرادة الأول إجماعا تعينت إرادة الثانى لكونه معهودا فى الشرع كما فى حقوق العباد ، ألا يرى أن المماثلة بين أفراد نوع واحد مع كونها فى غاية القوة والظهور لم يعتبرها الشرع ، ولم يجعل الحيوان عند الإتلاف مضمونا بفرد آخر من نوعه مماثل له فى عامة الأوصاف بل مضمونا بقيمته مع أن المنصوص عليه فى أمثاله إنما هو المثل ، قال تعالى (فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) فحيث لم تعتبر تلك المماثلة القوية مع تيسر معرفتها وسهولة مراعاتها فلأن لا تعتبر ما بين أفراد أنواع مختلفة من المماثلة الضعيفة الخفية مع صعوبة مأخذها وتعسر المحافظة عليها أولى وأحرى ، ولأن القيمة قد أريدت فيما لا نظير له إجماعا فلم يبق غيره مرادا ، إذ لا عموم للمشترك فى مواقع الإثبات ، والمراد بالمروى إيجاب النظير باعتبار القيمة لا باعتبار العين ، ثم الموجب الأصلى للجناية والجزاء المماثل للمقتول إنما هو قيمته لكن لا باعتبار أن يعمد الجانى إليها فيصرفها إلى المصارف ابتداء ، بل باعتبار أن يجعلها معيارا فيقدر بها إحدى الخصال الثلاث فيقيمها مقامها ، فقوله تعالى (مثل ما قتل) وصف لازم للجزاء ، غير مفارق عنه بحال وأما قوله تعالى (من النعم) فوصف له معتبر فى ثانى الحال بناء على وصفه الأول الذى هو المعيار له ولما بعده من الطعام والصيام ، فحقهما أن يعطفا على الوصف المفارق لا على الوصف اللازم فضلا عن العطف على الموصوف كما سيأتى بإذن الله تعالى. ومما يرشدك إلى أن المراد بالمثل هو القيمة قوله عز وجل ﴿ يحكم به ﴾ أى بمثل ما قتل ﴿ ذوا عدل منكم ﴾ أى حكمان عدلان من المسلمين لكن لا لأن التقويم هو الذى يحتاج إلى النظر والاجتهاد من العدول دون الأشياء المشاهدة التى يستوى فى معرفتها كل أحد من الناس ، فإن ذلك ناشىء

من الغفلة عما أرادوا بما به المماثلة ، بل لأن ما جعلوه مدار المماثلة بين الصيد وبين النعم من ضرب مشاكلة ومضاهاة فى بعض الأوصاف والهيئات مع تحقق التباين بينهما فى بقية الأحوال مما لا يهتدى إليه من أساطين أئمة الاجتهاد ، وصناديد أهل الهداية والإرشاد ، إلا المؤيدون بالقوة القدسية ، ألا يرى أن الإمام الشافعى رضى الله عنه أوجب فى قتل الحمامة شاة بناء على ما أثبت بينهما من المماثلة من حيث أن كلا منهما يعب ويهدر ، مع أن النسبة بينهما من سائر الحيثيات كما بين الضب والنون[1] فكيف يفوض معرفة أمثال هذه الدقائق العويصة إلى رأى عداين من آحاد الناس ؛ على أن الحكم بهذا المعنى إنما يتعلق بالأنواع لا بالأشخاص ، فبعد ما عين بمقابلة كل نوع من أنواع الصيد نوع من أنواع النعم يتم الحكم ولا يبقى عند وقوع خصوصيات الحوادث حاجة إلى حكم أصلا . وقرىء يحكم به ذو عدل على إرادة جنس العادل دون الوحدة ، وقيل بل على إرادة الإمام ، والجملة صفة لجزاء أو حال منه لتخصصه بالصفة وقوله تعالى ﴿هديا﴾ حال مقدرة من الضمير فى به ، أو فى جزاء لما ذكر من تخصصه بالصفة ، أو بدل من مثل فيمن نصبه ، أو من محله فيمن جره ، أو نصب على المصدر ، أو يهديه هديا ، والجملة صفة أخرى لجزاء .

﴿بالغ الكعبة﴾ صفة لهديا لأن الإضافة غير حقيقية ﴿أو كفارة﴾ عطف على محل من النعم على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة صفة ثانية لجزاء كما أشير إليه وقوله تعالى ﴿طعام مسكين﴾ عطف بيان لكفارة عند من لا يخصصه بالمعارف ، أو بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف ، أى هى طعام مساكين وقوله تعالى ﴿أو عدل ذلك صياما﴾ عطف على طعام الخ ، كأنه قيل : فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النعم أو طعام مساكين أو صيام أيام بعددهم ، فحينئذ تكون المماثلة وصفا لازما للجزاء يقدر به الهدى والطعام والصيام ، أما الأولان

---

(١) النون هو الحوت .

فبلا واسطة ، وأما الثالث فبواسطة الثانى ، فيختار الجانى كلا منها بدلا من الآخرين ، هذا وقد قيل : إن قوله تعالى ﴿ أو كفارة ﴾ عطف على جزاء فلا يبقى حينئذ فى النظم الكريم ما يقدر به الطعام والصيام ، والالتجاء إلى القياس على الهدى تعسف لا يخفى ، هذا على قراءة جزاء بالرفع وعلى سائر القراءات ، فقوله تعالى ﴿ أو كفارة ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة معطوفة على جملة هو من النعم . وقرىء أو كفارة طعام مساكين بالإضافة لتبيين نوع الكفارة ؛ وقرىء طعام مسكين على أن التبيين يحصل بالواحد الدال على الجنس ؛ وقرىء أو عدل بكسر العين ؛ والفرق بينهما أن عدل الشيء ما عادله من غير جنسه كالصوم والإطعام ؛ وعدله ما عدل به فى المقدار ؛ كأن المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول ؛ وذلك إشارة إلى الطعام وصياما تمييز للعدل والخيار فى ذلك للجانى عند أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله وللحكمين عند محمد رحمه الله .

﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ متعلق بالاستقرار فى الجار والمجرور ، أى فعليه جزاء ليذوق الخ . وقيل بفعل يدل عليه الكلام ، كأنه قيل : شرع ذلك عليه ليذوق وبال أمره أى سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام والوبال فى الأصل المكروه والضرر الذى ينال فى العاقبة من عمل سوءاً لثقله ومنه قوله تعالى (فأخذناه أخذا وبيلا) ومنه الطعام الوبيل وهو الذى لا تستمرئه المعدة ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ من قتل الصيد محرما قبل أن يسألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقيل عما سلف منه فى الجاهلية ، لأنهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرما ﴿ ومن عاد ﴾ إلى قتل الصيد بعد النهى عنه وهو محرم ﴿ فينتقم الله منه ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ، ولذلك دخلت الفاء كقوله تعالى : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ﴾ أى فذلك لا يخاف الخ وقوله تعالى ﴿ ومن كفر فأمتعه ﴾ أى فأنا أمتعه والمراد بالانتقام التعذيب فى الآخرة وأما الكفارة فعن عطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير والحسن أنها واجبة على العائد ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما وشريح

أنه لا كفارة عليه تعلقا بالظاهر ﴿والله عزيز﴾ غالب لايغالب ﴿ذو انتقام﴾ شديد فينتقم ممن أصر على المعصية والاعتداء .

﴿أحل لكم﴾ الخطاب للمحرمين ﴿صيد البحر﴾ أى ما يصاد فى المياه كلها بحرا كان أو نهرا أو غديرا[١] وهو مالا يعيش إلا فى الماء مأكولا أوغير مأكول ﴿وطعامه﴾ أى وما يطعم من صيده وهو تخصيص بعد تعميم والمعنى حل لكم التعرض لجميع ما يصاد فى المياه والانتفاع به ، وأكل ما يؤكل منه وهو السمك عندنا ، وعند ابن أبى ليلى جميع مايصاد فيه على أن تفسير الآية عنده أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه ، وقرىء وطعمه وقيل صيد البحر ما صيد فيه وطعامه ماقذفه أو نضب عنه ﴿متاعا لكم﴾ نصب على أنه مفعول له مختص بالطعام كما أن نافلة فى قوله تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة) حال مختصة بيعقوب عليه السلام ، أى أحل لكم طعامه تمتيعا للمقيمين منكم يأكلونه طريا ﴿وللسيارة﴾ منكم يتزودونه قديدا ، وقيل نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر ، أى متعكم به متاعا ، وقيل مؤكد لمعنى أحل لكم فإنه فى قوة متعكم به تمتيعا كقوله تعالى (كتاب الله عليكم) ﴿وحرم عليكم صيد البر﴾ وقرىء على بناء الفعل للفاعل ونصب صيد البر ، وهو ما يفرخ فيه وإن كان يعيش فى الماء فى بعض الأوقات كطير الماء ﴿مادمتم حرما﴾ أى محرمين وقرىء بكسر الدال من دام يدام ، وظاهره يوجب حرمة ما صاده الحلال على المحرم وإن لم يكن له مدخل فيه ، وهو قول عمر وابن عباس رضى الله عنهم . وعن أبى هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير رضى الله عنهم أنه يحل له أكل ما صاده الحلال وإن صاده لأجله إذا لم يشر إليه ولم يدل عليه وكذا ما ذبحه قبل إحرامه وهو مذهب أبى حنيفة ، لأن الخطاب للمحرمين فكأنه قيل : وحرم عليكم ما صدتم فى البر فيخرج منه مصيد غيرهم ، وعند مالك والشافعى وأحمد لا يباح ما صيد له ﴿واتقوا الله﴾ فيما نهاكم عنه أو فى جميع المعاصى التى

---

(١) الغدير ماغادره السيل من الماء فى الأماكن المنخفضة .

من جملتها ذلك ﴿ الذى إليه تحشرون ﴾ لا إلى غيره حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى بالالتجاء إليه .

﴿ جعل الله الكعبة ﴾ قال مجاهد : سميت كعبة لكونها مكعبة مربعة ، وقيل لانفرادها من البناء ، وقيل لارتفاعها من الأرض ونتوئها وقوله تعالى ﴿ البيت الحرام ﴾ عطف بيان على جهة المدح دون التوضيح كما تجىء الصفة كذلك ، وقيل مفعول ثان لجعل وقوله تعالى ﴿ قياما للناس ﴾ نصب على الحال ويرده عطف ما بعده على المفعول الأول كما سيجىء ، بل هذا هو المفعول الثانى وقيل الجعل بمعنى الإنشاء والخلق وهو حال كما مر . ومعنى كونه قياما لهم أنه مدار لقيام أمر دينهم ودنياهم إذ هو سبب لانتعاشهم فى أمور معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ويربح فيه التجار ويتوجه إليه الحجاج والعمار ، وقرىء قيما على أنه مصدر على وزن شبع أعل عينه بما أعل فى فعله ﴿ والشهر الحرام ﴾ أى الذى يؤدى فيه الحج وهو ذو الحجة ، وقيل جنس الشهر الحرام ، وهو وما بعده عطف على الكعبة ، فالمفعول الثانى محذوف ثقة بما مر ، أى وجعل الشهر الحرام ﴿ والهدى والقلائد ﴾ أيضاً قياما لهم،والمراد بالقلائد ذوات القلائد وهى البدن ، خصت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر ، وبهاء الحج بها أظهر ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الجعل المذكور خاصةأو مع ماذكر من الأمر بحفظ حرمة الإحرام وغيره ، ومحله النصب بفعل مقدر يدل عليه السياق وهو العامل فى اللام بعده أى شرع ذلك .

﴿ لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ فإن تشريع هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية قبل وقوعها وجلب المنافع الأولوية والأخروية[1] من أوضح الدلائل على حكمة الشارع ، وعدم خروج شىء عن علمه المحيط وقوله تعالى ﴿ وأن الله بكل شىء عليم ﴾تعميم إثر تخصيص للتأكيد ، ويجوز أن يراد بما فى السموات والأرض الأعيان الموجودة فيهما ،

---

(١) فى ١٠ : فى الأولى والأخرى . وهما بمعنى .

وبكل شيء الأمور المتعلقة بتلك الموجودات من العوارض والأحوال التي هي من قبيل المعاني ﴿ إعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ وعيد لمن انتهك محارمه أو أصر على ذلك ، وقوله تعالى ﴿ وأن الله غفور رحيم ﴾ وعد لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى أو أقلع عن الانتهاك بعد تعاطيه ، ووجه تقديم الوعيد ظاهر[1] ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به أي الرسول قد أتى بما وجب عليه من التبليغ بما لا مزيد عليه وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم من بعد في التفريط ﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ فيؤاخذكم بذلك نقيراً وقطميرا .

﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ﴾ حكم عام في نفي المساواة عند الله تعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وبين جيدها ، قصد به الترغيب في جيد كل منها والتحذير عن رديئها ، وإن كان سبب النزول شريح بن ضبعة البكري الذي مرت قصته في تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) الخ وقيل: نزلت في رجل سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام : إن الخمر كانت تجارتي ، وإني اعتقدتُ من بيعها مالا فهل ينفعني من ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله تعالى ؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « إن أنفقته في حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل جناح بعوضة إن الله لا يقبل إلا الطيب » وقال عطاء والحسن رضي الله عنهما : الخبيث والطيب الحرام والحلال ، وتقديم الخبيث في الذكر للإشعار من أول الأمر بأن القصور الذي ينبيء عنه عدم الاستواء فيه لا في مقابلة ، فإنه مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد ، لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر كما في قوله تعالى (هل يستوى الأعمى والبصير) إلى غير ذلك ، وأما قوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فلعل تقديم الفاضل فيه لما

---

(١) هو والله أعلم لحراسة حدود الله أن تنتهك عمدا أو استهانة بها ، وتأخير المغفرة للاشارة إلى أنها لغير المتعمدين المستهترين بحدود الله .

أن صلته ملكة لصلة المفضول ﴿ ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ أى وإن سرك كثرته ، والخطاب لكل واحد من الذين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بخطابهم والواو لعطف الشرطية على مثلها المقدر ، وقيل للحال وقد مر أى لولم تعجبك كثرة الخبيث ولو أعجبتك ، وكلتاهما فى موقع الحال من فاعل لايستوى ، أى لا يستويان كائنين على كل حال مفروض كما فى قولك أحسن إلى فلان وإن أساء إليك أى أحسن إليه وإن لم يسىء إليك وإن أساء إليك أى كائنا على كل حال مفروض ، وقد حذفت الأولى حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة ، فإن الشيء إذا تحقق مع المعارض فلأن يتحقق بدونه أولى ، وعلى هذا السر يدور مافى لو وإن الوصليتين من المبالغة والتأكيد ، وجواب لو محذوف فى الجملتين لدلالة ما قبلهما عليه ، وسيأتى تمام تحقيقه فى موقع عديدة بإذن الله عز وجل .

﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب ﴾ أى فى تحرى الخبيث وإن كثر ، وآثروا عليه الطيب وإن قل ، فإن مدار الاعتبار هو الجودة والرداءة لا الكثرة والقلة فالمحمود القليل خير من المذموم الكثير ، بل كلما كثر الخبيث كان أخبث ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ راجين أن تنالوا الفلاح .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾ هو اسم جمع على رأى الخليل وسيبويه وجمهور البصريين كطرفاء وقصباء أصله شيآء بهمزتين بينهما ألف ، فقلبت الكلمة بتقديم لامها على فائها فصار وزنها لفعاء ، ومنعت الصرف لألف التأنيث الممدودة ، وقيل هو جمع شيء على أنه مخفف من شيىء كهين مخفف من هين ، والأصل أشيئاء كأهوناء بزنة أفعلاء . فاجتمعت همزتان لام الكلمة. والتى للتأنيث ، إذ الألف كالهمزة نخففت الكلمة بأن قلبت الهمزة الأولى ياء لانكسار ماقبلها فصارت أشيياء ، فاجتمعت ياءان أولاهما عين الكلمة فحذفت تخفيفا فصارت أشياء وزنها أفلاء ، ومنعت الصرف لألف التأنيث ، وقيل : إنما حذفت من أشيياء الياء المنقلبة من الهمزة التى هى لام الكلمة وفتحت الياء المكسورة لتسلم ألف الجمع فوزنها أفعاء وقوله تعالى ﴿ إن تبد لكم تسؤكم ﴾

صفة لأشياء داعية إلى الانتهاء عن السؤال عنها ، وحيث كانت المساءة فى هذه الشرطية معلقة بإبدائها لا بالسؤال عنها عقبت بشرطية أخرى ناطقة باستلزام السؤال عنها لإبدائها الموجب للمحذور قطعاً فقيل :

﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ أى (عن)[1] تلك الأشياء الموجبة للمساءة بالوحى كما ينبىء عنه تقييد السؤال بحين التنزيل ، والمراد بها ما يشق عليهم ويغمهم من التكاليف الصعبة التى لا يطيقونها[2] والأسرار الخفية التى يفتضحون بظهورها ، ونحو ذلك مما لا خير فيه ، فكما أن السؤال عن الأمور الواقعة مستتبع لإبدائها كذلك السؤال عن تلك التكاليف مستتبع لإيجابها عليهم بطريق التشديد لإساءتهم الأدب، واجترائهم على المسألة والمراجعة، وتجاوزهم عما يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عز وجل من غير بحث فيه ولا تعرض لكيفيته وكميته ، أى لا تكثروا مساءلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما لا يعنيكم من نحو تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكم بها وكلفكم إياها حسبما أوحى إليه لم تطيقوها[3] ونحو بعض أمور مستورة تكرهون بروزها ، وذلك مثل ما روى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج ، فقام رجل من بنى أسد يقال له عكاشة بن محصن ، وقيل: هو سراقة بن مالك ، فقال : أفى كل عام يارسول الله ؟ فأعرض عنه حتى أعاد مسألته ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم ؟ والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركونى ما تركتم . فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ،

(١) سقطت من الأصل .
(٢) فى ط : يطيقون بها .
(٣) فى ط : لم تطيقوا بها .

فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » . ومثل ما روى عن أنس وأبى هريرة رضى الله عنهما أنه سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء حتى أحفوه فى المسألة ، فقام عليه الصلاة والسلام مغضبا خطيبا فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال « سلونى فوالله ما تسألونى عن شيء مادمت فى مقامى هذا إلا بينته لكم فأشفق أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام أن يكون بين يدى أمر قد حضر ، قال أنس رضى الله عنه فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فلا أجد رجلا إلا وهو لاف رأسه فى ثوبه يبكى ، فقام رجل من قريش من بنى سهم يقال له عبد الله بن حذافة وكان إذا لاحى الرجال يدعى إلى غير أبيه وقال : يا نبى الله ، من أبى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أبوك حذافة بن قيس الزهرى ، وقام آخر وقال : أين أبى ؟ قال عليه الصلاة والسلام : فى النار ، ثم قام عمر رضى الله عنه فقال : رضينا بالله تعالى ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا نبيا ، نعوذ بالله تعالى من الفتن ، إنا حديثو عهد بجاهلية وشرك فاعف عنا يا رسول الله فسكن غضبه عليه الصلاة والسلام » .

﴿عفا الله عنها﴾ استئناف مسوق لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المساءة ، بل لأنها فى نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا[1] عنها ، وفيه من حثهم على الجد فى الانتهاء عنها ما لا يخفى ، وضمير عنها للمسألة المدلول عليها بلا تسألوا ، أى عفا الله تعالى عن مسائلكم السالفة حيث لم يفرض عليكم الحج فى كل عام جزاء بمسألتكم ، وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بسائر مسائلكم ، فلا تعودوا إلى مثلها . وأما جعله صفة أخرى لأشياء على أن الضمير لها بمعنى لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلفكم إياها فمما لا سبيل إليه أصلا ، لاقتضائه أن يكون الحج قد فرض أولا فى كل عام ثم نسخ بطريق

---

(١) لأنها من باب تقديم الرأى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمنا وقد نهى الله عنه فى قوله تعالى : « لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » والله أعلم .

العفو وأن يكون ذلك معلوما للمخاطبين ضرورة أن حق الوصف أن يكون معلوم الثبوت للموصوف عند المخاطب قبل جعله وصفا له ، وكلاهما ضرورى الانتفاء قطعا ، على أنه يستدعى اختصاص النهى بمسألة الحج ونحوها إن سلم وقوعها ، مع أن النظم الكريم صريح فى أنه مسوق للنهى عن السؤال عن الأشياء التى يسوؤهم إبداؤها سواء كانت من قبيل الأحكام والتكاليف الموجبة لمساءتهم بإنشائها وإيجابها بسبب السؤال عقوبة وتشديدا كمسألة الحج لولا عفوه تعالى عنها ، أو من قبيل الأمور الواقعة قبل السؤال الموجبة للمساءة بالإخبار بها كمسألة من قال أين أبى .

إن قلت تلك الأشياء غير موجبه للمساءة ألبتة بل هى محتملة لإيجاب المسرة أيضاً ، لأن إيجابها للأولى إن كانت من حيث وجودها فهى من حيث عدمها موجبة للأخرى قطعا ، وليست إحدى الحيثيتين محققة عند السائل وإنما غرضه من السؤال ظهورها كيف كانت بل ظهورها بحيثية إيجابها للمسرة ، فلم عبر عنها بحيثية إيجابها المساءة ؟ قلت لتحقيق المنهى عنه كما ستعرفه مع ما فيه من تأكيد النهى وتشديده ، لأن تلك الحيثية هى الموجبة للانتهاء والانزجار ، لا حيثية إيجابها للمسرة ولا حيثية ترددها بين الإيجابين . إن قيل : الشرطية الثانية ناطقة بأن السؤال عن تلك الأشياء الموجبة للمساءة مستلزم لإبدائها ألبتة كما مر فلم تخلف الإبداء عن السؤال فى مسئلة الحج حيث لم يفرض فى كل عام ؟ قلنا ، لوقوع السؤال قبل ورود النهى وما ذكر فى الشرطية إنما هو السؤال الواقع بعد وروده ، إذ هو الموجب للتغليظ والتشديد ولاتخلف فيه ، إن قيل ما ذكرته إنما يتمشى فيما إذا كان السؤال عن الأمور المترددة بين الوقوع وعدمه كما ذكر من التكاليف الشاقة وأما إذا كان عن الأمور الواقعة قبله فلا يكاد يتسنى ، لأن ما يتعلق به الإبداء هو الذى وقع فى نفس الأمر ولامرد له ، سواء كان السؤال قبل النهى أو بعده ، وقديكون الواقع مايوجب المسرة كما فى مسئلة عبد الله بن حذافة ، فيكون هو الذى يتعلق به الإبداء لاغير ، فيتعين التخلف حتما ، قلنا : لا احتمال للتخلف فضلا عن التعين ، فإن

المنهى عنه فى الحقيقة إنما هو السؤال عن الأشياء الموجبة للمساءة الواقعة فى نفس الأمر قبل السؤال كسؤال من قال أين أبى ، لاعما يعمها وغيرها مما ليس بواقع ، لكنه محتمل للوقوع عند المكلفين حتى يلزم التخلف فى صورة عدم الوقوع .

وجملة الكلام أن مدلول النظم الكريم بطريق العبارة إنما هو النهى عن السؤال عن الأشياء التى يوجب إبداؤها المساءة ألبتة ، إما بأن تكون تلك الأشياء بعرضية الوقوع فتبدى عند السؤال بطريق الإنشاء عقوبة وتشديدا كما فى صورة كونها من قبيل التكاليف الشاقة ، وإما بأن تكون واقعة فى نفس الأمر قبل السؤال فتبدى عنده بطريق الإخبار بها ، فالتخلف ممتنع فى الصورتين معا ، ومنشأ توهمه عدم الفرق بين المنهى عنه وبين غيره بناء على عدم امتياز ما هو موجود أو بعرضية الوجود من تلك الأشياء فى نفس الأمر وما ليس كذلك عند المكلفين وملاحظتهم للكل باحتمال الوجود والعدم ، وفائدة هذا الإبهام الانتهاء عن السؤال عن تلك الأشياء على الإطلاق حذار إبداء المكروه ﴿ والله غفور حليم ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لعفوه تعالى أى مبالغ فى مغفرة الذنوب والإغضاء عن المعاصى ولذلك عفا عنكم ولم يؤاخذكم بعقوبة ما فرط منكم .

﴿ قد سألها قوم ﴾ أى سألوا هذه المسألة لكن لاعينها بل مثلها فى كونها محظورة ومستتبعة للوبال وعدم التصريح بالمثل للمبالغة فى التحذير ﴿ من قبلكم ﴾ متعلق بسألها ﴿ ثم أصبحوا بها ﴾ أى بسببها أو بمرجوعها ﴿ كافرين ﴾ فإن بنى إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم فى أشياء فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا .

﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ رد وإبطال لما ابتدعه أهل الجاهلية حيث كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وحرموا ركوبها ودرها ، ولا تطرد عن ماء ولا عن

مرعى . وكان يقول الرجل : إذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى فناقتى سائبة ، وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها ، وقيل كان الرجل إذا أعتق عبدا قال هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث ، وإذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم ، وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم ، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى . ومعنى ماجعل ماشرع وما وضع ، ولذلك عدى إلى مفعول واحد هو بحيرة وماعطف عليها ، ومن مزيده لتأكيد النفى ، فإن الجعل التكوينى كما يجىء تارة متعديا إلى مفعولين وأخرى إلى واحد كذلك الجعل التشريعى يجىء مرة متعديا إلى مفعولين كما فى قوله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) وأخرى إلى واحد كما فى الآية الكريمة ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ حيث يفعلون مايفعلون ويقولون الله أمرنا بهذا ، وإمامهم عمرو بن لحى ، فإنه أول من فعل هذه الأفاعيل الباطلة ، هذا شأن رؤسائهم وكبرائهم ﴿وأكثرهم﴾ وهم أراذلهم الذين يتبعونهم من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يشهد به سياق النظم الكريم ﴿لا يعقلون﴾ أنه افتراء باطل حتى يخالفوهم ويهتدوا إلى الحق بأنفسهم فيبقون فى أسر التقليد ، وهذا بيان لقصور عقولهم وعجزهم عن الاهتداء بأنفسهم وقوله عز وجل :

﴿وإذا قيل لهم﴾ أى للذين عبر عنهم بأكثرهم على سبيل الهداية والإرشاد ﴿تعالوا إلى ما أنزل الله﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿وإلى الرسول﴾ الذى أنزل هو عليه لتقفوا على حقيقة الحال وتميزوا الحرام من الحلال ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادى إلى الحق وانقيادهم للداعى إلى الضلال ﴿أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ قيل الواو للحال دخلت عليها الهمزه للإنكار والتعجيب ، أى أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم جهلة ضالين : وقيل للعطف على شرطية أخرى مقدره قبلها وهو الأظهر ، والتقدير أحسبهم ذلك أو أيقولون هـذا القول

لو لم يكن آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصواب ، ولو كانوا لا يعلمون الخ . وكلتاهما فى موقع الحال أى أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم كائنين على كل حال مفروض .

وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة كيف لا وأن الشيء إذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى كما فى قولك : أحسن إلى فلان وإن أساء إليك أى أحسن إليه إن لم يسيء إليك وإن أساء أى أحسن إليه كائنا على كل حال مفروض ، وقد حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها دلالة ظاهرة إذ الإحسان حيث أمر به عند المانع ، فلأن يؤمر به عند عدمه أولى ، وعلى هذا السر يدور ما فى إن وما الوصليتين من المبالغة والتأكيد وجواب لو محذوف لدلالة ما سبق عليه أى لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون حسبهم ذلك أو يقولون ذلك وما فى لو من معنى الامتناع والاستبعاد إنما هو بالنظر إلى زعمهم لا إلى نفس الأمر وفائدته المبالغة فى الإنكار والتعجيب ببيان أن ما قالوه موجب للإنكار والتعجيب إذا كان كون آبائهم جهلة ضالين فى حيز الاحتمال البعيد ، فكيف إذا كان ذلك واقعا لاريب فيه ، وقيل مآل الوجهين واحد ، لأن الجملة المقدرة حال فكذا ما عطف عليها وأنت خبير بأن الحال على الوجه الأخير مجموع الجملتين لا الأخيرة فقط وأن الواو للعطف لا للحال وقد مر التحقيق فى قوله تعالى : ﴿ أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون ﴾ فتدبر .

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ أى الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها وقرىء بالرفع على الابتداء أى واجبة عليكم أنفسكم وقوله عزوجل ﴿ لايضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ إما مجزوم على أنه جواب للأمر أو نهى مؤكد له ، وإنما ضمت الراء إتباعا لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة ، إذ الأصل لا يضرركم ويؤيده القراءة بفتح الراء وقراءة من قرأ لايضركم بكسر

الضاد وضمها من ضاره يضيره وإما مرفوع على أنه كلام مستأنف فى موقع(١) التعليل لما قبله . ويعضده قراءة من قرأ لا يضيركم ضلال من ضل إذا كنتم مهتدين ، ولا يتوهمن أن فيه رخصة فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع استطاعتهما ، كيف لا ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسبما تفى به الطاقة ، قال عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكرا فاستطاع أن يغيره فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه » وقد روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال يوما على المنبر : يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها غير موضعها ولا تدرون ما هى ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه عمهم الله بعقاب ، فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، ولا تغتروا يقول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا) الخ . فيقول أحدكم : على نفسى ، والله لتأمرن بالمعروف وتنهن عن المنكر ، أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ، ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لهم . وعنه عليه الصلاة والسلام : « ما من قوم عمل فيهم منكر أو سن فيهم قبيح فلم يغيروه ولم ينكروه إلا وحق على الله تعالى أن يعمهم بالعقوبة جميعا ثم لا يستجاب لهم ، والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة وكانوا يتمنون إيمانهم وهم من الضلال بحيث لا يكادون يرعوون عنه بالأمر والنهى (١). وقيل : كان الرجل إذا أسلم لاموه وقالوا سفهت آباءك وضللتهم أى نسبتهم إلى السفاهة والضلال ، فنزلت تسلية له بأن ضلال آبائه لا يضره ولا يشينه ﴿ إلى الله ﴾ لا إلى أحد سواه ﴿ مرجعكم ﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿ جميعا ﴾ بحيث لا يتخلف عنه أحد من المهتدين وغيرهم ﴿ فينبئكم بما

---

(١) فى ١٠ : فى موضع .

(٢) وعليه يكون المعنى : إذا أمرتم ونهيتم ما استطعتم فليس عليكم ضرر بعد ضلال الضال ، وعودوا على أنفسكم فاحفظوها من الميل إلى الباطل ، ومن إهمال الأمر والنهى .

كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا من أعمال الهداية والضلال فهو وعد ووعيد للفريقين وتنبيه على أن أحدا لا يؤاخذ بعمل غيره .

من أحكام الوصية

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ استئناف مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم إثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور دينهم وتصديره بحرفى النداء والتنبيه لإظهار كمال العناية بمضمونه وقوله عز وجل ﴿ شهادة بينكم ﴾ بالرفع والإضافة إلى الظرف توسعا إما باعتبار جريانها بينهم ، أو باعتبار تعلقها بما يجرى بينهم من الخصومات مبتدأ وقوله تعالى ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ أى شارفه وظهرت علائمه[1] ظرف لها وتقديم المفعول لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها ، فإنه أدخل فى تهوين أمر الموت وقوله تعالى ﴿ حين الوصية ﴾ بدل منه لا ظرف للموت كما توهم ولا لحضوره كما قيل ، فإن فى الإبدال تنبيها على أن الوصية من المهمات المقررة التى لا ينبغى أن يتهاون بها المسلم ويذهل عنها وقوله تعالى ﴿ اثنان ﴾ خبر للمبتدأ بتقدير المضاف أى شهادة بينكم حينئذ شهادة اثنين ، أو فاعل شهادة بينكم على أن خبرها محذوف أى فيما نزل عليكم أن يشهد بينكم اثنان وقرىء شهادة بالرفع والتنوين والإعراب كما سبق وقرىء شهادة بالنصب والتنوين على أن عاملها المضمر هو العامل فى اثنان أيضا أى ليقم شهادة بينكم اثنان ﴿ ذوا عدل منكم ﴾ أى من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت وأنصح له ، وأقرب إلى تحرى ما هو أصلح له . وقيل من المسلمين وهما صفتان لاثنان .

﴿ أو آخران ﴾ عطف على اثنان تابع له فيما ذكر من الخبرية والفاعلية أى أو شهادة آخرين أو أن يشهد بينكم آخران ، أو ليقم شهادة بينكم آخران

---

(١) فى ٤٣٠ : علاماته .

وقوله تعالى ﴿من غيركم﴾ صفة لآخران أى كائنان من غيركم أى من الأجانب، وقيل من أهل الذمة، وقد كان ذلك فى بدء الإسلام لعزة وجود المسلمين لاسيما فى السفر، ثم نسخ. وعن مكحول أنه نسخها قوله تعالى ﴿وأشهدوا ذوى عدل منكم﴾.

﴿إن أنتم﴾ مرفوع بمضمر يفسره مابعده تقديره إن ضربتم، فلما حذف الفعل انفصل الضمير، وهذا رأى جمهور البصريين وذهب الأخفش والكوفيون إلى أنه مبتدأ بناء على جواز وقوع المبتدأ بعد إن الشرطية كجواز وقوعه بعد إذا، فقوله تعالى ﴿ضربتم فى الأرض﴾ أى سافرتم فيها لامحل له من الإعراب عند الأولين لكونه مفسرا، ومرفوع على الخبرية عند الباقين. وقوله تعالى ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ عطف على الشرطية وجوابه محذوف لدلالة ماقبله عليه، أى إن سافرتم فقاربكم الأجل حينئذ، وما معكم من الأقارب أو من أهل الإسلام من يتولى أمر الشهادة كما هو الغالب المعتاد فى الأسفار. فليشهد آخران أو فاستشهدوا آخرين أو فالشاهدان آخران كذا قيل. والأنسب أن يقدر عين ماسبق. أى فآخران على معنى شهادة بينكم شهادة آخرين، أو فإن يشهد آخران على الوجوه المذكورة ثمة، وقوله تعالى ﴿تحبسونهما﴾ استئناف وقع جوابا عما نشأ من اشتراط العدالة[1] كأنه قيل: فكيف نصنع إن ارتبنا بالشاهدين؟ فقيل: تحبسونهما وتصبرونهما للتحليف ﴿من بعد الصلوة﴾ وقيل هو صفة لآخران والشرط بجوابه المحذوف اعتراض فائدته الدلالة على أن اللائق إشهاد الأقارب أو أهل الإسلام، وأما إشهاد الآخرين فعند الضرورة الملجئة إليه، وأنت خبير بأنه يقتضى اختصاص الحبس بالآخرين مع شموله للأولين أيضا قطعا، على أن اعتبار اتصافهما بذلك يأباه مقام الأمر بإشهادهما، إذ مآله فآخران شأنهما الحبس والتحليف، وإن أمكن إتمام التقريب باعتبار

(١) فى ١٠: من شرط العدالة.

قيد الارتياب بهما كما يفيده الاعتراض الآتى ، والمراد بالصلاة صلاة العصر وعدم تعيينها لتعينها عندهم بالتحليف بعدها لأنه وقع اجتماع الناس وقت تصادم ملائكة الليل وملائكة النهار ، ولأن جميع أهل الأديان يعظمونه ويجتنبون فيه الحلف الكاذب . وقد روى أن النبي عليه الصلاة والسلام وقتئذ حلف كما سيأتى ، وقيل بعد أى صلاة كانت لأنها داعية إلى النطق بالصدق . وناهية عن الكذب والزور (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

﴿ فيقسمان بالله ﴾ عطف على تحسبونهما وقوله تعالى ﴿إن ارتبتم﴾ شرطية محذوفة الجواب لدلالة ماسبق من الحبس والإقسام عليه ، سيقت من جهته تعالى معترضة بين القسم وجوابه للتنبيه على اختصاص الحبس والتحليف بحال الارتياب ، أى إن ارتاب بهما الوارث منكم بخيانة وأخذ شيء من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بالله وقوله تعالى ﴿ لانشترى به ثمنا ﴾ جواب للقسم وليس هذا من قبيل ما اجتمع فيه قسم وشرط ، فاكتفى بذكر جواب سابقهما عن جواب الآخر كما هو الواقع غالبا، فإن ذلك إنما يكون عند سد جواب السابق مسد جواب اللاحق لاتحاد مضمونها كما فى قولك : والله إن أتيتنى لأكرمنك، ولا ريب فى استحالة ذلك ههنا لأن القسم وجوابه كلاهما وقد عرفت أن الشرط من جهته تعالى ، والاشتراء هو استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه لابذله لتحصيلها كما قيل ، وإن كان مستلزما له ،فإن المعتبر فى عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب المعتبر فى عقد البيع، ثم استعير لأخذ شيء بإزالة ماعنده عينا كان أو معنى على وجه الرغبة فى المأخوذ والإعراض عن الزائل، كما هو المعتبر فى المستعار منه حسبما مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) والضمير فى به لله ، والمعنى لانأخذ لأنفسنا بدلا من الله ، أى من حرمته عرضا من الدنيا بأن نهتكها ونزيلها بالحلف الكاذب ، أى لانحلف بالله كاذبين لأجل المال ، وقيل الضمير للقسم فلا بد من تقدير مضاف البتة ، أى لانستبدل بصحة القسم بالله أى لانأخذ لأنفسنا بدلا منها عرضا من الدنيا بأن نزيل عنه وصف الصدق ونصفه بالكذب ، أى لانحلف كاذبين

كما ذكر وإلا فلا سداد للمعنى . سواء أريد به القسم الصادق أو الكاذب ، أما إن أريد به الكاذب فلأنه يفوت حينئذ ماهو المعتبر فى الاستعارة من كون الزائل شيئاً مرغوبا فيه عند الحالف كحرمة اسم الله تعالى ووصف الصحة والصدق فى القسم ولا ريب فى أن القسم الكاذب ليس كذلك ، وأما إن أريد به الصادق فلأنه وإن أمكن أن يتوسل باستعماله إلى عرض الدنيا كالقسم الكاذب لكن لامحذور فيه ، وأما التوسل إليه بترك استعماله فلا إمكان له ههنا حتى يصح التبرؤ منه ، وإنما يتوسل إليه باستعمال القسم الكاذب وليس استعماله من لوازم ترك استعمال الصادق ضرورة جواز تركهما معا حتى يتصور جعل ما أخذ باستعماله مأخوذا بترك استعمال الصادق كما فى صوره تقدير المضاف، فإن إزالة وضف الصدق عن القسم مع بقاء الموصوف مستلزمة لثبوت وصف الكذب له ألبتة فتأمل : وقوله تعالى :

﴿ولو كان﴾ أى المقسم له المدلول عليه بفحوى الكلام ﴿ ذا قربى ﴾ أى قريبا منا تأكيد لتبرئهم من الحلف كاذبا ومبالغة فى التنزه عنه كأنهما قالا لا نأخذ لأنفسنا بدلا من حرمة اسمه تعالى مالا ولو انضم إليه رعاية جانب الأقرباء فكيف إذا لم يكن كذلك وصيانة أنفسهما وإن كانت أهم من رعاية الأقرباء لكنها ليست ضميمة للمال[1] بل هى راجعة إليه ، وجواب لو محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه ، أى لا نشترى به ثمنا ، والجملة معطوفة على أخرى مثلها كما فصل فى تفسير قوله تعالى (ولو أعجبك) الخ وقوله عز وجل ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ أى الشهادة التى أمرنا الله تعالى بإقامتها ، معطوف على لا نشترى به داخل معه فى حكم القسم وعن الشعبى أنه وقف على شهادة ثم ابتدأ آلله بالمد على حذف حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه وبغير مد كقولهم الله لأفعلن ﴿إنا إذا لمن الآثمين﴾ أى إن كتمناها ، وقرىء لملاثمين بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدخال النون فيها .

---

(١) فى ١٠ ليست منضمة للمال .

﴿فإن عثر﴾ أى أطلع بعد التحليف ﴿على أنهما استحقا إثما﴾ حسبما اعترفا به بقولهما إنا إذا لمن الآثمين أى فعلا ما يوجب إثما من تحريف وكتم بأن ظهر بأيديهما شيء من التركة وادعيا استحقاقهما له بوجه من الوجوه كما وقع فى سبب النزول حسبما سيأتى ﴿فآخران﴾ أى رجلان آخران وهو مبتدأ خبره ﴿يقومان مقامهما﴾ ولا محذور فى الفصل بالخبر بين المبتدأ وبين وصفه الذى هو الجار والمجرور بعده أى يقومان مقام اللذين عثر على خيانتهما وليس المراد بمقامهما مقام أداء الشهادة التى توليها ولم يؤدياها كما هى بل هو مقام الحبس والتحليف على الوجه المذكور لإظهار الحق وإبراز كذبهما فيما[1] ادعيا من استحقاقهما لما فى أيديهما ﴿من الذين استحق﴾ على البناء للفاعل على قراءة على وابن عباس وأبى رضى الله عنهم، أى من أهل الميت الذين استحق ﴿عليهم الأوليان﴾ من بينهم أى الأقربان إلى الميت الوارثان له الأحقان بالشهادة أى باليمين كما ستعرفه، ومفعول استحق محذوف أى استحقا عليهم أن يجردوهما للقيام بها، لأنها حقهما ويظهروا بهما كذب الكاذبين، وهما فى الحقيقة الآخران القائمان مقام الأولين على وضع المظهر مقام المضمر، وقرىء على البناء للمفعول وهو الأظهر، أى من الذين استحق عليهم الإثم أى جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته، فالأوليان مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف كأنه قيل: ومن هما؟ فقيل: الأوليان، أو بدل من الضمير فى يقومان أو من آخران وقد جوز ارتفاعه باستحق على حذف المضاف، أى استحق عليهم انتداب الأولين منهم للشهادة، وقرىء الأولين على أنه صفة للذين الخ مجرور أو منصوب على المدح ومعنى الأولية التقدم على الأجانب فى الشهادة لكونهم أحق بها، وقرىء الأولين على التثنيه وانتصابه على المدح وقرىء الأولان.

﴿فيقسمان بالله﴾ عطف على يقومان ﴿لشهادتنا﴾ المراد بالشهادة اليمين كما فى قوله تعالى (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله) أى ليميننا على أنهما كاذبان

---

(١) فى ١٠ الكذب فيما ادعيا.

فيما ادعيا من الاستحقاق مع كونها حقة صادقة فى نفسها ﴿ أحق ﴾ بالقبول ﴿من شهادتهما﴾ أى من يمينهما مع كونها كاذبة فى نفسها لما أنه قد ظهر للناس استحقاقهما للإثم ، ويميننا منزهة عن الريب والريبة ، فصيغة التفضيل مع أنه لا حقية فى يمينهما رأسا إنما هى لإمكان قبولها فى الجملة باعتبار احتمال صدقهما فى ادعاء تملكهما لما ظهر فى أيديهما ﴿وما اعتدينا﴾ عطف على جواب القسم أى ما تجاوزنا فيها الحق أو ما اعتدينا عليهما بإبطال حقهما ﴿ إنا إذن لمن الظالمين﴾ استئناف مقرر لما قبله ، أى إنا إن اعتدينا فى يميننا لمن الظالمين أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى ، أو لمن الواضعين الحق فى غير موضعه ، ومعنى النظم الكريم أن المحتضر ينبغى أن يشهد على وصيته عدلين من ذوى نسبه أو دينه ، فإن لم يجدهما بأن كان فى سفر فآخران من غير هم ، ثم إن وقع ارتياب بهما أقسما على أنهما ما كتما من الشهادة ولا من التركة شيئا بالتغليظ فى الوقت ، فإن اطلع بعد ذلك على كذبهما بأن ظهر بأيديهما[١] شيء من التركة وادعيا تملكه من جهة الميت حلف الورثة وعمل بإيمانهم ولعل تخصص الإثنين لخصوص الواقعة فإنه روى أن تميم بن أوس الدارى وعدى بن يزيد خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل بن أبى مريم مولى عمر بن العاص وكان مسلما مهاجرا ، فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتابا فيه جميع ما معه وطرحه فى متاعه ولم يخبرهما بذلك وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله ومات ففتشاه فوجدوا فيه إناء من فضة وزنة ثلثمائة مثقال منقوشا بالذهب فغيباه ودفعا المتاع إلى أهله ، فأصابوا فيه الكتاب فطلبوا منهما الإناء فقالا : ما ندرى ، إنما أوصى إلينا بشيء وأمرنا أن ندفعه إليكم ففعلنا وما لنا بالإناء من علم ، فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل (يا أيها الذين آمنوا) الآية فاستحلفهما بعد صلاة العصر عند المنبر بالله الذى لا إله إلا هو أنهما لم يختانا شيئا مما دفع ولا كتما فحلفا على ذلك

---

(١) فى ١٠ : فى أيديهما

فخلى عليه الصلاة والسلام سبيلهما ، ثم إن الإناء وجد بمكة فقال من بيده : اشتريته من تميم وعدى[1] وقيل لما طالت المدة أظهراه فبلغ ذلك بنى سهم فطلبوه منهما فقالا : كنا اشتريناه من بديل ، فقالوا : ألم نقل لكما هل باع صاحبنا من متاعه شيئا فقلتما لا ؟ قالا : ما كان لنا بينة فكرهنا أن نقر به ، فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله عز وجل (فإن عثر) الآية فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى وداعة السهميان فحلفا بالله بعد العصر أنهما كذبا وخانا ، فدفع الإناء إليهما . وفى رواية إلى أولياء الميت .

واعلم أنهما إن كانا وارثين لبديل فلا نسخ إلا فى وصف اليمين ، فإن الوارث لا يحلف على البتات وإلا فهو منسوخ ﴿ ذلك ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن ما ذكر مستتبع للمنافع وارد على مقتضى الحكمة والمصلحة أى الحكم الذى تقدم تفصيله ﴿أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أى أقرب أن يؤدى الشهود الشهادة عن وجهها الذى تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة خوفا من العذاب الأخروى وهذه كما ترى حكمة شرعية التحليف بالتغليظ المذكور وقوله تعالى ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ بيان لحكمة شرعية رد اليمين على الورثة معطوف على مقدر ينبىء عنه المقام كأنه قيل ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافون عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح على رءوس الأشهاد بإبطال أيمانهم والعمل بأيمان الورثة فينزجروا عن الخيانة المؤدية إليه ، فأى الخوفين وقع حصل المقصد الذى هو الإتيان بالشهادة على وجهها . وقيل : هو عطف على يأتوا على معنى أن ذلك أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو إلى أن يخافوا الافتضاح برد اليمين على الورثة فلا يحلفوا على موجب شهادتهم إن لم يأتوا بها على وجهها فيظهر كذبهم بنكولهم ، وأما ما قيل من أن المعنى أن ذلك أقرب إلى أحد الأمرين اللذين أيهما وقع كان فيه

---

(١) الروايتان أخرجهما ابن الأثير فى أسد الغابة ، والحافظ الأصفهانى فى سير السلف (خط)

الصلاح وهو أداء الشهادة على الصدق ، والامتناع عن أدائها على الكذب، فيأباه المقام ، إذ لا تعلق له بالحادثة أصلا ضرورة أن الشاهد مضطر فيها إلى الجواب فالامتناع عن الشهادة الكاذبة مستلزما للاتيان بالصادقة قطعا ، فليس هناك أمران أيهما وقع كان فيه الصلاح حتى يتوسط بينهما كلمة أو وإنما يتأتى ذلك فى شهود لم يتهموا بخيانة ، على أن إضافة الامتناع عن الشهادة الكاذبة إلى خوف ردّ اليمين على الورثة ونسبة الإتيان بالصادقة إلى غيره مع أن ما يقتضى أحدهما يقتضى الآخر لا محالة تحكم بحت فتأمل ﴿ واتقوا الله ﴾ فى مخالفة أحكامه التى من جملتها هذا الحكم ﴿ واسمعوا ﴾ ما تؤمرون به كائنا ما كان سمع طاعة وقبول ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ الخارجين عن الطاعة أى فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم فاسقين والله لا يهدى القوم الفاسقين أى إلى طريق الجنة أو إلى ما فيه نفعهم .

الرسل وعهدة الرسالة

﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ نصب على أنه بدل اشتمال من مفعول اتقوا لما بينهما من الملابسة فإن مدار البداية ليس ملابسة الظرفية والمظروفية ونحوها فقط ، بل هو تعلق ما مصحح لانتقال الذهن من المبدل منه إلى البدل بوجه إجمالى كما فيما نحن فيه ، فإن كونه تعالى خالق الأشياء كافة مالك يوم الدين خاصة كاف فى الباب ، مع أن الأمر بتقوى الله تعالى يتبادر منه إلى الذهن أن المتقى[1] أى شأن من شئونه وأى فعل من أفعاله . وقيل هناك مضاف محذوف به يتحقق الاشتمال ، أى اتقوا عذاب الله فحينئذ يجوز انتصابه منه بطريق الظرفية ، وقيل منصوب بمضمر معطوف على اتقوا وما عطف عليه ، أى واحذروا أو اذكروا يوم الخ ، فإن تذكير ذلك اليوم الهائل مما يضطرهم إلى تقوى الله عز وجل وتلقى أمره بسمع الإجابة والطاعة وقيل هو ظرف لقوله

(١) فى ٣٤٠ : أن التقوى

تعالى لا يهدى ، أى لا يهديهم يومئذ إلى طريق الجنة كما يهدى إليه المؤمنين »
وقيل منصوب بقوله تعالى واسمعوا بحذف مضاف ، أى اسمعوا خبر ذلك اليوم
وقيل منصوب بفعل مؤخر قد حذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانه
لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة التامة والدواهى العامة ، كأنه قيل يوم يجمع
الله الرسل فيقول الخ يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفى ببيانه (نطاق)[٢]
المقال ، وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وتشديد التهويل
وتخصيص الرسل بالذكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الأمم ، كيف لا وذلك
يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وقد قال الله تعالى (يوم ندعو كل
أناس بإمامهم) بل لإبانة شرفهم وأصالتهم ، والإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح
بجمع غيرهم بناء على ظهور كونهم أتباعا لهم ، ولإظهار سقوط منزلتهم وعدم
لياقتهم بالانتظام فى سلك جمع الرسل . كيف لا وهم عليهم السلام يجمعون على
وجه الإجلال ، وأولئك يسحبون على وجوههم بالأغلال .

﴿ فيقول ﴾ لهم مشيرا إلى خروجهم عن عهدة الرسالة كما ينبغى حسبما
يعرب عنه تخصيص السؤال بجواب الأمم إعرابا واضحا ، وإلا لصدر الخطاب
بأن يقال : هل بلغتم رسالاتى ، وماذا فى قوله عز وجل ﴿ ماذا أجبتم ﴾
عبارة عن مصدر الفعل فهو نصب على المصدرية أى أى إجابة أجبتم من جهة
أممكم إجابة قبول أو إجابة رد ، وقيل عبارة عن الجواب فهو فى محل النصب بعد
حذف الجار عنه أى بأى جواب أجبتم وعلى التقديرين فى توجيه السؤال عما
صدر عنهم وهم شهود إلى الرسل عليهم السلام كسؤال الموءودة بمحضر من الوائد
والعدول عن إسناد الجواب إليهم بأن يقال ماذا أجابوا من الإنباء عن كمال
تحقير شأنهم وشدة الغيظ والسخط عليهم ما لا يخفى ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى
على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا يقول الرسل عليهم السلام

---

(١) سقطت من ١٠

هنالك ؟ فقيل : يقولون ﴿ لا علم لنا ﴾ وصيغة الماضى للدلالة على التقرر والتحقق كما فى قوله تعالى : (ونادى أصحاب الجنة) (ونادى أصحاب الأعراف) ونظائرهما ، وإنما يقولون ذلك تفويضا للأمر إلى علمه تعالى وإحاطته بما اعتراهم من جهتهم من مقاساة الأهوال ومعاناة الهموم والأوجال وعرضا لعجزهم عن بيانه لكثرته وفظاعته ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾ تعليل لذلك أى فتعلم ما أجابوا وأظهروا لنا وما لم نعلمه مما أضمروه فى قلوبهم ، وفيه إظهار للشكاة ورد الأمر إلى علمه تعالى بما لقوا من قبلهم من الخطوب ، وكابدوا من الكروب ، والتجاء إلى ربهم فى الانتقام منهم ، وقيل المعنى لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا ، وإنما الحكم للخاتمة ورد ذلك بأنهم يعرفونهم بسيماهم فكيف يخفى عليهم أمرهم ، وأنت خبير بأن مرادهم حينئذ أن بعضهم كانوا فى زمانهم على الحق ثم صاروا كفرة ، وعن ابن عباس ومجاهد والسدى رضى الله عنهم أنهم يفزعون من أول الأمر ويذهلون عن الجواب ثم يجيبون بعدما ثابت إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم ، ولا يلائمه التعليل المذكور . وقيل : المراد به المبالغة فى تحقيق فضيحتهم ، وقرىء علام الغيوب بالنصب على النداء أو الاختصاص بالمدح ، على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى (أنت) أى إنك أنت المنعوت بنعوت كمالك المعروف بذلك .

﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم ﴾ شروع فى بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيل إثر بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين ، وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلا من بين شئون سائر الرسل عليهم السلام مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعيت عليهم فى السورة الكريمة جناياتهم ، فتفصيله أعظم عليهم وأجلب لحسرتهم وندامتهم وأفت فى أعضادهم وأدخل فى صرفهم عن غيهم

وعنادهم ، وإذ بدل من يوم يجمع الله الخ ، وصيغة الماضى لما ذكر من الدلالة على تحقق الوقوع وإظهار الاسم الجليل فى مقام الإضمار لما مر من المبالغة فى التهويل [وتربية المهابة] [١] . وكلمة على فى قوله تعالى ﴿ اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ﴾ متعلقة بنفس النعمة إن جعلت مصدرا أى اذكر إنعامى عليكما أو بمحذوف هو حال منها إن جعلت اسما ، أى اذكر نعمتى كائنة عليكما وليس المراد بأمره عليه السلام يومئذ بذكر النعمة المنتظمة فى سلك التعديد تكليفه عليه السلام شكرها والقيام بمواجبها ولات حين تكليف ، مع خروجه عليه السلام عن عهدة الشكر فى أوله أى خروج بل إظهار أمره عليه السلام بتعداد تلك النعم حسبما بينه الله تعالى اعتدادا بها وتلذذا بذكرها على رءوس الأشهاد ، لتكون حكاية ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخا ومزجرة للكفرة المختلفين فى شأنه عليه السلام إفراطا وتفريطا وإبطالا لقولهما جميعا .

﴿ إذ أيدتك ﴾ ظرف لنعمتى أى أذكر إنعامى [٢] عليكما وقت تأييدى لك أو حال منها ، أى اذكرها كائنة وقت تأييدى لك وقرىء آيدتك والمعنى واحد أى قويتك ﴿ بروح القدس ﴾ بجبريل عليه السلام لتثبيت الحجة أو بالكلام الذى يحيى به الدين وإضافته إلى القدس لأنه سبب الطهر عن أوضار الآثام أو يحيى به الموتى أو النفوس حياة أبدية وقيل الأرواح مختلفة الحقائق فمنها طاهرة نورانية ومنها خبيثة ظلمانية ومنها مشرقة ومنها كدرة ومنها حرة ومنها نذلة ، وكان روحه عليه الصلاة والسلام طاهرة مشرقة نورانية علوية ، وأيا ما كان فهو نعمة عليهما ﴿تكلم الناس فى المهد وكهلا ﴾ استئناف مبين لتأييده عليه السلام أو حال من الكاف وذكر تكليمه عليه السلام فى حال الكهولة لبيان أن كلامه عليه السلام فى تينك الحالتين كان على نسق واحد بديع صادرا عن كمال العقل مقارنا لرزانة الرأى والتدبير ، وبه استدل على أنه عليه السلام سينزل من السماء لما أنه عليه السلام رفع قبل التكهل قال ابن عباس

---

(١) ما بين الحاصرين سقط من ط . (٢) فى ١٠ : نعمتى .

رضى الله عنهما ، أرسله الله تعالى وهو ابن ثلاثين سنة ومكث فى رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله تعالى إليه ﴿ وإذ علمتك الكتاب ﴾ عطف على قوله تعالى : (إذ أيدتك) منصوب بما نصبه ، أى اذكر نعمتى عليكما وقت تعليمى لك الكتاب ﴿ والحكمة ﴾ أى جنسهما ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ خصا بالذكر بما تناوله الكتاب والحكمة إظهارا لشرفهما ، وقيل الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب .

﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ أى تصور منه هيئة مماثلة لهيئة الطير ﴿ بإذنى ﴾ بتسهيلى وتيسيرى ، لاعلى أن يكون الخلق صادرا عنه عليه السلام حقيقة ، بل على أن يظهر ذلك على يده عليه السلام عند مباشرة الأسباب مع كون الخلق حقيقة لله تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ فتنفخ فيها ﴾ أى فى الهيئة المصورة ﴿ فتكون ﴾ أى تلك الهيئة ﴿ طيرا بإذنى ﴾ فإن إذنه تعالى لو لم يكن عبارة عن تكوينه تعالى للطير بل عن محض تيسيره مع صدور الفعل حقيقة عما أسند إليه لكان هذا تكونا من جهة الهيئة وتكرير قوله بإذنى فى الطير مع كونه شيئاً واحدا للتنبيه على أن كلا من التصوير والنفخ أمر معظم بديع لايتسنى ولا يترتب عليه شىء إلا بإذنه تعالى ﴿ وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ﴾ عطف على تخلق .

﴿ وإذ تخرج الموتى بإذنى ﴾ عطف على إذ تخلق أعيد فيه ، إذ لكون إخراج الموتى من قبورهم لاسيما بعد ما صارت رميما معجزة باهرة ونعمة جليلة حقيقة بتذكير وقتها صريحا ، قيل أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية ، وتكرير قوله بإذنى فى المواضع الأربعة للاعتناء بتحقيق الحق ببيان أن تلك الخوارق ليست من قبل عيسى عليه الصلاة والسلام بل من جهته سبحانه قد أظهرها على يديه معجزة له ونعمة خصها به ، وأما ذكره فى سورة آل عمران مرتين لما أن ذلك موضع الإخبار ، وهذا موضع تعداد النعم ﴿ وإذ كففت بنى إسرائيل عنك ﴾ عطف على إذ تخرج أى منعت اليهود الذين أرادوا بك

السوء عن التعرض لك ﴿ إذ جئتهم بالبينات ﴾ بالمعجزات الواضحة مما ذكر ومالم يذكر ، كالإخبار بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ونحو ذلك ، وهو ظرف لكففت لكن لا باعتبار المجىء بها فقط بل باعتبار ما يعقبه من قوله تعالى ﴿ فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ فإن قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله عليه السلام المحوج إلى الكف ، أى كففتهم عنك حين قالوا ذلك عند مجيئك إياهم بالبينات ، وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول لذمهم بما فى حيز الصلة ، فكلمة من بيانية . وهذا إشارة إلى ما جاء به ، والتذكير لأن إشارتهم إلى ما رأوه من نفس المسمى من حيث هو أو من حيث هو سحر لامن حيث هو مسمى بالبينات ، وقرىء (إن هذا إلا ساحر مبين) فهذا حينئذ إشارة إلى عيسى عليه السلام .

﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ عطف على ما قبله من أخواتها الواقعة ظروفا للنعمة التى أمر بذكرها وهى وإن كانت فى الحقيقة عين ما يفيده الجمل التى أضيف إليها تلك الظروف من التأييد بروح القدس وتعليم الكتاب والحكمة وسائر الخوارق المعدودة ، لكنها لمغايرتها لها بعنوان منبىء عن غاية الإحسان أمر بذكرها من تلك الحيثية ، وجعلت عاملة فى تلك الظروف لكفاية المغايرة الاعتبارية فى تحقيق ما اعتبر فى مدلول كلمة إذ من تعدد النسبة ، فإنه ظرف موضوع لزمان نسبتين ماضيتين واقعتين فيه إحداهما معلومة الوقوع فيه للمخاطب دون الأخرى ، فيراد إفادة وقوعها أيضا له ، فيضاف إلى الجملة المفيدة للنسبة الأولى ، ويجعل ظرفا معمولا للنسبة الثانية ، ثم قد تكون المغايرة بين النسبتين بالذات كما فى قولك اذكر إحسانى إليك إذ أحسنت إلى تريد تنبيه المخاطب على وقوع إحسانه إليك وهما نسبتان متغايرتان بالذات وقد تكون بالاعتبار كما فى قولك اذكر إحسانى إليك إذ منعتك من المعصية ، تريد تنبيهه على كون منعه منها إحسانا إليه لا على إحسان آخر واقع حينئذ ، ومن هذا القبيل عامة ما وقع فى التنزيل من قوله تعالى : (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) الآية .

وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم) إلى غير ذلك من النظائر . ومعنى إيحائه تعالى إليهم أمره تعالى إياهم فى الإنجيل على لسانه عليه السلام . وقيل إلهامه تعالى إياهم كما فى قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى) وأن فى قوله تعالى ﴿ أن آمنوا بِىَ وبرسولى ﴾ مفسرة لما فى الإيحاء من معنى القول وقيل مصدرية وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للتنبيه على كيفية الإيمان به عليه السلام كأنه قيل آمنوا بوحدانيتى فى الألوهية والربوبية وبرسالة رسولى ولا تزيلوه عن حيزه حطا ولا رفعا وقوله تعالى ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قالوا حين أوحى إليهم ذلك فقيل قالوا ﴿ آمنا ﴾ أى بما ذكر من وحدانيته تعالى وبرسالة رسوله كما يؤذن به قولهم ﴿ واشهد بأننا مسلمون ﴾ أى مخلصون فى إيماننا من أسلم وجهه لله وهذا القول منهم بمقتضى وحيه تعالى وأمره لهم بذلك نعمة جليلة كسائر النعم الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام وكل ذلك نعمة على والدته أيضاً . روى أنه عليه السلام لما علم أنه سيؤمر بذكر هاتيك النعم العظام جعل يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيأ لغد يقول لكل يوم رزقه ، لم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت أينما أمسى بات .

مائدة عيسى

﴿ إذ قال الحواريون ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه منقطع عما قبله كما ينبىء عنه الإظهار فى موقع الإضمار وإذ منصوب بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق تلوين الخطاب والالتفات لكن لا لأن الخطاب السابق لعيسى عليه السلام فإنه ليس بخطاب وإنما هو حكاية خطاب بل لأن الخطاب لمن خوطب بقوله تعالى (واتقوا الله) الآية فتأمل كأنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم عقيب حكاية ما صدر عن الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله تعالى الفائضة على عيسى عليه السلام

اذكر للناس وقت قولهم الخ وقيل هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الإيمان والإخلاص لم يكن عن تحقيق وإيقان ولا يساعده النظم الكريم ﴿ ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ اختلف فى أنهم هل كانوا مؤمنين أو لا ؟ فقيل : كانوا كافرين شاكين فى قدرة الله تعالى على ما ذكروا ، وفى صدق عيسى عليه السلام كاذبين فى دعوى الإيمان والإخلاص . وقيل : كانوا مؤمنين وسؤالهم للاطمئنان والتثبت لا لإزاحة الشك وهل يستطيع سؤال عن الفعل دون القدرة عليه تعبيرا عنه بلازمه وقيل الاستطاعة على ماتقتضيه الحكمة والإرادة لا على ماتقتضيه القدرة وقيل المعنى هل يطيع[1] ربك بمعنى هل يجيبك واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب بمعنى أجاب وقرىء هل تستطيع ربك أى سؤال ربك والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه وهى قراءة على وعائشة وابن عباس ومعاذ رضى الله عنهم وسعيد ابن جبير فى آخرين والمائدة الخوان الذى عليه الطعام من ماده إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم إليه ونظيره قولهم شجرة مطعمة وقال أبو عبيد هى فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال ناشىء مما قبله كأنه قيل فماذا قال لهم عيسى عليه السلام حين قالوا ذلك فقيل قال ﴿ اتقوا الله ﴾ أى من أمثال هذا السؤال ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى بكمال قدرته تعالى وبصحة نبوتى أو إن صدقتم فى ادعاء الإيمان والإسلام فإن ذلك مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات وقيل أمرهم بالتقوى ليصير ذلك ذريعة لحصول المسئول كقوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) ﴿ قالوا ﴾ استئناف كما سبق ﴿ نريد أن نأكل منها ﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال أى لسنا نريد بالسؤال إزاحة شبهتنا فى قدرته سبحانه على تنزيلها أو فى صحة نبوتك حتى يقدح ذلك فى الإيمان والتقوى بل نريد أن

---

(١) فى ١٠ : هل يستطيع .

نأكل منها أى أكل تبرك وقيل أكل حاجة وتمتع ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ بكمال قدرته تعالى وإن كنا مؤمنين به من قبل فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الأستدلالى مما يوجب ازدياد الطمأنينة وقوة اليقين ﴿ ونعلم ﴾ أى علما يقينيا لايحوم حوله شائبة شبهة أصلا وقرىء ليعلم على البناء للمفعول ﴿ أن قد صدقتنا ﴾ أن هى المخففة من أن وضمير الشان محذوف أى ونعلم أنه قد صدقتنا فى دعوى النبوة وأن الله يجيب دعوتنا وإن كنا عالمين بذلك من قبل ﴿ ونكون عليها من الشاهدين ﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمانينة ويقينا ويؤمن بسببها كفارهم أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر وعليها متعلق بالشاهدين إن جعل اللام للتعريف وبيان لما يشهدون عليه إن جعلت موصولة كانه قيل على أى شىء يشهدون ، فقيل عليها فإن مايتعلق بالصلة لاينقدم على الموصول أو هو حال من اسم كان أو هو متعلق بمحذوف يفسره من الشاهدين .

﴿ قال عيسى ابن مريم ﴾ لما رأى عليه السلام أن لهم غرضا صحيحا فى ذلك وأنهم لايقلعون عنه أزمع على استدعائها واستنزالها ، وأراد أن يلزمهم الحجة بكمالها .

روى أنه عليه الصلاه والسلام اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين فطأطأ رأسه وغض بصره ثم قال ﴿ اللهم ﴾ ربنا ناداه سبحانه وتعالى مرتين مره بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ، ومره بوصف الربوبية المنبئة عن التربية وإظهار الغاية التضرع ومبالغة فى الاستدعاء ﴿ أنزل علينا ﴾ تقديم الظرف على قوله ﴿ مائدة ﴾ لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقوله ﴿ من السماء ﴾ متعلق بأنزل أو بمحذوف هو صفة لمائده أى كائنه من السماء نازلة منها .

وقوله ﴿ تكون لنا عيداً ﴾ فى محل النصب على أنه صفة لمائدة واسم تكون ضمير المائدة وخبرها إما عيداً ولنا حال منه ، أو من ضمير تكون عند من

يجوز إعمالها فى الحال ، وإما لنا وعيداً حال من الضمير فى لنا، لأنه وقع خبرا فيحمل ضميراً أو من ضمير تكون عند من يرى ذلك أى يكون يوم نزولها عيداً نعظمه ، وإنما أسند ذلك إلى المائدة لأن شرف اليوم مستعار من شرفها، وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمى يوم العيد عيداً وقرىء تكن بالجزم على جواب الأمر كما فى قوله (فهب لى من لدنك وليا يرثنى)خلا أن قراءة الجزم هناك متواترة وههنا من الشواذ ﴿ لأولنا وآخرنا ﴾ بدل من لنا بإعادة العامل، أى عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا . روى أنها نزلت يوم الأحد ، ولذلك اتخذه النصارى عيدا ، وقيل الرؤساء منا والأتباع ، وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا ، وقرىء لأولانا وأخرانا ، بمعنى الأمة والطائفة ﴿ وآية ﴾ عطف على عيدا ﴿ منك ﴾ متعلق بمحذوف وهو صفة لآية أى كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتى ﴿ وارزقنا ﴾ أى المائدة أو الشكر عليها ﴿ وأنت خير الرازقين ﴾ تذييل جار مجـــرى التعليل أى خير من يرزق لأنه خالق الأرزاق ومعطيها بلا عوض ، وفى إقباله عليه السلام على الدعاء بتكرير النداء المنبىء عن كمال الضراعة والابتهال وزيادته مالم يخطر ببال السائلين من الأمور الداعية إلى الإجابة والقبول دلالة واضحة على أنهم كانوا مؤمنين وأن سؤالهم كان لتحصيل الطمأنينة ، كما فى قول إبراهيم عليه السلام .

﴿ قال الله ﴾ استئناف كما سبق ﴿ إنى منزلها عليكم ﴾ وورود الإجابة منه تعالى بصيغة التفعيل المنبئة عن التكثير مع كون الدعاء منه عليه السلام بصيغة الإفعال لإظهار كمال اللطف والإحسان كما فى قوله تعالى (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) الخ ، بعد قوله تعالى (لئن أنجانا من هذه) الخ ، مع ما فيه من مراعاة ما وقع فى عبارة السائلين وفى تصدير الجملة بكلمة التحقيق وجعل خبرها اسما تحقيق للوعد وإيذان بأنه تعالى منجز له لا محالة من غير صارف يثنيه ولا مانع يلويه ، وإشعار بالاستمرار أى إنى منزل المائدة عليكم مرات كثيرة ، وقرىء بالتخفيف وقيل الإنزال والتنزيل بمعنى واحد ﴿ فمن يكفر بعد ﴾ أى بعد تنزيلها ﴿ منكم ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يكفر

﴿ فإني أعذبه ﴾ بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية الباهرة ﴿ عذابا ﴾ اسم مصدر بمعنى التعذيب وقيل مصدر بحذف الزوائد ، وانتصابه على المصدرية بالتقديرين المذكورين ، وجوز أن يكون مفعولا به على الاتساع وقوله تعالى ﴿ لا أعذبه ﴾ فى محل النصب على أنه صفة لعـــذابا ، والضمير له أى أعذبه تعذيبا لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿ أحداً من العالمين ﴾ أى من عالمى زمانهم أو من العالمين جميعا قيل لما سمعوا هذا الوعيد الشديد خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا لا نريدها فلم تنزل ، وبه قال مجاهد والحسن رحمهما الله : والصحيح الذى عليه جماهير الأمة ومشاهير الأئمة أنها قد نزلت .

روى أنه عليه السلام لما دعا بما دعا وأجيب بما أجيب إذا بسفرة حمراء نزلت بين غمامتين ، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها ، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم ، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال : اللهم اجعلنى من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة للعالمين ، ولا تجعلها مثلة وعقوبة . ثم قام وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل وقال : بسم الله خير الرازقين ، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس[1] ولا شوك تسيل دسما ، وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل ، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث . وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الثانى عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد ، فقال شمعون رأس الحواريين يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة قال : ليس منهما ولكنه شىء اخترعه الله تعالى بالقدرة العالية ، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله ، فقالوا ياروح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى ؟ فقال : ياسمكة احيي بإذن الله ، فاضطربت ثم قال لها عودى كما كنت ، فعادت مشوية ثم طارت المائدة ، ثم عصوا فمسخوا قردة وخنازير

وقيل كانت تأتيهم أربعين يوما غبا ، يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى إذا فاء الفىء طارت وهم ينظرون فى ظلها . ولم يأكل

---

(١) أى بلا قشر .

منها فقير إلا غنى مدة عمره ، ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبدا، ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : أن اجعل مائدتى فى الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء ، فاضطرب الناس لذلك فسخ منهم من مسخ فأصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ، ويأكلون العذرة فى الحشوش[1] فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا الممسوخين ، فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به ، وجعل يدعوهم بأسمائهم واحداً بعد واحد فيبكون ويشيرون برؤسهم ، ولا يقدرون على الكلام ، فعاشو ثلاثة أيام ثم هلكوا .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن عيسى عليه السلام قال لهم : صوموا ثلاثين يوما ثم سلو الله ما شئتم يعطكم ، فصاموا فلما فرغوا قالوا : إنا لو عملنا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا ، وسألوا الله تعالى المائدة ، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات ، حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم . قال كعب : نزلت منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل الطعام إلا اللحم . وقال قتادة : كان عليها ثمر من ثمار الجنة ، وقال عطية العوفى ، نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شىء . وقال الكلبي ومقاتل : نزلت سمكة وخمسة أرغفة فأكلوا ما شاء الله تعالى والناس ألف ونيف ، فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك من لم يشهد وقالوا ، ويحكم إنما سحر أعينكم ، فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ، ومن أراد فتنته رجع إلى كفره ، فسخوا خنازير فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا لم يتوالدوا ، ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ .

﴿ وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم ﴾ معطوف على إذ قال الحواريون منصوب بما نصبه من المضمر المخاطب به النبى صلى الله عليه وسلم ، أو بمضمر مستقل معطوف على ذلك ، أى اذكر للناس وقت قول الله عز وجل له عليه السلام

---

(١) هى مجتمع القمامات .

فى الآخرة توبيخا للكفرة وتبكيتا لهم فإقراره عليه السلام على رؤس الأشهاد بالعبودية ، وأمره لهم بعبادته عز وجل ، وصيغة الماضى لما مر من الدلالة على التحقق والوقوع ﴿أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين﴾ الإتخاذ إما متعد إلى مفعولين فإلهين ثانيهما ، وإما إلى واحد فهو حال من المفعول ، وليس مدار أصل الكلام أن القول متيقن والاستفهام لتعيين القائل كما هو المتبادر من إيلاء الهمزة المبتدأ [1] على الاستعمال الفاشى وعليه قوله تعالى : (أأنت فعلت هذا بآلهتنا) ونظائره بل على أن المتيقن هو الاتخاذ والاستفهام لتعيين أنه بأمره عليه السلام أو من تلقاء أنفسهم كما فى قوله تعالى : (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) وقوله تعالى ﴿من دون الله﴾ متعلق بالاتخاذ ومحله النصب على أنه حال من فاعله أى متجاوزين الله ، أو بمحذوف هو صفة لإلهين أى كائنين من دونه تعالى ، وأياً ما كان فالمراد اتخاذهما بطريق إشراكهما به سبحانه كما فى قوله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا) وقوله عز وجل (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) إلى قوله سبحانه وتعالى : (عما يشركون) إذ به يتأتى التوبيخ ويتسنى التقريع والتبكيت . ومن توهم أن ذلك بطريق الاستقلال ثم اعتذر عنه بأن النصارى يعتقدون أن المعجزات التى ظهرت على يد عيسى ومريم عليهما الصلاة والسلام لم يخلقها الله تعالى بل هما خلقاها فصح أنهم اتخذوهما فى حق بعض الأشياء إلهين مستقلين ، ولم يتخذوه تعالى إلها فى حق ذلك البعض فقد أبعد عن الحق بمراحل . وأما من تعمق فقال : إن عبادته تعالى مع عبادة غيره كلا عبادة ، فمن عبده تعالى مع عبادتهما كأنه عبدهما ، ولم من يعبده تعالى فقد غفل عما يجديه واشتغل بما لا يعنيه كدأب من قبله ، فإن توبيخهم إنما يحصل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحا ، لا بما يلزمه بضرب من التأويل ، وإظهار الاسم الجليل لكونه فى حيز القول المسند إلى عيسى عليه السلام .

---

(١) فى ١١ : من توالى الهمزة والمبتدأ .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل : فماذا يقول عيسى عليه السلام حينئذ ؟ فقيل : يقول ، وإيثار صيغة الماضى لما مر مرارا ﴿ سبحانك ﴾ سبحان علم للتسبيح ، وانتصابه على المصدرية ، ولا يكاد يذكر ناصبه . وفيه من المبالغة فى التنزيه من حيث الإشتقاق ، من السبح الذى هو الذهاب والإبعاد فى الأرض ، ومن جهة النقل إلى صيغة التفعيل ، ومن جهة العدول من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة المشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ، ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى ، أى أنزهك تنزيها لائقا بك من أن أقول ذلك أو من أن يقال فى حقك ذلك ، وأما تقدير من أن يكون لك شريك فى الألوهية فلا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى ﴿ ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ﴾ استئناف مقرر للتنزيه ومبين للمنزه منه وما عبارة عن القول المذكور ، أى ما يستقيم وما ينبغى لى أن أقول قولا لا يحق لى أن أقوله ، وإيثار ليس على الفعل المنفى لظهور دلالته على استمرار انتفاء الحقية وإفادة التأكيد بما فى حيزه من الباء ، فإن اسمه ضميره العائد إلى ما وخبره بحق والجار والمجرور فيما بينهما للتبيين كما فى سقيا لك أو نحوه .

وقوله تعالى ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام بالطريق البرهانى فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعا فحيث انتفى علمه تعالى به انتفى صدوره عنه حتما ضرورة أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم ﴿ تعلم ما فى نفسى ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله كأنه قيل : لأنك تعلم ما أخفيه فى نفسى ، فكيف بما أعلنه ، وقوله تعالى ﴿ ولا أعلم ما فى نفسك ﴾ بيان للواقع وإظهار لقصوره ، أى ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك ، وقوله (فى نفسك) للمشاكلة . وقيل : المراد بالنفس هو الذات ونسبة المعلومات إليها لما أنها مرجع الصفات التى من جملتها العلم المتعلق بها ، فلم يكن كنسبتها إلى الحقيقة . وقوله تعالى ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾ تعليل لمضمون الجملتين منطوقا ومفهوما وقوله تعالى ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ﴾ استئناف مسوق لبيان

ماصدر عنه قد أدرج فيه عدم صدور القول المذكور عنه على أبلغ وجه وآكده حيث حكم بانتفاء صدور جميع الأقوال المغايرة للمأمور به فدخل فيه انتفاء صدور القول المذكور دخولا أوليا ، أى ما أمرتهم إلا بما أمرتنى به ، وإنما قيل : ماقلت لهم نزولا على قضية حسن الأدب،ومراعاة لما ورد فى الاستفهام . وقوله تعالى ﴿أن اعبدوا الله ربى وربكم﴾ تفسير للمأمور به وقيل عطف بيان للضمير فى به ، وقيل بدل منه ، وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقا ليلزم بقاء الموصول بلا عائد ، وقيل خبر مضمر أو مفعوله مثل هو أو أعنى . ﴿ وكنت عليهم شهيداً ﴾ رقيبا أراعى أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك ، وأمنعهم عن المخالفة أو مشاهدا لأحوالهم من كفر وإيمان ﴿ ما دمت فيهم ﴾ ما مصدرية ظرفية تقدر بمصدر مضاف إليه زمان ودمت صلتها ، أى كنت شهيدا عليهم مدة دوامى فيما بينهم ﴿ فلما توفيتنى ﴾ بالرفع إلى السماء كما فى قوله تعالى (إنى متوفيك ورافعك إلى) فإن التوفى أخذ الشيء وافيا والموت نوع منه قال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) ﴿ كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ لا غيرك فأنت ضمير الفصل أو تأكيد وقرىء الرقيب بالرفع على أنه خبر أنت والجملة خبر لكان وعليهم متعلق به أى أنت كنت الحافظ لأعمالهم والمراقب فمنعت من أردت عصمته عن المخالفة بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات وخذلت من خذلت من الضالين فقالوا ما قالوا ﴿ وأنت على كل شيء شهيد ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله فيه إيذان بأنه تعالى كان هو الشهيد على الكل حين كونه عليه السلام فيما بينهم وعلى متعلقة بشهيد والتقديم لمراعاة الفاصلة ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك ﴿ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز﴾أى القوى القادر على جميع المقدورات ومن جملتها الثواب والعقاب ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يريد ولا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم فإن عذبت فعدل وإن غفرت ففضل وعدم غفران الشرك إنما هو بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع الترديد وقيل الترديد بالنسبة

إلى فرقتين والمعنى إن تعذبهم أى من كفر منهم وإن تغفر لهم أى من آمن منهم .

﴿ قال الله ﴾ كلام مستأنف ختم به حكاية ما حكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل عليهم الصلاة والسلام وأشير إلى نتيجته وما له أى يقول الله تعالى يومئذ عقيب جواب عيسى عليه السلام مشيرا إلى صدقه فى ضمن بيان حال الصادقين الذين هو فى زمرتهم وصيغة الماضى لما مر فى نظائره مرارا وقوله تعالى ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ذلك اليوم وهو مبتدأ خبره ما بعده أى هذا اليوم الذى حكى بعض ما يقع فيه إجمالا وبعضه تفصيلا ﴿ يوم ينفع الصادقين ﴾ بالرفع والإضافة والمراد بالصادقين كما ينبىء عنه الاسم المستمرون فى الدارين على الصدق فى الأمور الدينية التى معظمها التوحيد الذى نحن بصدده والشرائع والأحكام المتعلقة به من الرسل الناطقين بالحق والصدق الداعين إلى ذلك وبه تحصل الشهادة بصدق عيسى عليه السلام ومن الأمم المصدقين لهم المقتدين بهم عقدا وعملا وبه يتحقق المقصود بالحكاية من ترغيب السامعين فى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لا كل من صدق فى أى شيء كان ضرورة أن الجانى المعترف فى الدنيا بجنايته لا ينفعه يومئذ اعترافه وصدقه ﴿ صدقهم ﴾ أى صدقهم فيما ذكر من أمور الدين فى الدنيا إذ هو المستتبع للنفع يومئذ واعتبار استمراره فى الدارين مع أنه لا حاجة إليه كما عرفت ولا دخل له فى استتباع النفع والجزاء مما لا وجه له وهذه القراءة هى التى أطبق عليها[1] الجمهور وهى الأليق بسياق النظم الكريم وسياقه وقد قرىء يوم بالنصب إما على أنه ظرف لقال فهذا حينئذ إشارة إلى قوله تعالى أأنت قلت الخ وإما على أنه خبر لهذا فهو حينئذ إشارة إلى جواب عيسى عليه السلام أى هذا الجواب منه عليه السلام واقع يوم ينفع الخ أو إلى السؤال والجواب معا وقيل هو خبر ولكنه بنى على الفتح وليس بصحيح عند البصريين لأنه مضاف إلى متمكن

---

(١) فى ١٠ : اتفق عليها الجمهور .

وقرىء يوم بالرفع والتنوين كقوله تعالى واتقوا يوما لا تجزى الآية .
﴿ لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ﴾ استئناف مسوق لبيان النفع المذكور كأنه قيل ما لهم من النفع فقيل لهم نعيم دائم وثواب خالد وقوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ﴾ استئناف آخر لبيان أنه عز وجل أفاض عليهم غير ما ذكر من الجنات ما لا قدر لها عنده وهو رضوانه الذى لا غاية وراءه كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ ورضوا عنه ﴾ إذ لا شىء أعز منه حتى يمتد إليه أعناق الهمم ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى نيل رضوانه تعالى وقيل إلى نيل الكل ﴿ الفوز العظيم ﴾ لما أن عظم شأن الفوز تابع لعظم شأن المطلوب الذى تعلق به الفوز . وقد عرفت ألا مطلب وراء ذلك أصلا وقوله تعالى ﴿ لله ملك السموات والأرض وما فيهن ﴾ تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد ما زعموا فى حق المسيح وأمه أى له تعالى خاصة ملك السموات والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرهم يتصرف فيها كيف يشاء إيجادا وإعداما إحياء وإماتة وأمرا ونهيا من غير أن يكون لشىء من الأشياء مدخل فى ذلك ، وفى إيثار ما على من المختصة بالعقلاء على تقدير تناولها للكل مراعاة للأصل وإشارة إلى تساوى الفريقين فى استحالة الربوبية حسب تساويهما فى تحقق المربوبية وعلى تقدير اختصاصها بغير العقلاء تنبيه على كمال قصورهم عن رتبة الألوهية وإهانة بهم بتغليب غيرهم عليهم ﴿ وهو على كل شىء ﴾ من الأشياء ﴿ قدير ﴾ مبالغ فى القدرة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة المائدة أعطى من الأجر عشر حسنات ، ومحى عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، بعدد كل يهودى ونصرانى يتنفس فى الدنيا » .

* * *

سورة الأنعام

مكية غير ست آيات أو ثلاث من قوله تعالى (قل تعالوا أتل)
وهى مائة وخمس وستون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الحمد لله ﴾ تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة أولا باسم الذات عليه يدور كافة ما يوجبه من صفات الكمال ، وإليه يؤول جميع نعوت الجلال والجمال ، للإيذان بأنه عز وجل هو المستحق له بذاته لما مر من اقتضاء اختصاص الحقيقة به سبحانه ، لاقتصار جميع أفرادها عليه بالطريق البرهانى ، ووصفه تعالى ثانيا بما ينبىء عن تفصيل بعض موجباته المنتظمة فى سلك الإجمال من عظائم الآثار وجلائل الأفعال ، من قوله عز وجل ﴿ الذى خلق السموات والأرض ﴾ للتنبيه على استحقاقه تعالى له واستقلاله به باعتبار أفعاله العظام ، وآلائه الجسام أيضاً . وتخصيص خلقهما بالذكر لاشتمالها على جملة الآثار العلوية والسفلية وعامة الآلاء الجلية والخفية ، التى أجلها نعمة الوجود الكافية فى إيجاب حمده تعالى على كل موجود ، فكيف بما يتفرع عليها من فنون النعم الأنفسية والآفاقية ، المنوط بها مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، أى أنشأهما على ما هما عليه من النمط الفائق والطراز الرائق منطويتين من أنواع البدائع وأصناف الروائع على ما تتحير فيه العقول والأفكار ، من تعاجيب العبر والآثار ، تبصرة وذكرى لأولى الأبصار . وجمع السموات لظهور تعدد طبقاتها واختلاف آثارها وحركاتها ، وتقديمها لشرفها وعلو مكانها وتقدمها وجودا على الأرض كما هى .

﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ عطف على خلق مترتب عليه لكون جعلهما مسبوقا بخلق منشئهما ومحلهما داخل معه فى حكم الإشعار بعلة الحمد فكما أن خلق السموات والأرض وما بينهما لكونه أثراً عظيما ونعمة جليلة موجب لاختصاص الحمد بخالقهما جل وعلا كذلك جعل الظلمات والنور لكونه أمرا خطيرا ونعمة عظيمة مقتض لاختصاصه بجاعلهما والجعل هو الإنشاء والإبداع

كالخلق خلا أن ذلك مختص بالإنشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسويه وهذا عام له كما فى الآية الكريمة والتشريعى أيضاً كما فى قوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة) الآية وأياً ما كان فهو إنباء عن ملابسة مفعوله بشيء آخر بأن يكون فيه أو له أو منه أو نحو ذلك ملابسة مصححة لأن يتوسط بينهما شيء من الظروف لغوا كان أو مستقرا لكن لا على أن يكون عمدة[1] فى الكلام بل قيدا فيه كما فى قوله عز وجل (وجعل بينهما برزخا) وقوله تعالى (وجعل فيها رواسى) وقوله تعالى (واجعل لنا من لدنك وليا) الآية فإن كل واحد من هذه الظروف إما متعلق بنفس الجعل أو بمحذوف وقع حالا[2] من مفعوله تقدمت عليه لكونه نكرة وأياً ما كان فهو قيد فى الكلام حتى إذا اقتضى الحال وقوعه عمدة فيه يكون الجعل متعديا إلى اثنين هو ثانيهما كما فى قوله تعالى (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) وربما يشتبه الأمر فيظن أنه عمدة فيه وهو فى الحقيقة قيد بأحد الوجهين كما سلف فى قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) حيث قيل إن الظرف مفعول ثان لجاعل وقد أشير هناك إلى أن الذى يقضى به الذوق السليم وتقتضيه جزالة النظم الكريم أنه متعلق بجاعل أو بمحذوف وقع حالا من المفعول وأن المفعول الثانى هو خليفة وأن الأول محذوف على ما مر تفصيله وجمع الظلمات لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس ومشاهدتهم لها على التفصيل وتقديمها على النور لتقدم الأعدام على الملكات مع ما فيه من رعاية حسن المقابلة بين القرينتين وقوله تعالى .

﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ معطوف على الجملة السابقة الناطقة بما مر من موجبات اختصاصه تعالى بالحمد المستدعى لاقتصار العبادة عليه كما حقق فى تفسير الفاتحة الكريمة مسوق لإنكار ما عليه الكفره واستبعاده من مخالفتهم لمضمونها واجترائهم على ما تقضى ببطلانه بديهة العقول . والمعنى أنه تعالى مختص باستحقاق الحمد والعباده باعتبار ذاته وباعتبار ما فصل من شئونه

---

(١) فى ٤٣٠ : لا أنه عمدة . (٢) فى ١٠ : هو حال .

العظيمة الخاصة به الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ثم هؤلاء الكفرة لا يعملون بموجبه ويعدلون به سبحانه أى يسوون به غيره فى العبادة التى هى أقصى غايات الشكر الذى رأسه الحمد مع كون كل ما سواه مخلوقا له غير متصف بشيء من مبادى الحمد ، وكلمة ثم لاستبعاد الشرك بعدوضوح ماذكر من الآيات التكوينية القاضية ببطلانه لا بعد بيانه بالآيات التنزيلية ، والموصول عبارة عن طائفة الكفار جار مجرى الاسم لهم من غير أن يجعل كفرهم بما يجب أن يؤمن به كلا أو بعضا عنوانا للموضوع ، فإن ذلك مخل باستبعاد ما أسند إليهم من الإشراك ، والباء متعلقة بيعدلون ووضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح والتقديم لمزيد الاهتمام والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد والمحافظة على الفواصل وترك المفعول لظهوره أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل بتنزيله منزلة اللازم إيذانا بأنه المدار فى الاستبعاد والاستنكار لا خصوصية المفعول هذا هو الحقيق بجزالة التنزيل والخليق بفخامة شأنه الجليل وأما جعل الباء صلة لكفروا على أن يعدلون من العدول . والمعنى أن الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته فيرده أن كفرهم به تعالى لا سيما باعتبار ربوبيته تعالى لهم أشد شناعة وأعظم جناية من عدولهم عن حمده عز وجل لتحققه مع إغفاله أيضا فجعل أهون الشرين عمدة فى الكلام مقصود الإفادة وإخراج أعظمهما مخرج القيد المفروغ عنه مما لا عهد له فى الكلام السديد فكيف بالنظم التنزيلى هذا وقد قيل إنه معطوف على خلق السموات والمعنى أنه تعالى خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به سبحانه مالا يقدر على شيء منه لكن لا على قصد أنه صلة مستقلة ليكون بمنزلة أن يقال الحمد لله الذى عدلوا به بل على أنه داخل تحت الصلة بحيث يكون الكل صلة واحدة كأنه قيل الحمد لله الذى كان منه تلك النعم العظام ثم من الكفرة الكفر وأنت خبير بأن ما ينتظم فى سلك الصلة المنبئة عن موجبات حمده عز وجل حقه أن يكون له دخل فى ذلك الإنباء ولو فى الجملة ، ولا ريب فى

أن كفرهم بمعزل منه وادعاء أن له دخلا فيه لادلالته على كمال الجود كأنه قيل : الحمد لله الذى أنعم بمثل هذه النعم العظام على من لا يحمده تعسف لا يساعده النظام وتعكيس يأباه المقام كيف لا ومساق النظم الكريم كما تفصح عنه الآيات الآتية تشنيع الكفرة وتوبيخهم ببيان غاية إساءتهم مع نهاية إحسانه تعالى إليهم لا بيان نهاية إحسانه تعالى إليهم مع غاية إساءتهم فى حقه تعالى كما يقتضيه الادعاء المذكور وبهذا اتضح أنه لاسبيل إلى جعل المعطوف من روادف المعطوف عليه لما أن حق الصلة أن تكون غير مقصودة الإفادة فما ظنك بما هو من روادفها وقد عرفت أن المعطوف هو الذى سيق له الكلام فتأمل وكن على الحق المبين .

ضلال منكرى البعث

﴿ هو الذى خلقكم من طين ﴾ استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمان به إثر بيان بطلان إشراكهم به تعالى مع معاينتهم لموجبات توحيده وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث مع أن ماذكر من خلق السموات والأرض من أوضحها وأظهرها كما ورد فى قوله تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) لما أن محل النزاع بعثهم فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر وهم بشئون أنفسهم أعرف والتعامى عن الحجة النيرة أقبح ، والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ أى ابتدأ خلقكم منه ، فإنه المادة الأولى للكل لما أنه منشأ آدم الذى هو أبو البشر ، وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين لا إلى آدم عليه السلام وهو المخلوق منه حقيقة بأن يقال هو الذى خلق أباكم الخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه فى إيجاب الإيمان بالبعث وبطلان الامتراء لتوضيح منهاج القياس ، وللمبالغة فى إزاحة الاشتباه والالتباس ، مع مافيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية هى أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه عليه السلام منه ، حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا

منطويا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواء إجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل ، فكأن خلقه عليه السلام من الطين خلقا لكل أحد من فروعه منه ، ولما كان خلقه على هذا النمط السارى إلى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور إليه وأدل على عظم قدرة الخلاق العليم وكمال علمه وحكمته وكان ابتداء حال المخاطبين أولى بأن يكون معياراً لانتهائها فعل مافعل ولله در شأن التنزيل ، وعلى هذا السر مدار قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) الخ ، وقوله تعالى (وقد خلقتك من من قبل ولم تك شيئاً) كما سيأتى ، وقيل : المعنى خلق أباكم منه على حذف المضاف . وقيل : المعنى خلقهم من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض ، وأياما كان ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث مالايخفى ، فإن من قدر على إحياء مالم يشم رائحة الحياة قط كان على إحياء ماقارنها مدة أظهر قدرة .

﴿ ثم قضى ﴾ أى كتب لموت كل واحد منكم ﴿ أجلا ﴾ خاصا به أى حدا معينا من الزمان يفنى عند حلوله لامحالة وكلمة ثم للإيذان بتفاوت ما بين خلقهم وبين تقدير آجالهم حسبما تقتضيه الحكم البالغة ﴿ وأجل مسمى ﴾ أى حد معين لبعثكم جميعا وهو مبتدأ لتخصصه بالصفة كما فى قوله تعالى (ولعبد مؤمن) ولوقوعه فى موقع التفصيل كما فى قول من قال :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وشق عندنا[1] لم يحول

وتنوينه لتفخيم شأنه وتهويل أمره ولذلك أوثر تقديمه على الخبر الذى هو ﴿ عنده ﴾ مع أن الشائع المستفيض هو التأخير كما فى قولك عندى كلام حق ولى كتاب نفيس كأنه قيل : وأى أجل مسمى مثبت معين فى علمه لايتغير ولا يقف على وقت حلوله أحد لامجملا ولا مفصلا وأما أجل الموت فمعلوم

(١) فى الديوان : وتحتى شقها .

إجمالا وتقريبا بناء على ظهور أماراته أو على ماهو المعتاد فى أعمار الإنسان وتسميته أجلا إنما هى باعتبار كونه غاية لمدة لبثهم فى القبور ، لا باعتبار كونه مبدأ لمدة القيامة ، كما أن مدار التسمية فى الأجل الأول هو كونه آخر مدة الحياه لا كونه أول مدة الممات لما أن الأجل فى اللغة عبارة عن آخر المدة لا عن أولها وقيل : الأجل الأول ما بين الحياة والموت ، والثانى ما بين الموت والبعث من البرزخ ، فإن الأجل كما يطلق على آخر المدة يطلق على كلها وهو الأوفق[1] ، لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن الله تعالى قضى لكل أحد أجلين أجلا من مولده إلى موته ، وأجلا من موته إلى مبعثه ، فإن كان برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث فى أجل العمر ، وإن كان فاجرا قاطعا نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث ، وذلك قوله تعالى (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) فمعنى عدم تغيير الأجل حينئذ عدم تغير آخره ، والأول هو الأشهر الأليق بتفخيم الأجل الثانى المنوط باختصاصه بعلمه تعالى ، والأنسب بتهويله المبنى على مقارنته للطامة الكبرى ، فإن كون بعضه معلوما للخلق ومضيه من غير أن يقع فيه شىء من الدواهى كما يستلزمه الحمل على المعنى الثانى مخل بذلك قطعا ، ومعنى زيادة الأجل ونقصه فيما روى تأخير الأجل الأول وتقديمه .

﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ استبعاد واستنكار لامترائهم فى البعث بعد معاينتهم لما ذكر من الحجج الباهرة الدالة عليه ، أى تمترون فى وقوعه وتحققه فى نفسه مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الشواهد ما يقطع مادة الامتراء بالكلية ، فإن من قدر على إفاضة الحياة وما يتفرع عليها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لشىء منها أصلا كان أوضح اقتدارا على إفاضتها على مادة قد استعدت لها وقارنتها مدة ، ومن ههنا تبين أن ما قيل من أن الأجل الأول هو النوم والثانى هو الموت أو أن الأول أجل الباقين أو أن الأول مقدار

---

(١) فى ١٠ وهو الوافق لما روى . .

ما مضى من عمر كل أحد والثانى مقدار مابقى منه مما لا وجه له أصلا لما رأيت من أن مساق النظم الكريم استبعاد امترائهم فى البعث الذى عبر عن وقته بالأجل المسمى فحيث أريد به أحد ما ذكر من الأمور الثلاثة ففى أى شىء يمترون ووصفهم بالامتراء الذى هو الشك وتوجيه الاستبعاد إليه مع أنهم جازمون بانتفاء البعث مصرون على إنكاره كما ينبىء عنه قولهم: أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون. ونظائره للدلالة على أن جزمهم المذكور فى أقصى مراتب الاستبعاد والاستنكار وقوله تعالى .

﴿ وهو الله ﴾ جملة من مبتدأ وخبر معطوفة على ماقبلها مسوقة لبيان شمول أحكام إلاهيته تعالى لجميع المخلوقات وإحاطة علمه بتفاصيل أحوال العباد وأعمالهم المؤدية إلى الجزاء إثر الإشارة إلى تحقق المعاد فى تضاعيف بيان كيفية خلقهم وتقدير آجالهم وقوله تعالى ﴿ فى السموات والأرض ﴾ متعلق بالمعنى الوصفى الذى ينبىء عنه الاسم الجليل ، إما باعتبار أصل اشتقاقه وكونه علما للمعبود بالحق كأنه قيل وهو المعبود فيهما وإما باعتبار أنه اسم اشتهر بما اشتهرت به الذات من صفات الكمال فلوحظ معه منها ما يقتضيه المقام من المالكية الكلية والتصرف الكامل حسبما تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة ، فعلق به الظرف من تلك الحيثية فصار كأنه قيل وهو المالك أو المتصرف المدبر فيهما كما فى قوله تعالى (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) وليس المراد بما ذكر من الاعتبارين أن الاسم الجليل يحمل على معناه اللغوى أو على معنى المالك أو المتصرف أو نحو ذلك بل مجرد ملاحظة أحد المعانى المذكورة فى ضمنه كما لوحظ مع اسم الأسد فى قوله أسد على الخ ما اشتهر به من وصف الجراءة التى اشتهر بها مسماه ، فجرى مجرى جرىء على ، وبهذا تبين أن ما قيل بصدد التصوير والتفسير أى هو المعروف بذلك فى السموات وفى الأرض ، أو هو المعروف المشتهر بالصفات الكمالية ، بالإلهية فيهما أو نحو ذلك بمعزل من التحقيق فإن المعتبر مع الاسم هو نفس الوصف الذى اشتهر به إذ هو الذى يقتضيه المقام حسبما بين آنفا لا اشتهاره به ألا يرى أن كلمة على فى المثال المذكور

لا يمكن تعليقها باشتهار الاسم بالجراءة قطعا وقيل هو متعلق بما يفيده التركيب الحصرى من التوحد والتفرد كأنه قيل وهو المتوحد بالإلاهية فيهما وقيل بما تقرر عند الكل من إطلاق هـــذا الاسم عليه خاصة كأنه قيل : وهو الذى يقال له الله فيهما لا يشرك به شيء فى هـــذا الاسم على الوجه الذى سبق ، من اعتبار معنى التوحد أو القول فى فحوى الكلام بطريق الاستتباع ، لا على حمل الاسم الجليل على معنى المتوحد بالإلاهية ، أو على تقدير القول وقد جوز أن يكون الظرف خبراً ثانيا على أن كونه سبحانه فيهما عبارة عن كونه تعالى مبالغا فى العلم بما فيهما بناء على تنزيل علمه المقدس عن حصول الصور والأشباح لكونه حضوريا منزلة كونه تعالى فيهما وتصويره به على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه حالة علمه تعالى بما فيهما بحالة كونه تعالى فيهما فإن العالم إذا كان فى مكان كان عالما به وبما فيه على وجه لا يخفى عليه منه شيء فعلى هذا يكون قوله عز وجل .

﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ أى ما أسررتموه وما جهرتم به من الأقوال أو ما أسررتموه وما أعلنتموه كائنا ما كان من الأقوال والأعمـــال بيانا وتقريراً لمضمونه وتحقيقا للمعنى المراد منه وتعليق علمه عز وجل بما ذكر خاصة مع شموله لجميع ما فيهما حسبما تفيده الجملة السابقة لانسياق النظم الكريم إلى بيان حال المخاطبين وكذا على الوجه الثانى فإن ملاحظة الاسم الجليل من حيث المالكية الكلية والتصرف الكامل الجارى على النمط المذكور مستتبعة لملاحظة علمه المحيط حتما فيكون هذا بيانا وتقريراً له بلا ريب وأما على الأوجه الثلاثة الباقية فلا سبيل إلى كونه بيانا لكن لا لما قيل من أنه لا دلالة لاستواء السر والجهر فى علمه تعالى على ما اعتبر فيهما من المعبودية ، والاختصاص بهذا الاسم إذ ربما يعبد ويختص به من ليس له كمال العلم فإنه باطل قطعا ، إذ المراد بما ذكره هو المعبودية بالحق والاختصاص بالاسم الجليل ، لا ريب فى أنهما مما لا يتصور فيمن ليس له كمال العلم بديهة ، بل لأن ما ذكر من العلم غير معتبر فى مدلول

شيء من المعبودية بالحق والاختصاص بالاسم حتى يكون هذا بيانا له وبهذا تبين أنه ليس ببيان على الوجه الثالث أيضاً ، لما أن التوحد بالإلهية لايعتبر فى مفهومه العلم الكامل ليكون هذا بيانا له، بل هو معتبر فيما صدق عليه المتوحد وذلك غير كاف فى البيانية . وقيل : هو خبر بعد خبر عند من يجوز كون الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى (فإذا هى حية تسعى) وقيل هو الخبر والاسم الجليل بدل من هو ، وبه يتعلق الظرف المتقدم ، ويكفى فى ذلك كون المعلوم فيهما كما فى قولك : رميت الصيد فى الحرام ، إذا كان هو فيه وأنت خارجه ، ولعل جعل سرهم وجهرهم فيهما لتوسيع الدائرة وتصوير أنه لا يعزب عن علمه شيء منهما فى أى مكان كان ، لا لأنهما قد يكونان فى السموات أيضاً ، وتعميم الخطاب لأهلها تعسف لا يخفى .

﴿ ويعلم ما تكسبون ﴾ أى ما تفعلونه لجلب نفع أو دفع ضر من الأعمال المكتسبة بالقلوب أو بالجوارح سرا أو علانية وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فيما سبق على التفسير الثانى للسر والجهر لإظهار كمال الاعتناء بها ، لأنها التى يتعلق بها الجزاء وهو السر فى إعادة يعلم ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ﴾ كلام مستأنف وارد لبيان كفرهم بآيات الله وإعراضهم عنها بالكلية بعد ما بين فى الآية الأولى إشراكهم بالله سبحانه وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد ، وفى الآية الثانية امتراؤهم فى البعث وإعراضهم عن بعض آياته . والالتفات للإشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحا وتعدد جناياتهم لغيرهم ذما لهم وتقبيحا لحالهم ، فما نافية ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ، أو للدلالة على الاستمرار التجددى ، ومن الأولى مزيدة للاستغراق ، والثانية تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية ، وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما أجترأوا عليه فى حقها . والمراد بها إما الآيات التنزيلية فإتيانها نزولها والمعنى ماينزل إليهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله عز وجل المنبئة عن جريان أحكام ألوهيته تعالى على

كافة الكائنات وإحاطة علمه بجميع أحوال الخلق وأعمالهم الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ أى على وجه التكذيب والاستهزاء كما ستقف عليه ، وأما الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات فإتيانها ظهورها لهم .

والمعنى . ما يظهر لهم آية من الآيات التكوينية التى من جملتها ما ذكر من جلائل شئونه تعالى الشاهدة بوحدانيته إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها . المؤدى إلى الإيمان بمكونها . وإيثاره على أن يقال إلا أعرضوا عنها كما وقع مثله فى قوله تعالى (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) للدلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات ، وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل ، والجملة فى محل النصب على أنها حال من مفعول تأتى أو من فاعله المتخصص[1] بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما . وأياً ما كان ففيها دلالة بينة على كمال مسارعتهم إلى الإعراض ، وإيقاعهم له فى آن الإتيان كما يفصح عنه كلمة لما فى قوله تعالى ،

﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ فإن الحق عبارة عن القرآن الذى أعرضوا عنه حين أعرضوا عن كل آية منه ، عبر عنه بذلك إبانة لكمال قبح ما فعلوا به ، فإن تكذيب الحق مما لا يتصور صدوره عن أحد ، والفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها لكن لا على أنها شىء مغاير له فى الحقيقة واقع عقيبه أو حاصل بسببه ، بل على أن الأول هو عين الثانى حقيقة ، وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتبارى ، وقد لتحقيق ذلك المعنى فى قوله تعالى (فقد جاؤا ظلما وزوراً) بعد قوله تعالى (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك إفتراه وأعانه عليه قوم آخرون) فإن ما جاءوه أى فعلوه من الظلم والزور عين قولهم المحكى ، لكنه لما كان مغايراً له مفهوما وأشنع منه حالا رتب عليه بالفاء ترتيب

---

(١) فى ١١ . المخصص .

اللازم على الملزوم تهويلا لأمره ، كذلك مفهوم التكذيب بالحق حيث كان أشنع من مفهوم الإعراض المذكور أخرج مخرج اللازم البين البطلان فرتب عليه بالفاء إظهاراً لغاية بطلانه ، ثم قيد ذلك بكونه بلا تأمل تأكيدا لشناعته وتمهيداً لبيان أن ما كذبوا به آثر ذي أثير له عواقب جليلة ستبدو لهم ألبتة، والمعنى . أنهم حيث أعرضوا عن تلك الآيات عند إتيانها فقد كذبوا بما لا يمكن تكذيبه أصلا من غير أن يتدبروا في حاله ومآله ، ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد الموجبة لتصديقه ، كقوله تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله) كما ينبيء عنه قوله تعالى :

﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا يستهزئون ﴾ فإن ما عبارة عن الحق المذكور عنه بذلك تهويلا لأمره بإبهامه ، وتعليلا للحكم بما في حيز الصلة وأنباؤه عبارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة التي نطقت بها آيات الوعيد وفي لفظ الإنباء إيذان بغاية العظم لما أن النبأ لا يطلق إلا على خبر عظيم الوقع ، وحملها على العقوبات الآجلة أو على ظهور الإسلام وعلو كلمته تأباه الآيات الآتية ، وسوف لتأكيد مضمون الجملة وتقريره ، أي فسيأتيهم ألبتة وإن تأخر مصداق أنباء الشيء الذي كانوا يكذبون به قبل من غير أن يتدبروا في عواقبه ، وإنما قيل يستهزئون إيذانا بأن تكذيبهم كان مقرونا بالاستهزاء كما أشير إليه . هذا على أن يراد بالآيات الآيات القرآنية وهو الأظهر ، وأما إن أريد بها الآيات التكوينية فالفاء داخلة على علة جواب شرط محذوف ، والإعراض على حقيقته كأنه قيل : إن كانوا معرضين عن تلك الآيات فلا تعجب فقد فعلوا بما هو أعظم منها ما هو أعظم من الإعراض ، حيث كذبوا بالحق الذي هو أعظم الآيات ، ولامساغ لحمل الآيات في هذا الوجه على كلها وأما ماقيل من أن المعنى أنهم لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا بالقرآن فما ينبغي تنزيه التنزيل عن أمثاله .

﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ استئناف مسوق لتعيين ماهو

المراد بالأنباء التي سبق بها الوعيد ، وتقرير إتيانها بطريق الاستشهاد ، وهمزة الإنكار لتقرير الرؤية ، وهي عرفانية مستدعية لمفعول واحد ، وكم استفهامية كانت أو خبرية معلقة لها عن العمل مقيدة للتكثير سادة مع ما في حيزها مسد مفعولها ، منصوبة بأهلكنا على المفعولية على أنها عبارة عن الأشخاص ، ومن قرن مميز لها على أنه عبارة عن أهل عصر من الأعصار سموا بذلك لاقترانهم برهة من الدهر كما في قوله عليه الصلاة والسلام « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم » الحديث . وقيل : هو عبارة عن مدة من الزمان والمضاف محذوف ، أي من أهل قرن ، وأما انتصابها على المصدرية أو على الظرفية على أنها عبارة عن المصدر أو عن الزمان فتعسف ظاهر ، ومن الأولى ابتدائية متعلقة بأهلكنا أي ألم يعرفوا بمعاينة الآثار وسماع الأخبار كم أمة أهلكنا من قبل أهل مكة ، أي من قبل خلقهم ، أو من قبل زمانهم على حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كعاد وثمود وأضرابهم وقوله تعالى :

﴿ مكناهم في الأرض ﴾ استئناف لبيان كيفية الإهلاك وتفصيل مباديه مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام ، كأنه قيل : كيف كان ذلك ؟ فقيل : مكناهم الخ ، وقيل : هو صفة لقرن لما أن النكرة مفتقرة إلى مخصص ، فإذا وليها مايصلح مخصصا لها تعين وصفيته لها ، وأنت خبير بأن تنوينه التفخيمي مغن له عن استدعاء الصفة على أن ذلك مع اقتضائه أن يكون مضمونه ومضمون ما عطف عليه من الجمل أمرا مفروغا عنه غير مقصود بسياق النظم ، مؤد إلى اختلال النظم الكريم ، كيف لا والمعنى حينئذ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن موصوفين بكذا وكذا ، وبإهلاكنا إياهم بذنوبهم ، وأنه بين الفساد . وتمكين الشيء في الأرض جعله قارا فيها ، ولما لازمه جعلها مقرا له ، ورد الاستعمال بكل منهما فقيل تارة مكنه في الأرض، ومنه قوله تعالى (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) وأخرى مكن له في الأرض ومنه قوله تعالى : (إنا مكنا له في الأرض) حتى أجرى كل منهما مجرى الآخر .

ومنه قوله تعالى ﴿ ما لم نمكن لكم ﴾ بعد قوله تعالى مكناهم فى الأرض ، كأنه قيل فى الأول : مكنا لهم ، وفى الثانى : ما نمكنكم . وما نكرة موصوفة بما بعدها من الجملة المنفية ، والعائد محذوف محلها النصب على المصدرية ، أى مكناهم تمكينا لم نمكنه لكم ، والالتفات لما فى مواجهتهم بضعف الحال مزيد بيان لشأن الفريقين ، ولدفع الاشتباه من أول الأمر عن مرجعى الضميرين ﴿ وأرسلنا السماء ﴾ أى المطر أو السحاب أو المظلة لأنها مبدأ المطر ﴿ عليهم ﴾ متعلق بأرسلنا ﴿ مدراراً ﴾ أى مغزاراً حال من السماء ﴿ وجعلنا الأنهار ﴾ أى صيرناها فقوله تعالى ﴿ تجرى من تحتهم ﴾ مفعول ثان لجعلنا ، أو أنشأناها فهو حال من مفعوله ، ومن تحتهم متعلق بتجرى وفيه من الدلالة على كونها مسخرة لهم مستمرة على الجريان على الوجه المذكور ما ليس فى أن يقال وأجرينا الأنهار من تحتهم ، وليس المراد بتعداد هاتيك النعم العظام الفائضة عليهم بعد ذكر تمكينهم بيان عظم جنايتهم فى كفرانها واستحقاقهم بذلك لأعظم العقوبات ، بل بيان حيازتهم لجميع أسباب نيل المآرب ومبادى الأمن والنجاة من المكاره والمعاطب ، وعدم إغناء ذلك عنهم شيئا . والمعنى : أعطيناهم من البسطة فى الأجسام والامتداد فى الأعمار والسعة من الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا فى استجلاب المنافع واستدفاع المضار ما لم نعط أهل مكة ففعلوا ما فعلوا ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ أى أهلكنا كل قرن من تلك القرون بسبب ما يخصهم من الذنوب ، فما أغنى عنهم تلك العدد والأسباب ، فسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب، وهذا كما ترى آخر ما به الاستشهاد والاعتبار وأما قوله سبحانه ﴿ وأنشأنا من بعدهم ﴾ أى أحدثنا من بعد إهلاك كل قرن ﴿ قرنا آخرين ﴾ بدلا من الهالكين فلبيان كمال قدرته تعالى وسعة سلطانه وأن ما ذكر من إهلاك الأمم الكثيرة لم ينقص من ملكه شيأ بل كلما أهلك أمة أنشأ بدلها أخرى .

مدى إنكار الكفار لنبوته صلى الله عليه وسلم

﴿ ولو نزلنا عليك ﴾ جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب لبيان شدة

شكيمتهم فى المكابرة وما يتفرع عليها من الأقاويل الباطلة إثر بيان إعراضهم عن آيات الله تعالى وتكذيبهم بالحق واستحقاقهم بذلك لنزول العذاب، ونسبة التنزيل ههنا إليه عليه السلام مع نسبة إتيان الآيات ومجىء الحق فيما سبق إليهم للإشعار بقدحهم فى نبوته عليه السلام فى ضمن قدحهم فيما نزل عليه صريحا . وقال الكلبى ومقاتل : نزلت فى النضر بن الحرث وعبد الله بن أبى أمية ونوفل ابن خويلد حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى ، وأنك رسوله ﴿ كتابا ﴾ إن جعل اسما كالإمام فقوله ﴿ فى قرطاس ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له ، أى كتابا كائنا فى صحيفة . وإن جعل مصدرا بمعنى المكتوب فهو متعلق بنفسه ﴿ فلمسوه ﴾ أى الكتاب وقيل القرطاس وقوله تعالى ﴿ بأيديهم ﴾ من ظهور أن اللمس لا يكون عادة إلا بالأيدى لزيادة التعيين ودفع احتمال التجوز الواقع فى قوله تعالى (وأنا لمسنا السماء) أى تفحصنا ، أى فمسوه بأيديهم بعد ما رأوه بأعينهم ، بحيث لم يبق لهم فى شأنه اشتباه ، ولم يقدروا على الاعتذار بتسكير الأبصار ﴿ لقال الذين كفروا ﴾ أى لقالوا ، وإنما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على اتصافهم بما فى حيز الصلة من الكفر الذى لا يخفى حسن موقعه باعتبار مفهومه اللغوى أيضاً ﴿ إن هذا ﴾ أى ما هذا مشيرين إلى ذلك الكتاب ﴿ إلا سحر مبين ﴾ أى بين كونه سحرا، تعنتا وعنادا للحق بعد ظهوره كما هو دأب المفحم المحجوج ، وديدن المكابر اللجوج .

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ شروع فى قدحهم فى نبوته عليه السلام صريحا بعد ما أشير إلى قدحهم فيها ضمنا . وقيل : هو معطوف على جواب لو ، وليس بذاك ، لما أن تلك المقالة الشنعاء ليست مما يقدر صدوره عنهم على تقدير تنزيل الكتاب المذكور ، بل هى من أباطيلهم المحققة ، وخرافاتهم الملفقة ، التى يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل [1] وعيت بهم العلل ، أى هلا

---

(١) فى ١١ : ضاقت بهم الحيل .

أنزل عليه عليه السلام ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبى حسبما نقل عنهم فيما روى عن الكلبى ومقاتل ، ونظيره قولهم : لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، ولما كان مدار هذا الاقتراح على شيئين : إنزال الملك كما هو وجعله معه عليه السلام نذيرا . أجيب عنه بأن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الوجود أصلا ، لاشتماله على أمرين متباينين لا يجتمعان فى الوجود : لما أن إنزال الملك على صورته يقتضى انتفاء جعله نذيرا ، وجعله نذيرا يستدعى عدم إنزاله على صورته لا محالة . وقد أشير إلى الأول بقوله ﴿ ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ﴾ أى لو أنزلنا ملكا على هيئته حسبما اقترحوه والحال أنه من هول المنظر بحيث لا تطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية . ألا يرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاوضونهم على الصور البشرية كضيف إبراهيم ولوط ، وخصم داود عليهم السلام وغير ذلك . وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية فما ظنك بمن عداهم من العوام ، فلو شاهدوه كذلك لقضى أمر هلاكهم بالكلية . واستحال جعله نذيرا ، وهو مع كونه خلاف مطلوبهم مستلزم لإخلاء العالم عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة من إرسال الرسل ، وتأسيس الشرائع ، وقد قال سبحانه (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وفيه كما ترى إيذان بأنهم فى ذلك الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه ، وأن عدم الإجابة إليه للبقيا عليهم ، وبناء الفعل الأول فى الجواب للفاعل الذى هو نون العظمة مع كونه فى السؤال مبنيا للمفعول لتهويل الأمر وتربية المهابة ، وبناء الثانى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء ، وكلمة ثم فى قوله تعالى :

﴿ ثم لاينظرون ﴾ أى لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين فضلا عن أن ينذروا به كما هو المقصود بالإنذار للتنبيه على تفاوت ما بين قضاء الأمر وعدم الإنظار ، فإن مفاجأة العذاب أشد من نفس العذاب وأشق . وقيل فى سبب إهلاكهم أنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورته وهى آية لاشىء أبين منها ثم لم يؤمنوا لم يكن بد من إهلاكهم ، وقيل :

إنهم إذا رأوه يزول الاختيار الذى هو قاعدة التكليف ، فيجب إهلاكهم ، وإلى الثانى بقوله تعالى :

﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ﴾ على أن الضمير الأول للتقدير المفهوم من فحوى الكلام بمعونة المقام ، وإنما لم يجعل للملك المذكور قبله بأن يعكس ترتيب المفعولين ويقال ولو جعلناه نذيرا لجعلناه رجلا مع فهم المراد منه أيضا لتحقيق أن مناط إبراز الجعل الأول فى معرض الفرض والتقدير ، ومدار استلزامه الثانى إنما هو ملكية النذير ، لا نذيرية الملك وذلك لأن الجعل حقه أن يكون مفعوله الأول مبتدأ والثانى خبرا ، لكونه بمعنى التصيير المنقول من صار الداخل على المبتدأ والخبر .

ولا ريب فى أن مصب الفائدة ومدار اللزوم بين طرفى الشرطية هو محمول المقدم لا موضوعه ، فحيث كانت امتناعية أريد بها بيان انتفاء الجعل الأول لاستلزامه المحذور الذى هو الجعل الثانى وجب أن يجعل مدار الاستلزام فى الأول مفعولا ثانيا لا محالة ، ولذلك جعل مقابله فى الجعل الثانى كذلك لإبانة لكمال التنافى بينهما الموجب لانتفاء الملزوم ، والضمير الثانى للملك لا لما رجع إليه الأول . والمعنى : لو جعلنا النذير الذى اقترحوه ملكا لمثلنا ذلك الملك رجلا لما مر من عدم استطاعة الآحاد لمعاينة الملك على هيكله. وفى إيثار رجلا على بشرا إيذان بأن الجعل بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة ، وتعيين لما يقع به التمثيل وقوله تعالى ﴿ وللبسنا عليهم ﴾ عطف على جواب لو مبنى على الجواب الأول ، وقرىء بحذف لام الجواب اكتفاء بما فى المعطوف عليه ، يقال : لبست الأمر على القوم ألبسه إذا شبهته وجعلته مشكلا عليهم ، وأصله الستر بالثوب ، وقرىء الفعلان بالتشديد للمبالغة ، أى ولخلطنا عليهم بتمثيله رجلا ﴿ ما يلبسون ﴾ على أنفسهم حينئذ بأن يقولوا له إنما أنت بشر ولست بملك ، ولو استدل على ملكيته بالقرآن المعجز الناطق بها أو بمعجزات أخر غير ملجئة إلى التصديق لكذبوه كما كذبوا النبى عليه الصلاة والسلام ، ولو أظهر

لهم صورته الأصلية لزم الأمر الأول ، والتعبير عن تمثيله تعالى رجلا باللبس إما لكونه فى صورة اللبس ، أو لكونه سببا للبسهم ، أو لوقوعه فى صحبته بطريق المشاكلة ، وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكا كأنه قيل : لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لبس الأمر عليهم ، وقد جوز أن يكون المعنى وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة فى كفرهم بآيات الله البينة .

﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من قومه ، وفى تصدير الجملة بلام القسم وحرف التحقيق من الاعتناء به ما لا يخفى ، وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ، ومن ابتدائية(١) متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسل ، أى وبالله لقد استهزىء برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ﴿ فحاق ﴾ عقيبه أى أحاط أو نزل أو حل أو نحو ذلك ، فإن معناه يدور على الشمول واللزوم ، ولا يكاد يستعمل إلا فى الشر ، والحيق ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله وقوله تعالى ﴿ بالذين سخروا منهم ﴾ أى استهزأوا بهم من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق ، وتقديمه على فاعله الذى هو قوله تعالى ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم ، وما إما موصولة مفيدة للتهويل ، أى فأحاط بهم الذى كانوا يستهزئون به حيث أهلكوا لأجله ، وإما مصدرية أى فنزل بهم وبال استهزائهم ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل لرعاية الفواصل .

العبرة فى تواريخ الأقدمين

﴿ قل سيروا فى الأرض ﴾ بعد بيان ما فعلت الأمم الخالية وما فعل بهم خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنذار قومه ، وتذكيرهم بأحوالهم

(١) فى ١٠ : الابتداء .

الفظيعة تحذيرا لهم عما هم عليه ، وتكملة للتسلية بما فى ضمنه من العدة اللطيفة بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم الأولين ، ولقد أنجز ذلك يوم بدر أى إنجاز[١] أى سيروا فى الأرض لتعرفوا[٢] أحوال أولئك الأمم ﴿ثم انظروا﴾ أى تفكروا ﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾ وكلمة ثم إما لأن النظر فى آثار الهالكين لايتسنى إلا بعد انتهاء السير إلى أماكنهم ، وإما لإبانة ما بينهما من التفاوت فى مراتب الوجوب وهو الأظهر ، فإن وجوب السير ليس إلا لكونه وسيلة إلى النظر كما يفصح عنه العطف بالفاء فى قوله عز وجل (فانظروا) الآية . وإما أن الأمر الأول لإباحة السير للتجارة ونحوها ، والثانى لإيجاب النظر فى آثارهم ، وثم لتباعد ما بين الواجب والمباح فلا يناسب المقام ، وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض أى تفكروا فى أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال ، والعاقبة مصدر كالعافية ونظائرها ، وهى منتهى الأمر[٣] ومآله ، ووضع المكذبين موضع المستهزئين لتحقيق أن مدار إصابة ما أصابهم هو التكذيب لينزجر السامعون عنه لاعن الاستهزاء فقط ، مع مع بقاء التكذيب بحاله بناء على توهم أنه المدار فى ذلك .

﴿قل﴾ لهم بطريق الإلجاء والتبكيت ﴿لمن ما فى السموات والأرض﴾ من العقلاء وغيرهم أى لمن الكائنات جميعاً خلقا وملكا وتصرفا وقوله تعالى ﴿قل لله﴾ تقرير لهم وتنبيه على أنه المتعين للجواب بالاتفاق بحيث لايتأتى لأحد أن يجيب بغيره كما نطق به قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات

---

(١) كانت عواقب الأمم السالفة هى الإهلاك بالخسف أو الرجف أو الصعق ، وما كان فى بدر لم يكن استئصالا بل هو هزيمة منكرة ويجب ملاحظة أن النظر إنما هو لإقناع الكفار بأن الله تعالى لاتعجزه قوة أبدا .

(٢) فى ط : لتعرف .

(٣) فى ١١ : نهاية الأمر .

والأرض ليقولن الله) وقوله تعالى ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ جملة مستقلة داخلة تحت الأمر ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق شمول ملكه وقدرته للكل مسوقة لبيان أنه تعالى رؤف بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة بل يقبل[١] منهم التوبة والإنابة وأن ماسبق ذكره وما لحق من أحكام الغضب ليس من مقتضيات ذاته تعالى ، بل من جهة الخلق ، كيف لا ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة وهداهم إلى معرفته وتوحيده بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب المشحونة بالدعوة إلى موجبات رضوانه ، والتحذير عن مقتضيات سخطه ، وقد بدلوا فطرة الله تبديلا ، وأعرضوا عن الآيات بالمرة ، وكذبوا بالكتب واستهزأوا بالرسل ، وماظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين ، ولو لاشمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضا مسلك الغابرين . ومعنى كتب الرحمة على نفسه أنه تعالى قضاها وأوجبها بطريق التفضل والإحسان على ذاته المقدسة بالذات لا بتوسط شيء أصلا ، وقيل : هو ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما قضى الله تعالى الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتى غلبت غضبي » .

وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب ، « ما أول شيء ابتدأه الله تعالى من خلقه » ؟ فقال كعب : كتب الله كتابا لم يكتبه بقلم ولا مداد كتابة الزبرجد واللؤلؤ والياقوت: إنى أنا الله لا إله إلا أنا سبقت رحمتى غضبي ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقا بالخلق وأكثر وصولا إليهم مع أنها من مقتضيات الذات المفيضة للخير وفى التعبير عن الذات بالنفس حجة على من ادعى أن لفظ النفس لا يطلق على الله تعالى وإن أريد به الذات إلا مشاكلة لما ترى من انتفاء المشاكلة ههنا بنوعيها وقوله تعالى .

---

(١) فى ط : ويقبل ، وما اخترناه أوضح من ١٠ .

﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة ﴾ جواب قسم محذوف ، والجملة استئناف مسوق للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر ، أى والله ليجمعنكم فى القبور مبعوثين أو محشورين إلى يوم القيامة فيجازيكم على شرككم وسائر معاصيكم وإن أمهلكم بموجب رحمته ولم يعاجلكم بالعقوبة الدنيوية وقيل : إلى بمعنى اللام ، أى ليجمعنكم فى يوم القيامة كقوله تعالى :

﴿ إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه ﴾ وقيل هى بمعنى فى أى ليجمعنكم فى يوم القيامة ﴿ لاريب فيه ﴾ أى فى اليوم أو فى الجمع وقوله تعالى .

﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أى بتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستماع الوحى وغير ذلك من آثار الرحمة ، فى موضع النصب أو الرفع على الذم أى أعنى الذين الخ أو هو مبتدأ والخبر قوله تعالى ﴿ فهم لايؤمنون ﴾ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، والإشعار بأن عدم إيمانهم بسبب خسرانهم ، فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك فى التقليد ، وإغفال النظر أدى بهم إلى الإصرار على الكفر ، والامتناع من الإيمان والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى لتقبيح حالهم غير داخل تحت الأمر.

﴿ وله ﴾ أى لله عز وجل خاصة ﴿ ما سكن فى الليل والنهار ﴾ نزل الملوان[1] منزلة المكان فعبر عن نسبة الأشياء الزمانية إليهما بالسكنى فيهما ، وتعديته بكلمة فى كما فى قوله تعالى (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) أو السكون مقابل الحركة والمراد ما سكن فيهما أو تحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر ﴿ وهو السميع ﴾ المبالغ فى سماع كل مسموع ﴿ العليم ﴾ المبالغ فى العلم بكل معلوم فلا يخفى عليه شىء من الأقوال والأفعال .

﴿ قل ﴾ لهم بعد ما بكتهم بما سبق من الخطاب ﴿ أغير الله

---

(١) فى ٤٣٠ الملوين .

أتخذ وليا ﴾ أي معبودا بطريق الاستقلال أو الإشتراك وإنما سلطت الهمزة على المفعول الأول لاعلى الفعل إيذانا بأن المنكر هو اتخاذ غير الله وليا ، لا اتخاذ الولى مطلقا كما فى قوله تعالى ﴿ أغير الله أبغى ربا ﴾ وقوله تعالى (أفغير الله تأمرونى أعبد) الخ ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى مبدعهما بالجر صفة للجلالة مؤكدة للإنكار لأنه بمعنى الماضى ولذلك قرىء فطر ولا يضر الفصل بينهما بالجملة لأنها ليست بأجنبية إذ هى عاملة فى عامل الموصوف أو بدل فإن الفصل بينه وبين المبدل منه أسهل لأن البدل على نية تكرير العامل وقرىء بالرفع والنصب على المدح وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم إلى أعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أى ابتدأتها ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ أى يرزق الخلق ولا يرزق وتخصيص الطعام بالذكر لشدة الحاجة إليه أو لأنه معظم ما يصل إلى المرزوق من الرزق ومحل الجملة النصب على أن الضمير لغير الله والمعنى أأشرك بمن هو فاطر السموات والأرض ما هو نازل عن رتبة الحيوانية وببنائهما للفاعل على أن الثانى بمعنى يستطعم أو معنى أنه يطعم تارة ولا يطعم أخرى كقوله تعالى (يقبض ويبسط) .

﴿ قل ﴾ بعد بيان اتخاذ غيره تعالى وليا مما يقضى ببطلانه بديهة العقول ﴿ إنى أمرت ﴾ من جنابه عز وجل ﴿ أن أكون أول من أسلم ﴾ وجهه لله مخلصا له لأن النبى إمام أمته فى الإسلام كقوله تعالى (وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) وقوله تعالى (سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) ﴿ ولا تكونن ﴾ أى وقيل لى ولا تكونن ﴿ من المشركين ﴾ أى فى أمر من أمور الدين ومعناه أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك وقد جوز عطفه على الأمر ﴿ قل إنى أخاف إن عصيت ربى ﴾ أى بمخالفة أمره ونهيه أى عصيان كان فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا وفيه بيان لكمال اجتنابه عليه السلام عن المعاصى على الإطلاق وقوله تعالى ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ أى عذاب يوم القيامة مفعول أخاف والشرطية

معترضة بينهما والجواب محذوف لدلالة ماقبله عليه وفيه قطع لأطماعهم الفارغة وتعريض بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم .

﴿ من يصرف عنه ﴾ على البناء للمفعول أى العذاب ، وقرىء على البناء للفاعل والضمير لله سبحانه ، وقد قرىء بالإظهار والمفعول محذوف وقوله تعالى ﴿ يومئذ ﴾ ظرف للصرف ، أى فى ذلك اليوم العظيم ، وقد جوز أن يكون هو المفعول على قراءة البناء للفاعل بحذف المضاف أى عذاب يومئذ ﴿ فقد رحمه ﴾ أى نجاه وأنعم عليه وقيل فقد أدخله الجنة كما فى قوله تعالى (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) والجملة مستأنفة مؤكدة لتهويل العذاب ، وضمير عنه ورحمه لمن ، وهو عبارة عن غير العاصى ﴿ وذلك ﴾ إشارة إلى الصرف أو الرحمة ، لأنها مؤولة بأن مع الفعل وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجته ، وبعد مكانه فى الفضل ، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ الفوز المبين ﴾ أى الظاهر كونه فوزا وهو الظفر بالبغية والألف واللام لقصره على ذلك .

﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ أى ببلية كمرض وفقر ونحو ذلك ﴿ فلا كاشف له ﴾ أى فلا قادر على كشفه عنك ﴿ إلا هو ﴾ وحده ﴿ وإن يمسسك بخير ﴾ من صحة ونعمة ونحو ذلك ﴿ فهو على كل شىء قدير ﴾ ومن جملته ذلك فيقدر عليه فيمسسك به ويحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه ، أو على رفعه أحد ، كقوله تعالى ﴿ فلا راد لفضله ﴾ وحمله على تأكيد الجوابين يأباه الفاء .

تذكرة

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى ، فركبها بحبل من شعر ثم أردفنى خلفه ثم سار بى ميلا ، ثم التفت إلى فقال : « يا غلام » فقلت لبيك يا رسول الله . فقال : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء

يعرفك فى الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فقد مضى القلم بما هو كائن ، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ما قدروا عليه ، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فاصبر ، فإن فى الصبر على ماتكره خيراً كثيراً ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن مع الكرب فرجا ، وأن مع العسر يسرا »[1].

﴿ وهو القادر فوق عباده ﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة ﴿ وهو الحكيم ﴾ فى كل ما يفعله ويأمر به ﴿ الخبير ﴾ بأحوال عباده وخفايا أمورهم واللام فى المواضع الثلاثة للقصر .

رد على مشركى قريش

﴿ قل أى شىء أكبر شهادة ﴾ روى أن قريشا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله فنزلت . فأى مبتدأ وأكبر خبره وشهادة نصب على التمييز وقوله تعالى ﴿ قل الله ﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بأن يتولى الجواب بنفسه ، إما للإيذان بتعينه وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره ، أو لأنهم ربما يتلعثمون فيه لا لترددهم فى أنه أكبر من كل شىء ، بل فى كونه شهيدا فى هذا الشأن ، وقوله تعالى ﴿ شهيد ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هو شهيد ﴿ بينى وبينكم ﴾ ويجوز أن يكون الله شهيد بينى وبينكم هو الجواب ، لأنه إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم كان أكبر شىء شهادة شهيداً له عليه الصلاة والسلام ، وتكرير البين لتحقيق المقابلة ﴿ وأوحى إلى ﴾ أى من جهته تعالى ﴿ هذا القرآن ﴾ الشاهد بصحة رسالتى ﴿ لأنذركم به ﴾ بما فيه من الوعيد والاقتصار على ذكر الإنذار لما أن الكلام مع الكفرة ﴿ ومن بلغ ﴾

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ، ونحوه البخارى عن أبى هريرة .

عطف على ضمير المخاطبين أى لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر أو من الثقلين أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة ، وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين يوم نزوله ومن سيوجد بعد إلى يوم القيامة ، خلا أن ذلك بطريق العبارة فى الكل عند الحنابلة، وبالإجماع عندنا فى غير الموجودين وفى غير المكلفين يومئذ كما مر فى أول سورة النساء ﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد ﴿ قل لا أشهد ﴾ بذلك وإن شهدتم به فإنه باطل صرف ﴿ قل ﴾ تكرير للأمر للتأكيد ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ أى بل إنما أشهد أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿ وإننى برىء مما تشركون ﴾ من الأصنام أو من إشراككم .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ جواب عما سبق من قولهم لقد سألنا عنك اليهود والنصارى أخرعن تعيين الشهيد مسارعة إلى إلزامهم بالجواب عن تحكمهم بقولهم فأرنا من يشهد لك الخ ، والمراد بالموصول اليهود والنصارى ، وبالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والإنجيل ، وإيرادهم بعنوان إيتاء الكتاب للإيذان بمدار ما أسند إليهم بقوله تعالى ﴿ يعرفونه ﴾ أى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة الكتابين بحليته ونعوته المذكورة فيهما ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ بحلاهم بحيث لا يشكون فى ذلك أصلا . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة قال عمر رضى الله عنه لعبد الله بن سلام : أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية وكيف هذه المعرفة ؟ فقال : يا عمر ، لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابنى ، ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى ، لأنى لا أدرى ما صنع النساء ، وأشهد أنه من حق من الله تعالى .

﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ من أهل الكتابين والمشركين بأن ضيعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها وأعرضوا عن البينات الموجبة للإيمان بالكلية ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ لما أنهم مطبوع على قلوبهم ، ومحل الموصول الرفع على الابتداء وخبره الجملة المصدرة بالفاء لشبه الموصول بالشرط ، وقيل على أنه

خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين خسروا الخ ، وقيل على أنه نعت للموصول الأول ، وقيل النصب على الذم ، فقوله تعالى ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ على الوجوه الأخيرة عطف على جملة ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ الخ .

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ بوصفهم النبي الموعود فى الكتابين بخلاف أوصافه عليه الصلاة والسلام فإنه افتراء على الله سبحانه وبقولهم الملائكة بنات الله ، وقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ونحو ذلك ، وهو إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له ، وإن كان سبك التركيب غير متعرض لإنكار المساواة ونفيها يشهد به العرف الفاشى ، والاستعمال المطرد ، فإنه إذا قيل : من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم ، وأفضل من كل فاضل ، ألا يرى إلى قوله عز وجل ﴿ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ بعد قوله تعالى ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ الخ والسر فى ذلك أن النسبة بين الشيئين إنما تتصور غالبا لا سيما فى باب المغالبة بالتفاوت زيادة ونقصانا فإذا لم يكن أحدهما أزيد يتحقق النقصان لا محالة ﴿ أو كذب بآياته ﴾ كأن كذبوا بالقرآن الذى من جملته الآية الناطقة بأنهم يعرفونه عليه الصلاة والسلام كما يعرفون أبناءهم ، وبالمعجزات وسموها سحرا ، وحرفوا التوراة وغيروا نعوته عليه الصلاة والسلام ، فإن ذلك تكذيب بآياته تعالى . وكلمة أو للإيذان بأن كلا من الافتراء والتكذيب وحده بالغ غاية الإفراط فى الظلم ، فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ونفوا ما أثبته ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

﴿إنه﴾ الضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل إن الشأن الخطير هذا هو ﴿ لا يفلح الظالمون ﴾ أى لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب وإذا كان حال الظالمين هذا فما ظنك بمن فى الغاية القاصية من الظلم .

﴿ ويوم نحشرهم جميعا ﴾ منصوب على الظرفية بمضمر مؤخر قد حذف إيذانا بضيق العبارة عن شرحه وبيانه ، وإيماء إلى عدم استطاعة السامعين لسماعه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة والداهية التامة ، كأنه قيل : ويوم نحشرهم جميعا ﴿ ثم نقول ﴾ لهم ما نقول كان من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال ، وتقدير صيغة الماضى للدلالة على التحقق ولحسن موقع عطف قوله تعالى (ثم لم تكن) الخ عليه ، وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم ، أى واذكر لهم للتخويف والتحذير يوم نحشرهم الخ ، وقيل وليتقوا أو ليحذروا يوم نحشرهم الخ والضمير للكل وجميعا حال منه وقرىء يحشرهم جميعا ثم يقول بالياء فيهما ﴿ للذين أشركوا ﴾ أى نقول لهم خاصة للتوبيخ والتقريع على رءوس الأشهاد ﴿ أين شركاؤكم ﴾ أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله سبحانه ، وإضافتها إليهم لما أن شركتها ليست إلا بتسميتهم وتقولهم الكاذب كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ الذين كنتم تزعمون ﴾ أى تزعمونها شركاء ، فحذف المفعولان معا ، وهذا السؤال المنبىء عن غيبة الشركاء مع عموم الحشر لها لقوله تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله) وغير ذلك من النصوص إنما يقع بعد ما جرى بينها وبينهم من التبرؤ من الجانبين ، وتقطع ما بينهم من الأسباب والعلائق حسبما يحكيه من قوله تعالى (فزيلنا بينهم) الخ ، ونحو ذلك من الآيات الكريمة ، إما بعدم حضورها حينئذ فى الحقيقة بإبعادها من ذلك الموقف ، وإما بتنزيل عدم حضورها بعنوان الشركة والشفاعة منزلة عدم حضورها فى الحقيقة ، إذ ليس السؤال عنها من حيث ذواتها ، بل إنما هو من حيث أنها شركاء كما يعرب عنه الوصف بالموصول ، ولا ريب فى أن عدم الوصف يوجب عدم الموصوف من حيث هو موصوف فهى من حيث هى شركاء غائبة لا محالة وإن كانت حاضرة من حيث ذواتها أصناما كانت أو غيرها ، وأما ما يقال من أنه يحال بينها وبينهم فى وقت التوبيخ ليفقدوهم فى الساعة التى علقوا بها الرجاء فيها فيروا مكان خزيهم وحسرتهم فربما يشعر بعدم شعورهم بحقيقة الحال وعدم انقطاع حبال رجائهم عنها بعد

وقد عرفت أنهم شاهدوها قبل ذلك ، وانصرمت عروة أطماعهم عنها بالكلية ، على أنها معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب فى البرزخ ، وإنما الذى يحصل يوم الحشر الانكشاف الجلى واليقين القوى ، المترتب على المحاضرة والمحاورة .

﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ بتأنيث الفعل ورفع فتنتهم على أنه اسم له والخبر ﴿ إلا أن قالوا ﴾ وقرىء بنصب فتنتهم على أنها الخبر والاسم إلا أن قالوا ، والتأنيث للخبر كما فى قولهم : من كانت أمك ، وقرىء بالتذكير مع رفع الفتنة ونصبها ورفعها أنسب بحسب المعنى ، والجملة عطف على ما قدر عاملا فى يوم نحشرهم كما أشير إليه فيما سلف ، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء وفتنتهم ، إما كفرهم مراداً به عاقبته أى لم تكن عاقبة كفرهم الذى لزموه مدة أعمارهم وافتخروا به شيئاً من الأشياء إلا جحوده والتبرؤ منه بأن يقولوا ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ وأما جوابهم عبر عنه بالفتنة لأنه كذب ووصفه تعالى بربوبيته لهم للمبالغة فى التبرؤ من الإشراك[1] وقرىء ربنا على النداء ، فهو لإظهار الضراعة والابتهال فى استدعاء قبول المعذرة ، وإنما يقولون ذلك مع علمهم بأنه بمعزل من النفع رأساً من فرط الحيرة والدهش ، وحمله على معنى ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا فى الدنيا أنا على خطأ فى معتقدنا مما لا ينبغى أن يتوهم أصلا ، فإنه مما يوهم أن لهم عذراً ما ، وأن لهم قدرة على الاعتذار فى الجملة ، وذلك مخل بكمال هول اليوم قطعاً ، على أنه قد قضى ببطلانه قوله تعالى .

﴿ أنظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ فإنه تعجيب من كذبهم الصريح بإنكار صدور الإشراك عنهم فى الدنيا ، أى انظر كيف كذبوا على أنفسهم فى قولهم ذلك ، فإنه أمر عجيب فى الغاية ، وأما حمله على كذبهم فى الدنيا فتمحل يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقوله تعالى ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ عطف

---

(١) فى ١١ : من الشرك .

على كذبوا داخل معه فى حكم التعجيب ، وما مصدرية أو موصولة قد حذف عائدها ، والمعنى أنظر كيف كذبوا باليمين الفاجرة المغلظة على أنفسهم بإنكار صدور ما صدر عنهم . وكيف ضل عنهم أى زال وذهب افتراؤهم أو ما كانوا يفترونه من الإشراك حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية ، وتبرأوا منه بالمرة . وقيل ما عبارة عن الشركاء ، وإيقاع الافتراء عليها مع أنه فى الحقيقة واقع على أحوالها من الاهية والشركة والشفاعة ونحوها للمبالغة فى أمرها كأنها نفس المفترى ، وقيل الجملة كلام مستأنف غير داخل فى حيز التعجيب ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ كلام مبتدأ مسوق لحكاية ماصدر فى الدنيا عن بعض المشركين من أحكام الكفر ، ثم بيان ما سيصدر عنهم يوم الحشر تقريراً لما قبله وتحقيقا لمضمونه والضمير للذين أشركوا ، ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف ، كما فى قوله تعالى (ومنا دون ذلك) أى وجمع منا الخ ومن موصولة أو موصوفة محلها الرفع على الخبرية ، والمعنى وبعضهم أو وبعض منهم الذى يستمع إليك أو فريق يستمع إليك على أن مناط الإفادة اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين وقد مر فى تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الخ .

روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر وكان صاحب أخبار ياأبا قتيلة ما يقول محمد فقال والذى جعلها بيته ماأدرى مايقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما حدثتكم من القرون الماضية فقال أبو سفيان إنى لأراه حقاً فقال أبو جهل كلا فنزلت .

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ من الجعل بمعنى الإنشاء وعلى متعلقة به وضمير قلوبهم راجع إلى من وجمعيته بالنظر إلى معناها كما أن إفراد ضمير يستمع بالنظر إلى لفظها وقد روعى جانب المعنى فى قوله تعالى (ومنهم من يستمعون إليك) الآية والأكنة جمع كنان وهو ما يستر به الشىء وتنوينها للتفخيم والجملة إما مستأنفة للإخبار بما تضمنه من الختم أو حال من فاعل

يستمع بإضمار قد عند من يقدرها قبل الماضى الواقع حالا أى يستمعون إليك وقد ألقينا على قلوبهم أغطية كثيرة لا يقادر قدرها خارجة عما يتعارفه الناس ﴿ أن يفقهوه ﴾ أى كراهة أن يفقهوا ما يستمعونه من القرآن المدلول عليه بذكر الاستماع ويجوز أن يكون مفعولا لما ينبىء عنه الكلام أى منعناهم أن أن يفقهوه ﴿ وفى آذانهم وقرا ﴾ صمما وثقلا مانعاً من سماعه والكلام فيه كما فى قوله تعالى (على قلوبهم أكنة) وهذا تمثيل معرب عن كمال جهلهم بشئون النبى عليه الصلاة والسلام وفرط نبوة قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له وقد مر تحقيقه فى أول سورة البقرة وقيل هو حكاية لما قالوا (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) (وفى آذاننا وقر) الآية وأنت خبير بأن مرادهم بذلك الإخبار بما اعتقدوه فى حق القرآن والنبى عليه الصلاة والسلام جهلا وكفراً من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والإيمان ككون القرآن سحراً وشعراً وأساطير الأولين وقس على ما تخيلوه فى حق النبى صلى الله عليه وسلم لا الإخبار بأن هناك أمرا وراء ذلك قد حال بينهم وبين إدراكه حائل من قبلهم حتى يمكن حمل النظم الكريم على ذلك .

﴿ وإن يروا كل آية ﴾ من الآيات القرآنية أى يشاهدوها بسماعها ﴿ لا يؤمنوا بها ﴾ على عموم النفى لا على نفى العموم أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم إياها كما هى لما مر من حالهم ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك ﴾ هى حتى التى تقع بعدها الجمل والجملة هى قوله تعالى (إذا جاءوك) ﴿ يقول الذين كفروا ﴾ وما بينهما حال من فاعل جاءوا وإنما وضع الموصول موضع الضمير ذماً لهم بما فى حيز الصلة وإشعارا بعلة الحكم أى بلغوا من التكذيب[1] والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك مجادلين لك لا يكتفون بمجرد عدم الإيمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون ﴿ إن هذا ﴾ أى ما هذا ﴿ إلا أساطير الأولين ﴾ فإن عد أحسن الحديث وأصدقه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه

---

(١) فى ١٠ : من الإنكار .

ولا من خلفه من قبيل الأباطيل والخرافات رتبة من الكفر لا غاية وراءها ، ويجوز أن تكون حتى جارة وإذا ظرفية بمعنى وقت مجيئهم ويجادلونك حال كما سبق وقوله تعالى (يقول الذين كفروا) الخ تفسير للمجادلة والأساطير جمع أسطورة أو أسطارة أو جمع أسطار وهو جمع سطر بالتحريك وأصل الكل السطر بمعنى الخط .

﴿ وهم ينهون عنه ﴾ الضمير المرفوع للمذكورين والمجرور للقرآن أى لا يقتنعون بما ذكر من تكذيبه وعده من قبيل الأساطير ، بل ينهون الناس عن استماعه لئلا يقفوا على حقيته فيؤمنوا به ﴿ وينأون عنه ﴾ أى يتباعدون عنه بأنفسهم إظهارا لغاية نفورهم عنه وتأكيدا لنهيهم عنه ، فإن اجتناب الناهى عن المنهى عنه من متممات النهى ولعل ذلك هو السر فى تأخير النأى عن النهى وقيل الضمير المجرور للنبي عليه الصلاة والسلام وقيل المرفوع لأبى طالب ، ولعل جمعيته باعتبار استتباعه لأتباعه ، فإنه كان ينهى قريشا عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينأى عنه فلا يؤمن به ، وروى أنهم اجتمعوا إليه وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا فقال :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لا محالة إنه[1] من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

فنزلت ﴿ وإن يهلكون ﴾ أى ما يهلكون بما فعلوا من النهى والنأى ﴿ إلا أنفسهم ﴾ بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه عاجلا وآجلا وهو عذاب الضلال والإضلال وقوله تعالى ﴿ وما يشعرون ﴾ حال من ضمير يهلكون أى يقصرون الإهلاك

---

(١) فى رواية أخرى : ولقد علمت بأن دين محمد .

على أنفسهم والحال أنهم ما يشعرون أى لا بإهلاكهم أنفسهم ولا باقتصار ذلك عليها من غير أن يضروا بذلك شيئا من القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وإنما عبر عنه بالإهلاك مع أن النفى عن غيرهم مطلق الضرر إذ غاية ما يؤدى إليه ما فعلوا من القدح فى القرآن الكريم الممانعة فى تمشى أحكامه وظهور أمر الدين للإيذان بأن ما يحيق بهم هو الهلاك لا الضرر المطلق على أن مقصدهم لم يكن مطلق الممانعة فيما ذكر بل كانوا يبغون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ويجوز أن يكون الإهلاك[1] معتبرا بالنسبة إلى الذين يضلونهم بالنهى فقصره على أنفسهم حينئذ مع شموله للفريقين مبنى على تنزيل عذاب الضلال عند عذاب الإضلال منزلة العدم .

﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ شروع فى حكاية ما سيصدر عنهم يوم القيامة من القول المناقض لما صدر عنهم فى الدنيا من القبائح المحكية مع كونه كذبا فى نفسه والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل المشاهدة والعيار قصدا إلى بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الشناعة والفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الأمور العجيبة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها وجواب لو محذوف ثقة بظهوره وإيذانا بقصور العبارة عن تفصيله وكذا مفعول ترى لدلالة ما فى حيز الظرف عليه أى لو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها لرأيت مالا يسعه التعبير وصيغة الماضى للدلالة على التحقق أو حين يطلعون عليها اطلاعا وهى تحتهم أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها من قولهم وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته وقرىء وقفوا على البناء للفاعل من وقف عليه وقوفا .

﴿ فقالوا يا ليتنا نرد﴾ أى إلى الدنيا تمنيا للرجوع والخلاص وهيهات ولات حين مناص ﴿ولا نكذب بآياتنا ربنا﴾ أى بآياته الناطقة بأحوال النار

---

(١) فى ٤٣٠ . الهلاك .

وأهوالها الآمرة باتقائها إذ هي التي تخطر حينئذ ببالهم[1] ويتحسرون على ما فرطوا في حقها أو بجميع آياته المنتظمة لتلك الآيات انتظاما أوليا ﴿ونكون من المؤمنين﴾ بها العاملين بمقتضاها حتى لا نرى هذا الموقف الهائل أو نكون من فريق المؤمنين الناجين من العذاب الفائزين بحسن المآب ، ونصب الفعلين على جواب التمني بإضمار أن بعد الواو وإجرائها مجرى الفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود وابن إسحق فلا نكذب والمعنى أن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين وقيل ينسبك من أن المصدرية ومن الفعل بعدها مصدر ويقدر قبله مصدر متوهم فيعطف هذا عليه كأنه قيل ليت لنا ردا وانتفاء تكذيب وكونا من المؤمنين وقرىء برفعهما على أنه كلام مستأنف كقوله دعني ولا أعود أي وأنا لا أعود تركتني أو لم تتركني أو عطف على نرد أو حال من ضميره فيكون داخلا في حكم التمني كالوجه الأخير للنصب وتعلق التكذيب الآتي به لما تضمنه من العدة بالإيمان وعدم التكذيب كمن قال ليتني رزقت مالا فأكافئك على صنيعك فإنه متمن في معنى الواعد فلو رزق مالا ولم يكافىء صاحبه يكون مكذبا لا محالة وقرىء برفع الأول ونصب الثاني وقد مر وجههما .

﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ إضراب عما ينبىء عنه التمني من الوعد بتصديق الآيات والإيمان بها أي ليس ذلك عن عزيمة صادقة ناشئة عن رغبة في الإيمان وسوق إلى تحصيله والاتصاف به بل لأنه ظهر لهم في موقفهم ذلك ما كانوا يخفونه في الدنيا من الداهية الدهياء وظنوا أنهم مواقعوها فلخوفها وهول مطلعها قالوا ما قالوا والمراد بها النار التي وقفوا عليها إذ هي التي سيق الكلام لتهويل أمرها والتعجب من فظاعة حال الموقوفين عليها وبإخفائها تكذيبهم بها فإن التكذيب بالشيء كفر به وإخفاء له لا محالة وإيثاره على صريح التكذيب الوارد في قوله عز وجل هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون وقوله تعالى : هذه النار التي كنتم بها تكذبون مع كونه أنسب بما قبله من قولهم ولا نكذب

---

(١) في ٤٣٠ : على بالهم

بآيات ربنا لمراعاة ما فى مقابلته من البدو هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم وأما ما قيل من أن المراد بما يخفون كفرهم ومعاصيهم أو قبائحهم وفضائحهم التى كانوا يكتمونها من الناس فتظهر فى صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم أو شركهم الذى يجحدون به فى بعض مواقف القيامة بقولهم :

(والله ربنا ما كنا مشركين) ثم يظهر بما ذكر من شهادة الجوارح عليهم أو ما أخفاه رؤساء الكفرة عن أتباعهم من أمر البعث والنشور أو ما كتمه علماء أهل الكتابين من صحة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام ونعوته الشريفة عن عوامهم على أن الضمير المجرور للعوام والمرفوع للخواص أو كفرهم الذى أخفوه عن المؤمنين والضمير المجرور للمؤمنين والمرفوع للمنافقين فبعد الإغضاء عما فى كل منها من الاعتساف والاختلال لا سبيل إلى شىء من ذلك أصلا لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتهويل أمر النار وتفظيع حال أهلها وقد ذكر وقوفهم عليها وأشير إلى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة ما لا يحيط به الوصف ورتب عليه تمنيهم المذكور بالفاء القاضية بسببية ما قبلها لما بعدها فإسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية وهى فى نفسها أدهى الدواهى وأزجر الزواجر وإسنادها إلى شىء من الأمور المذكورة التى دونها فى الهول والزجر مع عدم جريان ذكرها ثمة أمر يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله وأما ما قيل من أن المراد جزاء ما كانوا يخفون فمن قبيل دخول البيوت من ظهورها وأبوابها مفتوحة فتأمل ،

﴿ ولو ردوا ﴾ أى من موقفهم ذلك إلى الدنيا حسبما تمنوه وغاب عنهم ماشاهدوه من الأهوال ﴿ لعادوا لما نهوا عنه ﴾ من فنون القبائح التى من جملتها التكذيب المذكور ونسوا ماعاينوه بالكلية لاقتصار أنظارهم على الشاهد دون[1] الغائب ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ أى لقوم ديدنهم الكذب فى كل

---

(١) فى ١٠ : على المشهود .

ما يأتون وما يذرون ﴿ وقالوا ﴾ عطف على عادوا داخل فى حيز الجواب وتوسيط قوله تعالى (وإنهم لكاذبون) بينهما لأنه اعتراض مسوق لتقرير ما أفاده الشرطية من كذبهم المخصوص ولو أخر لأوهم أن المراد تكذيبهم فى إنكارهم البعث والمعنى لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وقالوا ﴿ إن هى ﴾ أى ما الحياة ﴿ إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ بعدما فارقنا هذه الحياة كأن لم يروا ما رأوا من الأحوال التى أولها البعث والنشور ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ الكلام فيه كالذى مر فى نظيره ، خلا أن الوقوف ههنا مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجانى بين يدى سيده للعقاب وقيل عرفوا ربهم حق التعريف ، وقيل وقفوا على جزاء ربهم وقوله تعالى ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام السابق كأنه قيل : فماذا قال لهم ربهم إذ ذاك ؟ فقيل : قال ﴿ أليس هذا ﴾ مشيرا إلى ما شاهدوه من البعث وما يتبعه من الأمور العظام ﴿ بالحق ﴾ تقريعا لهم على تكذيبهم لذلك وقولهم عند سماع ما يتعلق به ما هو بحق وما هو إلا باطل ﴿ قالوا ﴾ استئناف كما سبق ﴿ بلى وربنا ﴾ أكدوا اعترافهم باليمين إظهاراً لكمال يقينهم بحقيته وإيذانا بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط طمعا فى نفعه .

﴿ قال ﴾ استئناف كما مر ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ الذى عاينتموه والفاء لترتيب التعذيب على اعترافهم بحقية ما كفروا به فى الدنيا لكن لا على أن مدار التعذيب هو اعترافهم بذلك بل هو كفرهم السابق بما اعترفوا بحقيته الآن كما نطق به قوله عز وجل ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ أى بسبب كفركم فى الدنيا بذلك أو بكل ما يجب الإيمان به فيدخل كفرهم به دخولا أوليا ولعل هذا التوبيخ والتقريع إنما يقع بعد ما وقفوا على النار فقالوا ما قالوا إذ الظاهر أنه لا يبقى بعد هذا الأمر إلا العذاب .

﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ هم الذين حكيت أحوالهم لكن وضع الموصول موضع الضمير للإيذان بسبب خسرانهم بما فى حيز الصلة من

التكذيب بلقائه تعالى بقيام الساعة وما يترتب عليه من البعث وأحكامه المتفرعة عليه واستمرارهم على ذلك فإن كلمة حتى فى قوله تعالى ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة ﴾ غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم فإنه أبدى لاحد له ﴿ بغتة ﴾ البغت والبغتة مفاجأة الشيء بسرعة من غير شعور به يقال بغته بغتا وبغتة أى فجأة وانتصابها إما على أنها مصدر واقع موقع الحال من فاعل جاءتهم أى مباغتة أو من مفعوله أى مبغوتين وإما على أنها مصدر مؤكد على غير الصدر فإن جاءتهم فى معنى بغتتهم كقولهم أتيته ركضا أو مصدر مؤكد لفعل محذوف وقع حالا من فاعل جاءتهم أى جاءتهم الساعة تبغتهم بغتة .

﴿ قالوا ﴾ جواب إذا ﴿ ياحسرتنا ﴾ تعالى فهذا أوانك والحسرة شدة الندم وهذا التحسر وأن كان يعتريهم عند الموت لكن لما كان ذلك من مبادى الساعة سمى باسمها ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : من مات فقد قامت قيامته أو جعل مجيء الساعة بعد الموت كالواقع بغير فترة لسرعته ﴿ على ما فرطنا فيها ﴾ أى على تفريطنا فى شأن الساعة وتقصيرنا فى مراعاة حقها والاستعداد لها بالإيمان بها واكتساب الأعمال الصالحة كما فى قوله تعالى (على ما فرطت فى جنب الله) وقيل الضمير للحياة الدنيا وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة والتفريط التقصير فى الشيء مع القدرة على فعله وقيل هو التضييع وقيل الفرط السبق ومنه الفارط أى السابق ومعنى فرط خلى السبق لغيره فالتضعيف فيه للسلب كما فى جلدت البعير وقوله تعالى .

﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ حال من فاعل قالوا فائدته الإيذان[1] بأن عذابهم ليس مقصورا على ماذكر من الحسرة على مافات وزال بل يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال والإيماء إلى أن تلك الحسرة من الشدة بحيث لاتزول ولا تنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات والسر فى ذلك

(١) فى ١٠ : الإشعار .

أن العذاب الروحانى أشد من الجسمانى نعوذ برحمة الله عز وجل منهما والوزر فى الأصل الحمل الثقيل سمى به الإثم والذنب لغاية ثقله على صاحبه وذكر الظهور كذكر الأيدى فى قوله تعالى ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ فإن المعتاد حمل الأثقال على الظهور كما أن المألوف هو الكسب بالأيدى والمعنى أنهم يتحسرون على مالم يعملوا من الحسنات ، والحال أنهم يحملون أوزار ماعملوا من السيئات ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ تذييل مقرر لما قبله وتكملة له أى بئس شيئا يزرونه وزرهم .

﴿ وما الحيوة الدنيا إلا لعب ولهو ﴾ لما حقق فيما سبق أن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يلقون فيها من الخطوب ما يلقون بين بعده حال تينك الحياتين فى أنفسهما ، واللعب عمل يشغل النفس ويفترها عما تنتفع به ، واللهو صرفها عن الجدال والهزل[1] ، والمعنى إما على حذف المضاف أو على جعل الحياة الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كما فى قول الخنساء :

* فإنما هى إقبال وإدبار *

أى وما أعمال الدنيا أى الأعمال المتعلقة بها من حيث هى هى أو وما هى من حيث إنها محل لكسب تلك الأعمال إلا لعب يشغل الناس ويلهيهم بما فيه من منفعة سريعة الزوال ولذة وشيكة الاضمحلال عما يعقبهم منفعة جليلة باقية ولذة حقيقية غير متناهية من الإيمان والعمل الصالح ﴿ وللدار الآخرة ﴾ التى هى محل الحياة الأخرى ﴿ خير للذين يتقون ﴾ الكفر والمعاصى لأن منافعها خالصة عن المضار ولذاتها غير منغصة بالآلام مستمرة على الدوام ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان والفاء للعطف على مقدر أى أتغفلون فلا تعقلون أو ألا تتفكرون فتعقلون وقرىء يعقلون على الغيبة .

﴿ قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون ﴾ استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن الذى يعتريه مما حكى عن الكفرة من الإصرار

(١) فى ط : عن الجدال الهزل . خطأ .

على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله عز وجل وأن ما يفعلون فى حقه فهو راجع إليه تعالى فى الحقيقة وأنه ينتقم منهم لا محالة أشد انتقام وكلمة قد لتأكيد العلم بما ذكر المفيد لتأكيد الوعيد كما فى قوله تعالى (قد يعلم ما أنتم عليه) وقوله تعالى (قد يعلم الله المعوقين) ونحوهما بإخراجها إلى معنى التكثير حسبما يخرج إليه ربما فى مثل قوله :

وإن تمس مهجور الفناء فربما   أقام به بعد الوفود وفود

جريا على سنن العرب عند قصد الإفراط فى التكثير تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندى وعنده مقانب جمة يريد بذلك التمادى فى تكثير فرسانه ولكنه يروى إظهار براءته عن التزيد وإبراز أنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وعليه قوله عز وجل (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) وهذه طريقة إنما تسلك عند كون الأمر من الوضوح بحيث لا تحوم حوله شائبة ريب حقيقة كما فى الآيات الكريمة المذكورة أو ادعاء كما فى البيت وقوله :

* قد أترك القرن مصفرا أنامله *

وقوله :   * ولكنه قد يهلك المال نائله *

والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة تعلقه وهو متعد إلى اثنين وما بعده ساد مسدهما واسم إن ضمير الشأن وخبرها الجملة المفسرة له والموصول فاعل يحزنك وعائده محذوف أى الذى يقولونه وهو ما حكى عنهم من قولهم إن هذا إلا أساطير الأولين ونحو ذلك وقرىء ليحزنك من أحزن المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى .

﴿ فإنهم لا يكذبونك ﴾ تعليل لما يشعر به الكلام السابق من النهى عن الاعتداد بما قالوا لكن لا بطريق التشاغل عنه وعده هينا والإقبال التام على ما هو أهم منه من استعظام جحودهم بآيات الله عز وجل كما قيل فإنه مع كونه بمعزل من التسلية بالكلية بما يوهم كون حزنه عليه الصلاة والسلام لخاصة نفسه بل بطريق التسلى بما يفيده من بلوغه عليه الصلاة والسلام فى جلالة القدر ورفعة المحل والزلفى من الله عز وجل إلى حيث لا غاية وراءه حيث لم يقتصر

على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) بل نفى تكذيبهم عنه عليه الصلاة والسلام وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) إيذانا بكمال القرب واضمحلال شئونه عليه الصلاة والسلام فى شأن الله عز وجل نعم فيه استعظام لجناياتهم منبىء عن عظم عقوبتهم كأنه قيل لا تعتد به وكله إلى الله تعالى فإنهم فى تكذيبهم ذلك لا يكذبونك فى الحقيقة.

﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ أى ولكنهم بآياته تعالى يكذبون فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالرسوخ فى الظلم الذى [يعتبر][1] جحودهم هذا فن من فنونه ، والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ما أقدموا عليه من جحود آياته تعالى ، ويراد بالجحود فى مورد التكذيب للإيذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذى هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه كما فى قوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) وهو المعنى بقول من قال : إنه نفى ما فى القلب إثباته ، أو إثبات ما فى القلب نفيه ، والباء متعلقة بيجحدون ويقال جحد حقه وبحقه إذا أنكره وهو يعلمه وقيل هو لتضمين الجحود معنى التكذيب وأيا ما كان فتقديم الجار والمجرور للقصر وقيل المعنى فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بألسنتهم ، ويعضده ما روى من أن الأخنس بن شريق قال لأبى جهل يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس عندنا أحد غيرنا فقال له والله إن محمداً لصادق وما كذب قط ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ، فنزلت .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب فى شىء ولكنهم كانوا يجحدون وقيل

---

(١) سقطت من ط .

فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ولكنهم يجحدون بآيات الله كما يروى أن أبا جهل كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما نكذبك وإنك عندنا لصادق ولكنا نكذب ما جئتنا به فنزلت وكأن صدق الخبر عند الخبيث بمطابقة خبره لاعتقاده والأول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية وقرىء لا يكذبونك من الإكذاب فقيل كلاهما بمعنى واحد كأكثر وكثر وأنزل ونزل وهو الأظهر وقيل معنى أكذبه وجده كاذبا ونقل عن الكسائى أن العرب تقول كذبت الرجل أى نسبة الكذب إليه وأكذبته أى نسبت الكذب إلى ما جاء به لا إليه وقوله تعالى .

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك ﴾ افتنان فى تسليته عليه الصلاة والسلام فإن عموم البلية ربما يهون أمرها بعض تهوين وإرشاد له عليه الصلاة والسلام إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فى الصبر على ما أصابهم من أممهم من فنون الأذية وعدة ضمنية له عليه الصلاة والسلام بمثل ما منحوه من النصر وتصدير الكلام بالقسم لتأكيد التسلية وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ومن إما متعلقة بكذبت أو بمحذوف وقع صفة لرسل أى وبالله لقد كذبت من قبل تكذيبك رسل أولو شأن خطير وذوو عدد كثير أو كذبت رسل كانوا من زمان قبل زمانك ﴿ فصبروا على ما كذبوا ﴾ ما مصدرية وقوله تعالى ﴿ وأوذوا ﴾ عطف على كذبوا داخل فى حكمه فانسبك منهما مصدران من المبنى للمفعول أى فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم فتأس بهم واصطبر على ما نالك من قومك والمراد بإيذائهم إما عين تكذيبهم وإما ما يقارنه من فنون الإيذاء لم يصرح به ثقة باستلزام التكذيب إياه غالباً وأيا ما كان ففيه تأكيد للتسلية وقيل عطف على صبروا وقيل على كذبت وقيل هو استئناف وقوله تعالى ﴿ حتى أتاهم نصرنا ﴾ غاية للصبر وفيه إيذان بأن نصره تعالى إياهم أمر مقرر لا مرد له وأنه متوجه إليهم لابد من إتيانه البتة والالتفات إلى نون العظمة لإبراز الاعتناء بشأن النصر وقوله تعالى :

﴿ ولا مبدل لكلمات الله ﴾ اعتراض مقرر لما قبله من إتيان نصره إياهم

والمراد بكلماته تعالى ما ينبىء عنه قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) وقوله تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) من المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام الدالة على نصرة رسول الله أيضا لا نفس الآيات المذكورة ونظائرها ، فإن الإخبار بعدم تبدلها إنما يفيد عدم تبدل المواعيد الواردة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة دون المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام ويجوز أن يراد بكلماته تعالى جميع كلماته التى من جملتها تلك المواعيد الكريمة ويدخل فيها المواعيد الكريمة ويدخل فيها المواعيد الواردة فى حقه عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا والالتفات إلى الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية من موجبات أن لا يغالبه أحد فى فعل من الأفعال ولا يقع منه تعالى خلف فى قول من الأقوال وقوله تعالى :

﴿ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ جملة قسمية[1] جىء بها لتحقيق مامنحوا من النصر وتأكيد ما فى ضمنه من الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لتقرير جميع ما ذكر من تكذيب الأمم وما ترتب عليه من الأمور والجار والمجرور فى محل الرفع على أنه فاعل إما باعتبار مضمونه أى بعض نبأ المرسلين كما مر فى تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله) الآية وأيا ما كان فالمراد بنبئهم عليهم السلام على الأول نصره تعالى إياهم بعد اللتيا والتى وعلى الثانى جميع ما جرى بينهم وبين أممهم على ما ينبىء عنه قوله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا) الآية وقيل فى محل النصب على الحالية من (الضمير)[2] المستكن فى جاء العائد إلى ما يفهم من الجملة السابقة أى ولقد جاءك هذا الخبر كائنا من نبأ المرسلين ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم ﴾ كلام مستأنف مسوق لتأكيد إيجاب الصبر المستفاد من التسلية ببيان أنه أمر لا محيد عنه أصلا أى إن كان عظم عليك وشق إعراضهم عن الإيمان بما جئت به من القرآن الكريم حسبما يفصح عنه ما حكى عنهم من

(١) فى ١١ جملة قسم . (٢) سقطت من ط .

تسميتهم له أساطير الأولين وتنائيهم عنه ونهيهم الناس عنه : وقيل إن الحرث ابن عامر بن نوفل بن عبد مناف أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى محضر من قريش،فقال:يامحمد ائتنا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل وأنا أصدقك فأبى الله يأتى بآية مما اقترحوا ، فأعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك عليه لما أنه عليه الصلاة والسلام كان شديد الحرص على إيمان قومه، فكان إذا سألوا آية يود أن ينزلها الله تعالى طمعاً فى إيمانهم فنزلت فقوله تعالى إعراضهم مرتفع بكبر وتقديم الجار والمجرور عليه لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، والجملة فى محل النصب على أنها خبر لكان مفسرة لاسمها الذى هو ضمير الشأن ولا حاجة إلى تقدير قد وقيل اسم كان إعراضهم وكبر جملة فعلية فى محل النصب على أنها خبر لها مقدم على اسمها لأنه فعل رافع لضمير مستتر كما هو المشهور وعلى التقديرين فقوله تعالى .

﴿فإن استطعت﴾ الخ شرطية أخرى محذوفة الجواب وقعت جوابا للشرط الأول والمعنى إن شق عليك إعراضهم عن الإيمان بما جئت به من البينات وعدم وعدهم لها من قبيل الآيات وأحببت أن تجيبهم إلى ما سألوه اقتراحا فإن استطعت ﴿ أن تبتغى نفقاً ﴾ أى سربا ومنفذا ﴿ فى الأرض ﴾ تنفذ فيه إلى جوفها ﴿ أو سلما ﴾ أى مصعدا ﴿ فى السماء ﴾ تعرج به فيها ﴿ فتأتيهم ﴾ منهما ﴿ بآية ﴾ مما اقترحوه فافعل وقد جوز أن يكون ابتغاؤهما نفس الإتيان بالآية فالفاء فى فتأتيهم حينئذ تفسيرية وتنوين آية للتفخيم أى فإن استطعت أن تبتغيهما فتجعل ذلك آية لهم فافعل والظرفان متعلقان بمحذوفين هما نعتان لنفقا وسلما والأول لمجرد التأكيد إذ النفق لا يكون إلا فى الأرض أو بتبتغى وقد جوز تعلقهما بمحذوف وقع حالا من فاعل تبتغى نفقا كائنا أنت فى الأرض أوسلما كائنا فى السماء وفيه من الدلالة على تبالغ حرصه عليه الصلاة والسلام على إسلام قومه وتراميه إلى حيث لو قدر على أن يأتى بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لفعل رجاء لإيمانهم ما لا يخفى وإيثار الابتغاء على الاتخاذ ونحوه للإيذان بأن ما ذكر من النفق والسلم مما لا يستطاع ابتغاؤه فكيف باتخاذه .

﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ أى ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم على ما أنتم عليه من الهدى لفعله بأن يوفقهم للإتيان فيؤمنوا معكم ولكن لم يشأ لعدم صرف اختيارهم إلى جانب الهـــدى مع تمكنهم التام منه فى مشاهدتهم للآيات الداعية إليه لا أنه تعالى لم يوفقهم له مع توجههم إلى تحصيله وقيل لو شاء الله لجمعهم عليه بأن يأتيهم بآية ملجئة إليه ولكن لم يفعله لخروجه عن الحكمة .

وقوله تعالى ﴿ولا تكونن من الجاهلين﴾ نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان عليه من الحرص الشديد على إسلامهم والميل إلى إتيان ما يقترحونه من الآيات طمعاً فى إيمانهم ، مرتب على بيان عدم تعلق مشيئته تعالى بهدايتهم ، والمعنى وإذا عرفت أنه تعالى لم يشأ هدايتهم وإيمانهم بأحد الوجهين فلا تكونن بالحرص الشديد على إسلامهم أو الميل إلى نزول مقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شئونه[1] تعالى التى من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم ، أما اختيارا فلعدم توجههم إليه ، وأما اضطرارا فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار ، ويجوز أن يراد بالجاهلين على الوجه الثانى المقترحون ويراد بالنهى منعه عليه الصلاة والسلام من المساعدة على اقتراحهم ، وإيرادهم بعنوان الجهل دون الكفر ونحوه لتحقيق مناط النهى الذى هو الوصف الجامع بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم .

﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ تقرير لما مر من أن على قلوبهم أكنة مانعة من الفقه ، وفى آذانهم وقرا حاجزا من السماع ، وتحقيق لكونه بذلك من قبيل الموتى لا يتصور منهم الإيمان البته والاستجابه الإجابه المقارنه للقبول ، أى إنما يقبل دعوتك إلى الإيمان الذين يسمعون ما يلقى إليهم سماع تفهم وتدبر دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى (إنك لا تسمع الموتى)

(١) فى ٣٠ : باسرار شئونه .

وقوله تعالى ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ تمثيل لاختصاصه تعالى بالقدره على توفيقهم للإيمان باختصاصه تعالى بالقدره على بعث الموتى من القبور ، وقيل بيان لاستمرارهم على الكفر وعدم إقلاعهم عنه أصلا على أن الموتى من القبور .

وقيل : بيان مستعار للكفره بناء على تشبيه جهلهم بموتهم ، أى وهؤلاء الكفره يبعثهم الله تعالى من قبورهم ﴿ ثم إليه يرجعون ﴾ للجزاء فحينئذ يستجيبون وأما قبل ذلك فلا سبيل إليه وقرىء يرجعون على البناء للفاعل من رجع رجوعا والمشهور أوفى بحق المقام لإنبائه عن كون مرجعهم إليه تعالى بطريق الاضطرار .

﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ حكاية لبعض آخر من أباطيلهم بعد حكاية ما قالوا فى حق القرآن الكريم وبيان مايتعلق به والقائلون رؤساء قريش وقيل الحرث بن عامر بن نوفل وأصحابه ولقد بلغت بهم الضلالة والطغيان إلى حيث لم يقتنعوا بما شاهدوا من البينات التى تخر لها صم الجبال حتى اجترأوا على ادعاء أنها ليست من قبيل الآيات وإنما هى ما اقترحوه من الخوارق الملجئة أو المعقبة للعذاب كما قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) الآية والتنزيل بمعنى الإنزال كما ينبىء عنه القراءة بالتخفيف فيما سيأتى وما يفيده التعرض لعنوان ربوبيته تعالى له عليه الصلام والسلام من الإشعار بالعلية إنما هو بطريق التعريض بالتهكم من جهتهم وإطلاق الآية فى قوله تعالى ﴿ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ﴾ مع أن المراد بها ما هو من الخوارق المذكورة لا آية ما من الآيات لفساد المعنى مجاراة معهم على زعمهم ويجوز أن يراد بها آية موجبة لهلاكهم كانزال ملائكة العذاب ونحوه على أن تنوينها للتفخيم والتهويل كما أن إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة مع مافيه من الإشعار بعلة القدرة الباهرة والاقتصار فى الجواب على بيان قدرته تعالى على تنزيلها مع أنها ليست فى حيز الإنكار للإيذان بأن عدم تنزيله إياها مع قدرته عليه لحكمة بالغة يجب معرفتها وهم عنها غافلون كما ينبىء عنه الاستدراك بقوله

تعالى ﴿ ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ أى ليسوا من أهل العلم على أن المفعول مطروح بالكلية أو لايعلمون شيئاً على أنه محذوف مدلول عليه بقرينة المقام والمعنى أنه تعالى قادر على أن ينزل آية من ذلك أو آية أى آية ولكن أكثرهم لايعلمون فلا يدرون أن عدم تنزيلها مع ظهور قدرته عليه لما أن فى تنزيلها قلعا لأساس التكليف المبنى على قاعدة الاختيار أو استئصالا لهم بالكلية فيقترحونها جهلا ويتخذون عدم تنزيلها ذريعة إلى التكذيب وتخصيص عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال وإنما يفعلون مكابرة وعنادا .

شمول العلم الإلهى

وقوله تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض ﴾ الخ كلام مستأنف مسوق لبيان كمال قدرته عز وجل وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه تعالى قادر على تنزيل الآية وإنما لاينزلها محافظة على الحكم البالغة وزيادة من لتأكيد الاستغراق وهى متعلقة بمحذوف هو وصف لدابة مفيد لزيادة التعميم كأنه قيل ومافرد من أفراد الدواب يستقر فى قطر من أقطار الأرض وكذا زيادة الوصف فى قوله تعالى ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ مع مافيه من زيادة التقرير أى ولا طائر من الطيور يطير فى ناحية من نواحى الجو بجناحيه كما هو المشاهد المعتاد وقرىء ولا طائر بالرفع عطفا على محل الجار والمجرور كأنه قيل ومادابة ولا طائر ﴿ إلا أمم ﴾ أى طوائف متخالفة والجمع باعتبار المعنى كأنه قيل وما من دواب ولا طير إلا أمم ﴿ أمثالكم ﴾ أى كل أمة منها مثلكم فى أن أحوالها محفوظة وأمورها مقننة ومصالحها مرعية جارية على سنن السداد ومنتظمة فى سلك التقديرات الإلهية والتدبيرات الربانية ﴿ مافرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ يقال فرط فى الشىء أى ضيعه وتركه ، قال ساعدة ابن حوية :

* معه سقاء لا يفرط حمله *

أى لايتركه ولا يفارقه ويقال فى فرط الشىء أى أهمل ماينبغى أن يكون فيه وأغفله فقوله تعالى فى الكتاب أى فى القرآن على الأول ظرف لغو وقوله تعالى من شىء مفعول لفرطنا ومن مزيده للاستغراق أى ما تركنا فى القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التى من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغى ، وعلى الثانى مفعول للفعل ومن شىء فى موضع المصدر ،أى ماجعلنا الكتاب مفرطا فيه شيئاً من التفريط بل ذكرنا فيه كل مالا بد من ذكره ؛وأياً ما كان فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها ، وقيل الكتاب اللوح ، فالمراد بالاعتراض الإشارة إلى أن أحوال الأمم مستقصاة فى اللوح المحفوظ غير مقصورة على هذا القدر المجمل وقرىء فرطنا بالتخفيف .

وقوله تعالى ﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ بيان لأحوال الأمم المذكورة فى الآخرة بعد بيان أحوالها فى الدنيا وإيراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء لإجرائها مجراهم ، والتعبير عنها بالأمم[1] أى إلى مالك أمورهم يحشرون يوم القيامة كدأبكم لا إلى غيره فيجازيهم فينصف بعضهم حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجماء من القرناء وقيل حشرها موتها ويأباه مقام تهويل الخطب وتفظيع الحال .

وقوله تعالى : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ متعلق بقوله تعالى ما فرطنا فى الكتاب من شىء والموصول عبارة عن المعهودين فى قوله تعالى ومنهم من يستمع إليك الآيات ومحله الرفع على الإبتداء خبره مابعده أى أوردنا فى القرآن جميع الأمور المهمة وأزحنا به العلل والأعذار والذين كذبوا بآياتنا التى هى منه ﴿ صم ﴾ لايسمعونها سمع تدبر وفهم فلذلك يسمونها أساطير الأولين ولا يعدونها من الآيات ويقترحون غيرها ﴿ وبكم ﴾ لا يقدرون على أن ينطقوا بالحق ولذلك لا يستجيبون دعوتك بها وقوله تعالى : (صم بكم)

(١) فى ١١ : عنهم بالأمم .

إما متعلق بمحذوف وقع حالا من المستكن فى الخبر كأنه قيل ضالون كائنين فى الظلمات أو صفة لبكم أى بكم كائنون فى الظلمات والمراد به بيان كمال عراقتهم فى الجهل وسوء الحال فإن الأصم الأبكم إذا كان بصيراً ربما يفهم شيئاً بإشارة غيره وإن لم يفهمه بعبارته وكذا يشعر غيره بما فى ضميره بالإشارة وإن كان معزولا عن العبارة وأما إذا كان مع ذلك أعمى أو كان فى الظلمات فينسد عليه باب الفهم والتفهيم بالكلية وقوله تعالى ﴿ من يشأ الله يضلله ﴾ تحقيق للحق وتقرير لما سبق من حالهم ببيان أنهم من أهل الطبع لا يتأتى منهم الإيمان أصلا فمن مبتدأ خبره ما بعده ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وانتفاء الغرابة فى تعلقها به أى من يشأ الله إضلاله أى أن يخلق فيه الضلال يضلله أى يخلقه فيه ولكن لا ابتداء بطريق الجبر من غير أن يكون له دخل ما فى ذلك بل عند صرف اختياره إلى كسبه وتحصيله وقس عليه قوله تعالى ﴿ ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ لا يضل من ذهب إليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه .

حجة وعاقبة

﴿ قل أرأيتكم ﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبكتهم ويلقمهم الحجر بما لا سبيل لهم إلى النكير والكاف حرف جيء به لتأكيد الخطاب لا محل له من الإعراب ومبنى التركيب وإن كان على الاستخبار عن الرؤية قلبية كانت أو بصرية لكن المراد به الاستخبار عن متعلقها أى أخبرونى ﴿ إن أتاكم عذاب الله ﴾ حسبما أتى الأمم السابقة من أنواع العذاب الدنيوى ﴿ أو أتتكم الساعة ﴾ التى لا محيص عنها البتة ﴿ أغير الله تدعون ﴾ هذا مناط الاستخبار ومحط التبكيت وقوله تعالى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ متعلق بأرأيتكم مؤكدة للتبكيت كاشف عن كذبهم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى إن كنتم صادقين فى أن أصنامكم آلهة كما أنها دعواكم المعروفة أو إن كنتم قوما صادقين فأخبرونى أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله الخ فإن صدقهم بأى معنى كان من موجبات أخبارهم بدعائهم غيره سبحانه وأما جعل

الجواب ما يدل عليه قوله تعالى أغير الله تدعون أعنى فادعوه على أن الضمير لغير الله فمخل بجزالة النظم الكريم كيف لا والمطلوب منهم إنما هو الإخبار بدعائهم غيره تعالى عند إتيان ما يأتى لا نفس دعائهم إياه قوله تعالى ﴿ بل إياه تدعون ﴾ عطف على جملة منفية ينبىء عنها الجملة التى تعلق بها الاستخبار إنباء جليا كأنه قيل لا غيره تعالى تدعون بل إياه تدعون وقوله تعالى ﴿ فيكشف ما تدعون إليه ﴾ أى إلى كشفه عطف على تدعون أى فيكشفه إثر دعائكم وقوله تعالى ﴿ إن شاء ﴾ أى إن شاء كشفه لبيان أن قبول دعائهم غير مطرد بل هو تابع لمشيئته المبنية على حكم خفية قد استأثر الله تعالى بعلمها[1] فقد يقبله كما فى بعض دعواتهم المتعلقة بكشف العذاب الدنيوى وقد لا يقبله كما فى بعض آخر منها وفى جميع ما يتعلق بكشف العذاب الأخروى الذى من جملته الساعة وقوله تعالى ﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ أى تتركون ما تشركونه به تعالى من الأصنام تركا كليا عطف على تدعون أيضاً وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما وتأخر الكشف عنهما لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيذان بترتبه على الدعاء خاصة وقوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن منهم من لا يدعو الله تعالى عند إتيان العذاب أيضا لتماديهم فى الغى والضلال لا يتأثرون بالزواجر التكوينية كما لا يتأثرون بالزواجر التنزيلية وتصديره بالجملة القسمية لإظهار مزيد الاهتمام بمضمونه ومفعول أرسلنا محذوف لما أن مقتضى المقام بيان حال المرسل إليهم لا حال المرسلين أى وبالله لقد أرسلنا رسلا ﴿ إلى أمم ﴾ كثيرة ﴿ من قبلك ﴾ أى كائنة من زمان قبل زمانك ﴿ فأخذناهم ﴾ أى فكذبوا رسلهم فأخذناهم ﴿ بالبأساء ﴾ أى بالشدة والفقر ﴿ والضراء ﴾ أى الضرر والآفات وهما صيغتا تأنيث لا مذكر لهما ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ أى لكى يدعوا الله تعالى فى كشفها بالتضرع والتذلل ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ أى فلم

---

(١) فى ١١ : قد استأثر الله بها.

يتضرعوا حينئذ مع تحقق ما يستدعيه ﴿ ولكن قست قلوبهم ﴾ استدراك عما قبله أى فلم يتضرعوا إليه تعالى برقة القلب والخضوع مع تحقق ما يدعوهم إليه ولكن ظهر منهم نقيضه حيث قست قلوبهم أى استمرت على ما هى عليه من القساوة أو ازدادت قساوة كقولك لم يكرمنى إذ جئته ولكن أهاننى ﴿ وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ من الكفر والمعاصى فلم يخطروا ببالهم أن ما اعتراهم من البأساء والضراء ما اعتراهم إلا لأجله وقيل الاستدراك لبيان أنه لم يكن لهم فى ترك التضرع عذر سوى قسوة قلوبهم والإعجاب بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم وقوله تعالى .

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ عطف على مقدر ينساق إليه النظم الكريم أى فانهمكوا فيه ونسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء فلما نسوه ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شىء ﴾ من فنون النعماء على منهاج الاستدراج لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال « مكر بالقوم ورب الكعبة » وقرىء فتحنا بالتشديد للتكثير وفى ترتيب الفتح على النسيان المذكور إشعار بأن التذكر فى الجملة غير خال عن النفع وحتى فى قوله تعالى ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية كما فى قوله تعالى (حتى إذا جاء أمرنا) الآية ونظائره وهى مع ذلك غاية لقوله تعالى (فتحنا) أو لما يدل هو عليه كأنه قيل : ففعلوا ما فعلوا حتى إذا اطمأنوا بما أتيح لهم وبطروا وأشروا ﴿ أخذناهم بغتة ﴾ أى نزل بهم عذابنا فجأة ليكون أشد عليهم وقعا وأفظع هولا ﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ متحسرون غاية الحسرة آيسون من كل خير واجمون وفى الجملة الاسمية دلالة على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعة .

﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ أى آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد من دبره دبرا أى تبعه ووضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم فإن هلاكهم بسبب ظلمهم الذى هو وضع الكفر موضع الشكر وإقامة المعاصى مقام الطاعات ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ على ما جرى عليهم من

النكال ، فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث أنه تخليص لأهل الأرض من شئوم عقائدهم الفاسدة ، وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة مستجلبة للحمد ، لاسيما مع ما فيه من إعلاء كلمة الحق التى نطقت بها رسلهم عليهم السلام .

﴿ قل أرأيتم ﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتكرير التبكيت عليهم وتثنية الإلزام بعد تكملة الإلزام الأول ببيان أنه أمر مستمر لم يزل جاريا فى الأمم ، وهذا أيضاً استخبار عن متعلق الرؤية وإن كان بحسب الظاهر استخبارا عن نفس الرؤية ﴿ إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ بأن أصمكم وأعماكم بالكلية ﴿ وختم على قلوبكم ﴾ بأن غطى عليها بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم أصلا وتصيرون مجانين[1] ويجوز أن يكون الختم عطفا تفسيريا للأخذ المذكور فإن السمع والبصر طريقان للقلب منهما يرد ما يرده من المدركات فأحدهما سد بابه بالكلية وهو السر فى تقديم أخذهما على ختمها ، وأما تقديم السمع على الإبصار فلأنه مورد الآيات القرآنية ، وإفراده لما أن أصله مصدر وقوله تعالى ﴿ من إله ﴾ مبتدأ وخبر ومن استفهامية وقوله تعالى ﴿ غير الله ﴾ صفة للخبر وقوله تعالى ﴿ يأتيكم به ﴾ أى بذلك على أن الضمير مستعار لاسم الإشارة ، أو بما أخذ وختم عليه صفة أخرى له والجملة متعلق الرؤية ومناط الاستخبار أى أخبرونى إن سلب الله مشاعركم من إله غيره تعالى يأتيكم بها وقوله تعالى ﴿ أنظر كيف نصرف الآيات ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة أى أنظر كيف نكررها ونقررها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب تارة بترتيب المقدمات العقلية وتارة بطريق الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير ﴿ ثم هم يصدفون ﴾ عطف على نصرف داخل فى حكمه وهو العمدة فى التعجيب وثم لاستبعاد صدوفهم أى إعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للإقبال عليها .

---

(١) فى ١١ : حتى تصيروا مجانين .

﴿ قل أرأيتكم ﴾ تبكيت آخر لهم بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم ﴿ إن أتاكم عذاب الله ﴾ أى عذابه العاجل الخاص بكم كما أتى من قبلكم من الأمم ﴿ بغتة ﴾ أى فجأة من غير أن يظهر منه مخايل الإتيان وحيث تضمن هذا معنى الخفية بقوله تعالى ﴿ أوجهرة ﴾ أى بعد ظهور أماراته وعلائمة وقيل ليلا أو نهارا كما فى قوله تعالى (بياتا أو نهارا) لما أن الغالب فيما أتى ليلا البغتة وفيما أتى نهارا الجهرة وقرىء بغتة أو جهرة وهما فى موضع المصدر أى إتيان بغتة أو إتيان جهرة ، وتقديم البغتة لكونها أهول وأفظع وقوله تعالى ﴿ هل يهلك ﴾ متعلق الاستخبار ، والاستفهام للتقرير أى قل لهم تقريراً لهم باختصاص الهلاك بهم أخبرونى إن أتاكم عذابه تعالى حسبما تستحقونه هل يهلك بذلك العذاب إلا أنتم أى هل يهلك غيركم ممن لا يستحقه وإنما وضع موضعه ﴿ إلا القوم الظالمون ﴾ تسجيلا عليهم بالظلم وإيذانا بأن مناط إهلاكهم ظلمهم الذى هو وضعهم الكفر موضع الإيمان وقيل المراد بالظالمين الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا قال الزجاج هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم ويأباه تخصيص الإتيان بهم وقيل الاستفهام بمعنى النفى فمتعلق الاستخبار حينئذ محذوف كأنه قيل أخبرونى إن أتاكم عذابه تعالى بغتة أو جهرة ماذا يكون الحال ؟ ثم قيل بيانا لذلك ما يهلك إلا القوم الظالمون أى ما يهلك بذلك[1] العذاب الخاص بكم إلا أنتم فمن قيد الهلاك بهلاك التعذيب والسخط لتحقيق الحصر بإخراج غير الظالمين لما أنه ليس بطريق التعذيب والسخط بل بطريق الإثابة ورفع الدرجة فقد أهمل ما يجديه واشتغل بما لا يعنيه وأخل بجزالة النظم الكريم وقرىء هل يهلك من الثلاثى .

وظائف الرسالة

﴿ وما نرسل المرسلين ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان وظائف منصب

---

(١) فى ١٠ : لا يهلك بذلك .

الرسالة على الإطلاق وتحقيق ما فى عهدة الرسل عليهم السلام وإظهار أن ما يقترحه الكفرة عليه عليه السلام ليس مما يتعلق بالرسالة أصلا وصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الإلهية وقوله تعالى: ﴿ إلا مبشرين ومنذرين ﴾ حالان مقدرتان من المرسلين أى ما نرسلهم إلا مقدرا تبشيرهم وإنذارهم ففيهما معنى العلة الغائية قطعا أى ليبشروا قومهم بالثواب على الطاعة وينذروهم بالعقاب على المعصية أى ليخبروهم بالخبر السار والخبر الضار دنيويا كان أو أخرويا من غير أن يكون لهم دخل ما فى وقوع المخبر به أصلا وعليه يدور القصر وإلا لزم أن لا يكون بيان الشرائع والأحكام من وظائف الرسالة والفاء فى قوله تعالى ﴿ فمن آمن وأصلح ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ومن موصولة والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ لشبه الموصول بالشرط أى لا خوف عليهم من العذاب الذى أنذروه دنيويا كان أو أخرويا ولا هم يحزنون بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والآجل وتقديم نفى الخوف على نفى الحزن لمراعاة حق المقام وجمع الضمائر الثلاثة الراجعة إلى من اعتبار معناها كما أن أفراد الضميرين السابقين باعتبار لفظهما أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما تقرر فى موضعه من أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ألا يرى أن الجملة الإسمية تدل بمعونة المقام على استمرار الثبوت فإذا دخل عليها حرف النفى دلت على استمرار الانتفاء لا على انتفاء الاستمرار كذلك المضارع الخالى عن حرف النفى يفيد استمرار الثبوت فإذا دخل عليه حرف النفى يفيد استمرار الانتفاء لا انتفاء الاستمرار ولا بعد ذلك ، فإن قولك ما زيدا ضربت مفيد لاختصاص النفى لا نفى الاختصاص ، كما بين فى محله ، وقوله عز وجل ﴿ والذين كذبوا ﴾ عطف على من آمن داخل فى حكمه وقوله تعالى : ﴿ بآياتنا ﴾ إشاره إلى أن ما ينطق به الرسل عليهم السلام عند التبشير والإنذار ويبلغونه إلى الأمم آياته

تعالى ، وأن من آمن به فقد آمن بآياته تعالى ، ومن كذب به فقد كذب بها ، وفيه من الترغيب فى الإيمان والتحذير عن تكذيبه مالا يخفى والمعنى ما نرسل المرسلين إلا ليخبروا أممهم من جهتنا بما سيقع منا من الأمور السارة والضارة لاليوقعوها استقلالا من تلقاء أنفسهم ، أو استدعاء من قبلنا ، حتى يقترحوا ، فإذا كان الأمر كذلك فمن آمن بما أخبروا به من قبلنا تبشيراً أو إنذارا فى ضمن آياتنا ، وأصلح ما يجب إصلاحه من أعماله ، أو دخل فى الصلاح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا التى بلغوها عند التبشير والإنذار ﴿ يمسهم العذاب ﴾ أى العذاب الذى أنذروه عاجلا ، أو آجلا أو حقيقة العذاب وجنسه المنتظم له انتظاما أوليا ﴿ بما كانو يفسقون ﴾ أى بسبب فسقهم المستمر الذى هو الإصرار على الخروج عن التصديق والطاعة .

﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ﴾ استئناف مبنى على ما أسس من السنة الإلهية فى شأن إرسال الرسل وإنزال الكتب مسوق لإظهار تبرئته صلى الله عليه وسلم عما يدور عليه مقترحاتهم ، أى قل للكفرة الذين يقترحون عليك تارة تنزيل الآيات وأخرى غير ذلك لا أدعى أن خزائن مقدوراته تعالى مفوضة إلى أتصرف فيها كيفما أشاء استقلالا أو استدعاء ، حتى تقترحوا على تنزيل الآيات أو إنزال العذاب ، أو قلب الجبال ذهبا ، أو غير ذلك مما لا يليق بشأنى ، وجعل هذا تبرؤاً عن دعوى الإلهية مما لا وجه له قطعا وقوله تعالى ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ عطف على محل عندى خزائن الله ، أى لا أدعى أيضا أنى أعلم الغيب من أفعاله تعالى حتى تسألونى عن وقت الساعة أو وقت نزول العذاب أو نحوهما ﴿ ولا أقول لكم إنى ملك ﴾ حتى تكلفونى من الأفاعيل الخارقة للعادات مالا يطيق[1] البشر من الرقى فى السماء ونحوه ، أو تعدوا عدم اتصافى بصفاتهم قادحا فى أمرى كما ينبىء عنه قولهم (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) والمعنى إنى لا أدعى شيئا من هذه

---

(١) فى ط ما لا يطيق به .

الأشياء الثلاثة حتى تقترحوا على ما هو من آثارها وأحكامها وتجعلوا عدم إجابتى إلى ذلك دليلا على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التى لا تعلق لها بشىء مما ذكر قطعا بل إنما هى عبارة عن تلقى الوحى من جهة الله عز وجل ، والعمل بمقتضاه فحسب ، حسبما ينبىء عنه قوله تعالى

﴿إن أتبع إلا يوحى﴾ لا على معنى تخصيص اتباعه صلى الله عليه وسلم بما يوحى إليه دون غيره بتوجيه القصر إلى المفعول بالقياس إلى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر إلى ما يتعلق بالفعل باعتبار النفى فى الأصل ، والإثبات فى القيد ، بل على معنى تخصيص حاله صلى الله عليه وسلم باتباع ما يوحى إليه بتوجيه القصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما يغره من الأفعال ، لكن لا باعتبار النفى والإثبات معا فى خصوصية ، فإن ذلك غير ممكن قطعا ، بل باعتبار النفى فيما يتضمنه من مطلق الفعل والإثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص ، فإن كل فعل من الأفعال الخاصة كنصر مثلا ينحل عند التحقيق إلى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل وإلى معنى خاص يقومه[1] فإن معناه فعل النصر يرشدك إلى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الإعطاء والمنع ، فمورد القصر فى الحقيقة ما يتعلق بالفعل بتوجيه النفى إلى الأصل والإثبات إلى القيد ، كأنه قيل : ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلى من غير أن يكون لى مدخل ما فى الوحى أو فى الموحى بطريق الاستدعاء ، أو بوجه آخر من الوجوه أصلا ،

﴿قل هل يستوى الأعمى والبصير﴾ مثل للضال والمهتدى على الإطلاق والاستفهام إنكارى والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ومن يعلمها وفيه من الإشعار بكمال ظهورها ومن التنفير عن الضلال والترغيب فى الاهتداء ما لا يخفى ، وتكرير الأمر لتثنية التبكيت وتأكيد الإلزام وقوله تعالى ﴿أفلا تتفكرون﴾ تقريع وتوبيخ داخل تحت الأمر ، والفاء للعطف على

---

(١) فى ١١ : يقوم به

مقدر يقتضيه المقام ، أى ألا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون فيه ، أو أتسمعون فلا تتفكرون فيه ، فمناط التوبيخ فى الأول عدم الأمرين معا ، وفى الثانى عدم التفكر مع تحقق ما يوجبه .

﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ بعد ما حكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن من الكفرة قوما لا يتعظون بتصريف الآيات الباهرة ، ولا يتأثرون بمشاهدة المعجزات القاهرة ، قد أيفت مشاعرهم بالكلية ، والتحقوا بالأموات ، وقرر ذلك بأن كرر عليهم من فنون التبكيت والإلزام ما يلقمهم الحجر أى إلقام فأبوا إلا الإباء والنكير ، وما نجع فيهم عظة ولا تذكير ، وما أفادهم الإنذار إلا إصرار على الإنكار ، أمر عليه الصلاة والسلام بتوجيه الإنذار إلى من يتوقع منهم التأثر فى الجملة وهم المجوزون منهم للحشر على الوجه الآتى ، سواء كانوا جازمين بأصله كأهل الكتاب وبعض المشركين المعترفين بالبعث ، المترددين فى شفاعة آبائهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالأولين أو فى شفاعة الأصنام كالآخرين أو مترددين فيهما معا كبعض الكفرة الذين يعلم من حالهم أنهم إذا سمعوا بحديث البعث يخافون أن يكون حقا ، وأما المنكرون للحشر رأسا والقائلون به القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الأصنام فهم خارجون عن أمر (١) بإنذارهم وقد قيل هم المفرطون فى الأعمال من المؤمنين ، ولا يساعده سباق النظم الكريم ولا سياقه ، بل فيه ما يقضى باستحالة صحته كما ستقف عليه والضمير المجرور لما يوحى أو لما دل هو عليه من القرآن والمفعول الثانى للإنذار إما العذاب الأخروى المدلول عليه بما فى حيز الصلة وإما مطلق العذاب الذى ورد به الوعيد والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة المالكية المطلقة والتصرف الكلى لتربية المهابة وتحقيق المخافة وقوله تعالى .

﴿ ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ﴾ فى حيز النصب على الحالية من ضمير يحشروا ، ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من اسم ليس ، لأنه فى الأصل

---

(١) فى ط : من أمر .

صفة له فلما قدم عليه انتصب حالا ، خلا أن الحال الأولى لإخراج الحشر الذى لم يقيد بها عن حيز الخوف ، وتحقيق أن ما نيط به الخوف هو الحشر على تلك الحالة لا الحشر كيفما كان ، ضرورة أن المعترفين به الجازمين بنصرة غيره تعالى بمنزلة المنكرين له فى عدم الخوف الذى عليه يدور أمر الإنذار ، وأما الحال الثانية فليست لإخراج الولى الذى لم يقيد بها عن حيز الانتفاء لفساد المعنى لاستلزام ثبوت ولاية تعالى لهم كما فى قوله تعالى (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) بل لتحقيق مدار خوفهم وهو فقدان ما علقوا به رجاءهم ، وذلك إنما هو ولاية غيره سبحانه وتعالى فى قوله تعالى (ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء) والمعنى أنذر به الذين يخافون أن يحشروا غير منصورين من جهة أنصارهم على زعمهم ، ومن هذا اتضح ألا سبيل إلى كون المراد بالخائفين المفرطين من المؤمنين ، إذ ليس لهم ولى سواه تعالى ليخافوا الحشر بدون نصرته وإنما الذين يخافون الحشر بدون نصرته عز وجل وقوله تعالى ﴿ لعلهم يتقون ﴾ تعليل للأمر أى أنذرهم لكى يتقوا[1] الكفر والمعاصى أو حال من ضمير الأمر ، أى أنذرهم راجيا تقواهم أو من الموصول أى أنذرهم مرجوا منهم التقوى .

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ لما أمر صلى الله عليه وسلم بإنذار المذكورين لينتظموا فى سلك المتقين نهى صلى الله عليه وسلم عن كون ذلك بحيث يؤدى إلى طردهم . روى أن رؤساء من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو طردت هؤلاء الأعبد وأرواح جبابهم[2] يعنون فقراء المسلمين كعمار وصهيب وخباب وسلمان وأضرابهم رضى الله تعالى عنهم جلسنا إليك وحادثناك . فقال صلى الله عليه وسلم : « ما أنا بطارد المؤمنين » فقالوا : فأقمهم عنا إذا جئنا ، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت ، قال صلى الله عليه

---

(١) فى ١٠ : وأو ، ليتقوا

(٢) أرواح جمع ريح . وجباب جمع جبة : والمراد التأذى من روائح ملابسهم لفقرهم .

وسلم : «نعم» ضعما فى إيمانهم . وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال له عليه الصلاة والسلام : لو فعلت حتى ننظر إلى ما يصيرون ؟ وقيل : إن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدى والحرث بن نوفل وقرصة بن عبيد وعمرو ابن نوفل وأشراف بنى عبد مناف من أهل الكفر أتوا أبا طالب فقالوا : يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمدا يطرد موالينا وحلفاءنا وهم عبيدنا وعتقاؤنا كان أعظم فى صدورنا ، وأدنى لاتباعنا إياه ، فأتى أبو طالب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذى كلموه ، فقال عمر رضى الله عنه : لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذى يريدون ، وإلى ما يصيرون ؟ وقال سلمان وخباب : فينا نزلت هذه الآية ، جاء الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وعباس بن مرداس وذووهم من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم جالسا مع أناس من ضعفاء المؤمنين ، فلما رأوهم حوله صلى الله عليه وسلم حقروهم فأتوه عليه الصلاة والسلام فقالوا : يارسول الله لو جلست فى صدر المسجد ، ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم لجالسناك وحادثناك وأخذنا عنك فقال صلى الله عليه وسلم : «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا : فإنا نحب أن تجعل لنا معك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا مع هؤلاء الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعدمعهم إن شئت قال صلى الله عليه وسلم «نعم» قالوا فاكتب لنا كتابا فدعا بالصحيفة وبعلى رضى الله تعالى عنه ليكتب ونحن قعود فى ناحية ، فنزل جبريل عليه السلام بالآية ، فرمى عليه السلام بالصحيفة ودعانا فأتيناه وجلسنا عنده ، وكنا ندنو منه حتى تمس ركبنا[1] ركبته ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام ونزلت (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه وقال : «الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات» والمراد بذكر الوقتين الدوام وقيل صلاة الفجر والعصر وقرىء بالغدوة وقوله تعالى .

---

(١) فى ط : ركبتنا .

﴿ يريدون وجهه ﴾ حال من ضمير يدعون أى يدعونه تعالى مخلصين له فيه وتقييده به لتأكيد عليته للنهى ، فإن الإخلاص من أقوى موجبات الإكرام المضاد للطرد وقوله تعالى ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ اعتراض وسط بين النهى وجوابه تقريراً له ودفعا لما عسى يتوهم كونه مسوغا لطردهم من أقاويل الطاعنين فى دينهم ، كدأب قوم نوح حيث قالوا (ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) أى ما عليك شيء ما من حساب إيمانهم وأعمالهم الباطنة حتى تتصدى له وتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام ، وإنما وظيفتك حسبما هو شأن منصب النبوة اعتبار ظواهر الأعمال وإجراء الأحكام على موجبها ، وأما بواطن الأمور فحسابها على العليم بذات الصدور كقوله تعالى (إن حسابهم إلا على ربى) وذكر قوله تعالى ﴿ وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ مع أن الجواب قد تم بما قبله للمبالغة فى بيان انتفاء كون حسابهم عليه صلى الله عليه وسلم بنظمه فى سلك ما لا شبهة فيه أصلا ، وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام عليهم على طريقة قوله تعالى (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وأما ما قيل من أن ذلك لتنزيل الجملتين منزلة جملة واحدة لتأدية معنى واحد على نهج قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فغير حقيق بجلالة شأن التنزيل ، وتقديم عليك فى الجملة الأولى للقصد إلى إيراد النفى[1] على اختصاص حسابهم به صلى الله عليه وسلم إذهوا الداعى إلى تصديه عليه الصلاة والسلام لحسابهم ، وقيل الضمير للمشركين ، والمعنى : أنك لا تؤاخذ بحسابهم حتى يهمك إيمانهم ويدعوك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين ، وقوله تعالى ﴿ فتطردهم ﴾ جواب النفى وقوله تعالى ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ جواب النهى وقد جوز عطفه على فتطردهم على طريقة التسبيب وليس بذاك .

﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ﴾ استئناف مبين لما نشأ عنه ما سبق من النهى ، وذلك إشارة إلى مصدر ما بعده من الفعل الذى هو عبارة عن تقديمه

---

(١) فى ٣٤٠ : لإيراد النفى .

تعالى لفقراء المؤمنين فى أمر الدين بتوفيقهم للإيمان مع ما هم عليه فى أمر الدنيا من كمال سوء الحال ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه ، وبعد منزلته فى الكمال ، والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ، ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف،والتقدير فتنا بعضهم ببعض فتونا كائنا مثل ذلك الفتون ، ثم قدم على الفعل لإفادة القصر المفيد لعدم القصور فقط ، واعتبرت الكاف مقحمة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتا له . والمعنى ذلك الفتون الكامل البديع فتنا ، أى ابتلينا بعض الناس ببعضهم لافتونا غيره ، حيث قدمنا الآخرين فى أمر الدين على الأولين المتقدمين عليهم فى أمر الدنيا تقدما كليا . واللام فى قوله تعالى ﴿ ليقولوا ﴾ للعاقبة ، أى ليقول البعض الأولون مشيرين إلى الآخرين محقرين لهم نظرا إلى ما بينهما من التفاوت الفاحش الدنيوى ، وتعاميا عما هو مناط التفضيل حقيقة ﴿ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ بأن وفقهم لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده تعالى من دوننا ، ونحن المقدمون والرؤساء ، وهم العبيد والفقراء ، وغرضهم بذلك إنكار وقوع المن رأسا على طريقة قولهم (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) لا تحقير الممنون عليهم مع الاعتراف بوقوعه بطريق الاعتراض عليه تعالى وقوله تعالى ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ رد لقولهم ذلك وإبطال له ، وإشارة إلى أن مدار استحقاق الإنعام معرفة شأن النعمة والاعتراف بحق المنعم[1] والاستفهام لتقرير علمه البالغ بذلك أى أليس الله بأعلم بالشاكرين لنعمه حتى تستبعدوا إنعامه عليهم ، وفيه من الإشارة إلى أن أولئك الضعفاء عارفون بحق نعم الله تعالى فى تنزيل القرآن والتوفيق للإيمان شاكرون له تعالى على ذلك مع التعريض بأن القائلين بمعزل من ذلك كله ما لا يخفى .

﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ﴾ هم الذين نهى عن طردهم وصفوا بالإيمان بآيات الله عز وجل كما وصفوا بالمداومة على عبادته تعالى بالإخلاص

---

(١) فى ١٠ : بحق الشكر .

تنبيها على إحرازهم لفضيلتى العلم والعمل ، وتأخير هذا الوصف مع تقدمه على الوصف الأول لما أن مدار الوعد بالرحمة والمغفرة هو الإيمان بها كما أن مناط النهى عن الطرد فيما سبق هو المداومة على العبادة وقوله تعالى ﴿فقل سلام عليكم﴾ أمر بتبشيرهم بالسلامة عن كل مكروه بعد إنذار مقابليهم ، وقيل بتبليغ سلامه تعالى إليهم ، وقيل بأن يبدأهم بالسلام ، وقوله تعالى ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أى قضاها وأوجبها على ذاته المقدسة بطريق التفضل والإحسان بالذات لا بتوسط شيء ما أصلا تبشير لهم بسعة رحمته تعالى ، وبنيل المطالب إثر تبشيرهم بالسلامة من[1] المكارة وقبوله التوبة منهم وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافه إلى ضميرهم إظهار اللطف بهم والإشعار بعلة الحكم . وقيل : إن قوما جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا أصبنا ذنوبا عظاما ، فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا ، فنزلت وقوله تعالى ﴿أنه من عمل منكم سوءا﴾ بدل من الرحمة ، وقرىء بكسر إنه على أنه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف وقوله تعالى ﴿بجهالة﴾ حال من فاعل عمل أى عمله وهو جاهل بحقيقة ما يتبعه من المضار[2] والتقييد بذلك للإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدى إلى الضرر ، أو عمله متلبسا بجهالة ﴿ثم تاب من بعده﴾ أى من عمله أو بعد سفهه ﴿وأصلح﴾ أى ما أفسده تداركا وعزما على أن لا يعود إليه أبداً ﴿فأنه غفور رحيم﴾ أى فأمره أنه غفور رحيم وقرىء فإنه بالكسر على أنه استئناف وقع فى صدر الجملة الواقعة خبراً لمن على أنها موصولة أو جوابا لها عن أنها شرطية ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ قد مر آنفا ما فيه من الكلام أى هذا التفصيل البديع نفصل الآيات فى صفة أهل الطاعة وأهل الإجرام المصرين منهم والأولين ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ بتأنيث الفعل بناء على تأنيث الفاعل وقرىء بالتذكير بناء على تذكيره فإن السبيل مما يذكر

(١) فى ط . عن المكارة .

(٢) أو الجهل بما لله تعالى من مهابة وليس المراد جهالة حرمة العمل ، فلا جهل فى دار الإسلام .

ويؤنث وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور لم يقصد تعليله بها بعينها وإنما قصد الإشعار بأن له فوائد جمة من جملتها ما ذكر أو علة لفعل مقدر هو عبارة عن المذكور فيكون مستأنفا أى ولتستبين سبيلهم نفعل ما نفعل من التفصيل وقرىء بنصب السبيل على أن الفعل متعد وتاؤه للخطاب أى ولتستوضح أنت يا محمد سبيل المجرمين فتعاملهم بما يليق بهم .

عود إلى مناقشة المشركين

﴿ قل إنى نهيت ﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بالرجوع إلى مخاطبة المصرين على الشرك إثر ما أمر بمعاملة من عداهم من أهل الإنذار والتبشير بما يليق بحالهم أى قل لهم قطعا لأطماعهم الفارغة عن ركونه عليه الصلاة والسلام إليهم وبيانا لكون ما هم عليه من الدين هوى محضا وضلالا بحتا ، إنى صرفت وزجرت بما نصب لى من الأدلة وأنزل على من الآيات فى أمر التوحيد ﴿ أن أعبد الذين تدعون ﴾ أى عن عبادة ما تعبدونه ﴿ من دون الله ﴾ كائنا ما كان .

﴿ قل ﴾ كرر الأمر مع قرب العهد اعتناء بشأن المأمور به أو إيذانا باختلاف المقولين من حيث أن الأول حكاية لما من جهته تعالى من النهى والثانى حكاية لما من جهته صلى الله عليه وسلم من الانتهاء عما ذكر من عبادة مايعبدونه وإنما قيل ﴿ لا أتبع أهواءكم ﴾ استجهالا لهم وتنصيصا على أنهم فيما هم فيه تابعون لأهواء باطلة وليسوا على شىء مما ينطلق عليه الدين أصلا وإشعارا بما يوجب النهى والانتهاء وقوله تعالى ﴿ قد ضللت إذاً ﴾ استئناف مؤكد لانتهائه عما نهى عنه مقرر لكونهم فى غاية الضلال والغواية أى إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت وقوله تعالى ﴿ وما أنا من المهتدين ﴾ عطف على ما قبله والعدول إلى الجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار أى دوام النفى واستمراره لا نفى الدوام والاستمرار كما مر مرارا أى أنا فى شىء من الهدى حين أكون فى عدادهم وقوله تعالى .

﴿ قل إنى على بينة ﴾ تحقيق للحق الذى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان لاتباعه إياه إثر إبطال الباطل الذى عليه الكفرة وبيان عدم اتباعه له

والبينة الحجة الواضحة التى تفصل بين الحق والباطل والمراد بها القرآن والوحى وقيل هى الحجج العقلية أو ما يعمها ولا يساعده المقام والتنوين للتفخيم وقوله تعالى ﴿ من ربى ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لبينة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من التشريف ورفع المنزلة مالا يخفى وقو تعالى ﴿ وكذبتم به ﴾ إما جملة مستأنفة أو حالية بتقدير قد أو بدونه جىء بها لاستقباح مضمونها واستبعاد وقوعه مع تحقق ما يقتضى عدمه من غاية وضوح البينة والضمير المجرور للبينة والتذكير باعتبار المعنى المراد والمعنى إنى على بينة عظيمة كائنة من ربى وكذبتم بها وبما فيها من الأخبار التى من جملتها الوعيد بمجىء العذاب وقوله تعالى ﴿ ما عندى ما تستعجلون به ﴾ استئناف مبين لخطئهم فى شأن ما جعلوه منشأ لتكذيبهم بها وهو عدم مجىء ما وعد فيها من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين بطريق الاستهزاء أو بطريق الإلزام على زعمهم أى ليس ما تستعجلونه من العذاب الموعود فى القرآن وتجعلون تأخره ذريعة إلى تكذيبه فى حكمى وقدرتى حتى أجىء به وأظهر لكم صدقه أو ليس أمره بمفوض إلى ﴿ أن الحكم ﴾ أى ما الحكم فى ذلك تعجيلا وتأخيراً أو ما الحكم فى جميع الأشياء فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا ﴿ إلا لله ﴾ وحده من غير أن يكون لغيره دخل ما فيه بوجه من الوجوه وقوله تعالى ﴿ يقص الحق ﴾ أى يتبعه بيان لشئونه تعالى فى الحكم المعهود أو فى جميع أحكامه المنتظمة له انتظاما أوليا أى لا يحكم إلا بما هو حق فيثبت حقيقة التأخير وقرىء يقضى فانتصاب الحق حينئذ على المصدرية أى يقضى القضاء الحق أو على المفعولية أى يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع إذا صنعها وأصل القضاء الفصل بتمام الأمر وأصل الحكم المنع فكأنه يمنع الباطل عن معارضة الحق أو الخصم عن التعدى على صاحبه ﴿ وهو خير الفاصلين ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله مشير إلى أن قص الحق ههنا بطريق خاص

هو الفصل بين الحق والباطل هذا هو الذى تستدعيه جزاله التنزيل[١] وقد قيل إن المعنى إنى من معرفة ربى وأنه لامعبود سواه على حجة واضحة وشاهد صدق وكذبتم به أنتم حيث أشركتم به تعالى غيره وأنت خبير بأن مساق النظم الكريم فيما سبق وما لحق على وصفهم بتكذيب آيات الله تعالى بسبب عدم مجىء العذاب[٢] الموعود فيها فتكذيبهم به سبحانه فى أمر التوحيد مما لا تعلق له بالمقام أصلا ﴿ قل لو أن عندى ﴾ أى فى قدرتى ومكنتى ﴿ ما تستعجلون به ﴾ من العذاب الذى ورد به الوعيد بأن يكون أمره مفوضا إلى من جهته تعالى ﴿ لقضى الأمر بينى وبينكم ﴾ أى بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم بقولكم متى هذا الوعد ونظائره وفى بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعين الفاعل الذى هو الله تعالى وتهويل الأمر ومراعاة حسن الأدب مالا يخفى فما قيل فى تفسيره لأهلكتكم عاجلا غضبا لربى ولتخلصت منكم سريعا بمعزل من توفية المقام حقه وقوله تعالى ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ اعتراض مقرر لما أفادته الجملة الامتناعية من انتفاء كون أمر العذاب مفوضا إليه صلى الله عليه وسلم المستتبع لانتفاء قضاء الأمر وتعليل له والمعنى والله تعالى أعلم بحال الظالمين وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب ولذلك لم يفوض الأمر إلى فلم يقض الأمر بتعجيل العذاب والله أعلم .

لا يعلم الغيب إلا الله

﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى من حيث العلم إثر بيان اختصاص كلها به تعالى من حيث القدرة والمفاتح إما جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن فهو مستعار لمكان الغيب كأنها مخازن خزنت فيها الأمور الغيبية يغلق عليها ويفتح وإما جمع مفتح بكسرها وهو المفتاح ويؤيده قراءة من قرأ مفاتيح الغيب فهو مستعار لما يتوصل به إلى تلك الأمور

---

(١) فى ٤٣٠ : جزالة النظم .

(٢) فى ٤٣٠ : حلول العذاب .

بناء على الاستعارة الأولى أى عنده تعالى خاصة خزائن غيوبه أو ما يتوصل به إليها وقوله عز وجل ﴿ لا يعلمها إلا هو ﴾ تأكيد لمضمون ما قبله وإيذان بأن المراد هو الاختصاص من حيث العلم لا من حيث القدرة والمعنى أن ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدوراً لى حتى ألزمكم بتعجيله ولا معلوما لدى لأخبركم وقت نزوله بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلما فينزله حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقوله تعالى ﴿ ويعلم ما فى البر والبحر ﴾ بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملة له وتنبيها على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء فى الجلاء أى يعلم ما فيهما من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر أفرادها وقوله تعالى ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ بيان لتعلقه بأحوالها المتغيرة بعد بيان تعلقه بذواتها فإن تخصيص حال السقوط بالذكر ليس إلا بطريق الاكتفاء بذكرها عن ذكر سائر الأحوال كما أن ذكر حال الورقة وما عطف عليها خاصة دون أحوال سائر مافيهما من فنون الموجودات الفائتة للحصر باعتبار أنها أنموذج لأحوال سائرها وقوله تعالى .

﴿ ولا حبة ﴾ عطف على ورقة وقوله تعالى ﴿ فى ظلمات الأرض ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لحبة مفيدة لكمال نفوذ علمه تعالى أى ولا حبة كائنة فى بطون الأرض إلا يعلمها وكذا قوله تعالى ﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ معطوفا عليها داخلان فى حكمها وقوله تعالى ﴿ إلا فى كتاب مبين ﴾ بدل من الاستثناء الأول بدل الكل [من الكل][1] على أن الكتاب المبين عبارة عن علمه تعالى أو بدل الاشتمال على أنه عبارة عن اللوح المحفوظ وقرىء الأخيران بالرفع عطفا على محل من ورقة وقيل رفعهما بالابتداء والخبر إلا فى كتاب مبين وهو الأنسب بالمقام لشمول الرطب واليابس حينئذ لما ليس من شأنه السقوط وقد نقل قراءة الرفع فى ولا حبة أيضاً .

---

(١) سقطت من الأصل .

﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ﴾ أى ينيمكم فيه على استعارة التوفى من الإماتة للإنامة لما بين الموت والنوم من المشاركة فى زوال الإحساس والتمييز وأصله قبض الشيء بتمامه ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ أى ما كسبتم فيه والمراد بالليل والنهار الجنس المتحقق فى كل فرد من أفرادهما إذ بالتوفى والبعث الموجودين فيها يتحقق قضاء الأجل المسمى المترتب عليها لا فى بعضها والمراد بعلمه تعالى ذلك علمه قبل الجرح كما يلوح به تقديم ذكره على البعث أى يعلم ما تجرحون بالنهار وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وتخصيص التوفى بالليل والجرح بالنهار مع تحقق كل منهما فيما خص بالآخر للجرى على سنن العادة ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ أى يوقظكم فى النهار عطف على يتوفاكم وتوسيط قوله تعالى ويعلم الخ بينهما لبيان مافى بعثهم من عظيم الإحسان إليهم بالتنبيه على أن ما يكتسبونه من السيئات مع كونها موجبة لإبقائهم على التوفى بل لإهلاكهم بالمرة يفيض عليهم الحياة ويمهلهم كما ينبىء عنه كلمة التراخى كأنه قيل هو الذى يتوفاكم فى جنس الليالى ثم يبعثكم فى جنس النهر مع علمه بما ستجرحون فيها ﴿ ليقضى أجل مسمى ﴾ معين لكل فرد فرد بحيث لا يكاد يتخطى أحد ما عين له طرفة عين ﴿ ثم إليه مرجعكم ﴾ أى رجوعكم بالموت لا إلى غيره أصلا ﴿ ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ بالمجازاة بأعمالكم التى كنتم تعملونها فى تلك الليالى والأيام وقيل الخطاب مخصوص بالكفرة والمعنى أنكم ملقون كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار وأنه تعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم الله من القبور فى شأن ماقطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ليقضى الأجل الذى سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم وفيه مالا يخفى من التكلف والإخلال لإفضائه إلى كون البعث معللا بقضاء الأجل المضروب له .

﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ أى هو المتصرف فى أمورهم لا غيره يفعل بهم ما يشاء إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة إلى غير ذلك ﴿ ويرسل عليكم ﴾ خاصة أيها المكلفون ﴿ حفظة ﴾ من الملائكة وهم الكرام الكاتبون وعليكم متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء وتقديمه على المفعول

الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقيل متعلق بمحذوف هو حال من حفظة إذ لو تأخر لكان صفة أى كائنين عليكم وقيل متعلق بحفظة والمحفوظ محذوف على كل حال أى يرسل عليكم ملائكة يحفظون أعمالكم كائنة ما كانت وفى ذلك حكمة جميلة ونعمة جليلة لما أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رءوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطى المعاصى والقبائح وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشمه احتشامه من خدمه الواقفين على أحواله وحتى فى قوله تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت ﴾ هى التى يبتدأ بها الكلام وهى مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها كأنه قيل ويرسل عليكم حفظة يحفظون أعمالكم مدة حياتكم حتى إذا انتهت مدة أحدكم كائنا من كان وجاءه أسباب الموت ومباديه ﴿ توفته رسلنا ﴾ الآخرون المفوض إليهم ذلك وهم ملك الموت وأعوانه وانتهى هناك حفظ الحفظة وقرىء توفاه ماضيا أو مضارعا بطرح إحدى التاءين ﴿ وهم ﴾ أى الرسل ﴿ لا يفرطون ﴾ أى بالتوانى والتأخير وقرىء مخففا من الإفراط أى لا يجاوزون ما حد لهم بزيادة أو نقصان والجملة حال من رسلنا وقيل مستأنفة سيقت لبيان اعتنائهم بما أمروا به وقوله تعالى ﴿ ثم ردوا ﴾ عطف على توفته والضمير للكل المدلول عليه بأحدكم وهو السر فى مجيئه بطريق الالتفات تغليباً والإفراد أولا والجمع آخرا لوقوع التوفى على الانفراد والرد على الاجتماع أى ثم ردوا بعد البعث بالحشر ﴿ إلى الله ﴾ اى إلى حكمه وجزائه فى موقف الحساب ﴿ مولاهم ﴾ أى مالكهم الذى يلى أمورهم على الإطلاق لا ناصرهم كما فى قوله تعالى (وأن الكافرين لا مولى لهم) ﴿ الحق ﴾ الذى لا يقضى إلا بالعدل وقرىء بالنصب على المدح ﴿ ألا له الحكم ﴾ يومئذ صورة ومعنى لا لأحد غيره بوجه من الوجوه ﴿ وهو أسرع الحاسبين ﴾ يحاسب جميع الخلائق فى أسرع زمان وأقصره لا يشغله حساب ولا شأن عن شأن وفى الحديث « إن الله تعالى يحاسب الكل فى مقدار حلب شاة » .

﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ﴾ أى قل تقريرا لهم بانحطاط

شركائهم عن رتبة الإلهية من ينجيكم من شدائدهما الهائلة التى تبطل الحواس وتدحض العقول ولذلك استعير لها الظلمات المبطلة لحاسة البصر يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب أو من الخسف فى البر والغرق فى البحر ينجيكم من الإنجاء والمعنى واحد وقوله تعالى ﴿ تدعونه ﴾ نصب على الحالية من مفعول ينجيكم والضمير لمن أى من ينجيكم منها حال كونكم داعين له أو من فاعله أى من ينجيكم منها حال كونه مدعوا من جهتكم وقوله تعالى ﴿ تضرعا وخفية ﴾ إما حال من فاعل تدعونه أو مصدر مؤكد له أى تدعونه متضرعين جهارا ومسرين أو تدعونه دعاء إعلان وإخفاء وقرىء خفية بكسر الخاء وقوله تعالى ﴿ لئن أنجيتنا ﴾ حال من الفاعل أيضا على تقدير القول أى تدعونه قائلين لئن أنجيتنا ﴿ من هذه ﴾ الشدة والورطة التى عبر عنها بالظلمات ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ أى الراسخين فى الشكر المداومين عليه لأجل هذه النعمة أو جميع النعماء التى من جملتها هذه وقرىء لئن أنجانا مراعاة لقوله تعالى تدعونه ﴿ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ﴾ أمر صلى الله عليه وسلم بتقرير الجواب مع كونه من وظائفهم للإيذان بأنه متعين عندهم ولبناء قوله تعالى ﴿ ثم أنتم تشركون ﴾ عليه أى الله تعالى وحده ينجيكم مما تدعونه إلى كشفه من الشدائد المذكورة وغيرها من الغموم والكرب ثم أنتم بعد ما تشاهدون هذه النعم الجليلة تشركون بعبادته تعالى غيره وقرىء ينجيكم بالتخفيف وقوله تعالى .

﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا ﴾ استئناف مسوق لبيان أنه تعالى هو القادر على إلقائهم فى المهالك إثر بيان أنه هو المنجى لهم منها وفيه وعيد ضمنى بالعذاب لإشراكهم المذكور على طريقة قوله عز وجل (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) إلى قوله تعالى (أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى) الآية وعليكم متعلق بيبعث وتقديمه على مفعوله الصريح للاعتناء به والمسارعة إلى بيان كون المبعوث مما يضرهم ولتهويل أمر المؤخر وقوله تعالى ﴿ من فوقكم ﴾ متعلق به أيضا أو بمحذوف وقع صفة لعذابا أى عذابا كائنا من جهة

الفوق كما فعل بمن فعل من قوم لوط. وأصحاب الفيل و أضرابهم ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ أو من جهة السفل كما فعل بفرعون وقارون وقيل من فوقكم أكابركم ورؤسائكم ومن تحت أرجلكم سفلتكم وعبيدكم وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع فلا منع لما كان من الجهتين معا كما فعل بقوم نوح ﴿ أو يلبسكم شيعا ﴾ أى يخلطكم فرقا متحزبين على أهواء شتى كل فرقة مشايعة لإمام فينشب بينكم القتال فتختلطوا فى الملاحم كقول الحماسى :

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدى

﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ عطف على يبعث وقرىء بنون العظمة على طريقة الالتفات لتهويل الأمر والمبالغة فى التحذير والبعض الأول الكفار والآخر المؤمنون ففيه وعد ووعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال عند قوله تعالى عذابا من فوقكم أعوذ بوجهك وعند قوله تعالى (أو من تحت أرجلكم) أعوذ بوجهك وعند قوله تعالى (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) هذا أهون أو هذا أيسر وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « سألت ربى أن لا يبعث على أمتى عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطانى ذلك وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى ذلك» ﴿ أنظر كيف نصرف الآيات ﴾ من حال إلى حال ﴿ لعلهم يفقهون ﴾ كى يفقهوا ويقفوا على جلية الأمر فيرجعوا عماهم عليه من المكابرة والعناد .

﴿ وكذب به ﴾ أى بالعذاب الموعود أو القرآن المجيد الناطق بمجيئه ﴿ قومك ﴾ أى المعاندون منهم ولعل إيرادهم بهذا العنوان للإيذان بكمال سوء حالهم فإن تكذيبهم بذلك مع كونهم من قومه عليه الصلاة والسلام مما يقضى بغاية عتوهم ومكابرتهم وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من إظهار الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقوله تعالى ﴿ وهو الحق ﴾ حال من الضمير المجرور أى كذبوا به والحال أنه الواقع لا محالة أو أنه الكتاب الصادق فى كل ما نطق به وقيل هو استئناف وأياما كان ففيه دلالة على عظم جنايتهم ونهاية قبحها ﴿ قل ﴾ لهم منبها على ما يؤول إليه أمرهم وعلى أنك قد أديت

ما عليك من وظائف الرسالة ﴿ لست عليكم بوكيل ﴾ بحفيظ وكل إلى أمركم لا منعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق إنما أنا منذر وقد خرجت عن العهدة حيث أخبرتكم بما سترونه ﴿ لكل نبأ ﴾ أى لكل شىء ينبأ به من الأنباء التى من جملتها عذابكم أو لكل خبر من الأخبار التى من جملتها خبر مجيئه ﴿ مستقر ﴾ أى وقت استقرار ووقوع البتة أو وقت استقرار بوقوع مدلوله ﴿ وسوف تعلمون ﴾ أى حال نبئكم فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معا وسوف للتأكيد كما فى قوله تعالى ولتعلمن نبأه بعد حين .

النهى عن مجالسة الخائضين فى الله

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا ﴾ أى بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها كما هو دأب قريش وديدنهم ﴿ فأعرض عنهم ﴾ بترك مجالستهم والقيام عنهم وقوله تعالى ﴿ حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ غاية للإعراض أى استمر على الإعراض إلى أن يخوضوا فى حديث غير آياتنا والتذكير باعتبار كونها حديثاً فإن وصف الحديث بمغايرتها مشير إلى اعتبارها بعنوان الحديثية وقيل باعتبار كونها قرآنا .

﴿ وإما ينسينك الشيطان ﴾ بأن يشغلك فتنسى النهى فتجالسهم ابتداء أو بقاء وقرىء ينسينك من التنسية ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ أى بعد تذكر النهى ﴿ مع القوم الظالمين ﴾ أى معهم فوضع المظهر موضع المضمر نعياً عليهم أنهم بذلك الخوض ظالمون واضعون للتكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم راسخون فى ذلك ﴿ وما على الذين يتقون ﴾ روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المسلمين حين نهوا عن مجالستهم عند خوضهم فى الآيات قالوا لئن كنا نقول كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت فنزلت أى ما على الذين يتقون قبائح أعمال الخائضين وأحوالهم ﴿ من حسابهم ﴾ أى مما يحاسبون عليه من الجرائر ﴿ من شىء ﴾ أى شىء ما على أنه فى محل الرفع على أنه مبتدأ وما تميمية أو اسم لها وهى حجازية ومن مزيدة للاستغراق ومن حسابهم حال منه وعلى الذين يتقون فى محل الرفع على أنه

خبر للمبتدأ أو لما الحجازية على رأى من لا يجيز إعمالها فى الخبر المقدم مطلقاً أو فى محل النصب على رأى من يجوز إعمالها فى الخبر المقدم عند كونه ظرفا أو حرف جر .

﴿ ولكن ذكرى ﴾ استدراك من النفى السابق أى ولكن عليهم أن يذكروهم ويمنعوهم عما هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير ويظهروا لهم الكراهة والنكير ومحل ذكرى إما النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف أى عليهم أن يذكروهم تذكيراً أو الرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر أى ولكن عليهم ذكرى ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أى يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم وقد جوز كون الضمير للموصول أى يذكروهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم أو يزدادوها .

﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم ﴾ الذى كلفوه وأمروا بإقامه مواجبه ﴿ لعباً ولهوا ﴾ حيث سخروا به واستهزأوا أو بنوا أمر دينهم على مالا يكاد يتعاطاه العاقل بطريق الجد وإنما يصدر عنه لو صدر بطريق اللعب واللهو كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب[1] ونحو ذلك والمعنى أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم وقيل هو تهديد لهم كقوله تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) الآية ﴿ وغرتهم الحيوة الدنيا ﴾ واطمأنوا بها حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبدا ﴿ وذكر به ﴾ أى بالقرآن من يصلح للتذكير ﴿ أن تبسل نفس بما كسبت ﴾ أى لئلا تبسل كقوله تعالى أن تضلوا الآية أو مخافة أن تبسل أو كراهة أن تبسل نفوس كثيرة كما فى قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت) وترتهن لسوء عملها وأصل الإبسال والبسل المنع ومنه أسد باسل لأن فريسته لا تفلت منه أو لأنه ممتنع والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه وهذا بسل عليك أى حرام ممنوع وقد جوز أن يكون الضمير المجرور فى به راجعا إلى الإبسال مع عدم جريان ذكره كما فى ضمير الشأن وتكون الجملة بدلا منه مفسرا له[2] لما فى الإبهام

---

(١) سبق تفسيرها . (٢) فى ٤٣ : مفسرة له .

أو لا والتفسير ثانياً من التفخيم وزيادة التقرير كما قوله على جوده لضن بالماء حاتم بجر حاتم على أنه بدل من ضمير جوده فالمعنى وذكر بارتهان النفوس وحبسها بما كسبت وقوله تعالى ﴿ ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ﴾ استئناف مسوق للإخبار بذلك وقيل فى محل النصب على أنه حال من ضمير كسبت وقيل فى محل الرفع على أنه وصف لنفس والأظهر أنه حال من نفس فإنه فى قوة نفس كافرة أو نفوس كثيرة كما فى قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت) ومن دون الله متعلق بمحذوف هو حال من ولى كما بين فى تفسير قوله تعالى (وأنذر به) الآية وقيل هو خبر لليس فيكون لها حينئذ متعلقا بمحذوف على على البيان ﴿ وإن تعدل ﴾ أى إن تفد تلك النفس ﴿ كل عدل ﴾ أى كل فداء على أنه مصدر مؤكد ﴿ لا يؤخذ منها ﴾ على إسناد الفعل إلى الجار والمجرور لا إلى ضمير العدل كما فى قوله تعالى (ولا يؤخذ منها عدل) فإنه المفدى به لا المصدر كما نحن فيه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتهم فى سواء الحال ومحله الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿ الذين أبسلوا بما كسبوا ﴾ والجملة مستأنفة سيقت إثر تحذيرهم من الإبسال المذكور لبيان أنهم المبتلون بذلك أى أولئك المتخذون دينهم لعبا ولهوا المغترون بالحياة الدنيا هم الذين أبسلوا بما كسبوا وقوله تعالى ﴿ لهم شراب من حميم ﴾ استئناف آخر مبين لكيفية الإبسال المذكور وعاقبته مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل ماذا لهم حين أبسلوا بما كسبوا فقيل لهم شراب من ماء مغلى يتجرجر فى بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ﴿ وعذاب أليم ﴾ بنار تشتعل بأبدانهم ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أى بسبب كفرهم المستمر فى الدنيا وقد جوز أن يكون لهم شراب الخ حالا من ضمير أبسلوا وترتيب ما ذكر من العذابين على كفرهم مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضاً حسبما ينطق به قوله تعالى بما كسبوا لأنه العمدة فى إيجاب العذاب والأهم فى باب التحذير أو أريد بكفرهم ما هو أعم منه ومن مستتبعاته من المعاصى والسيئات هذا وقد جوز أن يكون أولئك إشارة إلى النفوس المدلول عليها بنفس محله الرفع بالابتداء

والموصول الثانى صفته أو بدل منه ولهم شراب الخ خبره والجملة مسوقة لبيان تبعة الإبسال .

﴿ قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ﴾ قيل نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأصنام فتوجيه الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للإيذان بما بينهما من الاتصال والاتحاد تنويها بشأن الصديق رضى الله تعالى عنه أى أنعبد متجاوزين عبادة الله الجامع لجميع صفات الألوهية التى من جملتها القدرة على النفع والضرر مالا يقدر على نفعنا إذا عبدناه ولا على ضرنا إذا تركناه وأدنى مراتب المعبودية القدرة على ذلك وقوله تعالى ﴿ ونرد على أعقابنا ﴾ عطف على ندعوا داخل فى حكم الإنكار والنفى أى ونرد إلى الشرك والتعبير عنه بالرد على الأعقاب لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علم فى القبح مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر وإيثار نرد على نرتد لتوجيه الإنكار إلى الارتداد برد الغير تصريحا بمخالفة المضلين وقطعا لأطماعهم الفارغة وإيذانا بأن الارتداد من غير راد ليس فى حيز الاحتمال ليحتاج إلى نفيه وإنكاره وقوله تعالى ﴿ بعد إذ هدانا الله ﴾ أى إلى الإسلام وأنقذنا من الشرك متعلق بنرد مسوق لتأكيد النكير لا لتحقيق معنى الرد وتصويره فقط وإلا لكفى أن يقال بعد إذ اهتدينا كأنه قيل ونرد إلى الشرك بإضلال المضل بعد إذ هدانا الله الذى لاهادى سواه وقوله تعالى :

﴿ كالذى استهوته الشياطين ﴾ فى محل النصب على أنه حال من مرفوع نرد أى أنرد على أعقابنا مشبهين بالذى استهوته مردة الجن واستغوته إلى المهامه والمهالك أو على أنه نعت لمصدر محذوف أى أنرد رداً مثل رد الذى استهوته الخ والاستهواء استفعال من هوى فى الأرض إذا ذهب فيها كأنها طلبت هويه وحرصت عليه وقرىء استهواه بألف ممالة وقوله تعالى ﴿ فى الأرض ﴾ إما متعلق باستهوته أو بمحذوف هو حال من مفعوله أى كائنا فى الأرض وكذا تعالى ﴿ حيران ﴾ حال منه على أنها بدل من الأولى أو حال ثانيه عندمن يجيزها

أو من الذى أو من المستكن فى الظرف أى تائها ضالا عن الجادة لايدرى ما يصنع وقوله تعالى ﴿ له أصحاب ﴾ جملة فى محل النصب على أنها صفة لحيران أو حال من الضمير فيه أو مستأنفة سيقت لبيان حاله وقوله تعالى ﴿ يدعونه إلى الهدى ﴾ صفة لأصحاب أى لذلك المستهوى رفقة يهدونه إلى الطريق المستقيم تسمية له بالمصدر مبالغة كأنه نفس الهدى ﴿ ائتنا ﴾ على إرادة القول على أنه بدل ممن يدعونه أو حال من فاعله أى يقولون ائتنا وفيه إشارة إلى أنهم مهتدون ثابتون على الطريق المستقيم[1] وأن يدعونه ليس ممن يعرف الطريق المستقيم ليدعى إلى إتيانه وإنما يدرك سمت الداعى ومورد النعيق فقط ﴿ قل إن هدى الله ﴾ الذى هدانا إليه وهو الإسلام ﴿ هو الهدى ﴾ وحده وماعداه ضلال محض وغى بحت كقوله تعالى فماذا بعد الحق إلا الضلال ونحوه وتكرير الأمر للاعتناء بشأن المأمور به ولأن ما سبق للزجر عن الشرك وهذا حث على الإسلام وهو توطئه لما بعده فإن اختصاص الهدى بهداه تعالى مما يوجب الامتثال بالأوامر الواردة بعده ﴿ وأمرنا ﴾ عطف على أن هدى الله هو الهدى داخل تحت القول واللام فى ﴿ لنسلم لرب العالمين ﴾ لتعليل الأمر المحكى وتعيين ما أريد به من الأوامر الثلاثة كما فى قوله تعالى (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلوة وينفقوا) الآية كأنه قيل أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم وقيل هى بمعنى الباء أى أمرنا بأن نسلم وقيل زائدة أى أمرنا أن نسلم على حذف الباء وقوله تعالى :

﴿ وأن أقيموا الصلوة واتقوه ﴾ أى الله تعالى فى مخالفة أمره عطف على نسلم على الوجوه الثلاثة على أن أن المصدرية إذا وصلت بالأمر يتجرد هو عن معنى الأمر نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال فالمعنى على الأول أمرنا أى قيل لنا أسلموا وأقيموا الصلاة واتقوا الله لأجل أن نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه تعالى وعلى الأخيرين أمرنا بأن نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه تعالى

---

(١) فى ١١ : ثابتون على الجادة .

والتعرض لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الأمر وتأكيد وجوب الامتثال به كما أن قوله تعالى ﴿ وهو الذى إليه تحشرون ﴾ جملة مستأنفة موجبة للامتثال بما أمر به من الأمور الثلاثة .

﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض ﴾ أريد بخلقهما خلق ما فيهما أيضاً وعدم التصريح بذلك لظهور اشتمالها على جميع العلويات والسفليات وقوله تعالى ﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خلق أو من مفعوله أو صفة لمصدره المؤكد له أى قائما بالحق أو متلبسا بالحق أو متلبسة به وقوله تعالى ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ﴾ استئناف لبيان أن خلقه تعالى لما ذكر من السموات والأرض ليس مما يتوقف على مادة أو مدة بل يتم بمحض الأمر التكوينى من غير توقف على شىء آخر أصلا وأن ذلك الأمر المتعلق بكل فرد فرد من أفراد المخلوقات فى حين معين من أفراد الأحيان حق فى نفسه متضمن للحكمة ويوم ظرف لمضمون جملة قوله الحق والواو بحسب المعنى داخل عليها وتقديمه عليها للاعتناء به من حيث أنه مدار الحقية وترك ذكر المقول له للثقة بغاية ظهوره والمراد بالقول كلمة كن تحقيقا أو تمثيلا كما هو المشهور فالمعنى وأمره المتعلق بكل شىء يريد خلقه من الأشياء فى حين تعلقه به لا قبله ولا بعده من أفراد الأحيان الحق أى المشهود له بالحقية المعروف بها هذا وقد قيل قوله مبتدأ والحق صفته ويوم يقول خبره مقدما عليه كقولك يوم الجمعة القتال وانتصابه[1] بمعنى الاستقرار .

وحاصل المعنى قوله الحق كائن حين يقول لشىء من الأشياء كن فيكون ذلك الشىء وقيل يوم منصوب بالعطف على السموات أو على الضمير فى واتقوه أو بمحذوف دل عليه بالحق وقوله الحق مبتدأ وخبر أو فاعل يكون على معنى حين يقول لقوله الحق أى لقضائه الحق كن فيكون والمراد حين يكون

---

(١) فى ١ : ونصبه .

الأشياء ويحدثها أو حين تقوم القيامة فيكون التكوين حشر الأجساد وإحياءها فتأمل حق التأمل .

﴿ وله الملك يوم ينفخ فى الصور ﴾ تقييد اختصاص الملك به تعالى بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا المصححة المالكية المجازية فى الجملة كقوله تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أى هو عالمهما ﴿ وهو الحكيم ﴾ فى كل مايفعله ﴿الخبير﴾ بجميع الأمور الجلية والخفية .

بين إبراهيم الخليل وأبيه

﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام معطوف على قل أندعوا لا على أقيموا كما قيل لفساد المعنى أى واذكر لهم بعد ما أنكرت عليهم عبادة مالا يقدر على نفع وضر وحققت أن الهدى هو هدى الله وما يتبعه من شئونه تعالى وقت قول إبراهيم الذى يدعون أنهم على ملته موبخا ﴿ لأبيه آزر ﴾ على عبادة الأصنام فإن ذلك مما يبكتهم وينادى بفساد طريقتهم وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة لما مر مراراً من المبالغة فى إيجاب ذكرها وآزر بزنة آدم وعابر وعازر وفالغ وكذلك تارح ذكره محمد بن اسحق والضحاك والكلبى وكان من قرية من سواد الكوفة ومنع صرفه للعجمة والعلمية وقيل اسمه بالسريانية تارح وآزر لقبه المشهور وقيل اسم صنم لقب هو به للزومه عبادته فهو عطف بيان لأبيه أو بدل منه وقال الضحاك معناه الشيخ الهرم وقال الزجاج المخطىء وقال الفراء وسليمان التيمى المعوج فهو نعت له كما إذا جعل مشتقا من الأزر أو الوزر أو أريد به عابد آزر على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وقرىء آزر على النداء وهو دليل العلمية إذ لا يحذف حرف النداء إلا من الأعلام ﴿ أتتخذ ﴾ متعد إلى مفعولين هما ﴿ أصناما آلهة ﴾ أى أتجعلها لنفسك آلهة على توجيه الإنكار إلى اتخاذ الجنس من غير اعتبار الجمعية وإنما إيراد صيغة

الجمع باعتبار الوقوع وقرىء أزرا بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاء ساكنة وراء منونة منصوبة وهو اسم صنم ومعناه أتعبد أزرا ثم قيل تتخذ أصناما آلهة تثبيتاً لذلك وتقريرا وهو داخل تحت الإنكار لكونه بيانا له وقيل الأزر القوه والمعنى ألأجل القوة والمظاهرة تتخذ أصناما آلهة إنكارا لتعززه بها على طريقة قوله تعالى أيبتغون عندهم العزة ﴿ إنى أراك وقومك ﴾ الذين يتبعونك فى عبادتها ﴿ فى ضلال ﴾ عن الحق ﴿ مبين ﴾ أى بين كونه ضلالا لا اشتباه فيه أصلا والرؤية إما علمية فالظرف مفعولها الثانى وإما بصرية فهو حال من المفعول والجملة تعليل للإنكار والتوبيخ .

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ﴾ هذه الإراءة من الرؤية البصرية المستعارة للمعرفة ونظر البصيرة أى عرفناه وبصرناه وصيغة الاستقبال حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها وذلك إشارة إلى مصدر نرى لا إلى إراءة أخرى مفهومة من قوله إنى أراك وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تمييزه بذلك وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير نرى إبراهيم إراءة كائنة مثل تلك الإراءة فقدم على الفعل لإفادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار المشار إليه نفس المؤكد لا نعتاً له أى ذلك التبصير البديع نبصره عليه السلام ﴿ ملكوت السموات والأرض ﴾ أى ربوبيته تعالى ومالكيته لها وسلطانه القاهر عليهما وكونهما بما فيهما مربوبا ومملوكا له تعالى لا تبصيرا آخر أدنى منه والملكوت مصدر على زنة المبالغة كالرهبوت والجبروت ومعناه الملك العظيم والسلطان القاهر ثم هل هو مختص بملك الله عز سلطانه أو لا فقد قيل وقيل والأول هو الأظهر وبه قال الراغب وقيل ملكوتها عجائبهما وبدائعهما روى أنه كشف له عليه السلام عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين وقيل آياتهما وقيل ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض الجبال والأشجار والبحار وهذه الأقوال لا تقتضى

أن تكون الإراءة بصرية إذ ليس المراد بإراءة ما ذكر من الأمور الحسية بجرد تمكينه عليه السلام من إبصارها ومشاهدتها فى أنفسها بل اطلاعه على حقائقها وتعريفها من حيث دلالتها على شئونه عز وجل ولا ريب فى أن ذلك ليس مما يدرك حسا كما ينبىء عنه اسم الإشارة المفصح عن كون المشار إليه أمرا بديعاً فإن الإراءة البصرية المعتادة بمعزل من تلك المثابة وقرىء ترى بالتاء وإسناد الفعل إلى الملكوت أى تبصره عليه السلام دلائل الربوبية واللام فى قوله تعالى :

﴿ وليكون من الموقنين ﴾ متعلقه بمحذوف مؤخر والجملة اعتراض مقرر لما قبلها أى وليكون من زمرة الراسخين فى الإيقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى فعلنا ما فعلنا من التبصير البديع المذكور لا لأمر آخر فإن الوصول إلى تلك الغايه القاصيه كمال مترتب على ذلك التبصير لاعينه وليس القصر لبيان انحصار فائدته فى ذلك كيف لا وإرشاد الخلق وإلزام المشركين كما سيأتى من فوائده بلا مريه بل لبيان أنه الأصل الأصيل والباقى من مستتبعاته وقيل هى متعلقه بالفعل السابق والجملة معطوفه على علة أخرى محذوفه ينسحب عليها الكلام أى ليستدل بها وليكون الخ فينبغى أن يراد بملكوتهما بدائعهما وآياتهما لأن الاستدلال من غايات إراءتها لا من غايات إراءة نفس الربوبية وقوله تعالى ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ على الأول وهو الحق المبين عطف على قال إبراهيم داخل تحت ما أمر بذكره بالأمر بذكر وقته وما بينهما اعتراض مقرر لما سبق وما لحق. فإن تعريفه عليه السلام ربوبيته ومالكيته للسموات والأرض وما فيهما وكون الكل مقهورا تحت ملكوته مفتقرا إليه فى الوجود وسائر ما يترتب عليه من الكمالات ، وكونه من الراسخين فى معرفه شئونه تعالى ، الواصلين إلى ذروة عين اليقين مما يقضى بأن يحكم عليه السلام باستحالة إلهية ماسواه سبحانه من الأصنام والكواكب ، وعلى الثانى هو تفصيل لما ذكر من إراءة ملكوت السموات والأرض ، وبيان لكيفيه استدلاله عليه السلام ، ووصوله إلى رتبه الإيقان ، ومعنى جن عليه الليل ستره بظلامه وقوله تعالى

﴿ رأى كوكبا ﴾ جواب لما ، فإن رؤيته إنما تتحقق بزوال نور الشمس عن الحس ، وهذا صريح فى أنه لم يكن فى ابتداء الطلوع ؛ بل كان غيبته عن الحس بطريق الاضمحلال بنور الشمس،والتحقيق أنه كان قريبا من الغروب كما ستعرفه قيل : كان ذلك الكوكب هو الزهرة ، وقيل هو المشترى .

وقوله تعالى ﴿ قال هذا ربى ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من [الجملة][1] الشرطية السابقة المتفرعة على بيان إراءته عليه السلام ملكوت السموات والأرض فإن ذلك مما يحمل السامع على استكشاف ما ظهر منه عليه السلام من آثار تلك الإراءة وأحكامها ، كأنه قيل : فماذا صنع عليه السلام حين رأى الكوكب ؟ فقيل : قال على سبيل الوضع والفرض هذا ربى مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب ، فإن المستدل على فساد قول يحكيه على رأى خصمه ، ثم يكر عليه بالإبطال ، ولعل سلوك هذه الطريقة فى بيان استحالة ربوبية الكواكب دون بيان استحالة إلهية الأصنام لما أن هذا أخفى بطلانا واستحالة من الأول ، فلو صدع بالحق من أول الأمر كما فعله فى حق عبادة الأصنام لتمادوا فى المكابرة والعناد ، ولجوا فى طغيانهم يعمهون . وقيل قاله عليه السلام على وجه النظر والاستدلال ، وكان ذلك فى زمان مراهقته وأول أوان بلوغه ، وهو مبنى على تفسير الملكوت بآياتهما ، وعطف قوله تعالى ليكون على ما ذكر من العلة المقدرة ، وجعل قوله تعالى فلما جن الخ تفصيلا لما ذكر من الإراءة وبيانا لكيفية الاستدلال ، وأنت خبير بأن كل ذلك مما يخل بجزالة النظام الجليل ، وجلالة منصب الخليل عليه الصلاة والسلام.

﴿ فلما أفل ﴾ أى غرب ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ أى الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان ، المتغيرين من حال إلى حال ، المحتجبين بالأستار ، فإنهم بمعزل من استحقاق الربوبية قطعا ﴿ فلما رأى القمر بازغا ﴾ أى مبتدئا فى الطلوع إثر غروب الكوكب ﴿ قال هذا ربى ﴾ على الأسلوب السابق ﴿ فلما

(١) سقطت من ط .

أفل ﴾ كما أفل النجم ﴿ قال لئن لم يهدنى ربى ﴾ إلى جنابه الذى هو الحق الذى لا محيد عنه ﴿ لأكونن من القوم الضالين ﴾ فإن شيئاً مما رأيته لا يليق بالربوبية وهذا مبالغة منه عليه السلام فى إظهار النصفة ، ولعله عليه السلام كان إذ ذاك فى موضع كان فى جانبه الغربى جبل شامخ يستتر به الكوكب والقمر وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل ، وكان الكوكب قريبا منه وأفقه الشرقى مكشوف أولا وإلا فطلوع القمر بعد أفول الكوكب ثم أفوله قبل طلوع الشمس كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ فلما رأى الشمس بازغة ﴾ أى مبتدئة فى الطلوع مما لا يكاد يتصور ﴿ قال ﴾ أى على النهج السابق ﴿ هذا ربى ﴾ وإنما لم يؤنث لما أن المشار إليه والمحكوم عليه بالربوبية هو الجرم المشاهد من حيث هو لا من حيث هو مسمى باسم من الأسامى فضلا عن حيثية تسميته بالشمس ، أو لتذكير الخبر وصيانة الرب عن وصمة التأنيث وقوله تعالى ﴿ هذا أكبر ﴾ تأكيد لما رامه عليه السلام من إظهار النصفة مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى ، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر ﴿ فلما أفلت ﴾ هى أيضاً كما أفل الكوكب والقمر ﴿ قال ﴾ مخاطبا للكل صادعا بالحق بين أظهرهم ﴿ يا قوم إنى برىء مما تشركون ﴾ أى من الذى تشركونه من الأجرام المحدثة المتغيرة من حالة إلى أخرى المسخرة لمحدثها ، أو من إشراككم ، وترتيب هذا الحكم ونظيريه على الأفول دون البزوغ والظهور من ضروريات سوق الاحتجاج على هذا المساق الحكيم ، فإن كلا منهما وإن كان فى نفسه انتقالا منافيا لاستحقاق معروضه للربوبية قطعا ، لكن لما كان الأول حالة موجبة لظهور الآثار والأحكام ملائمة لتوهم الاستحقاق فى الجملة رتب عليها الحكم الأول على الطريقة المذكورة ، وحيث كان الثانى حالة مقتضية لانطماس الآثار وبطلان الأحكام المنافقين للاستحقاق المذكور منافاة بينة يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد رتب عليها ما رتب ، ثم لما تبرأ عليه السلام منهم توجه إلى مبدع هذى المصنوعات ومنشئها فقال :

﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات ﴾ التى هذه الأجرام التى

تعبدونها من أجزائها ﴿ والأرض ﴾ التى تغيب هى فيها ﴿ حنيفا ﴾ أى مائلا عن الأديان الباطلة والعقائد الزائغة كلها ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ فى شىء من الأفعال والأقوال ﴿ وحاجة قومه ﴾ أى شرعوا فى مغالبته فى أمر التوحيد .

﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية محاجتهم ، كأنه قيل : فماذا قال عليه السلام حين حاجوه ؟ فقيل : قال منكرا لما اجترأوا عليه من محاجته مع قصورهم عن تلك الرتبة وعزة المطلب وقوة الخصم ﴿ أتحاجونى فى الله ﴾ بإدغام نون الجمع فى نون الوقاية وقرىء بحذف الأولى وقوله تعالى ﴿ وقد هدان ﴾ حال من ضمير المتكلم مؤكدة للإنكار ، فإن كونه عليه السلام مهديا من جهة الله تعالى ومؤيداً من عنده مما يوجب استحالة محاجته عليه السلام أى أتجادلوننى فى شأنه تعالى ووحدانيته والحال أنه تعالى هدانى إلى الحق بعد ما سلكت طريقتكم بالفرض والتقدير وتبين بطلانها[1] تبينا تاما كما شاهدتموه وقوله تعالى ﴿ ولا أخاف ما تشركون به ﴾ جواب عما خوفوه عليه السلام فى أثناء المحاجة من إصابة مكروه من جهة أصنامهم كما قال لهود عليه السلام قومه (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ولعلهم فعلوا ذلك حين فعل عليه السلام بآلهتهم ما فعل ، وما موصولة اسمية حذف عائدها وقوله تعالى ﴿ إلا أن يشاء ربى شيئاً ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأوقات ، أى لا أخاف ما تشركونه به سبحانه من معبوداتكم فى وقت من الأوقات إلا فى وقت مشيئته تعالى شيئاً من إصابة مكروه بى من جهتها . وذلك إنما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فيه أصلا ، وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إظهار منه لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى . واستسلامه لامره واعترافه[2] بكونه تحت ملكوته وربوبيته وقوله تعالى ﴿ وسع ربى كل شىء علما ﴾ كأنه تعليل للاستثناء ، أى أحاط بكل شىء علما فلا يبعد أن

---

(١) فى ١١ ولتبيين بطلانها .

(٢) فى ط : واستسلام . واعتراف .

يكون فى علمه تعالى أن يحيق بى مكروه من قبلها بسبب من الأسباب ، وفى الإظهار فى موضع الإضمار تأكيد للمعنى المذكور ؛ واستلذاذ بذكره تعالى ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أى أتعرضون عن التأمل فى أن آلهتكم جمادات غير قادرة على شىء ما من نفع ولا ضرر ، فلا تتذكرون أنها غير قادرة على إضرارى ، وفى إيراد التذكر دون التفكر ونظائره إشارة إلى أن أمر أصنامهم مركوز فى العقول لا يتوقف إلا على التذكر ، وقوله تعالى :

﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ﴾ استئناف مسوق لنفى الخوف عنه عليه السلام بحسب زعم الكفرة بالطريق الإلزامى كما سيأتى بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفس الأمر ، والاستفهام لإنكار الوقوع ونفيه بالكلية ، كما فى قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله) الآية ، لا لإنكار الواقع واستبعاده مع وقوعه . كما فى قوله (كيف تكفرون بالله) الخ وفى توجيه الإنكار إلى كيفية الخوف من المبالغة ما ليس فى توجيهه إلى نفسه بأن يقال أأخاف لما أن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال وكيفية من الكيفيات قطعا ، فإذا انتفى جميع أحواله وكيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق البرهانى وقوله تعالى ﴿ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ﴾ حال من ضمير أخاف بتقدير مبتدأ والواو كافية فى الربط من غير حاجة إلى الضمير العائد إلى ذى الحال ، وهو مقرر لإنكار الخوف ونفيه عنه عليه السلام ومفيد لاعترافهم بذلك ، فإنهم حيث لم يخافوا فى محل الخوف فلأن لا يخاف عليه السلام فى محل الأمن أولى وأحرى ، أى كيف أخاف أنا ما ليس فى حيز الخوف أصلا وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخلوقات وأهولها ، وهو إشراككم بالله الذى ليس كمثله شىء فى الأرض ولا فى السماء ما هو من جملة مخلوقاته ، وإنما عبر عنه بقوله تعالى ﴿ ما لم ينزل به ﴾ أى بإشراكه ﴿ عليكم سلطانا ﴾ على طريقة التهكم مع الإيذان بأن الامور الدينية لا يعول فيها إلا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى ، وفى تعليق الخوف الثانى بإشراكهم من المبالغة ومراعاة حسن الادب ما لا يخفى .

هذا وأما ما قيل من أن قوله تعالى ولا تخافون الخ معطوف على أخاف داخل معه فى حكم الإنكار والتعجيب فمما لا سبيل إليه أصلا ، لإفضائه إلى فساد المعنى قطعا ، كيف لا وقد عرفتك أن الإنكار بمعنى النفى بالكلية فيؤول المعنى إلى نفى الخوف عنه عليه الصلاة والسلام ، ونفى نفيه عنهم ، وأنه بين الفساد ، وحمل الإنكار فى الأول على معنى نفى الوقوع وفى الثانى على استبعاد الواقع مما لا مساغ له ، على أن قوله تعالى ﴿فأى الفريقين أحق بالأمن﴾ ناطق ببطلانه حتما ، فإنه كلام مرتب على إنكار خوفه عليه الصلاة والسلام فى محل الخوف ، مسوق لإلجائهم إلى الاعتراف باستحقاقه عليه الصلاة والسلام لما هو عليه من الأمن ، وبعدم استحقاقهم لما هم عليه ، وإنما جىء بصيغة التفضيل المشعرة باستحقاقهم له فى الجملة لاستنزالهم عن رتبه المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الإنصاف ، والمراد بالفريقين الفريق الآمن فى محل الأمن والفريق الآمن فى محل الخوف ، فإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم لتأكيد الإلجاء إلى الجواب الحق بالتنبيه على علة الحكم . والتفادى عن التصريح بتخطئتهم لا لمجرد الاحتراز عن تزكية النفس ﴿إن كنتم تعلمون﴾ المفعول إما محذوف تعويلا على ظهوره بمعونة المقام ، أى إن كنتم تعلمون من أحق بذلك ، أو قصدا إلى التعميم أى إن كنتم تعلمون شيئا ، وإما متروك بالمرة ، أى إن كنتم من أولى العلم ، وجواب الشرط محذوف أى فأخبرونى

﴿الذين آمنوا﴾ استئناف من جهته تعالى مبين للجواب الحق الذى لا محيد عنه أى الفريق الذين آمنوا ﴿ولم يلبسوا إيمانهم﴾ ذلك أى لم يخلطوه ﴿بظلم﴾ أى بشرك كما يفعله الفريق المشركون حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل وأن عبادتهم للأصنام من تتمات إيمانهم وأحكامه لكونها لأجل التقريب والشفاعة كما قالوا (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وهذا معنى الخلط ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة ، وفى الإشارة إليه بعد وصفه بما ذكر إيذان بأنهم تميزوا بذلك عن غيرهم ، وانتظموا

فى سلك الأمور المشاهدة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف ، وهو مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿ لهم الأمن ﴾ جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر وقعت خبرا لأولئك ، وهو مع خبره خبر للمبتدأ الأول الذى هو الموصول ، ويجوز أن يكون أولئك بدلا من الموصول أو عطف بيان له ، ولهم خبرا للموصول ، والأمن فاعلا للظرف لاعتماده على المبتدأ ، ويجوز أن يكون لهم خبرا مقدما ، والامن مبتدأ والجملة خبرآ للموصول ، ويجوز أن يكون أولئك مبتدأ ثانيا لهم خبره والأمن فاعلا له ، والجملة خبرا للموصول ، أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الإيمان الخالص عن شوب الشرك لهم الأمن فقط ﴿وهم مهتدون﴾ إلى الحق ، ومن عداهم فى ضلال مبين روى أنه لما نزلت الآية شق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس ما تظنون ، إنما هو ما قال لقمان لابنه : يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » وليس الإيمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق الإشراك به ، وليس من قضية الخلط بقاء الأصل بعد الخلط حقيقة ، وقيل المراد بالظلم المعصية التى تفسق صاحبها ، والظاهر هو الأول لوروده مورد الجواب عن حال الفريقين .

﴿ وتلك﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم عليه السلام من قوله تعالى : (فلما جن) وقيل من قوله (أتحاجونى) إلى قوله (مهتدون) وما فى اسم الإشارة من معنى البعد لتفخيم شأن المشار ، والإشعار بعلو طبقته وسمو منزلته فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ حجتنا ﴾ خبره ، وفى إضافتها إلى نون العظمة من من التفخيم ما لا يخفى ، وقوله تعالى ﴿ آتيناها إبراهيم ﴾ أى أرشدناه إليها أو علمناه إياها ، فى محل النصب على أنه حال من حجتنا ، والعامل فيها معنى الإشارة كما فى قوله تعالى (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) أو فى محل الرفع على خبر ثان ، أو هو الخبر وحجتنا بدل أو [عطف[1]] بيان المبتدأ ، وإبراهيم

(١) فى ١٠ هدى إبراهيم .

مفعول أول لآتينا قدم عليه الثانى لكونه ضميرا ، وقوله تعالى ﴿ على قومه ﴾ متعلق بحجتنا إن جعل خبرا لتلك ، أو بمحذوف إن جعل بدلا ، أى آتينا إبراهيم حجة على قومه وقيل بقوله آتينا ﴿ نرفع ﴾ بنون العظمة وقرىء بالياء على طريقة الالتفات وكذا الفعل الآتى ﴿ درجات ﴾ أى رتبا عظيمة عالية من العلم ، وانتصابها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض ، أى إلى درجات أو على التمييز والمفعول قوله تعالى ﴿ من نشاء ﴾ وتأخيره على الوجوه على الثلاثة الأخيرة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، ومفعول المشيئة محذوف ، أى من نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على أن ذلك سنة مستمرة جارية فيما بين المصطفين الأخيار غير مختصة بإبراهيم عليه السلام ، وقرىء بالإضافة إلى من ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها لا محل لها من الإعراب ، وقيل هى فى محل النصب على أنها حال من فاعل آتينا أى حال كوننا رافعين الخ .

﴿ إن ربك حكيم ﴾ فى كل ما فعل من رفع وخفض ﴿ عليم ﴾ بحال من يرفعه واستعداده له على مراتب متفاوتة ، والجملة تعليل لما قبلها ، وفى وضع الرب مضافا إلى ضميره عليه السلام موضع نون العظمة بطريق الالتفات فى تضاعيف بيان أحوال إبراهيم عليه السلام إظهار لمزيد لطف وعناية به عليه السلام .

﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ عطف على قوله [تعالى][1] (وتلك حجتنا) الخ ، فإن عطف كل من الجملة الفعلية والاسمية على الأخرى مما لا نزاع فى جوازه ولا مساغ لعطفه على آتيناها ، لأن له محلا من الإعراب نصبا ورفعا حسبما بين من قبل ، فلو عطف هذا عليه لكان فى حكمه من الحالية والخبرية المستدعيتين للرابط ولا سبيل إليه ههنا ﴿ كلا ﴾ مفعول لما بعده وتقديمه عليه للقصر ، لكن لا بالنسبة إلى غيرهما مطلقا ، بل بالنسبة إلى أحدهما أى كل

(١) سقطت من ط .

واحد منهما ﴿ هدينا ﴾ لا لأحدهما دون الآخر وترك ذكر المهدى إليه لظهور أنه الذى أوتى إبراهيم[1] وأنهما مقتديان به ﴿ ونوحا ﴾ منصوب بمضمر يفسره ﴿ هدينا من قبل ﴾ أى من قبل إبراهيم عليه السلام عد هداه نعمة على إبراهيم عليه السلام لأن شرف الوالد سار إلى الولد ﴿ ومن ذريته ﴾ الضمير لإبراهيم ، لأن مساق النظم الكريم لبيان شئونه العظيمة من إيتاء الحجة ورفع الدرجات وهبة الأولاد الأنبياء وإبقاء هذه الكرامة فى نسله إلى يوم القيامة كل ذلك لإلزام من ينتمى إلى ملته عليه السلام من المشركين واليهود ، وقيل لنوح لأنه أقرب ، ولأن يونس ولوطا ليسا من ذرية إبراهيم ، فلو كان الضمير له لاختص بالمعدودين فى هذه الآية والتى بعدها ، وأما المذكورون فى الآية الثالثة فعطف على (نوحا) وروى عن ابن عباس أن هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان منهم من لم يلحقه بولادة من قبل أم ولا أب لأن لوطا ابن أخى إبراهيم ، والعرب تجعل العم أبا ، كما أخبر الله تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا (نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق) مع أن إسمعيل عم يعقوب .

﴿ داود وسليمان ﴾ منصوبان بمضمر مفهوم مما سبق وكذا ما عطف عليهما وبه يتعلق من ذريته وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بشأنه مافى المفاعيل من نوع طول ربما يخل تأخيره بتجاوب النظم الكريم ، أى وهدينا من ذريته داود وسليمان ﴿ وأيوب ﴾ هو ابن أموص من أسباط عيص ابن إسحق ﴿ ويوسف وموسى وهرون ﴾ أو بمحذوف وقع حالا من المذكورين أى وهديناهم حال كونهم من ذريته ﴿ وكذلك ﴾ إشارة إلى ما يفهم من النظم الكريم من جزاء إبراهيم عليه السلام ، ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف ، وأصل التقدير ﴿ نجزى المحسنين ﴾ جزاء مثل ذلك الجزاء ، والتقديم للقصر ، وقد مر تحقيقه مرارا ، والمراد بالمحسنين الجنس ، وبمماثلة

---

(١) فى ١٠ هدى إبراهيم

جزائهم لجزائه عليه السلام مطابق المشابهة فى مقابلة الإحسان بالإحسان والمكافأة بين الأعمال والأجزية من غير بخس لا المماثلة من كل وجه، ضرورة أن الجزاء بكثرة الأولاد الأنبياء مما اختص به إبراهيم عليه السلام، والأقرب أن لام المحسنين للعهد، وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده وهو عبارة عما أوتى المذكورون من فنون الكرامات، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقته، والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة، ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف مقحمة للنكتة المذكورة فصار المشار إليه نفس المصدر المؤكد لا نعتاله، أى وذلك الجزاء البديع نجزى المحسنين المذكورين لا جزاء آخر أدنى منه، والإظهار فى موضع الإضمار للثناء عليهم بالإحسان الذى هو عبارة عن الإتيان بالأعمال الحسنة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المقارن لحسنها الذاتى، وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» والجملة أعتراض مقرر لما قبلها.

﴿ وزكريا ﴾ وهو ابن آذن ﴿ ويحيى ﴾ ابنه ﴿ وعيسى ﴾ هو ابن مريم، وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنات ﴿ وإلياس ﴾ قيل هو إدريس جد نوح، فيكون البيان مخصوصا بمن فى الآية الأولى، وقيل هو من أسباط هرون أخى موسى عليهما السلام ﴿ كل ﴾ أى كل واحد من أولئك المذكورين ﴿ من الصالحين ﴾ أى من الكاملين فى الصلاح الذى هو عبارة عن الإتيان بما ينبغى، والتحرز عما لا ينبغى، والجملة اعتراض جىء به للثناء عليهم بالصلاح ﴿ وإسمعيل واليسع ﴾ وهو ابن أخطوب بن العجوز، وقرىء والليسع وهو على القراءتين علم أعجمى أدخل عليه اللام ولا اشتقاق له، ويقال إنه يوشع ابن نون، وقيل إنه منقول من مضارع وسع واللام كما فى يزيد فى قول من قال:

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا شديدا بأعباء الخلافة كاهله

﴿ ويونس ﴾ وهو ابن متى ﴿ ولوطا ﴾ هو ابن هارون بن أخى إبراهيم

عليه السلام ﴿ وكلا ﴾ أى وكل واحد من أولئك المذكورين ﴿ فضلنا ﴾ بالنبوة لا بعضهم دون بعض ﴿ على العالمين ﴾ على عالمى عصرهم ، والجملة اعتراض كأختيها وقوله تعالى ﴿ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴾ إما متعلق بما تعلق به ، من ذريته ، ومن ابتدائية ، والمفعول محذوف ، أى وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات كثيرة ، وإما معطوف على كلا ومن تبعيضية أى وفضلنا بعض آبائهم الخ ﴿ واجتبيناهم ﴾ عطف على فضلنا أى اصطفيناهم ﴿ وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لبيان ما هدوا إليه.

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما يفهم من النظم الكريم من مصادر الأفعال المذكورة وقيل مادانوا به ، وما فى ذلك من معنى البعد لما مر مرارا ﴿ هدى الله ﴾ الإضافة للتشريف ﴿ يهدى به من يشاء من عباده ﴾ وهم المستعدون للهداية والإرشاد ، وفيه إشارة إلى أنه تعالى متفضل بالهداية ﴿ ولو أشركوا ﴾ أى هؤلاء المذكورون ﴿ لحبط عنهم ﴾ مع فضلهم وعلو طبقاتهم ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ من الأعمال المرضية الصالحة ، فكيف بمن عداهم وهم هم وأعمالهم أعمالهم ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر ، والمعطوفين عليهم عليهم السلام باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها من النعوت الجليلة الثابتة لهم ، وما فيه من معنى البعد لما مر غير مرة من الإيذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والشرف ، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ أى جنس الكتاب المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية ، والمراد بإيتائه التفهيم التام ، بما فيه[1] من الحقائق والتمكين من الإحاطة بالجلائل والدقائق أعم من أن يكون ذلك بالإنزال ابتداء ، أو بالإيراث بقاء ، فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين ﴿ والحكم ﴾ أى الحكمة أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق والصواب ﴿ والنبوة ﴾ أى الرسالة ﴿ فإن يكفر بها ﴾ أى بهذه الثلاثة أو

(١) فى ط لما فيه .

بالنبوة الجامعة للباقين ﴿ هؤلاء ﴾ أى كفار قريش فإنهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن كافرون بما يصدقه جميعاً ، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ﴿ فقد وكلنا بها ﴾ أى أمرنا بمراعاتها ووفقنا للإيمان بها والقيام بحقوقها ﴿ قوما ليسوا بها بكافرين ﴾ أى فى وقت من الأوقات ، بل مستمرون على الإيمان بها ، فإن الجملة الاسمية الإيجابية كما تفيد دوام الثبوت كذلك السلبية تفيد دوام النفى بمعونة المقام ، لا نفى الدوام كما حقق فى مقامه ، قال ابن عباس ومجاهد رضى الله تعالى عنهما : هم الأنصار وأهل المدينة ، وقيل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كل مؤمن من بنى آدم ، وقيل : الفرس ، فإن كلا من هؤلاء الطوائف موفقون للإيمان بالأنبياء وبالكتب المنزلة إليهم ، عاملون بما فيها من أصول الشرائع وفروعها الباقية فى شريعتنا ، وبه يتحقق الخروج عن عهدة التوكيل والتكليف دون المنسوخة منها ، فإنها بانتساخها خارجة عن كونها من أحكامها ، وقد مر تحقيقه فى تفسير سورة المائدة . وقيل : هم الأنبياء المذكورون ، فالمراد بالتوكيل الأمر بما هو أعم من إجراء أحكامها كما هو شأنهم فى حق كتابهم ومن اعتقاد حقيتها كما هو شأنهم فى حق سائر الكتب التى من جملتها القرآن الكريم ، وقيل هم الملائكة فالتوكيل هو الأمر بإنزالها وحفظها واعتقاد أحقيتها ، وأيا ما كان فتنكير قوما للتفخيم . والباء الأولى صلة لكافرين قدمت عليه محافظة على الفواصل ، والثانية لتأكيد النفى وأما تقديم صلة وكلنا على مفعوله الصريح ، فلما ذكر آنفا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، ولأن فيه نوع طول ربما يؤدى تقديمه إلى الإخلال بتجاوب النظم الكريم ، أو إلى الفصل بين الصفة والموصوف ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه المذكور ، أى فإن يكفر بها هؤلاء فلا اعتداد به أصلا ، فقد وفقنا للإيمان بها قوما فخاما ليسوا بكافرين بها قطعاً ، بل مستمرون على الإيمان بها ، والعمل بما فيها ، ففى إيمانهم بها مندوحة عن إيمان هؤلاء ، ومن هذا تبين أن الوجه أن يكون المراد بالقوم إحدى الطوائف المذكورة ، إذ بإيمانهم

بالقرآن والعمل بأحكامه تتحقق الغنية عن إيمان الكفرة به والعمل بأحكامه وأما الأنبياء والملائكة عليهم السلام فإيمانهم به ليس من قبيل إيمان آحاد الأمة كما أشير إليه .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الأنبياء المذكورين ، ومافيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبتهم وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ الذى هدى الله ﴾ أى إلى الحق والنهج المستقيم والالتفات إلى الاسم الجليل للإشعار بعلة الهداية ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ أى فاختص هداهم بالاقتداء ، ولا تقتد بغيرهم والمراد بهداهم طريقتهم فى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ ، فإنها بعد النسخ لا تبقى هدى والهاء فى اقتده للوقف حقها أن تسقط فى الدرج ، واستحسن إثباتها فيه أيضا إجراء له مجرى الوقف واقتداء بالإمام ، وقرىء بإشباعها على أنها كناية المصدر .

﴿ قل لا أسألكم عليه ﴾ أى على القرآن أو على التبليغ ، فإن مساق الكلام يدل عليهما وإن لم يجر ذكرهما ﴿ أجرا ﴾ من جهتكم كما لم يسأله من الأنبياء عليهم السلام ، وهذا من جملة ما أمر صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم فيه ﴿ إن هو ﴾ أى ما القرآن ﴿ إلا ذكرى للعالمين ﴾ أى عظة وتذكير لهم كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون آخرين .

التوبيخ على كفران النعم

﴿ وما قدروا الله ﴾ لما بين شأن القرآن العظيم وأنه نعمة جليلة منه تعالى على كافة الأمم حسبما نطق به قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) عقب ذلك ببيان غمطهم إياها ، وكفرهم بها على وجه سرى ذلك إلى الكفر بجميع الكتب الإلهية ، وأصل القدر السبر والحزر ، يقال قدر الشىء يقدره بالضم قدرا إذا سبره وحزره ليعرف مقداره ثم استعمل فى معرفة الشىء فى مقداره وأحواله وأوصافه .

وقوله تعالى ﴿ حق قدره ﴾ نصب على المصدرية وهو فى الأصل صفة للمصدر أى قدره الحق ، فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه موصوفه ، أى ما عرفوه تعالى حق معرفته فى اللطف بعباده والرحمة عليهم ، ولم يراعوا حقوقه تعالى فى ذلك ، بل أخلوا بها إخلالا ﴿ إذ قالوا ﴾ منكرين لبعثه الرسل وإنزال الكتب كافرين بنعمته الجليلة فيهما ﴿ ما أنزل الله على بشر من شىء ﴾ فنفى معرفتهم لقدره سبحانه كناية عن حطهم لقدره الجليل ووصفهم له تعالى بنقيض نعته الجميل كما أن نفى المحبة فى مثل إن الله لا يحب الكافرين كناية عن البغض والسخط ، وإلا فنفى معرفة قدره تعالى يتحقق مع عدم التعرض لحطه ، بل مع السعى فى تحصيل المعرفة كما فى قول من يناجى مستقصرا لمعرفته وعبادته : سبحانك ما عرفناك حق معرفتك ، وما عبدناك حق عبادتك . أو ما عرفوه حق معرفته فى السخط على الكفار وشدة بطشه تعالى بهم حسبما نطق به القرآن حين اجترأوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء ، فالنفى بمعناه الحقيقى والقائلون هم اليهود وقد قالوه مبالغة فى إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فألزموا بما لا سبيل إلى إنكاره أصلا حيث قيل :

﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ﴾ أى قل لهم ذلك على طريقة التبكيت وإلقام الحجر وروى أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين ، فأنت الحبر السمين ، قد سمنت من مالك الذى تطعمك اليهود » . فضحك القوم فغضب ثم التفت إلى عمر رضى الله عنه فقال : ما أنزل الله على بشر من شىء فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف ، وقيل : هم المشركون وإلزامهم إنزال التوراة لما أنه كان عندهم من المشاهير الذائعة ، ولذلك كانوا يقولون (لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) ووصف الكتاب بالوصول إليهم لزيادة التقريع وتشديد التبكيت ،

وكذا تقييده بقوله تعالى ﴿ نورا وهدى ﴾ فإن كونه بينا بنفسه ومبينا لغيره مما يؤكد الإلزام أى تأكيد، وانتصابهما على الحالية من الكتاب ، والعامل أنزل أو من الضمير فى به، والعامل جاء واللام فى قوله تعالى ﴿ للناس ﴾ إما متعلق بهدى، أو بمحذوف هو صفة له، أى هدى كائنا للناس وليس المراد بهذا مجرد إلزامهم بالاعتراف بإنزال التوراة فقط، بل إنزال القرآن أيضاً، فإن الاعتراف بإنزالها مستلزم للاعتراف بإنزاله قطعا ، لما فيها من الشواهد الناطقة به ، وقد نعى عليهم ما فعلوا بها من التحريف والتغيير حيث قيل ﴿ تجعلونه قراطيس ﴾ أى تضعونه فى قراطيس مقطعة، وورقات مفرقة، بحذف الجار بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم . أو تجعلونه نفس القراطيس المقطعة، وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة ، والجملة حال كما سبق وقوله تعالى ﴿ تبدونها ﴾ صفة لقراطيس وقوله تعالى ﴿ وتخفون كثيراً ﴾ معطوف عليه ، والعائد إلى الموصول محذوف ، أى كثيراً منها ، وقيل كلام مبتدأ لا محل له من الإعراب ، والمراد بالكثير نعوت النبى عليه الصلاة والسلام وسائر ما كتموه من أحكام التوراة ، وقرىء الأفعال الثلاثة بالياء حملا على قالوا وما قدروا .

وقوله تعالى ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ قيل هو حال من فاعل تجعلونه بإضمار قد ، أو بدونه على اختلاف الرأيين . قلت : فينبغى أن يجعل ما عبارة عما أخذوه من الكتاب من العلوم والشرائع ليكون التقييد بالحال مفيدا لتأكيد التوبيخ وتشديد التشنيع ، فإن ما فعلوه بالكتاب من التفريق والتقطيع لما ذكر من الإبداء والإخفاء شناعة عظيمة فى نفسها ، ومع ملاحظة كونه مأخذاً (١) لعلومهم ومعارفهم أشنع وأعظم ، لا عما تلقوه من جهة النبى صلى الله عليه وسلم زيادة على ما فى التوراة وبيانا لما التبس عليهم وعلى آبائهم من مشكلاتها حسبما ينطق به قوله تعالى (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل

(١) فى ط : مأخذ خطأ .

أكثر الذى هم فيه مختلفون) كما قالوا لأن تلقيهم لذلك من القرآن الكريم ليس مما يزجرهم عما صنعوا بالتوراة أما ما ورد فيه زيادة على ما فيها فلأنه لا تعلق له بها نفيا ولا إثباتا وأما ما ورد بطريق البيان فلأن مدار ما فعلوا بالتوراة[1] من التبديل والتحريف ليس ما وقع فيها من التباس الأمر واشتباه الحال حتى يقلعوا عن ذلك بإيضاحه وبيانه فتكون الجملة حينئذ خالية عن تأكيد التوبيخ ، فلا تستحق أن تقع موقع الحال بل الوجه حينئذ أن تكون استئنافا مقررا لما قبلها من مجيء الكتاب بطريق التكملة والاستطراد والتمهيد لما يعقبه من مجيء القرآن ، ولا سبيل إلى جعل ما عبارة عما كتموه من أحكام التوراة كما يفصح عنه قوله تعالى (قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب) فإن ظهوره وإن كان مزجرة لهم عن الكتم مخافة الافتضاح ومصححا لوقوع الجملة فى موقع الحال لكن ذلك مما يعلمه الكاتمون حتما هذا وقد قيل الخطاب لمن آمن من قريش كما فى قوله تعالى (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم) وقوله تعالى ﴿ قل الله ﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عنهم إشعارا بتعين الجواب بحيث لا محيد عنه وإيذانا بأنهم أفحموا ولم يقدروا على التكلم أصلا ﴿ ثم ذرهم فى خوضهم ﴾ فى باطلهم الذى يخوضون فيه ولا عليك بعد إلزام الحجة وإلقام الحجر ﴿ يلعبون ﴾ حال من الضمير الأول والظرف صلة للفعل المقدم أو المؤخر أو متعلق بمحذوف هو حال من مفعول الأول أو من فاعل الثانى أو من الضمير الثانى لأنه فاعل فى الحقيقة والظرف متصل بالأول .

﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ تحقيق لنزول القرآن الكريم بعد إنزال ما بشر به من التوراة وتكذيب لهم فى كلمتهم الشنعاء إثر تكذيب ﴿ مبارك ﴾ أى كثير الفوائد وجم المنافع ﴿ مصدق الذى بين يديه ﴾ من التوراة لنزوله حسبما وصف فيها أو الكتب التى قبله فإنه مصدق للكل فى إثبات التوحيد والأمر به ونفى الشرك والنهى عنه وفى سائر أصول الشرائع التى لا تنسخ ﴿ ولتنذر أم القرى ﴾ عطف على ما دل عليه مبارك أى للبركات ولإنذارك أهل مكة

(١) فى ط : بها ، وما أخذناه أوضح .

وإنما ذكرت باسمها المنبيء عن كونها أعظم القرى شأنا وقبلة لأهلها قاطبة إيذانا بأن إنذار أهلها أصل مستتبع لإنذار أهل الأرض كافة وقريء لينذر بالياء على أن الضمير للكتاب ﴿ومن حولها﴾ من أهل المدر والوبر فى المشارق والمغارب ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة ﴾ وبما فيها من أفانين العذاب ﴿يؤمنون به ﴾ أى بالكتاب لأنهم يخافون العاقبة ولا يزال الخوف يحملهم على النظر والتأمل حتى يؤمنوا به ﴿ وهم على صلواتهم يحافظون ﴾ تخصيص محافظتهم على الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات التى لابد للمؤمنين من أدائها للإيذان بإنافتها من بين سائر الطاعات وكونها أشرف العبادات بعد الإيمان.

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ فزعم أنه تعالى بعثه نبيا كمسيلمة الكذاب والأسود العنسى أو اختلق عليه أحكاما من الحل والحرمة كعمرو بن لحى ومتابعيه أى هو أظلم من كل ظالم وإن كان سبك التركيب على نفى الأظلم منه وإنكاره من غير تعرض لنفى المساوى وإنكاره فإن الاستعمال الفاشى فى قولك من أفضل من زيد أو لا أكرم منه على أنه أفضل من كل فاضل وأكرم من كل كريم وقد مر تمام الكلام فيه ﴿ أو قال أوحى إلى ﴾ من جهته تعالى ﴿ ولم يوح إليه ﴾ أى والحال أنه لم يوح إليه ﴿ شيء ﴾ أصلا كعبد الله بن سعد ابن أبى سرح كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فلما نزلت ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين فلما بلغ ثم أنشأناه خلقا آخر قال عبد الله تبارك الله أحسن الخالقين تعجبا من تفصيل خلق الإنسان ثم قال عليه الصلاة والسلام اكتبها كذلك فشك عبد الله وقال لئن كان محمد صادقا فقد أوحى إلى كما أوحى إليه ولئن كان كاذبا فقد قلت كما قال ﴿ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ كالذين قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا.

﴿ ولو ترى إذ الظالمون ﴾ حذف مفعول ترى لدلالة الظرف عليه أى ولو ترى الظالمين إذ هم ﴿ فى غمرات الموت ﴾ أى شدائده من غمره إذا غشيه ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ بقبض أرواحهم كالمتقاضى الملظ الملح يبسط يده

إلى من عليه الحق ويعنف عليه فى المطالبة من غير إمهال وتنفيس أو باسطوها بالعذاب قائلين ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ أى أخرجوا أرواحكم إلينا من أجسادكم أو خلصوا أنفسكم من العذاب ﴿اليوم﴾ أى وقت الإماتة أو الوقت الممتد بعده إلى مالا نهاية له ﴿تجزون عذاب الهون﴾ أى العذاب المتضمن لشدة وإهانة فإضافته إلى الهون وهو الهوان لعراقته فيه ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ كاتخاذ الولد له ونسبة الشريك إليه وادعاء النبوة والوحى كاذبا ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها .

﴿ولقد جئتمونا﴾ للحساب ﴿فرادى﴾ منفردين عن الأموال والأولاد وغير ذلك مما آثرتموه من الدنيا أو عن الأعوان والأصنام التى كنتم تزعمون أنها شفعاؤكم وهو جمع فرد والألف للتأنيث ككسالى وقرىء فرادا كرجال[1] وفراد كثلاث وفردى كسكرى ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ بدل من فرادى أى على الهيئة التى ولدتم عليها فى الانفراد أو حال ثانية عند من يجوز تعددها أو حال من الضمير فى فرادى أى مشبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة غرلا بهما أو صفة مصدر جئتمونا أى مجيئا كخلقنا لكم أول مرة ﴿وتركتم ماخولناكم﴾ تفضلناه عليكم فى الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ﴿وراء ظهوركم﴾ ماقدمتم منه شيئاً ولم تحملوا نقيرا ﴿ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ أى شركاء الله تعالى فى الربوبية واستحقاق العبادة ﴿لقد تقطع بينكم﴾ أى وقع التقطع بينكم كما يقال جمع بين الشيئين أى أوقع الجمع بينهما وقرىء بينكم بالرفع على إسناد الفعل إلى الظرف كما يقال قوتل أمامكم وخلفكم أو على أن البين اسم للفصل والوصل أى تقطع وصلكم وقرىء ما بينكم ﴿وضل عنكم﴾ أى ضاع أو غاب ﴿ما كنتم تزعمون﴾ إنها شفعاؤكم أو أن لا بعث ولا جزاء .

---

(١) فى الأصل : رخال خطأ .

كمال العلم الإلهي

﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ شروع فى تقرير بعض أفاعيله تعالى الدالة على كمال علمه وقدرته ولطف صنعه وحكمته أثر تقرير أدلة التوحيد والفلق الشق بإبانة أى شاق الحب بالنبات والنوى بالشجر وقيل المراد به الشق الذى فى الحبوب والنوى أى خالقهما كذلك كما فى قولك ضيق فم الركية ووسع أسفلها وقيل الفالق بمعنى الخلق قال الواحدى ذهبوا بفالق مذهب فاطر ﴿ يخرج الحى من الميت ﴾ أى يخرج ما ينمو من النطفة والحب والجملة مستأنفة مبينة لما قبلها وقيل خبر ثان لأن قوله تعالى ﴿ ومخرج الميت ﴾ كالنطفة والحب ﴿ من الحى ﴾ كالحيوان والنبات عطف على فالق الحب لا على يخرج على الوجه الأول لأن إخراج الميت من الحى ليس من قبيل فلق الحب والنوى ﴿ ذلكم ﴾ القادر العظيم الشأن هو ﴿ الله ﴾ المستحق للعبادة وحده ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته إلى غيره ولا سبيل إليه أصلا :

﴿ فالق الإصباح ﴾ خبر آخر لأن أو لمبتدأ محذوف والإصباح مصدر سمى به الصبح وقرىء بفتح الهمزة على أنه جمع صبح أى فالق عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره ، أو فالق ظلمة الإصباح وهى الغبش الذى يلى الصبح وقرىء فالق بالنصب على المدح ﴿ وجعل الليل سكنا ﴾ يسكن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه من سكن إليه إذا اطمأن إليه استئناسا به أو يسكن فيه الخلق من قوله تعالى لتسكنوا فيه وقرىء جاعل الليل فانتصاب سكنا بفعل دل عليه جاعل وقيل بنفسه على أن المراد به الجعل المستمر فى الأزمنة المتجددة حسب تجددها لا الجعل الماضى فقط وقيل اسم الفاعل من الفعل المتعدى إلى اثنين يعمل فى الثانى وإن كان بمعنى الماضى لأنه لما أضيف إلى الأول تعين نصبه للثانى لتعذر الإضافة بعد ذلك ﴿ والشمس والقمر ﴾ معطوفان على الليل وعلى القراءة الأخيرة قيل هما معطوفان على محله والأحسن نصبهما حينئذ بفعل مقدر وقد قرئا بالجر وبالرفع أيضاً على الابتداء والخبر محذوف أى مجعولان

﴿ حسبانا ﴾ أى على أدوار مختلفة يحسب بها الأوقات التى نيط بها[1] العبادات والمعاملات أو محسوبان حسبانا والحسبان بالضم مصدر حسب كما أن الحساب بالكسر مصدر حسب ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى جعلهما كذلك وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته أى ذلك التسيير البديع ﴿ تقدير العزيز ﴾ الغالب القاهر الذى لا يستعصى عليه شىء من الأشياء التى من جملتها تسييرهما على الوجه المخصوص ﴿ العليم ﴾ بجميع المعلومات التى من جملتها مافى ذلك التسيير من المنافع والمصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم ﴾ شروع فى بيان نعمته تعالى فى الكواكب أثر بيان نعمته تعالى فى النيرين والجعل متعد إلى واحد واللام متعلقة به وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أى أنشأها وأبدعها لأجلكم فقوله تعالى ﴿ لتهتدوا بها ﴾ بدل من المجرور باعادة العامل بدل اشتمال كما فى قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا والتقدير جعل لكم النجوم لاهتدائكم لكن لا على أن غاية خلقها اهتداؤهم فقط بل على طريقة أفراد بعض منافعها وغاياتها بالذكر حسبما يقتضيه المقام وقد جوز أن يكون مفعولا ثانيا للجعل وهو بمعنى التصيير أى جعلها كائنة لاهتدائكم فى أسفاركم عند دخولكم المفاوز أو البحار كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ فى ظلمات البر والبحر ﴾ أى فى ظلمات الليل فى البر والبحر وإضافتها إليهما للملابسة فإن الحاجة إلى الاهتداء بها إنما تتحقق عند ذلك أو فى مشتبهات الطرق عبر عنها بالظلمات على طريقة الاستعارة ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ أى بينا الآيات المتلوة المذكرة لنعمه التى هذه النعمة من جملتها أو الآيات التكوينية الدالة على شئونه تعالى مفصلة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى معانى الآيات المذكورة ويعملون بموجبها أو يتفكرون فى الآيات التكوينية فيعلمون حقيقة الحال وتخصيص التفصيل بهم مع عمومه للكل لأنهم المنتفعون به .

---

(١) فى ٤٣ : نيطت بها العبادات .

﴿ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ﴾ تذكير لنعمة أخرى من نعمه تعالى دالة على عظيم قدرته ولطيف صنعه وحكمته أى أنشأكم مع كثرتكم من نفس آدم عليه السلام ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ أى فلكم استقرار فى الأصلاب أو فوق الأرض واستيداع فى الأرحام أو تحت الأرض أو موضع استقرار واستيداع فيما ذكر والتعبير عن كونهم فى الأصلاب أو فوق الأرض بالاستقرار لأنهما مقرهم الطبيعى كما أن التعبير عن كونهم فى الأرحام أو تحت الأرض بالاستيداع لما أن كلا منهما ليس بمقرهم الطبيعى وقد حمل الاستيداع على كونهم فى الأصلاب وليس بواضح وقرىء فمستقر بكسر القاف أى فمنكم مستقر ومنكم مستودع فإن الاستقرار منا بخلاف الاستيداع ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ المبينة لتفاصيل خلق البشر من هذه الآية ونظائرها ﴿ لقوم يفقهون ﴾ غوامض الدقائق باستعمال الفطنة وتدقيق النظر فإن لطائف صنع الله عز وجل فى أطوار تخليق بنى آدم مما تحار فى فهمه الألباب وهو السر فى إيثار يفقهون على يعلمون كما ورد فى شأن النجوم .

﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء ﴾ تذكير لنعمة أخرى من نعمه تعالى منبئة عن كمال قدرته تعالى وسعة رحمته أى أنزل من السحاب أو من سمت السماء ماء خاصا هو المطر وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا ﴿ فأخرجنا به ﴾ التفت إلى التكلم إظهارا لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله أى فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته ﴿ نبات كل شىء ﴾ من الأشياء التى من شأنها النمو من أصناف النجم[1] والشجر وأنواعها المختلفة فى الكم والكيف[2] والخواص والآثار اختلافا متفاوتا فى مراتب الزيادة والنقصان حسبما يفصح عنه قوله تعالى يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل وقوله تعالى ﴿ فأخرجنا منه خضرا ﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل من الإخراج وقد بدىء بتفصيل حال النجم أى فأخرجنا من النبات الذى لا ساق له شيئا غضا أخضر يقال شىء أخضر وخضر كأعور وعور وأكثر ما يستعمل الخضر

(١) النجم صغار النبات . (٢) الكم المقدار . والكيف القيمة .

فيما تكون خضرته خلقية وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة وقوله تعالى ﴿ نخرج منه ﴾ صفة لخضراء وصيغة المضارع لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة أى نخرج من ذلك الخضر ﴿حبامتراكبا﴾ هو السنبل المنتظم للحبوب المتراكبة بعضها فوق بعض على هيئة مخصوصة وقرىء يخرج منه حب متراكب وقوله تعالى :

﴿ ومن النخل ﴾ شروع فى تفصيل حال الشجر إثر بيان حال النجم فقوله تعالى من النخل خبر مقدم وقوله تعالى ﴿ من طلعها ﴾ بدل منه بإعادة العامل كما فى قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله) الخ والطلع شىء يخرج من النخل كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود وقوله تعالى ﴿ قنوان ﴾ مبتدأ أى وحاصلة من طلع النخل قنوان ويجوز أن يكون الخبر محذوفا لدلالة أخرجنا عليه أى ومخرجة من طلع النخل قنوان ومن ومن قرأ يخرج منه حب متراكب كأن قنوان عنده معطوفا على حب وقيل المعنى وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان أو ومن النخل شىء من طلعها قنوان وهو جمع قنو وهو عنقود النخلة كصنو وصنوان وقرىء بضم القاف كذئب وذبان وبفتحها أيضا على أنه اسم جمع لأن فعلان ليس من أبنية الجمع ﴿دانية﴾ سهلة المجتنى قريبة من القاطف فإنها وإن كانت صغيرة ينالها القاعد تأتى بالثمر لا ينتظر الطول أو ملتفة متقاربة والاقتصار على ذكرها لدلالتها على مقابلها كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر ولزيادة النعمة فيها ﴿ وجنات من أعناب ﴾ عطف على نبات كل شىء أى وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب وقرىء جنات بالرفع على الابتداء أى ولكم أو ثمة جنات وقد جوز عطفه على قنوان كأنه قيل وحاصلة أو مخرجة من النخل قنوان وجنات من نبات أعناب ولعل زيادة الجنات ههنا من غير اكتفاء بذكر اسم الجنس كما فيما تقدم وما تأخر لما أن الانتفاع بهذا الجنس لا يتأتى غالبا إلا عند اجتماع طائفة من أفراده ﴿ والزيتون والرمان ﴾ منصوبان على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم أو على العطف على نبات وقوله تعالى ﴿ مشتبها وغير متشابه ﴾ حال من الزيتون اكتفى

به عن حال ما عطف عليه كما يكتفى بخبر المعطوف عليه عن خبر المعطوف فى نحو قوله تعالى (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وتقديره والزيتون مشتبها وغير متشابه والرمان كذلك وقد جوز أن يكون حالا من الرمان لقربه ويكون المحذوف حال الأول والمعنى بعضه متشابها وبعضه غير متشابه فى الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها وحكمة منشئها ومبدعها ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر ﴾ أى انظروا إليه نظر اعتبار واستبصار إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا لا يكاد ينتفع به وقرىء إلى ثمره ﴿ وينعه ﴾ أى وإلى حال نضجه كيف يصير إلى كماله اللائق به ويكون شيئا جامعاً لمنافع جمة واليَنع فى الأصل مصدر ينعت الثمرة إذا أدركت وقيل جمع يانع كتاجر وتجر وقرىء بالضم وهى لغة فيه وقرىء يانعة ﴿ إن فى ذلكم ﴾ إشارة إلى ما أمر بالنظر إليه وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته ﴿ لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أى لآيات عظيمة أو كثيرة دالة على وجود القادر الحكيم ووحدته فإن حدوث هاتيك الأجناس المختلفة والأنواع المتشعبة من أصل واحد وانتقالها من حال إلى حال على نمط بديع تحار فى فهمه الألباب لا يكاد يكون إلا بإحداث صانع يعلم تفاصيلها ويرجح ما تقتضيه حكمته من الوجوه الممكنة على غيره ولا يعوقه عن ذلك ضد يناوئه أو ند يقاويه ولذلك عقب بتوبيخ من أشرك به والرد عليه حيث قيل .

﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ أى جعلوا فى اعتقادهم لله الذى شأنه ما فصل فى تضاعيف هذه الآية الجليلة شركاء ﴿ الجن ﴾ أى الملائكة حيث عبدوهم وقالوا الملائكة بنات الله وسموا جناً لاجتنانهم تحقيراً لشأنهم بالنسبة إلى مقام الألوهية أو الشياطين حيث أطاعوهم كما أطاعوا الله تعالى أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم أو قالوا الله خالق الخير وكل نافع والشيطان خالق الشر وكل ضار كما هو رأى الثنوية ومفعولا جعلوا قوله تعالى (شركاء الجن) قدم ثانيهما على الأول

لاستعظام أن يتخذ لله سبحانه شريك ما كائنا ما كان ولله متعلق بشركاء قدم عليه للنكتة المذكورة وقيل هما لله شركاء والجن بدل من شركاء مفسر له نص عليه الفراء وأبو إسحق أو منصوب بمضمر وقع جوابا عن سؤال مقدر نشأ من قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء) كأنه قيل من جعلوه شركاء لله تعالى فقيل الجن أي جعلوا الجن ويؤيده قراءة أبي حيوة ويزيد بن قطيب الجن بالرفع على تقديرهم الجن في جواب من قال من الذين جعلوهم شركاء لله تعالى وقد قرىء بالجر على أن الإضافة للتبيين ﴿ وخلقهم ﴾ حال من فاعل جعلوا بتقدير قد أو بدونه على اختلاف الرأيين مؤكدة لما في جعلهم ذلك من كمال القباحة والبطلان باعتبار علمهم بمضمونها أي وقد علموا أنه تعالى خالقهم خاصة وقيل الضمير للشركاء أي والحال أنه تعالى خلق الجن فكيف يجعلون مخلوقه شريكا له تعالى وقرىء خلقهم عطفا على الجن أي وما يخلقونه من الأصنام أو على شركاء أي وجعلوا له اختلاقهم الإفك حيث نسبوه إليه تعالى.

﴿ وخرقوا له ﴾ أي افتعلوا وافتروا له يقال خلق الإفك واختلقه وخرقه واخترقه بمعنى وقرىء خرقوا بالتشديد للتكثير وقرىء وحرفوا له أي زوروا ﴿ بنين وبنات ﴾ فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت طائفة من العرب الملائكة بنات الله ﴿ بغير علم ﴾ أي بحقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب رميا بقوله عن عمى وجهالة من غير فكر وروية أو بغير علم بمرتبة ما قالوه وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادر قدره والباء متعلقة بمحذوف هو حال من فاعل خرقوا أو نعت لمصدر مؤكد له أي خرقوا ملتبسين بغير علم أو خرقا كائنا بغير علم ﴿ سبحانه ﴾ استئناف مسوق لتنزيهه عز وجل عما نسبوه إليه وسبحانه علم للتسبيح الذي هو التبعيد عن السوء اعتقادا وقولا أي اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح في الأرض والماء إذا أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أي واسع الجرى وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أي أسبح سبحانه أي أنزهه عما يليق به عقد أو عملا تنزيها خاصا به حقيقا بشأنه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن

جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصة، لا سيما العلم المشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران لأنه سمع له فعل من الثلاثى كما ذكر فى القاموس أريد به التنزه التام والتباعد الكلى ففيه مبالغة من حيث إسناد التنزه إلى ذاته المقدسة أى تنزه بذاته تنزها لائقا به وهو الأنسب بقوله سبحانه ﴿ وتعالى ﴾ فإنه معطوف على الفعل المضمر لا محالة ولما فى السبحان والتعالى من معنى التباعد قيل ﴿ عما يصفون ﴾ أى تباعد عما يصفونه من أن له شريكا أو ولدا ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أى مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فإن البديع كما يطلق على المبدع (بكسر الدال) يطلق على المبدع (بفتح الدال) نص عليه أئمة اللغة كالصريخ بمعنى المصرخ وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه على ما ذكر فى القاموس وغيره ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قوله ٭ أمن ريحانة الداعى السميع ٭ وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل للتخفيف بعد نصبه تشبيها لها باسم الفاعل كما هو المشهور أى بديع سمواته وأرضه من بدع إذا كان على نمط عجيب وشكل فائق وحسن رائق أو إلى الظرف كما فى قولهم ثبت العذر بمعنى أنه عديم النظير فيهما والأول هو الوجه والمعنى أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوى والسفلى بلا مادة فاعل على الإطلاق منزه عن الانفعال بالمرة والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه فكيف يمكن أن يكون له ولد وقرىء بديع بالنصب على المدح وبالجر على أنه بدل من الاسم الجليل أو من الضمير المجرور فى سبحانه على رأى من يجيزه وارتفاعه فى القراءة المشهورة على أنه خبر مبتدأ محذوف أو فاعل تعالى وإظهاره فى موضع الإضمار لتعليل الحكم وتوسيط الظرف بينه وبين الفعل للاهتمام ببيانه أو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ أنى يكون له ولد ﴾ وهو على الأولين جملة مستقلة مسوقة كما قبلها لبيان استحالة ما نسبوه إليه تعالى وتقرير تنزهه عنه وقوله تعالى ﴿ ولم تكن له صاحبة ﴾ حال مؤكدة للاستحالة المذكورة فإن انتفاء أن يكون له تعالى صاحبة مستلزم لانتفاء أن يكون له ولد

ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة وأن أمكن وجوده بلا والد وانتفاء الأول مما لاريب فيه لأحد فمن ضرورته انتفاء الثانى أى من أين أو كيف يكون له ولد كما زعموا والحال أنه ليس له على زعمهم أيضا صاحبة يكون الولد منها وقرىء لم يكن بتذكير الفعل للفصل أو لأن الاسم ضميره تعالى والخبر هو الظرف وصاحبة مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو الظرف خبر مقدم وصاحبة مبتدأ مؤخر والجملة خبر للكون وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الاسم ضمير الشأن لصلاحية الجملة حينئذ لأن تكون مفسرة لضمير الشأن لاعلى الوجه الأول لما بين فى موضعه أن ضمير الشأن لا يفسر إلا بجملة صريحة وقوله تعالى ﴿وخلق كل شىء﴾ إما جملة مستأنفة أخرى سيقت لتحقيق ما ذكر من الاستحالة أو حال أخرى مقررة لها أى أنى يكون له ولد والحال أنه خلق كل شىء انتظمه التكوين والإيجاد من الموجودات التى من جملتها ما سموه ولداً له تعالى فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه ﴿وهو بكل شىء﴾ من شأنه أن يعلم كائنا ما كان مخلوقا أو غير مخلوق كما ينبىء عنه ترك الإضمار إلى الإظهار ﴿عليم﴾ مبالغ فى العلم أزلا وأبدا حسبما يعرب عنه العدول إلى الجملة الاسمية فلا يخفى عليه خافية مما كان وما سيكون من الذوات والصفات والأحوال التى من جملتها ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز من المحالات التى ما زعموه فردا من أفرادها والجملة استئناف مقرر لمضمون ما قبلها من الدلائل القاطعة ببطلان مقالتهم الشنعاء التى اجترأوا عليها بغير علم .

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى المنعوت بما ذكر من جلائل النعوت وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو شأن المشار إليه وبعد منزلته فى العظمة والخطاب للمشركين المعهودين بطريق الالتفات وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء﴾ أخبار أربعة مترادفة أى ذلك الموصوف بتلك الصفات العظيمة هو الله المستحق للعبادة خاصة مالك أمركم لا شريك له أصلا خالق كل شىء مما كان ومما سيكون فلا تكرار إذ المعتبر فى عنوان الموضوع

إنما هو خالقيته لما كان فقط كما ينبىء عنه صيغة الماضى وقيل الخبر هو الأول والبواقى أبدال وقيل الاسم الجليل بدل من المبتدأ والبواقى أخبار وقيل يقدر لكل من الأخبار الثلاثة مبتدأ وقيل يجعل الكل بمنزلة اسم واحد وقوله تعالى ﴿ فاعبدوه ﴾ حكم مترتب على مضمون الجملة فإن من جمع هذه الصفات كان هو المستحق للعبادة خاصة وقوله تعالى ﴿ وهو على شىء وكيل ﴾ عطف على كل شىء وكيل ﴾ عطف على الجملة المتقدمة أى هو مع ما فصل من الصفات الجليلة متولى أمور جميع مخلوقاته التى أنتم من جملتها فكلوا أموركم إليه وتوسلوا بعبادته إلى نجاح مآربكم الدنيوية والأخروية ،

﴿ لاتدركه الأبصار ﴾ البصر حاسة النظر وقد تطلق على العين من حيث أنها محلها وإدراك الشىء عبارة عن الوصول إليه والإحاطة به أى لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به كما قال سعيد بن المسيب وقال عطاء كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به فلا متمسك فيه لمنكرى الرؤية على الإطلاق وقد روى عن ابن عباس ومقاتل رضى الله عنهم لا تدركه الأبصار فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ أى يحيط بها علمه إذ لا تخفى عليه خافية وهو اللطيف الخبير ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار ويجوز أن يكون تعليلا للحكمين السابقين على طريقة اللف أى لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير فيكون اللطيف مستفادا من مقابل الكثيف لما لايدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها وقوله تعالى :

﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾ استئناف وارد على لسان النبي عليه الصلاة والسلام والبصائر جمع بصيرة وهى النور الذى به تستبصر النفس كما أن البصر نور به تبصر العين والمراد بها الآية الواردة ههنا أو جميع الآية المنتظمة لها انتظاما أوليا ومن لابتداء الغاية مجازا سواء تعلقت بجاء أو بمحذوف هو صفة لبصائر والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار كمال اللطف بهم أى قد جاءكم من جهة مالككم ومبلغكم إلى كمالكم اللائق بكم

من الوحى الناطق بالحق والصواب ما هو كالبصائر للقلوب أو قد جاءكم بصائر كائنة من ربكم ﴿ فمن أبصر ﴾ أى ألحق بتلك البصائر وآمن به ﴿ فلنفسه ﴾ أى فلنفسه أبصر أو فإبصاره لنفسه لأن نفعه مخصوص بها ﴿ ومن عمى ﴾ أى ومن لم يبصر الحق بعد ما ظهر له بتلك البصائر ظهورا بينا وضل عنه وإنما عبر عنه بالعمى تقبيحا له وتنفيرا عنه ﴿ فعليها ﴾ أى فعليها عمى أو فعماه عليها أو وبال عمله ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ وإنما أنا منذر والله هو الذى يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها ﴿ وكذلك نصرف الآيات ﴾ أى مثل ذلك التصريف البديع نصرف الآيات الدالة على المعانى الرائقة الكاشفة عن الحقائق الفائقة لا تصريفا أدنى منه وقوله تعالى ﴿ وليقولوا درست ﴾ علة لفعل قد حذف تعويلا على دلالة السياق عليه أى وليقولوا درست نفعل ما نفعل من التصريف المذكور واللام للعاقبة والواو اعتراضية وقيل هى عاطفة على علة محذوفة واللام متعلقة بنصرف أى مثل ذلك التصريف نصرف الآيات لنلزمهم الحجة وليقولوا الخ وقيل اللام لام الأمر وتنصره القراءة بسكون اللام كأنه قيل وكذلك نصرف الآيات وليقولوا هم ما يقولون فإنه لا احتفال بهم ولا اعتداد بقولهم وهذا أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بقولهم ورد عليه بأن ما بعده يأباه ومعنى درست قرأت وتعلمت وقرىء دارست أى دارست العلماء ودرست أى قدمت هذه الآيات وعفت كما قالوا أساطير الأولين ودرست بضم الراء مبالغة فى درست أى اشتد دروسها ودرست على البناء للمفعول بمعنى قرئت أو عفيت ودارست وفسروها بدارست اليهود محمدا صلى الله عليه وسلم وجاز الإضمار لاشتهارهم بالدراسة وقد جوز إسناد الفعل إلى الآيات وهو فى الحقيقة لأهلها أى دارس أهل الآيات وحملتها محمدا صلى الله عليه وسلم وهم أهل الكتاب ودرس أى درس محمد ودارسات أى هى دارسات أى قديمات أو ذات درس كعيشة راضية وقوله تعالى ﴿ ولنبينه ﴾ عطف على ليقولوا واللام على الأصل لأن التبيين غاية التصريف والضمير للآيات باعتبار المعنى أو للقرآن وإن لم يذكر أو للمصدر أى ولنفعل التبيين واللام فى قوله تعالى ﴿ لقوم

يعلمون ﴾ متعلقة بالتبيين وتخصيصه بهم لما أنهم المنتفعون به قال ابن عباس هم أولياؤه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد ووصفهم بالعلم للإيذان بغاية جهل الأولين وخلوهم عن العلم بالمرة .

إرشادات للنبي صلى الله عليه وسلم

﴿ اتبع ما أوحى إليك من ربك ﴾ لما حكى عن المشركين قدحهم فى تصريف الآيات عقب ذلك بأمره عليه السلام بالثبات على ما هو عليه وبعدم الاعتداد بهم وبأباطيلهم أى دم على ما أنت عليه من اتباع ما أوحى إليك من الشرائع والأحكام التى عمدتها التوحيد وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من إظهار اللطف به ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ لا إله إلا هو ﴾ اعتراض بين الأمرين المتعاطفين مؤكد لإيجاب اتباع الوحى لاسيما فى أمر التوحيد وقد جوز أن يكون حالا من ربك أى منفردا فى الألوهية ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ لا تحتفل بهم وبأقاويلهم الباطلة التى من جملتها ما حكى عنهم آنفا ومن جعله منسوخا بآية السيف حمل الإعراض على ما يعم الكف عنهم .

﴿ ولو شاء الله ﴾ أى عدم إشراكهم حسبما هو القاعدة المستمرة فى حذف مفعول المشيئة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء ﴿ ما أشركوا ﴾ وهذا دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه من توجهه إليه بل بمعنى أنه تعالى لا يريده منه لعدم صرف اختياره الجزئى نحو الإيمان وإصراره على الكفر والجملة اعتراض مؤكد للإعراض وكذا قوله تعالى ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظا ﴾ أى رقيبا مهيمنا من قبلنا تحفظ عليهم أعمالهم وكذا قوله تعالى ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ من جهتهم تقوم بأمورهم وتدبر مصالحهم وعليهم فى الموضعين متعلق بما بعده قدم عليه للاهتمام أو لرعاية الفواصل .

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾ أى لا تشتموهم من حيث عبادتهم لآلهتهم كأن تقولوا تبا لكم ولما تعبدونه مثلا ﴿ فيسبوا الله عدوا ﴾ تجاوزا عن الحق إلى الباطل بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم ﴿ بغير علم ﴾ أى بجهالة بالله[1] تعالى وبما يجب أن يذكر به وقرىء عدوا يقال عدا يعدو عدوا وعدوا وعداء وعدوانا . روى أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون إلهك وقيل كان المسلمون يسبونهم فنهوا عن ذلك لئلا يستتبع سبهم سبه سبحانه وتعالى وفيه أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدى إلى الشر شر ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك التزيين القوى ﴿ زينا لكل أمة عملهم ﴾ من الخير والشر بإحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقا أو تخذيلا ويجوز أن يراد بكل أمة أمم الكفرة إذ الكلام فيهم وبعملهم شرهم وفسادهم والمشبه به تزيين سب الله تعالى لهم ﴿ ثم إلى ربهم ﴾ مالك أمرهم ﴿ مرجعهم ﴾ أى رجوعهم وهو البعث بعد الموت ﴿ فينبئهم ﴾ من غير تأخير ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ فى الدنيا على الاستمرار من السيئات المزينة لهم وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة سرية مبنية على حكمة أبية وهو أن كل ما يظهر فى هذه النشأة من الأعيان والأعراض فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة فإن المعاصى سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا بصورة ما تستحسنها نفوس العصاة كما نطقت به هذه الآية الكريمة وكذا الطاعات فإنها مع كونها أحسن الأحاسن قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ولذلك قال عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فأعمال الكفرة قد برزت لهم فى النشأة بصورة مزينة يستحسنها الغواة ويستحبها الطغاة وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم

---

(١) فى ١١ على جهل بقدر الله .

ماذا فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها لما أن كلا منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هى فليتدبر قوله تعالى :

﴿ وأقسموا بالله ﴾ روى أن قريشا اقترحوا بعض آيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن فعلت بعض ما تقولون أتصدقوننى فقالوا نعم وأقسموا لئن فعلته ليؤمنن جميعا فسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها طمعا فى إيمانهم فهم عليه الصلاة والسلام بالدعاء فنزلت وقوله تعالى ﴿ جهد أيمانهم ﴾ مصدر فى موقع الحال أى أقسموا به تعالى جاهدين فى إيمانهم ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ من مقترحاتهم أو من جنس الآيات وهو الأنسب بحالهم فى المكابرة والعناد وترامى أمرهم فى العتو والفساد حيث كانوا لا يعدون ما يشاهدونه من المعجزات الباهرة من جنس الآيات ﴿ ليؤمنن بها ﴾ وما كان مرمى غرضهم فى ذلك إلا التحكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلب المعجزة وعدم الاعتداد بما شاهدوا منه من البينات الحقيقة بأن تقطع بها الأرض وتسير بها الجبال ﴿ قل إنما الآيات ﴾ أى كلها فيدخل فيها ما اقترحوه دخولا أوليا ﴿ عند الله ﴾ أى أمرها فى حكمه وقضائه خاصة يتصرف فيها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة لا تتعلق بها ولا يشأن من شئونها قدرة أحد ولا مشيئته لا استقلالا ولا اشتراكا بوجه من الوجوه حتى يمكننى أن أتصدى لاستنزالها بالاستدعاء وهذا كما ترى سد لباب الاقتراح على أبلغ وجه وأحسنه ببيان علو شأن الآيات وصعوبة منالها وتعاليها من أن تكون عرضة للسؤال والاقتراح وأما ما قيل من أن المعنى إنما الآيات عندالله تعالى لا عندى فكيف أجيبكم إليها أو آتيكم بها وهو القادر عليها لا أنا حتى آتيكم بها فلا مناسبة له بالمقام كيف لا وليس مقترحهم مجيئها بغير قدرة الله تعالى وإرادته حتى يجابوا بذلك وقوله تعالى :

﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر مسوق من جهته تعالى لبيان الحكمة الداعية إلى ما أشعر به الجواب

السابق من عدم مجيء الآيات خوطب به المسلمون إما خاصة بطريق التلوين لما كانوا راغبين فى نزولها طمعا فى إسلامهم وإما معه عليه الصلاة والسلام بطريق التعميم لما روى عنه صلى الله عليه وسلم من الهم بالدعاء وقد بين فيه أن أيمانهم فاجرة وإيمانهم مما لا يدخل تحت الوجود وإن أجيب إلى ما سألوه وما استفهامية إنكارية لكن لا على أن مرجع الإنكار هو وقوع المشعر به بل هو نفس الإشعار مع تحقق المشعر به فى نفسه أى وأى شيء يعلمكم أن الآية التى يقترحونها إذا جاءت[1] لا يؤمنون بل يبقون على ما كانوا عليه من الكفر والعناد أى لا تعلمون ذلك فتتمنون مجيئها طمعا فى إيمانهم فكأنه بسط عذر من جهة المسلمين فى تمنيهم نزول الآيات وقيل لا مزيدة فيتوجه الإنكار إلى الإشعار به جميعا أى أى شيء يعلمكم إيمانهم عند مجيء الآيات حتى تتمنوا مجيئها طمعا فى إيمانهم فيكون تخطئة لرأى المسلمين وقيل أن بمعنى لعل يقال أدخل السوق أنك تشترى اللحم وعنك وعلك ولعلك كلها بمعنى ويؤيده أنه قرىء لعلها إذا جاءت لا يؤمنون على أن الكلام قد تم قبله والمفعول الثانى ليشعركم محذوف كما فى قوله تعالى (وما يدرك لعله يزكى) والجملة استئناف لتعليل الإنكار وتقريره أى أى شيء يعلمكم حالهم وما سيكون عند مجيء الآيات لعلها إذا جاءت لا يؤمنون بها فما لكم تتمنون مجيئها فإن تمنيهم إنما يليق بما إذا كان إيمانهم بها محقق الوجود عند مجيئها لا مرجو العدم وقرىء إنها بالكسر على أنه استئناف حسبما سبق مع زيادة تحقيق لعدم إيمانهم وقرىء لا تؤمنون بالفوقانية فالخطاب فى وما يشعركم للمشركين وقرىء وما يشعرهم أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون فمرجع الإنكار إقدام المشركين على الإقسام المذكور مع جهلهم بحال قلوبهم عند مجيء الآيات وبكونها حينئذ كما هى الان .

﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ عطف على لا يؤمنون داخل فى حكم ما يشعركم مقيد بما قيد به أى وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا

---

(١) فى ١٠ : إذا جاءتهم .

يفقهونه وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه لكن لا مع توجهها إليه واستعدادها لقبوله بل لكمال نبوها عنه وإعراضها بالكلية ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم إشعاراً بأصالتهم فى الكفر وحسما لتوهم أن عدم إيمانهم ناشىء من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الإجبار ﴿ كما لو يؤمنوا به ﴾ أى بما جاء من الآيات ﴿ أول مرة ﴾ أى عند ورود الآيات السابقة والكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف منصوب بلا يؤمنون وما مصدرية أى لا يؤمنون بل يكفرون كفرا كائنا ككفرهم أول مرة وتوسيط تقليب الأفئدة والأبصار بينهما لأنه من متممات عدم إيمانهم ﴿ ونذرهم ﴾ عطف على لا يؤمنون داخل فى حكم الاستفهام الإنكارى مقيد بما قيد به مبين لما هو المراد بتقليب الأفئدة والأبصار ومعرب عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره بأن يقلب الله سبحانه مشاعرهم عن الحق مع توجههم إليه واستعدادهم له بطريق الإجبار بل بأن يخليهم وشأنهم بعد ما علم فساد استعدادهم وفرط نفورهم عن الحق وعدم تأثير اللطف فيهم أصلا ويطبع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم كما أشرنا إليه وقوله تعالى ﴿ فى طغيانهم ﴾ متعلق بنذرهم وقوله تعالى ﴿ يعمهون ﴾ حال من الضمير المنصوب فى نذرهم أى ندعهم فى طغيانهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين أو مفعول ثان لنذرهم أى نصيرهم عامهين وقرىء يقلب ويذر بالياء على إسنادهما إلى ضمير الجلالة وقرىء تقلب بالتاء والبناء للمفعول على إسناده إلى أفئدتهم .

﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ﴾ تصريح بما أشعر به قوله عز وجل وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون من الحكمة الداعية إلى ترك الإجابة إلى ما اقترحوه من الآيات إثر بيان أنها فى حكمه وقضائه المبنى على الحكم البالغة لا مدخل لأحد فى أمرها بوجه من الوجوه وبيان لكذبهم فى أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده أى ولو أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه ههنا من آية واحدة من الآيات بل نزلنا إليهم الملائكة كما سألوه بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة وقولهم لو ما تأتينا بالملائكة ﴿ وكلمهم الموتى ﴾ وشهدوا بحقية الإيمان

بعد أن أحييناهم حسبما اقترحوه بقولهم فأتوا بآبائنا ﴿ وحشرنا ﴾ أى جمعنا ﴿ عليهم كل شىء قبلا ﴾ بضمتين وقرىء بسكون الباء أى كفلاء بصحة الأمر وصدق النبي صلى الله عليه وسلم على أنه جمع قبيل بمعنى الكفيل كرغيف ورغف وقضيب وقضب وهو الأنسب بقوله تعالى (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) أى لو لم نقتصر على ما اقترحوه بل زدنا على ذلك بأن أحضرنا لديهم كل شىء[٢] يتأتى منه الكفالة والشهادة بما ذكر لا فرادى بل بطريق المعية أو جماعات على أنه جمع قبيل وهو جمع قبيلة وهو الأوفق لعموم كل شىء وشموله للأنواع والأصناف أى حشرنا كل شىء نوعا نوعا وصنفا وصنفا وفوجا فوجا وانتصابه على الحالية وجمعيته باعتبار الكل المجموعى اللازم للكل الإفرادى أو مقابلة وعيانا على أنه مصدر كقبلا .

وقد قرىء كذلك وانتصابه على الوجهين على أنه مصدر فى موقع الحال وقد نقل عن المبرد وجماعة من أهل اللغة أن الأخير بمعنى الجهة كما فى قولك لى قبل فلان حق وأن انتصابه على الظرفية ﴿ ما كانوا ليؤمنوا ﴾ أى ما صح وما استقام لهم الإيمان لتماديهم فى العصيان وغلوهم فى التمرد والطغيان وأما ما سبق القضاء عليهم بالكفر فمن الأحكام المترتبة على ذلك حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل (ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وقوله تعالى ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال والالتفات إلى الاسم لتربية المهابة وإدخال الروعة أى ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ما ذكر من الأمور الموجبة للإيمان فى حال من الأحوال الداعية إليه المتممة لموجباته المذكورة إلا فى حال مشيئته تعالى لإيمانهم أو من أعم العلل أى ما كانوا ليؤمنوا لعلة من العلل المعدودة وغيرها إلا لمشيئته تعالى له وأياما كان فليس المراد بالاستثناء بيان أن إيمانهم على خطر الوقوع بناء على كون مشيئته تعالى أيضا كذلك بل بيان استحالة وقوعه بناء على استحالة وقوعها كأنه قيل ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله وهيهات ذلك وحالهم حالهم بدليل ما سبق من قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم) الآية

(١) فى ٤٣٠ : لهم كل شىء .

كيف لا وقوله عز وجل ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ استدراك من مضمون الشرطية بعد ورود الاستثناء لا قبله ولا ريب فى أن الذى يجهلونه سواء أريد بهم المسلمون وهو الظاهر أو المقسمون ليس عدم إيمانهم بلا مشيئة الله تعالى كما هو اللازم من حمل النظم الكريم على المعنى الأول فإنه ليس مما يعتقده الأولون ولا مما يدعيه الآخرون بل إنما هو عدم إيمانهم لعدم مشيئته إيمانهم ومرجعه إلى جهلهم بعدم مشيئته إياه فالمعنى أن حالهم كما شرح ولكن أكثر المسلمين يجهلون عدم إيمانهم عند مجىء الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لإيمانهم فيتمنون مجيئها طمعا فيما لا يكون فالجملة مقررة لمضمون قوله تعالى (وما يشعركم) الخ على القراءة المشهورة أو ولكن أكثر المشركين يجهلون عدم إيمانهم عند مجىء الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لإيمانهم حينئذ فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يكاد يكون فالجملة على القراءة السابقة بيان مبتدأ لمنشأ خطأ المقسمين ومناط إقسامهم وتقرير له على قراءة لا تؤمنون بالتاء الفوقانية وكذا على قراءة وما يشعرهم أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون .

تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم

﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يشاهده من عداوة قريش له عليه الصلاة والسلام وما بنوا عليها مما لا خير فيه من الأقاويل والأفاعيل ببيان أن ذلك ليس مختصا بل هو أمر ابتلى به كل من سبقك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أشير إليه بذلك منصوب بفعله المحذوف مؤكد لما بعده وذلك إشارة إلى ما يفهم مما قبله أى جعلنا لكل نبى عدوا والتقديم على الفعل المذكور للقصر المفيد للمبالغة أى مثل ذلك الجعل الذى جعلنا فى حقك لك عدوا يضادونك ويضارونك ولا يؤمنون ويبغونك الغوائل ويدبرون فى إبطال أمرك مكايد جعلنا لكل نبى تقدمك عدوا فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤك لا جعلا أنقص منه وفيه دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم السلام بخلقه تعالى للابتلاء ﴿شياطين الإنس والجن﴾ أى مردة

الفريقين على أن الإضافة بمعنى من البيانية وقيل هى إضافة الصفة إلى الموصوف والأصل الإنس والجن والشياطين وقيل هى بمعنى اللام أى الشياطين التى للإنس والتى للجن وهو بدل من عدوا والجعل متعد إلى واحد أو إلى اثنين وهو أول مفعوليه قدم عليه الثانى مسارعة إلى بيان العداوة واللام على التقديرين متعلقة بالجعل أو بمحذوف هو حال من عدوا وقوله تعالى ﴿يوحى بعضهم إلى بعض﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أحكام عداوتهم وتحقيق وجه الشبه بين المشبه والمشبه به أو حال من الشياطين أو نعت لعدوا وجمع الضمير باعتبار المعنى فإنه عبارة عن الأعداء كما فى قوله .

إذا أنا لم أنفع صديقى بوده فإن عدوى لم يضرهموا بغضى

والوحى عبارة عن الإيماء والقول السريع أى يلقى ويوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس أو بعض كل من مفريقين إلى بعض آخر ﴿زخرف القول﴾ أى المموه منه المزين ظاهره الباطل باطنه من زخرفه إذا زينه ﴿غرورا﴾ مفعول له ليوحى أى ليغروهم أو مصدر فى موقع الحال أى غارين أو مصدر مؤكد لفعل مقدر هو حال من فاعل يوحى أى يغرون غرورا ﴿ولو شاء ربك﴾ رجوع إلى بيان الشئون الجارية بينه صلى الله عليه وسلم وبين قومه المفهومة من حكاية ما جرى بين الأنبياء عليهم السلام وبين أممهم كما ينبىء عنه الالتفات والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم المعربة عن كمال اللطف فى التسلية أى ولو شاء ربك عدم الأمور المذكورة لا إيمانهم كما قيل فإن القاعدة المستمرة أن مفعول المشيئة إنما يحذف عند وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وهو قوله تعالى ﴿ما فعلوه﴾ أى ما فعلوا ما ذكر من عداوتك وإيحاء بعضهم إلى بعض مزخرفات الاوقايل الباطلة المتعلقة بأمرك خاصة لا بما يعمه وأمور الانبياء عليهم السلام أيضا كما قيل فإن قوله تعالى ﴿فذروهم وما يفترون﴾ صريح فى أن المراد بهم الكفرة المعاصرون له عليه الصلاة والسلام أى إذا كان ما فعلوه من أحكام عداوتك من فنون المفاسد بمشيئته تعالى فاتركهم وافتراءهم أو ما يفترونه من أنواع المكايد فإن

لهم فى ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة لابتناء مشيئته تعالى على الحكم البالغة البتة .

﴿ ولتصغى إليه ﴾ أى إلى زخرف القول وهو على الوجه الأول علة أخرى للإيحاء معطوفة على غرورا وما بينهما اعتراض وإنما لم ينصب لفقد شرطه إذ الغرور فعل الموحى وصغو الأفئدة فعل الموحى إليه أى يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغررهم به ولتميل إليه ﴿ أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ إنما خص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة دون ما عداها من الأمور التى يجب الإيمان بها وهم بها كافرون إشعارا بما هو المدار فى صغو أفئدتهم إلى ما يلقى إليهم فإن لذات الآخرة محفوفة فى هذه النشأة بالمكاره وآلامها مزينة بالشهوات فالذين لا يؤمنون بها وبأحوال ما فيها لا يدرون أن وراء تلك المكاره لذات ودون هذه الشهوات آلاما وإنما ينظرون إلى ما بدالهم فى الدنيا بادىء الرأى فهم مضطرون إلى حب الشهوات التى من جملتها مزخرفات الأقاويل ومموهات الأباطيل وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ناظرين إلى عواقب الأمور لم يتصور منهم الميل إلى تلك المزخرفات(١) لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتها وأما على الوجهين الأخيرين فهو علة لفعل محذوف يدل عليه المقام أى ولكون ذلك جعلنا ما جعلنا والمعتزلة جعلوا اللام لام العاقبة أو لام القسم أو لام الأمر وضعفه فى غاية الظهور ﴿ وليرضوه ﴾ لأنفسهم بعد ما مالت إليه أفئدتهم ﴿ وليقترفوا ﴾ أى يكتسبوا بموجب ارتضائهم له ﴿ ماهم مقترفون ﴾ له من القبائح التى لا يليق ذكرها .

﴿ أفغير الله أبتغى حكما ﴾ كلام مستأنف وارد على إرادة القول والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام أى قل لهم أأميل إلى زخارف الشياطين فأبتغى حكما غير الله يحكم بيننا ويفصل المحق منا من المبطل وقيل إن مشركى قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما من

---

(١) فى ١٠ الزخارف .

أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك فنزلت وإسناد الابتغاء المنكر إلى نفسه صلى الله عليه وسلم لا إلى المشركين كما فى قوله تعالى (أفغير دين الله يبغون) مع أنهم الباغون لإظهار كمال النصفة أو لمراعاة قولهم اجعل بيننا وبينك حكما وغير إما مفعول أبتغى وحكما حال منه وإما بالعكس وأيا ما كان فتقديمه على الفعل الذى هو المعطوف بالفاء حقيقة كما أشير إليه للإيذان بأن مدار الإنكار هو ابتغاء غيره تعالى حكما لا مطلق الابتغاء وقيل حكما تمييز لما فى غير من الإبهام كقولهم إن لنا غيرها إبلا قالوا الحكم أبلغ من الحاكم وأدل على الرسوخ لما أنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم وقوله تعالى .

﴿ وهو الذى أنزل إليكم الكتاب ﴾ جملة حالية مؤكدة لإنكار ابتغاء غيره تعالى حكما ونسبة الإنزال إليهم خاصة مع أن مقتضى المقام إظهار تساوى نسبته إلى المتحاكمين لاستمالتهم نحو المنزل واستنزالهم إلى قبول حكمه بإيهام قوة نسبته إليهم أى أغيره تعالى أبتغى حكما والحال أنه هو الذى أنزل إليكم وأنتم أمة أمية لا تدرون ما تأتون وما تذرون فإن القرآن الناطق بالحق والصواب الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب ﴿ مفصلا ﴾ أى مبينا فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام بحيث لم يبق فى أمور الدين شىء من التخليط والإبهام فأى حاجة بعد ذلك إلى الحكم وهذا كما ترى صريح فى أن القرآن الكريم كاف فى أمر الدين مغن عن غيره ببيانه وتفصيله وأما أن يكون لإعجازه دخل فى ذلك كما قيل فلا وقوله تعالى .

﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت القول المقدر مسوق من جهته سبحانه لتحقيق حقية الكتاب الذى نيط به أمر الحكمية وتقرير كونه منزلا من عنده عز وجل ببيان أن الذين وثقوا بهم ورضوا بحكميتهم حسبما نقل آنفا من علماء اليهود والنصارى عالمون بحقيته ونزوله من عنده تعالى وفى التعبير عن التوراة والإنجيل باسم الكتاب إيماء إلى ما بينهما وبين القرآن من المجانسة المقتضية للاشتراك فى الحقية

والنزول من عنده تعالى مع مافيه من الإيجاز وإيراد الطائفتين بعنوان إيتاء الكتاب للإيذان بأنهم علموه من جهة كتابهم حيث وجدوه حسبما نعت فيه وعاينوه موافقا له فى الأصول ومالا يختلف من الفروع ومخبرا عن أمور لا طريق إلى معرفتها سوى الوحى والمراد بالموصول إما علماء الفريقين وهو الظاهر فالإيتاء هو التفهيم بالفعل وإما الكل وهم داخلون فيه دخولا أوليا فهو أعم مما ذكر من التفهيم بالقوة ولا ريب فى أن الكل متمكنون من ذلك وقيل المراد مؤمنوا أهل الكتاب وقرىء منزل من الإنزال والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لتشريفه عليه الصلاة والسلام والباء فى قوله تعالى بالحق متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى منزل أى ملتبسا بالحق .

﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ أى فى أنهم يعلمون ذلك لما لا تشاهد منهم آثار العلم وأحكام المعرفة فالفاء لترتيب النهى على الإخبار بعلم أهل الكتاب بشأن القرآن أو فى أنه منزل من ربك بالحق فيكون من باب التهييج والإلهاب كقوله تعالى (ولا تكونن من المشركين) وقيل الخطاب فى الحقيقة للأمة وإن كان له صلى الله عليه وسلم صورة وقيل الخطاب لكل أحد على معنى أن الأدلة قد تعاضدت وتظاهرت فلا ينبغى لاحد أن يمترى فيه والفاء على هذه الوجوه لترتيب النهى على نفس علمهم بحال القرآن ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ شروع فى بيان كمال الكتاب المذكور من حيث ذاته إثر بيان كماله من حيث إضافته إليه تعالى بكونه منزلا منه بالحق وتحقيق ذلك بعلم أهل الكتاب به وإنما عبر عنه بالكلمة لأنها الأصل فى الاتصاف بالصدق والعدل وبها تظهر الآثار من الحكم وقرىء كلمات ربك ﴿ صدقا وعدلا ﴾ مصدران نصبا على الحال وقيل على التمييز وقيل على العلة وقوله تعالى ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ إما استئناف مبين لفضلها على غيرها إثر بيان فضلها فى نفسها وإما حال أخرى من فاعل تمت على أن الظاهر مغن عن الضمير الرابط والمعنى أنها بلغت الغاية القاصية صدقا فى الإخبار والمواعيد وعدلا فى الأقضية والأحكام لا أحد يبدل شيئا من

ذلك بما هو أصدق وأعدل ولا بما هو مثله فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى ﴿ وهو السميع ﴾ لكل مايتعلق به السمع ﴿ العليم ﴾ بكل مايمكن أن يعلم فيدخل فى ذلك أقوال المتحاكمين وأحوالهم الظاهرة والباطنة دخولا أوليا هذا وقد قيل المعنى لا أحد يقدر على أن يحرفها كما فعل بالتوراة فيكون ضمانا لها من الله عز وجل بالحفظ كقوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أولا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها .

﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض ﴾ لما تحقق اختصاصه تعالى بالحكمية لاستقلاله بما يوجبها من إنزال الكتاب الكامل الفاصل بين الحق والباطل وتمام صدق كلامه وكمال عدالة أحكامه وامتناع وجود من يبدل شيأ منها واستبداده تعالى بالإحاطة التامة بجميع (المسموعات)[1] والمعلومات عقب ذلك ببيان أن الكفرة متصفون بنقائض تلك الكمالات من النقائص التى هى الضلال والإضلال واتباع الظنون الفاسدة الناشىء من الجهل والكذب على الله سبحانه وتعالى إبانة لكمال مباينة حالهم لما يرومونه وتحذيرا عن الركون إليهم والعمل بآرائهم والمراد بمن فى الأرض الناس وبأكثرهم الكفار وقيل أهل مكة والأرض أرضها أى أن تطعهم بأن جعلت منهم حكما ﴿ يضلوك عن سبيل الله ﴾ عن الطريق الموصل إليه أو عن الشريعة التى شرعها لعباده ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم على آثارهم يهتدون أو جهالاتهم وآراؤهم الباطلة على أن المراد بالظن ما يقابل العلم والجملة استئناف مبنى على سؤال نشأ من الشرطية كأنه قيل كيف يضلون فقيل لا يتبعون فى أمور دينهم إلا الظن وإن الظن لايغنى من الحق شيئاً فيضلون ضلالا مبيناً ولا ريب فى أن الضال المتصدى للإرشاد إنما يرشد غيره إلى مسلك نفسه فهم ضالون مضلون وقوله تعالى ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ عطف على ماقبله داخل فى حكمه أى يكذبون على الله سبحانه فيما ينسبون إليه تعالى كاتخاذ الولد وجعل

---

(١) سقطت من ١٠ ، ٤٣٠ .

عبادة الأوثان ذريعة إليه تعالى وتحليل الميتة وتحريم البحائر ونظائرها أو أو يقدرون أنهم على شيء وأنى لهم ذلك ودونه مناط العيوق وحقيقته ما يقال عن ظن وتخمين :

﴿ إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ تقرير لمضمون الشرطية وما بعدها وتأكيد لما يفيده من التحذير أى هو أعلم بالفريقين فاحذر أن تكون من الأولين ومن موصولة أو موصوفة فى محل النصب لا بنفس أعلم فإن أفعل التفضيل لا ينصب الظاهر فى مثل هذه الصور بل بفعل دل هو عليه أو استفهامية مرفوعة بالابتداء والخبر يضل والجملة معلق عنها الفعل المقدر وقرىء يضل بضم الياء على أن من فاعل ليضل ومفعوله محذوف ومحلها النصب بما ذكر من الفعل المقدر أى هو أعلم يعلم من يضل الناس فيكون تأكيدا للتحذير عن طاعة الكفرة وإما أن الفاعل هو الله تعالى ومن منصوبة بما ذكر أى يعلم من يضله أو مجرورة بإضافة أعلم إليها أى أعلم المضلين من قوله تعالى من يضلل الله أو من قولك أضللته إذا وجدته ضالا فلا يساعده السباق والسياق والتفضيل فى العلم بكثرته وإحاطته بالوجوه التى يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لا بالغير .

وجوب عدم اتباع المضلين فى تحريم الحلال

﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ أمر مترتب على النهى عن اتباع المضلين الذين من جملة إضلالهم تحليل الحرام وتحريم الحلال وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين إنكم تعبدون الله فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فقيل للمسلمين كلوا مما ذكر اسمه تعالى خاصة على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره فقط أو مع اسمه تعالى أو مات حتف أنفه ﴿إن كنتم بآياته﴾ التى من جملتها الآيات الواردة فى هذا الشأن ﴿ مؤمنين﴾ فإن الإيمان بها يقتضى استباحة ما أحله الله والاجتناب عما حرمه وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه .

﴿ وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ إنكار لأن يكون لهم شيء

يدعوهم إلى الاجتناب عن أكل ما ذكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب ونحوها وقوله تعالى ﴿ وقد فصل لكم ﴾ الخ جملة حالية مؤكدة للإنكار كما فى قوله تعالى (وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) أى وأى سبب حاصل لكم فى ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه أو وأى غرض يحملكم على أن لا تأكلوا ويمنعكم من أكله والحال أنه قد فصل لكم ﴿ ماحرم عليكم ﴾ بقوله تعالى (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما) الخ فبقى ماعدا ذلك على الحل لا بقوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) الخ لأنها مدنية وأما التأخر فى التلاوة فلا يوجب التأخر فى النزول وقرىء الفعلان على البناء للمفعول وقرىء الأول على البناء للفاعل والثانى للمفعول ﴿ إلا ما اضطررتم إليه ﴾ مما حرم فإنه أيضاً حلال حينئذ ﴿ وإن كثيرا ﴾ أى من الكفار ﴿ ليضلون ﴾ الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام كعمرو بن لحى وأضرابه وقرىء يضلون ﴿ بأهوائهم ﴾ الزائغة وشهواتهم الباطلة ﴿ بغير علم ﴾ مقتبس من الشريعة الشريفة مستند إلى الوحى ﴿ إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ المتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل والحلال إلى الحرام .

﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ أى ما يعلن من الذنوب وما يسر أو ما يعمل منها بالجوارح وما بالقلب وقيل الزنا فى الحوانيت واتخاذ الأخذان ﴿ إن الذين يكسبون الإثم ﴾ أى يكتسبونه من الظاهر والباطن ﴿ سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ كائنا ما كان فلا بد من اجتنابهما والجملة تعليل للأمر .

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ ظاهر فى تحريم متروك التسمية عمدا كان أو نسيانا وإليه ذهب داود وعن أحمد بن حنبل مثله وقال مالك والشافعى بخلافه لقوله عليه السلام « ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه» وفرق أبو حنيفة بين العمد والنسيان وأوله بالميتة أو بما ذكر عليه اسم غيره تعالى لقوله ﴿ وإنه لفسق ﴾ فإن الفسق ما أهل به لغير الله والضمير لما ويجوز أن يكون للأكل المدلول عليه بلا تأكلوا والجملة مستأنفة وقيل حالية

﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ المراد بالشياطين إبليس وجنوده فإيحاؤهم وسوستهم إلى المشركين وقيل مردة المجوس فإيحاؤهم إلى أوليائهم ما أنهوا إلى قريش بالكتاب أن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن ما يقتلونه حلال وما يقتله الله حرام ﴿ ليجادلوكم ﴾ أي بالوساوس الشيطانية أو بما نقل من أباطيل المجوس وهو يؤيد التأويل بالميتة ﴿ وإن أطعتموهم ﴾ في استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم ﴿ إنكم لمشركون ﴾ ضرورة أن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشركه به تعالى بل آثره عليه سبحانه .

﴿ أو من كان ميتاً ﴾ وقرىء ميتاً على الأصل ﴿ فأحييناه ﴾ تمثيل مسوق لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين إثر تحذيرهم عنها بالإشارة إلى أنهم مستضيئون بأنوار الوحي الإلهي والمشركون خابطون في ظلمات الكفر والطغيان فكيف يعقل إطاعتهم لهم والهمزة للإنكار والنفي والواو لعطف الجملة الاسمية على مثلها الذي يدل عليه الكلام أي أأنتم مثلهم ومن كان ميتا فأعطيناه الحياة وما يتبعها من القوى المدركة والمحركة ﴿ وجعلنا له ﴾ مع ذلك من الخارج ﴿ نورا ﴾ عظيما ﴿ يمشي به ﴾ أي بسببه والجملة استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا يصنع بذلك النور فقيل يمشي به ﴿ في الناس ﴾ أي فيما بينهم آمنا من جهتهم أو صفة له ﴿ كمن مثله ﴾ أي صفته العجيبة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ في الظلمات ﴾ خبره على أن المراد بهما اللفظ لا المعنى كما في قولك زيد صفته أسمر وهذه الجملة صلة لمن وهي مجرورة بالكاف وهي مع مجرورها خبر لمن الأولى وقوله تعالى ﴿ ليس بخارج منها ﴾ حال من المستكن في الظرف وقيل من الموصول أي غير خارج منها بحال وهذا كما ترى مثل أريد به من بقي في الضلالة بحيث لا يفارقها أصلا كما أن الأول مثل أريد به من خلقه الله تعالى على فطرة الإسلام وهداه بالآيات البينة إلى طريق الحق يسلكه كيف يشاء لكن لا على أن يدل على كل واحد من هذه المعاني بما يليق به من الألفاظ الواردة في المثلين بواسطة تشبيهه بما يناسبه من معانيها فإن ألفاظ المثل باقية في

معانيها الأصلية بل على أنه قد انتزعت من الأمور المتعددة المعتبرة فى كل واحد من جانبي المثلين هيئة على حدة فشبهت بهما الأوليان ونزلتا منزلتيهما فاستعمل فيهما ما يدل على الآخريين بضرب من التجوز وقد أشير فى تفسير قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) الآية إلى أن التمثيل قسم برأسه لاسبيل إلى جعله من باب الاستعارة حقيقة وأن الاستعارة التمثيلية من عبارات المتأخرين. نعم قد يجرى ذلك على سنن الاستعارة بأن لا يذكر المشبه كهذين التمثيلين ونظائرهما وقد يجرى على منهاج التشبيه كما فى قوله :

وما النـــاس إلا كالديار وأهلها
بها يوم حـــلوها وغدوا بلاقع

﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك التزيين البليغ ﴿ زين ﴾ أى من جهة الله تعالى بطريق الخلق عند إيحاء الشياطين أو من جهة الشياطين بطريقة الزخرفة والتسويل ﴿ للكافرين ﴾ التابعين للوساوس الشيطانية الآخذين بالمزخرفات التى يوحونها إليهم ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من القبائح فإنها لو لم تكن مزينة لهم لما أصروا عليها ولما جادلوا بها الحق وقيل الآية نزلت فى حمزة رضى الله عنه وأبى جهل وقيل فى عمر أو عمار رضى الله عنهما وأبى جهل ﴿ وكذلك ﴾ قيل معناه كما جعلنا فى مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴿ جعلنا فى كل قرية ﴾ من سائر القرى ﴿ أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ ومفعولا جعلنا أكابر مجرميها على تقديم المفعول الثانى والظرف لغو أو هما الظرف وأكابر على أن مجرميها بدل أو مضاف إليه فإن أفعل التفضيل إذا أضيف جاز الإفراد والمطابقة ولذلك قرىء أكبر مجرميها وقيل أكابر مجرميها مفعوله الأول والثانى ليمكروا فيها ولا يخفى أن أى معنى يراد من هذه المعانى لابد أن يكون مشهور التحقق عند الناس معهودا فيما بينهم حتى يصلح أن تصرف الإشارة عن سباق النظم الكريم وتوجه إليه ويجعل مقياسا لنظائره بإخراجه مخرج المصدر التشبيهى وظاهر أن ليس الأمر كذلك ولا سبيل إلى توجيهها إلى ما يفهم من قوله تعالى (كذلك زين للكافرين ما كانوا

يعملون) وإن كان المراد بهم أكابر مكة لأن مآل المعنى حينئذ بعد اللتيا والتى كما جعلنا أعمال أهل مكة مزينة لهم جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها الخ فإذن الأقرب أن ذلك إشارة إلى الكفرة المعهودين باعتبار اتصافهم بصفاتهم والإفراد بتأويل الفريق أو المذكور ومحل الكاف النصب على أنه المفعول الثانى لجعلنا قدم عليه لإفادة التخصيص كما فى قوله تعالى (كذلك كنتم من قبل) الآية والأول أكابر مجرميها والظرف لغو أى ومثل أولئك الكفرة الذين هم صناديد مكة ومجرموها جعلنا فى كل قرية أكابرها المجرمين أى جعلناهم متصفين بصفات المذكورين مزينا لهم أعمالهم مصرين على الباطل مجادلين به الحق ليمكروا فيها أى ليفعلوا المكر فيها وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم﴾ اعتراض على سبيل الوعد لرسول الله عليه الصلاة والسلام والوعيد للكفرة أى وما تحيق غائلة مكرهم إلا بهم ﴿ومايشعرون﴾ حال من ضمير يمكرون مع اعتبار ورود الاستثناء على النفى أى إنما يمكرون بأنفسهم والحال أنهم مايشعرون بذلك أصلا بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم .

عود إلى حال كفار مكة

وقوله تعالى ﴿ وإذا جاءتهم آية ﴾ رجوع إلى بيان حال مجرمى أهل مكة بعد ما بين بطريق التسلية أن حال غيرهم أيضاً كذلك وأن عاقبة مكر الكل ما ذكر فإن العظيمة المنقولة إنما صدرت عنهم لا عن سائر المجرمين أى إذا جاءتهم آية بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما حتى يوحى إلينا ويأتينا جبريل عليه السلام فيخبر نا أن محمداً صادق كما قالوا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا وعن الحسن البصرى مثله وهذا كما ترى صريح فى أن ما علق بإيتاء ما أوتى الرسل عليهم الصلاة والسلام هو إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أنزل إليه إيمانا حقيقياً كما هو المتبادر منه عند الإطلاق خلا أنه يستدعى أن يحمل ما أوتى رسل الله على مطلق الوحى ومخاطبة جبريل عليه السلام فى الجملة وأن تصرف الرسالة فى قوله تعالى :

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ عن ظاهرها وتحمل على رسالة جبريل عليه السلام بالوجه المذكور ويراد بجعلها تبليغها إلى المرسل إليه لا وضعها فى موضعها الذى هو الرسول ليتأتى كونه جوابا عن اقتراحهم ورداً له بأن يكون معنى الاقتراح لن نؤمن بكون تلك الآية نازلة من عند الله تعالى إلى الرسول حتى يأتينا بالذات عيانا كما يأتى الرسول فيخبرنا بذلك ومعنى الرد الله أعلم من يليق بإرسال جبريل عليه السلام إليه لأمر من الأمور إيذانا بأنهم بمعزل من استحقاق ذلك التشريف[1] وفيه من التمحل مالايخفى وقال مقاتل نزلت فى أبى جهل حين قال زاحمنا بنى عبد مناف فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا حتى يأتينا وحى كما يأتيه .

وقال الضحاك سأل كل واحد من القوم أن يخص بالرسالة والوحى كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله (بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة) ولا يخفى أن كل واحد من هذين القولين وإن كان مناسبا للرد المذكور لكنه يقتضى أن يراد بالإيمان المعلق بإيتاء ما أوتى الرسل مجرد تصديقهم برسالته عليه الصلاة والسلام فى الجملة من غير شمول لكافة الناس وأن تكون كلمة حتى فى قول اللعين حتى يأتينا وحى كما يأتيه الخ غاية لعدم الرضا لا لعدم الاتباع فإنه مقرر على تقديرى إيتاء الوحى وعدمه فالمعنى لن نؤمن برسالته أصلا حتى نؤتى نحن من الوحى والنبوة مثل ما أوتى رسل الله أو إيتاء مثل إيتاء رسل الله وأما ماقيل من أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لوكانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لأنى أكبر منك سناً وأكثر منك مالاوولدا فنزلت فلا تعلق له بكلامهم المردود إلا أن يراد بالإيمان المعلق بما ذكر مجرد الإيمان بكون الآية النازلة وحياً صادقا لا الإيمان بكونها نازلة إليه عليه الصلاة والسلام .

---

(١) فى ١٠ : الشرف .

فيكون المعنى وإذا جاءتهم آية نازلة إلى الرسول قالوا لن نؤمن بنزولها من عند الله حتى يكون نزولها إلينا لا إليه لأنا نحن المستحقون دونه فإن ملخص معنى قوله لو كانت النبوة حقاً الخ لو كان ما تدعيه من النبوة حقا لكنت أنا النبي لا أنت وإذا لم يكن الأمر كذلك فليست بحق وما له تعليق الإيمان بحقية النبوة بكون نفسه نبيا ومثل ما أوتى نصب على أنه نعت لمصدر محذوف وما مصدرية أى حتى نؤتاها إيتاء مثل إيتاء رسل الله وإضافة الإيتاء إليهم لأنهم منكرون لإيتائه عليه الصلاة والسلام وحيث نصب على المفعولية توسعا لا بنفس أعلم لما عرفت من أنه لا يعمل فى الظاهر بل بفعل دل هو عليه أى هو أعلم يعلم الموضع الذى يضعها فيه والمعنى أن منصب الرسالة ليس مما ينال بكثرة المال والولد وتعاضد الأسباب والعدد وإنما ينال بفضائل نفسانية يخصها الله تعالى بمن يشاء من خلص عباده وقرىء رسالاته ﴿ سيصيب الذين أجرموا ﴾ استئناف آخر ناع عليهم ما سيلقونه من فنون الشر بعد ما نعى عليهم حرمانهم مما أملوه والسين للتأكيد ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن إصابة ما يصيبهم لإجرامهم المستتبع لجميع الشرور والقبائح أى يصيبهم البتة مكان ما تمنوه وعلقوا به أطماعهم الفارغة من عزة النبوة وشرف الرسالة ﴿ صغار ﴾ أى ذلة وحقارة بعد كبرهم ﴿ عند الله ﴾ أى يوم القيامة وقيل من عند الله ﴿ وعذاب شديد ﴾ فى الآخرة أو فى الدنيا ﴿ بما كانوا يمكرون ﴾ أى بسبب مكرهم المستمر أو بمقابلته وحيث كان هذا من معظم مواد إجرامهم صرح بسببيته .

﴿ فمن يرد الله أن يهديه ﴾ أى يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان ﴿ يشرح صدره للإسلام ﴾ فيتسع له وينفتح وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيأة لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه وإليه أشار عليه الصلاة والسلام حين سئل فقال نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينشرح له وينفتح فقالوا هل لذلك من أمارة يعرف بها فقال نعم الإنابة إلى دار الخلود والإعراض عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله ﴿ ومن يرد أن يضله ﴾ أى يخلق

فيه الضلال بصرف اختياره إليه ﴿ يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يكاد يدخله الإيمان وقرىء ضيقا للتخفيف وحرجا بكسر الراء أى شديد الضيق والأول مصدر وصف به مبالغة .

﴿ كأنما يصعد ﴾ ما هذه مهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية ﴿ فى السماء ﴾ شبه للمبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول مالا يكاد يقدر عليه فإن صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة وفيه تنبيه على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود وقيل معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبوا عن الحق وتباعدا فى الهرب منه وأصل يصعد يتصعد وقد قرىء به وقرىء يصاعد وأصله يتصاعد ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الجعل الذى هو جعل الصدر حرجا على الوجه المذكور ﴿ يجعل الله الرجس ﴾ أى العذاب أو الخذلان قال مجاهد الرجس مالا خير فيه وقال الزجاج الرجس اللعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿ على الذين لا يؤمنون ﴾ أى عليهم ووضع المفعول موضع المضمر للإشعار بأن جعله تعالى معلل بما فى حيز الصلة من كمال نبوهم عن الإيمان وإصرارهم على الكفر .

﴿ وهذا ﴾ أى البيان الذى جاء به القرآن أو الإسلام أوما سبق من التوفيق والخذلان ﴿ صراط ربك ﴾ أى طريقه الذى ارتضاه أو عادته وطريقته التى اقتضتها حكمته وفى التعرض لعنوان الربوبية إيذان بأن تقويم ذلك الصراط للتربية وإفاضة الكمال ﴿ مستقيما ﴾ لاعوج فيه أو عادلا مطردا وهو حال مؤكدة كقوله تعالى (وهو الحق مصدقا) والعامل فيها معنى الإشارة ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ بيناها مفصلة ﴿ لقوم يذكرون ﴾ يتذكرون ما فى تضاعيفها فيعلمون أن كل ما يحدث من الحوادث خيراً كان أو شراً فإنما يحدث بقضاء الله تعالى وخلقه وأنه تعالى عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم وتخصيص القوم المذكورين بالذكر لأنهم المنتفعون بتفصيل الآيات ﴿ لهم دار السلام ﴾ أى للمتذكرين دار السلامة من كل المكاره وهى الجنة ﴿ عند ربهم ﴾ أى فى ضمانه أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره تعالى ﴿ وهو وليهم ﴾ أى مولاهم وناصرهم ﴿ بما

كانوا يعملون ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة أو متوليهم بجزائها يتولى إيصاله إليهم

﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ﴾ منصوب بمضمر إما على المفعولية أو الظرفية وقرىء بنون العظمة على الالتفات لتهويل الأمر والضمير المنصوب لمن يحشر من الثقلين أى واذكر يوم يحشر الثقلين قائلا ﴿ يا معشر الجن ﴾ أو ويوم يحشرهم يقول يا معشر الجن أو ويوم يحشرهم ويقول يامعشر الجن يكون الأحوال والأهوال مالا يساعده الوصف لفظاعته والمعشر الجماعة والمراد بمعشر الجن الشياطين ﴿ قد استكثرتم من الإنس ﴾ أى من إغوائهم وإضلالهم أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم كقولهم استكثر الأمير من الجنود وهذا بطريق التوبيخ والتقريع ﴿ وقال أولياؤهم ﴾ أى الذين أطاعوهم ومن فى قوله تعالى ﴿ من الإنس ﴾ إما لبيان الجنس أى أولياؤهم الذين هم الإنس أو متعلقة بمحذوف هو حال من أولياؤهم أى كائنين من الإنس ﴿ ربنا استمع بعضنا ببعض ﴾ أى انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها وقيل بأن ألقوا إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة والجن والإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم بقبول ما ألقوه إليهم وقيل استمتاع الأنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم فى المفاوز والمخاوف واستمتاعهم بالإنس اعترافهم بأنهم قادرون على إجارتهم ﴿ وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ﴾ وهو يوم القيامة قالوه اعترافا بما فعلوه من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتكذيب البعث وإظهاراً للندامة عليها وتحسراً على حالهم واستسلاما لربهم ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين للإيذان بأن المضلين قد ألجموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلا .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية كلامهم كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذ فقيل قال ﴿ النار مثواكم ﴾ أى منزلكم أو ذات ثوائكم كما أن دار السلام مثوى المؤمنين ﴿ خالدين فيها ﴾ حال والعامل مثواكم إن جعل مصدراً ومعنى الإضافة إن جعل مكانا ﴿ إلا ماشاء الله ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما استثنى الله تعالى قوما قد سبق فى علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبى عليه الصلاة والسلام وهذا مبنى على أن الاستثناء ليس من المحكى وما بمعنى من

وقيل المعنى إلا الأوقات التى ينقلون فيها من النار إلى الزمهرير فقد روى أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم وقيل يفتح لهم وهم فى النار باب إلى الجنة فيسرعون نحوه حتى إذا صاروا إليه سد عليهم الباب وعلى التقديرين فالاستثناء تهكم بهم وقيل إلا ما شاء الله قبل الدخول كأنه قيل النار مثواكم أبداً إلا ما أمهلكم ولا يخفى بعده ﴿ إن ربك حكيم ﴾ فى أفاعيله ﴿ عليم ﴾ بأحوال الثقلين وأعمالهم وبما يليق بها من الجزاء.

﴿ وكذلك ﴾ أى مثل ما سبق من تمكين الجن من إغواء الإنس وإضلالهم ﴿ نولى بعض الظالمين ﴾ من الإنس ﴿ بعضا ﴾ آخر منهم أى نجعلهم بحيث يتولونهم بالإغواء والإضلال أو نجعل بعضهم قرناء بعض فى العذاب كما كانوا كذلك فى الدنيا عند اقتراف ما يؤدى إليه من القبائح ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصى ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ شروع فى حكاية ما سيكون من توبيخ المعشرين وتقريعهم بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم إثر حكاية توبيخ معشر الجن باغواء الإنس وإضلالهم وبيان مآل أمرهم ﴿ ألم يأتكم ﴾ أى فى الدنيا ﴿ رسل ﴾ أى من عند الله عز وجل لكن لا على أن يأتى كل رسول كل واحدة من الأمم بل على أن يأتى كل أمة رسول خاص بها أى ألم يأت كل أمة منكم رسول معين وقوله تعالى ﴿ منكم ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لرسل أى كائنة من جملتكم لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً بل من الإنس خاصة وإنما جعلوا منهما إما لتأكيد وجوب اتباعهم والإيذان بتقاربهما ذاتا واتحادهما تكليفا وخطابا كأنهما جنس واحد ولذلك تمكن أحدهما من إضلال الآخر وإما لأن المراد بالرسل ما يعم رسل الرسل وقد ثبت أن الجن قد استمعوا القرآن وأنذروا به قومهم حيث نطق به قوله تعالى (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) إلى قوله تعالى (ولوا إلى قومهم منذرين).

وقوله تعالى ﴿ يقصون عليكم آياتى ﴾ صفة أخرى لرسل محققة لما هو

المراد من إرسال الرسل من التبليغ والإنذار وقد حصل ذلك بالنسبة إلى الثقلين ﴿ وينذرونكم ﴾ بما في تضاعيفها من القوارع ﴿ لقاء يومكم هذا ﴾ يوم الحشر الذي قد عاينوا فيه ما أعد لهم من أفانين العقوبات الهائلة ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام السابق كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك التوبيخ الشديد فقيل قالوا ﴿ شهدنا على أنفسنا ﴾ أي بإتيان الرسل وإنذارهم وبمقابلتهم إياهم بالكفر والتكذيب وباستحقاقهم بسبب ذلك للعذاب المخلد حسبما فصل في حكاية جوابهم عن سؤال خزنة النار حيث قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير وقد أجمل ههنا في الحكاية كما أجمل في حكاية جوابهم حيث قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وقوله تعالى ﴿ وغرتهم الحيوة الدنيا ﴾ مع ما عطف عليه اعتراض لبيان ما أداهم في الدنيا إلى ارتكابهم للقبائح التي ارتكبوها وإلجائهم بعد ذلك في الآخرة إلى الاعتراف بالكفر واستيجاب العذاب وذم لهم بذلك أي واغتروا في الدنيا بالحياة الدنيئة واللذات الخسيسة الفانية وأعرضوا عن النعيم المقيم الذي بشرت به الرسل واجترأوا على ارتكاب ما يجرهم إلى العذاب المؤبد الذي أنذروهم إياه ﴿ وشهدوا ﴾ في الآخرة ﴿ على أنفسهم إنهم كانوا ﴾ في الدنيا ﴿ كافرين ﴾ أي بالآيات والنذر التي أتى بها الرسل على التفصيل المذكور آنفا واضطروا إلى الاستسلام لأشد العذاب كما ينبيء عنه ما حكى عنهم بقوله تعالى (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وفيه من تحسيرهم وتحذير السامعين عن مثل صنيعهم ما لا مزيد عليه .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من شهادتهم على أنفسهم بالكفر واستيجاب العذاب والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين وهو مبتدأ خبره وقوله تعالى ﴿ ألم يكن ربك مهلك القرى ﴾ بحذف اللام على أن أن مصدرية أو مخففة من أن وضمير الشان الذي هو اسمها محذوف وقوله تعالى ﴿ بظلم ﴾ متعلق إما بمهلك أي بسبب ظلم أو بمحذوف وقع حالا من القرى أي ملتبسة بظلم فإن ملابسة أهلها للظلم ملابسة للقرية له بواسطتهم وأما كونه حالا من ربك

أو من ضميره فى مهلك كما قيل فيأباه أن غفلة أهلها مأخوذة فى معنى الظلم وحقيقته لا محالة فلا يحسن تقييده بقوله تعالى :

﴿ وأهلها غافلون ﴾ والمعنى ذلك ثابت لانتفاء كون ربك أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى بسبب أى ظلم فعلوه من أفراد الظلم قبل أن ينهوا عنه وينبهوا على بطلانه برسول وكتاب وإن قضى به بديهة العقول وينذروا عاقبة جناياتهم أى لولا انتفاء كونه تعالى معذبا لهم قبل إرسال الرسل وإنزال الكتب لما أمكن التوبيخ بما ذكر ولما شهدوا على أنفسهم بالكفر واستيجاب العذاب ولا اعتذروا بعدم إتيان الرسل كما فى قوله تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) وإنما علل ما ذكر بانتفاء التعذيب الدنيوى الذى هو إهلاك القرى قبل الإنذار مع أن التقريب فى تعليله بانتفاء مطلق التعذيب من غير بعث الرسل أتم على ما نطق به قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لبيان كمال نزاهته سبحانه وتعالى عن كلا التعذيبين الدنيوى والأخروى معا من غير إنذار على أبلغ وجه وآكده حيث اقتصر على نفى التعذيب الدنيوى عنه تعالى ليثبت نفى التعذيب الأخروى عنه تعالى على الوجه البرهانى بطريق الأولوية فإنه تعالى حيث لم يعذبهم بعذاب يسير منقطع بدون إنذار فلألا يعذبهم بعذاب شديد مخلد أولى وأجلى ولو علل بما ذكر من نفى التعذيب لانصرف بحسب المقام إلى ما فيه الكلام من نفى التعذيب الأخروى ونفذ التعذيب الدنيوى غير متعرض له لا صريحا ولا دلالة ضرورة أن نفذ الأعلى لا يدل على نفذ الأدنى ولأن ترتب التعذيب الدنيوى على الإنذار عند عدم تأثر المنذرين منه معلوم مشاهد عند السامعين فيستدلون بذلك على أن التعذيب الأخروى أيضا كذلك فينزجرون عن الإخلال بمواجب الإنذار أشد انزجار هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم وأما جعل ذلك إشارة إلى إرسال الرسل عليهم السلام وإنذارهم وخبر المبتدأ محذوف كما أطبق عليه الجمهور فبمعزل من مقتضى المقام والله سبحانه أعلم ﴿ ولكل ﴾ أى من المكلفين من الثقلين ﴿ درجات ﴾ متفاوتة وطبقات

متباينة ﴿ بما عملوا ﴾ من أعمالهم صالحة كانت أو سيئة فإن أعمالهم درجات في أنفسها أو من جزاء أعمالهم فإن كل جزاء مرتبة معينة لهم أو من أجل أعمالهم ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ فيخفى عليه عمل من أعمالهم أو قدر ما يستحقون بها من ثواب أو عقاب وقرىء بالتاء تغليبا للخطاب على الغيبة ،

﴿ وربك الغنى ﴾ مبتدأ وخبر أى هو المعروف بالغنى عن كل ما سواه كائنا من كان وما كان فيدخل فيه غناه عن العباد وعن عبادتهم وفى التعرض لوصف الربوبية فى الموضعين لا سيما فى الثانى لكونه موقع الإضمار مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من إظهار اللطف به عليه السلام وتنزيه ساحته عن توهم شمول الوعيد الآتى لها أيضا مالا يخفى وقوله تعالى : ﴿ ذو الرحمة ﴾ خبر آخر أو هو الخبر والغنى صفة أى يترحم عليهم بالتكليف تكميلا لهم ويمهلهم على المعاصى وفيه تنبيه على أن ما سلف ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتمهيد لقوله تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أى ما به حاجة إليكم إن يشأ يذهبكم أيها العصاة وفى تلوين الخطاب من تشديد الوعيد ما لا يخفى ﴿ ويستخلف من بعدكم ﴾ أى من بعد إذهابكم ﴿ ما يشاء ﴾ من الخلق وإيثار ما على من لإظهار كمال الكبرياء وإسقاطهم عن رتبة العقلاء ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ أى من نسل قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام لكنه أبقاكم ترحما عليكم وما فى كما مصدرية ومحل الكاف النصب على أنه مصدر تشبيهى على غير المصدر فإن يستخلف فى معنى ينشىء كأنه قيل وينشىء إنشاء كائنا كانشائكم الخ أو نعت لمصدر الفعل المذكور أى يستخلف استخلافا كائنا كانشائكم الخ والشرطية استئناف مقرر لمضمون ما قبلها من الغنى والرحمة .

﴿ إن ما توعدون ﴾ أى الذى توعدونه من البعث وما يتفرع عليه من الأمور الهائلة وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار التجددى ﴿ لآت ﴾ لواقع لامحالة كقوله تعالى (إن ما توعدون لواقع) وإيثاره عليه لبيان كمال سرعة

وتوعه بتصويره بصورة طالب حثيث لا يفوته هارب حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أى بفائتين ذلك وإن ركبتم فى الهرب متن كل صعب وذلول كما أن إيثار صيغة الفاعل على المستقبل للإيذان بكمال قرب الإتيان والمراد بيان دوام انتفاء الإعجاز لا بيان انتفاء دوام الإعجاز فإن الجملة الاسمية كما تدل على دوام الثبوت تدل بمعونة المقام إذا دخل عليها حرف النفى على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام كما حقق فى موضعه ،

﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ إثر ما بين لهم حالهم وما لهم بطريق الخطاب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين بأن يواجههم بتشديد التهديد وتكرير الوعيد ويظهر لهم ما هو عليه من غاية التصاب فى الدين ونهاية الوثوق بأمره وعدم المبالاة بهم أى اعملوا على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن أو على جهتكم وحالتكم التى أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة وقرىء مكاناتكم والمعنى اثبتوا على كفركم ومعاداتكم ﴿ إنى عامل ﴾ ما أمرت به من الثبات على الإسلام والاستمرار على الأعمال الصالحة والمصابرة وإيراد التهديد بصيغة الأمر مبالغة فى الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعا عليه فيحمله بالأمر على ما يؤدى إليه وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر كالذى أمر به بحيث لا يجد إلى التفصى عنه سبيلا ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ﴾ سوف لتأكيد مضمون الجملة والعلم عرفانى ومن إما استفهامية معلقة لفعل العلم محلها الرفع على الابتداء وتكون باسمها وخبرها خبر لها وهى مع خبرها فى محل نصب لسدها مسد مفعول تعلمون أى فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة الحسنى التى خلق الله تعالى هذه الدار لها وإما موصولة فمحلها النصب على أنها مفعول لتعلمون أى فسوف تعلمون الذى له عاقبة الدار وفيه مع الإنذار إنصاف فى المقال وتنبيه على كمال وثوق المنذر بأمره وقرىء بالياء لأن تأنيث العاقبة غير حقيقى ﴿ إنه ﴾ أى الشأن ﴿ لا يفلح الظالمون ﴾ وضع الظلم موضع الكفر إيذانا بأن امتناع الفلاح يترتب على أى فرد كان من أفراد الظلم فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراده ،

﴿ وجعلوا ﴾ شروع فى تقبيح أحوالهم الفظيعة بحكاية أقوالهم وأفعالهم الشنيعة وهم مشركوا العرب كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله تعالى وأشياء منهما لآلهتهم فإذا رأوا ما جعلوه لله تعالى زاكيا ناميا يزيد فى نفسه خيرا رجعوا فجعلوه لآلهتهم وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه معتلين بأن الله تعالى غنى وما ذاك إلا لحب آلهتهم وإيثارهم لها والجعل إما متعد إلى واحد فالجاران فى قوله تعالى ﴿لله مما ذرأ ﴾ متعلقان به ومن فى قوله تعالى ﴿من الحرث والأنعام﴾ بيان لما وفيه تنبيه على فرط جهالتهم حيث أشركوا الخالق فى خلقه جمادا لا يقدر على شىء ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزكى له أى عينوا له تعالى مما خلقه من الحرث والأنعام ﴿ نصيبا ﴾ يصرفونه إلى الضيفان والمساكين وتأخيره عن المجرورين لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وإما إلى مفعولين أولهما مما ذرأ على أن من تبعيضية أى جعلوا بعض ما خلقه نصيبا له وما قيل من أن الأول نصيبا والثانى لله لا يساعده سداد المعنى وحكاية جعلهم له تعالى نصيبا تدل على أنهم جعلوا لشركائهم أيضا نصيبا ولم يذكر اكتفاء بقوله تعالى :

﴿ فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ وقرىء بضم الزاى وهو لغة فيه وإنما قيد به الأول للتنبيه على أنه فى الحقيقة ليس بجعل لله تعالى غير مستتبع لشىء من الثواب كالتطوعات التى يبتغى بها وجه الله تعالى لا لما قيل من أنه للتنبيه على أن ذلك مما اخترعوه ولم يأمرهم الله تعالى به فإن ذلك مستفاد من الجعل ولذلك لم يقيد به الثانى ويجوز أن يكون ذلك تمهيداً لما بعده على معنى أن قولهم هذا لله مجرد زعم منهم لا يعملون بمقتضاه الذى هو اختصاصه به تعالى فقوله تعالى ﴿ فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴾ بيان وتفصيل له أى فما عينوه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التى يصرف إليها ما عينوه لله تعالى من قرى الضيفان والتصدق على المساكين وما عينوه لله تعالى إذا وجدوه زاكيا يصرف إلى الوجوه التى يصرف إليها ما

عينوه لآلهتهم من إنفاق عليها وذبح نسائك عندها والإجراء على سدنتها ونحو ذلك ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ فيما فعلوا من إيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم بما لم يشرع لهم وما بمعنى الذى والتقدير ساء الذى يحكمون حكمهم فيكون حكمهم مبتدأ وما قبله الخبر وحذف لدلالة يحكمون عليه .

﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك فى قسمة القربان بين الله تعالى وبين آلهتهم أو مثل ذلك التزيين البليغ المعهود من الشياطين ﴿ زين لكثير من المشركين قتل أولادهم ﴾ بوأدهم ونحرهم لآلهتهم . كان الرجل يحلف فى الجاهلية لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب وهو مشهور ﴿ شركاؤهم ﴾ أى أولياؤهم من الجن أو من السدنة وهو فاعل زين أخر عن الظرف والمفعول لما مر غير مرة وقرىء على البناء للمفعول الذى هو القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء بإضافة القتل إليه مفصولا بينهما بمفعوله وقرىء على البناء للمفعول ورفع قتل وجر أولادهم ورفع شركاؤهم بإضمار فعل دل عليه زين كأنه لما قيل زين لهم قتل أولادهم قيل من زينه فقيل زينه شركاؤهم ﴿ ليردوهم ﴾ أن يهلكوهم بالإغواء ﴿ وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ وليخاطوا عليهم ما كانوا عليه من دين اسمعيل عليه السلام أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به واللام للتعليل إن كان التزيين من الشياطين وللعاقبة إن كان من السدنة ﴿ ولو شاء الله ﴾ أى عدم فعلهم ذلك ﴿ ما فعلوه ﴾ أى ما فعل المشركون ما زين لهم من القتل أو الشركاء من التزيين أو الإرداء واللبس أو الفريقان جميع ذلك على إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ الفاء فصيحة أى إذا كان ما فعلوه بمشيئة الله تعالى فدعهم وافتراءهم أو وما يفترونه من الإفك فإن فيما شاء الله تعالى حكما بالغا إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى .

فنون الكفر

﴿ وقالوا ﴾ حكاية لنوع آخر من أنواع كفرهم ﴿ هذه ﴾ إشارة إلى

ما جعلوه لآلهتهم والتأنيث للخبر ﴿ أنعام وحرث حجر ﴾ أى حرام فعل بمعنى مفعول كالذبح يستوى فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى لأن أصله المصدر ولذلك وقع صفة لأنعام وحرث وقرىء حجر بالضم وبضمتين وحرج أى ضيق وأصله حرج وقيل هو مقلوب من حجر ﴿ لا يطعمها إلا من نشاء ﴾ يعنون خدم الأوثان من الرجال دون النساء والجملة صفة أخرى لأنعام وحرث ﴿ بزعمهم ﴾ متعلق بمحذوف وهو حال من فاعل قالوا أى قالوه ملتبسين بزعمهم الباطل من غير حجة ﴿ وأنعام ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة معطوفة على قوله تعالى هـذه أنعام الخ أى قالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم وهذه أنعام ﴿ حرمت ظهورها ﴾ يعنون بها البحائر والسوائب والحوامى ﴿ وأنعام ﴾ أى وهذه أنعام كما مر وقوله تعالى :

﴿ لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ صفة لأنعام لكنه غير واقع فى كلامهم المحكى كنظيره بل مسوق من جهته تعالى تعيينا للموصوف وتمييزا له عن غيره كما فى قوله تعالى (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) على أحد التفاسير كأنه قيل وأنعام ذبحت على الأصنام فإنها التى لا يذكر عليها اسم الله وإنما يذكر عليها اسم الأصنام وقيل لا يحجون عليها فإن الحج لا يعرى عن ذكر الله تعالى وقال مجاهد كانت لهم طائفة من أنعامهم لا يذكرون اسم الله عليها ولا فى شىء من شأنها لا إن ركبوا ولا إن حلبوا ولا إن نتجوا ولا إن باعوا ولا إن حملوا ﴿ افتراء عليه ﴾ نصب على المصدر إما على أن ما قالوه تقول على الله تعالى وإما على تقدير عامل من لفظه أى افتروا افتراء والجار متعلق بقالوا أو بافتروا المقدر أو بمحذوف هو صفة له لا بافتراء لأن المصدر المؤكد لا يعمل أو على الحال من فاعل قالوا أى مفترين أو على العلة أى الافتراء فالجار متعلق به ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ أى بسببه أو بدله وفى إبهام الجزاء من التهويل ما لا يخفى .

﴿ وقالوا ﴾ حكاية لفن آخر من فنون كفرهم ﴿ ما فى بطون هذه الأنعام ﴾ يعنون به أجنة البحائر والسوائب ﴿ خالصة لذكورنا ﴾ حلال لهم خاصة

والتاء للنقل إلى الاسمية أو للمبالغة أو لأن الخالصة مصدر كالعافية وقع موقع الخالص مبالغة أو بحذف المضاف أى ذو خالصة أو للتأنيث بناء على أن ما عبارة عن الأجنة والتذكير فى قوله تعالى ﴿ومحرم على أزواجنا﴾ أى جنس أزواجنا وهن الإناث باعتبار اللفظ وفيه كما ترى حمل للنظم الكريم على خلاف المعهود الذى هو الحمل على اللفظ أو لا وعلى المعنى ثانيا كما فى قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم) الخ ونظائره وإما العكس فقد قالوا إنه لا نظير له فى القرآن وهذا الحكم منهم إن ولد ذلك حيا وهو الظاهر المعتاد ﴿وإن يكن ميتة﴾ أى إن ولدت ميتة ﴿فهم﴾ أى الذكور والإناث ﴿فيه﴾ أى فيما فى بطون الأنعام وقيل المراد بالميتة ما يعم الذكر والأنثى فغلب الأول على الثانى ﴿شركاء﴾ يأكلون منه جميعاً وقرىء خالصة بالنصب على أنه مصدر مؤكد والخبر لذكورنا أو حال من الضمير الذى فى الظرف لا من الذى فى ذكورنا ولا من الذكور لأنه لا يتقدم على العامل المعنوى ولا على صاحبه المجرور وقرىء خالصة بالرفع والإضافة إلى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان .

﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أى جزاء وصفهم الكذب على الله تعالى فى أمر التحليل والتحريم من قوله تعالى (وتصف ألسنتهم الكذب) ﴿إنه حكيم عليم﴾ تعليل للوعيد بالجزاء فإن الحكيم العليم بما صدر عنهم لا يكاد يترك جزاءهم الذى هو من مقتضيات الحكمة .

﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم﴾ جواب قسم محذوف وقرىء بالتشديد وهم ربيعة ومضر وأضرابهم من العرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبى والفقر أى خسروا دينهم ودنياهم ﴿سفها بغير علم﴾ متعلق بقتلوا على أنه علة له أى لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرزاق لهم ولأولادهم أو نصب على الحال ويؤيده أنه قرىء سفهاء أو مصدر ﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما ﴿افتراء على الله﴾ نصب على أحد الوجوه المذكورة وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وطغيانهم ﴿قد ضلوا﴾ عن

الطريق المستقيم ﴿وما كانوا مهتدين﴾ إليه وإن هدوا بفنون الهدايات أو وما كانوا مهتدين من الأصل لسوء سيرتهم فالجملة حينئذ اعتراض وعلى الأول عطف على ضلوا .

أحوال الأنعام

﴿وهو الذى أنشأ جنات معروشات﴾ تمهيد لما سيأتى من تفصيل أحوال الأنعام أى هو الذى أنشأهن من غير شركة لأحد فى ذلك بوجه من الوجوه والمعروشات من الكروم المرفوعات على ما يحملها ﴿وغير معروشات﴾ وهن الملقيات على وجه الأرض وقيل المعروشات ما غرسه الناس وعرشوه وغير المعروشات ما نبت فى البوادى والجبال ﴿والنخل والزرع﴾ عطف على جنات أى أنشأهما ﴿مختلفا أكله﴾ وقرى أكله بسكون الكاف أى ثمره الذى يؤكل فى الهيئة والكيفية والضمير إما للنخل والزرع داخل فى حكمه أو للزرع والباقى مقيس عليه أو للجميع على تقدير كل ذلك أو كل واحد منهما ومختلفا حال مقدرة إذ ليس كذلك وقت الإنشاء ﴿والزيتون والرمان﴾ أى أنشأهما وقوله تعالى ﴿متشابها وغير متشابه﴾ نصب على الحالية أى يتشابه بعض أفرادهما فى اللون والهيئة أو الطعم ولا يتشابه بعضها ﴿كلوا من ثمره﴾ أى من ثمر كل واحد من ذلك ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أريد به ما كان يتصدق به يوم الحصاد بطريق الواجب من غير تعيين المقدار لا الزكاة المقدرة فإنها فرضت بالمدينة والسورة مكية وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بإيتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتصفية وقرىء يوم حصاده بكسر الحاء وهو لغة فيه ﴿ولا تسرفوا﴾ أى فى التصدق كما روى عن ثابت بن قيس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كلها ولم يدخل منه شيئا إلى منزله كقوله تعالى (ولا تبسطها كل البسط) الآية ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ أى لا يرتضى إسرافهم .

﴿ومن الأنعام حمولة وفرشا﴾ شروع فى تفصيل حال الأنعام وإبطال

ما تقولوا على الله تعالى فى شأنها بالتحريم والتحليل وهو عطف على مفعول أنشأ ومن متعلقة به أى وأنشأ من الأنعام ما يحمل عليه الأثقال وما يفرش للذبح أو ما يفرش المصنوع من شعره وصوفه ووبره وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الأرض كأنها فرش مفروش عليها ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ ما عبارة عما ذكر من الحمولة والفرش ومن تبعيضية أى كلوا بعض ما رزقكم الله تعالى أى حلاله وفيه تصريح بأن إنشاءها لأجلهم ومصلحتهم ﴿ولا تتبعوا﴾ فى أمر التحليل والتحريم بتقليد أسلافكم المجازفين فى ذلك من تلقاء أنفسهم المفترين على الله سبحانه ﴿خطوات الشيطان﴾ فإن ذلك منهم بإغوائه واستتباعه إياهم ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ ظاهر العداوة .

﴿ثمانية أزواج﴾ الزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل والمراد بها الأنواع الأربعة وإيرادها بهذا العنوان وهذا العدد تمهيد لما سيق له الكلام من الإنكار المتعلق بتحريم كل واحد من الذكر والأنثى وبما فى بطنها وهو بدل من حمولة وفرشا منصوب بما نصبهما وجعله مفعولا لكلوا على أن قوله تعالى ولا تتبعوا الآية معترض بينهما أو حال من ما بمعنى مختلفة أو متعددة يأباه جزالة النظم الكريم لظهور أنه مسوق لتوضيح حال الأنعام بتفصيلها أولا إلى حمولة وفرش ثم بتفصيلها إلى ثمانية أزواج حاصلة من تفصيل الأولى إلى الإبل والبقر وتفصيل الثانى إلى الضأن والمعز ثم تفصيل كل من الأقسام الأربعة إلى الذكر والأنثى كل ذلك لتحرير المواد التى تقولوا فيها عليه سبحانه وتعالى .

﴿من الضأن اثنين﴾ بدل من ثمانية أزواج منصوب بناصبه وهو العامل فى من أى أنشأ من الضأن زوجين الكبش والنعجة وقرىء اثنان على الابتداء والضأن اسم جنس كالإبل وجمعه ضئين كأمير أو جمع ضائن كتاجر وتجر وقرىء بفتح الهمزة ﴿ومن المعز اثنين﴾ عطف على مثله شريك له فى حكمه أى وأنشأ من المعز زوجين التيس والعنز وقرىء بفتح العين وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس وقرىء ومن المعزى وهذه الأزواج الأربعة تفصيل

للفرش ولعل تقديمها فى التفصيل مع تأخر أصلها فى الإجمال لكون هذين النوعين عرضة للأكل الذى هو معظم ما يتعلق به الحل والحرمة وهو السر فى الاقتصار على الأمر به فى قوله تعالى (كلوا مما رزقكم الله) من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب وغير ذلك مما حرموه فى السائبة وأخواتها .

﴿قل﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إثر تفصيل أنواع الأنعام التى أنشأها أى قل تبكيتا لهم وإظهارا لانقطاعهم عن الجواب ﴿آلذكرين﴾ من ذينك النوعين وهما الكبش والتيس ﴿حرم﴾ أى الله عز وجل كما تزعمون أنه هو المحرم ﴿أم الأنثيين﴾ وهما النعجة والعنز ونصب آلذكرين والأنثيين بحرم وهو مؤخر عنهما بحسب المعنى وإن توسط بينهما صورة وكذا قوله تعالى ﴿أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أى أم ما حملت إناث النوعين حرم ذكرا كان أو أنثى وقوله تعالى ﴿نبئونى بعلم﴾ الخ تكرير للإلزام وتثنية للتبكيت والإلجام أى أخبرونى بأمر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب أو أخبار الأنبياء يدل على أنه تعالى حرم شيئا مما ذكر أو نبئونى تنبئة ملتبسة بعلم صادرة عنه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أى فى دعوى التحريم عليه سبحانه وقوله تعالى ﴿ومن الإبل اثنين﴾ عطف على قوله تعالى من الضأن اثنين أى وأنشأ من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ﴿ومن البقر اثنين﴾ ذكر وأنثى ﴿قل﴾ إلحاما لهم فى أمر هذين النوعين أيضاً ﴿آلذكرين﴾ منهما ﴿حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ من ذينك النوعين والمعنى إنكار أن الله سبحانه حرم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم فى ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما فى بطونها للمبالغة فى الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى مسندين ذلك كله إلى الله سبحانه وإنما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار بما ذكر من الأمر بالاستفهام والإنكار مع حصول التبكيت بإيراد الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بأن يقال قل آلذكور حرم أم

الإناث أم ما اشتملت عليه أرحام الإناث لما فى التثنية والتكرير من المبالغة فى التبكيت والإلزام وقوله تعالى :

﴿ أم كنتم شهداء ﴾ تكرير للإفحام كقوله تعالى (نبئونى بعلم) وأم منقطعة ومعنى الهمزة الإنكار والتوبيخ ومعنى بل الإضراب عن التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه آخر أى بل أكنتم حاضرين مشاهدين ﴿ إذ وصاكم الله بهذا ﴾ أى حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبى فلا طريق لكم حسبما يقود إليه مذهبكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسماع وفيه من تركيك عقولهم والتهكم بهم ما لا يخفى ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم والمراد كبراؤهم المقررون لذلك أو عمرو بن لحى بن قمعة وهو المؤسس لهذا الشر أو الكل لاشتراكهم فى الافتراء عليه سبحانه وتعالى أى فأى فريق أظلم من فريق افتروا الخ ولا يقدح فى أظلمية الكل كون بعضهم مخترعين له وبعضهم مقتدين بهم والفاء لترتيب ما بعدها على ماسبق من تبكيتهم وإظهار كذبهم وافترائهم أى هو أظلم من كل ظالم وإن كان المنفى صريحا فى الأظلمية دون المساواة كامر غير مرة ﴿ ليضل الناس ﴾ متعلق بالافتراء ﴿ بغير علم ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل افترى أى افترى عليه تعالى جاهلا بصدور التحريم عنه تعالى وإنما وصفوا بعدم العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه تعالى إيذانا بخروجهم فى الظلم عن الحدود والنهايات فإن من افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه إذا كان أظلم كان أظلم من كل ظالم فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه ويجوز أن يكون حالا من فاعل يضل أى ملتبسا بغير علم بما يؤدى بهم إليه ﴿ إن الله لايهدى القوم الظالمين ﴾ كائنا من كان إلى ما فيه صلاح حالهم عاجلا أو آجلا وإذا كان هذا حال المتصفين بالظلم فى الجملة فما ظنك بمن هو فى أقصى غاياته .

﴿ قل ﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إلزام المشركين وتبكيتهم وبيان أن ما يتقولونه فى أمر التحريم افتراء بحت لا أصل له قطعا بأن يبين لهم

ما حرمه عليهم وفى قوله تعالى ﴿ لا أجد فيما أوحى إلى محرما ﴾ إيذان بأن مناط الحل والحرمة هو الوحى وأنه صلى الله عليه وسلم قد تتبع جميع ما أوحى إليه وتفحص عن المحرمات فلم يجد غير ما فصل وفيه مبالغة فى بيان انحصارها فى ذلك ومحرما صفة لمحذوف أى لا أجد ريثما تصفحت ما أوحى إلى طعاما محرما من المطاعم التى حرموها ﴿ على طاعم ﴾ أى أى طاعم كان من ذكر أو أنثى رداً على قولهم محرم على أزواجنا وقوله تعالى ﴿ يطعمه ﴾ لزيادة التقرير ﴿ إلا أن يكون ﴾ أى ذلك الطعام ﴿ ميتة ﴾ وقرىء تكون بالتاء لتأنيث الخبر وقرىء ميتة بالرفع على أن كان تامة وقوله تعالى ﴿ أو دماً مفسوحا ﴾ حينئذ عطف على أن مع ما فى حيزه أى إلا وجود ميتة أو دما مسفوحا أى مصبوبا كالدماء التى فى العروق لا كالطحال والكبد ﴿ أو لحم خنزير فإنه ﴾ أى الخنزير ﴿ رجس ﴾ أى لحمه قذر لتعوده أكل النجاسات أو خبيث ﴿ أو فسقا ﴾ عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض مقرر لحرمته ﴿ أهل لغير الله به ﴾ صفة له موضحة أى ذبح على اسم الأصنام وإنما سمى ذلك فسقا لتوغله فى الفسق ويجوز أن يكون فسقا مفعولا له لأهل وهو عطف على يكون والمستكن راجع إلى ما رجع إليه المستكن فى يكون .

﴿ فمن اضطر ﴾ أى أصابته الضرورة الداعية إلى أكل الميتة بوجه من الوجوه المضطرة ﴿ غير باغ ﴾ فى ذلك على مضطر آخر مثله ﴿ ولا عاد ﴾ قدر الضرورة ﴿ فإن ربك غفور رحيم ﴾ مبالغ فى المغفرة والرحمة لا يؤاخذه بذلك وليس التقييد بالحال الأولى لبيان أنه لو لم يوجد القيد لتحققت الحرمة المبحوث عنها بل للتحذير من حرام آخر هو أخذه حق مضطر آخر فإن من أخذ لحم الميتة من يد مضطر آخر فأكله فإن حرمته ليست باعتبار كونه لحم الميتة بل باعتبار كونه حقا للمضطر الآخر وأما الحال الثانية فلتحقيق زوال الحرمة المبحوث عنها قطعا فإن التجاوز عن القدر الذى يسد به الرمق حرام من حيث أنه لحم الميتة وفى التعرض لوصفى المغفرة والرحمة إيذان بأن المعصية باقية لكنه تعالى يغفر له ويرحمه والآية محكمة لأنها تدل على أنه صلى الله عليه

وسلم لم يجد فيما أوحى إليه إلى تلك الغاية غيره ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك فى شىء آخر فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الأشياء التى هى غيرها إلا مع الاستصحاب .

﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ خاصة لا على من عداهم من الأولين والآخرين ﴿ حرمنا كل ذى ظفر ﴾ أى كل ما له أصبع من الإبل والسباع والطيور وقيل كل ذى مخلب وحافر وسمى الحافر ظفراً مجازاً والمسبب عن الظلم هو تعميم التحريم حيث كان بعض ذوات الظفر حلالا لهم فلما ظلموا عم التحريم كلها وهذا تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بإبطال ما يخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم فى ذلك فإنهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا .

﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ لا لحومهما فإنها باقية على الحل والشحوم الثروب وشحوم الكلى والإضافة لزيادة الربط ﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ استثناء من الشحوم مخرج لما علق من الشحم بظهورهما عن حكم التحريم .

﴿ أو الحوايا ﴾ عطف على ظهورهما أى ما حملته الحوايا وهى جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء وقواصع أو حواية كسفينة وسفائن ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ عطف على ما حملت وهو شحم الألية واختلاطه بالعظم اتصاله بعجب الذنب وقيل هو كل شحم متصل بالعظم من الأضلاع وغيرها ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الجزاء أو التحريم فهو على الأول نصب على أنه مصدر مؤكد لما بعده وعلى الثانى على أنه مفعول ثان له أى ذلك التحريم ﴿ جزيناهم ببغيهم ﴾ بسبب ظلمهم وهو قتلهم الأنبياء بغير حق وأكلهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل كقوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وكانوا كلما أتوا بمعصية عوقبوا بتحريم شىء مما أحل لهم وهم ينكرون ذلك ويدعون أنها لم تزل محرمة على الأمم فرد ذلك عليهم وأكد بقوله تعالى ﴿ وإنا لصادقون ﴾ أى فى جميع أخبارنا التى من جملتها هذا الخبر ولقد ألقمهم

الحجر قوله تعالى (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها جميع ما يحذرون أوضح بيان .

﴿ فإن كذبوك ﴾ قيل الضمير لليهود لأنهم أقرب ذكرا ولذكر المشركين بعد ذلك بعنوان الإشراك وقيل للمشركين فالمعنى على الأول إن كذبتك اليهود فى الحكم المذكور وأصروا على ما كانوا عليه من ادعاء قدم التحريم ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ لا يؤاخذكم بكل ما تأتونه من المعاصى ويمهلكم على بعضها ﴿ ولا يرد بأسه ﴾ بالكلية ﴿ عن القوم المجرمين ﴾ فلا تنكروا ما وقع منه تعالى من تحريم بعض الطيبات عليكم عقوبة وتشديداً وعلى الثانى فإن كذبك المشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم فقل لهم ربكم ذو رحمة واسعة لا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا بذلك فإنه إمهال لا إهمال وقيل ذو رحمة للمطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقيم مقامه قوله تعالى (ولا يرد بأسه) الخ لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على أنه لا حق بهم ألبتة من غير صارف يصرفه عنهم أصلا .

﴿ سيقول الذين أشركوا ﴾ حكاية لفن آخر من كفرهم وإخباره قبل وقوعه ثم وقوعه حسبما أخبر به كما يحكيه قوله تعالى عند وقوعه (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء) صريح فى أنه من عند الله تعالى ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ أى لو شاء خلاف ذلك مشيئة ارتضاء لما فعلنا الإشراك نحن ﴿ ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ﴾ أرادوا به أن ما فعلوه حق مرضى عند الله تعالى لا الاعتذار من ارتكاب هذه القبائح بإرادة الله تعالى إياها منهم حتى ينتهض ذمهم به دليلا للمعتزلة ألا يرى إلى قوله تعالى ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ أى مثل ما كذبك هؤلاء فى أنه تعالى منع من الشرك ولم يحرم ما حرموه كذب متقدموهم الرسل فإنه صريح فيما قلنا وعطف آباؤنا على الضمير للفصل بلا ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ الذى أنزلنا عليهم بتكذيبهم ﴿ قل هو عندكم

من علم ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم ﴿ فتخرجوه لنا ﴾ أي فتظهروه لنا ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ أي ما تتبعون في ذلك إلا الظن الباطل الذي لا يغني من الحق شيئا ﴿ وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ تكذبون على الله عز وجل وليس فيه دلالة على المنع من اتباع الظن على الإطلاق فيما يعارضه قطعي .

﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ الفاء جواب شرط محذوف أي وإذ قد ظهر أن لا حجة لكم فلله الحجة البالغة أي البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والثبات أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه والمراد بها الكتاب والرسول والبيان وهي من الحج بمعنى القصد كأنها تقصد إثبات الحكم وتطلبه ﴿ فلو شاء ﴾ هدايتكم جميعا ﴿ لهداكم أجمعين ﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن لم يشأ هداية الكل بل هداية البعض الصارفين هممهم إلى سلوك طريق الحق وضلال آخرين صرفوا اختيارهم إلى خلاف ذلك من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم .

﴿ قل هلم شهداءكم ﴾ أي أحضروهم وهو اسم فعل لا يتصرف على لغة أهل الحجاز وفعل يؤنث ويجمع على لغة بني تميم على رأي الجمهور وقد خالفهم البعض في فعليته وليس بشيء وأصله عند البصريين هالم من لم إذا قصد حذفت الألف لتقدير السكون في اللام فإنه الأصل وعند الكوفيين هل أم فحذفت الهمزة بإلقاء حركتها على اللام وهو بعيد لأن هل تدخل على الأمر ويكون متعديا كما في الآية ولازما كما في قوله تعالى هلم إلينا ﴿ الذين يشهدون أن الله حرم هذا ﴾ وهم قدوتهم الذين ينصرون قولهم وإنما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم وأنه لا متمسك لهم كمن يقلدهم ولذلك قيد الشهداء بالإضافة ووصفوا بما يدل على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم ﴿ فإن شهدوا ﴾ بعد ما حضروا بأن الله حرم هذا ﴿ فلا تشهد معهم ﴾ أي فلا تصدقهم فإنه كذب بحت وافتراء صرف وبين لهم فساده فإن تسليمه منهم موافقة لهم في الشهادة الباطلة ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ﴾ من وضع المظهر مقام المضمر للدلالة على أن من كذب بآيات الله تعالى وعدل به

غيره فهو متبع للهوى لا غير وأن من اتبع الحجة لا يكون إلا مصدقا بها ﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ كعبدة الأوثان عطف على الموصول الأول بطريق عطف الصفة على الصفة مع اتحاد الموصوف كما فى قوله :

إلى الماجد القرم وابن الهما م وليث الكتائب فى المزدحم

فإن من يكذب بآياته تعالى لا يؤمن بالآخرة و بالعكس ﴿وهم بربهم يعدلون﴾ أى يجعلون له عديلا عطف على لا يؤمنون والمعنى لا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله وبين الكفر بالآخرة وبين الإشراك به سبحانه لكن لا على أن يكون مدار النهى الجمع المذكور بل على أن أولئك جامعون لها متصفون بكلها ﴿قل تعالوا﴾ لما ظهر بطلان ما ادعوا من أن إشراكهم وإشراك آبائهم وتحريم ما حرموه بأمر الله تعالى ومشيئته بظهور عجزهم عن إخراج شيء يتمسك به فى ذلك وإحضار شهداء يشهدون بما ادعوا فى أمر التحريم بعد ما كلفوه مرة بعد أخرى عجزا بينا أمر رسول الله صلى الله عليه بأن يبين لهم من المحرمات ما يقتضى الحال بيانه على الأسلوب الحكيم إيذانا بأن حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات وأما الأطعمة المحرمة فقد بينت بقوله تعالى (قل لا أجد) الآية وتعال أمر من التعالى والأصل فيه أن يقوله من مكان عال لمن هو فى أسفل منه ثم اتسع فيه بالتعميم كما أن الغنيمة فى الأصل إصابة الغنم من العدو ثم استعملت فى إصابة كل ما يصاب منهم اتساعا ثم فى الفوز بكل مطلب من غير مشقة ﴿أتل﴾ جواب الأمر وقوله تعالى ﴿ما حرم ربكم﴾ منصوب به على أن ما موصولة والعائد محذوف أى أقرأ الذى حرمه ربكم أى الآيات المشتملة عليه أو مصدرية أى الآيات المشتملة على تحريمه أو بحرم على أنها استفهامية والجملة مفعول لأتل لأن التلاوة من باب القول كأنه قيل أقل أى شيء حرم ربكم ﴿عليكم﴾ متعلق بحرم على كل حال وقيل بأتل والأول أنسب بمقام الاعتناء بإيجاب الانتهاء عن المحرمات المذكورة وهو السر فى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم فإن تذكير كونه تعالى ربا لهم ومالكا لأمرهم

على الإطلاق من أقوى الدواعى إلى انتهائهم عما نهاهم عنه أشد انتهاء وأن فى قوله تعالى ﴿ أن لا تشركوا به ﴾ مفسرة لفعل التلاوة المعلق بما حرم ولا ناهية كما ينبيء عنه عطف ما بعده من الأوامر والنواهى عليه وليس من ضرورة كون المعطوف عليه تفسيرا لتلاوة المحرمات بحسب منطوقه كون المعطوفات أيضاً كذلك حتى يمتنع انتظام الأوامر فى سلك العطف عليه بل يكفى فى ذلك كونها تفسيراً لها باعتبار لوازمها التى هى النواهى المتعلقة بأضداد ما تعلقت هى به فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهى عن ضده بل هو عينه عند البعض كأن الأوامر ذكرت وقصد لوازمها فإن عطف الأوامر على النواهى الواقعة بعد أن المفسر لتلاوة المحرمات مع القطع بأن المأمور به لا يكون محرما دليل واضح على أن التحريم راجع إلى الأضداد على الوجه المذكور فكأنه قيل أتل ما حرم ربكم أن لا تشركوا ولا تسيئوا إلى الوالدين خلا أنه قد أخرج مخرج الأمر بالإحسان إليهما بين النهيين المكتنفين له للمبالغة فى إيجاب مراعاة حقوقهما فإن مجرد ترك الإساءة إليهما غير كاف فى قضاء حقوقهما ولذلك عقب به النهى عن الإشراك الذى هو أعظم المحرمات وأكبر الكبائر ههنا فى سائر المواقع وقيل أن ناصبة ومحلها النصب بعليكم على أنه للإغراء وقيل النصب على البدلية مما حرم وقيل من عائدها المحذوف على أن لا زائدة وقيل الجر بتقدير اللام وقيل الرفع بتقدير المتلو أن لا تشركوا أو المحرم أن لاتشركوا بزيادة لاوقيل والذى عليه التعويل هو الأول لأمور من جملتها أن فى إخراج المفسر على صورة النهى مبالغة فى بيان التحريم وقوله تعالى ﴿ شيئا ﴾ نصب على المصدرية أو المفعولية أى لاتشركوا به شيئا من الإشراك أوشيئا من الأشياء ﴿ وبالوالدين ﴾ أى وأحسنوا بهما ﴿ إحسانا ﴾ وقد مر تحقيقه ﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ تكليف متعلق بحقوق الأولاد عقب به التكليف المتعلق بحقوق الوالدين أى لا تقتلوهم بالوأد ﴿ من إملاق ﴾ أى من أجل فقر كما فى قوله تعالى (خشية إملاق) وقيل هذا فى الفقر الناجز وذا فى المتوقع وقوله تعالى ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ استئناف مسوق لتعليل النهى وإبطال سببية ما اتخذوه سببا لمباشرة المنهى عنه

وضمان منه تعالى لأرزاقهم أى نحن نرزق الفريقين لا أنتم فلا تخافوا الفقر بناء على عجزكم عن تحصيل الرزق وقوله تعالى :

﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ كقوله تعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة) الآية إلا أنه جيء ههنا بصيغة الجمع قصدا إلى النهى عن أنواعها(١) ولذلك أبدل عنها قوله تعالى ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ أى ما يفعل منها علانية فى الحوانيت كما هو دأب أراذلهم وما يفعل سرا باتخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم وتعليق النهى بقربانها إما للمبالغة فى الزجر عنها لقوة الدواعى إليها وإما لأن قربانها داع إلى مباشرتها وتوسيط النهى عنها بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن القتل مطلقا كما وقع فى سورة بنى إسرائيل باعتبار أنها مع كونها فى نفسها جناية عظيمة فى حكم قتل الأولاد فإن أولاد الزنا فى حكم الأموات وقد قال صلى الله عليه وسلم فى حق العزل إذ ذاك وأد خفى ومن ههنا تبين أن حمل الفواحش على الكبائر مطلقا وتفسير ما ظهر منها وما بطن بما فسر به ظاهر الإثم وباطنه فيما سلف من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله﴾ أى حرم قتلها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد فيخرج منها الحربى وقوله تعالى ﴿إلا بالحق﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تقتلوها فى حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق الذى هو أمر الشرع بقتلها وذلك بالكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان وقتل النفس المعصومة أو من أعم الأسباب أى لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق وهو ما ذكر أو من أعم المصادر أى لا تقتلوها قتلا ما إلا قتلا كائنا بالحق وهو القتل بأحد الأمور المذكورة ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من التكاليف الخمسة وما فى ذلك من معنى البعد للإيذان بعلو طبقاتها بين التكاليف الشرعية وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿وصاكم به﴾ أى أمركم به ربكم أمرا مؤكدا خبره والجملة استئناف جيء به تجديدا للعهد وتأكيدا لإيجاب المحافظة على ما كلفوه ولما كانت

---

(١) فى ٤٣٠ : فالنهى عن أنواعها .

الأمور المنهى عنها مما تقضى بديهة العقول بقبحها فصلت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح المذكورة .

﴿ ولا تقربو مال اليتيم ﴾ توجيه النهى إلى قربانه من المبالغة فى النهى عن أكله ولإخراج القربان النافع عن حكم النهى بطرق الاستثناء أى لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه ﴿ إلا بالتى هى أحسن ﴾ إلا بالخصلة التى هى أحسن ما يكون من الحفظ والتثمير ونحو ذلك والخطاب للأولياء والأوصياء لقوله تعالى ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ فإنه غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهى كأنه قيل احفظوه حتى يصير بالغاً رشيداً فحينئذ سلموه إليه كما فى قوله تعالى (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) والأشد جمع شدة كنعمة وأنعم أو شد ككلب وأكلب أو شد كصر وآصر وقيل هو مفرد كآنك ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ أى بالعدل والتسوية ﴿ لا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها وهو اعتراض جىء به عقيب الأمر بالأمر للإيذان بأن مراعاة العدل كما هو عسير كأنه قيل عليكم بما فى وسعكم وما وراءه معفو عنكم ﴿ وإذا قلتم ﴾ قولا فى حكومة أو شهادة أو نحوهما ﴿ فاعدلوا ﴾ فيه ﴿ ولو كان ﴾ أى المقول له أو عليه ﴿ ذا قربى ﴾ أى ذا قرابة منكم ولا تميلوا نحوهم أصلا وقدمر تحقيق معنى لو فى مثل هذا الموضع مرارا ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ أى ما عهد إليكم من الأمور المعدودة أو أى عهد كان فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا أو ما عاهدتم الله عليه من الإيمان والنذور وتقديمه للاعتناء بشأنه ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى ما فصل من التكاليف ومعنى البعد لما ذكر فيما قبل ﴿ وصاكم به ﴾ أمركم به أمرا مؤكدا ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ تتذكرون ما فى تضاعيفه وتعملون بمقتضاه وقرىء بتشديد الذال وهذه أحكام عشرة لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه آيات محكمات لم ينسخهن شىء من جميع الكتب وهن محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار وعن كعب الأحبار والذى نفس كعب بيده أن

هذه الآيات لأول شيء فى التوراة بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا الآيات .

﴿ وأن هذا صراطى ﴾ إشارة إلى ما ذكر فى الآيتين من الأمر والنهى قاله مقاتل وقيل إلى ما ذكر فى السورة فإنها بأسرها فى إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة وقرىء صراطى بفتح الياء ومعنى إضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام انتسابه إليه عليه الصلاة والسلام من حيث السلوك لا من حيث الوضع كما فى صراط الله والمراد بيان أن ما فصل من الأوامر والنواهى غير مختصة بالمتلو عليهم بل متعلقة به عليه الصلاة والسلام أيضا وأنه صلى الله عليه وسلم مستمر على العمل بها ومراعاتها وقوله تعالى ﴿ مستقيما ﴾ حال مؤكدة ومحل أن مع ما فى حيزها الجر بحذف لام العلة أى ولأن هذا صراطى أى مسلكى مستقيما ﴿ فاتبعوه ﴾ كقوله تعالى وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا وتعليل اتباعه بكونه صراطه عليه الصلاة والسلام لا بكونه صراط الله تعالى مع أنه فى نفسه كذلك من حيث أى سلوكه صلى الله عليه وسلم فيه داع للخلق إلى الاتباع إذ بذلك يتضح عندهم كونه صراط الله عز وجل وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف وقرىء أن هذا مخففة من أن على أن اسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف وقرىء صراطى وقرىء هذا صراطى وقرىء وهذا صراط ربكم وهذا صراط ربك ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ الأديان المختلفة أو طرق البدع والضلالات ﴿ فتفرق بكم ﴾ بحذف إحدى التاءين والباء للتعدية أى فتفرقكم حسب تفرقها أيادى سبأ فهو كما ترى أبلغ من تفرقكم كما قيل من أن ذهب به لما فيه من الدلالة على الاستصحاب أبلغ من أذهبه ﴿ عن سبيله ﴾ أى سبيل الله الذى لا عوج فيه ولا حرج وهو دين الإسلام الذى ذكر بعض أحكامه وقيل هو اتباع الوحى واقتفاء البرهان وفيه تنبيه على أن صراطه عليه الصلاة والسلام عين سبيل الله تعالى ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى ما مر من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر السبل ﴿ وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ اتباع سبل الكفر والضلالة .

القرآن مهيمن على الكتب

﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ كلام مسوق من جهته تعالى تقريراً للوصية وتحقيقا لها وتمهيداً لما يعقبه من ذكر القرآن المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله تعالى (ذلكم وصاكم به) بطريق الاستئناف تصديقا له وتقريرا لمضمونه فعلنا ذلك ثم آتينا الخ كما أن قوله تعالى (ونطبع على قلوبهم) معطوف على ما يدل عليه معنى (أو لم يهد) الخ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ وأما عطفه على ذلكم وصاكم به ونظمه معه فى سلك الكلام الملقن كما أجمع عليه الجمهور فمما لا يليق بجزالة النظم الكريم فتدبر وثم للتراخى فى الإخبار كما فى قولك بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب أو للتفاوت فى الرتبة كأنه قيل ذلكم وصاكم به قديما وحديثا ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوراة فإن إيتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها أعظم من التوصية بها فقط ﴿ تماما ﴾ للكرامة والنعمة أى إتماما لهما على أنه مصدر من أتم بحذف الزوائد ﴿ على الذى أحسن ﴾ أى على من أحسن القيام به كائنا من كان ويؤيده أنه قرىء على الذين أحسنوا وتماما على المحسنين أو على الذى أحسن تبليغه وهو موسى عليه السلام أو تماما على ما أحسنه موسى عليه السلام أى أجاده من العلم والشرائع أى زيادة على علمه على وجه التتميم وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى على الذى هو أحسن دين وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تماما أى تاما كاملا على أحسن ما يكون عليه الكتب ﴿ وتفصيلا لكل شيء ﴾ وبيانا مفصلا لكل ما يحتاج إليه فى الدين وهو عطف على تماما ونصبهما إما على العلية أو على المصدرية كما أشير إليه أو على الحالية وكذا قوله تعالى ﴿ وهدى ورحمة ﴾ وضمير ﴿ لعلهم ﴾ لبنى إسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى وإيتاء الكتاب والباء فى قوله تعالى ﴿ بلقاء ربهم ﴾ متعلقة بقوله تعالى ﴿ يؤمنون ﴾ قدمت عليه محافظة على الفواصل قال ابن عباس رضى الله عنهما كى يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعذاب .

﴿ وهذا ﴾ أى الذى تليت عليكم أوامره ونواهيه أى القرآن ﴿ كتاب ﴾ عظيم الشأن لا يقادر قدره وقوله تعالى ﴿ أنزلناه مبارك ﴾ أى كثير المنافع دينا ودنيا صفتان لكتاب وتقديم وصف الإنزال مع كونه غير صريح لأن الكلام مع منكريه أو خبران آخران لاسم الإشارة أى أنزلناه مشتملا على فنون الفوائد الدينية والدنيوية التى فصلت عليكم طائفة منها والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاتبعوه ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن عظم شأن الكتاب فى نفسه وكونه منزلا من جنابه عز وجل مستتبعاً للمنافع الدينية والدنيوية موجب لاتباعه أى إيجاب ﴿ واتقوا ﴾ مخالفته ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ بواسطة اتباعه والعمل بموجبه ﴿ أن تقولوا ﴾ علة لأنزلناه المدلول عليه بالمذكور لا لنفسه للزوم الفصل حينئذ بين العامل والمعمول بأجنبى هو مبارك وصفا كان أو خبرا أى أنزلناه كذلك كراهة أن تقولوا يوم القيامة لو لم تنزله ﴿ إنما أنزل الكتاب ﴾ الناطق بتلك الأحكام العامة لكل الأمم ﴿ على طائفتين ﴾ كائنتين ﴿ من قبلنا ﴾ وهما اليهود والنصارى وتخصيص الإنزال بكتابيهما لأنهما الذى اشتهر حينئذ فيما بين الكتب السماوية بالاشتمال على الأحكام لا سيما الأحكام المذكورة ﴿ وإن كنا ﴾ إن هى المخففة من إن واللام فارقة بينهما وبين النافية وضمير الشأن محذوف ومرادهم بذلك دفع ما يرد عليهم من أن نزوله عليهما لا ينافى عموم أحكامه فلم لم تعملوا بأحكامه العامة أى وإنه كنا ﴿ عن دراستهم لغافلين ﴾ لا ندرى ما فى كتابهم إذ لم يكن على لغتنا حتى نتلقى منه تلك الأحكام العامة ونحافظ عليها وإن لم يكن منزلا علينا وبهذا تبين أن معذرتهم هذه مع أنهم غير مأمورين بما فى الكتابين لاشتمالها على الأحكام المذكورة المتناولة لكافة الأمم كما أن قطع تلك المعذرة بإنزال القرآن لاشتماله أيضا عليها لا على سائر الشرائع والأحكام فقط .

﴿ أو تقولوا ﴾ عطف على تقولوا وقرىء كلاهما بالياء على الالتفات من خطاب فاتبعوه واتقوا ﴿ لو أنا أنزل علينا الكتاب ﴾ كما أنزل عليهم ﴿ لكنا أهدى منهم ﴾ إلى الحق الذى هو المقصد الأقصى أو إلى ما فى تضاعيفه من

جلائل الأحكام[1] والشرائع ودقائقها لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا ولذلك تلقفنا من فنون العلم كالقصص والأخبار والخطب والأشعار ونحو ذلك طرفا صالحا ونحن أميون وقوله تعالى ﴿ فقد جاءكم ﴾ متعلق بمحذوف ينبىء عنه الفاء القصيحة إما معلل به أى لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم الخ وإما شرط له أى إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب عليكم فقد حصل ما فرضتم وجاءكم ﴿ بينة ﴾ أى حجة واضحة لا يكتنه كنهها وقوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ متعلق بجاءكم أو بمحذوف هو صفة لبينة أى بينة كائنة منه تعالى وأياً ما كان ففيه دلالة على فضلها الإضافى كما أن فى تنوينها التفخيمى دلالة على فضلها الذاتى وفى التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد تأكيد لإيجاب الاتباع ﴿ وهدى ورحمة ﴾ عطف على بينة وتنوينهما أيضاً تفخيمى عبر عن القرآن بالبينة إيذانا بكمال تمكنهم من دراسته ثم بالهدى والرحمة تنبيها على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو عين الهدايه والرحمة .

﴿ فمن أظلم ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن مجىء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه أى وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم ﴿ ممن كذب بآيات الله ﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم بطريق الالتفات تنصيصاً على اتصافهم بما فى حيز الصلة وإشعاراً بعلة الحكم وإسقاطا لهم عن رتبه الخطاب وعبر عما جاءهم بآيات الله تهويلا للأمر وتنبيها على أن تكذيب أى آية كانت من آيات الله تعالى كاف فى الأظلمية فما ظنك بتكذيب القرآن المنطوى على الكل والمعنى إنكار أن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وإن لم يكن سبك التركيب متعرضا لإنكار المساواة ونفيها فإذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد به حتما بحكم العرف الفاشى والاستعمال المطرد أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وقد مر مرارا

(١) فى ١٠ : دقائق الأحكام .

﴿ وصدف عنها ﴾ أى صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال ﴿ سنجزى الذين يصدفون ﴾ الناس ﴿ عن آياتنا ﴾ وعيد لهم ببيان جزاء إضلالهم بحيث يفهم منه جزاء ضلالهم أيضاً ووضع الموصول موضع المضمر لتحقيق مناط الجزاء ﴿ سوء العذاب ﴾ أى العذاب السيء الشديد النكاية ﴿ بما كانوا يصدفون ﴾ أى بسبب ما كانوا يفعلون من الصدف والصرف على التجدد والاستمرار وهذا تصريح بما أشعر به إجراء الحكم على الموصول من علية ما فى حيز الصلة له .

﴿ هل ينظرون ﴾ استئناف مسوق لبيان أنه لا يتأتى منهم الإيمان بإنزال ما ذكر من البينات والهدى وأنهم لا يرعوون عن التمادى فى المكابرة واقتراح ما ينافى الحكمة التشريعية من الآيات الملجئة وأن الإيمان عند إتيانها مما لا فائدة له أصلامبالغة فى التبليغ والإنذار وإزاحة العلل والأعذار أى ما ينتظرون ﴿ إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك ﴾ حسبما اقترحوا بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا وبقولهم أو تأتى بالله والملائكة قبيلا وبقولهم لولا أنزل عليه ملك ونحو ذلك أو إلا أن تأتيهم ملائكة العذاب أو يأتى أمر ربك بالعذاب والانتظار محمول على التمثيل كما سيجىء وقرىء يأتيهم بالياء لأن تأنيث الملائكة غير حقيقى .

﴿ أو يأتى بعض آيات ربك ﴾ أى غير ما ذكر كما اقترحوا بقولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ونحو ذلك من عظائم الآيات التى علقوا بها إيمانهم والتعبير عنها بالبعض للتهويل والتفخيم كما أن إضافة الآيات فى الموضعين إلى اسم الرب المنبىء عن المالكية الكلية لذلك وإضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقيل المراد بالملائكة ملائكة الموت وبإتيانه سبحانه وتعالى إتيان كل آياته بمعنى آيات القيامة والهلاك الكلى بقرينة ما بعده من إتيان بعض آياته تعالى على أن المراد به أشراط الساعة التى هى الدخان ودابة الأرض وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب والدجال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام ونار

تخرج من عدن كما نطق به الحديث الشريف المشهور وحيث لم يكن إتيان هذه الأمور مما ينتظرونه كإتيان ما اقترحوه من الآيات فإن تعليق إيمانهم بإتيانها انتظار منهم لهظاهرا حمل الانتظار على التمثيل المبنى على تشبيه حالهم فى الإصرار على الكفر والتمادى فى العناد إلى أن تأتيهم تلك الأمور الهائلة التى لا بد لهم من الإيمان عند مشاهدتها البتة بحال المنتظرين لها وأنت خبير بأن النظم الكريم بسباقه المنبىء عن تماديهم فى تكذيب آيات الله تعالى وعدم الاعتداد بها وسياقه الناطق بعدم نفع الإيمان عند إتيان ما ينتظرونه يستدعى أن يحمل ذلك على أمور هائلة مخصوصة بهم إما بأن تكون عبارة عما اقترحوه أو عن عقوبات مترتبة على جناياتهم كإتيان ملائكة العذاب وإتيان أمره تعالى بالعذاب وهو الأنسب لما سيأتى من قوله تعالى (قل انتظروا إنا منتظرون) وأما حمله على ما ذكر من إتيان ملائكة الموت وإتيان كل آيات القيامة وظهور أشراط الساعة مع شمول إتيانها لكل بر وفاجر واشتمال غائلتها على كل مؤمن وكافر فمما لا يساعده المقام على أن بعض أشراط الساعة ليس مما ينسد به باب الإيمان والطاعه نعم يجوز حمل بعض الآيات فى قوله عز وجل ﴿ يوم يأتى بعض آيات ربك ﴾ على ما يعم مقترحاتهم وغيرها من الدواعى العظام السالبة للاختيار الذى عليه يدور فلك التكليف فإنه بمنزلة الكبرى من الشكل الأول فيتم التقريب عند وقوعها بدخول ما ينتظرونه فى ذلك دخولا أوليا ويوم منصوب بقوله تعالى ﴿ لا ينفع ﴾ فإن امتناع عمل ما بعد لا فيما قبلها عند وقوعها جواب القسم وقرىء يوم بالرفع على الإبتداء والخبر هو الجملة والعائد محذوف أى لا تنفع فيه ﴿ نفسا ﴾ من النفوس ﴿ إيمانها ﴾ حينئذ لانكشاف الحال وكون الأمر عيانا ومدار قبول الإيمان أن يكون بالغيب كقوله تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم) لما رأوا بأسنا وقرىء لاتنفع بالتاء الفوقانيه لاكتساب الإيمان من ملابسة المضاف إليه تأنيثا وقوله تعالى ﴿ لم تكن آمنت من قبل ﴾ أى من قبل إتيان بعض الآيات صفة لنفسا فصل بينهما بالفاعل لاشتماله على ضمير الموصوف ولا ضير فيه لأنه غير أجنبى منه لاشتراكهما فى العامل :

﴿ أو كسبت فى إيمانها خيرا ﴾ عطف على آمنت بإيراد الترديد على النفى المفيد لكفاية أحد النفيين فى عدم النفع والمعنى أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفسا لم تقدم إيمانها أو قدمته ولم تكسب فيه خيرا ومن ضرورته اشتراط النفع بتحقق الأمرين أى الإيمان المقدم والخير المكسوب فيه معا بمعنى أن النافع هو تحققهما والإيمان المؤخر لغو وتحصيل للحاصل لا أنه هو النافع وتحققهما شرط فى نفعه كما لو كان المقدم غير المؤخر بالذات فإن قولك لا ينفع الصوم والصدقة من لم يؤمن قبلهما معناه أنهما ينفعانه عند وقوعهما بعد الإيمان وقد استدل به أهل الاعتزال على عدم اعتبار الإيمان المجرد عن الأعمال وليس بناهض ضرورة صحة حمله على نفى الترديد المستلزم لعمومه المفيد بمنطوقه لاشتراط عدم النفع بعدم الأمرين معا وبمفهومه لاشتراط النفع بتحقق أحدهما بطريق منع الخلو دون الانفصال الحقيقى فالمعنى أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفسا لم يصدر عنها من قبل أحد الأمرين أما الإيمان المجرد أو الخير المكسوب فيه فيتحقق النفع بأيهما كان حسبما تنطق به النصوص الكريمة من الآيات والأحاديث وما قيل من أن عدم الإيمان السابق مستلزم لعدم كسب الخير فيه بالضرورة فيكون ذكره تكرارا بلا فائدة على أن الموجب للخلود فى النار هو العدم الأول من غير أن يكون للثانى دخل ما فى ذلك قطعاً فيكون ذكره بصدد بيان ما يوجب الخلود لغوا من الكلام لغو من الكلام مبنى على توهم أن المقصود بوصف النفس بالعدمين المذكورين مجرد بيان إيجابهما للخلود فيها وعدم نفع الإيمان الحادث فى إنجائها عنه وليس كذلك وإلا لكفى فى البيان أن يقال لا ينفع نفسا إيمانها الحادث بل المقصد الأصلى من وصفها بذينك العدمين فى أثناء بيان عدم نفع الإيمان الحادث تحقيق أن موجب النفع إحدى ملكتيهما أعنى الإيمان السابق والخير المكسوب فيه بما ذكر من الطريقة والترغيب فى تحصيلهما فى ضمن التحذير من تركهما ولا سبيل إلى أن يقال كما أن عدم الأول مستقل فى إيجاب الخلود فى النار فيلغو ذكر عدم الثانى كذلك وجوده مستقل فى إيجاب الخلاص عنها فيكون ذكر الثانى لغوا لما أنه قياس

مع الفارق كيف لا والخلود فيها أمر لا يتصور فيه تعدد العلل وأما الخلاص عنها مع دخول الجنة فله مراتب بعضها مترتب على نفس الإيمان وبعضها على فروعه المتفاوتة كما وكيفا وإنما لم يقتصر على بيان ما يوجب أصل النفع وهو المقابل لما لا يوجبه أصلا أعنى الإيمان الحادث بل قرن به ما يوجب النفع الزائد أيضا إرشادا إلى تحرى الأعلى وتنبيها على كفاية الأدنى وإقناطا للكفرة عما علقوا به أطماعهم الفارغة من أعمال البر التى عملوها فى الكفر من صلة الأرحام وإعتاق الرقاب وفك العناة وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم ببيان أن كل ذلك لغو بحت لابتنائه على غير أساس حسبما نطق به. قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) الآية ونحو ذلك من النصوص الكريمة وأن الإيمان الحادث كما لا ينفعهم وحده لا ينفعهم بانضمام أعمالهم السابقة واللاحقة ولك أن تقول المقصود بوصف النفس بما ذكر من العدمين التعريض بحال الكفرة فى تمردهم وتفريطهم فى كل واحد من الأمرين الواجبين عليهم وإن كان وجوب أحدهما منوطا بالآخر كما فى قوله عز وجل (فلا صدق ولا صلى) تسجيلا بكمال طغيانهم وإيذانا بتضاعف عقابهم لما تقرر من أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع فى حق المؤاخذة كما ينبىء عنه قوله تعالى (فويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) إذا تحققت هذا وقفت على أن الآية الكريمة أحق بأن تكون حجة على المعتزلة من أن تكون حجة لهم هذا وقد قيل إنها من باب اللف التقديرى أى لا ينفع نفسا إيمانها ولا كسبها فى الإيمان لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فيه وليس بواضح فإن مبنى اللف التقديرى أن يكون المقدر من متممات الكلام ومقتضيات المقام قد ترك ذكره تعويلا على دلالة الملفوظ عليه واقتضائه إياه كما مر فى تفسير قوله عز وجل (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) فإنه قد طوى فى المفصل ذكر حشر المؤمنين ثقة بإنباء التفصيل عنه أعنى قوله تعالى (فأما الذين آمنوا) الآية ولا ريب فى أن ما قدر ههنا ليس مما يستدعيه قوله تعالى (أو كسبت فى إيمانها خيرا) ولا هو من مقتضات المقام لأنه ليس مما وعدوه وعلقوه بإتيان ما ذكر من الآيات

كالإيمان حتى يرد عليهم ببيان عدم نفعه إذ ذاك على أن ذلك مشعر بأن لهم بعد ما أصابهم من الدواهي ما أصابهم بقاء على السلامة وزمانا يتأتى منهم الكسب والعمل فيه وفيه من الإخلال بمقام تهويل الخطب وتفظيع الحال ما لا يخفى .

وقد أجيب عن الاستدلال بوجوه أخر قصارى أمرها إسقاط الآية الكريمة عن رتبة المعارضة للنصوص القطعية المتون القوية الدلالة على ما ذكر من كفاية الإيمان المجرد عن العمل فى الإنجاء من العذاب الخالد ولو بعد اللتيا والتى لما تقرر من أن الظنى بمعزل من معارضة القطعى .

﴿ قل ﴾ لهم بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد ﴿ انتظروا ﴾ ماتنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أى شىء تنتظرون ﴿ إنا منتظرون ﴾ لذلك لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة وفيه تأييد لكون المراد بما ينتظرونه إتيان ملائكة العذاب أو إتيان أمره تعالى بالعذاب كما أشير إليه وعدة ضمنية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بمعاينتهم لما يحيق بالكفرة من العقاب ولعل ذلك هو الذى شاهدوه يوم بدر والله سبحانه أعلم ﴿ إن الذين فرقوا دينهم ﴾ استئناف لبيان أحوال أهل الكتابين إثر بيان حال المشركين أى بددوه وبعضوه فتمسك بكل بعض منه فرقة منهم وقرىء فارقوا أى باينوا فإن ترك بعضه وإن كان بأخذ بعض آخر منه ترك للكل ومفارقة له ﴿ وكانوا شيعا ﴾ أى فرقاً تشيع كل فرقة إماماً لها قال عليه الصلاة والسلام افترقت اليهود والنصارى على إحدى وسبعين فرقة كلهم فى الهاوية إلا واحدة واستثناء الواحدة من فرق كل من أهل الكتابين إنما هو بالنظر إلى العصر الماضى قبل النسخ وأما بعده فالكل فى الهاوية وإن اختلفت أسباب دخولهم فمعنى قوله تعالى ﴿ لست منهم فى شىء ﴾ لست من البحث عن تفرقهم والتعرض لمن يناصرك منهم بالمناقشة والمؤاخذة وقيل من قتالهم فى شىء سوى تبليغ الرسالة وإظهار شعائر الدين الحق الذى أمرت بالدعوة إليه فيكون منسوخا بآية السيف وقوله تعالى ﴿ إنما أمرهم إلى الله ﴾ تعليل للنفى المذكور

أى هو يتولى وحده أمر أولاهم وأخراهم ويدبره كيف يشاء حسبما تقتضيه الحكمة يؤاخذهم فى الدنيا التى شاء ويأمر بقتالهم إذا أراد وقيل المفرقون أهل البدع والأهواء الزائغة من هذه الأمه ويرده أنه عليه الصلاة والسلام مأمور بمؤاخذتهم والاعتذار بأن معنى لست منهم فى شيء حينئذ أنت برىء منهم ومن ومن مذهبهم وهم برآء منك يأباه التعليل المذكور ﴿ثم ينبئهم﴾ أى يوم القيامة ﴿بما كانوا يفعلون﴾ عبر عن إظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة فى أنهما سببان للعلم تنبيها على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته أى يظهر لهم على رءوس الأشهاد ويعلمهم أى شيء شنيع كانوا يفعلونه فى الدنيا على الاستمرار ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء .

جزاء العاملين

وقوله تعالى : ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ استئناف مبين لمقادير أجزية العاملين وقد صدر ببيان أجزية المحسنين المدلول عليهم بذكر أضدادهم قال عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم يريد من عمل من المصدقين حسنة كتبت له عشر حسنات أى من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة من المؤمنين إذ لا حسنة بغير إيمان فله عشر حسنات أمثالها تفضلا من الله عز وجل وقرىء عشر بالتنوين وأمثالها بالرفع على الوصف وهذا أقل ما وعد من الأضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمائة وبغير حساب ولذلك قيل المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ أى بالأعمال السيئة كائنا من كان من العاملين ﴿فلا يجزى إلا مثلها﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة ﴿وهم لا يظلمون﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب ﴿قل إننى هدانى ربى﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم ما هو عليه من الدين الحق الذى يدعون أنهم عليه وقد فارقوه بالكلية وتصدير الجملة بحرف التحقيق لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لمزيد تشريفه أى قل لأولئك المفرقين أرشدنى ربى بالوحى وبما نصب فى

الآفاق والأنفس من الآيات التكوينية ﴿إلى صراط مستقيم﴾ موصل إلى الحق وقوله تعالى ﴿دينا﴾ بدل من إلى صراط فإن محله النصب كما فى قوله تعالى (ويهديك صراطا مستقيما) أو مفعول لفعل مضمر يدل عليه المذكور ﴿قيما﴾ مصدر نعت به مبالغة والقياس قوما كعوض فاعل لإعلال فعله كالقيام وقرىء قيما وهو فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة وإن كان هو أبلغ منه باعتبار الصيغة ﴿ملة إبراهيم﴾ عطف بيان لدينا ﴿حنيفا﴾ حال من إبراهيم أى مائلا عن الأديان الباطلة وقوله تعالى ﴿وما كان من المشركين﴾ اعتراض مقرر لنزاهته عليه السلام عما عليه المفرقون لدينه من عقد وعمل أى ما كان منهم فى أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك ردا على الذين يدعون أنهم على ملته عليه السلام من أهل مكة واليهود المشركين بقولهم عزير ابن الله والنصارى المشركين بقولهم المسيح ابن الله .

﴿قل إن صلاتى ونسكى﴾ أعيد الأمر لما أن المأثور به متعلق بفروع الشرائع وما سبق بأصولها أى عبادتى كلها وقيل وذبحى جمع بينه وبين الصلاة كما فى تعالى ﴿فصل لربك وانحر﴾ وقيل صلاتى وحجى ﴿ومحياى ومماتى﴾ أى وما أنا عليه فى حياتى وما أكون عليه عند موتى من الإيمان والطاعة أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى الممات كالوصية والتدبير وقرىء محياى بسكون الياء إجراء للوصل مجرى الوقف ﴿لله رب العالمين لاشريك له﴾ خالصة له لا أشرك فيها غيره ﴿وبذلك﴾ إشارة إلى الإخلاص وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل أى بذلك الإخلاص ﴿أمرت﴾ لا بشىء غيره وقوله تعالى ﴿وأنا أول المسلمين﴾ لبيان مسارعته عليه السلام إلى الامتثال بما أمر به وأن ما أمر به ليس من خصائصه عليه السلام بل الكل مأمورون به ويقتدى به عليه السلام من أسلم منهم ﴿قل أغير الله أبغى ربا﴾ آخر فأشركه فى العبادة ﴿وهو رب كل شىء﴾ جملة حالية مؤكدة للإنكار أى والحال أن كل ماسواه مربوب له مثلى فكيف يتصور أن يكون شريكا له فى المعبودية ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ كانوا

يقولون للمسلمين اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم إما بمعنى ليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لا عليكم وإما بمعنى لنحمل يوم القيامة ما كتب عليكم من الخطايا فهذا رد له بالمعنى الأول أى لا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر حتى يتأتى ما ذكرتم وقوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ رد له بالمعنى الثانى أى لا تحمل يومئذ نفس حاملة حمل نفس أخرى حتى يصح قولكم ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكل لتأكيد الوعد وتشديد الوعيد إلى مالك أموركم ورجوعكم يوم القيامة ﴿ فينبئكم ﴾ يومئذ ﴿ بما كنتم فيه تختلفون ﴾ ببيان الرشد من الغى وتمييز الحق من الباطل ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ حيث خلفتم الأمم السالفة أو يخلف بعضكم بعضا أو جعلكم خلفاء الله تعالى فى أرضه تتصرفون فيها على أن الخطاب عام ﴿ ورفع بعضكم ﴾ فى الشرف والغنى ﴿ فوق بعض درجات ﴾ كثيرة متفاوتة ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ من المال والجاه أى ليعاملكم معاملة من يبتليكم لينظر ماذا تعملون من الشكر وضده ﴿ إن ربك ﴾ تجريد الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع إضافة اسم الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لإبراز مزيد اللطف به عليه السلام ﴿ سريع العقاب ﴾ أى عقابه سريع الإتيان لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله تعالى ولم يشكره لأن كل آت قريب أو سريع التمام عند إرادته لتعاليه عن استعمال المبادى والآلات ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن راعاها كما ينبغى وفى جعل خبر هذه الجملة من الصفات الذاتية الواردة على بناء المبالغة مؤكدا باللام مع جعل خبر الأولى صفة جارية على غير من هى له من التنبيه على أنه تعالى غفور رحيم بالذات مبالغ فيهما فاعل للعقوبة بالعرض مسامح فيها ما لا يخفى والله أعلم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزلت على سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الأنعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوما وليلة والله تعالى أعلم .

سورة الأعراف

(مكية غير ثمان آيات من قوله (واسألهم) إلى قوله (وإذ نتقنا الجبل)
وآيها مائتان وخمس)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿المص﴾ إما مسرود على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الإعراب وإما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والتقدير هذا المص أى مسمى به وتذكير اسم الإشارة مع تأنيث المسمى لما أن الإشارة إليه من حيث أنه مسمى بالاسم المذكور لا من حيث أنه مسمى بالسورة وإنما صحت الإشارة إليه مع عدم سبق ذكره لما أنه باعتبار كونه بصدد الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد وقوله عز وجل ﴿ كتاب ﴾ على الوجه الأول خبر مبتدأ محذوف وهو ما ينبىء عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف مرادا به السورة كتاب الخ أو اسم إشارة أشير به إليه تنزيلا لحضور المؤلف منه منزلة حضور نفس المؤلف أى هذا كتاب الخ وعلى الوجه الثانى خبر بعد خبر جىء به إثر بيان كونه مترجما له باسم بديع منبىء عن غرابته فى نفسه إبانة لجلالة محله ببيان كونه فردا من أفراد الكتب الإلهية حائزا للكمالات المختصة بها وقد جوز كونه خبرا والمص مبتدأ أى المسمى بالمص كتاب وقد عرفت ما فيه من أن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه عند المخاطب وإذ لا عهد بالتسمية قبل فحقها الإخبار بها ﴿ أنزل إليك ﴾ أى من جهته تعالى بنى الفعل للمفعول جريا على سنن الكبرياء وإيذانا بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعينه وهو السر فى ترك ذكر مبدأ الإنزال كما فى قوله جل ذكره بلغ ما أنزل إليك من ربك ونظائره والجملة صفة لكتاب مشرفة له ولمن أنزل إليه وجعله خبرا له على معنى كتاب عظيم الشأن أنزل إليك خلاف الأصل ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج ﴾ أى شك كما فى قوله تعالى (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك) خلا أنه عبر عنه بما يلازمه من الحرج فإن الشاك يعتريه ضيق الصدر كما أن

المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه مبالغة فى تنزيه ساحته عليه الصلاة والسلام وما قد يقع من نسبته إليه فى ضمن النهى فعلى طريقة التهييج والإلهاب والمبالغة فى التنفير والتحذير بإيهام أن ذلك من القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلا فكيف بمن يمكن ذلك منه والتنوين للتحقير والجار فى قوله تعالى ﴿منه﴾ متعلق بحرج يقال حرج منه أى ضاق به صدره أو بمحذوف وقع صفة له أى حرج كائن منه أى لا يكن فيك ما فى حقيته أو فى كونه كتابا منزلا إليك من عنده تعالى فالفاء على الأول لترتيب النهى أو الانتهاء على مضمون الجملة فإنه مما يوجب انتفاء الشك فيما ذكر بالكلية وحصول اليقين به قطعا وأما على الثانى فهى لترتيب ما ذكر على الإخبار بذلك لا على نفسه فتدبر وتوجيه النهى إلى الحرج مع أن المراد نهيه عليه الصلاة والسلام عنه إما لما مر من المبالغة فى تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن الشك فيما ذكر فإن النهى عن الشيء مما يوهم إمكان صدور المنهى عنه عن المنهى وإما للمبالغة فى النهى فإن وقوع الشك فى صدره عليه الصلاة والسلام سبب لاتصافه عليه الصلاة والسلام به والنهى عن السبب نهى عن المسبب بالطريق البرهانى ونفى له من أصله بالمرة كما فى قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم) الآية وليس هذا من قبيل لا أرينك ههنا فإن النهى هناك وارد على المسبب مراد به النهى عن السبب فيكون المآل نهيه عليه الصلاة والسلام عن تعاطى ما يورث الحرج فتأمل وقيل الحرج على حقيقته أى لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه مخافة أن يكذبوك وأن تقصر فى القيام بحقه فإنه عليه الصلاة والسلام كان يخاف تكذيب قومه له وإعراضهم عنه فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فآمنه الله تعالى ونهاه عن المبالاة بهم فالفاء حينئذ للترتيب على مضمون الجملة أو على الإخبار به فإن كلا منهما موجب للإقدام على التبليغ وزوال الخوف قطعا وإن كان إيجابه الثانى بواسطة الأول وقوله تعالى:

﴿لتنذر به﴾ أى بالكتاب المنزل متعلق بأنزل وما بينهما اعتراض توسط بينهما تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وحسما لتوهم أن مورد الشك هو الإنزال

للإنذار وقيل متعلق بالنهى فإن انتفاء الشك فى كونه منزلا من عنده تعالى موجب للإنذار به قطعا وكذا انتفاء الخوف منهم أو العلم بأنه موفق للقيام بحقه موجب للتجاسر على ذلك وأنت خبير بأنه لا يتأتى على التفسير الأول لأن تعليل النهى عن الشك بما ذكر من الإنذار والتذكير مع إيهامه لإمكان صدوره عنه عليه الصلاة والسلام مشعر بأن المنهى عنه ليس محذورا لذاته بل لإفضائه إلى فوات الإنذار والتذكير لا أقل من الإيذان بأن ذلك معظم غائلته ولا ريب فى فساده وأما على التفسير الثانى فإنما يتأتى التعليل بالإنذار لا بتذكير المؤمنين إذ ليس فيه شائبة خوف حتى يجعل غاية لانتفائه وقوله تعالى ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ فى حيز النصب بإضمار فعله معطوفا على تنذر أى وتذكر المؤمنين تذكيرا أو الجر عطفا على محل أن تنذر أى للإنذار والتذكير وقيل مرفوع عطفا على كتاب أو خبر لمبتدأ محذوف وتخصيص التذكير بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالكفرة أى لتنذر به المشركين وتذكر المؤمنين وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام .

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم ﴾ كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين بطريق التلوين وأمروا باتباع ما أمر النبى صلى الله عليه وسلم قبل تبليغه[1] بطريق الإنذار والتذكير وجعله منزلا إليهم بواسطة إنزاله إليه عليه الصلاة والسلام إثر ذلك ما يصححه من الإنذار والتذكير لتأكيد وجوب اتباعه وقوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ متعلق بأنزل على أن من لابتداء الغاية مجازا أو بمحذوف وقع حالا[2] من الموصول أو من ضميره فى الصلة وفى التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين مزيد لطف بهم وترغيب لهم فى الامتثال بما أمروا به وتأكيد لوجوبه وجعل ما أنزل ههنا عاما للسنة القولية والفعلية بعيد نعم يعمهما حكمه بطريق الدلالة لا بطريق العبارة ولما كان اتباع ما أنزله الله تعالى اتباعا له تعالى عقب الأمر بذلك بالنهى عن اتباع غيره تعالى فقيل ﴿ ولا تتبعوا من دونه ﴾ أى من دون ربكم الذى أنزل إليكم ما يهديكم إلى الحق ومحله النصب

---

(١) فى ١٠ : قبل بلاغه . (٢) فى ١٠ هو حال .

على أنه حال من فاعل فعل النهى أى لا تتبعوا متجاوزين الله تعالى ﴿ أولياء ﴾ من الجن والإنس بأن تقبلوا منهم ما يلقونه إليكم بطريق الوسوسه والإغواء من الأباطيل ليضلوكم عن الحق ويحملونكم على البدع والأهواء الزائغة أو من أولياء قدم عليه لكونه نكرة إذ لو أخر عنه لكان صفه له أى أولياء كائنة غيره تعالى وقيل الضمير للموصول على حذف المضاف فى أولياء أى ولا تتبعوا من دون ما أنزل أباطيل أولياء كأنه قيل ولا تتبعوا من دون دين ربكم دين أولياء وقرىء ولا تبتغوا كما فى قوله تعالى ومن يبتغ غير الإسلام دينا وقوله تعالى ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ بحذف إحدى التاءين وتخفيف الذال وقرىء بتشديدها على إدغام التاء المهموسة فى الذال المجهورة وقرىء يتذكرون على صيغة الغيبة وقليلا نصب إما بما بعده على أنه نعت لمصدر محذوف مقدم للقصر أو لزمان كذلك محذوف وما مزيدة لتأكيد القلة أى تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تذكرون لا كثيرا حيث لاتتأثرون بذلك ولا تعملون بموجبه وتتركون دين الله تعالى وتتبعون غيره ويجوز أن يراد بالقلة العدم كما قيل فى قوله تعالى (فقليلا مايؤمنون) والجملة اعتراض تذييلى مسوق لتقبيح حال المخاطبين والالتفات على القراءة الأخيرة للإيذان باقتضاء سوء حالهم فى عدم الامتثال بالأمر والنهى صرف الخطاب عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم بطريق المباثه وإما نصب على أنه حال من فاعل لا تتبعوا وما مصدرية مرتفعة به أى لا تتبعوا من دونه أولياء قليلا تذكركم لكن لا على توجيه النهى إلى المقيد فقط كما فى قوله تعالى (لا تقربوا الصلوة وأنتم سكارى) بل إلى المقيد والقيد جميعا وتخصيصه بالذكر لمزيد تقبيح حالهم بجمعهم بين المنكرين .

إنذار الكافرين

﴿ وكم من قرية هلكناها ﴾ شروع فى إنذارهم بما جرى على الأمم الماضية بسبب إعراضهم عن اتباع دين الله تعالى وإصرارهم على اتباع دين أوليائهم وكم خبرية للتكثير فى موضع رفع على الابتداء كما فى قولك زيد ضربته والخبر

هو الجملة بعدها ومن قرية تمييز والضمير فى أهلكناها راجع إلى معنى كم أى كثير من القرى أهلكناها أو فى موضع نصب بأهلكناها كما فى قوله تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) والمراد بإهلاكها إرادة إهلاكها كما فى قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلوة) أى أردنا إهلاكها ﴿ فجاءها ﴾ أى فجاء أهلها ﴿ بأسنا ﴾ أى عذابنا ﴿ بياتا ﴾ مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال أى بائتين كقوم لوط ﴿ أو هم قائلون ﴾ عطف عليه أى وقائلين من القيلولة نصف النهار كقوم شعيب وإنما حذفت الواو من الحال المعطوفة على أختها استثقالا لاجتماع العاطفين فإن واو الحال حرف عطف قد استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير كما فى جاءنى زيد هو فارس فإنه غير فصيح وتخصيص الحالتين بالعذاب لما أن نزول المكروه عند الغفلة والدعة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة ووصف الكل بوصفى البيات والقيلولة مع أن بعض المهلكين بمعزل منهما لا سيما القيلولة للإيذان بكمال غفلتهم وأمنهم .

﴿ فما كان دعواهم ﴾ أى دعاؤهم واستغاثتهم ربهم أو ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم ﴿ إذ جاءهم بأسنا ﴾ عذابنا وعاينوا أمارته ﴿ إلا أن قالوا ﴾ جميعاً ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ أى إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتهم ببطلانه تحسرا عليه وندامة وطمعاً فى الخلاص وهيهات ولات حين نجاة ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ بيان لعذابهم الأخروى إثر بيان عذابهم الدنيوى خلا أنه قد تعرض لبيان مبادى أحوال المكلفين جميعا لكونه أدخل فى التهويل والفاء لترتيب الأحوال الأخروية على الدنيوية ذكرا حسب ترتبها عليها وجوداً أى لنسألن الأمم قاطبة قائلين ماذا أجبتم المرسلين ﴿ ولنسألن المرسلين ﴾ عما أجيبوا قال تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم والذى نفى بقوله تعالى (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) سؤال الاستعلام أو الأول فى موقف الحساب والثانى فى موقف العقاب ﴿ فلنقصن عليهم ﴾ أى على الرسل حين يقولون لا علم لنا إنك أنت علام

الغيوب أو عليهم وعلى المرسل إليهم جميعا ما كانوا عليه ﴿ بعلم ﴾ أى عالمين بظواهرهم وبواطنهم أو بمعلومنا منهم ﴿ وما كنا غائبين ﴾ عنهم فى حال من الأحوال فيخفى علينا شىء من أعمالهم وأحوالهم والجملة تذييل مقرر لما قبلها .

﴿ والوزن ﴾ أى وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها وجيدها ورديئها ورفعه على الابتداء وقوله تعالى ﴿ يومئذ ﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ الحق ﴾ صفته أى والوزن الحق ثابت يوم إذ يكون السؤال والقص وقيل خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل ما ذلك الوزن فقيل الحق أى العدل السوى وقرىء القسط واختلف فى كيفية الوزن والجمهور على أن صحائف الأعمال هى التى توزن بميزان له لسان وكفتان ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة وقطعا للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم ويشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد وكما يثبت فى صحائفهم فيقرءونها فى موقف الحساب ويؤيده ماروى أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فينشر له تسعة وتسعون سجلا مدى البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فتطيش السجلات وتثقل البطاقة وقيل يوزن الأشخاص لماروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه ليأتى العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقيل الوزن عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك واختاره كثير من المتأخرين بناء على أن استعمال لفظ الوزن فى هذا المعنى شائع فى اللغة والعرف بطريق الكناية قالوا إن الميزان إنما يراد به التوصل إلى معرفة مقادير الشىء ومقادير أعمال العباد لا يمكن إظهارها بذلك لأنها أعراض قد فنيت وعلى تقدير بقائها لا تقبل الوزن وقيل إن الأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح حتى أن الذنوب والمعاصى تتجسم هناك وتتصور بصورة النار وعلى ذلك حمل قوله تعالى (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وقوله تعالى (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا) وكذا قوله عليه الصلاة والسلام فى حق من

يشرب من إناء الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم، ولا بعد فى ذلك ألا يرى أن العلم يظهر فى عالم المثال على صورة اللبن كما لا يخفى على من له خبرة بأحوال الحضرات الخمس وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة وبالأعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع فى الميزان إن قيل إن المكلف يوم القيامة إما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزه عن الجور فكيفية حكمه تعالى بكيفيات الأعمال وكمياتها ظاهرة وإما منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الأعمال على بعض لخصوصيات راجعة إلى ذوات تلك الأعمال بل يسنده إلى إظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه فما الفائدة فى الوزن أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ وتظهر جميع الأشياء بحقائقها على ما هى عليه وبأوصافها وأحوالها فى أنفسها من الحسن والقبح وغير ذلك وتنخلع عن الصور المستعارة التى بها ظهرت فى الدنيا فلا يبقى لأحد ممن يشاهدها شبهة فى أنها هى التى كانت فى الدنيا بعينها وأن كل واحد منها قد ظهر فى هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ولا يخطر بباله خلاف ذلك والله تعالى أعلم .

﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ تفصيل للأحكام المترتبة على الوزن والموازين إما جمع ميزان أو جمع موزون على أن المراد به ماله وزن وقدر وهو الحسنات فإن رجحان أحدهما مستلزم لرجحان الآخر أى فمن رجحت موازينه التى توزن بها حسناته أو أعماله التى لها قدر وزنة وعن الحسن البصرى وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بثقل الميزان والجمعية باعتبار معناه كما أن جمع الموازين لذلك وأما ضمير موازينه فراجع إليه باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والشرف ﴿ هم المفلحون ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب وهم إما ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لأولئك وتعريف المفلحون للدلالة على أنهم الناس الذين بلغك أنهم مفلحون فى الآخرة أو إشارة إلى ما يعرفه

كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ أى موازين أعماله أو أعماله التى لا وزن لها ولا اعتداد بها وهى أعماله السيئة ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بتلك الصفة القبيحة والجمعية ومعنى البعد لما مر آنفا فى نظيره وهو مبتدأ خبره ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أى ضيعوا الفطرة السليمة التى فطروا عليها وقد أيدت بالآيات البينة وقوله تعالى ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ متعلق بخسروا وما مصدرية وبآياتنا متعلق بيظلمون على تضمين معنى التكذيب قدم عليه لمراعاة الفواصل والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم فى الدنيا أى وأولئك الموصوفون بخفة الموازين الذين خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم المستمر بآياتنا ظالمون .

﴿ ولقد مكناكم فى الأرض ﴾ لما أمر الله سبحانه أهل مكة باتباع ما أنزل إليهم ونهاهم عن اتباع غيره وبين لهم وخامة عاقبته بالإهلاك فى الدنيا والعذاب المخلد فى الآخرة ذكرهم ما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيباً فى الامتثال بالأمر والنهى إثر ترهيب أى جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ المعايش جمع معيشة وهى ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها أو ما يتوصل به إلى ذلك والوجه فى قراءته إخلاص الياء وعن ابن عامر أنه همزة تشبيها له بصحائف ومدائن والجعل بمعنى الإنشاء والإبداع أى أنشأنا وأبدعنا لمصالحكم ومنافعكم فيها أسبابا تعيشون بها وكل واحد من الظرفين متعلق به أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله المنكر إذ لو تأخر لكان صفة له وتقديمهما على المفعول من أن حقهما التأخير عنه لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لا سيما عند كون المقدم منبئا عن منفعة للسامع تبقى مترقبة لورود المؤخر فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن وأما تقديم اللام على فى فلما أنه المنبىء عما ذكر من المنفعة فالاعتناء بشأنه أتم والمسارعة إلى ذكره أهم هذا وقيل إن الجعل متعد إلى مفعولين ثانيهما أحد الظرفين على

أنه مستقر قدم على الأول والظرف الآخر إما لغو متعلق بالجعل أو بالمحذوف الواقع حالا من المفعول الأول كما مر وأنت خبير بأنه لا فائدة معتد بها فى الإخبار بجعل المعايش حاصلة لهم أو حاصلة فى الأرض وقوله تعالى ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ أى تلك النعمة تذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم وبقية الكلام فيه عين ما مر فى تفسير قوله تعالى (ما تذكرون) .

العبرة فى قصة آدم

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ تذكير لنعمة عظيمة فائضة على آدم عليه السلام سارية إلى ذريته موجبة لشكرهم كافة وتأخيره عن تذكير ما وقع قبله من نعمة التمكين إما لأنها فائضة على المخاطبين بالذات وهذه بالواسطة وإما للإيذان بأن كلا منهما نعمة مستقلة مستوجبة للشكر على حيالها فإن رعاية الترتيب الوقوعى ربما تؤدى إلى توهم عد الكل نعمة واحدة كما ذكر فى قصة آدم وتصدير الجملتين بالقسم وحرف التحقيق لإظهار كمال العناية بمضمونها وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حتما توفية لمقام الامتنان حقه وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أن لهم حظا من خلقه عليه السلام وتصويره لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه عليه السلام كسجود الملائكة له عليه السلام بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعا إذ الكل مخلوق فى ضمن خلقه على نمطه ومصنوع على شاكلته فكأنهم الذى تعلق به خلقه وتصويره أى خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم سار إليكم جميعا ﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ صريح فى أنه ورد بعد خلقه عليه الصلاة والسلام وتسويته ونفخ الروح فيه أمر منجز غير الأمر المعلق الوارد قبل ذلك بقوله تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وهو المراد بما حكى بقوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) الآية فى سورة البقرة وسورة بنى إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من غير تعرض لوقته وكلمة ثم ههنا تقتضى تراخيه عن التصوير من غير تعرض

لبيان ما جرى بينهما من الأمور وقد بينا فى سورة البقرة أن ذلك ظهور فضل آدم عليه السلام بعد المحاورة المسبوقة بالإخبار باستخلافه عليه السلام حسبما نطق به عز وجل (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) إلى قوله (وما كنتم تكتمون) فإن ذلك أيضاً من جملة ما نيط به الأمر المعلق من التسوية ونفخ الروح وعدم ذكره عند الحكاية لا يقتضى عدم ذكره عند وقوع المحكى كما أن عدم ذكر الأمر المنجز لا يستلزم عدم مسبوقيته به فإن حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة يقتضيها المقام ليست بعزيزة فى الكلام العزيز فلعله قد ألقى إلى الملائكة عليهم السلام أولا جميع ما يتوقف عليه الأمر المنجز إجمالا بأن قيل مثلا إنى خالق بشرا من طين وجاعل إياه خليفة فى الأرض فإذا سويته ونفخت فيه من روحى وتبين لكم فضله فقعوا له ساجدين فخلقه فسواه فنفخ فيه من روحه فقالوا عند ذلك ما قالوا أو ألقى إليهم خبر الخلافة بعد تحقق الشرائط المذكورة بأن قيل إثر نفخ الروح إنى جاعل هذا خليفة فى الأرض فهنالك ذكروا فى حقه عليه السلام ما ذكروا فأيده الله تعالى بتعليم الأسماء فشاهدوا منه عليه السلام ما شاهدوا فعند ذلك ورد الأمر المنجز اعتناء بشأن المأمور به وإيذانا بوقته وقد حكى بعض الأمور المذكورة فى بعض المواطن وبعضها فى بعضها اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى موطن آخر والذى يرفع غشاوة الاشتباه عن البصائر السليمة أن ما فى سورة (ص) من قوله تعالى (إذ قال ربك للملائكة) الآيات بدل من قوله (إذ يختصمون) فيما قبله من قوله (ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون) أى بكلامهم عند اختصامهم ولا ريب فى أن المراد بالملأ الأعلى الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس حسبما أطبق عليه جمهور المفسرين وباختصامهم ما جرى بينهم فى شأن الخلافه من التقاول الذى جملته ما صدر عنه عليه السلام من الإنباء بالأسماء ومن قضيه البدليه وقوع الاختصام المذكور فى تضاعيف ما شرح فيه مفصلا من الأمر المعلق وما علق به من الخلق والتسويه ونفخ الروح فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكة وعناد إبليس ولعنه وإخراجه من بين الملائكة وما جرى بعده من

الأفعال والأقوال وإذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة وعناد إبليس ومكابرة إبليس وطرده من البين لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة فإذن هو بعد نفخ الروح وقبل السجود بأحد الطريقين المذكورين والله تعالى أعلم .

﴿ فسجدوا ﴾ أى الملائكة عليهم السلام بعد الأمر من غير تلعثم ﴿ إلا إبليس ﴾ استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه فى فسجدوا ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنسا يتوالدون يقال لهم الجن كما مر فى سورة البقرة فقوله تعالى ﴿ لم يكن من الساجدين ﴾ أى ممن سجد لآدم كلام مستأنف مبين لكيفية عدم السجود[1] المفهوم من الاستثناء فإن عدم السجود قد يكون للتأمل ثم يقع السجود وبه علم أنه لم يقع قط وقيل منقطع فحينئذ يكون متصلا بما بعده أى لكن إبليس لم يكن من الساجدين ﴿ قال ﴾ استئناف مسوق للجواب عن سؤال نشأ من حكاية عدم سجوده كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذ وبه يظهر وجه الالتفات إلى الغيبة إذ لا وجه لتقدير السؤال على وجه المخاطبة وفيه فائدة أخرى هى الإشعار بعدم تعلق المحكى بالمخاطبين كما فى حكاية الخلق والتصوير ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ أى أن تسجد كما وقع فى سورة ص ولا مزيدة مؤكدة لمعنى الفعل الذى دخلت عليه كما فى قوله تعالى (لئلا يعلم أهل الكتاب) منبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود وقيل الممنوع عن الشيء مصروف إلى خلافه فالمعنى ما صرفك إلى أن تسجد ﴿ إذ أمرتك ﴾ قيل فيه دلالة على أن مطلق الأمر للوجوب والفور وفى سورة الحجر (يا إبليس ما لك أن لا تكون مع الساجدين) وفى سورة ص (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) واختلاف العبارات عند الحكاية يدل على أن اللعين قد أدمج فى معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الأمر ومفارقة الجماعة والإباء عن الانتظام فى سلك أولئك المقربين

---

(١) فى ١٠ : عدم سجوده .

والاستكبار مع تحقير آدم عليه السلام وقد وبخ حينئذ على كل واحدة منها لكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر فى موطن آخر وإشعاراً بأن كل واحدة منها كافية فى التوبيخ وإظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا فى سورة البقرة وسورة بنى اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه .

﴿ قال ﴾ استئناف كما سبق مبنى على سؤال نشأ من حكاية التوبيخ كأنه قيل فماذا قال اللعين عند ذلك فقيل قال ﴿ أنا خير منه ﴾ متجانفا عن تطبيق جوابه على السؤال بأن يقول منعنى كذا مدعيا لنفسه بطريق الاستئناف شيئاً بين الاستلزام لمنعه من السجود على زعمه ومشعرا بأن من شأنه هذا لا يحسن أن يسجد لمن دونه فكيف يحسن أن يؤمر به كما ينبىء عنه ما فى سوره الحجر من قوله (لم أكن لأسجد لبشر خلقتهمن صلصال من حمأ مسنون) فهو أول من أسس بنيان التكبر واخترع القول بالحسن والقبح العقليين وقوله تعالى ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ تعليل لما ادعاه من فضله ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أى بغير واسطة على وجه الاعتناء به وما من جهة الصورة كما نبه عليه بقوله تعالى (ونفخت فيه من روحى) وما من جهة الغاية وهو ملاك الامر ولذلك أمر الملائكة بسجوده عليه السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة فى الأرض وأن له خواص ليست لغيره وفى الآية دليل على الكون والفساد وأن الشياطين أجسام كائنة ولعل إضافة خلق البشر إلى الطين والشياطين إلى النار باعتبار الجزء الغالب .

﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاهبط منها ﴾ لترتيب الأمر على ما ظهر من اللعين من مخالفة الأمر وتعليله بالأباطيل وإصراره على ذلك أى فاهبط من الجنة والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى عدن لا فى جنة الخلد وقيل من زمرة

الملائكة المعززين فإن الخروج من زمرتهم هبوط وأى هبوط. وفى سورة الحجر (فاخرج منها) وأما ما قيل من أن المراد الهبوط من السماء فيرده أن وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد فلابد أن يحمل على أحد الوجهين قطعا وتكون وسوسته على الوجه الأول بطريق النداء من باب الجنة كما روى عن الحسن البصرى وقوله تعالى ﴿ فما يكون لك ﴾ أى فما يصح ولا يستقيم لك ولا يليق بشأنك ﴿ أن تتكبر فيها ﴾ أى فى الجنة أو فى زمرة الملائكة تعليل للأمر بالهبوط. فإن عدم صحة أن يتكبر فيها علة للأمر المذكور فإنها مكان المطيعين الخاشعين ولا دلالة فيه على جواز التكبر فى غيرها وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأنه تعالى إنما طرده لتكبره لا لمجرد عصيانه وقوله تعالى ﴿ فاخرج ﴾ تأكيد للأمر بالهبوط. متفرع على علته وقوله تعالى ﴿ إنك من الصاغرين ﴾ تعليل للأمر بالخروج مشعر بأنه لتكبره أى من الأذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه لتكبرك وعن عمر رضى الله عنه من تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش أنعشك الله ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله إلى الارض .

﴿ قال ﴾ استئناف كما مر مبنى على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فماذا قال اللعين بعد ما سمع هذا الطرد المؤكد فقيل قال ﴿ أنظرنى ﴾ أى أمهلنى ولا تمتنى ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وهو وقت النفخة الثانية وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم[1] ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته بعد البعث ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف ﴿ إنك من المنظرين ﴾ ورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يشعر بأن السائل تبع لهم فى ذلك صريح فى أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلا لا إنشاء لإنظار خاص به إجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل أى إنك من جملة الذين

---

(١) فى ط : من إغرائهم .

أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية إلى وقت فناء غير ما استثناه الله تعالى من الخلائق وهو النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذى هو المسئول وقد ترك التوقيت للإيجاز ثقة بما وقع فى سورة الحجر وسورة ص كما ترك ذكر النداء والفاء فى الاستنظار والإنظار تعويلا على ماذكر فيهما بقوله عز وجل (رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) وفى إنظاره ابتلاء للعباد وتعريض للثواب إن قلت لا ريب فى أن الكلام المحكى له عند صدوره عن المتكلم حالة مخصوصة تقتضى وروده على وجه خاص من وجوه النظم بحيث لو أخل بشىء من ذلك سقط الكلام عن رتبة البلاغة البتة فالكلام الواحد المحكى على وجوه شتى إن اقتضى الحال وروده على وجه معين من تلك الوجوه الواردة عند الحكاية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ إلى رتبة البلاغة دون ما عداه من الوجوه إذا تمهد هذا فنقول لا يخفى أن استنظار اللعين إنما صدر عنه مرة واحدة لا غير فمقامه إن اقتضى إظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على ما حاق به من اللعن والطرد على نهج استدعاء الجبر فى مقابلة الكسر كما هو المتبادر من قوله رب فأنظرنى حسبما حكى عنه فى السورتين .

فما حكى ههنا يكون بمعزل من المطابقة لمقتضى الحال فضلا عن العروج إلى معارج الإعجاز قلنا مقام استنظاره مقتض لما ذكر من إظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على الحرمان المدلول عليه بالطرد والرجم وكذا مقام الإنظار مقتض لترتيب الإخبار بالإنظار على الاستنظار وقد طبق الكلام عليه فى تينك السورتين ووفى كل واحد من مقامى الحكاية والمحكى جميعا حظه وأما ههنا فحيث اقتضى مقام الحكاية مجرد الإخبار بالاستنظار والإنظار سيقت الحكاية على نهج الإيجاز والاختصار من غير تعرض لبيان كيفية كل واحد منهما عند المخاطبة والحوار إن قلت فإذن لا يكون ذلك نقلا للكلام على ماهو عليه ولا مطابقا لمقتضى المقام قلنا الذى يجب اعتباره فى نقل الكلام إنما هو أصل معناه ونفس مدلوله الذى يفيده وأما كيفية إفادته له فليس مما يجب مراعاته

عند النقل البتة بل قد تراعى وقد لا تراعى حسب اقتضاء المقام ولا يقدح فى أصل الكلام تجريده عنها بل قد يراعى عند نقله كيفيات وخصوصيات لم يراعها المتكلم أصلا ولا يخل ذلك بكون المنقول أصل المعنى ألا يرى أن جميع المقالات المنقولة فى القرآن الكريم إنما تحكى بكيفيات واعتبارات لا يكاد يقدر على مراعاتها من تكلم بها حتما وإلا لأمكن صدور الكلام المعجز عن البشر فيما إذا كان المحكى كلاما وأما عدم مطابقته لمقتضى الحال فمنشؤه الغفلة عما يجب توفير مقتضاه من الأحوال فإن ملاك الأمر هو مقام الحكاية وأما مقام وقوع المحكى فإن كان مقتضاه موافقا لمقتضى مقام الحكاية يوفى كل واحد من المقامين حقه كما فى سورة الحجر وسورة ص فإن مقام الحكاية فيهما لما كان مقتضيا لبسط الكلام وتفصيله على الكيفيات التى وقع عليها روعى حق المقامين معا وأما فى هذه السورة الكريمة فحيث اقتضى مقام الحكاية الإيجاز روعى جانبه ألا يرى أن المخاطب المنكر إذا كان ممن لا يفهم إلا أصل المعنى[1] وجب على المتكلم أن يجرد كلامه عن التأكيد وسائر الخواص والمزايا التى يقتضيها المقام ويخاطبه بما يناسبه من الوجوه لكنه مع ذلك يجب أن يقصد معنى زائدا يفهمه سامع آخر بليغ هو تجريده عن الخواص رعاية لمقتضى حال المخاطب فى الفهم وبذلك يرتقى كلامه عن رتبة أصوات الحيوانات كما حقق فى مقامه فإذا وجب مراعاة مقام الحكاية مع إفضائها إلى تجريد الكلام عن الخواص والمزايا بالمرة فما ظنك بوجوب مراعاته مع تحلية الكلام بمزايا أخر يرتقى بها إلى رتبة الإعجاز لا سيما إذا وفى حق مقام وقوع المحكى فى السورتين الكريمتين وكان هذا الإيجاز مبنيا عليه وثقة به .

﴿ قال ﴾ استئناف كأمثاله ﴿ فبما أغويتنى ﴾ الباء للقسم كما فى قوله تعالى (فبعزتك لأغوينهم) فإن إغواءه تعالى إياه أثر من آثار قدرته عز وجل وحكم من أحكام سلطانه تعالى فمآل الإقسام بهما واحد فلعل اللعين أقسم بهما جميعا

(١) فى ٣٤٠ : المعنى الأصلى .

فكى تارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر والفاء لترتيب مضمون الجملة على الإنظار وما مصدرية أى فأقسم بإغوائك إياى ﴿ لأقعدن لهم ﴾ أو للسببية على أن الباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لا بقوله لأقعدن لهم كما فى الوجه الأول فإن اللام تصد عن ذلك أى فبسبب إغوائك إياى لأجلهم أقسم بعزتك لأقعدن لآدم وذريته ترصدا بهم كما يقعد القطاع للقطع على السابلة ﴿ صراطك المستقيم ﴾ الموصل إلى الجنة وهو دين الإسلام فالقعود مجاز متفرع على الكناية وانتصابه على الظرفية كما فى قوله :

* كما عسل الطريق الثعلب *

وقيل على نزع الجار تقديره على صراطك كقولك ضرب زيد الظهر والبطن.

﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ أى من الجهات الأربع التى يعتاد هجوم العدو منها مثل قصده إياهم للتسويل والإضلال من أى وجه يتيسر بإتيان العدو من الجهات الأربع ولذلك لم يذكر الفوق والتحت وعن ابن عباس رضى الله عنهما من بين أيديهم من قبل الآخرة ومن خلفهم من جهة الدنيا وعن أيمانهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم وقيل من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز منه ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم ومن حيث لا يتيسر لهم ذلك وإنما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما متوجه إليهم وإلى الآخرين بحرف المجاوزة فإن الآتى منهما كالمنحرف المتجافى عنهم المار على عرضهم ونظيره جلست عن يمينه ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ أى مطيعين وإنما قاله ظنا لقوله تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه) لما رأى منهم مبدأ الشر متعددا ومبدأ الخير واحدا وقيل سمعه من الملائكة عليهم السلام .

﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف مرارا ﴿ أخرج منها ﴾ أى من الجنة أو من السماء أو من بين الملائكة ﴿ مذءوما ﴾ أى مذموما من ذأمه إذا ذمه وقرىء

مذوما كسول فى مسئول ، أو كمكول فى مكيل من ذامه يذيمه ذيما ﴿مدحورا﴾ مطرودا ﴿لمن تبعك منهم﴾ اللام موطئة للقسم وجوابه ﴿لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط وقرىء لمن تبعك بكسر اللام على أنه خبر لأملأن على معنى لمن تبعك هذا الوعيد أو علة لاخرج ولأملأن جواب محذوف ومعنى منكم منك ومنهم على تغليب المخاطب ﴿ويا آدم﴾ أى وقلنا كما وقع فى سورة البقرة وتصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلقى المأمور به وتخصيص الخطاب به عليه السلام للإيذان بأصالته فى تلقى الوحى وتعاطى المأمور به ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ هو من السكن الذى هو عبارة عن اللبث والاستقرار والإقامة لا من السكون الذى هو ضد الحركة وأنت ضمير أكد به المستكن ليصح العطف عليه والفاء فى قوله تعالى ﴿فكلا من حيث شئتما﴾ لبيان المراد بما فى سورة البقرة من قوله تعالى (وكلا منها رغدا حيث شئتما) من أن ذلك كان جمعا مع الترتيب وقوله تعالى (من حيث شئتما) فى معنى منها حيث شئتما ولم يذكر ههنا رغدا ثقة بما ذكر هناك وتوجيه الخطاب إليهما لتعميم التشريف والإيذان بتساويهما فى مباشرة المأمور به فإن حواء أسوة له عليه السلام فى حق الأكل بخلاف السكن فإنها تابعة له فيه ولتعليق النهى بها صريحا فى قوله تعالى ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ وقرىء هذى وهو الأصل لتصغيره على ذيا والهاء بدل من الياء ﴿فتكونا من الظالمين﴾ إما جزم على العطف أو نصب على الجواب .

﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ أى فعل الوسوسة لأجلهما أو تكلم لهما كلاما خفيا متداركا متكررا وهى فى الأصل الصوت الخفى كالهيمنة والخشخشة ومنه وسوس الحلى[1] وقد سبق بيان كيفية وسوسته فى سورة البقرة ﴿ليبدى لهما﴾ أى ليظهر لهما واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما ولذلك عبر عنهما بالسوأة وفيه دليل على أن كشف العورة

(١) فى ١١ : وسوست الحلى .

فى الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن فى الطباع ﴿ما ووري عنهما من سوآتهما﴾ ما غطي وستر عنهما من عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر وإنما لم تقلب الواو المضمومة همزة فى المشهورة كما قلبت فى أويصل تصغير واصل لأن الثانية مدة وقرىء سواتهما بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الواو وبقلبها واوا وإدغام الواو الساكنة فيها ﴿وقال﴾ عطف على وسوس بطريق البيان ﴿مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة﴾ أى عن أكلها ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ أى إلا كراهة أن تكونا ملكين ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ الذين لا يموتون أو يخلدون فى الجنة وليس فيه دلالة على أفضلية الملائكة عليهم السلام لما أن من المعلوم أن الحقائق لاتنقلب وإنما كانت رغبتهما فى أن يحصل لهما أوصاف الملائكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن الأطعمة والأشربه وذلك بمعزل من الدلاله على الأفضلية بالمعنى المتنازع فيه .

﴿وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾ أى أقسم لهما وصيغة المغالبة للمبالغة وقيل أقسما له بالقبول وقيل قالا له أتقسم بالله أنك لمن الناصحين وأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة ﴿فدلاهما﴾ فنزلهما على الأكل من الشجرة وفيه تنبيه على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل ﴿بغرور﴾ بما غرهما به من القسم فإنهما ظنا أن أحدا لا يقسم بالله كاذبا أو ملتبسين بغرور ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما﴾ أى فلما وجدا طعمها آخذين فى الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما واختلف فى أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما وأن اللباس كان نورا أو ظفرا ﴿وطفقا يخصفان﴾ طفق من أفعال الشروع والتلبس كأخذ وجعل وأنشأ وعلق وهب وانبرى أى أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ﴿عليهما من ورق الجنة﴾ قيل كان ذلك ورق التين وقرىء يخصفان من أخصف أى يخصفان أنفسهما ويخصفان من التخصيف ويخصفان أصله يختصفان .

﴿وناداهما ربهما﴾ مالك أمرهما بطريق العتاب والتوبيخ ﴿ألم أنهكما﴾ وهو

تفسير للنداء فلا محل له من الإعراب أو معمول لقول محذوف أى وقال أو قائلا ألم أنهكما ﴿ عن تلكما الشجرة ﴾ ما فى اسم الإشارة من معنى البعد لما أنه إشارة إلى الشجرة التى نهى عن قربانها ﴿ وأقل لكما ﴾ عطف على أنهكما أى ألم أقل لكما ﴿ إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ وهذا عتاب وتوبيخ على الإغترار بقول العدو كما أن الأول عتاب على مخالفة النهى قيل فيه دليل على أن مطلق النهى للتحريم ولكما متعلق بعدو لما فيه من معنى الفعل أو بمحذوف هو حال من عدو ولم يحك هذا القول ههنا وقد حكى فى سورة طه بقوله تعالى (إن هذا عدو لك ولزوجك) الآية . روى أنه تعالى قال لآدم ألم يكن فيما منحك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة فقال بلى وعزتك ولكن ما ظننت أن أحدا من خلقك يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدا فأهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث[1] فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وعجن وخبز ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ أى ضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج من الجنة ﴿ وإن لم تغفر لنا ﴾ ذلك ﴿ وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ وهو دليل على أن الصغائر يعاقب عليها إن لم تغفر وقالت المعتزلة لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر ولذلك حملوا قولهما ذلك على عادات المقربين فى استعظام الصغير من السيئات واستصغار العظيم من الحسنات .

﴿ قال ﴾ استئناف كما مر مرارا ﴿ اهبطوا ﴾ خطاب لآدم وحواء وذريتهما أولهما ولإبليس كرر الأمر له تبعا لهما ليعلم أنهم قرناء أبدا أو أخبر عما قال لهم مفرقا كما فى قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) ولم يذكر ههنا قبول توبتهما ثقة بما ذكر فى سائر المواضع ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ جملة حالية من فاعل اهبطوا أى متعادين ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ﴾ أى استقرار أو موضع استقرار[2] ﴿ ومتاع ﴾ أى تمتع وانتفاع ﴿ إلى حين ﴾ هو حين

---

(١) فى ١١ : بالزرع .

(٢) فى ١١ : موضع قرار .

انقضاء آجالكم ﴿ قال ﴾ أعيد الاستئناف إما للإيذان بعدم اتصال ما بعده بما قبله كما فى قوله تعالى (قال فما خطبكم أيها المرسلون) إثر قوله تعالى (قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) وقوله تعالى (قال أرأيتك هذا الذى كرمت على) بعد قوله تعالى (قال أأسجد لمن خلقت طينا) وإما لإظهار الاعتناء بمضمون ما بعده من قوله تعالى ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ أى للجزاء كقوله تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) .

﴿ يا بنى آدم ﴾ خطاب للناس كافة وإيرادهم بهذا العنوان مما لا يخفى سره ﴿ قد أنزلنا عليكم لباسا ﴾ أى خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة منها ونظيره وأنزل لكم من الأنعام الخ وقوله تعالى (وأنزلنا الحديد) ﴿ يوارى سوآتكم ﴾ التى قصد إبليس إبداءها من أبويكم حتى اضطروا إلى خصف الأوراق وأنتم مستغنون عن ذلك وروى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عرايا ويقولون لا نطوف بثياب عصينا الله تعالى فيها فنزلت ولعل ذكر قصة آدم عليه السلام حينئذ للإيذان بأن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من قبل الشيطان وأنه أغواهم فى ذلك كما أغوى أبويهم ﴿ وريشا ﴾ ولباسا تتجملون به والريش الجمال وقيل مالا ومنه تريش الرجل أى تمول وقرىء رياشا وهو جمع ريش كشعب وشعاب ﴿ ولباس التقوى ﴾ أى خشية الله تعالى وقيل الإيمان وقيل السمت الحسن وقيل لباس الحرب ورفعه بالابتداء خبره جملة ﴿ ذلك خير ﴾ أو خبر وذلك صفته كأنه قيل ولباس التقوى المشار إليه خير وقرىء ولباس التقوى بالنصب عطفا على لباسا ﴿ ذلك ﴾ أى إنزال اللباس ﴿ من آيات الله ﴾ دالة على عظيم فضله وعميم رحمته ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ فيعرفون نعمته أو يتعظون فيتورعون عن القبائح .

﴿ يا بنى آدم ﴾ تكرير النداء للإيذان بكمال الاعتناء بمضمون ما صدر به وإيرادهم بهذا العنوان مما لا يخفى سببه ﴿ لا يفتننكم الشيطان ﴾ أى لا يوقعنكم فى الفتنة والمحنة بأن يمنعكم من دخول الجنة ﴿ كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ نعت لمصدر محذوف أى لا يفتننكم فتنة مثل إخراج أبويكم وقد جوز أن يكون

التقدير لا يخرجنكم بفتنته إخراجا مثل إخراجه لأبويكم والنهى وإن كان متوجها إلى الشيطان لكنه فى الحقيقة متوجه إلى المخاطبين كما فى قولك لا أرينك ههنا وقد مر تحقيقه مرارا ﴿ ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ﴾ حال من أبويكم أو من فاعل أخرج وإسناد النزع إليه للتسبيب وصيغة المضارع لاستحضار الصورة وقوله تعالى ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ أى جنوده وذريته استئناف لتعليل النهى وتأكيد التحذير لا منه ﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ من لابتداء غاية الرؤية وحيث ظرف لمكان انتفاء الرؤية ولا ترونهم فى محل الجر بإضافة الظرف إليه ورؤيتهم لنا من حيث لا نراهم لا تقتضى امتناع رؤيتنا لهم مطلقا واستحالة تمثلهم لنا .

﴿ إنا جعلنا الشياطين ﴾ جعل قبيله من جملته فجمع ﴿ أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ أى جعلناهم بما أوجدنا بينهم من المناسبة أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم من إغوائهم وحملهم على ما سولوا لهم أولياء أى قرناء مسلطين عليهم والجملة تعليل آخر للنهى وتأكيد للتحذير إثر تحذير ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ جملة مبتدأة لا محل لها من الإعراب وقد جوز عطفها على الصلة والفاحشة الفعلة المتناهية فى القبح والتاء لأنها مجراة على الموصوف المؤنث أو للنقل من الوصفية إلى الاسمية والمراد بها عبادة الأصنام وكشف العورة فى الطواف ونحوهما .

﴿ قالوا ﴾ جوابا للناهين عنها ﴿ وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ محتجين بأمرين تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه ولعل تقديم المقدم للإيذان منهم بأن آباءهم إنما كانوا يفعلونها بأمر الله تعالى بها على أن ضمير أمرنا لهم ولآبائهم فحينئذ يظهر وجه الإعراض عن الأول فى رد مقالتهم بقوله تعالى ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ فإن عادته تعالى جارية على الأمر بمحاسن الأعمال والحث على مراضى الخصال ولا دلالة فيه على أن قبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه عاجلا والعقاب آجلا عقلى فإن المراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم وقيل هما جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لما فعلوها

لم فعلتم فقالوا وجدنا عليها آباءنا فقيل لم فعلها آباؤكم فقالوا الله أمرنا بها وعلى الوجهين يمنع التقليد إذا قام الدليل بخلافه لا مطلقا ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ من تمام القول المأمور به والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وتوجيه الإنكار والتوبيخ إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون صدوره عنه تعالى مع أن بعضهم يعلمون عدم صدوره عنه تعالى مبالغة فى إنكار تلك الصورة فإن إسناد ما لم يعلم صدوره عنه تعالى إليه تعالى إذا كان منكرا فإسناد ما علم عدم صدوره عنه إليه عزوجل أشد قبحا وأحق بالإنكار ﴿ قل أمر ربى بالقسط ﴾ بيان للمأمور به إثر نفى ما أسند أمره إليه تعالى من الأمور المنهى عنها والقسط العدل وهو الوسط من كل شيء المتجافى عن طرفى الإفراط والتفريط .

إرشادات للمؤمنين

﴿ وأقيموا وجوهكم ﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها أو أقيموا وجوهكم نحو القبلة ﴿ عند كل مسجد ﴾ فى كل وقت سجود أو مكان سجود وهو الصلاة أو فى أى مسجد حضرتكم الصلاة وعنده ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم ﴿ وادعوه ﴾ واعبدوه ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أى الطاعة فإن مصيركم إليه بالآخرة ﴿ كما بدأكم ﴾ أى أنشأكم ابتداء ﴿ تعودون ﴾ إليه بإعادته فيجازيكم على أعمالكم وإنما شبه الإعادة بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرة عليها وقيل كما بدأكم من التراب تعودون إليه وقيل حفاة عراة غرلا تعودون إليه وقيل كما بدأكم مؤمنا وكافرا يعيدكم ﴿ فريقا هدى ﴾ بأن وفقهم للإيمان ﴿ وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾ بمقتضى القضاء السابق التابع للمشيئة المبنية على الحكم البالغة وانتصابه بفعل مضمر يفسره ما بعده أى وخذل فريقا ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﴾ تعليل لخذلانه أو تحقيق لضلالتهم ﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ فيه دلالة على أن الكافر المخطىء والمعاند سواء فى استحقاق الذم وللمارق أن يحمله على المقصر فى النظر ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم ﴾ أى ثيابكم لمواراة عورتكم ﴿ عند كل

مسجد ﴾ أى طواف أو صلاة ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته(١) للصلاة وفيه دليل على وجوب ستر العورة فى الصلاة ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ مما طاب لكم . روى أن بنى عامر كانوا فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فهم المسلمون بمثله فنزلت ﴿ ولا تسرفوا ﴾ بتحريم الحلال أو بالتعدى إلى الحرام أو بالإفراط فى الطعام والشره عليه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وقال على بن الحسين بن واقد جمع الله الطب فى نصف آية فقال كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ أى لا يرتضى فعلهم .

﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ من الثياب وما يتجمل به ﴿ التى أخرج لعباده ﴾ من النبات كالقطن والكتان والحيوان كالحرير والصوف والمعادن كالدروع ﴿ والطيبات من الرزق ﴾ أى المستلذات من المآكل والمشارب وفيه دليل على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات(٢) الإباحة لأن الاستفهام فى من إنكارى ﴿ قل هى للذين آمنوا فى الحيوة الدنيا ﴾ بالأصالة والكفرة وإن شاركوهم فيها فبالتبع ﴿ خالصة يوم القيامة ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم وانتصابه على الحالية وقرىء بالرفع على أنه خبر بعد خبر ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ أى مثل هذا التفصيل نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما فى تضاعيفها من المعانى الرائقة ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ﴾ أى تفاحش قبحه من الذنوب وقيل ما يتعلق منها بالفروج ﴿ ما ظهر منها وما بطن ﴾ بدل من الفواحش أى جهرها وسرها ﴿ والإثم ﴾ أى ما يوجب الإثم وهو تعميم بعد تخصيص وقيل هو شرب الخمر ﴿ والبغى ﴾ أى الظلم أو الكبر أفرد بالذكر للمبالغة فى الزجر عنه ﴿ بغير الحق ﴾ متعلق بالبغى مؤكد

---

(١) فى ١١ : أحسن زينة .

(٢) فى ١١ : التجميل .

له معنى ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ﴾ تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم اتباع ما لا يدل عليه برهان ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ بالإلحاد فى صفاته والإفتراء عليه كقولهم والله أمرنا بها وتوجيه التحريم إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون وقوعه لا ما يعلمون عدم وقوعه قد مر سره ﴿ ولكل أمة ﴾ من الأمم المهلكة ﴿ أجل ﴾ حد معين من الزمان مضروب لمهلكهم ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ إن جعل الضمير للأمم المدلول عليها بكل أمة فإظهار الأجل مضافا إليه لإفادة المعنى المقصود الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيئه إياها بواسطه اكتساب الأجل بالإضافة عموما يفيده معنى الجمعية كأنه قيل إذا جاءهم آجالهم بأن يجىء كل واحدة من تلك الأمم أجلها الخاص بها وإن جعل لكل أمة خاصة كما هو الظاهر فالإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير والإضافة إلى الضمير لإفادة أكمل التمييز أى إذا جاءها أجلها الخاص بها .

﴿ لا يستأخرون ﴾ عن ذلك الأجل ﴿ ساعة ﴾ أى شيئاً قليلا من الزمان فإنها مثل فى غاية القلة منه أى لا يتأخرون أصلا وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له ﴿ ولا يستقدمون ﴾ أى ولا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع إمكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا كما فى قوله سبحانه (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار) فإن من مات كافرا مع ظهور أن لا توبة له رأسا قد نظم فى عدم القبول فى سلك من سوفها إلى حضور الموت إيذانا بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة وقيل المراد بالمجىء الدنو بحيث يمكن التقدم فى الجملة كمجىء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة فيه وليس بذاك وتقديم بيان انتفاء الاستئخار لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب وأما ما فى قوله تعالى (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) من سبق السبق فى الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير إهلاكهم مع استحقاقهم

له حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) فالأهم هناك بيان انتفاء السبق .

إرشاد للناس عامة

﴿ يا بنى آدم ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافة الناس اهتماما بشأن ما فى حيزه ﴿ إما يأتينكم ﴾ هى إن الشرطية ضمت إليها ما لتأكيد معنى الشرط ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة وفيه تنبيه على أن إرسال الرسل أمر جائز لا واجب عقلا ﴿ رسل منكم ﴾ الجار متعلق بمحذوف هو صفة لرسل أى كائنون من جنسكم وقوله ﴿ يقصون عليكم آياتى ﴾ صفة أخرى لرسل أى يبينون لكم أحكامى وشرائعى وقوله تعالى ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ جملة شرطية وقعت جوابا للشرط أى فمن اتقى منكم التكذيب وأصلح عمله فلا خوف الخ وكذا قوله تعالى ﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أى والذين كذبوا منكم بآياتنا وإيراد الاتقاء فى الأول للإيذان بأن مدار الفلاح ليس مجرد عدم التكذيب بل هو الاتقاء والاجتناب عنه وإدخال الفاء فى الجزاء الأول دون الثانى للمبالغة فى الوعد والمسامحة فى الوعيد .

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ﴾ أى تقول عليه تعالى ما لم يقله أو كذب ما قاله أى هو أظلم من كل ظالم وقد مر تحقيقه مرارا ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول والجمع باعتبار معناه كما أن إفراد الفعلين باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للإيذان بتماديهم فى سوء الحال أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الافتراء والتكذيب ﴿ ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ أى مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار وقيل الكتاب اللوح أى ما أثبت لهم فيه وأيا ما كان فمن الابتدائية متعلقة بمحذوف وقع حالا[1] من نصيبهم أى ينالهم نصيبهم كائنا من الكتاب وقيل نصيبهم من العذاب وسواد الوجه وزرقة

(١) فى ١٠ : بمحذوف حال

العيون وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كتب لمن يفترى على الله سواد الوجه قال تعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) وقوله تعالى ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا ﴾ أى ملك الموت وأعوانه ﴿ يتوفونهم ﴾ أى حال كونهم متوفين لأرواحهم يؤيد الأول فإن حتى وإن كانت هى التى يبتدأ بها الكلام لكنها غاية لما قبلها فلابد أن يكون نصيبهم مما يتمتعون بها إلى حين وفاتهم أى ينالهم نصيبهم من الكتاب إلى أن يأتيهم ملائكة الموت فإذا جاءتهم ﴿ قالوا ﴾ لهم ﴿ أينما كنتم تدعون من دون الله ﴾ أى أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا وما وقعت موصولة بأين فى خط المصحف وحقها الفصل لأنها موصولة ﴿ قالوا ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية سؤال الرسل كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿ ضلوا عنا ﴾ أى غابوا عنا أى لا ندرى مكانهم ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ عطف على قالوا أى اعترفوا على أنفسهم ﴿ أنهم كانوا ﴾ أى فى الدنيا ﴿ كافرين ﴾ عابدين لما لا يستحق العبادة أصلا حيث شاهدوا حاله وضلاله ولعله أريد بوقت مجىء الرسل وحال التوفى الزمان الممتد من ابتداء المجىء والتوفى إلى انتهائه يوم الجزاء بناء على تحقق المجىء والتوفى فى كل ذلك الزمان بقاء وإن كان حدوثهما فى أوله فقط أو قصد بيان غاية سرعة وقوع البعث والجزاء كأنهما حاصلان عند ابتداء التوفى كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام « من مات فقد قامت قيامته » وإلا فهذا السؤال والجواب وما ترتب عليهما من الأمر بدخول النار وماجرى بين أهلها من التلاعن والتقاول إنما يكون بعد البعث لا محالة ﴿ قال ﴾ أى الله عز وجل يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك ﴿ ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم ﴾ أى كائنين من جملة أمم مصاحبين لهم ﴿ من الجن والإنس ﴾ يعنى كفار الأمم الماضية من النوعين ﴿ فى النار ﴾ متعلق بقوله ادخلوا ﴿ كلما دخلت أمة ﴾ من الأمم السابقة واللاحقة فيها ﴿ لعنت أختها ﴾ التى ضلت بالاقتداء بها ﴿ حتى إذا اداركوا فيها جميعا ﴾ أى تداركوا وتلاحقوا فى النار ﴿ قالت أخراهم ﴾ دخولا أو منزلة وهم الأتباع ﴿ لأولاهم ﴾ أى لأجلهم إذ الخطاب مع الله تعالى

لا معهم ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ سنوا لنا الضلال فاقتدينا بهم ﴿ فآتهم عذابا ضعفا ﴾ أى مضاعفا ﴿ من النار ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿ قال لكل ضعف ﴾ أما القادة فلما ذكر من الضلال والإضلال وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم ﴿ ولكن لا تعلمون ﴾ أى ما لكم وما لكل فريق من العذاب وقرىء بالياء ﴿ وقالت أولاهم ﴾ أى مخاطبين ﴿ لأخراهم ﴾ حين سمعوا جواب الله تعالى لهم ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾ أى فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وإنا وإياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ أى العذاب المعهود المضاعف ﴿ بما كنتم تكسبون ﴾ من قول القادة .

﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا ﴾ مع وضوحها ﴿ واستكبروا عنها ﴾ أى عن الإيمان بها والعمل بمقتضاها ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ أى لا تقبل أدعيتهم ولا أعمالهم أو لا تعرج إليها أرواحهم كما هو شأن أدعية المؤمنين وأعمالهم وأرواحهم والتاء فى تفتح لتأنيث الأبواب على أن الفعل للآيات وبالياء على أنه لله تعالى ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ﴾ أى حتى يدخل ما هو مثله[1] فى عظم الجرم فيما هو علم فى ضيق المسلك وهو ثقبة الإبرة وفى كون الجمل مما ليس من شأنه الولوج فى سم الإبرة مبالغة فى الاستبعاد وقرىء الجمل كالقمل والجمل كالنغر والجمل كالقفل والجمل كالنصب والجمل كالحبل وهى الحبل الغليظ من القنب وقيل حبل السفينة وسم بالضم والكسر وقرىء فى سم المخيط وهو الخياط أى ما يخاط به كالحزام والمحزم ﴿ وكذلك ﴾ أى ومثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نجزى المجرمين ﴾ أى جنس المجرمين وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ أى فراش من تحتهم والتنوين للتفخيم ومن تجريدية ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ أى أغطية والتنوين للبدل عن الإعلال عند سيبويه وللصرف عند غيره وقرىء غواش على إلغاء المحذوف كما فى قوله تعالى (وله الجوار المنشآت) ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الجزاء الشديد ﴿ نجزى الظالمين ﴾

---

(١) فى ط : ماهو مثل .

عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بكل واحد من ذينك الوصفين القبيحين وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة والظلم مع التعذيب بالنار للتنبيه على أنه أعظم الجرائم والجرائر ﴿ والذين آمنوا ﴾ أى بآياتنا أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيدخل فيه الآيات دخولا أوليا وقوله تعالى ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أى الأعمال الصالحة التى شرعت بالآيات وهذا بمقابلة الاستكبار عنها ﴿ لا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾ اعتراض وسط بين المبتدأ الذى هو الموصول والخبر الذى هو جملة ﴿ أولئك أصحاب الجنة ﴾ للترغيب فى اكتساب مايؤدى إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله وتيسر تحصيله وقرىء لا تكلف نفس واسم الإشارة مبتدأ وأصحاب الجنة خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول أو اسم الإشارة بدل من المبتدأ الأول الذى هو الموصول والخبر أصحاب الجنة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف ﴿ هم فيها خالدون ﴾ حال من أصحاب الجنة وقد جوز كونه حالا من الجنة لاشتماله على ضميرها والعامل معنى الإضافة أو اللام المقدرة أو خبر ثان لأولئك على رأى من جوزه وفيها متعلق بخالدون ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ أى نخرج من قلوبهم أسباب الغل أو نطهرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التواد وصيغة الماضى للإيذان بتحققه وتقرره وعن على رضى الله عنه إنى لأرجوا أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ﴿ تجرى من تحتهم الأنهار ﴾ زيادة فى لذتهم وسرورهم والجملة حال من الضمير فى صدورهم والعامل إما معنى الإضافة وإما العامل فى المضاف أو حال من فاعل نزعنا والعامل نزعنا وقيل هى مستأنفة للإخبار عن صفة أحوالهم ﴿ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ﴾ أى لما جزاؤه هذا ﴿ وما كنا لنهتدى ﴾ أى لهذا المطلب الأعلى أو لمطلب من المطالب التى هذا من جملتها ﴿ لولا أن هدانا الله ﴾ ووفقنا له واللام لتأكيد النفى وجواب لولا محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه ومفعول نهتدى وهدانا الثانى محذوف لظهور المراد أو لإرادة التعميم كما أشير إليه والجملة مستأنفة أو حالية وقرىء ماكنا لنهتدى الخ بغير واو على أنها مبينة ومفسرة للأولى .

﴿ لقد جاءت رسل ربنا ﴾ جواب قسم مقدر قالوه تبجحا واغتباطا بما نالوه وابتهاجا بإيمانهم بما جاءتهم الرسل عليهم السلام والباء فى قوله تعالى ﴿ بالحق ﴾ إما للتعدية فهى متعلقة بجاءت أو للملابسة فهى متعلقة بمقدر وقع حالا من الرسل أى والله لقد جاؤا بالحق أو لقد جاؤا ملتبسين بالحق ﴿ ونودوا ﴾ أى نادتهم الملائكة عليهم السلام ﴿ أن تلكم الجنة ﴾ أن مفسرة لما فى النداء من معنى القول أو مخففة من أن وضمير الشأن محذوف ومعنى البعد فى اسم الإشارة إما لأنهم نودوا عند رؤيتهم إياها من مكان بعيد وإما لرفع منزلتها وبعد رتبتها وإما للإشعار بأنها تلك الجنة التى وعدوها فى الدنيا ﴿ أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا من الأعمال الصالحة أى أعطيتموها بسبب أعمالكم أو بمقابلة أعمالكم والجملة حال من الجنة والعامل معنى الإشارة على أن تلكم الجنة مبتدأ وخبر أو الجنة صفة والخبر أورثتموها .

محاورة بين أهل الجنة وأهل النار

﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ تبجحا بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيرا لهم لا لمجرد الإخبار بحالهم والاستخبار عن حال مخاطبيهم ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ﴾ حيث نلنا هذا المنال الجليل ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ﴾ حذف المفعول من الفعل الثانى اسقاطا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد وقيل لأن ماساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصا بهم وعدا كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة فإنهم قد وجدوا جميع ذلك حقا وإن لم يكن وعده مخصوصا بهم ﴿ قالوا نعم ﴾ أى وجدناه حقا وقرىء بكسر العين وهى لغة فيه ﴿ فأذن مؤذن ﴾ قيل هو صاحب الصور ﴿ بينهم ﴾ أى بين الفريقين ﴿ أن لعنة الله على الظالمين ﴾ بأن المخففة أو المفسرة وقرىء بأن المشددة ونصب لعنة وقرىء إن بكسر الهمزة على إرادة القول أو إجراء أذن مجرى قال ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ صفه مقررة للظالمين أو رفع على الذم أو نصب عليه ﴿ ويبغونها عوجا ﴾ أى يبغون لها عوجا بأن يصفوها بالزيغ

والميل عن الحق وهو أبعد شيء منهما والعوج بالكسر فى المعانى والأعيان مالم يكن منتصبا وبالفتح ما كان فى المنتصب كالرمح والحائط ﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ غير معترفين ﴿ وبينهما حجاب ﴾ أى بين الفريقين كقوله تعالى (فضرب بينهم بسور) أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى ﴿ وعلى الأعراف ﴾ أى على أعراف الحجاب وأعاليه وهو السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الفرس وقيل العرف ما ارتفع من الشيء فإنه بظهوره أعرف من غيره ﴿ رجال ﴾ طائفة من الموحدين قصروا فى العمل فيجلسون بين الجنة والنار حتى يقضى الله تعالى فيهم ما يشاء وقيل قوم علت درجاتهم كالأنبياء والشهداء والأخيار والعلماء من المؤمنين أو ملائكة يرون فى صور الرجال ﴿ يعرفون كلا ﴾ من أهل الجنة والنار ﴿ بسيماهم ﴾ بعلامتهم التى أعلمهم الله تعالى بها كبياض الوجه وسواده فعلى من سام إبله إذا أرسلها فى المرعى معلمة أو من وسم بالقلب كالجاه من الوجه وإنما يعرفون ذلك بالإلهام أو بتعليم الملائكة ﴿ ونادوا ﴾ أى رجال الأعراف ﴿ أصحاب الجنة ﴾ حين رأوهم ﴿ أن سلام عليكم ﴾ بطريق الدعاء والتحية أو بطريق الإخبار بنجاتهم من المكاره ﴿ لم يدخلوها ﴾ حال من فاعل نادوا أو من مفعوله وقوله تعالى ﴿ وهم يطمعون ﴾ حال من فاعل يدخلوها أى نادوهم وهم لم يدخلوها حال كونهم طامعين فى دخولها مترقبين له أى لم يدخلوها وهم فى وقت عدم الدخول طامعون.

﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ﴾ أى إلى جهتهم وفى عدم التعرض لتعلق أنظارهم بأصحاب الجنة والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف إشعار بأن التعلق الأول بطريق الرغبة والميل الثانى بخلافه ﴿ قالوا ﴾ متعوذين بالله تعالى من سوء حالهم ﴿ ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ أى فى النار وفى وصفهم بالظلم دون ماهم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذى هو الموجب للدعاء إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفى العذاب فقط بل مع مايوجبه ويؤدى إليه من الظلم ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ كرر ذكرهم مع

كفاية الإضمار لزيادة التقرير ﴿ رجالا ﴾ من رؤساء الكفار حين رأوهم فيما بين أصحاب النار ﴿ يعرفونهم بسيماهم ﴾ الدالة على سوء حالهم يومئذ وعلى رياستهم في الدنيا ﴿ قالوا ﴾ بدل من نادى ﴿ ما أغنى عنكم ﴾ ما ما استفهامية للتوبيخ والتقريع أو نافية ﴿ جمعكم ﴾ أي أتباعكم وأشياعكم أو جمعكم المال ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ ما مصدرية أي ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم المستمر عن قبول الحق أو على الخلق وهو الأنسب بما بعده وقرىء تستكثرون من الكثرة أي من الأموال والجنود ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ من تتمة قولهم للرجال والإشارة إلى ضعفاء المؤمنين الذين كانت الكفرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون صريحا أنهم لا يدخلون الجنة أو يفعلون ما ينبىء عن ذلك كما في قوله تعالى (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى أولئك المذكورين أي ادخلوا الجنة على رغم أنوفهم ﴿ لا خوف عليكم ﴾ بعد هذا ﴿ ولا أنتم تحزنون ﴾ أو قيل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله تعالى بعد أن حبسوا وشاهدوا أحوال الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا والأظهر أن لا يكون المراد بأصحاب الأعراف المقصرين في العمل لأن هذه المقالات وماتتفرع هي عليه من المعرفة لا يليق بمن لم يتعين حاله بعد وقيل لما عيروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة فقال الله تعالى أو الملائكة ردا عليهم أهؤلاء الخ وقرىء ادخلوا ودخلوا على الاستئناف وتقديره دخلوا الجنة مقولا في حقهم لا خوف عليكم ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار واطمأنت به الدار ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء ﴾ أي صبوه وفيه دلالة على أن الجنة فوق النار ﴿ أو مما رزقكم الله ﴾ من سائر الأشربة ليلائم الإفاضة أو من الأطعمة على أن الإفاضه عبارة عن الإعطاء بكثرة ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ أي منعهما منهم منعاً كلياً فلا سبيل إلى ذلك قطعاً ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ﴾ كتحريم البحيرة والسائبه ونحوهما

والتصدية حول البيت واللهو صرف الهم إلى مالا يحسن أن يصرف إليه واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب ﴿وغرتهم الحيوة الدنيا﴾ بزخارفها العاجلة ﴿فاليوم ننساهم﴾ نفعل بهم ما يفعل الناسى بالمنسى من عدم الاعتداد بهم وتركهم فى النار تركا كليا والفاء فى فاليوم فصيحة وقوله تعالى ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى ننساهم نسيانا مثل نسيانهم لقاء يومهم هذا حيث لم يخطروه ببالهم ولم يعتدوا له وقوله تعالى ﴿وماكانوا بآياتنا يجحدون﴾ عطف على مانسوا أى وكما كانوا منكرين بأنها من عند الله تعالى إنكارا مستمرا .

﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه﴾ أى بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ والضمير للكفرة قاطبة والمراد بالكتاب الجنس أو للمعاصرين منهم والكتاب هو القرآن ﴿على علم﴾ حال من فاعل فصلناه أى عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيما أو من مفعوله أى مشتملا على علم كثير وقرىء فضلناه أى على سائر الكتب عالمين بفضله ﴿هدى ورحمة﴾ حال من المفعول ﴿لقوم يؤمنون﴾ لأنهم المغتنمون لآثاره المقتبسون من أنواره ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أى ما ينتظر هؤلاء الكفرة بعدم إيمانهم به إلا ما يؤول إليه أمره من تبين صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿يوم يأتى تأويله﴾ وهو يوم القيامة ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أى تركوه ترك المنسى من قبل إتيان تأويله ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أى قد تبين أنهم قد جاءوا بالحق ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ اليوم ويدفعوا عنا العذاب ﴿أو نرد﴾ أى هل نرد إلى الدنيا وقرىء بالنصب عطفا على فيشفعوا أو لأن أو بمعنى إلى[1] أن فعلى الأول المسئول أحد الأمرين إما الشفاعة الدفع العذاب أو الرد إلى الدنيا وعلى الثانى أن يكون لهم شفعاء إما لأحد الأمرين أو لأمر واحد هو الرد ﴿فنعمل﴾ بالنصب على أنه جواب الاستفهام الثانى وقرىء بالرفع أى فنحن نعمل ﴿غير

---

(١) فى ٤٣٠ : أو على أن أو بمعنى إلى .

الذى كنا نعمل ﴾ أى فى الدنيا ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾ بصرف أعمارهم التى هى رأس مالهم إلى الكفر والمعاصى ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أى ظهر بطلان ما كانوا يفترونه من أن الأصنام شركاء الله تعالى وشفعاؤهم يوم القيامة.

مبدأ الخلق

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ شروع فى بيان مبدأ الفطرة إثر بيان معاد الكفرة أى إن خالقكم ومالككم الذى خلق الأجرام العلوية والسفلية فى ستة أوقات كقوله تعالى (ومن يولهم يومئذ دبره) أو فى مقدار ستة أيام فإن المتعارف أن اليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها ولم تكن هى حينئذ وفى خلق الأشياء مدرجا مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الأمور ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أى استوى أمره واستولى وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف والمعنى أنه تعالى استوى على العرش على الوجه الذى عناه منزها عن الاستقرار والتمكن والعرش الجسم المحيط بسائر الأجسام سمى به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فإن الأمور والتدابير تنزل منه وقيل الملك .

﴿ يغشى الليل والنهار ﴾ أى يغطيه به ولم يذكر العكس للعلم به أو لان اللفظ يحتملهما ولذلك قرىء بنصب الليل ورفع النهار وقرىء بالتشديد للدلالة على التكرار ﴿ يطلبه حثيثا ﴾ أى يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شىء والحثيث فعيل من الحث وهو صفة مصدر محذوف أو حال من الفاعل أو من المفعول بمعنى حاثا أو محثوثا﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ أى خلقهن حال كونهن مسخرات بقضائه وتصريفه وقرىء كلها بالرفع على الابتداء والخبر ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ فإنه الموجد للكل والمتصرف فيه على الإطلاق ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ أى تعالى بالوحدانية فى الألوهية وتعظم بالتفرد فى الربوبية .

وتحقيق الآية الكريمة والله تعالى أعلم أن الكفرة كانوا متخذين أربابا فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد هو الله تعالى لأنه الذى له الخلق والأمر فإنه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك ثم زينها بالشمس والقمر والنجوم كما أشار إليه بقوله تعالى (فقضاهن سبع سموات فى يومين) وعمد إلى الأجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المتبدلة والهيئات المختلفة ثم قسمها لصور نوعية متباينة الآثار والأفعال وأشار إليه بقوله تعالى (وخلق الأرض فى يومين) أى مافى جهة السفل فى يومين ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولا وتصويرها ثانيا كما قال بعد قوله تعالى (خلق الأرض فى يومين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام) أى مع اليومين الأولين لما فصل فى سورة السجدة ثم لما تم له عالم الملك عمد إلى تدبيره كالملك الجالس على سريره فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالى والأيام ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال تعالى (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ثم أمر بأن يدعوه مخلصين متذللين فقال :

﴿ ادعوا ربكم ﴾ الذى قد عرفتم شئونه الجليلة ﴿ تضرعا وخفية ﴾ أى ذوى تضرع وخفية فإن الإخفاء دليل الإخلاص ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ أى لا يحب دعاء المجاوزين لما أمروا به فى كل شيء فيدخل فيه الاعتداء فى الدعاء دخولا أوليا وقد نبه به على أن الداعى يجب أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء والصعود إلى السماء وقيل هو الصياح فى الدعاء والإسهاب فيه وعن النبى صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وماقرب إليها من قول وعمل ثم إنه لايحب المعتدين ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ بعد إصلاحها ﴾ ببعث الأنبياء عليهم السلام وشرع الأحكام ﴿ وادعوه خوفا وطمعا ﴾ أى ذوى خوف نظرا إلى قصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطمع نظرا إلى سعة رحمته ووفور فضله وإحسانه ﴿ إن رحمة الله

قريب من المحسنين ﴾ فى كل شيء ومن الإحسان فى الدعاء أن يكون مقرونا بالخوف والطمع وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم أو لأنه صفة لمحذوف أى أمر قريب أو على تشبيهه بفعيل الذى هو بمعنى مفعول أو الذى هو مصدر كالنقيض والصهيل أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره أو لا كتسابه التذكير من المضاف إليه كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه .

﴿ وهو الذى يرسل الرياح ﴾ عطف على الجملة السابقة وقرىء الريح ﴿ بشراً ﴾ تخفيف بشر جمع بشير أو مبشرات وقرىء بفتح الباء على أنه مصدر بشره بمعنى باشرات أو للبشارة وقرىء نشرا بالنون المضمومة جمع نشور أى ناشرات ونشرا على أنه مصدر فى موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان ﴿ بين يدى رحمته ﴾ قدام رحمته التى هى المطر فإن الصبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه ﴿ حتى إذا أقلت ﴾ أى حملت واشتقاقه من القلة فإن المقل للشيء يستقله ﴿ سحابا ثقالا ﴾ بالماء جمعه لأنه بمعنى السحائب ﴿ سقناه ﴾ أى السحاب وإفراد الضمير لإفراد اللفظ ﴿ لبلد ميت ﴾ أى لأجله ولمنفعته أو لإحيائه أو لسقيه وقرىء ميت ﴿ فأنزلنا به الماء ﴾ أى بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح والتذكير بتأويل المذكور وكذلك قوله تعالى ﴿ فأخرجنا به ﴾ ويحتمل أن يعود الضمير إلى الماء وهو الظاهر وإذا كان للبلد فالباء للإلصاق فى الأول والظرفية فى الثانى وإذا كان لغيره فهى للسببية ﴿ من كل الثمرات ﴾ أى من كل أنواعها (وألوانها)[1] ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ الإشارة إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميت أى كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ بطرح إحدى التاءين أى تتذكرون فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا من غير شبهة .

(١) سقطت من ط .

﴿ والبلد الطيب ﴾ أى الأرض الكريمة التربة ﴿ يخرج نباته بإذن ربه ﴾ بمشيئته وتيسيره عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه[1] لأنه أوقعه فى مقابلة قوله تعالى ﴿ والذى خبث ﴾ من البلاد كالسبخة والحرة ﴿ لا يخرج إلا نكدا ﴾ قليلا عديم النفع ونصبه على الحال والتقدير والبلد الذى خبث لايخرج نباته إلا نكدا لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصار مرفوعا مستترا وقرىء لا يخرج إلا نكدا أى لا يخرجه البلد إلا نكدا فيكون إلا نكدا مفعوله وقرىء نكدا على المصدر أى ذا نكد ونكدا بالإسكان للتخفيف ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك التصريف البديع ﴿ نصرف الآيات ﴾ أى نرددها ونكررها ﴿ لقوم يشكرون ﴾ نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها وهذا كما ترى مثل لإرسال الرسل عليهم السلام بالشرائع التى هى ماء حياة القلوب إلى المكلفين المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها والمحرومين من مغانم آثارها وقد عقب ذلك بما يحققه ويقرره من قصص الأمم الخالية بطريق الاستئناف فقيل :

نوح وقومه

﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ هو جواب قسم محذوف أى والله لقد أرسلنا الخ واطراد استعمال هذه اللام مع قد لكون مدخولها مظنة للتوقع الذى هو معنى قد فإن الجملة القسمية إنما تساق لتأكيد الجملة المقسم عليها ونوح هو ابن لمك بن متوشلح بن أخنوخ وهو إدريس النبى عليهما السلام . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه السلام على رأس أربعين سنة من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا ومائتين وأربعين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة ﴿ فقال

---

(١) فى ط : نفعه .

يا قوم اعبدوا الله ﴾ أى اعبدوه وحده وترك التقييد به للإيذان بأنها العبادة حقيقة وأما العبادة بالإشراك فليست من العبادة فى شىء وقوله تعالى ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ أى من مستحق للعبادة استئناف مسوق لتعليل العبادة المذكورة أو الأمر بها وغيره بالرفع صفة لا له باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية وقرىء بالجر باعتبار لفظه وقرىء بالنصب على الاستثناء وحكم غير حكم الاسم الواقع بعد إلا أى مالكم من إله إلا إياه كقولك ما فى الدار من أحد إلا زيد أو غير زيد فمن إله إن جعل مبتدأ فلكم خبره أو خبره محذوف ولكم للتخصيص والتبيين أى مالكم فى الوجود أو فى العالم إله غير الله ﴿ إنى أخاف عليكم ﴾ أى إن لم تعبدوه حسبما أمرت به [1] ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ هو يوم القيامة أو يوم الطوفان والجملة تعليل للعبادة ببيان الصارف عن تركها إثر تعليلها ببيان الداعى إليها ووصف اليوم بالعظم لبيان عظيم ما يقع فيه وتكميل الإنذار .

﴿ قال الملأ من قومه ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قوله عليه الصلاة والسلام كأنه قيل : فماذا قالوا له عليه الصلاة والسلام فى مقابلة نصحه ؟ فقيل : قال الرؤساء من قومه والأشراف الذين يملأون صدور المحافل بإجرامهم والقلوب بجلالهم وهيبتهم والأبصار بجمالهم وأبهتهم ﴿ إنا لنراك فى ضلال ﴾ أى ذهاب عن طريق الحق والصواب والرؤية قلبية ومفعولاها الضمير والظرف ﴿ مبين ﴾ بين كونه ضلالا ﴿ قال ﴾ استئناف كما سبق ﴿ ياقوم ﴾ ناداهم بإضافتهم إليه استمالة لقلوبهم نحو الحق ﴿ ليس بى ضلالة ﴾ أى شىء ما من الضلال قصد عليه الصلاة والسلام تحقيق الحق فى نفى الضلال عن نفسه ردا على الكفرة حيث بالغوا فى إثباته له عليه الصلاة والسلام حيث جعلوه مستقرا فى الضلال الواضح كونه ضلالا وقوله تعالى ﴿ ولكنى رسول من رب العالمين ﴾ استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه فى أقصى مراتب الهداية فإن رسالة

---

(١) فى ١١ : حسبما أمرنى .

رب العالمين مستلزمة لا محالة كأنه قيل ليس بى شىء من الضلال ولكنى فى الغاية القاصية من الهداية ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف هو صفة لرسول مؤكدة لما يفيده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى رسول وأى رسول كائن من رب العالمين ﴿ أبلغكم رسالات ربى ﴾ استئناف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها وأحوالها وقيل صفة أخرى لرسول على طريقة أنا الذى سمتنى أمى حيدرة وقرىء أبلغكم من الإبلاغ وجمع الرسالات لاختلاف أوقاتها أو لتنوع معانيها أو لأن المراد بها ما أوحى إليه وإلى النبيين من قبله وتخصيص ربوبيته تعالى به عليه الصلاة والسلام بعد بيان عمومها للعالمين للإشعار بعلة الحكم الذى هو تبليغ رسالته تعالى إليهم فإن ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته تعالى إليهم ﴿ وأنصح لكم ﴾ عطف على أبلغكم مبين لكيفية أداء الرسالة وزيادة اللام مع تعدى النصح بنفسه للدلالة على إمحاض النصيحة لهم وأنها لمنفعتهم ومصلحتهم خاصة وصيغة المضارع للدلالة على تجدد نصيحته لهم كما يعرف عنه قوله تعالى (رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا) وقوله تعالى ﴿ وأعلم من الله مالا تعلمون ﴾ عطف على ما قبله وتقرير لرسالته عليه الصلاة والسلام أى أعلم من جهة الله تعالى بالوحى مالا تعلمونه من الأمور الآتية أو أعلم من شئونه عز وجل وقدرته القاهرة وبطشه الشديد على أعدائه وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين مالا تعلمون قيل كانوا لا يسمعون بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا غافلين آمنين لا يعلمون ما علمه نوح عليه السلام بالوحى .

﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم ﴾ جواب ورد لما اكتفى عن ذكره بقولهم إنا لنراك فى ضلال مبين من قولهم ما نراك إلا بشرا مثلنا وقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل استبعدتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر أى وحى أوموعظة من مالك أموركم ومربيكم ﴿ على رجل منكم ﴾ أى على لسان رجل من جنسكم كقوله تعالى (ما وعدتنا على رسلك) وقلتم لأجل ذلك ما قلتم من أن الله تعالى

لو شاء لأنزل ملائكة ﴿ لينذركم ﴾ علة للمجىء أى لينذركم عاقبة الكفر والمعاصى ﴿ ولتتقوا ﴾ عطف على العلة الأولى مترتبة عليها ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ عطف على العلة الثانية مترتبة عليها أى ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم وفائدة حرف الترجى التنبيه على عزة المطلب وأن التقوى غير موجبة للرحمة بل هى منوطة بفضل الله تعالى وأن المتقى ينبغى أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن عذاب الله عز وجل .

﴿ فكذبوه ﴾ أجمعوا على تكذيبه فى دعوى النبوة وما نزل عليه من الوحى الذى بلغه إليهم وأنذرهم بما فى تضاعيفه واستمروا على ذلك هذه المدة المتطاولة بعد ما كرر عليه الصلاة والسلام عليهم الدعوة مرارا فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا حسبما نطق به قوله تعالى (رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا) الآيات إذ هو الذى يعقبه الانجاء والإغراق لا مجرد التكذيب ﴿ فأنجيناه والذين معه ﴾ من المؤمنين قيل كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة أبناؤه الثلاثة وستة ممن آمن به وقوله تعالى ﴿ فى الفلك ﴾ متعلق بالاستقرار فى الظرف أى استقروا فى الظرف أى استقروا معه فى الفلك أو صحبوه فيه أو بفعل الإنجاء أى أنجيناهم فى السفينة ويجوز أن يتعلق بمضمر وقع حالا من الموصول أو من ضميره فى الظرف ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى استمروا على تكذيبها وليس المراد بهم الملأ المتصدين للجواب فقط بل كل من أصر على التكذيب منهم ومن أعقابهم وتقديم ذكر الإنجاء على الإغراق للمسارعة إلى الاخبار به والإيذان بسبق الرحمة التى هى مقتضى الذات وتقدمها على الغضب الذى يظهر أثره بمقتضى جرائمهم ﴿ إنهم كانوا قوما عمين ﴾ عمى القلوب غير مستبصرين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد وقرىء عامين والأول أدل على الثبات والقرار .

﴿ وإلى عاد ﴾ متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح عليه السلام وهو الناصب لقوله تعالى ﴿ أخاهم ﴾ أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم

أى واحداً منهم فى النسب لا فى الدين كقولهم يا أخا العرب وقيل العامل فيهما الفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا والأول أدنى[1] وأياً ما كان فلعل تقديم المجرور ههنا على المفعول الصريح للحذار عن الإضمار قبل الذكر يرشدك إلى ذلك ما سيأتى من قوله تعالى ولوطا الخ فإن قومه لما لم يعهدوا باسم معروف يقتضى الحال ذكره عليه السلام مضافا إليهم كما فى قصة عاد وثمود ومدين خولف فى النظم الكريم بين قصته عليه السلام وبين القصص الثلاث وقوله تعالى ﴿هوداً﴾ عطف بيان لأخاهم وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاذ بن غوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل هود ابن شالخ بن أرنخشد بن سام بن نوح بن عم أبى عاد وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله فى صدقه وأمانته وأقرب إلى اتباعه ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية إرساله عليه السلام إليهم كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أى وحده كما يعرب عنه قوله ﴿مالكم من إله غيره﴾ فإنه استئناف جار مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل لها أو للأمر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا إذ ليس لكم إله سواه وغيره بالرفع صفة لإله باعتبار محله وقرىء بالجر حملا له على لفظه ﴿أفلا تتقون﴾ إنكار واستبعاد لعدم اتقائهم عذاب الله تعالى بعد ما علموا ما حل بقوم نوح والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا تتفكرون أو أتغفلون فلا تتقون فالتوبيخ على المعطوفين معا أو أتعلمون ذلك فلا تتقون فالتوبيخ على المعطوف فقط وفى سورة هود أفلا تعقلون ولعله عليه السلام خاطبهم بكل منهما وقد اكتفى بحكاية كل منهما فى موطن عن حكايته فى موطن آخر كما لم يذكر ههنا ما ذكر هناك من قوله تعالى (إن أنتم إلا مفترون) وقس على ذلك حال بقية ما ذكر وما لم يذكر من أجزاء القصة بل حال نظائره فى سائر القصص لا سيما فى المحاورات الجارية فى الأوقات المتعددة والله أعلم .

---

(١) فى ط : هو الأولى .

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ استئناف كما مر وإنما وصف الملأ بالكفر إذ لم يكن كلهم على الكفر كملأ قوم نوح بل كان منهم من آمن به عليه السلام ولكن كان يكتم إيمانه كمرثد بن سعد وقيل وصفوا به لمجرد الذم ﴿إنا لنراك فى سفاهة﴾ أى متمكنا فى خفة عقل راسخا فيها حيث فارقت دين آبائك ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أى فيما ادعيت من الرسالة قالوه لعراقتهم فى التقليد وحرمانهم من النظر الصحيح ﴿قال﴾ مستعطفا لهم ومستميلا لقلوبهم مع ما سمع منهم ما سمع من الكلمة الشنعاء الموجبة لتغليظ القول والمشافهة بالسوء ﴿يا قوم ليس بى سفاهة﴾ أى شىء منها ولا شائبة من شوائبها ﴿ولكنى رسول رب العالمين﴾ استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه ويقتضيه من كونه فى الغاية القصوى من الرشد والأناة والصدق والأمانة فإن الرسالة من جهة رب العالمين موجبة لذلك حتما كأنه قيل ليس بى شىء مما تنسبونى اليه ولكنى فى غاية ما يكون الرشد والصدق ولم يصرح بنفى الكذب اكتفاء بما فى حيز الاستدراك ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسول مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية وقوله تعالى ﴿أبلغكم رسالات ربى﴾ استئناف سيق لتقرير رسالته وتفصيل أحوالها وقيل صفة أخرى لرسول والكلام فى إضافة الرب إلى نفسه عليه السلام بعد إضافته إلى العالمين وكذا فى جمع الرسالات كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام وقرىء أبلغكم من الإبلاغ ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ معروف بالنصح والأمانة مشهور بين الناس بذلك وإنما جىء بالجملة الاسمية دلالة على الثبات والاستمرار وإيذانا بأن من هذا حاله لا يحوم حوله شائبة السفاهة والكذب .

﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ الكلام فيه كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام ﴿على رجل منكم﴾ أى من جنسكم ﴿لينذركم﴾ ويحذركم عاقبة ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى حتى تنسبونى إلى السفاهة والكذب وفى إجابة

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من يشافههم بما لا خير فيه من أمثال تلك الأباطيل بما حكى عنهم من المقالات الحقة المعربة عن نهاية الحلم والرزانة وكمال الشفقة والرأفة من الدلالة على حيازتهم القدح المعلى من مكارم الأخلاق ما لا يخفى مكانه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء﴾ شروع فى بيان ترتيب أحكام للنصح والأمانة والإنذار وتفصيلها وإذ منصوب باذكروا على المفعولية دون الظرفيه وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل عليها فإذا استحضر كانت هى حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا ولعله معطوف على مقدر كأنه قيل لا تعجبوا من ذلك أو تدبروا فى أمركم واذكروا وقت جعله الله تعالى إياكم خلفاء ﴿من بعد قوم نوح﴾ أى فى مساكنهم أو فى الأرض بأن جعلكم ملوكا فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شحر عمان ﴿وزادكم فى الخلق﴾ أى فى الإبداع والتصوير أو فى الناس ﴿بسطة﴾ قامة وقوة فإنه لم يكن فى زمانهم مثلهم فى عظم الأجرام قال الكلبى والسدى كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ التى أنعم بها الله عليكم من فنون النعماء التى هذه من جملتها وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير وتعميم إثر تخصيص ﴿لعلكم تفلحون﴾ كى يؤديكم ذلك إلى الشكر المؤدى إلى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب ﴿قالوا﴾ مجيبين عن تلك النصائح العظيمة ﴿أجئتنا لنعبد الله وحده﴾ أى لنخصه بالعبادة ﴿ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ أنكروا عليه عليه السلام مجيئه لتخصيصه تعالى بالعبادة والإعراض عن عبادة الأوثان انهماكا فى التقليد وحبا لما ألفوه وألفوا أسلافهم عليه ومعنى المجىء إما مجيئه عليه السلام من متعبده ومنزله وإما من السماء على التهكم وإما القصد والتصدى مجازا كما يقال فى مقابله ذهب يشتمنى من غير إرادة معنى الذهاب ﴿فائتنا بما تعدنا﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى أفلا تتقون ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أى فى الإخبار بنزول العذاب وجواب إن محذوف لدلالة المذكور عليه أى فائت به .

﴿ قال وقد وقع عليكم ﴾ أى وجب وحق أو نزل بإصراركم هذا بناء على تنزيل المتوقع منزلة الواقع كما فى قوله تعالى (أتى أمر الله) ﴿من ربكم﴾ أى من جهته تعالى وتقديم الظرف الأول على الثانى مع أن مبدأ الشىء متقدم على منتهاه للمسارعة إلى بيان إصابة المكروه لهم وكذا تقديمه على الفاعل الذى هو قوله تعالى ﴿ رجس ﴾ مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر ولأن فيه نوع طول بما عطف عليه من قوله تعالى ﴿ وغضب ﴾ فربما يخل تقديمها بتجاوب النظم الكريم والرجس العذاب من الارتجاس الذى هو الاضطراب والغضب إرادة الانتقام وتنوينهما للتفخيم والتهويل ﴿ أتجادلوننى فى أسماء ﴾ عارية عن المسمى ﴿ سميتموها ﴾ أى سميتم بها ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ إنكار (واستقباح[1]) لإنكارهم بجيئه عليه السلام داعياً لهم إلى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الأصنام أى أتجادلوننى فى أشياء سميتموها آلهة ليست هى إلا محض الأسماء من غير أن يكون فيها من مصداق الإلهية شىء ما لأن المستحق للمعبودية بالذات ليس إلا من أوجد الكل وأنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى إما بإنزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل وذلك قوله تعالى ﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾ وإذ ليس ذلك فى حيز الإمكان تحقق بطلان ما هم عليه ﴿ فانتظروا ﴾ مترتب على قوله تعالى قد وقع عليكم أى فانتظروا ما تطلبونه بقولكم فائتنا بما تعدنا الخ ﴿ إنى معكم من المنتظرين ﴾ لما يحل بكم والفاء فى قوله تعالى ﴿ فأنجيناه ﴾ فصيحة كما فى قوله تعالى (فانفجرت) أى فوقع ما وقع فأنجيناه ﴿والذين معه﴾ أى فى الدين ﴿ برحمة ﴾ أى عظيمة لا يقادر قدرها وقوله تعالى ﴿ منا ﴾ أى من جهتنا متعلق بمحذوف هو نعت لرحمة مؤكد لفخامتها الذاتية المنفهمة من تنكيرها بالفخامة الإضافية ﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ عطف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة أى أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعوا عن ذلك أبداً وتقديم

(١) سقطت من ١٠ ٤٣ .

حكاية الإنجاء على حكاية الإهلاك قد مر سره وفيه تنبيه على أن مناط النجاة هو الإيمان بالله تعالى وتصديق آياته كما أن مدار البوار هو الكفر والتكذيب. وقصتهم أن عادا قوم كانوا باليمن بالأحقاف وكانوا قد تبسطوا فى البلاد ما بين عمان إلى حضرموت وكانت لهم أصنام يعبدونها صدا وصمود والهبا فبعث الله تعالى إليهم هودا نبيا وكان من أوسطهم وأفضلهم حسبا فكذبوه وازدادوا عتوا وتجبرا فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله الفرج منه عند بيته الحرام مسلمهم ومشركهم وأهل مكة [كانوا](1) إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية ابن بكر فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلا منهم قيل بن عنز ومرثد ابن سعد الذى كان يكتم إسلامه فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم قينتا معاوية فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال قد هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء على ماهم عليه وكان يستحيى أن يكلمهم خشية أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به لا يدرون من قاله فقال معاوية :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل الله يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد إن عادا قد امسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنتا به قال إن قومكم يتغوثون من البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال لهم مرثد ابن سعد والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله تعالى سقيتم وأظهر إسلامه فقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا لا يقدمن معنا فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيل : اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك فقال اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء فخرجت على عاد من واد

(١) سقطت من ط

يقال له المغيث فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه فأتوا مكة فعبدوا الله تعالى فيها إلى أن ماتوا .

صالح وقومه

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾ عطف على ما سبق من قوله تعالى (وإلى عاد أخاهم هودا) موافق له فى تقديم المجرور على المنصوب وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر ابن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل إنما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وقرىء بالصرف بتأويل الحى وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وأخوة صالح عليه السلام لهم من حيث النسب كهود عليه السلام فإنه صالح بن عبيد بن أسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ولما كان الإخبار بإرساله عليه السلام إليهم مظنة لأن يسأل ويقال فماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وقد مر الكلام فى نظائره ﴿ قد جاءتكم بينة ﴾ أى آية ومعجزة ظاهرة شاهدة بنبوتى وهى من الألفاظ الجارية مجرى الأبطح والأبرق فى الاستغناء عن ذكر موصوفاتها حالة الإفراد والجمع كالصالح إفراداً وجمعاً وكذلك الحسنة والسيئة سواء كانتا صفتين للأعمال أو المثوبة أو الحالة من الرخاء والشدة ولذلك أوليت العوامل وقوله تعالى ﴿من ربكم ﴾ متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صفة لبينة كما مر مرارا والمراد بها الناقة وليس هذا الكلام منه عليه السلام أول ما خاطبهم إثر دعوتهم إلى التوحيد بل إنما قاله بعد ما نصحهم وذكرهم بنعم الله تعالى فلم يقبلوا كلامه وكذبوه ألا يرى إلى ما فى سورة هود من قوله تعالى (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) إلى آخر الآيات . روى أنه لما أهلكت عاد عمرت ثمود بلادها وخلفوهم فى الأرض وكثروا وعمروا أعمارا طوالا حتى أن الرجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته فنحتوا االبيوت من الجبال وكانوا فى سعة ورخاء من

العيش فعتوا على الله تعالى وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأوثان فبعث الله تعالى إليهم صالحا وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا فدعاهم إلى الله عز وجل فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال أية آية تريدون قالوا تخرج معنا إلى عيدنا فى يوم معلوم لهم من السنة فتدعو إلهك وندعوا آلهتنا فإن استجيب لنا اتبعتنا فقال صالح عليه السلام نعم فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوا الإجابة(١) فلم تجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو وأشار إلى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يقال لها الكاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء والمخترجة التى شاكلت البخت فإن فعلت صدقناك وأجبناك فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن قالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى وعظماؤهم ينظرون ثم نتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع ورهط من قومه ومنع أعقابهم ناس من رءوسهم أن يؤمنوا فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد غبا فإذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر فما ترفعها حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج فيحتلبون ما شاءوا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادى فيهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتى المواشى فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه فانطلق سقبها حتى رقى جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا وكان صالح عليه السلام قال لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه فانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غداووجوهكم مصفرة وبعد غد ووجوهكم محمرة واليوم الثالث ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم

---

(١) فى ط : الاستجابة .

العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض فتقطعت قلوبهم فهلكوا وقوله تعالى ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ استئناف مسوق لبيان البينة وإضافة الناقة إلى الإسم الجليل لتعظيمها ولمجيئها من جهته تعالى بلا أسباب معهودة ووسائطه معتادة ولذلك كانت آية وأى آية ولكم بيان لمن هى آية له وانتصاب آية على الحالية والعامل فيها معنى الإشارة ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أوعطف بيان له أو مبتدأ ثانيا ولكم خبرا عاملا فى آية ﴿ فذروها ﴾ تفريع على كونها آية من آيات الله تعالى فإن ذلك مما يوجب عدم التعرض لها ﴿ تأكل فى أرض الله ﴾ جواب الأمر اى الناقة ناقة الله والأرض أرض الله تعالى فاتركوها تأكل ما تأكل فى أرض ربها فليس لكم أن تحولوا بينها وبينها وقرىء تأكل بالرفع على أنه فى موضع الحال أى آكلة فيها وعدم التعرض للشرب إما للاكتفاء عنه بذكر الأكل أو لتعميمه له أيضا كما فى قوله علفتها تبنا وماء باردا وقد ذكرت ذلك فى قوله تعالى (لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ نهى عن المس الذى هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذية ونكر السوء مبالغة فى النهى أى لا تتعرضوا لها بشىء مما يسوؤها أصلا ولا تطردوها ولا تريبوها إكراما لآية الله ﴿ فيأخذكم عذاب أليم ﴾ جواب للنهى ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر فى غزوة تبوك قال لأصحابه لا يدخلن أحد منكم القريه ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم وقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه يا على أتدرى من أشقى الأولين قال الله ورسوله أعلم قال عاقر ناقة صالح أتدرى من أشقى الآخرين قال الله ورسوله أعلم قال قاتلك .

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ أى خلفاء في الأرض

أو خلفاً لهم كما مر ﴿ وبوأكم فى الأرض ﴾ أى جعل لكم مباءة ومنزلا فى أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿ تتخذون من سهولها قصورا ﴾ استئناف مبين لكيفيه التبوئه أى تبنون فى سهولها قصورا رفيعه أو تبنون من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص واللبن والآجر ﴿ وتنحتون الجبال ﴾ أى الصخور وقرىء تنحتون بفتح الحاء وتنحاتون بإشباع الفتحة كما فى قوله ٭ ينباع من ذفرى أسيل حرة ٭ والنحت نجر الشيء الصلب فانتصاب الجبال على المفعولية وانتصاب قوله تعالى ﴿ بيوتا ﴾ على أنها حال مقدرة منها كما تقول خطت هذا الثوب قميصا وقيل انتصاب الجبال على إسقاط الجار أى من الجبال وانتصاب بيوتا على المفعولية وقد جوز أن يضمن النحت معنى الاتخاذ فانتصابهما على المفعولية قيل كانوا يسكنون السهول فى الصيف والجبال فى الشتاء ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ التى أنعم بها عليكم مما ذكر أو جميع آلائه التى هذه من جملتها ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ فإن حق آلائه تعالى أن تشكر ولا تهمل ولا يغفل عنها فكيف بالكفر والعثى فى الأرض بالفساد .

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ﴾ أى عتوا وتكبروا استئناف كما سلف وقرىء بالواو عطفاً على ما قبله من قوله تعالى ياقوم الخ واللام فى قوله تعالى ﴿ للذين استضعفوا ﴾ للتبليغ وقوله تعالى ﴿ لمن آمن منهم ﴾ بدل من الموصول بإعادة العامل بدل الكل إن كان ضمير منهم لقومه وبدل البعض إن كان للذين استضعفوا على أن من المستضعفين من لم يؤمن والأول هو الوجه إذ لا داعى إلى توجيه الخطاب أولا إلى جميع المستضعفين مع أن المجاوبة مع المؤمنين منهم على أن الاستضعاف مختص بالمؤمنين أى قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم ﴿ أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ﴾ وإنما قالوه بطريق الاستهزاء بهم ﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا نعم أو نعلم أنه مرسل منه تعالى مسارعة إلى تحقيق الحق وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذى تنبىء عنه الجملة الاسمية وتنبيها على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغى أن يسأل عنه وإنما الحقيق

بالسؤال عنه هو الإيمان به ﴿ قال الذين استكبروا ﴾ أعيد الموصول مع صلته مع كفاية الضمير إيذانا بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار ﴿ إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾ وإنما لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون إظهارا لمخالفتهم إياهم وردا لمقالتهم ﴿ فعقروا الناقة ﴾ أى نحروها أسند العقر إلى الكل مع أن المباشر بعضهم للملابسة أن لأن ذلك لما كان برضاهم فكأنه فعله كلهم وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه بحيث أصابت غائلته الكل ما لا يخفى ﴿ وعتوا عن أمر ربهم ﴾ أى استكبروا عن امتثاله وهو ما بلغهم صالح عليه السلام من الأمر والنهى .

﴿ وقالوا ﴾ مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيز والإفحام على زعمهم ﴿ ياصالح ائتنا بما تعدنا ﴾ أى من العذاب والإطلاق للعلم به قطعاً ﴿ إن كنت من المرسلين ﴾ فإن كونك من جملتهم يستدعى صدق ما تقول من الوعد والوعيد ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ أى الزلزلة لكن لا إثر ما قالوا بعد ما جرى عليهم من مبادىء العذاب فى الأيام الثلاثة حسبما مر تفصيله ﴿ فأصبحوا فى دارهم ﴾ أى صاروا فى أرضهم وبلدهم أو فى مساكنهم ﴿ جاثمين ﴾ خامدين موتى لاحراك بهم وأصل الجثوم البروك يقال الناس جثوم أى قعود لاحراك بهم ولا ينبسون نبسة قال أبو عبيدة[1] الجثوم للناس والطير والبروك للإبل والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب ولا حركة كما يكون عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من شدة الأخذ وسرعة البطش اللهم إنا بك نعوذ من نزول سخطك وحلول غضبك وجاثمين خبر لأصبحوا والظرف متعلق به ولا مساغ لكونه خبرا وجاثمين حالا لإفضائه إلى كون الإخبار بكونهم فى دارهم مقصوداً بالذات وكونهم جاثمين قيداً تابعاً له غير مقصود بالذات قيل حيث ذكرت الرجفة وحدت الدار وحيث ذكرت الصيحة جمعت لأن الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فقرن كل منهما بما هو أليق به

---

(١) فى ١٠ : أبو عبيد . بدون تاء التأنيث

﴿ فتولى عنهم ﴾ إثر ما شاهد جرى عليهم تولى مغتم متحسر على ما فاتهم من الإيمان متحزن عليهم ﴿ وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ﴾ بالترغيب والترهيب وبذلت فيكم وسعى ولكن لم تقبلوا منى ذلك وصيغة المضارع فى قوله تعالى ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ حكاية حال ماضية أى شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم خاطبهم عليه الصلاة والسلام بذلك خطاب رسول الله عليه الصلاة والسلام أهل قليب بدر حيث قال إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً وقيل إنما تولى عنهم قبل نزول العذاب بهم عند مشاهدته عليه الصلاة والسلام لعلاماته تولى ذاهب عنهم منكر لإصرارهم على ما هم عليه وروى أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء ونزل بهم العذاب يوم السبت وروى أنه خرج فى مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكى فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفاً وخمسمائة دار وروى أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم .

لوط وقومه

﴿ ولوطا ﴾ منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق وعدم التعرض للمرسل إليهم مقدما على المنصوب حسبما وقع فيما سبق وما لحق قد مر بيانه فى قصة هود عليه والسلام وهو لوط بن هاران بن تارح بن أخى إبراهيم كان من أرض بابل من العراق مع عمه إبراهيم فهاجر إلى الشام فنزل فلسطين وأنزل لوطا الأردن وهى كورة بالشام فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم وهى بلد بحمص وقوله تعالى ﴿ إذ قال لقومه ﴾ ظرف للمضمر المذكور أى أرسلنا لوطا إلى قومه وقت قوله لهم الخ ولعل تقييد إرساله عليه السلام بذلك لما أن إرساله إليهم لم يكن فى أول وصوله إليهم وقيل هو بدل من لوطا بدل اشتمال على أن انتصابه باذكر أى اذكر وقت قوله عليه السلام لقومه ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ بطريق الإنكار التوبيخى التقريعى أى أتفعلون تلك الفعلة المتناهية فى القبح المتمادية فى الشرية والسوء ﴿ ما سبقكم بها ﴾ ما عملها قبلكم على أن الباء للتعدية كما فى قوله تعالى ﴿ من أحد ﴾ مزيدة لتأكيد النفى وإفادة معنى الاستغراق وفى قوله تعالى ﴿ من العالمين ﴾ للتبعيض والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد

التوبيخ والتقريع فإن مباشرة القبيح قبيح واختراعه أقبح ولقد أنكر الله تعالى عليهم أولا إتيان الفاحشة ثم وبخهم بأنهم أول من عملها فإن سبك النظم الكريم وإن كان على نفى كونهم مسبوقين من غير تعرض لكونهم سابقين لكن المراد أنهم سابقون لكل من عداهم من العالمين كما مر تحقيقه مرارا فى نحو قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أو مسوقة جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل من جهتهم لم لا نأتيها فقيل بيانا للعلة وإظهارا للزاجر ما سبقكم بها أحد لغاية قبحها وسوء سبيلها فكيف تفعلونها قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط قال محمد بن إسحق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن فى الدنيا مثلها فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم إبليس فى صورة شيخ إن فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فأبوا فلما ألح الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانا صباحا فأخبثوا فاستحكم فيهم ذلك قال الحسن كانوا لا يفعلون ذلك إلا بالغرباء وقال الكلبى أول من فعل به ذلك الفعل إبليس الخبيث حيث تمثل لهم فى صورة شاب جميل فدعاهم إلى نفسه ثم عبثوا بذلك العمل .

﴿ إنكم لتأتون الرجال ﴾ خبر مستأنف لبيان تلك الفاحشة وقرىء بهمزتين صريحتين وبتليين الثانية بغير مد وبمد أيضاً على أنه تأكيد للإنكار السابق وتشديد للتوبيخ وفى زيادة إن واللام مزيد توبيخ وتقريع وكأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد فيؤكد تأكيدا قويا وفى إيراد لفظ الرجال دون الغلمان والمردان ونحوهما مبالغة فى التوبيخ وقوله تعالى ﴿ شهوة ﴾ مفعول له أو مصدر فى موقع الحال وفى التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على العاقل ينبغى له أن يكون الداعى له المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الشهوة ويجوز أن يكون المراد الإنكار عليهم وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ من دون النساء ﴾ أى متجاوزين النساء اللاتى هن محل الاشتهاء كما ينبىء عنه قوله تعالى (هن أطهر لكم) ﴿ بل أنتم مسرفون ﴾ إضراب عن الإنكار المذكور إلى الإخبار بحالهم التى أفضتهم إلى ارتكاب أمثالها وهى اعتياد الإسراف فى كل شىء أو عن الإنكار عليها إلى

الذم على جميع معايبهم أو عن محذوف أى لا عذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الإسراف .

﴿ وما كان جواب قومه ﴾ أى المستكبرين منهم المتولين للأمر والنهى[1] المتصدين للعقد والحل وقوله تعالى ﴿ إلا أن قالوا ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء أى ما كان جوابا من جهة قومه شيء من الأشياء إلا قولهم أى لبعضهم الآخرين المباشرين للأمور معرضين عن مخاطبته عليه السلام ﴿ أخرجوهم ﴾ أى لوطا ومن معه من أهله المؤمنين ﴿ من قريتكم ﴾ أى إلا هذا القول الذى يستحيل أن يكون جوابا لكلام لوط عليه السلام وقرىء برفع جواب على أنه اسم كان وإلا أن قالوا الخ خبرها وهو أظهر وإن كان الأول أقوى فى الصناعة لأن الأعرف أحق بالإسمية وأيا ما كان فليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن مقالات لوط عليه السلام ومواعظه إلا هذه المقالة الباطلة كما هو المتسارع إلى الأفهام بل إنه لم يصدر عنهم فى المرة الأخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم وبينه عليه السلام إلا هذه الكلمة الشنيعة وإلا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الترهات حسبما حكى عنهم فى سائر السور الكريمة وهذا هو الوجه فى نظائره الواردة بطريق القصر وقوله تعالى ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ تعليل للأمر بالإخراج ووصفهم بالتطهر للاستهزاء والسخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش والخبائث والافتخار بما هم فيه من القذارة كما هو ديدن الشطار والدعار.

﴿ فأنجيناه وأهله ﴾ أى المؤمنين منهم ﴿ إلا امرأته ﴾ استثناء من أهله فإنها كانت تسر بالكفر ﴿ كانت من الغابرين ﴾ أى الباقين فى ديارهم الهالكين فيها والتذكير للتغليب ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن استثنائها من حكم الإنجاء كأنه قيل فماذا كان حالها فقيل كانت من الغابرين ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا ﴾ أى نوعا من المطر عجيبا وقد بينه قوله تعالى (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) قال أبو عبيدة

---

(١) فى ظ : المستولين عن الأمر والنهى.

مطر فى الرحمة وأمطر فى العذاب وقال الراغب مطر فى الخير وأمطر فى العذاب والصحيح أن أمطرنا بمعنى أرسلنا عليهم إرسال المطر قيل كانت المؤتفكة خمس مدائن وقيل كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة فأمطر الله عليهم الكبريت والنار وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم وقيل أمطر عليهم ثم خسف بهم وروى أن تاجرا منهم كان فى الحرم فوقف الحجر له أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه وروى أن امرأته التفتت نحو ديارها فأصابها حجر فماتت ﴿ فانظر كيف كانت عاقبة المجرمين ﴾ خطاب لكل من يتأتى منه التأمل والنظر تعجيبا من حالهم وتحذيرا من أعمالهم .

شعيب وقومه

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾ عطف على قوله (وإلى عاد أخاهم هودا) وما عطف عليه وقد روعى ههنا ما فى المعطوف عليه من تقديم المجرور على المنصوب أى وأرسلنا إليهم وهم أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين وقيل شعيب بن ثويب ابن مدين وقيل شعيب بن يثرون بن مدين وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين مع كفرهم ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ عن حكاية إرساله إليهم كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال ﴿ يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ مر تفسيره مرارا ﴿ قد جاءتكم بينة ﴾ أى معجزة وقوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صلة لفاعله مؤكدة لفخامته الذاتية المستفاده من تنكيره بفخامته الإضافية أى بينة عظيمة ظاهرة كائنة من ربكم ومالك أموركم ولم يذكر معجزته عليه السلام فى القرآن العظيم كما لم يذكر أكثر معجزات النبى صلى الله عليه وسلم فمنها ما روى من محاربة عصا موسى عليه السلام التنين حين دفع إليه غنمه ومنها ولادة الغنم الدرع

خاصة حين وعد أن يكون له الدرع من أولادها ومنها وقوع عصا آدم عليه السلام على يده فى المرات السبع لأن كل ذلك كان قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام وقيل البينة مجيئه عليه السلام كما فى قوله تعالى (ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) أى حجة واضحة وبرهان نير عبر بهما عما آتاه الله من النبوة والحكمة ﴿ فأوفوا الكيل ﴾ أى المكيال كما وقع فى سورة هود ويؤيده قوله تعالى ﴿ والميزان ﴾ فإن المتبادر منه الآلة وإن جاز كونه مصدرا كالمعيار وقيل آلة الكيل والوزن على الإضمار والفاء لترتيب الأمر على مجىء البينة ويجوز أن تكون عاطفة على اعبدوا فإن عبادة الله تعالى موجبة للإجتناب عن المناهى التى معظمها بعد الكفر البخس الذى كانوا يباشرونه ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ التى تشترونها بهما معتمدين على تمامهما أى شىء كان وأى مقدار[1] كان فإنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير وقيل كانوا مكاسين لايدعون شيئا إلا مكسوه قال زهير :

أفى كل أسواق العراق إتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم

﴿ ولا تفسدوا فى الأرض ﴾ أى بالكفر والحيف ﴿ بعد إصلاحها ﴾ بعد ما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم بإجراء الشرائع أو أصلحوا فيها وإضافته إليها كإضافة مكر الليل والنهار ﴿ذلكم خير لكم﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقاً أو فى الإنسانية وحسن الأحدوثة وما يطلبونه من التكسب والربح لأن الناس إذا عرفوهم بالأمانة رغبوا فى معاملتهم ومتاجرتهم ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى مصدقين لى فى قولى هذا ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ أى بكل طريق من طرق الدين كالشيطان وصراط الحق وإن كان واحداً لكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام وكانوا إذا رأوا أحداً يشرع فى شىء منها منعوه وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيبا إنه كذاب لايفتننك عن دينك ويتوعدون

---

(١) فى ٤٣٠ : وأى قدر كان .

لمن آمن به وقيل يقطعون الطريق ﴿ وتصدون عن سبيل الله ﴾ أى السبيل الذى قعدوا عليه فوقع المظهر موقع المضمر بيانا لكل صراط ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقبيحا لما كانوا عليه أو الإيمان بالله أو بكل صراط على أنه عبارة عن طرق الدين وقوله تعالى ﴿ من آمن به ﴾ مفعول تصدون على أعمال الأقرب ولو كان مفعول توعدون لقيل وتصدونهم وتوعدون حال من الضمير فى تقعدوا ﴿ وتبغونها عوجا ﴾ أى وتطلبون لسبيل الله عوجا بالقاء الشبه أو بوصفها للناس بأنها معوجة وهى أبعد شىء من شائبة الإعوجاج .

﴿ واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ﴾ بالبركة فى النسل والماء ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ من الأمم الماضية كقوم نوح ومن بعدهم من عاد وثمود وأضرابهم واعتبروا بهم ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به ﴾ من الشرائع والأحكام ﴿ وطائفة لم يؤمنوا ﴾ أى به أو لم يفعلوا الإيمان ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ﴾ أى بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه المقال كأنه قيل فماذا قالوا بعد ما سمعوا هذه المواعظ من شعيب عليه السلام فقيل قال أشراف قومه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام غير مكتفين بمجرد الاستعصاء عليه[1] والامتناع من الطاعه له بل بالغين من العتو والاستكبار إلى أن قصدوا استتباعه عليه السلام فيما هم فيه وأتباعه المؤمنين واجترأوا على إكراههم عليه بوعيد النفى وخاطبوه بذلك على طريقة التوكيد القسمى ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا ﴾ بنسبة الإخراج إليه عليه السلام أولاً وإلى المؤمنين ثانياً بعطفهم عليه تنبيها على أصالته عليه السلام فى الإخراج وتبعيتهم له فيه كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ معك ﴾ فإنه متعلق بالإخراج لا بالإيمان وتوسيط النداء باسمه العلمى بين المعطوفين لزيادة التقرير

---

(١) فى ١١ : العصيان له .

والتهديد الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان أى والله لنخرجنك وأتباعك ﴿ من قريتنا ﴾ بغضا لكم ودفعا لفتنتكم المترتبة على المساكنة والجوار وقوله تعالى ﴿ أو لتعودن فى ملتنا ﴾ عطف على جواب القسم أى والله ليكون أحد الأمرين البتة على أن المقصد الأصلى هو العـــود وإنما ذكر النفى والإجلاء لمحض القسر والإلجاء كما يفصح عنه عدم تعرضه عليه السلام لجواب الإخراج كأنهم قالوا لا ندعكم فيما بيننا حتى تدخلوا فى ملتنا وإدخالهم له عليه السلام فى خطاب العود مع استحالة كونه عليه السلام فى ملتهم قبل ذلك إنما هو بطريق تغليب الجماعة على الواحد وإنما لم يقولوا أو لنعيدنكم على طريقة ما قبله لما أن مرادهم أن يعودوا إليها بصورة الطواعية حذار الإخراج باختيار أهون الشرين لا إعادتهم بسائر وجوه الإكراه والتعذيب .

﴿ قال ﴾ استئناف كما سبق أى قال عليه السلام ردا لمقالتهم الباطلة وتكذيبا لهم فى أيمانهم الفاجرة ﴿ أو لو كنا كارهين ﴾ على أن الهمزة لإنكار الوقوع ونفيه لا لإنكار الواقع واستقباحه كالتى فى قوله تعالى (أو لو جئتك بشىء مبين) ويجوز أن يكون الاستفهام فيه باقيا على حاله وقد مر مرارا أن كلمة لو فى مثل هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشىء فى الزمن الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف تعويلا على دلالة ما قبلها عليه ملاحظة قصدية إلا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعيه بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شىء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال وهذا المعنى ظاهر فى الخبر الموجب والمنفى والأمر والنهى كما فى

قولك فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا أو بخيل لا يعطى ولو كان غنيا وكقولك أحسن إليه ولو أساء إليك ولا تهنه ولو أهانك لبقائه على حاله سالما عما يغيره وأما فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء لتغيره بورود الإنكار عليه لكن الأصل فى الكل واحد إلا أن كلمة لو فى الصور المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال من ضميره أو مما يتعلق به وأن ما فى حيز لو مقرر على ما هو عليه من الاستبعاد بخلاف ما نحن فيه لما أن كلمة لو متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال هو مدلوله لا مدلول المذكور وأن الجملة حال من ضميره لا من ضمير المذكور كما سيأتى أو المقصود الأصلى إنكار مدلوله من حيث مقارنته للحالة المذكورة وأما تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وأن ما فى حيز لو لا يقصد استبعاده فى نفسه بل يقصد الإشعار بأنه أمر مقرر إلا أنه أخرج مخرج الاستبعاد مبالغة فى الإنكار من جهة أن العود مما ينكر عند كون الكراهة أمرا مستبعدا فكيف به عند كونها أمرا محققا ومعاملة مع المخاطبين على معتقدهم لاستنزالهم من رتبة العناد وليس المراد بالكراهة مجرد كراهة المؤمنين للعود فى ملة الكفر ابتداء حتى يقال إنها معلومة لهم فكيف تكون مستبعدة عندهم بل إنما هى كراهتهم له بعد وعيد الإخراج الذى جعل قرينا للقتل فى قوله تعالى (ولو أنا كتبنا) الآية فإنهم كانوا يستبعدونها ويطمعون فى أنهم حينئذ يختارون العود خشية الإخراج إذ رب مكروه يختار عند حلول ما هو أشد منه وأفظع والتقدير أنعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين غير مبالين بالاكراه فالجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير الفعل المقدر حسبما أشير إليه إذ مآله أنعود فيها حال عدم الكراهة وحال الكراهة إنكار لما تفيده كلمتهم الشنيعة بإطلاقها من العود على أى حالة كانت غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانية التى هى أشد الأحوال منافاة للعود وأكثرها بعدا منه تنبيها على أنها هى الواقعة فى نفس الأمر وثقة بإغنائها عن ذكر الأولى إغناء واضحا لان العود الذى تعلق به الإنكار حين تحقق مع الكراهة على

ما يوجبه كلامهم فلان يتحقق مع عدمها أولى إن قلت النفى المستفاد من الاستفهام الإنكارى فيما نحن فيه بمنزلة صريح النفى (١) ولا ريب فى أن الأولوية (٢) هناك معتبرة بالنسبة إلى النفى ألا يرى أن الأولى بالتحقق فيما ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الاعطاء لا نفسه فكان ينبغى أن يكون الأولى بالتحقيق فيما نحن فيه عند عدم الكراهة عدم العود لا نفسه إذ هو الذى يدل عليه قولنا أنعود لأنه فى معنى لا نعود فلم اختلف الحال بينهما قلت لما أن مناط الأولوية هو الحكم الذى أريد بيان تحققه على كل حال وذلك فى مثال النفى عدم الإعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور وأما فيما نحن فيه فهو نفس العود المستفاد من الفعل المقدر إذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق أعنى قولهم لتعودن وأما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لإبطال ما يفيده ونفى ما يقتضيه لا أنه من تمامه كما فى صورة النفى وتوضيحه أن بين النفيين فرقا معنويا تختلف به أحكامهما التى من جملتها ما ذكر من اعتبار الأولوية فى أحدهما بالنسبة إلى نفسه وفى الآخر بالنسبة إلى متعلقه ولذلك لا تستقيم إقامة أحدهما مقام الآخر على وجه الكلية ألا يرى أنك لو قلت مكان أنعود فيها الخ لا نعود فيها ولو كنا كارهين لاختل المعنى اختلالا فاحشا لأن مدلول الأول نفى العود المقيد بحال الكراهة ومدلول الثانى تقييد العود المنفى بها وذلك لان حرف النفى يباشر نفس الفعل وينفيه وما يذكر بعده يرجع إليه من حيث هو منفى وأما همزة الاستفهام فإنها تباشر الفعل بعد تقييده بما بعده لما أن دلالتها على الإنكار والنفى ليست بدلالة وضعية كدلالة حرف النفى حتى يتعلق معناها بنفس الفعل الذى يليها ويكون ما بعده راجعا إليه من حيث هو منفى بل هى دلالة عقلية مستفادة من سياق الكلام فلا بد أن يكون مايذكر بعد الفعل من موانعه ودواعى إنكاره ونفيه حتما ليكون قرينة صارفة للهمزة عن حقيقتها إلى معنى الإنكار والنفى ثم لما كان المقصود نفى الحكم على كل

---

(١) فى ١٠ : النفى الصريح . (٢) فى ١٠ : فى أنه الأولى هناك .

حال مع الاقتصار على ذكر بعض منها مغن عن ذكر ما عداها لاستلزام تحققه معه تحققه مع غيره بطريق الأولوية وكانت حال الكراهة عند كونها قيداً لنفس العود كذلك أى مغنيا عن ذكر سائر الأحوال ضرورة أن تحقق العود فى حال الكراهة مستلزم لتحققه فى حال عدمها البتة وعند كونها قيداً لنفيه بخلاف ذلك أى غير مغن عن ذكر غيرها ضرورة أن نفى العود فى حال الكراهة لا يستلزم نفيه فى غيرها بل الأمر بالعكس فإن نفيه فى حال الإرادة مستلزم لنفيه فى حال الكراهة قطعا استقام الأول لإفادته نفى العود فى الحالتين مع الاقتصار على ما ذكر ما هو مغن عن ذكر الأخرى ولم يستقم الثانى لعدم إفادته إياه على الوجه المذكور إن قيل فما وجه استقامتهما جميعا عند ذكر المعطوفين معا حيث يصح أن يقال لا نعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين كما يصح أن يقال أنعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين مع أن المقدر فى حكم الملفوظ قلنا وجهها أن كلا منهما يفيد معنى صحيحا فى نفسه لا أن معنى أحدهما عين معنى الآخر أو متلازمان متفقان فى جميع الأحكام كيف لا ومدلول الأول أن العود منتف فى الحالتين ومدلول الثانى أن العود فى الحالتين منتف وكلا المعنيين صحيح فى نفسه مصحح لنفى العود فى الحالتين مع ذكرهما معا غير أن الثانى مصحح لنفى العود فى الحالتين مع الاقتصار على ذكر حالة الكراهة على عكس المعنى الأول فإنه مصحح لنفيه فيهما مع الاقتصار على ذكر حالة الإرادة .

﴿ قد افترينا على الله كذبا ﴾ أى كذبا عظيما لا يقادر قدره ﴿ إن عدنا فى ملتكم ﴾ التى هى الشرك وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أى إن عدنا فى ملتكم ﴿ بعد إذ نجانا الله منها ﴾ فقد افترينا على الله كذبا عظيما حيث نزعم حينئذ أن الله تعالى ندا وليس كمثله شىء وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه من الإسلام باطل وأن ما كنتم عليه من الكفر حق وأى افتراء أعظم من ذلك وقيل إنه جواب قسم محذوف حذف عنه اللام تقديره والله لقد افترينا الخ ﴿ وما يكون لنا ﴾ أى وما يصح وما يستقيم لنا ﴿ أن نعوذ فيها ﴾

فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أى إلا حال مشيئة الله تعالى أى وقت مشيئته تعالى لعودنا فيها وذلك مما لا يكاد يكون كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ ربنا ﴾ فإن التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم مما ينبىء عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعا وكذا قوله تعالى (بعد إذ نجانا الله منها) فإن تنجيته تعالى لهم منها من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها وقيل معناه إلا أن يشاء الله خذلاننا وقيل فيه دليل على أن الكفر بمشيئته تعالى وأياما كان فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها فى حيز الإمكان وخطر الوقوع بناء على كون مشيئته تعالى كذلك بل بيان استحالة وقوعها كأنه قيل وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وهيهات ذلك بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له ﴿ وسع ربنا كل شىء علما ﴾ فهو محيط بكل ما كان وما سيكون من الأشياء التى من جملتها أحوال عباده وعزائمهم ونياتهم وما هو اللائق بكل واحد منهم فمحال من لطفه أن يشاء عودنا فيها بعد ما نجانا منها مع اعتصامنا به خاصة حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿على الله توكلنا﴾ أى فى أن يثبتنا على ما نحن عليه من الإيمان ويتم علينا نعمته بإنجائنا من الإشراك بالكلية وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار للمبالغة فى التضرع والجؤار وقوله تعالى ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ إعراض عن مقاولتهم إثر ما ظهر له عليه الصلاة والسلام أنهم من العتو والعناد بحيث لا يتصور منهم الإيمان أصلا وإقبال على الله تعالى بالدعاء لفصل ما بينه بما يليق بحال كل من الفريقين أى الحكم بيننا بالحق والفتاحة الحكومة أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل من فتح المشكل إذا بينه ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله على المعنيين .

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ عطف على قال الملأ الذين الخ ولعل هؤلاء غير أولئك المستكبرين ودونهم فى الرتبة شأنهم الوساطة بينهم وبين العامة والقيام بأمورهم حسبما يراه المستكبرون ويجوز أن يكون عين الأولين وتغيير الصلة لما أن مدار قولهم هذا هو الكفر كما أن مناط قولهم السابق هو

الاستكبار أى قال أشرافهم الذين أصروا على الكفر لأعقابهم بعدما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين فى الإيمان وخافوا أن يستتبعوا قومهم تثبيطا لهم عن الإيمان به وتنفيراً لهم عنه على طريقة التوكيد القسمى والله ﴿لئن اتبعتم شعيبا﴾ ودخلتم فى دينه وتركتم دين آبائكم ﴿إنكم لخاسرون﴾ أى فى الدين لاشترائكم الضلالة بهداكم أو فى الدنيا لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف وإذن حرف جواب وجزاء معترض بين اسم إن وخبرها والجملة سادة مسد جوابى الشرط والقسم الذى وطأته اللام ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أى الزلزلة وهكذا فى سورة العنكبوت وفى سورة هود وأخذت الذين ظلموا الصيحة أى صيحة جبريل عليه السلام ولعلها من مبادىء الرجفة فأسند هلاكهم إلى السبب القريب تارة وإلى البعد أخرى ﴿فأصبحوا فى دارهم﴾ أى فى مدينتهم وفى سورة هود فى ديارهم ﴿جاثمين﴾ أى ميتين لازمين لأماكنهم لا براح لهم منها ﴿الذين كذبوا شعيبا﴾ استئناف لبيان ابتلائهم بشوم قولهم فيما سبق لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا وعقوبتهم بمقابلته والموصول مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أى استؤصلوا بالمرة وصاروا كأنهم لم يقيموا بقريتهم أصلا أى عوقبوا بقولهم ذلك وصاروا هم المخرجين من القرية إخراجا لا دخول بعده أبدا وقوله تعالى ﴿الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾ استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير وإعادة الموصول والصلة كما هى لزيادة التقرير والإيذان بأن ما ذكر فى حيز الصلة هو الذى استوجب العقوبتين أى الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بمقالتهم الأخيرة فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لا المتبعون له عليه الصلاة والسلام وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بإنجائه عليه الصلاة والسلام كما وقع فى سورة هود من قوله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه) الخ .

﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم﴾ قاله عليه الصلاة والسلام بعد ما هلكوا تأسفا بهم[1] لشدة حزنه عليهم ثم أنكر

(١) فى ٣٤٠ : أسفا بهم .

على نفسه ذلك فقال ﴿فكيف آسى﴾ أحزن حزنا شديدا ﴿على قوم كافرين﴾ أى مصرين على الكفر ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم أو قاله اعتذارا عن عدم شدة حزنه عليهم والمعنى لقد بالغت فى الإبلاغ والإنذار وبذلت وسعى فى النصح والإشفاق فلم تصدقوا قولى فكيف آسى عليكم وقرىء ايسى بإمالتين .

الأمم مع الأنبياء بوجه عام

﴿وما أرسلنا فى قرية من نبى﴾ إشارة إجمالية إلى بيان أحوال سائر الأمم إثر بيان أحوال الأمم المذكورة تفصيلا ومن مزيدة لتأكيد النفى والصفة محذوفة أى من نبى كذب أو كذبه أهلها ﴿إلا أخذنا أهلها﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال وأخذنا فى محل النصب من فاعل أرسلنا وللفعل الماضى لا يقع بعد إلا بأحد شرطين إما تقدير قد كما فى هذه الآية أو مقارنة قد كما فى قولك مازيد إلا قد قام والتقدير وما أرسلنا فى قرية من القرى المهلكة نبيا من الأنبياء فى حال من الأحوال إلا حال كوننا آخذين أهلها ﴿بالبأساء﴾ بالبؤس والفقر ﴿والضراء﴾ بالضر والمرض لكن لا على معنى أن ابتداء الإرسال مقارن للأخذ المذكور بل على أنه مستتبع له غير منفك عنه بالآخرة لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه حسبما فعلت الأمم المذكورة ﴿لعلهم يضرعون﴾ كى يتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر والعزة عن أكتافهم كقوله تعالى (لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) ﴿ثم بدلنا﴾ عطف على أخذنا داخل فى حكمه ﴿مكان السيئة﴾ التى أصابتهم للغاية المذكورة ﴿الحسنة﴾ أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة كقوله تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) ﴿حتى عفوا﴾ أى كثروا عددا وعددا من عفا النبات إذا كثر وتكاثف وأبطرتهم النعمة ﴿وقالوا﴾ غير واقفين على أن ما أصابهم من الأمرين ابتلاء من الله سبحانه ﴿قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ كما مسنا ذلك وما هو إلا من عادة الدهر يعاقب فى الناس بين الضراء والسراء

من غير أن يكون هناك داعية تؤدى إليهما أو تبعة تترتب عليهما ولعل تأخير السراء للإشعار بأنها تعقب الضراء فلا ضير فيها ﴿فأخذناهم﴾ إثر ذلك ﴿بغتة﴾ فجأة أشد الأخذ وأفظعه ﴿وهم لا يشعرون﴾ بذلك ولا يخطر ببالهم شيئاً من المكاره كقوله تعالى (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) الاية وليس المراد بالأخذ بغتة إهلاكهم طرفة عين كإهلاك عاد وقوم لوط بل ما يعمه وما يمضى بين الأخذ وإتمام الإهلاك أيام كدأب ثمود .

﴿ولو أن أهل القرى﴾ أى القرى المهلكة المدلول عليها بقوله تعالى فى قرية وقيل هى مكة وما حولها من القرى المنتظمة لما ذكر ههنا انتظاما أوليا ﴿آمنوا﴾ بما أوحى إلى أنبيائهم معتبرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالضراء والسراء ﴿واتقوا﴾ أى الكفر والمعاصى أو اتقوا ما أنذروا به على ألسنة الأنبياء ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ولم يحملوا ابتلاء الله تعالى على عادات الدهر ؛ وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وحدوا الله واتقوا الشرك ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التى بعضها من السماء وبعضها من الأرض وقيل المراد المطر والنبات وقرىء لفتحنا بالتشديد للتكثير ﴿ولكن كذبوا﴾ أى ولكن لم يؤمنوا ولم يتقوا وقد اكتفى بذكر الأول لاستلزامه للثانى ﴿فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ من أنواع الكفر والمعاصى التى من جملتها قولهم قد مس آباءنا الخ وهذا الأخذ عبارة عما فى قوله تعالى (فأخذناهم بغتة) لا عن الجدب والقحط كما قيل فإنهما قد زالا بتبديل الحسنة مكان السيئة ﴿أفأمن أهل القرى﴾ أى أهل القرى المذكورة على وضع المظهر موضع المضمر للإيذان بأن مدار التوبيخ أمن كل طائفة ما أتاهم من البأس لا أمن مجموع الأمم فإن كل طائفة منهم أصابهم بأس خاص بهم لا يتعداهم إلى غيرهم كما سيأتى والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه لا لإنكار الوقوع ونفيه كما قاله أبو شامة وغيره لقوله تعالى (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) والفاء للعطف على أخذناهم وما بينهما اعتراض توسط بينهما للمسارعة إلى بيان أن الأخذ المذكور مما

كسبته أيديهم والمعنى أبعد ذلك الأخذ أمن أهل القرى ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتا﴾ أى تبييتا أو وقت بيات أن مبيتا أو مبيتين وهو فى الأصل مصدر بمعنى البيتوتة ويجىء بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ﴿وهم نائمون﴾ حال من ضميرهم البارز أو المستتر فى بياتا ﴿أوأمن أهل القرى﴾ إنكار بعد إنكار للمبالغة فى التوبيخ والتشديد ولذلك لم يقل أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون وقرىء أو بسكون الواو على الترديد ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾ أى ضحوة النهار وهو فى الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت ﴿وهم يلعبون﴾ أى يلهون من فرط الغفلة أو يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ تكرير للتنكير لزيادة التقرير ومكر الله تعالى استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب والمراد به إتيان بأسه تعالى فى الوقتين المذكورين ولذلك عطف الأول والثالث بالفاء فى الإنكار فيهما متوجه إلى ترتب الأمن على الأخذ المذكور وأما الثانى فمن تتمة الأول ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ أى الذين خسروا أنفسهم وأضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها والاستعداد القريب المستفاد من النظر فى الآيات ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ أى يخلفون من خلا قبلهم من الأمم المهلكة ويرثون ديارهم والمراد بهم أهل مكة ومن حولها وتعدية فعل الهداية باللام إما لتنزيلها منزلة اللازم كأنه قيل أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم الخ وإما لأنها بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل على التقديرين هو الجملة الشرطية أى أو لم يبين لهم مآل أمرهم ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ أى أن الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم أو بسبب ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وقرىء نهد بنون العظمة فالجملة مفعولة ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ عطف على ما يفهم من قوله تعالى (أولم يهد) كأنه قيل لا يهتدون أو يغفلون عن الهداية أو عن التفكر والتأمل أو منقطع عنه بمعنى ونحن نطبع ولا يجوز عطفه على أصبناهم على أنه بمعنى طبعنا لإفضائه إلى نفى الطبع عنهم لأنه فى سياق جواب لو ﴿فهم لا يسمعون﴾ أى أخبار الأمم المهلكة فضلا عن التدبر والنظر فيها والاغتنام بما فى تضاعيفها من الهداية .

﴿ تلك القرى ﴾ جملة مستأنفة جارية مجرى الفذلكة لما قبلها من القصص منبئة عن غاية غواية الأمم المذكورة وتماديهم فيها بعد ماأتتهم الرسل بالمعجزات الباهرة وتلك إشارة إلى قرى الأمم المهلكة على أن اللام للعهد وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ نقص عليك من أنبائها ﴾ خبره وصيغة المضارع للإيذان بعدم انقضاء القصة بعد ومن للتبعيض أى بعض أخبارها التى فيها عظة وتذكير وقيل تلك مبتدأ والقرى خبره وما بعده حال أو خبر بعد خبر عند من يجوز كون الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى (فإذا هى حية تسعى) وتصدير الكلام بذكر القرى وإضافة الأنباء إليها مع أن المقصوص أنباء أهلها والمقصود بيان أحوالهم حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ لما أن حكاية هلاكهم بالمرة على وجه الاستئصال بحيث يشمل أماكنهم أيضا بالخسف بها والرجفة وبقائها خاوية معطلة أهول وأفظع والباء فى قوله تعالى بالبينات متعلقة إما بالفعل المذكور على أنها للتعدية وإما بمحذوف وقع حالا من فاعله أى ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة حسب اقتضاء الحكمة فإن مراعاة انقسام الآحاد إنما هى فيما بين الرسل وضمير الأمم والجملة مستأنفة مبينة لكمال عتوهم وعنادهم أى وبالله لقد جاء كل أمة من تلك الأمم المهلكة رسولهم الخاص بهم بالمعجزات البينة المتكاثرة المتواردة عليهم الواضحة الدلالة على صحة رسالته الموجبة للإيمان حتما وقوله تعالى ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ بيان لاستمرار عدم إيمانهم فى الزمان الماضى لا لعدم استمرار إيمانهم وترتيب حالتهم هذه على مجىء الرسل بالبينات بالفاء لما أن الاستمرار على فعل من الأفعال بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمراراً عليه فى الحقيقة لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث نحو وعظته فلم يزدجر ودعوته فلم يجب واللام لتأكيد النفى أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام فى وقت من الأوقات أن يؤمنوا بكل وكان ذلك ممتنعا منهم إلى أن لقوا ما لقوا لغاية عتوهم وشدة شكيمتهم فى الكفر والطغيان ثم إن كان المحكى عنهم آخر حال كل قوم منهم فالمراد بعدم إيمانهم المذكور ههنا

إصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتى وبما أشير إليه بقوله تعالى ﴿ بما كذبوا من قبل ﴾ تكذيبهم من لدن مجىء الرسل إلى وقت الإصرار والعناد وإنما لم يجعل ذلك مقصوداً بالذات كالأول بل جعل صلة للموصول إيذانا بأنه بين بنفسه وإنما المحتاج إلى البيان عدم إيمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم إلى القبول لو كانوا من أصحاب العقول والموصول الذى تعلق به الإيمان والتكذيب سلبا وإيجاباً عبارة عن جميع الشرائع التى جاء بها كل رسول أصولها وفروعها وإن كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أو لا كفرهم المستمر من حين مجىء الرسل الخ وبما أشير إليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلابد من جعل الموصول المذكور عبارة عن أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم إليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجىء رسلهم أنهم ماكانوا فى زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا كلمة التوحيد قط بل كانت كل أمة من أولئك الأمم يتسامعون بها من بقايا من قبلهم فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجىء رسلهم كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث إليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الإيمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فإنهم حين لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل التكذيب مقصودا بالذات لما أن ماعليه يدور فلك العذاب والعقاب هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وإنما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى كلا التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع إلى أسلافهم والمعنى فما كان الأبناء ليؤمنوا بما كذب به الآباء ولا يخفى ما فيه من التعسف وقيل المراد ما كانوا ليؤمنوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف بما كذبوا من قبل كقوله تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) وقيل الباء للسببية وما مصدرية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يرد عليه ههنا ما ورد فى سورة يونس من مخالفة الجمهور

بجعل ما المصدرية من قبيل الأسماء كما هو رأى الأخفش وابن السراج ليرجع إليه الضمير فى به ·

﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الطبع الشديد المحكم ﴿ يطبع الله قلوب الكافرين ﴾ أى من المذكورين وغيرهم فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر وفيه تحذير للسامعين وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وإدخال الروعة ﴿ وما وجدنا لأكثرهم ﴾ أى أكثر الأمم المذكورين واللام متعلقة بالوجدان كما فى قولك ما وجدت له مالا أى ما صادفت له مالا ولا لقيته أو بمحذوف وقع حالا من قوله تعالى ﴿ من عهد ﴾ لأنه فى الأصل صفة للنكرة فلما قدمت عليها انتصبت حالا والأصل ما وجدنا عهدا كائنا لأكثرهم ومن وفاء عهد فإنهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه عند مساس البأساء والضراء قائلين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فتخصيص هذا الشأن بأكثرهم ليس لأن بعضهم كانوا يوفون بعهودهم بل لأن بعضهم كانوا لا يعهدون ولا يوفون وقيل المراد بالعهد ما عهد الله تعالى إليهم من الإيمان والتقوى بنصب الآيات وإنزال الحجج وقيل ماعهدوا عند خطاب ألست بربكم فالمراد بأكثرهم كلهم وقيل الضمير للناس والجملة اعتراض فإن أكثرهم لا يوفون بالعهد بأى معنى كان ﴿ وإن وجدنا أكثرهم ﴾ أى أكثر الأمم أى علمناهم كما فى قولك وجدت زيداً ذا حفاظ وقيل الأول أيضا كذلك وإن مخففة من إن وضمير الشأن محذوف أى أن الشأن وجدناهم ﴿ لفاسقين ﴾ خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود وعند الكوفيين أن إن نافية واللام بمعنى إلا أى ما وجدناهم إلا فاسقين .

موسى وفرعون

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى ﴾ أى أرسلناه من بعد انقضاء وقائع الرسل المذكورين أو من بعد هلاك الأمم المحكية والتصريح بذلك مع دلالة ثم على على التراخى للإيذان بأن بعثه عليه الصلاة والسلام جرى على سنن السنه الالاهية

من إرسال الرسل تترى وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ﴿ بآياتنا ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا أو صفة لمصدره أى بعثناه عليه الصلاة والسلام ملتبسا بآياتنا أو بعثناه بعثا ملتبسا بها وهى الآيات التسع المفصلات التى هى : العصا ، واليد البيضاء ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان(١) ، والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم ، حسبما سيأتى على التفصيل ﴿ إلى فرعون ﴾ هو لقب لكل من ملك مصر من العمالقة كما أن كسرى لقب لكل من ملك فارس وقيصر لكل من ملك الروم واسمه قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان ﴿ وملئه ﴾ أى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر مع عموم رسالته عليه الصلاة والسلام لقومه كافة حيث كانوا جميعاً مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية وتقبلها منه فئته الباغية لأصالتهم فى تدبير الأمور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور ﴿ فظلموا بها ﴾ أى كفروا بها أجرى الظلم مجرى الكفر لكونهما من واد واحد أو ضمن معنى الكفر أو التكذيب أى ظلموا كافرين بها أو مكذبين بها أو كفروا بها مكان الإيمان الذى هو من حقها لوضوحها ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا وقيل ظلموا أنفسهم بسببها بأن عرضوها للعذاب الخالد أو ظلموا الناس بصدهم عن الإيمان بها والمراد به الاستمرار على الكفر بها إلى أن لقوا من العذاب ما لقوا ألا يرى إلى قوله تعالى ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ فكما أن ظلمهم بها مستتبع لتلك العاقبة الهائلة كذلك حكاية ظلمهم بها مستتبع للأمر بالنظر إليها وكيف خبر كان قدم على اسمها لاقتضائه الصدارة والجملة فى حيز النصب بإسقاط الخافض أى فانظر بعين عقلك إلى كيفية ما فعلنا بهم ووضع المفسدين موضع ضميرهم للإيذان بأن الظلم مستلزم للإفساد .

﴿ وقال موسى ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتفصيل ما أجمل فيما قبله من كيفية

---

(١) بل كان الطوفان فى عهد نوح وهو الأعظم ، وهذا خلافه .

إظهار الآيات وكيفية عاقبة المفسدين ﴿ يا فرعون إنى رسول ﴾ أى إليك ﴿ من رب العالمين ﴾ على الوجه الذى مر بيانه ﴿ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ جواب عما ينساق إليه الذهن من حكاية ظلمهم بالآيات من تكذيبه إياه عليه الصلاة والسلام فى دعوى الرسالة وكان أصله حقيق على أن لا أقول الخ كما هو قراءة نافع فقلب للأمن من الإلباس كما فى قول من قال «وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر» أو لأن ما لزمك فقد لزمته أو للإغراق فى الوصف بالصدق والمعنى واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لا يرضى إلا بمثلى ناطقا به أو ضمن حقيق معنى حريص أو وضع على موضع الباء لإفادة التمكن كقولهم رميت على القوس وجئت على حال حسنة ويؤيده قراءة أبى بالباء وقرىء حقيق أن لا أقول وقوله تعالى ﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم ﴾ استئناف مقرر لما قبله من كونه رسولا من رب العالمين[1] وكونه حقيقا بقول الحق ولم يكن هذا القول منه عليه الصلاة والسلام وما بعده من جواب فرعون إثر ما ذكر ههنا بل بعد ما جرى بينهما من المحاورة المحكية بقوله تعالى (قال فمن ربكما) الآيات وقوله تعالى (وما رب العالمين) الآيات وقد طوى ههنا ذكره للإيجاز ومن متعلقة إما بجئتكم على أنها لابتداء الغاية مجازا وإما بمحذوف وقع صفة لبينة مفيدة لفخامتها الإضافية المؤكدة لفخامتها الذاتية المستفادة من التنوين التفخيمى وإضافة اسم الرب إلى المخاطبين بعد إضافته فيما قبله إلى العالمين لتأكيد وجوب الإيمان بها ﴿ فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ أى خلهم حتى يذهبوا معى إلى الأرض المقدسة التى هى وطن آبائهم وكان قد استعبدهم بعد انقراض الأسباط يستعملهم ويكلفهم الأفاعيل الشاقة فأنقذهم الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام وكان بين اليوم الذى دخل يوسف مصر واليوم الذى دخله موسى عليهما السلام أربعمائة عام والفاء لترتيب الإرسال أو الأمر به على ما قبله من رسالته عليه السلام ومجيئه بالبينة .

---

(١) فى ٤٣٠ : من أنه رسول رب العالمين .

﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الكلام كأنه قيل فماذا قال فرعون له عليه السلام حين قال له ما قال فقيل قال ﴿ إن كنت جئت بآية ﴾ أى من عند من أرسلك كما تدعيه ﴿ فأت بها ﴾ أى فأحضرها حتى تثبت بها رسالتك ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فى دعواك فإن كونك من جملة المعروفين بالصدق يقتضى إظهار الآية لا محالة ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ﴾ أى ظاهر أمره لا يشك فى كونه ثعبانا وهو الحية العظيمة وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على كمال سرعة الانقلاب وثبات وصف الثعبانية فيها كأنها فى الأصل كذلك . وروى أنه لما ألقاها صارت ثعبانا أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث فانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذه فعاد عصا ﴿ ونزع يده ﴾ أى من جيبه أو من تحت إبطه ﴿ فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ أى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمرها وذلك ما يروى أنه أرى فرعون يده وقال ما هذه فقال يدك ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فإذا هى بيضاء بياضا نورانيا غلب شعاعه شعاع الشمس وكان عليه السلام آدم شديد الأدمة وقيل بيضاء للناظرين لا أنها كانت بيضاء فى جبلتها .

﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ أى الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ أى مبالغ فى علم السحر ماهر فيه قالوه تصديقا لفرعون وتقريراً لكلامه فإن هذا القول بعينه معزى فى سورة الشعراء إليه ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ أى من أرض مصر ﴿ فماذا تأمرون ﴾ بفتح النون وما فى ماذا فى محل النصب على أنه مفعول ثان لتأمرون بحذف الجار والأول محذوف والتقدير بأى شىء تأمرونى وهذا من كلام فرعون كما فى قوله تعالى (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) أى فإذا كان كذلك فماذا تشيرون على فى أمره وقيل قاله الملأ من قبله بطريق التبليغ إلى العامة فقوله تعالى ﴿ قالوا أرجه

وأخاه ﴾ على الأول وهو الأظهر حكاية لكلام الملأ الذين شاورهم فرعون وعلى الثانى لكلام العامة الذين خاطبهم الملأ ويأباه أن الخطاب لفرعون وأن المشاورة ليست وظائفهم أى أخره وأخاه وعدم التعرض لذكره لظهور كونه معه حسبما تنادى به الآيات الأخر والمعنى أخر أمرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبر شأنهما وقرىء أرجئه وأرجه من أرجأه وأرجاه ﴿ وأرسل فى المدائن حاشرين ﴾ قيل هى مدائن صعيد مصر وكان رؤساء السحرة ومهرتهم بأقصى مدائن الصعيد وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم كانوا سبعين ساحرا أخذوا السحر من رجلين مجوسيين من أهل نينوى مدينة يونس عليه السلام بالموصل ورد ذلك بأن المجوسية ظهرت بزرادشت وهو إنما جاء بعد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ أى ماهر فى السحر وقرىء بكل سحار عليم والجملة جواب الأمر ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ بعد ما أرسل إليهم الحاشرين وإنما لم يصرح به حسبما فى قوله تعالى (فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين) للإيذان بمسارعة فرعون إلى الإرسال ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الامتثال .

﴿ قالوا ﴾ استئناف منوط بسؤال نشأ من مجىء السحرة كأنه قيل فماذا قالوا له عند مجيئهم إياه فقيل قالوا مدلين بما عندهم واثقين بغلبتهم ﴿ إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ بطريق الإخبار بثبوت الأجر وإيجابه كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر عظيم حينئذ أو بطريق الاستفهام التقريرى بحذف الهمزة وقرىء بإثباتها وقولهم إن كنا لمجرد تعيين مناط ثبوت الأجر لا لترددهم فى الغلبة وتوسيط الضمير وتحلية الخبر باللام للقصر[1] أى إن كنا نحن الغالبين لا موسى ﴿ قال نعم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴾ عطف على محذوف سد مسده حرف الإيجاب كأنه قال إن لكم لأجرا وإنكم مع ذلك لمن المقربين للمبالغة فى الترغيب . روى أنه قال لهم تكونون أول من يدخل مجلسى وآخر

---

(١) فى ١٠ : بلام القصر .

من يخرج منه ﴿ قالوا ﴾ استئناف كما مر كأنه قيل فماذا فعلوا بعد ذلك فقيل قالوا متصدين لشأنهم مخاطبين لموسى عليه السلام ﴿ ياموسى إما أن تلقى ﴾ ما تلقى أولا ﴿ وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ أى لما نلقى أولا أو الفاعلين للإلقاء أولا خيروه عليه السلام بالبدء بالإلقاء مراعاة للأدب وإظهارا للجلادة[1] وأنه لا يختلف حالهم بالتقديم والتأخير ولكن كانت رغبتهم فى التقديم كما ينبىء عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل وتأكيد الضمير المتصل ﴿ قال ألقوا ﴾ غير مبال بأمرهم أى ألقوا ما تلقون ﴿ فلما ألقوا ﴾ ما ألقوا ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ بأن خيلوا إليهم ما لا حقيقة له ﴿ واسترهبوهم ﴾ أى بالغوا فى إرهابهم ﴿ وجاءوا بسحر عظيم ﴾ فى بابه . روى أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا كأنها حيات ملأت الوادى وركب بعضها بعضا .

﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾ الفاء فصيحة أى فألقاها فصارت حية فإذا هى الآية وإنما حذف للإشعار بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب كأن لقفها لما يأفكون قد حصل متصلا بالأمر بالإلقاء وصيغة المضارع لاستحضار صورة اللقف الهائلة والإفك الصرف والقلب عن الوجه المعتاد وما موصولة أو موصوفة والعائد محذوف أى ما يأفكونه ويزورونه أو مصدرية وهى مع الفعل بمعنى المفعول روى أنها لما تلقفت ملء الوادى من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصا كما كانت وأعدم الله تعالى بقدرته الباهرة تلك الأجرام العظام أو فرقها أجزاء لطيفة قالت السحرة لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ﴿ فوقع الحق ﴾ أى فثبت لظهور أمره ﴿ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ أى ظهر بطلان ما كانوا مستمرين على عمله ﴿ فغلبوا ﴾ أى فرعون وقومه ﴿ هنالك ﴾

(١) فى ١٠ : الجلد .

أى فى مجلسهم ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ أى صاروا أذلاء مبهوتين أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين والأول هو الظاهر لقوله تعالى ﴿ وألقى السحرة ساجدين ﴾ فإن ذلك كان بمحضر من فرعون قطعا أى خروا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم كيف لا وقد بهرهم الحق واضطرهم إلى ذلك ﴿ قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون ﴾ أبدلوا الثانى من الأول لئلا يتوهم أن مرادهم فرعون . عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما آمنت السحرة اتبع موسى من بنى اسرائيل ستمائة ألف .

﴿ قال فرعون ﴾ منكرا على السحرة موبخا لهم على ما فعلوه ﴿ آمنتم به ﴾ بهمزة واحدة إما على الإخبار المحض المتضمن للتوبيخ أو على الاستفهام التوبيخى بحذف الهمزة كما مر فى أن لنا لأجرا وقد قرىء بتحقيق الهمزتين معا وبتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين أى آمنتم بالله تعالى ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ أى بغير أن آذن لكم كما فى قوله تعالى (لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى) لا أن الإذن منه ممكن فى ذلك ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه ﴾ يعنى أن ماصنعتموه ليس مما اقتضى الحال صدوره عنكم لقوة الدليل وظهور المعجزة بل هو حيلة احتلتموها مع مواطأة موسى ﴿ فى المدينة ﴾ يعنى مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد . روى أن موسى عليه الصلاة والسلام وأمير السحرة التقيا فقال له موسى أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ما جئت به الحق فقال الساحر والله لئن غلبتنى لأومنن بك وفرعون يسمعها وهو الذى نشأ عنه هذا القول ﴿ لتخرجوا منها أهلها ﴾ أى القبط[1] وتخلص هى لك ولبنى اسرائيل وهاتان شبهتان ألقاهما إلى أسماع عوام القبط عند معاينتهم لارتفاع أعلام المعجزة ومشاهدتهم لخضوع أعناق السحرة لها وعدم تمالكهم من أن يؤمنوا بها ليمنعهم بهما عن الإيمان بنبوة موسى عليه الصلاة والسلام بإراءة أن إيمان

---

(١) فى ١٠ : أى قبط مصر .

السحرة مبنى على المواضعة بينهم وبين موسى وأن غرضهم بذلك إخراج القوم من المدينة و إبطال ملكهم ومعلوم أن مفارقة الأوطان المألوفة والنعمة المعروفة مما لا يطاق به فجمع اللعين بين الشبهتين تثبيتاً للقبط على ما هم عليه وتهييجاً لعداوتهم له عليه الصلاة والسلام ثم عقبهما بالوعيد ليريهم أن له قوة وقدرة على المدافعة فقال ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أى عاقبة ما فعلتم وهذا وعيد ساقه بطريق الإجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل وقال ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ أى من كل شق طرفا ﴿ ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ تفضيحا لكم وتنكيلا لأمثالكم[1] . وقيل هو أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى لقطاع الطريق تعظيما لجرمهم ولذلك سماه الله تعالى محاربة لله ورسوله .

﴿ قالوا ﴾ استئناف مسوق للجواب عن سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل فماذا قال السحرة عند ما سمعوا وعيد فرعون هل تأثروا به أو تصلبوا فيما هم فيه من الدين فقيل قالوا ثابتين على ما أحدثوا من الإيمان ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أى بالموت لا محالة فسواء كان ذلك من قبلك أولا فلا نبالى بوعيدك أو إنا إلى رحمة ربنا وثوابه منقلبون إن فعلت بنا ذلك كأنهم استطابوه شغفا على لقاء الله تعالى أو إنا جميعا إلى ربنا منقلبون فيحكم بيننا وبينك ﴿ وما تنقم منا ﴾ أى وما تنكر وتعيب منا ﴿ إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ وهو خير الأعمال وأصل المفاخر ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلبا لمرضاتك ثم أعرضوا عن مخاطبته إظهاراً لما فى قلوبهم من العزيمة على ما قالوا وتقريرا له ففزعوا إلى الله عز وجل وقالوا ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا ﴾ أى أفض علينا من الصبر ما يغمرنا كما يغمر الماء أو صب علينا ما يطهرنا من أوضار الأوزار وأدناس الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ ثابتين على ما رزقنا من الإسلام غير مفتونين من الوعيد قيل فعل بهم ما أوعدهم به وقيل لم يقدر عليه لقوله تعالى (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) .

---

(١) فى ١٠ ، ٤٣٠ : بأمثالكم .

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون ﴾ مخاطبين له بعد ما شاهدوا من أمر موسى عليه السلام ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ﴾ أى فى أرض مصر بتغيير الناس عليك وصرفهم عن متابعتك ﴿ ويذرك ﴾ عطف على يفسدوا أو جواب الاستفهام بالواو كما فى قول الحطيئة :

ألم أك جاركم ويكون بينى وبينكم المودة والإخاء

أى أيكون منك ترك موسى ويكون تركه إياك وقرىء بالرفع عطفا على أتذر أو استئنافا أو حالا وقرىء بالسكون كأنه قيل يفسدوا ويذرك كقوله تعالى (فأصدق وأكن) ﴿ وآلهتك ﴾ ومعبوداتك قيل إنه كان يعبد الكواكب وقيل صنع لقومه أصناما وأمرهم بأن يعبدوها تقربا إليه ولذلك قال أنا ربكم الأعلى وقرىء وآلهتك أى عبادتك ﴿ قال ﴾ مجيباً لهم ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾ كما كنا نفعل بهم ذلك من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه وقرىء سنقتل بالتخفيف ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ كما كنا لم يتغير حالنا اصلا وهم مقهورون تحت أيدينا كذلك ﴿ قال موسى لقومه ﴾ تسلية لهم وعدة بحسن العاقبة حين سمعوا قول فرعون وتضجروا منه ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ على ما سمعتم من أقاويله الباطلة ﴿ إن الأرض لله ﴾ أى أرض مصر أو جنس الأرض وهى داخلة فيها دخولا أوليا ﴿ يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ الذين أنتم منهم وفيه إيذان بأن الاستعانة بالله تعالى والصبر من باب التقوى وقرىء والعاقبة بالنصب عطفاً على اسم إن.

﴿ قالوا ﴾ أى بنو اسرائيل ﴿ أوذينا ﴾ أى من جهة فرعون ﴿ من قبل أن تأتينا ﴾ أى بالرسالة يعنون بذلك قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه الصلاة والسلام وبعده ﴿ ومن بعد ما جئتنا ﴾ أى رسولا يعنون به ما توعدهم به من إعادة قتل الأبناء وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجور والظلم والعذاب وأما ما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع

الخدم والمهن كما قيل فليس مما يلحقهم بواسطته عليه السلام فليس لذكره كثير ملابسة بالمقام ﴿ قال ﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام لما رأى شدة جزعهم مما شاهدوه مسليا لهم بالتصريح بما لوح به فى قوله إن الأرض لله الخ ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ الذى فعل بكم ما فعل وتوعدكم بإعادته ﴿ ويستخلفكم فى الأرض ﴾ أى يجعلكم خلفاء فى أرض مصر ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ أحسنا أم قبيحا فيجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال وفيه تأكيد للتسلية وتحقيق للأمر قيل لعل الإتيان بفعل الطمع لعدم الجزم منه عليه السلام بأنهم هم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم فقد روى أن مصر إنما فتحت فى زمن داود عليه السلام ولا يساعده قوله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها) فإن المتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لا استخلاف أولادهم وإنما مجىء فعل الطمع للجرى على سنن الكبرياء ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ شروع فى تفصيل مبادى الهلاك الموعود وإيذان بأنه تعالى لم يمهلهم بعد ذلك ولم يكونوا فى خفض ودعة بل رتبت أسباب هلاكهم فتحولوا من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال وتصدير الجملة بالقسم لإظهار الاعتناء بمضمونها والسنون جمع سنة والمراد بها عام القحط وفيها لغتان أشهرهما إجراؤها مجرى المذكر السالم فيرفع بالواو وينصب ويجر بالياء ويحذف نونه بالإضافة واللغة الثانية إجراء الإعراب على النون ولكن مع الياء خاصة إما بإثبات تنوينها أو بحذفه قال الفراء هى فى هذه اللغة مصروفة عند بنى عامر وغير مصروفة عند بنى تميم ووجه حذف التنوين التخفيف وحينئذ لا يحذف النون للاضافة وعلى ذلك جاء قول الشاعر :

دعانى من نجد فإن سنينه ... لعبن بنا شيبا وشيبننا مردا

وجاء الحديث اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف وسنين كسنين يوسف باللغتين ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ بإصابة العاهات عن كعب يأتى على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا ثمرة ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أما السنون

فكانت لباديتهم وأهل ماشيتهم وأما نقص الثمرات فكان فى أمصارهم ﴿لعلهم يذكرون﴾ كى يتذكروا ويتعظوا بذلك ويقفوا على أن ذلك لأجل معاصيهم وينزجروا عما هم عليه من العتو والعناد . قال الزجاج إن أحوال الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل وفى الرجوع إليه تعالى ألا يرى إلى قوله تعالى (وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) وقد مر تحقيق القول فى لعل وفى محلها فى تفسير قوله تعالى (لعلكم تتقون) فى أوائل سورة البقرة وقوله تعالى ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ الخ بيان لعدم تذكرهم وتماديهم فى الغى أى فإذا جاءتهم السعة والخصب وغيرهما من الخيرات ﴿قالوا لنا هذه﴾ أى لأجلنا واستحقاقنا لها ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أى جدب وبلاء ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أى يتشاءموا بهم ويقولوا ما أصابتنا إلا بشؤمهم وهذا كما ترى شاهد بكمال قساوة قلوبهم ونهاية جهلهم وغباوتهم فإن الشدائد ترقق القلوب وتلين العرائك لا سيما بعد مشاهدة الآيات وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شىء منها بل ازدادوا عتوا وعنادا وتعريف الحسنة وذكرها بأداة التحقيق للإيذان بكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بها بالذات كما أن تنكير السيئة وإيرادها بحرف الشك للإشعار بندرة وقوعها وعدم تعلق الإرادة بها إلا بالعرض وقوله تعالى ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ استئناف مسوق[1] من قبله تعالى لرد مقالتهم الباطلة وتحقيق الحق فى ذلك وتصديره بكلمة التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمونه أى ليس سبب خيرهم إلا عنده تعالى وهو حكمه ومشيئته المتضمنة للحكم والمصالح أو ليس سبب شؤمهم وهو أعمالهم السيئة إلا عنده تعالى أى مكتوبة لديه فإنها التى ساقت إليهم ما يسوءهم لا ما عداها وقرىء إنما طيرهم وهو اسم جمع طائر وقيل جمع له ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ذلك فيقولون ما يقولون مما حكى عنهم وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم للإشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشر من جهة الله تعالى أو يعلمون

---

(١) فى ١٠ : سيق من قبله .

أن ما أصابهم من المصائب والبلايا ليس إلا بما كسبت أيديهم ولكن لا يعلمون بمقتضاه عنادا واستكبارا .

﴿ وقالوا ﴾ شروع فى بيان بعض آخر مما آخذ به آل فرعون من فنون العذاب التى هى فى أنفسها آيات بينات وعدم ارعوائهم مع ذلك عما كانوا عليه من الكفر والعناد أى قالوا بعد ما أرادوا ما أرادوا من شأن العصا والسنين ونقص الثمرات ﴿ مهما تأتنا به ﴾ كلمة مهما تستعمل للشرط والجزاء وأصلها ما الجزائية ضمت إليها ما المزيدة للتأكيد كما ضمت إلى أين وإن فى أينما تكونوا وإما نذهبن بك خلا أن ألف الأولى قلبت هاء حذرا من تكرير المتجانسين هذا هو الرأى السديد وقيل مه كلمة يصوت بها الناهى ضمت إليها ما الشرطية ومحلها الرفع بالابتداء أو النصب بفعل يفسره ما بعدها أى أى شىء تظهره لدينا وقوله تعالى ﴿ من آية ﴾ بيان لمهما وتسميتهم إياها آية لمجاراتهم على رأى موسى عليه السلام واستهزائهم بها وللإشعار بأن عنوان كونها آية لا يؤثر فيهم وقوله تعالى ﴿ لتسحرنا بها ﴾ إظهار لكمال الطغيان والغلو فيه وتسمية الإرشاد إلى الحق بالسحر وتسكير الأبصار والضميران المجروران راجعان إلى مهما وتذكير الأول لمراعاة جانب اللفظ لإبهامه وتأنيث الثانى للمحافظة على جانب المعنى لتبيينه بآية كما فى قوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له) ﴿ فما نحن لك بمؤمنين ﴾ بمصدقين لك ومؤمنين لنبوتك ﴿ فأرسلنا عليهم ﴾ عقوبة لجرائمهم لاسيما لقولهم هـــذا ﴿ الطوفان ﴾ أى الماء الذى طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أوسيل وقيل هو الجدرى وقيل الموتان وقيل الطاعون ﴿ والجراد والقمل ﴾ قيل هو كبار القردان وقيل أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها ﴿ والضفادع والدم ﴾ روى أنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يستطيع أن يخرج أحد من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل منه قطرة وهى فى خلال بيوتهم وفاض الماء على أرضهم وركد

فمنعهم من الحرث والتصرف ودام ذلك سبعة أيام فقالوا له عليه الصلاة والسلام أدع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك فدعا فكشف عنهم فنبت من العشب والكلأ مالم يعهد قبله ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم الجراد فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم ففزعوا إليه عليه الصلاة والسلام لما ذكر فخرج إلى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت إلى النواحى التى جاءت منها فلم يؤمنوا فسلط الله تعالى عليهم القمل فأكل ما أبقته الجراد وكان يقع فى أطعمتهم ويدخل بين ثيابهم وجلودهم فيمصها ففزعوا إليه ثالثا فرفع عنهم فقالوا قد تحققنا الآن أنك ساحر ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه وكانت تمتلىء منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهى تغلى وإلى أفواههم عند التكلم ففزعوا إليه رابعا وتضرعوا فأخذ عليهم العهود فدعا فكشف الله عنهم فنقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماء حتى كان يجتمع القبطى والإسرائيلى على إناء فيكون ما يليه دما وما يلى الإسرائيلى ماء على حاله ويمص من فم الإسرائيلى فيصير دما فى فيه وقيل سلط الله عليهم الرعاف ﴿ آيات ﴾ حال من المنصوبات المذكورة ﴿ مفصلات ﴾ مبينات لا يشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته وقيل مفرقات بعضها من بعض لامتحان أحوالهم وكان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها أسبوعا وقيل إنه عليه السلام لبث فيهم بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل ﴿ فاستكبروا ﴾ أى عن الإيمان بها ﴿ وكانوا قوما مجرمين ﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها .

﴿ ولما وقع عليهم الرجز ﴾ أى العذاب المذكور على التفصيل فاللام للجنس المنتظم لكل واحدة من الآيات المفصلة أى كلما وقع عليهم عقوبة من تلك العقوبات قالوا فى كل مرة ﴿ ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ أى بعهده عندك وهو النبوة أو بالذى عهد إليك أن تدعوه فيجيبك كما أجابك فى آياتك وهو صلة لادع أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلا إليه بما عهد عندك أو متعلق بمحذوف دل عليه التماسهم مثل أسعفنا إلى ما نطلب بحق

ما عندك أو قسم أجيب بقوله تعالى ﴿ لئن كشف عنا الرجز ﴾ الذى وقع علينا ﴿ لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ﴾ أى أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت الخ ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه ﴾ أى إلى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون بعده أو مهلكون ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ جواب لما أى فلما كشفنا عنهم فاجأوا النكث من غير تأمل وتوقف ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أى فأردنا أن ننتقم منهم لما أسلفوا من المعاصى والجرائم فإن قوله تعالى ﴿ فأغرقناهم ﴾ عين الانتقام منهم فلا يصح دخول الفاء بينهم ويجوز أن يكون المراد مطلق الانتقام منهم والفاء تفسيرية كما فى قوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال رب) الخ ﴿ فى اليم ﴾ فى البحر الذى لا يدرك قعره وقيل فى لجته ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ تعليل للإغراق أى كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم عنها وعدم تفكرهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية والفاء وإن دلت على ترتب الإغراق على ما قبله من النكث لكنه صرح بالتعليل إيذانا بأن مدار جميع ذلك تكذيب آيات الله تعالى والإعراض عنها ليكون ذلك مزجرة[1] للسامعين عن تكذيب الآيات الظاهرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والإعراض عنها ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾ أى بالاستعباد وذبح الأبناء والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده وهم بنو إسرائيل ذكروا بهذا العنوان إظهارا لكمال لطفه تعالى بهم وعظيم إحسانه إليهم فى رفعهم من حضيض المذلة إلى أوج العزة ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ أى جانبيها الشرقى والغربى حيث ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتصرفوا فى أكنافها الشرقية والغربية كيف شاؤا ، وقوله تعالى ﴿ التى باركنا فيها ﴾ أى بالخصب وسعة الأرزاق صفة للمشارق والمغارب وقيل للأرض وفيه ضعف للفصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف كما فى قولك قام

---

(١) فى ١١ زجرا .

أم هند وأبوها العاقلة ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ وهى وعده تعالى إياهم بالنصر والتمكين كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ وقرىء كلمات لتعدد المواعيد ومعنى تمت مضت واستمرت ﴿ على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ أى بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من جهة فرعون وقومه ﴿ ودمرنا ﴾ أى خربنا وأهلكنا ﴿ ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ من العمارات والقصور أى ودمرنا الذى كان فرعون يصنعه على أن فرعون اسم كان ويصنع خبر مقدم والجملة الكونية صلة ما والعائد محذوف وقيل اسم كان ضمير عائد إلى ما الموصولة ويصنع مسند إلى فرعون والجملة خبر كان والعائد محذوف أيضاً والتقدير ودمرنا الذى كان هو يصنعه فرعون الخ وقيل كان زائدة وما مصدرية والتقدير ما يصنع فرعون الخ وقيل كان زائدة كما ذكر وما موصوله اسمية والعائد محذوف تقديره ودمرنا الذى يصنعه فرعون الخ أى صنعه والعدول إلى صيغة المضارع على هذين القولين لاستحضار الصورة ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ من الجنات أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان وقرىء يعرشون بضم الراء والكسر أفصح وهذا آخر قصة فرعون وقومه .

بنو إسرائيل وموسى

وقوله عز وجل ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ﴾ شروع فى قصة بنى إسرائيل وشرح ما أحدثوه من الأمور الشنيعة بعد أن أنقذهم الله عز وجل من ملكة فرعون ومن عليهم من النعم العظام الموجبة للشكر وأراهم من الآيات الكبار ما تخر له شم الجبال تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإيقاظا للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم وجاوز بمعنى جاز وقرىء جوزنا بالتشديد وهو أيضاً بمعنى جاز فعدى بالباء أى قطعنا بهم البحر . روى أنه عبر بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون فصاموه شكر الله عز وجل ﴿ فأتوا ﴾ أى مروا ﴿ على قوم ﴾ قيل كانوا من لخم وقيل من العمالقة الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم ﴿ يعكفون على أصنام لهم ﴾ أى يواظبون على عبادتها ويلازمونها وقرىء بكسر الكاف قال ابن جريج كانت

كانت أصنامهم تماثيل بقر وهو أول شأن العجل ﴿ قالوا ﴾ عندما شاهدوا أحوالهم ﴿ يا موسى اجعل لنا إلهاً ﴾ مثالا نعبده ﴿ كما لهم آلهة ﴾ الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لإلهاً وما موصلة ولهم صلتها وآلهة بدل من وما والتقدير اجعل لنا إلهاً كائنا كالذى استقر هو لهم ﴿ قالوا إنكم قوم تجهلون ﴾ تعجب [عليه السلام][1] من قولهم هذا إثر ما شاهدوا من الآية الكبرى والمعجزة العظمى فوصفهم بالجهل المطلق إذ لا جهل أعظم مما ظهر منهم وأكده بقوله ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعنى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل ﴿ متبر ﴾ أى مدمر مكسر ﴿ ما هم فيه ﴾ أى من الدين الباطل أى يتبر الله تعالى ويهدم دينهم الذى هم عليه عن قريب ويحطم أصنامهم ويتركها رضاضا وإنما جىء بالجملة الاسمية للدلالة على التحقق ﴿ وباطل ﴾ أى مضمحل بالكلية ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ من عبادتها وإن كان قصدهم بذلك التقريب إلى الله تعالى فإنه كفر محض وليس هذا كما فى قوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) كما توهم فإن المراد به أعمال البر التى عملوها فى الجاهلية فإنها فى أنفسها حسنات لو قارنت الإيمان لاستتبعت أجورها وإنما بطلت لمقارنتها الكفر وفى إيقاع هؤلاء اسما لإن وتقديم الخبر من الجملة الواقعة خبراً لها وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لايعدوهم البتة وأنه لهم ضربة لازب ليحذرهم عاقبة ماطلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا ﴿ قال أغير الله أبغيكم إلها ﴾ شروع فى بيان شئون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى بعد بيان أن ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلا لكونه هالكا باطلا ولذلك وسط بينهما قال مع كون كل منهما كلام موسى عليه الصلاة والسلام والاستفهام للانكار والتعجب والتوبيخ وإدخال الهمزة على غير للايذان بأن المنكر هو كون المبغى غيره تعالى لما أنه لاختصاص الإنكار بغيره تعالى دون إنكار الاختصاص بغيره تعالى وانتصاب غير على أنه مفعول أبغى بحذف اللام أى أبغى لكم أى أطلب لكم غير الله

---

(١) ما بين الحاصرين سقط من ١٠ .

تعالى وإلها إما تمييز أو حال أو على الحالية من إلها وهو المفعول لأبغى على أن الأصل أبغى لكم إلها غير الله فغير الله صفة لإلهاً فلما قدمت صفة النكرة انتصبت حالا ﴿ وهو فضلكم على العالمين ﴾ أي والحال أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم وفيه تنبيه على ما صنعوا من سوء المعاملة حيث قابلوا تخصيص الله تعالى إياهم من بين أمثالهم بما لم يستحقوه تفضلا بأن عمدوا إلى أخس شيء من مخلوقاته فجعلوه شريكا له تعالى تباً لهم ولما يعبدون .

﴿ وإذ أنجيناكم ﴾ تذكير لهم من جهته سبحانه بنعمة الإنجاء من ملكة فرعون وقرىء نجيناكم من التنجية وقرىء أنجاكم فيكون مسوقا من جهة موسى عليه الصلاة والسلام أي واذكروا وقت إنجائنا إياكم ﴿ من آل فرعون ﴾ من ملكتهم لا بمجرد تخليصكم من أيديهم وهم على حالهم في المكنة والقدرة بل بإهلاكهم بالكلية وقوله تعالى ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ من سامه خسفا أي أولاه إياه أوكلفه إياه وهو إما استئناف لبيان ما أنجاهم منه أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما معا لاشتماله على ضميريهما وقوله تعالى ﴿ يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ بدل من يسومونكم مبين أو مفسر له ﴿ وفي ذلكم ﴾ الإنجاء أو سوء العذاب ﴿ بلاء ﴾ أي نعمة أو محنة ﴿ من ربكم ﴾ من مالك أمركم فإن النعمة والنقمة كلتاهما منه سبحانه وتعالى ﴿ عظيم ﴾ لا يقادر قدره ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ﴾ روى أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر أن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه[1] فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك وقيل أوحى الله تعالى إليه أما علمت أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك فأمره الله تعالى بأن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك وذلك قوله تعالى

---

(١) في ١٠ : فمه . والخلوف ريح فم الصائم .

﴿ وأتممناها بعشر ﴾ والتعبير عنها بالليالى لأنها غرر الشهور وقيل أمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يوما وأن يعمل فيها بما يقربه من الله تعالى ثم أنزلت عليه التوراة فى العشر وكلم فيها وقد أجمل ذكر الأربعين فى سورة البقرة وفصل ههنا وواعدنا بمعنى وعدنا وقد قرىء كذلك وقيل الصيغة على بابها بناء على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وثلاثين مفعول ثان لواعدنا بحذف المضاف أى إتمام ثلاثين ليلة ﴿ فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ أى بالغاء أربعين ليلة ﴿ وقال موسى لأخيه هرون ﴾ حين توجه إلى المناجاة حسبما أمر به ﴿ اخلفنى ﴾ أى كن خليفتى ﴿ فى قومى ﴾ وراقبهم فيما يأتون وما يذرون ﴿ وأصلح ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح من أمورهم أو كن مصلحا ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ أى لا تتبع من سلك الإفساد ولا تطع من دعاك إليه ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ لوقتنا الذى وقتناه واللام للاختصاص أى اختص مجيئه بميقاتنا ﴿ وكلمه ربه ﴾ من غير واسطة كما يكلم الملائكة عليهم السلام وفيما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه عز وجل ليس من جنس سماع كلام المحدثين ﴿ قال رب أرنى أنظر إليك ﴾ أى أرنى ذاتك بأن تمكننى من رؤيتك أو تتجلى لى فأنظر إليك وأراك هو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة فى الجملة لما أن طلب المستحيل مستحيل من الأنبياء لاسيما ما يقتضى الجهل بشئون الله تعالى ولذلك رده بقوله لن ترانى دون لن أرى ولن أريك ولن تنظر إلى تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد فى الرائى ولم يوجد فيه ذلك بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا أرنا الله جهرة خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل ذلك حين قالوا اجعل لنا إلها وأن لا يتبع سبيلهم كما قال لأخيه ولا تتبع سبيل المفسدين والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الإخبار بعدم رؤيته إياه على أنه لا يراه أبدا وأن لا يراه غيره أصلا فضلا عن أن يدل على استحالتها دعوى الضرورة مكابرة أو جهل لحقيقة الرؤية .

﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا قال رب العزة حين قال موسى عليه السلام ما قال فقيل قال ﴿لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى﴾ استدراك لبيان أنه لا يطيق بها وفى تعليقها باستقرار الجبل أيضاً دليل على الجواز ضرورة أن المعلق بالممكن ممكن والجبل قيل هو جبل أردن ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ أى ظهرت له عظمته وتصدى له اقتداره وأمره وقيل أعطى الجبل حياة ورؤية حتى رآه ﴿جعله دكا﴾ مدكوكا مفتتا والدك والدق أخوان كالشك والشق وقرىء دكا أى أرضا مستوية ومنه ناقة دكاء للتى لا سنام لها وقرىء دكا للتى لا سنام لها وقرىء دكا جمع دكاء أى قطعا ﴿وخر موسى صعقا﴾ مغشيا عليه من هول ما رآه ﴿فلما أفاق﴾ الإفاقة رجوع العقل والفهم إلى الإنسان بعد ذهابهما بسبب من الأسباب ﴿قال﴾ تعظيما لما شاهده ﴿سبحانك﴾ أى تنزيها لك من أن أسألك شيئا بغير إذن منك ﴿تبت﴾ إليك أى من الجراءة والإقدام على السؤال بغير إذن ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أى بعظمتك وجلالك وقيل أول من آمن بأنك لا ترى فى الدنيا وقيل بأنه لا يجوز السؤال بغير إذن منك.

﴿قال ياموسى﴾ استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام مالم أعط أحدا من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها ﴿إنى اصطفيتك﴾ أى اخترتك واتخذتك صفوة وآثرتك ﴿على الناس﴾ أى المعاصرين لك وهرون وإن كان نبيا كان مأمورا باتباعه وما كان كليما ولا صاحب شرع ﴿برسالاتى﴾ أى بأسفار التوراة وقرىء برسالتى ﴿وبكلامى﴾ وبتكليمى إياك بغير واسطة ﴿فخذ ما آتيتك﴾ من شرف النبوة والحكمة ﴿وكن من الشاكرين﴾ على على ما أعطيت من جلائل النعم قيل كان سؤال الرؤية يوم عرفة وإعطاء التوراة يوم النحر ﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شىء﴾ أى مما يحتاجون إليه من أمور دينهم ﴿موعظة وتفصيلا لكل شىء﴾ بدل من الجار والمجرور أى كتبنا له كل شىء أى مما يحتاجون إليه من أمور دينهم ﴿موعظة وتفصيلا لكل

شيء ﴾ بدل من الجار والمجرور أى كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام واختلف فى عدد الألواح وفى جوهرها ومقدارها فقيل إنها كانت عشرة ألواح وقيل سبعة وقيل لوحين وأنها كانت من زمردة جاء بها جبريل عليه السلام وقيل من زبرجدة خضراء أو ياقوتة حمراء وقيل أمر الله تعالى موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده وشققها بأصابعه . وعن الحسن رضى الله عنه كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة وأن طولها كان عشرة أذرع وقيل أنزلت التوراة وهى سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منه فى سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام وعن مقاتل رضى الله عنه كتب فى الألواح إنى أنا الله الرحمن الرحيم لاتشركوا بى شيئاً ولا تقطعوا السبيل ولا تزنوا ولاتعقوا الوالدين ﴿ فخذها ﴾ على إضمار قول معطوف على كتبنا أى فقلنا خذها ﴿ بقوة ﴾ بجد وعزيمة وقيل هو بدل من قوله تعالى (فخذ ما آتيتك) والضمير للألواح أو لكل شيء لأنه بمعنى الأشياء أو للرسالة أو للتوراة .

﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ أى بأحسن ما فيها كالعفو والصبر بالإضافة إلى الاقتصاص[1] والانتصار على طريقة الندب والحث على اختيار الأفضل كما فى قوله تعالى (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) أو بواجباتها فإنها أحسن من المباح وقيل المعنى يأخذوا بها وأحسن صلة قال قطرب أى بحسنها وكلها حسن كقوله تعالى (ولذكر الله أكبر) وقيل هو أن تحمل الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها إلى الصواب ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى قومه عليه الصلاة والسلام بطريق الالتفات حملا لهم على الجد فى الامتثال بما أمروا به إما على نهج الوعيد والترهيب على أن المراد بدار الفاسقين أرض مصر وديار عاد وثمود وأضرابهم فإن

(١) فى ١٠ : القصاص .

رؤيتها وهى خالية عن أهلها خاوية على عروشها موجبة للاعتبار والانزجار عن مثل أعمال أهلها كيلا يحل بهم ماحل بأولئك وإما على نهج الوعد والترغيب على أن المراد بدار الفاسقين إما أرض مصر خاصة أو مع أرض الجبابرة والعمالقة بالشام فإنها أيضاً مما أتيح لبنى إسرائيل وكتب لهم حسبما ينطق به قوله عز وجل (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم) ومعنى الإراءة الإدخال بطريق الإيراث ويؤيده قراءة من قرأ سأورثكم بالثاء المثلثة كما فى قوله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها) وقرىء سأوريكم ولعله من أوريت الزند أى سأبينها لكم وقوله تعالى :

﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض ﴾ استئناف مسوق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر فى الآيات التى هى ما كتب فى ألواح التوراة من المواعظ والأحكام أو مايعمها وغيرها من الآيات التكوينية التى من جملتها ما وعد إراءته من الفاسقين ومعنى صرفهم عنها الطبع على قلوبهم بحيث لا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ماهم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع أن فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الجليل أى سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء ويرون لهم على الخلق مزية وفضلا فلا ينتفعون بآياتى التنزيلية والتكوينية ولا يغتنمون مغانم آثارها فلا تسلكوا مسلكهم فتكونوا أمثالهم وقيل المعنى سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون فى إبطال ما رآه من الآيات فأبى الله تعالى إلا إحقاق الحق وإزهاق الباطل وعلى هذا فالأنسب أن يراد بدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة المشهورين بالفسق والتكبر فى الأرض وبإراءتها للمخاطبين إدخالهم الشام وإسكانهم فى مساكنهم ومنازلهم حسبما نطق به قوله تعالى (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم) ويكون قوله تعالى (سأصرف عن آياتى) الخ جوابا عن سؤال مقدر ناشىء من الوعد بإدخال الشام على أن المراد بالآيات

ماتلى آنفا ونظائره وبصرفهم عنها إزالتهم عن مقام معارضتها وممانعتها لوقوع أخبارها وظهور أحكامها وآثارها بإهلاكهم على يد موسى عليه الصلاة والسلام حين سار بعد التيه بمن بقى من بنى إسرائيل أو بذرياتهم على اختلاف الروايتين إلى أريحا ويوشع بن نون فى مقدمته ففتحها واستقر بنو إسرائيل بالشام وملكوا مشارقها ومغاربها كأنه قيل كيف يرون دارهم وهم فيها فقيل سأهلكهم وإنما عدل إلى الصرف ليزدادوا ثقة بالآيات واطمئنانا بها وقوله تعالى ﴿ بغير الحق ﴾ إما صلة للتكبر أى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط أو متعلق بمحذوف هو حال من فاعله أى يتكبرون ملتبسين بغير الحق وقوله تعالى:

﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ عطف على يتكبرون داخل معه فى حكم الصلة والمراد بالآية إما المنزلة فالمراد برؤيتها مشاهدتها بسماعها أو ما يعمها من المعجزات فالمراد برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع والإبصار أى وإن يشاهدوا كل آية من الآيات لا يؤمنوا بها على عموم النفى لا على نفى العموم أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم إياها كما هى وهذا كما ترى يؤيد كون الصرف بمعنى الطبع وقوله تعالى ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ﴾ عطف على ماقبله داخل فى حكمه أى لا يتوجهون إلى الحق ولا يسلكون سبيله أصلا لاستيلاء الشيطنة عليهم ومطبوعيتهم على الانحراف والزيغ وقرىء بفتحتين وقرىء الرشاد وثلاثتها لغات كالسقم والسقام ﴿ وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ﴾ أى يختارونه لأنفسهم مسلكا مستمراً لا يكادون يعدلون عنه لموافقته لأهوائهم الباطلة وإفضائه بهم إلى شهواتهم ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من تكبرهم وعدم إيمانهم بشىء من الآيات وإعراضهم عن سبيل الرشد وإقبالهم التام إلى سبيل الغى وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأنهم ﴾ أى حاصل بسبب أنهم ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح وعلى حقية أضدادها ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ لا يتفكرون فيها وإلا لما فعلوا مافعلوا من الأباطيل ويجوز أن يكون إشارة إلى ما ذكر من الصرف ولا يمنعه الإشعار

بعلية ما فى حيز الصلة كيف لا وقد مر أن ذلك فى قوله تعالى (ذلك بما عصوا) الآية يجوز أن يكون إشارة إلى ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم مع كون ذلك معللا بالكفر بآيات الله صريحا وقيل محل اسم الإشارة النصب على المصدر أى سأصرفهم ذلك الصرف بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ أى وبلقائهم الدار الآخرة أو لقائهم ما وعده الله تعالى فى الآخرة من الجزاء ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ خبره أى ظهر بطلان أعمالهم التى كانوا عملوها من صلة الأرحام وإغاثة الملهوفين ونحو ذلك أو حبطت بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير إيمانهم بها ﴿ هل يجزون ﴾ أى لا يجزون ﴿ إلا ما كانوا يعملون ﴾ أى إلا جزاء ما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصى .

فضائح بنى إسرائيل

﴿ واتخذ قوم موسى من بعده ﴾ أى من بعد ذهابه إلى الطور ﴿ من حليهم ﴾ متعلق باتخذ كالجار الأول لاختلاف معنييهما فإن الأول للابتداء والثانى للتبعيض أو للبيان أو الثانى متعلق بمحذوف وقع حالا مما بعده إذ لو تأخر لكان صفة له وإضافة الحلى إليهم مع أنها كانت للقبط لأدنى الملابسة حيث كانوا استعاروها من أربابها قبيل الغرق فبقيت فى أيديهم وإما أنهم ملكوها بعد الغرق فذلك منوط بتملك بنى إسرائيل غنائم القبط وهم مستأمنون فيما بينهم فلا يساعده قولهم حملنا أوزاراً من زينة القوم والحلى بضم الحاء وكسر اللام جمع حلى كثدى وثدى وقرىء بكسر الحاء بالإتباع كدلى وقرىء حليهم على الإفراد وقوله تعالى ﴿ عجلا ﴾ مفعول اتخذ أخر عن المجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقيل هو متعد إلى اثنين بمعنى التصيير والمفعول الثانى محذوف أى إلها وقوله تعالى ﴿ جسدا ﴾ بدل من عجلا أى جثة ذات دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح معه وقوله تعالى ﴿ له خوار ﴾ أى صوت

بقر وقرىء بالجيم والهمزة وهو الصياح نعت لعجلا . روى أن السامرى لما صاغ العجل ألقى فى فمه ترابا من أثر فرس جبريل عليه الصلاة والسلام وقد كان أخذه عند فلق البحر أو عند توجهه إلى الطور فصار حيا وقيل صاغه بنوع من الحيل فيدخل الريح فى جوفه فيصوت والأنسب بما فى سورة طه هو الأول وإنما نسب اتخاذه إليهم وهو فعله إما لأنه واحد وإما لأنهم رضوا به فكأنهم فعلوه وإما لأن المراد بالاتخاذ اتخاذهم إياه إلها لا صنعه وإحداثه ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ﴾ استئناف مسوق لتقريعهم وتشنيعهم وتركيك عقولهم وتسفيههم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى هو اتخاذه إلها أى ألم يروا أنه ليس فيه شىء من أحكام الألوهية حيث لا يكلمهم ﴿ ولا يهديهم سبيلا ﴾ بوجه من الوجوه فكيف اتخذوه إلها وقوله ذلك ﴿ وكانوا ظالمين ﴾ أى واضعين للأشياء فى غير موضعها فلم يكن هذا أول منكر فعلوه والجملة اعتراض تذييلى وتكرير اتخذوه لتثنية التشنيع وترتيب الاعتراض عليه ﴿ ولما سقط فى أيديهم ﴾ أى ندموا على ما فعلوا غاية الندم فإن ذلك كناية عنه لأن النادم المتحسر يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها وقرىء سقط على البناء للفاعل بمعنى وقع العض فيها فاليد حقيقة وقال الزجاج معناه سقط الندم فى أنفسهم إما بطريق الاستعارة بالكناية أو بطريق التمثيل ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا ﴾ باتخاذ العجل أى تبينوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كأنهم رأوه بأعينهم وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متأخرا عنها للمسارعة إلى بيانه والإشعار بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية ﴿ قالوا ﴾ والله ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ﴾ بإنزال التوبة المكفرة ﴿ ويغفر لنا ﴾ ذنوبنا بالتجاوز عن خطيئتنا وتقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلى وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم واللام فى لئن موطئة للقسم كما أشير إليه وفى قوله تعالى ﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ لجواب القسم وما حكى عنهم من الندامة والرؤية والقول وإن كان بعد ما رجع موسى عليه الصلاة والسلام إليهم كما ينطق به الآيات الواردة فى

سورة طه لكن أريد بتقديمه عليه حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل فى موضع واحد .

﴿ ولما رجع موسى إلى قومه ﴾ شروع فى بيان ما جرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقات إثر بيان ما وقع من قومه بعده وقوله تعالى ﴿غضبان أسفا﴾حالان من موسى عليه السلام أو الثانى من المستكن فى غضبان والأسف الشديد الغضب وقيل الحزين ﴿ قال بئسما خلفتمونى من بعدى ﴾ أى بئسما فعلتم من بعد غيبتى حيث عبدتم العجل بعد ما رأيتم فعلى من توحيد الله تعالى ونفى الشركاء عنه وإخلاص العبادة له أو من حملكم على ذلك وكفكم عما طمحت نحوه أبصاركم حيث قلتم اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف فالخطاب للعبدة من السامرى وأشياعه أو بئسما قمتم مقامى ولم تراعوا عهدى حيث لم تكفوا العبدة عما فعلوا فالخطاب لهرون ومن معه من المؤمنين كما ينبىء عنه قوله تعالى(قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمرى) ويجوز أن يكون الخطاب للكل على أن المراد بالخليفة ما يعم الأمرين المذكورين وما نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بئس المستكن فيه والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أى تركتموه غير تام على تضمين عجل معنى سبق يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام أو أعجلتم وعد ربكم الذى وعدنيه من الأربعين وقدرتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم ﴿ وألقى الألواح ﴾ طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين . روى أن التوراة كانت سبعة أسباع فى سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفعت ستة أسباعها التى كان فيها تفصيل كل شىء وبقى سبع كان فيه المواعظ والأحكام ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ بشعر رأسه عليهما السلام ﴿ يجره إليه ﴾ حال من أخذ فعله عليه السلام توهما أنه قصر فى كفهم وهرون كان أكبر منه عليهما السلام بثلاث سنين وكان حمولا ولذلك كان أحب إلى بنى إسرائيل ،

﴿قال﴾ أى هرون مخاطبا لموسى عليهما السلام ﴿ابن أم﴾ بحذف حرف النداء وتخصيص الأم بالذكر مع كونهما شقيقين لما أن حق الأم أعظم وأحق بالمراعاة مع أنها كانت مؤمنة وقد قاست فيه المخاوف والشدائد وقرىء بكسر الميم بإسقاط الياء تخفيفا كالمنادى المضاف إلى الياء وقراءة الفتح لزيادة التخفيف أو لتشبيهه بخمسة عشر ﴿إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى﴾ إزاحة لتوهم التقصير فى حقه والمعنى بذلت جهدى فى كفهم حتى قهرونى واستضعفونى وقاربوا قتلى ﴿فلا تشمت بى الأعداء﴾ أى فلا تفعل بى مايكون سبباً لشماتتهم بى ﴿ولا تجعلنى مع القوم الظالمين﴾ أى معدودا فى عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير وهذا يؤيد كون الخطاب للكل أو لا تعتقد أنى واحد من الظالمين مع براءتى منهم ومن ظلمهم ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا قال موسى عند ذلك فقيل قال ﴿رب اغفرلى﴾ أى ما فعلت بأخى من غير ذنب مقرر من قبله ﴿ولأخى﴾ إن فرط منه تقصير ما فى كفهم عما فعلوه من العظيمة استغفر عليه السلام لنفسه ليرضى أخاه ويظهر للشامتين رضاه لئلا تتم شماتتهم به ولأخيه للإيذان بأنه محتاج إلى الاستغفار حيث كان يجب عليه أن يقاتلهم ﴿وأدخلنا فى رحمتك﴾ بمزيد الإنعام بعد غفران ماسلف منا ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ فلا غرو فى انتظامنا فى سلك رحمتك الواسعة فى الدنيا والآخرة والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ أى تموا على اتخاذه واستمروا على عبادته كالسامرى وأشياعه من الذين أشربوه فى قلوبهم كما يفصح عنه كون الموصول الثانى عبارة عن التائبين فإن ذلك صريح فى أن الموصول الأول عبارة عن المصرين ﴿سينالهم﴾ أى فى الآخرة ﴿غضب﴾ أى عظيم لا يقادر قدره مستتبع لفنون العقوبات لما أن جريمتهم أعظم الجرائم وأقبح الجرائر وقوله تعالى ﴿من ربهم﴾ أى مالكهم متعلق بينا لهم أو بمحذوف هو نعت لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائن من ربهم ﴿وذلة فى الحيوة الدنيا﴾ هى ذلة الاغتراب التى تضرب بها الأمثال والمسكنة المنتظمة

لهم ولأولادهم جميعا والذلة التى اختص بها السامرى من الانفراد عن الناس والابتلاء بلا مساس . يروى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك وإذا مس أحدهم أحد غيرهم حما جميعا فى الوقت وإيراد ما نالهم فى حيز السين مع مضيه بطريق تغليب حال الأخلاف على حال الأسلاف وقيل المراد بهم التائبون وبالغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم واعتذر عن السين بأن ذلك حكاية عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل بأنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فيكون سابقا على الغضب وأنت خبير بأن سباق النظم الكريم وسياقه نابيان عن ذلك نبوا ظاهرا كيف لا وقوله تعالى ﴿ وكذلك نجزى المفترين ﴾ ينادى على خلافه فإنهم شهداء تائبون فكيف يمكن وصفهم بعد ذلك بالافتراء وأيضاً ليس يجزى الله تعالى كل المفترين بهذا الجزاء الذى ظاهره قهر وباطنه لطف ورحمة وقيل المراد بهم أبناؤهم المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن تعيير الأبناء بأفاعيل الآباء مشهور معروف منه قوله تعالى (وإذ قتلتم نفسا) الآية وقوله تعالى (وإذ قلتم يا موسى) الآية والمراد بالغضب الغضب الأخروى وبالذلة ما أصابهم من القتل والإجلاء وضرب الجزية عليهم وقيل المراد بالموصول المتخذون حقيقة وبالضمير فى ينالهم أخلافهم ولا ريب فى أن توسيط حال هؤلاء فى تضاعيف بيان حال المتخذين من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه .

﴿ والذين عملوا السيئات ﴾ أى سيئة كانت ﴿ ثم تابوا ﴾ عن تلك السيئات ﴿ من بعدها ﴾ أى من بعد عملها ﴿ وآمنوا ﴾ إيمانا صحيحاً خالصا واشتغلوا بإقامة ما هو من مقتضياته من الأعمال الصالحة ولم يصروا على ما فعلوا كالطائفة الأولى ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ أى من بعد تلك التوبة المقرونة بالإيمان ﴿ لغفور ﴾ للذنوب وإن عظمت وكثرت ﴿ رحيم ﴾ مبالغ فى إفاضة فنون الرحمة الدنيوية والأخروية والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للتشريف ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ شروع فى بيان بقية

الحكاية إثر ما بين تحزب القوم إلى مصر وتائب والإشارة إلى مآل كل منهما إجمالا أى لما سكن عنه الغضب باعتذار أخيه وتوبة القوم وهذا صريح فى أن ما حكى عنهم من الندم وما يتفرع عليه كان بعد مجىء موسى عليه الصلاة والسلام وفى هذا النظم الكريم من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب الحامل له على ماصدر عنه من الفعل والقول منزلة الآمر بذلك المغرى عليه بالتحكم والتشديد والتعبير عن سكونه بالسكوت ما لا يخفى وقرىء سكن وسكت وأسكت على أن الفاعل هو الله تعالى أو أخوه أو التائبون ﴿ أخذ الألواح ﴾ التى ألقاها ﴿ وفى نسختها ﴾ أى فيما نسخ فيها وكتب فعلة بمعنى مفعول كالخطبة وقيل فيما نسخ منها أى من الألواح المنكسرة ﴿ هدى ﴾ أى بيان للحق ﴿ ورحمة ﴾ للخلق بإرشادهم إلى ما فيه الخير والصلاح ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ اللام الأولى متعلقة بمحذوف هو صفة لرحمة أى كائنة لهم أو هى لام الأجل أى هدى ورحمة لأجلهم والثانية لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله تعالى (إن كنتم للرؤيا تعبرون) أو هى أيضاً لام العلة والمفعول محذوف أى يرهبون المعاصى لأجل ربهم لا لرياء والسمعة ﴿ واختار موسى قومه ﴾ شروع فى بيان كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها واختار يتعدى إلى اثنين ثانيهما مجرور بمن أى اختار من قومه بحذف الجار والمجرور وإيصال الفعل إلى المجرور كما فى قوله :

اختارك الناس إذ رثت خلائقهم   واعتل من كان يرجى عنده السول

أى اختارك من الناس ﴿ سبعين رجلا ﴾ مفعول لاختار أخر عن الثانى لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ﴿ لميقاتنا ﴾ الذى وقتناه بعد ما وقع من قومه ما وقع لا لميقات الكلام الذى ذكر قبل ذلك كما قيل . قال السعدى أمره الله تعالى بأن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار عليه السلام من قومه سبعين رجلا وقال محمد بن اسحق اختارهم ليتوبوا إليه تعالى مما صنعوه ويسألوه التوبة على من تركوهم وراءهم من قومهم قالوا اختار عليه الصلاة والسلام من كل سبط

ستة فزاد اثنان فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال عليه الصلاة والسلام إن لمن قعد مثل أجر من خرج فقعد كالب ويوشع وذهب من الباقين وأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم فخرج بهم إلى طور سينا فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه حسبما يشاء وهو الأمر بقتل أنفسهم توبة ﴿ فلما أخذتهم الرجفة ﴾ مما اجترأوا عليه من طلب الرؤية فإنه يروى أنه لما انكشف الغمام أقبلوا إلى موسى عليه السلام وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة أى الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها أى ماتوا ولعلهم أرادوا بقولهم لن نؤمن لك لن نصدقك فى أن الآمر بما سمعنا الأمر بقتل أنفسهم هو الله تعالى حتى نراه حيث قاسوا رؤيته تعالى على سماع كلامه قياسا فاسدا فحين شاهد موسى تلك الحالة الهائلة .

﴿ قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل ﴾ أى حين فرطوا فى النهى عن عبادة العجل وما فارقوا عبدته حين شاهدوا إصرارهم عليها ﴿ وإياى ﴾ أيضاً حين طلبت منك الرؤية أى لو شئت إهلاكنا بذنوبنا لأهلكتنا حينئذ أراد به عليه السلام تذكير العفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق فإن الاعتراف بالذنب والشكر على النعمة مما يربط العتيد ويستجلب المزيد يعنى إنا كنا مستحقين للإهلاك ولم يكن من موانعه إلا عدم مشيئتك إياه فحيث لطفت بنا وعفوت عنا تلك الجرائم فلا غرو فى أن تعفو عنا هذه الجريمة أيضا وحمل الكلام على التمنى يأباه قوله تعالى ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ أى الذين لا يعلمون تفاصيل شئونك ولا يتثبتون فى المداحض والهمزة إما لإنكار وقوع الإهلاك ثقة بلطف الله عز وجل كما قاله ابن الأنبارى أو للاستعطاف كما قاله المبرد أى لا تهلكنا ﴿ إن هى إلا فتنتك ﴾ استئناف مقرر لما قبله واعتذار عما صنعوا ببيان منشأ غلطهم أى ما الفتنة التى وقع فيها السفهاء وقالوا بسببها ما قالوا من العظيمة إلا فتنتك أى محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يتثبتوا فطمعوا فيما فوق ذلك تابعين للقياس الفاسد وقوله تعالى ﴿ تضل

بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ إما استئناف مبين لحكم الفتنة أو حال من فتنتك أى حال كونها مضلا بها الخ أى تضل بسببها من تشاء إضلاله فلا يهتدى إلى التثبت وتهدى من تشاء هدايته إلى الحق فلا يتزلزل فى أمثالها فيقوى بها إيمانه ﴿ أنت ولينا ﴾ أى القائم بأمورنا الدنيوية والأخروية وناصرنا وحافظنا لا غيرك ﴿ فاغفر لنا ﴾ ما قارفناه من المعاصى والفاء لترتيب الدعاء على ماقبله من الولاية كأنه قيل فمن شأن الولى المغفرة والرحمة وقيل إن إقدامه عليه الصلاة والسلام على أن يقول إن هى إلا فتنتك الخ جراءة عظيمة فطلب من الله تعالى غفرانها والتجاوز عنها ﴿ وارحمنا ﴾ بإفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية علينا ﴿ وأنت خير الغافرين ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من الدعاء وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم بحسب المقام ﴿ واكتب لنا ﴾ أى عين لنا وقيل أوجب وحقق وأثبت ﴿ فى هذه الدنيا حسنة ﴾ أى نعمة وعافية أو خصلة حسنة قال ابن عباس رضى الله عنهما اقبل وفادتنا وردنا بالمغفرة والرحمة ﴿ وفى الآخرة ﴾ أى واكتب لنا فيها أيضا حسنة وهى المثوبة الحسنى والجنة ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أى تبنا وأنبنا إليك من هاد يهود إذا رجع وقرىء بكسر الهاء من هاده يهيده إذا حركه وأماله ويحتمل أن يكون مبنيا للفاعل أو للمفعول بمعنى أملنا أنفسنا أو أملنا إليك وتجويز أن تكون القراءة المشهورة على بناء المفعول على لغة من يقول عود المريض مع كونها لغة ضعيفة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل والجملة استئناف مسوق لتعليل الدعاء فإن التوبة مما يوجب قبوله بموجب الوعد المحتوم وتصديرها بحرف التحقيق لإظهار كمال النشاط والرغبة فى التوبة والمعنى إنا تبنا ورجعنا عما صنعنا من المعصية العظيمة التى جئناك للاعتذار عنها وعما وقع ههنا من طلب الرؤية فبعيد من لطفك وفضلك أن لا تقبل توبة التائبين . قيل لما أخذتهم الرجفة ماتوا جميعا فأخذ موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله تعالى حتى أحياهم وقيل رجفوا وكادت تبين مفاصلهم وأشرفوا على الهلاك فخاف موسى عليه الصلاة والسلام فبكى فكشفها الله تعالى عنهم .

﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الكلام كأنه قيل فماذا قال الله تعالى عند دعاء موسى عليه السلام فقيل قال ﴿ عذابى أصيب به من أشاء ﴾ لعله عز وجل حين جعل توبة عبدة العجل بقتلهم أنفسهم ضمن موسى عليه السلام دعاءه التخفيف والتيسير حيث قال واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة أى خصلة حسنة عارية عن المشقة والشدة فإن فى قتل أنفسهم من العذاب والتشديد مالا يخفى فأجاب تعالى بأن عذابى شأنه أن أصيب به من أشاء تعذيبه من غير دخل لغيرى فيه وهم ممن تناولته مشيئتى ولذلك جعلت توبتهم مشوبة بالعذاب الدنيوى ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ أى شأنها أن تسع فى الدنيا المؤمن والكافر بل كل ما يدخل تحت الشيئية من المكلفين وغيرهم وقد نال قومك نصيب منها فى ضمن العذاب الدنيوى وفى نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضى إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات وأما العذاب فبمقتضى معاصى العباد والمشيئة معتبرة فى جانب الرحمة أيضا وعدم التصريح بها للإشعار بغاية الظهور ألا يرى إلى قوله تعالى ﴿ فسأكتبها ﴾ أى أثبتها وأعينها فإنه متفرع على اعتبار المشيئة كأنه قيل فإذا كان الأمر كذلك أى كما ذكر من إصابة عذابى وسعة رحمتى لكل من أشاء فسأكتبها كتبة كائنة كما دعوت بقولك واكتب لنا فى هذه الخ أى سأكتبها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوى ﴿ ويؤتون الزكوة ﴾ وفيه أيضا تعريض بهم حيث كانت الزكاة شاقة عليهم ولعل الصلاة إنما لم تذكر مع إنافتها على سائر العبادات اكتفاء عنها بالاتقاء الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك المنكرات عن آخرها وإيراد إيتاء الزكاة لما مر من التعريض ﴿ والذين هم بآياتنا ﴾ جميعا ﴿ يؤمنون ﴾ إيمانا مستمرا من غير إخلال بشىء منها وفيه تعريض بهم وبكفرهم بالآيات العظام التى جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام وبما سيجىء بعد ذلك من الآيات البينات كتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك وتكرير الموصول مع أن المراد به عين ما أريد بالموصول الأول دون أن يقال ويؤمنون بآياتنا عطفا على يؤتون الزكاة كما عطف هو على يتقون لما أشير إليه من القصر

بتقديم الجار والمجرور أى هم بجميع آياتنا يؤمنون لا ببعضها دون بعض .

﴿ الذين يتبعون الرسول ﴾ الذى نوحى إليه كتابا مختصا به ﴿ النبى ﴾ أى صاحب المعجزة وقيل عنوان الرسالة بالنسبة إليه تعالى وعنوان النبوة بالنسبة إلى الأمة ﴿ الأمى ﴾ بضم الهمزة نسبة إلى الأم كأنه باق على حالته التى ولد عليها من أمه أو إلى أمة العرب كما قال عليه الصلاة والسلام إنا أمة لا نحسب ولا نكتب أو إلى أم القرى وقرىء بفتح الهمزة أى الذى لم يمارس القراءة والكتابة وقد جمع مع ذلك علوم الأولين والآخرين والموصول بدل من الموصول الأول بدل الكل أو منصوب على المدح أو مرفوع عليه أى أعنى الذين أو هم الذين وأما جعله مبتدأ على أن خبره يأمرهم أو وأولئك هم المفلحون فغير سديد ﴿ الذى يجدونه مكتوبا ﴾ باسمه ونعوته بحيث لا يشكون أنه هو ولذلك عدل عن أن يقال يجدون اسمه أو وصفه مكتوبا ﴿ عندهم ﴾ زيد هذا لزيادة التقرير وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلا ﴿ فى التوراة والإنجيل ﴾ الذين تعبد بهما بنو إسرائيل سابقا ولاحقا والظرفان متعلقان بيجدونه أو بمكتوبا وذكر الإنجيل قبل نزوله من قبيل ما نحن فيه من ذكر النبى عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم قبل مجيئهما ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ كلام مستأنف لا محل له من الإعراب قاله الزجاج متضمن لتفصيل بعض أحكام الرحمة التى وعد فيما سبق بكتبها إجمالا فإن ما بين فيه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحلال الطيبات وتحريم الخبائث وإسقاط التكاليف الشاقة كلها من آثار رحمته الواسعة وقيل فى محل النصب على أنه حال مقدرة من مفعول يجدونه أو من النبى أو من المستكن فى مكتوبا أو مفسر لمكتوبا أى لما كتب ﴿ ويحل لهم الطيبات ﴾ التى حرمت عليهم بشؤم ظلمهم ﴿ ويحرم عليهم الخبائث ﴾ كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾ أى يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التى هى من قبيل ما كتب عليهم حينئذ من كون التوبة بقتل النفس كتعيين القصاص فى العمد والخطأ من غير شرع الدية وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض

موضع النجاسة من الجلد والثوب وإحراق الغنائم وتحريم السبت . وعن عطاء أنه كانت بنو إسرائيل إذا قاموا يصلون لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأثقلها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة وقرىء آصارهم أصل الإصر الثقل الذى يأسر صاحبه من الحراك .

﴿ فالذين آمنوا به ﴾ تعليم لكيفية اتباعه عليه الصلاة والسلام وبيان لعلو رتبة متبعيه واغتنامهم مغانم الرحمة الواسعة فى الدارين إثر بيان نعوته الجليلة والإشارة إلى إرشاده عليه الصلاة والسلام إياهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحلال الطيبات وتحريم الخبائث أى فالذين آمنوا بنبوته وأطاعوه فى أوامره ونواهيه ﴿ وعزروه ﴾ أى عظموه ووقروه وأعانوه بمنع أعدائه[1] عنه وقرىء بالتخفيف وأصله المنع ومنه التعزير ﴿ ونصروه ﴾ على أعدائه فى الدين ﴿ واتبعوا النور الذى أنزل معه ﴾ أى مع نبوته وهو القرآن عبر عنه بالنور المنبىء عن كونه ظاهراً بنفسه ومظهراً لغيره أو مظهراً للحقائق كاشفا عنها لمناسبة الاتباع ويجوز أن يكون معه متعلقا باتبعوا أى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباعه عليه الصلاة والسلام بالعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه أو اتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين من حيث اتصافهم بما فصل من الصفات الفاضلة للإشعار بعليتها للحكم وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم فى الفضل والشرف أو أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة ﴿ هم المفلحون ﴾ أى هم الفائزون بالمطلوب الناجون عن الكروب لا غيرهم من الأمم فيدخل فيهم قوم موسى عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا حيث لم ينجوا عما فى توبتهم من المشقة الهائلة وبه يتحقق التحقيق ويتأتى التوفيق والتطبيق بين دعائه عليه الصلاة والسلام وبين الجواب لا بمجرد ما قيل من أنه لما دعا لنفسه ولبنى إسرائيل أجيب بما هو منطو على توبيخ بنى

---

(١) فى ١٠ : ومنعوه من أعدائه .

إسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله عز وجل وعلى كفرهم بآياته العظام التى أجراها على يد موسى عليه الصلاة والسلام وعرض بذلك فى قوله تعالى (والذين هم بآياتنا يؤمنون) وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين[1] لطفاً بهم وترغيباً فى إخلاص الإيمان والعمل الصالح ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم ﴾ لما حكى ما فى الكتابين من نعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف من يتبعه من أهلهما ونيلهم لسعادة الدارين أمر عليه الصلاة والسلام ببيان أن تلك السعادة غير مختصة بهم بل شاملة لكل من يتبعه كائنا من كان ببيان عموم رسالته للثقلين مع اختصاص رسالة سائر الرسل عليهم السلام بأقوامهم وإرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه بالآيات التسع إنما كان لأمرهم بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبإرسال بنى إسرائيل من الأسر والقسر وأما العمل بأحكام التوراة فمختص ببنى إسرائيل ﴿ جميعا ﴾ حال من الضمير فى إليكم ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ﴾ منصوب أو مرفوع على المدح أو مجرور على أنه صفة للجلالة وإن حيل بينهما بما هو متعلق بما أضيف إليه فإنه فى حكم المتقدم عليه وقوله تعالى ﴿ لا إله إلا هو ﴾ بيان لما قبله فإن من ملك العالم كان هو الإله لا غيره وقوله تعالى ﴿ يحيى ويميت ﴾ لزيادة ألوهيته والفاء فى قوله تعالى ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ لتفريع الأمر على ما تمهد وتقرر من رسالته عليه الصلاة والسلام وإيراد نفسه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات إلى الغيبة للمبالغة فى إيجاب الامتثال بأمره ووصف الرسول بقوله ﴿ النبى الأمى ﴾ لمدحه عليه الصلاة والسلام بهما ولزيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب فى الكتابين ووصفه بقوله تعالى ﴿ الذى يؤمن بالله وكلماته ﴾ أى ما أنزل إليه وإلى سائر الرسل عليهم السلام من كتبه

(١) فى ١٠ : أهل الكتاب .

ووحيه لحمل أهل الكتابين على الامتثال بما أمروا به والتصريح بإيمانه بالله تعالى للتنبيه على أن الإيمان به تعالى لاينفك عن الإيمان بكلماته ولا يتحقق إلا به وقرىء وكلمته على إرادة الجنس أو القرآن تنبيها على أن المأمور به هو الإيمان به عليه الصلاة والسلام من حيث أنزل عليه القرآن لا من حيثية أخرى أو على أن المراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام تعريضا باليهود وتنبيها على أن من لم يؤمن به لم يعتد بإيمانه ﴿ واتبعوه ﴾ أى فى كل ما يأتى وما يذر من أمور الدين ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ علة للفعلين أو حال من فاعليها أى رجاء لاهتدائكم إلى المطلوب أو راجين له وفى تعليقه بهما إيذان بأن من صدقه ولم يتبعه بالتزام أحكام شريعته فهو بمعزل من الاهتداء مستمر على الغى والضلالة .

﴿ ومن قوم موسى ﴾ كلام مبتدأ مسوق لدفع ماعسى يوهمه تخصيص كتب الرحمة والتقوى والإيمان بالآيات بمتبعى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام من كل خير وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم بل منهم ﴿ أمة يهدون ﴾ أى الناس ﴿ بالحق ﴾ اى ملتبسين به أو يهدونهم بكلمة الحق ﴿ وبه ﴾ أى بالحق ﴿ يعدلون ﴾ أى فى الأحكام الجارية فيما بينهم وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية وقيل هم الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ويأباه أنه قد مر ذكرهم فيما سلف وقيل إن بنى إسرائيل لما بالغوا فى العتو والطغيان حتى اجترأوا على قتل الأنبياء عليهم السلام تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرق بينهم وبين أولئك الطاغين ففتح الله تعالى لهم نفقا فى الأرض فساروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا من وراء الصين وهم اليوم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا وقد ذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه السلام ذهب به ليلة الإسراء نحوهم فكلمهم فقال جبريل عليه السلام هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبى الأمى فآمنوا به وقالوا يارسول الله إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ منى عليه السلام فرد محمد على موسى السلام عليهما السلام ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن

نزلت يومئذ فريضة غير الصلاة والزكاة أمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت هذا وأنت خبير بأن تخصيصهم بالهداية من بين قومه عليه السلام مع أن منهم من آمن بجميع الشرائع لايخلو عن بعد.

من سلوك بنى إسرائيل

﴿ وقطعناهم ﴾ أى قوم موسى لا الأمة المذكورة[1] منهم وقرىء بالتخفيف وقوله تعالى ﴿ اثنتى عشرة ﴾ ثانى مفعولى قطع لتضمنه معنى التصيير والتأنيث للحمل على الأمة أو القطعة أى صيرناهم اثنتى عشرة أمة أو قطعة متميزا بعضها من بعض أو حال من مفعوله أى فرقناهم معدودين هذا العـــدد وقوله تعالى ﴿ أسباطا ﴾ بدل منه ولذلك جمع أو تميز له على أن كل واحدة من اثنتى عشرة قطعة أسباط لا سبط وقرىء عشرة بكسر الشين وقوله تعالى ﴿ أمما ﴾ على الأول بدل بعد بدل أو نعت لأسباطا وعلى الثانى بدل من أسباطا ﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه ﴾ حين استولى عليهم العطش فى التيه الذى وقعوا فيه بسوء صنيعهم لا بمجرد استسقائهم إياه عليه الصلاة والسلام بل باستسقائه لهم لقوله تعالى (وإذ استسقى موسى لقومه) وقوله تعالى ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر ﴾ مفسر لفعل الإيحاء وقد مر بيان شأن الحجر فى تفسير سورة البقرة ﴿ فانبجست ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف تعويلا على كمال الظهور وإيذانا بغاية مسارعته عليه السلام إلى الامتثال وإشعاراً بعدم تأثير الضرب حقيقة وتنبيها على كمال سرعة الانبجاس وهو الانفجار كأنه حصل إثر الأمر قبل تحقق الضرب كما فى قوله تعالى (اضرب بعصاك البحر فانفلق) أى فضرب فانبجست ﴿ منه اثنتا عشرة عينا ﴾ بعدد الأسباط وأما ما قيل من أن التقدير فإن ضربت فقد انبجست فغير حقيق بجزالة النظم التنزيلى وقرىء عشرة بكسر الشين وفتحها ﴿ قد علم كل أناس ﴾ كل سبط عبر عنهم بذلك إيذانا بكثرة كل واحد من الأسباط ﴿ مشربهم ﴾ أى عينهم الخاصة بهم ﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ أى

---

(١) فى ٤٣٠ : الأمة المهدية منهم .

جعلناها بحيث تلق عليهم ظلها تسير فى التيه بسيرهم وتسكن بإقامتهم وكان ينزل بالليل عمود من نار يسيرون بضوئه .

﴿ وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾ أى الترنجبين والسمانى . قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع[1] لكل إنسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه ﴿ كلوا ﴾ أى وقلنا لهم كلوا ﴿ من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى ﴿ وما ظلمونا ﴾ رجوع إلى سنن الكلام الأول بعد حكاية خطابهم وهو معطوف على جملة محذوفة للإيجاز والإشعار بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به أى فظلموا بأن كفروا بتلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ إذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول لإفادة القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب من التهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فيما هم فيه من الظلم والكفر .

﴿ وإذ قيل لهم ﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وإيراد الفعل على البناء للمفعول مع استناده إليه تعالى كما يفصح عنه ما وقع فى سورة البقرة من قوله تعالى (وإذ قلنا) للجرى على سنن الكبرياء والإيذان بالغنى عن التصريح به لتعين الفاعل وتغيير النظم بالأمر بالذكر للتشديد فى التوبيخ أى اذكر لهم وقت قوله تعالى لأسلافهم ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ منصوب على المفعولية يقال سكنت الدار وقيل على الظرفية اتساعا وهى بيت المقدس وقيل أريحا وهى قرية الجبارين وكان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة [على][2] رأسهم عوج بن عنق وفى قوله تعالى (اسكنوا) إيذان بأن المأمور به فى سورة البقرة هو الدخول على وجه السكنى والإقامة ولذلك اكتفى به عن ذكر رغدا فى قوله تعالى ﴿ وكلوا منها ﴾ أى من مطاعمها وثمارها على أن من تبعيضية أو منها على أنها ابتدائية ﴿ حيث شئتم ﴾ أى من نواحيها من غير أن

---

(١) فى ١٠ : إلى طلوع الشمس . (٢) سقطت من ط .

يزاحمكم فيها أحد فإن الأكل المستمر على هذا الوجه لا يكون إلا رغدا واسعا وعطف كلوا على اسكنوا بالواو لمقارنتها زمانا بخلاف الدخول فإنه مقدم على الأكل ولذلك قيل هناك فكلوا ﴿ وقولوا حطة ﴾ أى مسألتنا أو أمرك حطة لذنوبنا وهى فعلة من الحط كالجلسة ﴿ وادخلوا الباب ﴾ أى باب القرية ﴿ سجدا ﴾ أى متطامنين مخبتين أو ساجدين شكراً على إخراجهم من التيه وتقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور فى سورة البقرة غير مخل بهذا الترتيب لأن المأمور به هو الجمع بين الفعلين من غير اعتبار الترتيب بينهما ثم إن كان المراد بالقرية أريحاء فقد روى أنهم دخلوها حيث سار إليها موسى عليه السلام بمن بقى من بنى إسرائيل أو بذراريهم على اختلاف الروايتين ففتحها كما مر فى سورة المائدة وأما إن كان بيت المقدس فقد روى أنهم لم يدخلوه فى حياة موسى عليه السلام فقيل المراد بالباب باب القبة التى كانوا يصلون إليها ﴿ نغفر لكم خطيآتكم ﴾ وقرىء خطاياكم كما فى سورة البقرة وتغفر لكم خطيئاتكم وخطاياكم وخطيئتكم على البناء للمفعول ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ عدة بشيئين بالمغفرة وبالزيادة وطرح الواو ههنا لا يخل بذلك لأنه استئناف مترتب على تقدير سؤال نشأ من الإخبار بالغفران كأنه قيل فماذا لهم بعد الغفران فقيل سنزيد وكذلك زيادة منهم زيادة بيان .

﴿ فبدل الذين ظلموا منهم ﴾ بما أمروا به من التوبة والاستغفار حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعه ﴿ قولا ﴾ آخر مما لا خير فيه . روى أنهم دخلوه زاحفين على أستاههم وقالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا شمقاثا يعنون حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى واستهزاء بموسى عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿ غير الذى قيل لهم ﴾ نعت لقولا صرح بالمغايرة مع دلالة التبديل عليها قطعا تحقيقا للمخالفة وتنصيصا على المغايرة من كل وجه ﴿ فأرسلنا عليهم ﴾ إثر ما فعلوا ما فعلوا من غير تأخير وفى سورة البقرة (على الذين ظلموا) والمعنى واحد والإرسال من فوق فيكون كالإنزال ﴿ رجزا من السماء ﴾ عذابا كائنا منها والمراد الطاعون. روى أنه مات منهم فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا

﴿ بما كانوا يظلمون ﴾ بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لا بسبب التبديل فقط كما يشعر به ترتيب الإرسال عليه بالفاء والتصريح بهذا التعليل لما أن الحكم ههنا مترتب على المضمر دون الموصول بالظلم كما فى سورة البقرة وأما التعليل بالفسق بعد الإشعار بعلية الظلم فقد مر وجهه هناك والله تعالى أعلم ﴿ واسألهم ﴾ عطف على المقدر فى إذ قيل أى واسأل اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع وتقرير كفرهم وتجاوزهم لحدود الله تعالى وإعلاماً لهم بأن ذلك مع كونه من علومهم الخفية التى لا يقف عليها إلا من مارس كتبهم قد أحاط به النبى عليه الصلاة والسلام خبراً وإذ ليس ذلك بالتلقى من كتبهم لأنه عليه الصلاة والسلام بمعزل من ذلك تعين أنه من جهة الوحى الصريح ﴿عن القرية﴾ أى عن حالها وخبرها وماجرى على أهلها من الداهية الدهياء وهى أيلة قرية بين مدين والطور وقيل هى مدين وقيل طبرية والعرب تسمى المدينة قرية ﴿ التى كانت حاضرة البحر ﴾ أى قريبة منه مشرفة على شاطئه ﴿ إذ يعدون فى السبت ﴾ أى يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت وإذ ظرف للمضاف المحذوف أو بدل منه وقيل ظرف لكانت أوحاضرة وليس بذاك إذ لافائدة فى تقييد الكون أو الحضور بوقت العدوان وقرىء يعدون وأصله يعتدون ويعدون من الإعداد حيث كانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم منهيون عن الاشتغال فيه بغير العبادة .

﴿إذ تأتيهم حيتانهم﴾ ظرف ليعدون أو بدل بعد بدل والأول هو الأولى لأن السؤال عن عدوانهم أدخل فى التقريع والحيتان جمع حوت قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها كنون ونينان لفظا ومعنى وإضافتها إليهم للإشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجد فى سائر أفراد الجنس من الخواص الخارقة للعادة أو لأن المراد بها الحيتان الكائنة فى تلك الناحية وأن ما ذكر من الإتيان وعدمه لاعتيادها أحوالهم فى عدم التعرض يوم السبت ﴿يوم سبتهم ﴾ ظرف لتأتيهم أى تأتيهم يوم تعظيمهم لأمر السبت وهو مصدر سبتت اليهود إذا عظمت السبت بالتجرد للعبادة وقيل اسم لليوم والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه

ويؤيد الأول قراءة من قرأ يوم أسباتهم وقوله تعالى ﴿ شرعا ﴾ جمع شارع من شرع عليه إذا دنا وأشرف وهو حال من حيتانهم أى تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل ﴿ ويوم لا يسبتون ﴾ أى لا يراعون أمر السبت لكن لا بمجرد عدم المراعاة مع تحقق يوم السبت كما هو المتبادر بل مع انتفائهما معا أى لا سبت ولا مراعاة كما فى قوله :

* ولا ترى الضب بها ينجحر *

وقرىء لا يسبتون من أسبت ولا يسبتون على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون فى السبت ولا يدار عليهم حكم السبت ولا يؤمرون فيه بما أمروا به يوم السبت ﴿ لا تأتيهم ﴾ كما كانت تأتيهم يوم السبت حذار من صيدهم وتغيير السبك حيث لم يقل ولا تأتيهم يوم لا يسبتون لما أن الإخبار بإتيانها يوم سبتهم مظنة أن يقال فماذا حالها يوم لا يسبتون فقيل يوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴿ كذلك نبلوهم ﴾ أى مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع نعاملهم معاملة من يختبرهم ليظهر عداوتهم ونؤاخذهم به وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجيب منها ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أى بسبب فسقهم المستمر المدلول عليه بالجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لكن لا فى تلك المادة فإن فسقهم فيها لا يكون سبباً للبلوى بل بسبب فسقهم المستمر فى كل ما يأتون وما يذرون وقيل كذلك متصل بما قبله أى لا تأتيهم مثل ما تأتيهم يوم سبتهم فالجملة بعده حينئذ استئناف مبنى على السؤال عن حكمة اختلاف حال الحيتان بالإتيان تارة وعدمه أخرى .

﴿ وإذ قالت ﴾ عطف على إذ يعدون مسوق لتماديهم فى العدوان وعدم انزجارهم عند بعد العظات والإنذارات ﴿ أمة منهم ﴾ أى جماعة من صلحائهم الذين ركبوا فى عظتهم متن كل صعب وذلول حتى يئسوا من احتمال القبول لآخرين لا يقلعون عن التذكير رجاء للنفع والتأثير مبالغة فى الإعذار وطمعاً فى فائدة الإنذار ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ أى مخترمهم بالكلية ومطهر

الأرض منهم ﴿أو معذبهم عذابا شديدا﴾ دون الاستئصال بالمرة وقبل مهلكهم مخزيهم فى الدنيا أو معذبهم فى الآخرة لعدم إقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والطغيان والترديد لمنع الخلو دون منع الجمع فإنهم مهلكون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة وإيثار صيغة اسم الفاعل مع أن كلا من الإهلاك والتعذيب مترقب للدلالة على تحققهما وتقررهما البتة كأنهما واقعان وإنما قالوه مبالغة فى أن الوعظ لا ينجع فيهم أو ترهيبا للقوم أو سؤالا عن حكمة الوعظ ونفعه ولعلهم إنما قالوه بمحضر من القوم حثاً لهم على الاتعاظ فإن بت القول بهلاكهم وعذابهم مما يلقى فى قلوبهم الخوف والخشية وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعاظهم ردا عليهم وتهكما بهم وليس بذاك كما ستقف عليه ﴿قالوا﴾ أى الوعاظ ﴿معذرة إلى ربكم﴾ أى نعظهم معذرة إليه تعالى على أنه مفعول له وهو الأنسب بظاهر قولهم لم تعظون أو نعتذر معذرة على أنه مصدر لفعل محذوف وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى موعظتنا معذرة إليه تعالى حتى لا ننسب إلى نوع تفريط فى النهى عن المنكر وفى إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين نوع تعريض بالسائلين ﴿ولعلهم يتقون﴾ عطف على معذرة أى ورجاء لأن يتقوا بعض التقاة وهذا صريح فى أن القائلين لم تعظون الخ ليسوا من الفرقة الهالكة وإلا لوجب الخطاب .

﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أى تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم ترك الناسى للشىء[1] وأعرضوا عنه إعراضا كليا بحيث لم يخطر ببالهم شىء من تلك المواعظ أصلا ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ وهم الفريقان المذكوران وإخراج إنجائهم مخرج الجواب الذى حقه الترتب على الشرط وهو نسيان المعتدين المستتبع لإهلاكهم لما أن ما فى حيز الشرط شيآن النسيان والتذكير كأنه قيل فلما ذكر المذكورين ولم يتذكر المعتدون أنجينا الأولين وأخذنا الآخرين وأما تصدير الجواب بإنجائهم فلما مر مرارا من المسارعة إلى بيان نجاتهم من أول

---

(١) فى ٤٣٠ : ترك نسيان .

الأمر مع ما فى المؤخر من نوع طول ﴿ وأخذنا الذين ظلموا ﴾ بالاعتداء ومخالفة الأمر ﴿ بعذاب بئيس ﴾ أى شديد وزنا ومعنى من بؤس يبؤس بأسا إذا اشتد وقرىء بيأس على وزن فيعل بفتح العين وكسرها وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها إلى الفاء ككبد فى كبد وبيس بقلب الهمزة ياء كذيب فى ذئب وبيس كريس بقلب همزة بئيس ياء وإدغام الياء فيها وبيس على تخفيف بيس كهين فى هين وتنكير العذاب للتفخيم والتهويل ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ متعلق بأخذنا كالباء الأولى ولا ضير فيه لاختلافهما معنى أى أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب تماديهم فى الفسق الذى هو الخروج عن الطاعة وهو الظلم والعدوان أيضاً وإجراء الحكم على الموصول وإن أشعر بعلية ما فى حيز الصلة له لكنه صرح بالتعليل المذكور إيذانا بأن العلة هو الاستمرار على الظلم والعدوان مع اعتبار كون ذلك خروجا عن طاعة الله عز وجل لا نفس الظلم والعدوان وإلا لما أخروا عن ابتداء المباشرة ساعة ولعله تعالى قد عذبهم بعذاب شديد دون الاستئصال فلم يقلعوا عما كانوا عليه بل ازدادوا فى الغى فمسخهم بعد ذلك لقوله تعالى :

﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه ﴾ أى تمردوا وتكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ صاغرين أذلاء بعداء عن الناس والمراد بالأمر هو الأمر التكوينى لا القولى وترتيب المسخ على العتو عن الانتهاء عما نهوا عنه للإيذان بأنه ليس لخصوصية الحوت بل العمدة فى ذلك هو مخالفة الأمر والاستعصاء عليه تعالى وقيل المراد بالعذاب البئيس هو المسخ والجملة الثانية تقرير للأولى . روى أن اليهود أمروا باليوم الذى أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت وهو المعنى بقوله تعالى (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) فابتلوا به وحرم عليهم الصيد فيه وأمروا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كأنها المخاض لا يرى وجه الماء لكثرتها ولا تأتيهم فى سائر الأيام فكانوا على ذلك برهة من الدهر ثم جاءهم إبليس فقال لهم إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا سهلة الورود صعبة الصدور ففعلوا

فجعلوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها ويأخذونها يوم الأحد وأخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذنبه خيطا إلى خشبة فى الساحل ثم شواه يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع فى تنوره فقال له إنى أرى الله سيعذبك فلما لم يره عذب أخذ فى يوم السبت القابل حوتين فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم استمروا على ذلك فصادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحواً من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثا ثلث استمروا على النهى وثلث ملوا التذكير وسئموه وقالوا للواعظين لم تعظون الخ وثلث باشروا الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون نحن لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا إن لهم لشأنا فعلوا الجدار فنظروا فإذا هم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسباءهم من الإنس وهم لا يعرفونها فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه فيبكى فيقول له نسيبه ألم ننهكم فيقول القرد برأسه بلى ثم ماتوا عن ثلاث وقيل صار الشبان قردة والشيوخ خنازير، وعن مجاهد رضى الله عنه مسخت قلوبهم وقال الحسن البصرى أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزيا فى الدنيا وأطولها عذابا فى الآخرة هاه وايم الله ما حوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعدا والساعة أدهى وأمر .

﴿ وإذ تأذن ربك ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر معطوف على قوله تعالى (واسألهم) وتأذن بمعنى آذن كما أن توعد بمعنى أوعد أو بمعنى عزم فإن العازم على الأمر يحدث به نفسه وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله فلذلك أجيب بجوابه حيث قيل ﴿ ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾ أى واذكر لهم وقت إيجابه تعالى على نفسه أن يسلط على اليهود ألبتة ﴿ من يسومهم سوء العذاب ﴾ كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك من فنون العذاب وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام بخت نصر فخرب ديارهم وقتل مقاتلتهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقى منهم وكانوا يؤدونها إلى المجوس

حتى بعث النبي عليه الصلاة والسلام ففعل ما فعل ثم ضرب الجزية عليهم فلا تزال مضروبة إلى آخر الدهر ﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ يعاقبهم فى الدنيا ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن تاب وآمن منهم .

﴿ وقطعناهم ﴾ أى فرقنا بنى اسرائيل ﴿ فى الأرض ﴾ وجعلنا كل فرقة منهم فى قطر من أقطارها بحيث لا تخلو ناحية منها منهم تكملة لأدبارهم حتى لا تكون لهم شوكة وقوله تعالى ﴿ أمما ﴾ إما مفعول ثان لقطعنا أو حال من مفعوله ﴿ منهم الصالحون ﴾ صفة لأمما أو بدل منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ومن يسير بسيرتهم ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ أى ناس دون ذلك الوصف أى منحطون عن الصلاح وهم كفرتهم وفسقتهم ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ بالنعم والنقم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عما كانوا فيه من الكفر والمعاصى ﴿ فخلف من بعدهم ﴾ أى من بعد المذكورين ﴿ خلف ﴾ أى بدل سوء مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع وقيل جمع وهو شائع فى الشر والخلف بفتح اللام فى الخير والمراد به الذين كانوا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أى التوراة من أسلافهم يقرءونها ويقفون على ما فيها ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ استئناف مسوق لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتهم إياه أى يأخذون حطام هذا الشيء الأدنى أى الدنيا من الدنو أو الدناءة والمراد به ما كانوا يأخذونه من الرشا فى الحكومات وعلى تحريف الكلام وقيل حال من واو ورثوا ﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ ولا يؤاخذنا الله تعالى بذلك ويتجاوز عنه والجملة تحتمل العطف والحالية والفعل مسند إلى الجار والمجرور أو مصدر يأخذون ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ حال من الضمير فى لنا أى يرجون المغفرة والحال أنهم مصرون على الذنب عائدون إلى مثله غير تائبين عنه ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ﴾ أى الميثاق الوارد فى الكتاب ﴿ ألا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ عطف بيان للميثاق أو متعلق به أى بأن لا يقولوا الخ والمراد به الرد عليهم والتوبيخ على بتهم القول بالمغفرة بلا توبة والدلالة على أنها افتراء على الله تعالى وخروج عن ميثاق الكتاب

﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فإنه تقرير أو على ورثوا وهو اعتراض ﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ ما فعل هؤلاء ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فتعلموا ذلك فلا تستبدلوا الأدنى المؤدى إلى العقاب بالنعيم المخلد وقرىء بالياء وفى الالتفات تشديد للتوبيخ .

﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾ أى يتمسكون فى أمور دينهم يقال مسك بالشيء وتمسك به قال مجاهدهم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذى جاء به موسى عليه السلام فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة وقال عطاءهم أمة محمد عليه الصلاة والسلام وقرىء يمسكون من الإمساك وقرىء تمسكوا واستمسكوا موافقا لقوله تعالى ﴿ وأقاموا الصلوة ﴾ ولعل التغيير فى المشهورة للدلالة على أن التمسك بالكتاب أمر مستمر فى جميع الأزمنة بخلاف إقامة الصلاة فإنها مختصة بأوقاتها وتخصيصها بالذكر من بين سائر العبادات لإنافتها عليها ومحل الموصول إما الجر نسقا على الذين يتقون وقوله أفلا تعقلون اعتراض مقرر لما قبله وإما الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ والرابط إما الضمير المحذوف كما هو رأى جمهور البصريين والتقدير أجر المصلحين منهم وإما الألف واللام كما هو رأى الكوفيين فإنه فى حكم مصلحيهم كما فى قوله تعالى (فإن الجنة هى المأوى) أى مأواهم وقوله تعالى (مفتحة لهم الأبواب) أى أبوابها وإما العموم فى مصلحين فإنه من الروابط ومنه نعم الرجل زيد على أحد الوجوه وقيل الخبر محذوف والتقدير والذين يمسكون بالكتاب مأجورون أو مثابرون وقوله تعالى (إنا لا نضيع) الخ اعتراض مقرر لما قبله .

﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم ﴾ أى قلعناه من مكانه ورفعناه عليهم ﴿ كأنه ظلة ﴾ أى سقيفة وهى كل ما أظلك ﴿ وظنوا ﴾ أى تيقنوا ﴿ أنه واقع بهم ﴾ ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت فى الجو لأنهم كانوا يوعدون به وإطلاق الظن فى الحكاية لعدم وقوع متعلقة وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله تعالى عليهم الطور وقيل لهم إن قبلتم ما فيها وإلا ليقعن عليكم

﴿ خذوا ما آتيناكم ﴾ أى وقلنا أو قائلين خذوا ما آتيناكم من الكتاب ﴿ بقوة ﴾ بجد وعزيمة على تحمل مشاقه وهو حال من الواو ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ بالعمل ولا تتركوه كالمنسى ﴿ لعلكم تتقون ﴾ بذلك قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق أو راجين أن تنتظموا فى سلك المتقين .

نقض اليهود للميثاق العام

﴿ وإذ أخذ ربك ﴾ منصوب بمضمر معطوف على ما انتصب به إذ نتقنا مسوق للاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام المنتظم للناس قاطبة وتوبيخهم بنقضه إثر الاحتجاج عليهم بتذكير ميثاق الطور وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه مرارا أى واذكر لهم (وقت) أخذ ربك ﴿ من بنى آدم ﴾ المراد بهم الذين ولدهم كائنا من كان نسلا بعد نسل سوى من لم يولد له بسبب من الأسباب كالعقم وعدم التزوج والموت صغيراً وإيثار الأخذ على الإخراج للإيذان بالإعتناء بشأن المأخوذ لما فيه من الإنباء عن الاجتباء والاصطفاء وهو السبب فى إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتى وإضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقوله تعالى ﴿ من ظهورهم ﴾ بدل من بنى آدم بدل البعض بتكرير الجار كما فى قوله تعالى (للذين استضعفوا لمن آمن منهم) ومن فى الموضعين ابتدائية وفيه مزيد تقرير لابتنائه على البيان بعد الإبهام والتفصيل غب الإجمال تنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم وهم فى أصلاب الآباء ولم يستودعوا فى أرحام الأمهات وقوله تعالى ﴿ ذريتهم ﴾ مفعول أخذ أخر عن المفعول بواسطة الجار لاشتماله على ضمير راجع إليه ولمراعاة أصالته ومنشئيته ولما مر مرارا من التشويق إلى المؤخر وقرىء ذرياتهم والمراد بهم أولادهم على العموم فيندرج فيهم اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اندراجا أولياً كما اندرج أسلافهم فى بنى آدم كذلك وتخصيصهما باليهود سلفا وخلفا مع أن ما أريد بيانه من بديع صنع الله تعالى عز وجل شامل للكل كافة مخل بفخامة التنزيل وجزالة التمثيل ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ﴾ أى أشهد كل واحدة

من أولئك الذريات المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها لا على غيرها تقريرا لهم بربوبيته التامة وما تستتبعه من المعبودية على الاختصاص وغير ذلك من أحكامها وقوله تعالى ﴿ ألست بربكم ﴾ على إرادة القول أى قائلا ألست بربكم ومالك أمركم ومربيكم على الإطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئونكم فينتظم استحقاق المعبودية ويستلزم اختصاصه به تعالى .

﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا ﴿ بلى شهدنا ﴾ أى على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك كما ورد فى الحديث الشريف وهذا تمثيل لخلقه تعالى إياهم جميعا فى [مبدأ][1] الفطرة مستعدين للاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس المؤدية إلى التوحيد والإسلام كما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة الحديث مبنى على تشبيه الهيئة المنتزعة من تعريضه تعالى إياهم لمعرفة ربوبيته بعد تمكينهم منها بما ركز فيهم من العقول والبصائر ونصب لهم فى الآفاق والأنفس من الدلائل تمكينا تاما ومن تمكنهم تمكنا كاملا وتعرضهم لها تعرضا قويا بهيئة منتزعة من حمله تعالى إياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ومن مسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلا من غير أن يكون هناك أخذ وإشهاد وسؤال وجواب كما فى قوله تعالى (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) .

وقوله تعالى ﴿ أن تقولوا ﴾ بالتاء على تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاصريه من اليهود تشديدا فى الإلزام أو إليهم وإلى متقدميهم بطريق التغليب لكن لا من حيث إنهم مخاطبون بقوله تعالى (ألست بربكم) فإنه ليس من الكلام المحكى وقرىء بالياء على أن الضمير للذرية وأياما كان فهو مفعول له لما قبله من الأخذ والإشهاد أى فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا

---

(١) سقطت من الأصل .

أو لئلا تقولوا أيها الكفرة أو يقولوا هم ﴿ يوم القيامة ﴾ عند ظهور الأمر ﴿ إنا كنا عن هذا ﴾ عن وحدانية الربوبية وأحكامها ﴿ غافلين ﴾ لم ننبه عليه فإنهم حيث جبلوا على ما ذكر من التهيؤ التام لتحقيق الحق والقوة القريبة من الفعل صاروا محجوجين عاجزين عن الاعتذار بذلك إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة وقوله تعالى :

﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا ﴾ عطف على تقولوا وأو لمنع الخلو دون الجمع أى هم اخترعوا الإشراك وهم سنوه ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل زماننا ﴿ وكنا ﴾ نحن ﴿ ذرية من بعدهم ﴾ لا نهتدى إلى السبيل ولا نقدر على الاستدلال بالدليل ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ من آبائنا المضلين بعد ظهور أنهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبير والاستبداد بالرأى أو أتؤاخذنا فتهلكنا الخ فإن ما ذكر من استعدادهم الكامل يسد عليهم باب الاعتذار بهذا أيضا فإن التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها مما لا مساغ له أصلا هذا وقد حملت هذه المقاولة على الحقيقة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فقال ألست بربكم قالوا بلى فنودى يومئذ جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن الآية الكريمة فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون وليس المعنى أنه تعالى أخرج الكل من ظهره عليه الصلاة والسلام بالذات بل أخرج من ظهره عليه السلام أبناءه الصلبية ومن ظهورهم أبناءهم الصلبية وهكذا إلى آخر السلسلة لكن لما كان المظهر الأصلى ظهره عليه الصلاة والسلام وكان مساق الحديثين الشريفين بيان حال الفريقين إجمالا من غير أن يتعلق بذكر الوسائط غرض علمى نسب إخراج الكل إليه وأما الآية الكريمة فحيث كانت مسوقة للاحتجاج

على الكفرة المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان عدم إفادة الاعتذار بإسناد الإشراك إلى آبائهم اقتضى الحال نسبة إخراج كل واحد منهم إلى ظهر أبيهم من غير تعرض لإخراج الأبناء الصلبية لآدم عليه السلام من ظهره قطعا وعدم بيان الميثاق فى حديث عمر رضى الله تعالى عنه ليس بيانا لعدمه ولا مستلزما له وأما ما قالوا من أن أخذ الميثاق لإسقاط عذر الغفلة حسبما ينطق به قوله تعالى (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) ومعلوم أنه غير دافع لغفلتهم فى دار التكليف إذ لا فرد من أفراد البشر يذكر ذلك فمردود لكن لا بما قيل من أن الله عز وجل قد أوضح الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمته الحجة ونسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق بل بأن قوله تعالى (أن تقولوا) الخ ليس مفعولا له لقوله تعالى (وأشهدهم) وما يتفرع عليه من قولهم بلى شهدنا حتى يجب كون ذلك الإشهاد والشهادة محفوظا لهم فى إلزامهم بل لفعل مضمر ينسحب عليه الكلام والمعنى فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاق وبيانه كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه فى دار التكليف وإلا لعملنا بموجبه هذا على قراءة الجمهور وأما على القراءة بالياء فهو مفعول له لنفس الأمر المضمر العامل فى إذ أخذ والمعنى أذكر لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباء هذا على تقدير كون قوله تعالى (شهدنا) من كلام الذرية وهو الظاهر فأما على تقدير كونه من كلامه تعالى فهو العامل فى أن تقولوا ولا محذور أصلا إذ المعنى شهدنا قولكم هذا لئلا تقولوا يوم القيامة الخ لأنا نردكم ونكذبكم حينئذ .

﴿ وكذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو شأن المشار إليه وبعد منزلته والكاف مقحمة مؤكدة لما أفاده اسم الإشارة من الفخامة والتقديم على الفعل لإفادة القصر ومحله النصب على المصدرية أى ذلك التفصيل البليغ المستتبع للمنافع الجليلة ﴿ نفصل الآيات ﴾

المذكورة لا غير [ذلك][1] ﴿ ولعلهم يرجعون ﴾ وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء نفعل التفصيل المذكور قالوا وإن ابتدائيتان ويجوز أن تكون الثانية عاطفة على مقدر مترتب على التفصيل أى وكذلك نفصل الآيات ليقفوا على ما فيها من المرغبات والزواجر وليرجعوا الخ .

﴿ واتل عليهم ﴾ عطف على المضمر العامل فى إذ أخذ وارد على نمطه فى الإنباء عن الحور بعد الكور والضلالة بعد الهدى أى واتل على اليهود ﴿ نبأ الذى آتيناه آياتنا ﴾ أى خبره الذى له شأن وخطر وهو أحد علماء بنى إسرائيل وقيل هو بلعم بن باعوراء أو بلعام بن باعر من الكنعانيين أوتى علم بعض كتب الله تعالى وقيل هو أمية بن أبى الصلت وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل فى ذلك الزمان رسولا ورجا أن يكون هو الرسول فلما بعث الله تعالى النبى صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به والأول هو الأنسب بمقام توبيخ اليهود بهناتهم ﴿ فانسلخ منها ﴾ أى من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة ولم يخطرها بباله أصلا أو أخرج منها بالكلية بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره وأيا ما كان فالتعبير عنه بالانسلاخ المنبىء عن اتصال المحيط بالمحاط خلقه وعن عدم الملاقاة بينهما أبدا للإيذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال ﴿ فاتبعه الشيطان ﴾ أى تبعه حتى لحقه وأدركه فصار قرينا له وهو المعنى على قراءة فاتبعه من الافتعال وفيه تلويح بأنه أشد من الشيطان غواية أو أتبعه خطواته ﴿ فكان من الغاوين ﴾ فصار من زمرة الضالين الراسخين فى الغواية بعد أن كان من المهتدين وروى أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى عليه السلام فقال كيف أدعوا على من معه الملائكة فلم يزالوا به حتى فعل فبقوا فى التيه ويرده أن التيه كان لموسى عليه السلام روحا وراحة وإنما عذب به بنو إسرائيل وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام عليهم كما مر فى سورة المائدة .

---

(١) سقطت من ٤٣٠

﴿ ولو شئنا ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان مناط ما ذكر من انسلاخه من الآيات ووقوعه فى مهاوى الغواية ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء على القاعدة المستمرة أى ولو شئنا رفعه ﴿ لرفعناه ﴾ أى إلى المنازل العالية للأبرار العالمين بتلك الآيات العاملين بموجبها لكن لا بمحض مشيئتنا من غير أن يكون له دخل فى ذلك أصلا فإنه مناف للحكمة التشريعية المؤسسة على تعليق الأجزية بالأفعال الاختيارية للعباد بل مع مباشرته للعمل المؤدى إلى الرفع بصرف اختياره إلى تحصيله كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ بها ﴾ أى بسبب تلك الآيات بأن عمل بموجبها فإن اختياره وإن لم يكن مؤثرا فى حصوله ولا فى ترتب الرفع عليه بل كلاهما بخلق الله تعالى لكن خلقه تعالى منوط بذلك ألبتة حسب جريان العادة الإلهية وقد أشير إلى ذلك فى الاستدراك بأن أسند ما يؤدى إلى نقيض التالى إليه حيث قيل ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ مع أن الإخلاد إليها أيضا مما لا يتحقق عند صرف اختياره إليه إلا بخلقه تعالى كأنه قيل لو شئنا رفعه بمباشرته لسببه لرفعناه بسبب تلك الآيات التى هى أقوى أسباب الرفع ولكن لم نشأه لمباشرته لسبب نقيضه فترك فى كل من المقامين ماذكر فى الآخر تعويلا على إشعار المذكور بالمطوى كما فى قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) وتخصيص كل من المذكورين بمقامه للإيذان بأن الرفع مراد له تعالى بالذات وتفضل محض عليه لا دخل فيه لفعله حقيقة كيف لا وجميع أفعاله ومباديها من نعمه تعالى وتفضلاته وإن نقيضه إنما أصابه بسوء اختياره على موجب الوعيد لا بالإرادة الذاتية له سبحانه كما قيل فى وجه ذكر الإرادة مع الخير والمس مع الضر فى الآية المذكورة وهو الشر فى جريان السنة القرآنية على إسناد الخير إليه تعالى وإضافة الشر إلى الغير كما فى قوله تعالى (وإذا مرضت فهو يشفين) ونظائره والإخلاد إلى الشىء الميل إليه مع الاطمئنان به والمراد بالأرض الدنيا وقيل السفالة والمعنى ولكنه آثر الدنيا الدنية على المنازل السنية أو الضعة والسفالة على الرفعة والجلالة ﴿ واتبع هواه ﴾ معرضا عن تلك

الآيات الجليلة فانحط أبلغ انحطاط وارتد أسفل سافلين وإلى ذلك أشير بقوله تعالى :

﴿ فمثله كمثل الكلب ﴾ لما أنه أخس الحيوانات وأسفلها وقد مثل حاله بأخس أحواله وأذلها حيث قيل ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ أى فحاله التى هى مثل فى السوء كصفته فى أرذل أحواله وهى حالة دوام اللهث به فى حالتى التعب والراحة فكأنه قيل فتردى إلى ما لا غاية وراءه فى الخسة والدناءة وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية بأن يقال فصار مثله كمثل الكلب الخ للإيذان بدوام اتصافه بتلك الحالة الخسيسة وكمال استمراره عليها والخطاب فى فعل الشرط لكل أحد ممن له حظ من الخطاب فإنه أدخل فى إشاعة فظاعة حاله واللهث إدلاع اللسان بالتنفس الشديد أى هو ضيق الحال مكروب دائم اللهث سواء هيجته وأزعجته بالطرد العنيف أو تركته على حاله فإنه فى الكلاب طبع لا تقدر على نفض الهواء المتسخن وجلب الهواء البارد بسهولة لضعف قلبها وانقطاع فؤادها بخلاف سائر الحيوانات فإنها لا تحتاج إلى التنفس الشديد ولا يلحقها الكرب والمضايقة إلا عند التعب والإعياء والشرطية مع أختها تفسير لما أبهم فى المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه لا محل له من الإعراب على منهاج قوله تعالى (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) إثر قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) وقيل هى فى محل النصب على الحالية من الكلب بناء على خروجهما من حقيقة الشرط وتحولها إلى معنى التسوية حسب تحول الاستفهامين المتناقضين إليه فى مثل قوله تعالى(أأنذرتهم أم لم تنذرهم) كأنه قيل لاهثا فى الحالتين وأياما كان فالأظهر أنه تشبيه للهيئة المنتزعة مما اعتراه بعد الانسلاخ من سوء الحال واضطرام القلب ودوام القلق والاضطراب وعدم الاستراحة بحال من الأحوال بالهيئة المنتزعة مما ذكر من حال الكلب وقيل لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فتدلى على صدره وجعل يلهث كالكلب إلى أن هلك .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الحالة الخسيسة منسوبة إلى الكلب

أو إلى المنسلخ وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتها فى الخسة والدناءة أى ذلك المثل السيء ﴿ مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وهم اليهود حيث أوتوا من نعوت النبي عليه الصلاة والسلام وذكر القرآن المعجز وما فيه فصدقوه وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿ فاقصص القصص ﴾ القصص مصدر وسمى به المفعول كالسلب واللام للعهد والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى إذا تحقق أن المثل المذكور مثل هؤلاء المكذبين فاقصصه عليهم حسبما أوحى إليك ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ فيقفون على جلية الحال وينزجرون عماهم عليه من الكفر والضلال ويعلمون أنك قدعلمته من جهة الوحى فيزدادون إيقانا بك والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير المخاطب أوعلى أنها مفعول له أى فاقصص القصص راجيا لتفكرهم أى أو رجاء لتفكرهم .

﴿ ساء مثلا ﴾ استئناف مسوق لبيان كمال قبح حال المكذبين بعد بيان كونه كحال الكلب أو المنسلخ وساء بمعنى بئس وفاعلها مضمر فيها ومثلا تمييز مفسر له والمخصوص بالذم قوله تعالى ﴿ القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وحيث وجب التصادق بينه وبين الفاعل والتمييز وجب المصير إلى تقدير مضاف إما إليه وهو الظاهر أى ساء مثلا مثل القوم الخ أو إلى التمييز أى ساء أصحاب مثل القوم الخ وقرىء ساء مثل القوم وإعادة القوم موصوفا بالموصول مع كفاية الضمير بأن يقال ساء مثلا مثلهم للإيذان بأن مدار السوء ما فى حيز الصلة والربط قوله تعالى ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ به فإنه إما معطوف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة بمعنى جمعوا بين تكذيب آيات الله بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها وبين ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتخطاها وأياما كان ففى يظلمون لمح إلى أن تكذيبهم بالآيات متضمن للظلم بها وأن ذلك أيضا معتبر فى القصر المستفاد من تقديم المفعول .

﴿ من يهد الله فهو المهتدى ﴾ لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ليتفكروا فيه ويتركوا ماهم

عليه من الإخلاد إلى الضلالة ويهتدوا إلى الحق عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل وإنما العظة والتذكير من قبل الوسائط العادية فى حصول الاهتداء من غير تأثير لها فيه سوى كونها دواعى إلى صرف العبد اختياره نحو تحصيله حسبما نيط به خلق الله تعالى إياه كسائر أفعال العباد فالمراد بهذه الهداية ما يوجب الاهتداء قطعا لكن لا لأن حقيقتها الدلالة الموصلة إلى البغية البتة بل لأنها الفرد الكامل من حقيقة الهداية التى هى الدلالة إلى ما يوصل إلى البغية أى ما من شأنه الإيصال إليها كما سبق تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (هدى للمتقين) وليس المراد مجرد الإخبار باهتداء من هداه الله تعالى حتى يتوهم عدم الإفادة بحسب الظاهر لظهور استلزام هدايته تعالى للاهتداء ويحمل النظم الكريم على تعظيم شأن الاهتداء والتنبيه على أنه فى نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه بل هو قصر الاهتداء على من هداه الله تعالى حسبما يقتضى به تعريف الخبر فالمعنى من يهده الله أى يخلق فيه الاهتداء على الوجه المذكور فهو المهتدى لا غير كائنا من كان ﴿ ومن يضلل ﴾ بأن لم يخلق فيه الاهتداء بل خلق فيه الضلالة لصرف اختيارها نحوها ﴿ فأولئك ﴾ الموصوفون بالضلالة على الوجه المذكور ﴿ هم الخاسرون ﴾ أى الكاملون فى الخسران لا غير وإفراد المهتدى نظرا إلى معناها للإيذان باتحاد منهاج الهدى وتفرق طرق الضلال .

صفات أصحاب النار

﴿ ولقد ذرأنا ﴾ كلام مستأنف مقرر لمضمون ما قبله بطريق التذييل أى خلقنا ﴿ لجهنم ﴾ أى لدخولها والتعذيب بها وتقديمه على قوله تعالى ﴿ كثيرا ﴾ أى خلقا كثيرا مع كونه مفعولا به لما فى توابعه من نوع طول يؤدى توسيطه بينهما وتأخيره عنها إلى الإخلال بجزالة النظم الكريم وقوله تعالى ﴿ من الجن والإنس ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لكثيرا أى كائنا منهما وتقديم الجن لأنهم أعرق من الإنس فى الاتصاف بما نحن فيه من الصفات وأكثر عددا

وأقدم خلقا والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يؤدى إلى ذلك بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبدا بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيا بها كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطرى للعبادة وتمكنهم التام منها جعل خلقهم مغيابها كما نطق به قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وقوله تعالى ﴿ لهم قلوب ﴾ فى محل النصب على أنه صفة أخرى لكثيرا ﴿ لا يفقهون بها ﴾ فى محل الرفع على أنه صفة لقلوب مؤكدة لما يفيده تنكيرها وإبهامها من كونها غير معهودة مخالفة لسائر أفراد الجنس فاقدة لكماله بالكلية لكن لا بحسب الفطرة حقيقة بل بسبب امتناعهم عن صرفها إلى تحصيله وهذا وصف لها بكمال الإغراق فى القساوة فإنها حيث لم يتأت منها الفقه بحال فكأنها خلقت غير قابلة له رأسا وكذا الحال فى أعينهم وآذانهم وحذف المفعول للتعميم أى لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئاً مما من شأنه أن يفقه فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أوليا وتخصيصه بذلك مخل بالإفصاح عن كنه حالهم ﴿ ولهم أعين لا يبصرون بها ﴾ الكلام فيه كما فيما عطف هو عليه والمراد بالأبصار والسمع المنفيين ما يختص بالعقلاء من الإدراك على ما هو وظيفة الثقلين لا ما يتناول مجرد الإحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الأنعام أى لا يبصرون بها شيئاً من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجا أوليا ﴿ ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ أى شيئاً من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية تناولا أوليا وإعادة الخبر فى الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بأن يقال وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها لتقرير سوء حالهم وفى إثبات المشاعر الثلاثة لهم ثم وصفها بعدم الشعور دون سلبها عنهم ابتداء بأن يقال ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها من الشهادة بكمال رسوخهم فى الجهل والغواية ما لا يخفى ﴿ أولئك ﴾

إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الضلال أى أولئك الموصوفون بالأوصاف المذكورة .

﴿ كالأنعام ﴾ أى فى انتفاء الشعور على الوجه المذكور أو فى أن مشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها ﴿ بل هم أضل ﴾ فإنها تدرك ما من شأنها أن تدركه من المنافع والمضار فتجتهد فى جلبها وسلبها غاية جهدها مع كونها بمعزل من الخلود وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لايميزون بين المنافع والمضار بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لايعرفون ربهم ولايذكرونه ولا يطيعونه وفى الخبر « كل شيء أطوع لله من ابن آدم » .

﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بما مر من مثلية الأنعام والشرية منها ﴿ هم الغافلون ﴾ الكاملون فى الغفلة المستحقون لأن يخص بهم الاسم ولا يطلق على غيرهم كيف لا وإنهم لايعرفون من شئون الله عزوجل ولا من شئون ما سواه شيئاً فيشركون به سبحانه وليس كمثله شيء وهو السميع البصير أصنامهم التى هى من أخس مخلوقاته تعالى .

ذكر الله سبحانه

﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلين بذلك الغافلين عنه سبحانه عما يليق به من الأمور ومالا يليق به إثر بيان غفلتهم التامة وضلالتهم الطامة والحسنى تأنيث الأحسن أى الأسماء التى هى أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعانى وأشرفها ﴿ فادعوه بها ﴾ أى فسموه بتلك الأسماء ﴿ وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾ الإلحاد واللحد الميل والانحراف يقال لحد وألحد إذا مال عن القصد وقرىء يلحدون من الثلاثى أى يميلون فى شأنها عن الحق إلى الباطل إما بأن يسموه تعالى بمالا توقيف فيه

أو بما يوهم معنى فاسدا كما فى قول أهل البدو يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا بخى ونحو ذلك فالمراد بالترك المأمور به الاجتناب عن ذلك وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم لا أسماؤه تعالى حقيقة وعلى ذلك يحمل ترك الإضمار بأن يقال يلحدون فيها وإما بأن يعدلوا عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة كما قالوا وما الرحمن ما نعرف سوى رحمان اليمامة فالمراد بالترك الاجتناب أيضا وبالأسماء أسماؤه تعالى حقيقة فالمعنى سموه تعالى بجميع أسمائه الحسنى واجتنبوا إخراج بعضها من البين وإما بأن يطلقوها على غيره تعالى كما سموا أصنامهم آلهة وإما بأن يشتقوا من بعضها أسماء أصنامهم كما اشتقوا اللات من الله تعالى والعزى من العزيز فالمراد بالأسماء أسماؤه تعالى حقيقة كما فى الوجه الثانى والإظهار فى موقع الإضمار مع التجريد عن الوصف فى الكل للإيذان بأن الحادهم فى نفس الأسماء من غير اعتبار الوصف وليس المراد بالترك حينئذ الاجتناب عن ذلك إذ لا يتوهم صدور مثل هذا الإلحاد عن المؤمنين ليؤمروا بتركه بل هو الإعراض عنهم وعدم المبالاة بما فعلوا ترقبا لنزول العقوبة بهم عن قريب كما هو المتبادر من قوله ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ فإنه استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الأمر بعدم المبالاة والإعراض عن المجازاة كأنه قيل لم لا نبالى بإلحادهم ولا نتصدى لمجازاتهم فقيل لأنه سينزل بهم عقوبته وتتشفون بذلك عن قريب وأما على الوجهين الأولين فالمعنى اجتنبوا إلحادهم كيلا يصيبكم ما أصابهم فإنه سينزل بهم عقوبة إلحادهم .

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ بيان إجمالى لحال من عدا المذكورين من الثقلين الموصوفين بما ذكر من الضلال والإلحاد عن الحق ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ إما باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف وما بعده خبره كما مر فى تفسير قوله تعالى (ومن الناس) الخ أى وبعض من خلقنا أو وبعض ممن خلقنا أمة أى طائفة كثيرة يهدون الناس ملتبسين بالحق أو يهدونهم بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة وبالحق يحكمون فى الحكومات الجارية

فيما بينهم ولا يجورون فيها . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا قرأها هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة الآية وعنه عليه الصلاة والسلام إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى روى لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله وروى لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون وفيه من الدلالة على صحة الإجماع مالا يخفى . والاقتصار على نعتهم بهداية الناس للإيذان بأن اهتداءهم فى أنفسهم أمر محقق غنى عن التصريح به ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ شروع فى تحقيق الحق الذى به يهدى الهادون وبه يعدل العادلون وحمل الناس على الاهتداء به على وجه الترهيب ومحل الموصول الرفع على أنه مبتدأ خبره مابعده من الجملة الاستقبالية وإضافة الآيات إلى نون العظمة لتشريفها واستعظام الإقدام على تكذيبها أى والذين كذبوا بآياتنا التى هى معيار الحق ومصداق الصدق والعدل .

﴿ سنستدرجهم ﴾ أى نستدنيهم ألبتة إلى الهلاك شيئاً فشيئاً والاستدراج استفعال من درج إما بمعنى صعد ثم اتسع فيه[1] فاستعمل فى كل نقل تدريجى سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة وإما بمعنى مشى مشيا ضعيفا وإما بمعنى طوى والأول هو الأنسب بالمعنى المراد الذى هو النقل إلى أعلى درجات المهالك ليبلغ أقصى مراتب العقوبة والعذاب ثم استعير لطلب كل نقل تدريجى من حال إلى حال من الأحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه بحيث يزعم أن ذلك ترق فى مراقى منافعه مع أنه فى الحقيقة ترد فى مهاوى مصارعه فاستدراجه سبحانه إياهم أن يواتر عليهم بالنعم مع انهماكهم فى الغى فيحسبوا أنها لطف لهم منه تعالى فيزدادوا بطرا وطغيانا لكن لا على أن المطلوب تدرجهم فى مراتب النعم بل هو تدرجهم فى مدارج المعاصى إلى أن يحق عليهم كلمة العذاب على أفظع حال وأشنعها والأول وسيلة إليه وقوله تعالى ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ متعلق

---

(١) فى ١٠ : توسع فيه .

بمضمر وقع صفة لمصدر الفعل المذكور أى سنستدرجهم استدراجا كائنا من حيث لا يعلمون أنه كذلك بل يحسبون أنه أثرة من الله عز وجل وتقريب منه وقيل لا يعلمون ما يراد بهم .

﴿ وأملى لهم ﴾ عطف على سنستدرجهم غير داخل فى حكم السين لما أن الإملاء الذى هو عبارة عن الإمهال والإطالة ليس من الأمور التدريجية كالاستدراج الحاصل فى نفسه شيئاً فشيئاً بل هو فعل يحصل دفعة وإنما الحاصل بطريق التدريج آثاره وأحكامه لا نفسه كما يلوح به تغيير التعبير بتوحيد الضمير مع ما فيه من الافتتان المنبىء عن مزيد الاعتناء بمضمون الكلام لا بتنائه على تجديد القصد والعزيمة وأما أن ذلك للإشعار بأنه بمحض التقدير الإلهى والاستدراج بتوسط المدبرات فمبناه دلالة نون العظمة على الشركة وأنى ذلك وإلا لاحترز عن إيرادها فى قوله تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم) الآية بل إنما إيرادها فى أمثال هذه الموارد بطريق الجريان على سنن الكبرياء ﴿ إن كيدى متين ﴾ تقرير للوعيد وتأكيد له أى قوى لا يدافع بقوة ولا بحيلة والمراد به إما الاستدراج والإملاء مع نتيجتهما التى هى الأخذ الشديد على غرة فتسميته كيدا لما أن ظاهره لطف وباطنه قهر وإما نفس ذلك الأخذ فقط فالتسمية لكون مقدماته كذلك وإما أن حقيقة الكيد هو الأخذ على خفاء من غير أن يعتبر فيه إظهار خلاف ما أبطنه فمما لا تعويل عليه مع عدم مناسبته للمقام ضرورة استدعائه لاعتبار القيد المذكور حتما .

توبيخ الكفار على جهلهم بالنبى صلى الله عليه وسلم

﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴾ كلام مبتدأ مسوق لإنكار عدم تفكرهم فى شأنه عليه الصلاة السلام وجهلهم بحقيقة حاله الموجبة للإيمان به وبما أنزل عليه من الآيات التى كذبوا بها والهمزة للإنكار والتعجيب والتوبيخ والواو للعطف على مقدر يستدعيه سياق النظم الكريم وسياقه وما إما استفهامية إنكارية فى محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم وإما نافية اسمها جنة وخبرها

بصاحبهم والجنة من المصادر التى يراد بها الهيئة كالرغبة والجلسة وتنكيرها للتقليل والتحقير والجملة معلقة لفعل التفكر لكونه من أفعال القلوب ومحلها على الوجهين النصب على نزع الجار أى أكذبوا بها ولم يتفكروا فى أى شىء من جنون ما كائن بصاحبهم الذى هو أعظم الأمة الهادية بالحق وعليه أنزلت تلك الآيات أو فى أنه ليس بصاحبهم شىء من جنة حتى يؤديهم التفكر فى ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحة نبوته فيؤمنوا به وبما أنزل عليه من الآيات وقيل قد تم الكلام عند قوله تعالى : (أولم يتفكروا) أى أكذبوا بها ولم يفعلوا التفكر ثم ابتدىء فقيل أى شىء بصاحبهم من جنة ما على طريقة الإنكار والتعجيب والتبكيت أو قيل ليس بصاحبهم شىء منها والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم للإيذان بأن طول مصاحبتهم له عليه الصلاة والسلام عن شائبة ما ذكر ففيه تأكيد للنكير وتشديد له والتعرض لنفى الجنون عنه عليه الصلاة والسلام مع وضوح استحالة ثبوته له عليه الصلاة والسلام لما أن التكلم [1] بما هو خارق لقضية العقول والعادات لا يصدر إلا عمن به مس الجنون كيفما اتفق من غير أن يكون له أصل ومعنى أو عمن له تأييد إلهى يخبر به عن الأمور الغيبية وإذ ليس به عليه السلام شائبة الأول تعين أنه عليه الصلاة والسلام مؤيد من عند الله تعالى وقيل إنه عليه الصلاة والسلام علا الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذاً فخذاً يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم إن صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت إلى الصباح فنزلت فالتصريح بنفى الجنون حينئذ للرد على عظيمتهم الشنعاء والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم وارد على شاكلة كلامهم مع مافيه من النكتة المذكورة وقوله تعالى ﴿ إن هو إلا نذير مبين ﴾ جملة مقررة لمضمون ماقبلها ومبينة لحقيقة حاله عليه الصلاة والسلام إلا مبالغ فى الإنذار مظهر له غاية الإظهار إبرازا لكمال الرأفة ومبالغة فى الإعذار .

وقوله تعالى ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ﴾ استئناف

---

(١) فى ٤٣٠ : الكلام .

آخر مسوق للإنكار والتوبيخ بإخلالهم بالتأمل فى الآيات التكوينية المنصوبة فى الآفاق والأنفس الشاهدة بصحة مضمون الآيات المنزلة إثر ما نعى عليهم إخلالهم بالتفكر فى شأنه عليه الصلاة والسلام والهمزة لما ذكر من الإنكار والتعجب والتوبيخ والواو للعطف على المقدر المذكور أو على الجملة المنفية بلم والملكوت الملك العظيم أى أكذبوا بها أو ألم يتفكروا فيما ذكر ولم ينظروا نظر تأمل فيما تدل عليه السموات والأرض من عظم الملك وكمال القدرة ﴿ وما خلق الله ﴾ أى وفيما خلق فيهما على أنه عطف على ملكوت وتخصيصه بهما لكمال ظهور عظم الملك فيهما أو وفى ملكوت ماخلق على أنه عطف على السموات والأرض والتعميم لاشتراك الكل فى الدلالة على عظم الملك فى الحقيقةوعليه قوله تعالى (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء) وقوله تعالى ﴿ من شىء ﴾ بيان لما خلق مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بجلائل المصنوعات دون دقائقها والمعنى أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق فيهما من جليل ودقيق مما ينطلق عليه اسم الشىء ليدلهم ذلك على العلم بوحدانيته تعالى وبسائر شئونه التى ينطق بها تلك الآيات فيؤمنوا بها لاتحادهما فى المدلول فإن كل فرد من أفراد الأكوان مما عزوهان دليل لائح على الصانع المجيدوسبيل واضح إلى عالم التوحيدوقوله تعالى ﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ عطف على ملكوت وأن مخففة من أن واسمها ضمير الشأن وخبرها عسى مع فاعلها الذى هو أن يكون واسم يكون أيضاً ضمير الشأن والخبر قد اقترب أجلهم والمعنى أولم ينظروا فى أن الشأن عسى أن يكون الشأن قد اقترب أجلهم وقد جوز أن يكون اسم يكون أجلهم وخبرها قد اقترب على أنها جملة من فعل وفاعل هو ضمير أجلهم لتقدمه حكما وأياً ماكان فمناط الإنكار والتوبيخ تأخيرهم للنظر والتأمل أى لعلهم يموتون عما قريب فما لهم لا يسارعون إلى التدبر فى الآيات التكوينية الشاهدة بما كذبوه من الآيات القرآنيةوقد جوز أن يكون الأجل عبارة عن الساعة والإضافة إلى ضميرهم لملابستهم لها من جهة إنكارهم لها وبحثهم عنها .

وقوله تعالى ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ قطع لاحتمال إيمانهم رأسا ونفى له بالكلية مترتب على ماذكر من تكذيبهم بالآيات وإخلالهم بالتفكر والنظر والباء متعلقة بيؤمنون وضمير بعده للآيات على حذف المضاف المفهوم من كذبوا والتذكير باعتبار كونها قرآنا أو بتأويلها بالمذكور وإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة والمعنى أكذبوا بها ولم يتفكروا فيها يوجب تصديقها من أحواله عليه الصلاة والسلام وأحوال المصنوعات فبأى حديث يؤمنون بعد تكذيبه ومعه مثل هذه الشواهد القوية كلا وهيهات وقيل الضمير للقرآن والمعنى فبأى حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية فى البيان وقيل هو إنكار وتبكيت لهم مترتب على إخلالهم بالمسارعة إلى التأمل فيما ذكر كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لايبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا وقيل الضمير لأجلهم والمعنى فبأى حديث بعد انقضاء أجلهم يؤمنون وقيل للرسول عليه الصلاة والسلام على حذف مضاف أى فبأى حديث بعد حديثه يؤمنون وهو أصدق الناس وقوله تعالى ﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾ استئناف مقرر لما قبله منبىء عن الطبع على قلوبهم وقوله تعالى ﴿ ويذرهم فى طغيانهم ﴾ بالياء والرفع على الاستئناف أى وهو يذرهم وقرىء بنون العظمة على طريقة الالتفات أى ونحن نذرهم وقرىء بالياء والجزم عطفا على محل فلا هادى له كأنه قيل من يضلل الله لايهده أحد ويذرهم وقد روى الجزم بالنون عن نافع وأبى عمرو فى الشواذ وقوله تعالى ﴿ يعمهون ﴾ أى يترددون ويتحيرون حال من مفعول يذرهم وتوحيد الضمير فى حيز النفى نظرا إلى لفظ من وجمعه فى حيز الإثبات نظرا إلى معناها للتنصيص على شمول النفى والإثبات للكل .

من ألوان ضلال الكفار

﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ استئناف مسوق لبيان بعض أحكام ضلالهم

وطغيانهم أى عن القيامة وهى من الأسماء الغالبة وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة ما فيها من الحساب أو لأنها ساعة عند الله تعالى مع طولها فى نفسها قيل إن قوما من اليهود قالوا يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً فإنا نعلم متى هى وكان ذلك امتحانا منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها وقيل السائلون قريش وقوله تعالى ﴿ أيان مرساها ﴾ بفتح الهمزة وقد قرىء بكسرها وهو ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام ويليه المبتدأ أو الفعل المضارع دون الماضى بخلاف متى حيث يليها كلاهما قيل اشتقاقه من أى فعلان منه لأن معناه أى وقت وهو من أويت إلى الشىء لأن البعض أو إلى الكل متساند إليه ومحله الرفع على أنه خبر مقدم ومرساها مبتدأ مؤخر أى متى إرساؤها أى إثباتها وتقريرها فإنه مصدر ميمى من أرساه إذا أثبته وأقره ولا يكاد يستعمل إلا فى الشىء الثقيل كما فى قوله تعالى (والجبال أرساها) ومنه مرساة السفن ومحل الجملة قيل الجر على البدلية من الساعة والتحقيق أن محلها النصب بنزع الخافض لأنها بدل من الجار والمجرور لا من المجرور فقط كأنه قيل يسألونك عن الساعة عن أيان مرساها وفى تعليق السؤال بنفس الساعة أولا وبوقت وقوعها ثانيا تنبيه على أن المقصد الأصلى من السؤال نفسها باعتبار حلولها فى وقتها المعين لا وقتها باعتبار كونه محلا لها وقد سلك هذا المسلك فى الجواب الملقن أيضاً حيث أضيف العلم المطلوب بالسؤال إلى ضميرها فأخبرها باختصاصه به عز وجل حيث قيل :

﴿ قل إنما علمها ﴾ أى علمها بالاعتبار المذكور ﴿ عند ربى ﴾ ولم يقل إنما علم وقت إرسائها ومن لم يتنبه لهذه النكتة حمل النظم الكريم على حذف المضاف والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للإيذان بأن توفيقه عليه الصلاة والسلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والإرشاد ومعنى كونه عنده تعالى خاصة أنه تعالى قد استأثر به بحيث لم يخبر به أحدا من ملك مقرب أو نبى مرسل وقوله تعالى ﴿ لا يجليها لوقتها

إلا هو﴾ بيان لاستمرار تلك الحالة إلى حين قيامها وإقناط كلى[1] عن إظهار أمرها بطريق الإخبار من جهته تعالى أو من جهة غيره لاقتضاء الحكمة التشريعية إياه فإنه أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك والمعنى لا يكشف عنها ولا يظهر للناس أمرها الذى تسألوننى عنه إلا هو بالذات من غير أن يشعر به أحد من المخلوقين فيتوسط فى إظهاره لهم لكن لا بأن يخبرهم بوقتها قبل مجيئه كما هو المسئول بل بأن يقيمها فيشاهدوها عيانا كما يفصح عنه التجلية المنبئة عن الكشف التام المزيل للإبهام بالكلية وقوله تعالى لوقتها أى فى وقتها قيد للتجلية بعد ورود الاستثناء عليها لا قبله كأنه قيل لا يجليها إلا هو فى وقتها إلا أنه قدم على الاستثناء للتنبيه من أول الأمر على أن تجليتها ليست بطريق الإخبار بوقتها بل بإظهار عينها فى وقتها الذى يسألون عنه وقوله تعالى :

﴿ ثقلت فى السموات والأرض ﴾ استئناف كما قبله مقرر لمضمون ما قبله أى كبرت وشقت على أهلهما من الملائكة والثقلين كل منهم أهمه خفاؤها وخروجها عن دائرة العقول وقيل عظمت عليهم حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها وقيل ثقلت فيهما إذ لا يطيقها منهما ومما فيهما شىء أصلا والأول هو الأنسب بما قبله وبما بعده من قوله تعالى ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ فإنه أيضا استئناف مقرر لمضمون ما قبله فلا بد من اعتبار الثقل من حيث الخفاء أى لا تأتيكم إلا فجأة على غفلة كما قال عليه الصلاة والسلام «إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقوم سلعته فى سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه[2]» ﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾ استئناف مسوق لبيان خطئهم فى توجيه السؤال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام عالم بالمسئول عنه أو أن العلم

---

(١) يعنى تيئيس بالكلية عن علم وقتها .

(٢) أخرجه السيوطى فى البدور السافرة عن جماعة .

بذلك من مواجب الرسالة إثر بيان خطئهم فى أصل السؤال بإعلام شأن المسئول عنه والجملة التشبيهية فى محل النصب على أنها حال من الكاف جيء بها بيانا لما يدعوهم إلى السؤال على زعمهم وإشعاراً بخطئهم فى ذلك أى يسألونك مشبها حالك عندهم بحال من هو حفى عنها أى مبالغ فى العلم بها فعيل من حفى وحقيقته كأنك مبالغ فى السؤال عنها فإن ذلك فى حكم المبالغة فى العلم بها لما أن من بالغ فى السؤال عن الشيء والبحث عنه استحكم علمه به ومبنى التركيب على المبالغة والاستقصاء ومنه إحفاء الشارب واحتفاء البقل أى استئصاله والإحفاء فى المسألة أى الإلحاف فيها وقيل عن متعلقة بيسألونك وقوله تعالى كأنك حفى معترض وصلة حفى محذوفة أى حفى بها وقد قرىء كذلك وقيل هو من الحفاوة بمعنى البر والشفقة فإن قريشا قالوا له عليه الصلاة والسلام إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة والمعنى يسألونك كأنك حفى تتحفى بهم فتخصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوى أمرها عن غيرهم ففيه تخطئة لهم من جهتين وقيل هو من حفى بالشيء بمعنى فرح به والمعنى كأنك فرح بالسؤال عنها تحبه مع أنك كاره له لما أنه تعرض لحرم الغيب الذى استأثر الله عز وجل بعلمه .

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بإعادة الجواب الأول تأكيداً للحكم وتقريرا له وإشعارا بعلته على الطريقة البرهانية بإيراد اسم الذات المنبىء عن استتباعها لصفات الكمال التى من جملتها العلم وتمهيدا للتعريض بجهلهم بقوله تعالى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى لا يعلمون ما ذكر من اختصاص علمها به تعالى فبعضهم ينكرونها رأسا فلا يعلمون شيئا مما ذكر قطعا وبعضهم يعلمون أنها واقعة البتة ويزعمون أنك واقف على وقت وقوعها فيسألونك عنه جهلا وبعضهم يدعون أن العلم بذلك من مواجب الرسالة فيتخذون السؤال عنه ذريعة إلى القدح فى رسالتك والمستثنى من هؤلاء هم الواقفون على جلية الحال من المؤمنين وأما السائلون عنها من اليهود بطريق الامتحان فهم منتظمون فى سلك الجاهلين حيث لم يعملوا بعلمهم وقوله تعالى ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ﴾ شروع فى الجواب عن السؤال ببيان عجزه عن علمها إثر بيان عجز

الكل عنه وإبطال زعمهم الذى بنوا عليه سؤالهم من كونه عليه الصلاة والسلام ممن يعلمها وإعادة الأمر لإظهار كمال العناية بشأن الجواب والتنبيه على استقلاله ومغايرته للأول والتعرض لبيان عجزه عما ذكر من النفع والضر لإثبات عجزه عن علمها بالطريق البرهانى واللام إما متعلق بأملك أو بمحذوف وقع حالا من نفعا أى لا أقدر لأجل نفسى على جلب نفع ما ولا على دفع ضر ما ﴿إلا ما شاء الله﴾ أن أملكه من ذلك بأن يلهمنيه فيمكننى منه ويقدرنى عليه أو لكن ماشاء الله من ذلك كائن فالاستثناء منقطع وهذا أبلغ فى إظهار العجز ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ أى جنس الغيب الذى من جملته ما بين الأشياء من المناسبات المصححة عادة للسببية والمسببية ومن المباينات المستتبعة للممانعة والمدافعة ﴿لاستكثرت من الخير﴾ أى لحصلت كثيرا من الخير الذى نيط تحصيله بالأفعال الاختيارية للبشر بترتيب أسبابه ودفع موانعه ﴿وما مسنى السوء﴾ أى السوء الذى يمكن التفصى عنه بالتوقى عن موجباته والمدافعة بموانعه لا سوء ما فإن منه مالا مدفع له .

﴿إن أنا إلا نذير وبشير﴾ أى ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة شأنى حيازة ما يتعلق بهما من العلوم الدينية والدنيوية لا الوقوف على الغيوب التى لا علاقة بينها وبين الأحكام والشرائع وقد كشفت من أمر الساعة ما يتعلق به الإنذار من مجيئها لا محالة واقترابها وأما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الإنذار بل هو مما يقدح فيه لما مر من أن إبهامه أدعى إلى الانزجار عن المعاصى وتقديم النذير على البشير لما أن المقام مقام الإنذار وقوله تعالى ﴿لقوم يؤمنون﴾ إما متعلق بهما جميعا لأنهم ينتفعون بالإنذار كما ينتفعون بالبشارة وإما بالبشير[1] فقط وما يتعلق بالنذير للكافرين أى الباقين على الكفر وبشير لقوم يؤمنون أى فى أى وقت كان ففيه ترغيب للكفرة فى إحداث الإيمان وتحذير عن الإصرار على الكفر والطغيان ﴿هو الذى خلقكم﴾ استئناف سيق لبيان

---

(١) فى ١١ : بالتبشير

كمال عظم جناية الكفرة فى جراءتهم على الإشراك بتذكير مبادىء أحوالهم المنافية له وإيقاع الموصول خبرا لتفخيم شأن المبتدأ أى هو ذلك العظيم الشأن الذى خلقكم جميعا وحده من غير أن يكون لغيره مدخل فى ذلك بوجه من الوجوه ﴿ من نفس واحدة ﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام وهذا نوع تفصيل لما أشير إليه فى مطلع السورة الكريمة إشارة إجمالية من خلقهم وتصويرهم فى ضمن خلق آدم وتصويره وبيان لكيفيته ﴿ وجعل ﴾ عطف على خلقكم داخل فى حكم الصلة ولا ضير فى تقدمه عليه وجودا لما أن الواو لا تستدعى الترتيب فى الوجود ﴿ منها ﴾ أى من جنسها كما فى قوله تعالى (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) من جسدها لما يروى أنه تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه الصلاة والسلام والأول هو الأنسب إذ الجنسية هى المؤدية إلى الغاية الآتية لا الجزئية والجعل إما بمعنى التصيير فقوله تعالى ﴿ زوجها ﴾ مفعوله الأول والثانى هو الظرف المقدم وإما بمعنى الإنشاء والظرف متعلق بجعل قدم على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أو بمحذوف هو حال من المفعول والأول هو الأولى وقوله تعالى ﴿ ليسكن إليها ﴾ علة غائية للجعل باعتبار تعلقه بمفعوله الثانى أى ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنانا مصححا للازدواج كما يلوح به تذكير الضمير ويفصح عنه قوله تعالى :

﴿ فلما تغشاها ﴾ أى جامعها ﴿ حملت حملا خفيفا ﴾ فى مبادىء الأمر فإنه عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم فى إنشائه تعالى إياهم متدرجين فى أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ومن الضعف إلى القوة ﴿ فمرت به ﴾ أى فاستمرت به كما كانت قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت وعليه قراءة ابن عباس رضى الله تعالى عنه وقرىء فمرت بالتخفيف وفمارت من المور وهو المجىء والذهاب أو من المرية فظنت الحمل وارتابت به وأما ماقيل من أن المعنى حملت حملا خف عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب

والأذية ولم تستثقله كما يستثقلنه فمرت به أى فمضت به إلى ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق فيرده قوله تعالى ﴿فلما أثقلت﴾ إذ معناه فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها ولا ريب فى أن الثقل بهذا المعنى ليس مقابلا للخفة بالمعنى المذكور إنما يقابلها الكرب الذى يعترى بعضهن من أول الحمل إلى آخره دون بعض أصلا وقرىء أثقلت على البناء للمفعول أى أثقلها حملها ﴿دعوا الله﴾ أى آدم وحواء عليهما السلام لما دهمهما أمر لم يعهداه ولم يعرفا مآله فاهتما به وتضرعا إليه عز وجل وقوله تعالى ﴿ربهما﴾ أى مالك أمرهما الحقيق بأن يخص به الدعاء إشارة إلى أنهما قد صدرا به دعاءهما كما فى قولهما (ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية ومتعلق الدعاء محذوف تعويلا على شهادة الجملة القسمية به أى دعواه تعالى أن يؤتيهما صالحا ووعدا بمقابلته الشكر على سبيل التوكيد القسمى وقالا أو قائلين ﴿لئن آتيتنا صالحا﴾ أى ولدا من جنسنا سويا ﴿لنكونن﴾ نحن ومن يتناسل من ذريتنا ﴿من الشاكرين﴾ الراسخين فى الشكر على نعمائك التى من جملتها هذه النعمة وترتيب هذا الجواب على الشرط المذكور لما أنهما قد علما أن ما علقا به دعاءهما أنموذج لسائر أفراد الجنس ومعيارلها ذاتا وصفة وجوده مستتبع لوجودها وصلاحه مستلزم لصلاحها فالدعاء فى حقه متضمن للدعاء فى حق الكل مستتبع له كأنهما قالا لئن آتيتنا وذريتنا أولادا صالحة وقيل إن ضمير آتيتنا أيضا لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما فالوجه ظاهر وأنت خبير بأن نظم الكل فى سلك الدعاء أصالة يأباه مقام المبالغة فى الاعتناء بشأن ما هما بصدده وأما جعل ضمير لنكونن للكل فلا محذور فيه لأن توسيع دائرة الشكر غير مخل بالاعتناء المذكور بل مؤكد له وأيا ما كان فمعنى قوله تعالى ﴿فلما آتاهما صالحا﴾ لما آتاهما ماطلباه أصالة واستتباعا من الولد وولد الولد ما تناسلوا فقوله تعالى ﴿جعلا﴾ أى جعل أولادهما ﴿له﴾ تعالى ﴿شركاء﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه ثقة بوضوح الأمر وتعويلا على ما يعقبه من البيان وكذا الحال فى قوله تعالى ﴿فيما آتاهما﴾ أى فيما آتى أولادهما من الأولاد حيث سموهم بعبدمناف وعبد العزى ونحو ذلك وتخصيص إشراكهم

هذا بالذكر فى مقام التوبيخ مع أن إشراكهم بالعبادة أغاظ منه جناية وأقدم وقوعا لما أن مساق النظم الكريم لبيان إخلالهم بالشكر فى مقابلة نعمة الولد الصالح وأول كفرهم فى حقه إنما هو تسميتهم إياه بما ذكر وقرىء شركا أى شركة أو ذوى شركة أى شركاء إن قيل ما ذكر من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه إنما يصار إليه فيما يكون للفعل ملابسة ما بالمضاف إليه أيضا بسرايته إليه حقيقة أو حكما وتتضمن نسبته إليه صورة مزية يقتضيها المقام كما فى قوله تعالى (وإذ نجيناكم من آل فرعون) الآية فإن الانجاء منهم مع أن تعلقه حقيقة ليس إلا بأسلاف اليهود قد نسب إلى أخلافهم بحكم سرايته إليهم توفية لمقام الامتنان حقه وكذا فى قوله تعالى (قل فلم تقتلون أنبياء الله) الآية فإن القتل حقيقة مع كونه من جناية آبائهم قد أسند إليهم بحكم رضاهم به أداء لحق مقام التوبيخ والتبكيت ولا ريب فى أنهما عليهما الصلاة والسلام بريئان من سراية الجعل المذكور إليهما بوجه من الوجوه فما وجه إسناده إليهما صورة قلنا وجهه الإيذان بتركهما الأولى حيث أقدما على نظم أولادهما فى سلك أنفسهما والتزما شكرهم فى ضمن شكرهما وأقسما على ذلك قبل تعرف أحوالهم ببيان أن إخلالهم بالشكر الذى وعداه وعدا مؤكدا باليمين بمنزلة إخلالهما بالذات فى استيجاب الحنث والخلف مع ما فيه من الإشعار بتضاعف جنايتهم ببيان أنهم بجعلهم المذكور أوقعوهما فى ورطة الحنث والخلف وجعلوهما كأنهما باشراه بالذات فجمعوا بين الجناية على الله تعالى والجناية عليهما عليهما السلام :

﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ تنزيه فيه معنى التعجب والفاء لترتيبه على ما فصل من أحكام قدرته تعالى وآثار نعمته الزاجرة عن الشرك الداعية إلى التوحيد وصيغة الجمع لما أشير إليه من تعين الفاعل وتنزيه آدم وحواء عن ذلك وما فى عما إما مصدرية أى عن إشراكهم أو موصولة أو موصوفة أى عما يشركونه به سبحانه والمراد بإشراكهم إما تسميتهم المذكورة أو مطلق إشراكهم المنتظم لها انتظاما أوليا وقرىء تشركون بتاء الخطاب بطريق الالتفات وقيل الخطاب لآل قصى من قريش والمراد بالنفس الواحدة نفس قصى فإنهم خلقوا منه وكان له

زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله تعالى ولدا صالحا فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم عبد مناف وعبد شمس وعبد قصى وعبد الدار وضمير يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما وأما ما قيل من أنه لما حملت حواء أتاها إبليس فى صورة رجل فقال لها ما يدريك ما فى بطنك لعله بهيمة أو كلب أو خنزير وما يدريك من أين يخرج فخافت من ذلك فذكرته لآدم فأهمهما ذلك ثم عاد إليها وقال إنى من الله تعالى بمنزلة فإن دعوته أن يجعله خلقا مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث وكان اسمه حارثا فى الملائكة فقبلت فلما ولدته سمته عبد الحرث فمما لا تعويل عليه ، كيف لا وأنه عليه الصلاة والسلام كان علما فى علم الأسماء والمسميات فعدم علمه بإبليس واسمه واتباعه إياه فى مثل هذا الشأن الخطير أمر قريب من المحال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

﴿ أيشركون ﴾ استئناف مسوق لتوبيخ كافة المشركين واستقباح إشراكهم[1] على الإطلاق وإبطاله بالكلية ببيان شأن ما أشركوه به سبحانه وتفصيل أحواله القاضية ببطلان ما اعتقدوه فى حقه أى أيشركون به تعالى ﴿ ما لا يخلق شيئا ﴾ أى لا يقدر على أن يخلق شيئا من الأشياء أصلا ومن حق المعبود أن يكون خالقا لعابده لامحالة تعالى وقوله ﴿ وهم يخلقون ﴾ عطف على لا يخلق وإيراد الضميرين بجمع العقلاء مع رجوعهما إلى ما المعبر بها عن الأصنام إنما هو بحسب اعتقادهم فيها وإجرائهم لها مجرى العقلاء وتسميتهم لها آلهة وكذا حال سائر الضمائر الآتية ووصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفى الخالقية لإبانة كمال منافاة حالها لما اعتقدوه فى حقها وإظهار غاية جهلهم فإن إشراك ما لا يقدر على خلق شىء ما بخالقه وخالق جميع الأشياء مما لا يمكن أن يسوغه من له عقل فى الجملة وعدم التعرض لخالقها للإيذان بتعينه والاستغناء عن ذكره .

﴿ ولا يستطيعون لهم ﴾ أى لعبدتهم إذا حزبهم أمر مهم وخطب ملم

---

(١) فى ١١ : شركهم .

﴿ نصرا ﴾ أى نصراً ما بجلب منفعة أو دفع مضرة ﴿ ولا أنفسهم ينصرون ﴾ إذا اعتراهم حادثة من الحوادث أى لا يدفعونها عن أنفسهم وإيراد النصر للمشاكلة وهذا بيان لعجزهم عن إيصال منفعة ما من المنافع الوجودية والعدمية إلى عبدتهم وأنفسهم بعد بيان عجزهم عن إيصال منفعة الوجود إليهم وإلى أنفسهم خلا أنهم وصفوا هناك بالمخلوقية لكونهم أهلا لها وههنا لم يوصفوا بالمنصورية لأنهم ليسوا أهلا لها وقوله تعالى ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى ﴾ بيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر المنفى عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب والإرشاد إلى طريق حصوله من غير أن يحصله الطالب والخطاب للمشركين بطريق الالتفات المنبىء عن مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت أى إن تدعوهم أيها المشركون إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به المطالب أو تنجون به عن المكاره ﴿ لا يتبعوكم ﴾ إلى مرادكم وطلبتكم وقرىء بالتخفيف وقوله تعالى .

﴿ سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ومبين لكيفية عدم الإتباع أى مستو عليكم فى عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم البحت فإنه لا يتغير حالكم فى الحالين كما لا يتغير حالهم بحكم الجمادية وقوله تعالى (أم أنتم صامتون) جملة اسمية فى معنى الفعلية معطوفة على الفعلية لأنها فى قوة أم صمتم عدل عنها للمبالغة فى عدم إفادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر وماقيل من أن الخطاب للمسلمين والمعنى وإن تدعوا المشركين إلى الهدى أى الإسلام لا يتبعوكم الخ مما لا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه أصلا على أنه لو كان كذلك لقيل عليهم مكان عليكم كما فى قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فإن استواء الدعاء وعدمه إنما هو بالنسبة إلى المشركين لا بالنسبة إلى الداعين فإنهم فائزون بفضل الدعوة ﴿ إن الذين تدعون من دون الله ﴾ تقرير لما قبله من عدم اتباعهم لهم أى إن الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة ﴿ عباد أمثالكم ﴾ أى

مماثلة لـكم لـكن لا من كل وجه بل من حيث أنها مملوكة لله عز وجل مسخرة لأمره عاجزة عن النفع والضرر وتشبيهها بهم فى ذلك مع كون عجزها عنهما أظهر وأقوى من عجزهم إنما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم وادعائهم لقدرتها عليهما إذ هو الذى يدعوهم إلى عبادتها والاستعانة بها وقوله تعالى ﴿ فادعوهم فليستجيبوا لـكم ﴾ تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم أى فادعوهم فى جلب نفع أو كشف ضر ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى زعمـكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه وقوله تعالى ﴿ ألهم رجل يمشون بها ﴾ الخ تبـكيت إثر تبكيت مؤكد لما يفيده الأمر التعجيزى من عدم الاستجابة ببيان فقدان آلاتها بالـكلية فإن الاستجابة من الهياكل الجسمانية إنما تتصور إذا كان لها حياة وقوى محركة ومدركة وما ليس له شيء من ذلك فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة كأنه قيل ألهم هذه الآلات التى بها تتحقق الاستجابة حتى يمكن استجابتهم لـكم وقد وجه الإنكار إلى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة تـكريرا للتبكيت وتثنية للتقريع وإشعاراً بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها كاف فى الدلالة على استحالة الاستجابه ووصف الأرجل بالمشى بها للإيذان بأن مدار الإنـكار هو الوصف وإنما وجه إلى الأرجل لا إلى الوصف بأن يقال أيمشون بأرجلهم لتحقيق أنها حيث لم يظهر منها ما يظهر من سائر الأرجل فهى ليست بأرجل فى الحقيقة وكذا الـكلام فيما بعده من الجوارح الثلاث الباقية وكلمة أم فى قوله تعالى :

﴿ أم لهم أيد يبطشون بها ﴾ منقطعة وما فيها من الهمزة لما مر من التبكيت والإلزام وبل للإضراب المفيد للانتقال من فن من التبـكيت بعد تمامه إلى فن آخر منه لما ذكر من المزايا والبطش الأخذ بقوة وقرىء يبطشون بضم الطاء وهى لغة فيه والمعنى بل ألهم أيد يأخذون بها ما يريدون أخذه وتأخير هذا عما قبله لما أن المشى حالهم فى أنفسهم والبطش حالهم بالنسبة إلى الغير وأما تقديمه على قوله تعالى ﴿ أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ﴾ مع أن الـكل سواء فى أنها من أحوالهم بالنسبة إلى الغير فلمراعاة المقابلة بين الأيدى

والأرجل ولأن انتفاء المشى والبطش أظهر والتبكيت بذلك أقوى وأما تقديم الأعين فلما أنها أشهر من الآذان وأظهر عينا وأثرا هذا وقد قرىء إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية أى ما الذين تدعون من دونه تعالى عبادا أمثالكم بل أدنى منكم فيكون قوله تعالى (ألهم) الخ تقريرا لنفى المماثلة بإثبات القصور والنقصان ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ بعد ما بين أن شركاءهم لا يقدرون على شىء ما أصلا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يناصبهم للمحاجة ويكرر عليهم التبكيت وإلقام الحجر أى ادعوا شركاءكم واستعينوا بهم على ﴿ثم كيدون﴾ جميعا أنتم وشركاؤكم وبالغوا فى ترتيب ما تقدرون عليه من مبادىء الكيد والمكر ﴿فلا تنظرون﴾ أى فلا تمهلونى ساعة بعد ترتيب مقدمات الكيد فإنى لا أبالى بكم أصلا ﴿إن ولي الله الذى نزل الكتاب﴾ تعليل لعدم المبالاة المنفهم من السوق انفهاما جليا ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب للإشعار بدليل الولاية والإشارة إلى علة أخرى لعدم المبالاة كأنه قيل لا أبالى بكم وبشركائكم لأن وليي هو الله الذى أنزل الكتاب الناطق بأنه وليي وناصرى وبأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصركم وقوله تعالى ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده وينصرهم ولا يخذلهم ﴿والذين تدعون﴾ أى تعبدونهم ﴿من دونه﴾ تعالى أو تدعونهم للاستعانة بهم على حسبما أمرتكم به ﴿لا يستطيعون نصركم﴾ أى فى أمر من الأمور أو فى خصوص الأمر المذكور ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ إذا نابتهم نائبة ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى﴾ إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم على الإطلاق أو فى خصوص الكيد المعهود ﴿لا يسمعوا﴾ أى دعاءكم فضلا عن المساعدة والإمداد وهذا أبلغ من نفى الاتباع وقوله تعالى ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع وبه يتم التعليل فلا تكرار أصلا والرؤية بصرية وقوله تعالى (ينظرون إليك) حال من المفعول والجملة الاسمية حال من فاعل ينظرون أى وترى الأصنام

رأى العين يشبهون الناظرين إليك ويخيل إليك بأنهم يبصرونك لما أنهم صنعوا لها أعينا مركبة بالجواهر المضيئة المتلألئة وصوروها بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه والحال أنهم غير قادرين على الإبصار وتوحيد الضمير فى تراهم مع رجوعه إلى المشركين لتوجيه الخطاب إلى كل واحد واحد منهم لا إلى الكل من حيث هو كل كالخطابات السابقة تنبيها على أن رؤية الأصنام على الهيئة المذكورة لا تتسنى للكل معاً بل لكل من يواجهها وقيل ضمير الفاعل فى تراهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول على حاله وقيل للمشركين على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى (لا يسمعوا) أى وترى المشركين ينظرون إليك والحال أنهم لا يبصرونك كما أنت عليه وعن الحسن أن الخطاب فى قوله تعالى (وإن تدعوا) للمؤمنين على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى (ينصرون) أى وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الإسلام لا يلتفتوا إليكم ثم خوطب عليه السلام بطريق التجريد بأنك تراهم ينظرون إليك والحال أنهم لا يبصرونك حق الإبصار تنبيها على أن ما فيه عليه السلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة من الجلاء بحيث لا يكاد يخفى على الناظرين .

من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ خذ العفو ﴾ بعد ماعد من أباطيل المشركين وقبائحهم مالا يطاق تحمله أمر عليه الصلاة والسلام بمجامع مكارم الأخلاق التى من جملتها الأغضاء عنهم أى خذ ما عفالك من أفعال الناس وتسهيل ولا تكلفهم ما يشق عليهم من العفو الذى هو ضد الجهد أو خذ العفو من المذنبين أو الفضل من صدقاتهم وذلك قبل وجوب الزكاة ﴿ وأمر بالعرف ﴾ بالجميل المستحسن من الأفعال فإنها قريبة من قبول الناس من غير نكير ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ من غير مماراة ولا مكافأة قيل لما نزلت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال لا أدرى حتى أسأل ثم رجع فقال يامحمد إن ربك أمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وعن جعفر الصادق أمر الله تعالى

نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق ، وروى أنه لما نزلت الآية الكريمة قال عليه الصلاة والسلام : كيف يارب والغضب متحقق ؟ فنزل قوله تعالى ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ النزغ والنسغ والنخس الغرز شبهت وسوسته للناس وإغراء لهم على المعاصى بغرز السائق لما يسوقه وإسناده إلى النزغ من قبيل جد جده أى وإما يحملنك من جهته وسوسة ما على خلاف ما أمرت به من اعتراء غضب أو نحوه ﴿ فاستعذ بالله ﴾ فالتجىء إليه تعالى من شره ﴿ انه سميع ﴾ يسمع استعاذتك به قولا ﴿ عليم ﴾ يعلم تضرعك إليه قلبا فى ضمن القول أو بدونه فيعصمك من شره وقد جوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب على نهج الاستعارة كما فى قول الصديق رضى الله عنه إن لى شيطانا يعترينى ففيه زيادة تنفير عنه وفرط تحذير عن العمل بموجبه وفى الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة التى لا يتخلص من مضرتها إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل وقيل يعلم مافيه صلاح أمرك فيحملك عليه أو سميع بأقوال من آذاك عليم بأفعاله فيجازيه عليها ﴿ إن الذين اتقوا ﴾ استئناف مقرر لما قبله ببيان أن ما أمر به عليه الصلاة والسلام من الاستعاذة بالله تعالى سنة مسلوكة للمتقين والإخلال بهـا ديدن الغاوين أى إن الذين اتصفوا بوقاية أنفسهم عما يضرها ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان ﴾ أدنى لمة منه على أن تنوينه للتحقير وهو اسم فاعل يطوف كأنها تطوف بهم وتدور حولهم لتوقع بهم أومن طاف به الخيال يطيف طيفا أى ألم وقرىء طيف على أنه مصدر أو تخفيف من طيف من الواوى أو اليائى كهين ولين والمراد بالشيطان الجنس ولذلك جمع ضميره فيما سيأتى ﴿ تذكروا ﴾ أى الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه ﴿ فإذا هم ﴾ بسبب ذلك التذكر ﴿ مبصرون ﴾ مواقع الخطأ ومكايد الشيطان فيحترزون عنهـا ولا يتبعونه ﴿ وإخوانهم ﴾ أى إخوان الشياطين وهم المنهمكون فى الغى المعرضون عن وقاية أنفسهم عن المضار ﴿ يمدونهم فى الغى ﴾ أى يكون الشياطين مدداً لهم فيه ويعضدونهم بالتزيين والحمل عليه وقرىء يمدونهم من

الإمداد ويمادونهم كأنهم يعينونهم بالتسهيل والإذواء وهؤلاء بالاتباع والامتثال ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ كالمتقين ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين ويرجع الضمير إلى الجاهلين فيكون الخبر جاريا على من هو له ﴿ وإذا لم تأتهم بآية ﴾ من القرآن عند تراخى الوحى أو بآية مما اقترحوه ﴿ قالوا لولا اجتبيتها ﴾ اجتبى الشىء بمعنى جباه لنفسه أى هلا جمعتها من تلقاء نفسك تقولا يرون بذلك أن سائر الآيات أيضا كذلك أوهلا تلقيتها من ربك استدعاء ﴿ قل ﴾ ردا عليهم .

﴿ إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ﴾ من غير أن يكون لى دخل ما فى ذلك أصلا على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتباع مايوحى إليه بتوجيه للقصر المستفاد من كلمة إنما إلى نفس الفعل بالنسبة إلى مقابله الذى كلفوه إياه عليه الصلاة والسلام لا على معنى تخصيص اتباعه عليه الصلاة والسلام بمايوحى إليه بتوجيه القصر إلى المفعول بالقياس إلى مفعول آخر كما هو الشائع فى موارد الاستعمال وقدمر تحقيقه فى قوله تعالى (أن أتبع) إلا مايوحى إلى كأنه قيل ماأفعل إلا اتباع مايوحى إلى منه تعالى وفى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية والتبليغ إلى الكمال اللائق مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه عليه الصلاة والسلام والتنبيه على تأييده ما لا يخفى ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى القرآن الكريم المدلول عليه بما يوحى إلى ﴿ بصائر من ربكم ﴾ بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق وتدرك الصواب وقيل حجج بينة وبراهين نيرة ومن متعلقة بمحذوف هو صفة لبصائر مفيدة لفخامتها أى بصائر كائنة منه تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد وجوب الإيمان بها وقوله تعالى ﴿ وهدى ورحمة ﴾ عطف على بصائر وتقديم الظرف عليهما وتعقيبهما بقوله تعالى ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ للإيذان بأن كون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحقق بالنسبة إلى الكل وبه تقوم الحجة على الجميع وأما كونه هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين به إذ هم المقتبسون من أنواره والمغتنمون بآثاره والجملة من

تمام القول المأمور به ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له ﴾ إرشاد إلى طريق الفوز بما أشير إليه من المنافع الجليلة التي ينطوى عليها القرآن أى وإذا قرىء القرآن الذى ذكرت شئونه العظيمة فاستمعوا له استماع تحقيق وقبول ﴿ وأنصتوا ﴾ أى واسكتوا فى خلال القراءة وراعوها إلى انقضائها تعظيما له وتكميلا للاستماع ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أى تفوزون بالرحمة التى هى أقصى ثمراته وظاهر النظم الكريم يقتضى وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن فى الصلاة وغيرها وقيل معناه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وجمهور الصحابة رضى الله تعالى عنهم على أنه فى استماع المؤتم وقد روى أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ فى المكتوبة وقرأ أصحابه خلفه فنزلت وأما خارج الصلاة فعامة العلماء على استحبابهما والآية إما من تمام القول المأمور به أو استئناف من جهته تعالى .

﴿ واذكر ربك فى نفسك ﴾ على الأول عطف على قل وعلى الثانى فيه تجريد للخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عام فى الأذكار كافة فإن الإخفاء أدخل فى الإخلاص وأقرب من الإجابة ﴿ تضرعا وخيفة ﴾ أى متضرعا وخائفا ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ أى ومتكلما كلاما دون الجهر فإنه أقرب إلى حسن التفكر ﴿ بالغدو والآصال ﴾ متعلق باذكر أى اذكره فى وقت الغدوات والعشيات وقرىء والإيصال وهو مصدر آصل أى دخل فى الأصيل موافق للغدو ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ عن ذكر الله تعالى ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ وهم الملائكة عليهم السلام ومعنى كونهم عنده سبحانه وتعالى قربهم من رحمته وفضله لتوفرهم على طاعته تعالى ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ بل يؤدونها حسبما أمروا به ﴿ ويسبحونه ﴾ أى ينزهونه عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه ﴿ وله يسجدون ﴾ أى يخصونه بغاية العبودية والتذلل لا يشركون به شيئاً وهو تعريض بسائر المكلفين ولذلك شرع السجود عند قراءته . عن النبي

صلى الله عليه وسلم إذا قرأ ابن آدم آية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى فيقول يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار . وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الأعراف جعل الله تعالى يوم القيامة بينه وبين إبليس سترا وكان آدم عليه السلام شفيعا له يوم القيامة .

* * *

سورة الأنفال

(مدنية ، وهى ست وسبعون آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ النفل الغنيمة سميت به لأنها عطية من الله تعالى زائدة على ماهو أصل الأجر فى الجهاد من الثواب الأخروى ويطلق على مايعطى بطريق التنفيل زيادة على السهم من المغنم وقرىء علنفال بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام نون عن فى اللام . روى أن المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر وفى قسمتها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ولمن الحكم فيها أللمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعا وقيل إن الشبان قد أبلوا يومئذ بلاء حسنا فقتلوا سبعين وأسروا سبعين فقالوا نحن المقاتلون ولنا الغنائم وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردءاً لكم وفئة تنحازون إليها حتى قال سعد بن معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادة فى الأجر .ولا جبن من العدو ولكن كرهنا أن نعرى مصافك فيعطف عليك خيل من المشركين فنزلت .

وقيل : كان النبى صلى الله عليه وسلم قد شرط لمن كان له بلاء أن ينفله ولذلك فعل الشبان ما فعلوا من القتل والأسر فسألوه عليه الصلاة والسلام ما شرطه لهم فقال الشيوخ المغنم قليل والناس كثير وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك فنزلت والأول هو الظاهر لما أن السؤال استعلام لحكم

الأنفال بقضية كلمة عن لا استعطاء لنفسها كما نطق به الوجه الأخير وادعاء
زيادة عن تعسف ظاهر والاستدلال عليه بقراءة ابن مسعود وسعد بن أبى
وقاص وعلى بن الحسين وزيد ومحمد الباقر وجعفر الصادق وعكرمة وعطاء
يسألونك الأنفال غير منتهض فإن مبناها كما قالوا على الحذف والإيصال كما
يعرب عنه الجواب بقوله عز وجل ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ أى حكمها
مختص به تعالى يقسمها الرسول عليه الصلاة والسلام كيفما أمر به من غير أن
يدخل فيه رأى أحد ولو كان السؤال استعطاء لما كان هذا جوابا له فإن
اختصاص حكم ما شرط لهم من الأنفال بالله والرسول لا ينافى إعطاءها إياهم
بل يحققه لأنهم إنما يسألونها بموجب شرط الرسول عليه الصلاة والسلام الصادر
عنه بإذن الله تعالى لا بحكم سبق أيديهم إليها ونحو ذلك مما يخل بالاختصاص
المذكور وحمل الجواب على معنى أن الأنفال بالمعنى المذكور مختصة برسول الله
صلى الله عليه وسلم لا حق فيها للمنفل كائنا من كان مما لا سبيل إليه قطعا ضرورة
ثبوت الاستحقاق بالتنفيل وادعاء أن ثبوته بدليل متأخر التزام لتكرر النسخ
من غير علم بالناسخ الأخير ولا مساغ للمصير إلى ما ذهب إليه مجاهد وعكرمة
والسدى من أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لأحد
فيها شيء بهذه الآية فنسخت بقوله تعالى (فإن لله خمسه وللرسول) لما أن المراد
بالأنفال فيما قالوا هو المعنى الأول حتما كما نطق قوله تعالى (واعلموا أنما
غنمتم من شيء) الآية على أن الحق أنه لا نسخ حينئذ أيضاً حسبما قاله عبد الرحمن
ابن زيد بن أسلم بل بين فى صدر السورة الكريمة إجمالا أن أمرها مفوض إلى
الله تعالى ورسوله ثم بين مصاريفها وكيفية قسمتها على التفصيل وادعاء اقتصار
هذا الحكم أعنى الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنفال
المشروطة يوم بدر بجعل اللام للعهد مع بقاء استحقاق المنفل فى سائر الأنفال
المشروطة يأباه مقام بيان الأحكام كما ينبىء عنه إظهار الأنفال فى موقع الإضمار
على أن الجواب عن سؤال الموعود ببيان كونه له عليه الصلاة والسلام خاصة
مما لا يليق بشأنه الكريم أصلا وقد روى عن سعد بن أبى وقاص انه قال قتل

أخى عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبنى فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت إن الله تعالى قد شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف فقال عليه الصلاة والسلام « ليس هذا لى ولا لك اطرحه فى القبض» فطرحته وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياسعد إنك سألتنى السيف وليس لى وقد صار لى فاذهب فخذه » وهذا كما ترى يقتضى عدم وقوع التنفيل يومئذ وإلا لكان سؤال السيف من سعد بموجب شرطه ووعده عليه السلام لا بطريق الهبة المبتدأة وحمل ذلك من سعد على مراعاة الأدب مع كون سؤاله بموجب الشرط يرده عليه الصلاة والسلام قبل النزول وتعليله بقوله ليس هذا لى لاستحالة أن يعد عليه الصلاة والسلام بما لا يقدر على إنجازه وإعطاؤه صلى الله عليه وسلم بعد النزول وترتيبه على قوله وقد صار لى ضرورة أن مناط صيرورته له عليه الصلاة السلام قوله تعالى (الأنفال لله والرسول) والفرض أنه المانع من إعطاء المسئول ومما هو نص فى الباب قوله عز وجل :

﴿ فاتقوا الله ﴾ أى إذا كان أمر الغنائم لله تعالى ورسوله فاتقوه تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لسخط الله تعالى أو فاتقوه فى كل ما تأتون وماتذرون فيدخل فيه دخولا أوليا ولو كان السؤال طلبا للمشروط لما كان فيه محذور يجب اتقاؤه وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ جعل ما بينهم من الحال لملابستها التامة لبينهم صاحبة له كما جعلت الأمور المضمرة فى الصدور ذات الصدور أى أصلحوا ما بينكم من الأحوال بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى وتفضل به عليكم وعن عبادة بن الصامت نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله تعالى من أيدينا فجعله لرسوله فقسمه بين المسلمين على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين وعن عطاء كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال اقسموا غنائمكم

بالعدل فقالوا قد أكلنا وأنفقنا فقال ليرد بعضكم على بعض ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ بتسليم أمره ونهيه وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة والجواب محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أو هو الجواب على الخلاف المشهور وأياً ما كان فالمقصود تحقيق المعلق بناء على تحقيق المعلق به وفيه تنشيط للمخاطبين وحث لهم على المسارعة إلى الامتثال والمراد بالإيمان كماله أى إن كنتم كاملى الإيمان فإن كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث طاعة الأوامر واتقاء المعاصى وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان .

علامات المؤمنين

﴿ إنما المؤمنون ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث وفيه مزيد ترغيب لهم فى الامتثال بالأوامر المذكورة أى إنما الكاملون فى الإيمان المخلصون فيه ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أى فزعت لمجرد ذكره من غير أن يذكر هناك ما يوجب الفزع من صفاته وأفعاله واستعظاماً لشأنه الجليل وتهيبا منه وقيل هو الرجل يهم بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفا من عقابه وقرىء وجلت بفتح الجيم وهى لغة وقرىء فرقت أى خافت ﴿ وإذا تليت عليهم آياته ﴾ أى آية كانت ﴿ زادتهم إيمانا ﴾ أى يقينا وطمأنينة نفس فإن تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين وقيل إن نفس الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان وإنما زيادته باعتبار زيادة المؤمن به فإنه كلما نزلت صدق بها المؤمن فزاد إيمانه عدداً وأما نفس الإيمان فهو بحاله وقيل باعتبار أن الأعمال تجعل من الإيمان فيزيد بزيادتها والأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة وهى التى عبر عنها بالزيادة للفرق النير بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الأمة وعليه مبنى ما قال على رضى الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت

يقينا وكذا بين ما قام عليه دليل واحد وماقامت عليه أدلة كثيرة ﴿ وعلى ربهم ﴾ مالكهم ومدبر أمورهم خاصة ﴿ يتوكلون ﴾ يفوضون أمورهم لا إلى أحد سواه والجملة معطوفة على الصلة وقوله تعالى ﴿ الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ مرفوع على أنه نعت للموصول الأول أو بدل منه أو بيان له أو منصوب على القطع المنبىء عن المدح ذكر أولا من أعمالهم الحسنة أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ثم عقب بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى من ذكرت صفاتهم الحميدة من حيث أنهم متصفون بها وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك عمن عداهم أكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الشرف ﴿ هم المؤمنون حقا ﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه ما فصل من أفاضل الأعمال القلبية والقالبية وحقا صفة لمصدر محذوف أى أولئك هم المؤمنون إيمانا حقا أو مصدر مؤكد للجملة أى حق ذلك حقا كقولك هو عبد الله حقا ﴿ لهم درجات ﴾ من الكرامة والزلفى وقيل درجات عالية فى الجنة وهو إما جملة مبتدأة مبنية على سؤال نشأ من تعداد مناقبهم كأنه قيل ما لهم بمقابلة هذه الخصال فقيل لهم كيت وكيت أو خبر ثان لأولئك وقوله تعالى ﴿ عند ربهم ﴾ إما متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائنة عنده تعالى أو بما تعلق به الخبر أعنى لهم من الاستقرار وفى إضافة الظرف إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد تشريف ولطف لهم وإيذان بأن ماوعد لهم متيقن الثبوت والحصول مأمون الفوات ﴿ ومغفرة ﴾ لما فرط منهم ﴿ ورزق كريم ﴾ لا ينقضى أمده ولا ينتهى عدده وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة .

غزوة بدر

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ الكاف فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال إخراجك يعنى أن حالهم فى كراهتهم

لما رأيت مع كونه حقا كحالهم فى كراهتهم لخروجك للحرب وهو حق أو فى محل النصب على أنه صفة لمصدر مقدر فى قوله تعالى (الأنفال لله) أى الأنفال ثبتت لله والرسول مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك فى المدينة أو من المدينة إخراجا ملتبسا بالحق ﴿ وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ﴾ أى والحال أن فريقا منهم كارهون للخروج إما لنفرة الطبع عن القتال أو لعدم الاستعداد وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكبا منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول عيركم أموالكم إن أصابها محمد لم تفلحوا بعدها أبدا وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه رؤيا فقالت لأخيها إنى رأيت عجبا رأيت كأن ملكا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة فحدث بها العباس رضى الله عنه فقال أبو جهل مايرضى رجالهم أن يتنبأوا حتى تتنبأ نساؤهم فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير فقيل له إن العير أخذت طريق الساحل ونجحت فارجع بالناس إلى مكة فقال لا واللات لايكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وأن محمدا لم يصب العير وأنا قد أعضضناه فمضى بهم إلى بدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما فى السنة فنزل جبريل عليه السلام فقال يامحمد إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريشاً فاستشار النبى عليه الصلاة والسلام أصحابه فقال ما تقولون إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب إليكم أم النفير فقالوا بل العير أحب إلينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم فقال إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يارسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عندما غضب النبى

صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فأحسنا ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت إلى عدن أبين ماتخلف عنك رجل من الأنصار ثم قال المقداد بن عمرو رضى الله عنه يارسول الله امض لما أمرك الله فإنا معك حيثما أحببت لانقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال أشيروا على أيها الناس وهو يريد الأنصار لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان النبى عليه الصلاة والسلام يتخوف أن تكون الأنصار لاترى عليهم نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يارسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ى أعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وإنا لصبر عند الحرب صدق اللقاء ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم . وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شىء فناداه العباس رضى الله عنه وهو فى وثاقه لا يصلح فقال النبى عليه الصلاة والسلام لم قال لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك ﴿ يجادلونك فى الحق ﴾ الذى هو تلقى النفير لإيثارهم عليه تلقى العير والجملة استئناف أو حال ثانية أى أخرجك فى حال مجادلتهم إياك ويجوز أن يكون حالا من الضمير لكارهون وقوله تعالى ﴿ بعد ماتبين ﴾ منصوب بيجادلونك وما مصدرية أى بعد تبين الحق لهم بإعلامك أنهم ينصرون أينما توجهوا ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير وهلا

قلت لنا لنستعد و نتأهب وكان ذلك لكراهتهم القتال ﴿ كأنما يساقون إلى الموت ﴾ الكاف فى محل النصب على الحالية من الضمير فى لكارهون أى مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار إلى القتل ﴿ وهم ينظرون ﴾ حال من ضمير يساقون أى والحال أنهم ينظرون إلى أسباب الموت ويشاهدونها عيانا وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع إلا لقلة عددهم وعدم تأهبهم وكونهم رجالة . روى أنه لم يكن فيهم إلا فارسان .

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله عز وجل بالمؤمنين مع ما بهم من قلة الحزم ودناءة الهمة وقصور الرأى والخوف والجزع وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به المؤمنون بطريق التلوين والالتفات وإحدى الطائفتين مفعول ثان ليعدكم أى اذكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين ، وتذكير الوقت مع أن المقصود تذكير ما فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها فإذا استحضر كان ما وقع فيه حاضرا مفصلا كأنه مشاهد عيانا وقرىء يعدكم بسكون الدال تخفيفاً وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها وقوله تعالى ﴿ أنها لكم ﴾ بدل اشتمال من إحدى الطائفتين مبين لكيفية الوعد أى يعدكم أن إحدى الطائفتين كائنة لكم[1] مختصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليها تسلط الملاك وتتصرفون فيهم كيف شئتم ﴿ وتودون ﴾ عطف على يعدكم داخل تحت الأمر بالذكر أى تحبون ﴿ أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ من الطائفتين لا ذات الشوكة وهى النفير ورئيسهم أبو جهل وهم ألف مقاتل وغير ذات الشوكة هى العير إذ لم يكن فيها إلا أربعون فارسا ورأسهم أبو سفيان والتعبير عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب ودادتهم لملاقاتهم وموجب كراهتهم ونفرتهم عن موافاة

---

(١) فى ١١ : محققة لكم

النفير والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك وشوك القنا شباها ﴿ ويريد الله ﴾ عطف على تودون منتظم معه فى سلك التذكير ليظهر لهم عظيم لطف الله بهم مع دناءه هممهم وقصور آرائهم أى اذكروا وقت وعده تعالى إياكم إحدى الطائفتين ووداتكم [1] لأدناهما وإرادته تعالى لأعلاهما وذلك قوله تعالى ﴿ أن يحق الحق ﴾ أى يثبته ويعليه ﴿ بكلماته ﴾ أى بآياته المنزلة فى هذا الشأن أو بأوامره للملائكة بالإمداد وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم فى قليب بدر وقريء بكلمته ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ أى آخرهم ويستأصلهم بالمرة والمعنى أنتم تريدون سفساف الأمور والله عزوعلا يريد معاليها وما يرجع إلى علو كلمة الحق وسمو رتبة الدين وشتان بين المرادين وقوله تعالى .

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان الحكمة الداعية إلى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع إرادتهم لغيرها واللام متعلقة بفعل مقدر مؤخر عنها أى لهذه الغاية الجليلة فعل مافعل لا لشيء آخر وليس فيه تكرار إذالأول لبيان تفاوت ما بين الإرادتين وهذا لبيان الحكمة الداعية إلى ما ذكر ومعنى إحقاق الحق إظهار حقيته لاجعله حقا بعد أن لم يكن كذلك وكذا حال إبطال الباطل ﴿ولو كره المجرمون﴾ أى المشركون ذلك أى إحقاق الحق وإبطال الباطل ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ بدل من إذ يعدكم معمول لعامله فالمراد تذكير استمدادهم منه سبحانه والتجائهم إليه تعالى حين ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وإمداده تعالى حينئذ وقيل متعلق بقوله تعالى ليحق الحق على الظرفيه وما قيل من أن قوله تعالى ليحق مستقبل لأنه منصوب بأن فلا يمكن عمله فى إذ لأنه ظرف لما مضى ليس بشيء لأن كونه مستقبلا إنما هو بالنسبة إلى زمان ما هو غاية له من الفعل المقدر لا بالنسبة إلى زمان الاستغاثة حتى لا يعمل فيه بل هما فى وقت واحد وإنما عبر عن زمانها بإذ نظرا إلى زمان النزول وصيغة

(١) فى ١٠ : وإرادتكم

الاستقبال فى تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبةوقيل متعلق بمضمر مستأنف أى اذكروا وقت استغاثتكم وذلك أنهم لما علموا أنه لابد من القتال جعلوا يدعون الله تعالى قائلين أى رب انصرنا على وعدوك ياغياث المستغيثين أغثنا وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلثمائة وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضى الله عنهفألقاه على منكبيه والتزمه من ورائه وقال يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنهسينجز لك ما وعدك .

﴿ فاستجاب لكم ﴾ عطف على تستغيثون داخل معه فى حكم التذكير لما عرفت أنه ماض وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة ﴿ أنى ممدكم ﴾ أى بأنى فحذف الجار وسلط عليه الفعل فنصب محله وقرىء بكسر الهمزة على إرادة القول أو على إجراء استجاب مجرى قال لأن الاستجابة من مقولة القول ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾ أى جاعلين غيرهم من الملائكة رديفا لأنفسهم فالمراد بهم رؤساؤهم المستتبعون لغيرهم وقد اكتفى ههنا بهذا البيان الإجمالى وبين فى سورة آل عمران مقدار عددهم وقيل معناه متبعين أنفسهم ملائكة آخرين أو متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضا من أردفته إذا جئت بعده أومتبعين بعضهم بعض المؤمنين أو أنفسهم المؤمنين من أردفته إياه فردفه وقرىءمردفين بفتح الدال أى متبعين أو متبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمةالجيش أوساقتهموقرىء مردفين بكسر الراء وضمها وتشديد الدال وأصلهما مرتدفين بمعنى مترادفين فأدغمت التاء فى الدال فالتقى الساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل أوبالضم على الإتباع وقرىء بآلاف ليوافق ما فى سورة آل عمران .

ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالألف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة أو وجوههم وأعيانهم أو من قاتل منهم واختلف فى مقاتلتهم وقدروى

أخبار تدل على وقوعها ﴿ وما جعله الله ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن الأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وإنما التأثير مختص به عز وجل ليثق المؤمنون ولا يقنطوا من النصر عند فقدان أسبابه والجعل متعد إلى مفعول واحد هو الضمير العائد إلى مصدر فعل مقدر يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا مغنيا عن التصريح به كأنه قيل فأمدكم بهم وما جعل إمدادكم بهم ﴿ إلا بشرى ﴾ وهو استثناء مفرغ من أعم العلل أى وما جعل إمدادكم بإنزال الملائكة عيانا لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بأنكم تنصرون ﴿ ولتطمئن به ﴾ أى بالإمداد ﴿ قلوبكم ﴾ وتسكن إليه نفوسكم كما كانت السكينة لبنى إسرائيل كذلك فكلاهما مفعول له للجعل وقد نصب الأول لاجتماع شرائطه وبقى الثانى على حاله لفقدانها وقيل للإشارة إلى أصالته فى العلية وأهميته فى نفسه كما قيل فى قوله تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وفى قصر الإمداد عليهما إشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المباشرين وتكثير سوادهم ونحوه كما هو رأى بعض السلف وقيل الجعل متعد إلى اثنين ثانيهما إلا بشرى على أنه استثناء من أعم المفاعيل أى وما جعله الله شيئا من الأشياء إلا بشارة لكم فاللام فى ولتطمئن متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره ولتطمئن به قلوبكم فعل ذلك لا لشيء آخر ﴿ وما النصر ﴾ أى حقيقة النصر على الإطلاق ﴿ إلا من عند الله ﴾ أى إلا كائن من عنده عز وجل من غير أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب والعدد وإنما هى مظاهر له بطريق جريان السنة الإلهية ﴿ إن الله عزيز ﴾ لا يغالب فى حكمه ولا ينازع فى أقضيته ﴿ حكيم ﴾ يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل لما قبلها متضمن للإشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة ﴿ إذ يغشيكم النعاس ﴾ أى يجعله غاشيا لكم ومحيطا بكم وهو بدل ثان من إذ يعدكم لإظهار نعمة أخرى وصيغة الاستقبال فيه وفيما عطف عليه لحكاية الحال الماضية كما فى تستغيثون أو منصوب بإضمار اذكروا وقيل هو متعلق بالنصر أو بما فى من عند الله من معنى الفعل أو بالجعل وليس بواضح وقرىء

يغشيكم من الإغشاء بمعنى التغشية والفاعل فى الوجهين هو البارى تعالى وقرىء يغشاكم على إسناد الفعل إلى النعاس وقوله تعالى ﴿ أمنة منه ﴾ على القراءتين الأوليين منصوب على العلية بفعل مترتب على الفعل المذكور أى يغشيكم النعاس فتنعسون أمنا كائنا من الله تعالى لا كلالا وإعياء أو على أنه مصدر لفعل آخر كذلك أى فتأمنون أمنا كما فى قوله تعالى (وأنبتها نباتا حسنا) على أحد الوجهين وقيل منصوب بنفس الفعل المذكور والأمنة بمعنى الإيمان[1] وعلى القراءة الأخيرة منصوب على العلية بيغشاكم باعتبار المعنى فإنه فى حكم تنعسون أو على أنه مصدر لفعل مترتب عليه كما مر وقرىء أمنة كرحمة ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فعند وروده يتمكن عندها فضل تمكن وتقديم عليكم لما أن بيان كون التنزيل عليهم أهم من بيان كونه من السماء وقرىء بالتخفيف من الإنزال ﴿ ليطهركم به ﴾ أى من الحدث الأصغر والأكبر .

﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ الكلام فى تقديم الجار والمجرور كما مر آنفا والمراد برجز الشيطان وسوسته وتخويفه اياهم من العطش . روى أنهم نزلوا فى كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء فتمثل لهم الشيطان فوسوس اليهم وقال أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش فإذا قطع أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا فأنزل الله عز وجل المطر فمطروا ليلا حتى جرى الوادى فاغتسلوا وتوضأوا وسقوا الركاب وتلبد الرمل الذى كان بينهم

---

(١) فى ١٠ : الأمان

وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس وقويت القلوب وذلك قوله تعالى ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ أى يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ فلا تسوخ فى الرمل فالضمير للماء كالأول ويجوز أن يكون للربط فإن القلب إذا قوى وتمكن فيه الصبر والجراءة لا تكاد تزل القدم فى معارك الحروب وقوله تعالى .

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة ﴾ منصوب بمضمر مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق التجريد حسبما تنطق به الكاف لما أن المأمور به مما لا يستطيعه غيره عليه الصلاة والسلام فإن الوحى المذكور قبل ظهوره بالوحى المتلو على لسانه عليه الصلاة والسلام ليس من النعم التى يقف عليها عامة الأمة كسائر النعم السابقة التى أمروا بذكر وقتها بطريق الشكر وقيل منصوب بقوله تعالى ويثبت به الأقدام فلا بد حينئذ من عود الضمير المجرور فى به إلى الربط على القلوب ليكون المعنى ويثبت أقدامكم بتقوية قلوبكم وقت إيحائه إلى الملائكة وأمره بتثبيتهم إياكم وهو وقت القتال ولا يخفى أن تقييد التثبيت المذكور بوقت مبهم عندهم ليس فيه مزيد فائدة وأما انتصابه على أنه بدل ثالث من إذ يعدكم كما قيل فيأباه تخصيص الخطاب به عليه الصلاة والسلام مع ما عرفت من أن المأمور به ليس من الوظائف العامة للكل كسائر أخواته وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من التنويه والتشريف ما لا يخفى والمعنى اذكر وقت إيحائه تعالى إلى الملائكة ﴿ أنى معكم ﴾ أى بالإمداد والتوفيق فى أمر التثبيت فهو مفعول يوحى وقرىء بالكسر على إرادة القول أو إجراء الوحى مجراه وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية الملائكة إنما هى من حيث أنهم المباشرون للتثبيت صورة فلهم الأصالة من تلك الحيثية كما فى أمثال قوله تعالى (إن الله مع الصابرين) والفاء فى قوله تعالى ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ لترتيب ما بعدها على ماقبلها فإن إمداده تعالى إياهم من أقوى موجبات التثبيت واختلفوا فى كيفية التثبيت فقالت جماعة إنما أمروا بتثبيتهم بالبشارة وتكثير السواد ونحوهما مما تقوى به قلوبهم

وتصح عزائمهم ونياتهم ويتأكد جدهم فى القتال وهو الأنسب بمعنى التثبيت وحقيقته التى هى عبارة عن الحمل على الثبات فى موطن الحرب والجد فى مقاساة شدائد القتال وقد روى أنه كان الملك يتشبه بالرجل الذى يعرفونه بوجهه فيأتى ويقول إنى سمعت المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن ويمشى بين الصفين فيقول أبشروا فإن الله تعالى ناصركم وقال آخرون أمروا بمحاربة أعدائهم وجعلوا قوله تعالى :

﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ تفسيرا لقوله تعالى أنى معكم وقوله تعالى ﴿ فاضربوا ﴾ الخ تفسيرا لقوله تعالى ﴿ فثبتوا ﴾ مبينا لكيفية التثبيت وقد روى عن أبى داود المازنى رضى الله عنه وكان ممن شهد بدرا أنه قال اتبعت رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه فوقعت رأسه بين يدى قبل أن يصل إليه سيفى وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أنه قال لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف وأنت خبير بأن قتلهم للكفرة مع عدم ملاءمته لمعنى تثبيت المؤمنين مما لا يتوقف على الإمداد بإلقاء الرعب فلا يتجه ترتيب الأمر به عليه بالفاء وقد اعتذر الأولون بأن قوله تعالى (فثبتوا الذين آمنوا) تلقينا للملائكة مايثبتونهم به كأنه قيل قولوا لهم قولى سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا الخ فالضاربون هم المؤمنون وأما ما قيل من أن ذلك خطاب منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين فمبناه توهم وروده قبل القتال وأنى ذلك والسورة الكريمة إنما نزلت بعد تمام الوقعة وقوله تعالى ﴿ فوق الأعناق ﴾ أى أعاليها التى هى المذابح أو الهامات ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ قيل البنان أطراف الأصابع من اليدين والرجلين وقيل هى الأصابع من اليدين والرجلين وقال أبو الهيثم البنان المفاصل وكل مفصل بنانة وقال ابن جريج والضحاك يعنى الأطراف أى اضربوهم فى جميع الأعضاء من أعاليها إلى أسافلها وقيل المراد بالبنان الأدانى وبفوق الأعناق الأعالى والمعنى فاضربوا الصناديد والسفلة

وتكرير الأمر بالضرب لمزيد الاعتناء بأمره ومنهم متعلق به أو بمحذوف وقع حالا مما بعده .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما أصابهم من العقاب وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجته فى الشدة والفظاعة والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يليق بالخطاب ومحله الرفع على الابتداء وخبره قوله تعالى ﴿ بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أى ذلك العقاب الفظيع واقع عليهم بسبب مشاقتهم ومغالبتهم من لاسبيل إلى مغالبته أصلا واشتقاق المشاقة من الشق لما أن كلا من المشاقين فى شق الآخر كما أن اشتقاق المعاداة والمخاصمة من العدوة والخصم أى الجانب لأن كلا من المتعاديين والمتخاصمين فى عدوة وخصم غير عدوة الآخر وخصمه ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله ﴾ الإظهار فى موضع الإضمار لتربية المهابة وإظهار كمال شناعة ما اجترأوا عليه والإشعار بعلة الحكم وقوله تعالى ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ إما نفس الجزاء قد حذف منه العائد إلى من عند من يلتزمه أى شديد العقاب له أو تعليل للجزاء المحذوف أى يعاقبه الله فإن الله شديد العقاب وأياً ما كان فالشرطية تكملة لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهانى كأنه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كائنا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فأذن لهم بسبب مشاقتهم لهما عقاب شديد وأما أنه وعيد لهم بما أعد لهم فى الآخرة بعد ما حاق بهم فى الدنيا كما قيل فيرده ما بعده من قوله تعالى ﴿ ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ فإنه مع كونه هو المسوق للوعيد بما ذكر ناطق بكون المراد بالعقاب المذكور ما أصابهم عاجلا سواء جعل ذلكم إشارة إلى نفس العقاب أو إلى ما تفيده الشرطية من ثبوت العقاب لهم أما على الأول فلأن الأظهر أن محله النصب بمضمر يستدعيه قوله تعالى فذوقوه والواو فى قوله تعالى وأن للكافرين الخ بمعنى مع فالمعنى باشروا ذلكم العقاب الذى أصابكم فذوقوه عاجلا مع أن لكم عذاب النار آجلا فوضع الظاهر موضع الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به وأما على الثانى فلأن الأقرب أن

محله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى وأن للكافرين الخ معطوف عليه والمعنى حكم الله ذلكم أى ثبوت هذا العقاب لكم عاجلا وثبوت عذاب النار آجلا وقوله تعالى فذوقوه اعتراض وسط بين المعطوفين للتهديد والضمير على الأول لنفس المشار إليه وعلى الثانى لما فى ضمنه وقد ذكر فى إعراب الآية الكريمة وجوه أخر ومدار الكل على أن المراد بالعقاب ما أصابهم عاجلا والله تعالى أعلم وقرىء بكسر إن على الاستئناف .

من القوانين الحربية

﴿ ياأيها الذين آمنوا ﴾ خطاب للمؤمنين بحكم كلى جار فيما سيقع من الوقائع والحروب جىء به فى تضاعيف القصة إظهاراً للاعتناء بشأنه ومبالغة فى حثهم على المحافظة عليه ﴿ إذا لقيتم الذين كفروا زحفا ﴾ الزحف الدبيب يقال زحف الصبى زحفاً إذا دب على إسته قليلا قليلا سمى به الجيش الداهم المتوجه إلى العدو لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف وذلك لأن الكل يرى كجسم واحد متصل فيحس حركته بالقياس إليه فى غاية البطء وإن كانت فى نفس الأمر على غاية السرعة قال قائلهم :

وأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

ونصبه إما على أنه إما حال من مفعول لقيتم أى زاحفين نحوكم وإما على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال منه أى يزحفون زحفا وأما كونه حالا من فاعله أو منه ومن مفعوله معا كما قيل فيأباه قوله تعالى ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ إذ لا معنى لتقييد النهى عن الإدبار بتوجههم السابق إلى العدو أو بكثرتهم بل توجه العدو إليهم وكثرتهم هو الداعى إلى الإدبار عادة والمحوج إلى النهى عنه وحمله على الإشعار بما سيكون منهم يوم حنين حيث تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفا بعيد والمعنى إذ لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تولوهم أدباركم فضلا عن الفرار بل قابلوهم وقاتلوهم مع قلتكم فضلا عن أن تدانوهم فى العدد أو تساووهم ﴿ ومن يولهم يومئذ ﴾ أى يوم اللقاء ﴿ دبره ﴾

فضلا عن الفرار وقرىء بسكون الباء ﴿ إلا متحرفا لقتال ﴾ إما بالتوجه إلى قتال طائفه أخرى أهم من هؤلاء وإما بالفر للكر بأن يخيل عدوه أنه منهزم ليغره ويخرجه من بين أعوانه ثم يعطف عليه وحده أو مع من فى الكمين من أصحابه وهو باب من خدع الحرب ومكايدها ﴿ أو متحيزا إلى فئة ﴾ أى منحازاً إلى جماعة أخرى من المؤمنين لينضم إليهم ثم يقاتل معهم العدو . عن ابن عمر رضى الله عنهما قال إن سرية فروا وأنا معهم فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا ودخلوا البيوت فقلت يارسول الله نحن الفرارون فقال صلى الله عليه وسلم بل أنتم العكارون أي الكرارون من عكر أى رجع وأنا فئتكم وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر رضى الله عنه فقال يا أمير المؤمنين هلكت ففررت من الزحف فقال رضى الله عنه أنا فئتك ووزن متحيز متفيعل لا متفعل وإلا لكان متحوزا لأنه من حاز يحوز وانتصابهما إما على الحالية وإلا لغو لا عمل لها وإما على الاستثناء من المولين أى ومن يولهم دبره إلا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا ﴿ فقد باء ﴾ أى رجع ﴿ بغضب ﴾ عظيم لا يقادر قدره ومن فى قوله تعالى ﴿ من الله ﴾ متعلقة بمحذوف هو صفة لغضب مؤكدة لماأفاده التنوين من الفخامة والهول بالفخامةالإضافية أى بغضب كائن منه تعالى ﴿ ومأواه جهنم ﴾ أى بدل ما أراد بفراره أن يأوى إليه من مأوى ينجيه من القتل ﴿ وبئس المصير ﴾ فى إيقاع البوء فى موقع جواب الشرط الذى هو التولية مقرونا بذكر المأوى والمصير من الجزالة مالا مزيد عليه . عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف لقوله تعالى الآن خفف الله عنكم الآية وقيل الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه فى الحرب .

عود إلى غزوة بدر

﴿ فلم تقتلوهم ﴾ رجوع إلى بقية أحكام الوقعة وأحوالها وتقرير ما سبق منها والفاء جواب شرط مقدر يستدعيه ما مر من ذكر إمداده تعالى وأمره

بالتثبيت وغير ذلك كأنه قيل إذا كان الأمر كذلك فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم وقدرتكم ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم ويجوز أن يكون التقدير : إذا علمتم ذلك فلم تقتلوهم أى فاعلموا ، أو فأخبركم أنكم لم تقتلوهم ، وقيل : التقدير إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم على أحد التأويلين ، لما روى أنهم لما انصرفوا من المعركة غالبين غانمين أقبلوا يتفاخرون يقولون قتلت وأسرت وفعلت وتركت فنزلت ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طلعت قريش من العقنقل قال « هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك ، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى » فأتاه جبريل عليه السلام فقال خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلى رضى الله تعالى عنه « أعطنى قبضة من حصباء الوادى » فرمى بها فى وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه فانهزموا وذلك قوله عز وجل بطريق تلوين الخطاب ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ تحقيقا لكون الرمى الظاهر على يده عليه الصلاة والسلام حينئذ من أفعاله عز وجل وتجريد الفعل عن المفعول به لما أن المقصود الأصلى بيان حال الرمى نفيا وإثباتا ، إذ هو الذى ظهر منه ما ظهر وهو المنشأ لتغير المرمى به فى نفسه وتكثره إلى حيث أصاب عينى كل واحد من أولئك الأمة الجمة شىء من ذلك أى وما فعلت أنت يا محمد تلك الرمية المستتبعة لهذه الآثار العظيمة حقيقة حين فعلتها صورة وإلا لكان أثرها من جنس آثار الأفاعيل البشرية ولكن الله فعلها أى خلقها حين باشرتها لكن لا على نهج عادته تعالى فى خلق أفعال العباد بل على وجه غير معتاد ولذلك أثرت هذا التأثير الخارج عن طوق البشر ودائرة القوى والقدر فمدار إثباتها لله تعالى ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام كون أثرها من أفعاله عليه الصلاة والسلام وقرىء ولكن الله بالتخفيف والرفع فى المحلين واللام فى قوله تعالى :

﴿ وليبلى المؤمنين منه ﴾ أى ليعطيهم من عنده تعالى ﴿ بلاء حسنا ﴾ أى عطاء جميلا غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره إما متعلقة بمحذوف متأخر

فالواو اعتراضية أى وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة فعل ما فعل لا لشىء غير ذلك مما لا يجديهم نفعا وإما برمى فالواو للعطف على علة محذوفة أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى الخ وقوله تعالى ﴿ إن الله سميع ﴾ أى لدعائهم واستغاثتهم ﴿ عليم ﴾ أى بنياتهم وأحوالهم الداعية إلى الإجابة تعليل للحكم ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿ وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ بالإضافة معطوف عليه أى المقصد إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم وقيل المشار إليه القتل والرمى والمبتدأ الأمر ، أى القتل فيكون قوله تعالى (وأن الله) الآية من قبيل عطف البيان وقرىء موهن بالتنوين مخففا ومشددا ونصب كيد الكافرين ﴿ إن تستفتحوا ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم بهم وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين أى إن تستنصروا لأعلى الجندين ﴿ فقد جاءكم الفتح ﴾ حيث نصر أعلاهما وقد زعمتم أنكم الأعلى فالتهكم فى المجىء أو فقد جاءكم الهزيمة والقهر فالتهكم فى نفس الفتح حيث وضع موضع ما يقابله ﴿ وإن تنتهوا ﴾ عما كنتم عليه من الحراب ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فهو ﴾ أى الانتهاء ﴿ خير لكم ﴾ أى من الحراب الذى ذقتم غائلته لما فيه من السلامة من القتل والأسر ومبنى اعتبار أصل الخيرية فى المفضل عليه هو التهكم ﴿ وإن تعودوا ﴾ أى إلى حرابه عليه الصلاة والسلام ﴿ نعد ﴾ لما شاهدتموه من الفتح ﴿ ولن تغنى ﴾ بالتاء الفوقانية وقرىء بالياء التحتانية لأن تأنيث الفئة غير حقيقى وللفصل أى لن تدفع أبداً ﴿ عنكم فئتكم ﴾ جماعتكم التى تجمعونهم وتستعينون بهم ﴿ شيئا ﴾ أى من الإغناء أو من المضاربة وقوله تعالى ﴿ ولو كثرت ﴾ جملة حالية وقد مر التحقيق ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ أى ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك أو والأمر أن الله مع المؤمنين ويقرب منه بحسب المعنى قراءة الكسر على الاستئناف وقيل الخطاب للمؤمنين والمعنى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر وإن تنتهوا عن التكاسل والرغبة عما يرغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم

فهو خير لكم من كل شيء لما أنه مناط لنيل سعادة الدارين وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار وتهييج العدو ولن تغنى حينئذ كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر والأمر أن الله مع الكاملين فى الإيمان .

توجيهات للمؤمنين

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا﴾ بطرح إحدى التاءين وقرىء بإدغامها ﴿عنه﴾ أى لا تتولوا عن الرسول فإن المراد هو الأمر بطاعته والنهى عن الإعراض عنه وذكر طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أن طاعته تعالى فى طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام من يطع الرسول فقد أطاع الله وقيل الضمير للجهاد وقيل للأمر الذى دل عليه الطاعة وقوله تعالى ﴿وأنتم تسمعون﴾ جملة حالية واردة لتأكيد وجوب طاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع فهم وإذعان ﴿ولا تكونوا﴾ تقرير للنهى السابق وتحذير عن مخالفته بالتنبيه على أنها مؤدية إلى انتظامهم فى سلك الكفرة بكون سماعهم كلا سماع أى لا تكونوا بمخالفة الأمر والنهى ﴿كالذين قالوا سمعنا﴾ بمجرد الادعاء من غير فهم وإذعان كالكفرة والمنافقين الذين يدعون السماع ﴿وهم لا يسمعون﴾ حال من ضمير قالوا أى قالوا ذلك والحال أنهم لا يسمعون حيث لا يصدقون ما سمعوه ولا يفهمونه حق فهمه فكأنهم لا يسمعونه رأساً .

﴿إن شر الدواب﴾ استئناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغة فى التحذير وتقريرا للنهى إثر تقرير أى إن شر ما يدب على الأرض أو شر البهائم ﴿عند الله﴾ أى فى حكمه وقضائه ﴿الصم﴾ الذين لا يسمعون الحق ﴿البكم﴾ الذين لا ينطقون به وصفوا بالصمم والبكم لأن ما خلق له الأذن واللسان سماع الحق والنطق به وحيث لم يوجد فيهم شيء من ذلك صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأسا وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكمهم فإن السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من

فروع سماعه ثم وصفوا بعدم التعقل فقيل ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ تحقيقا لكمال سوء حالهم فإن الأصم الأبكم إذا كان له عقل ربما يفهم[1] بعض الأمور ويفهمه غيره بالإشارة ويهتدى بذلك إلى بعض مطالبه وأما إذا كان فاقدا للعقل أيضا فهو الغاية فى الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شرا من البهائم حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها وبه يفضلون على كثير من خلق الله عز وجل فصاروا أخس من كل خسيس ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا ﴾ شيئا من جنس الخير الذى من جملته صرف قواهم إلى تحرى الحق واتباع الهدى ﴿ لأسمعهم ﴾ سماع تفهم وتدبر ولوقفوا على حقية الرسول عليه الصلاة والسلام وأطاعوه وآمنوا به ولكن لم يعلم فيهم شيئا من ذلك لخلوهم عنه بالمرة فلم يسمعهم كذلك لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة وإليه أشير بقوله تعالى ﴿ ولو أسمعهم لتولوا ﴾ أى لو أسمعهم سماع تفهم وهم على هذه الحالة العارية من الخير بالكلية لتولوا عما سمعوه من الحق ولم ينتفعوا به قط أو ارتدوا بعد ما صدقوه وصاروا كأن لم يسمعوه أصلا وقوله تعالى ﴿ وهم معرضون ﴾ إما حال من ضمير تولوا أى لتولوا على أدبارهم والحال أنهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم وإما اعتراض تذييلى أى وهم قوم عادتهم الإعراض وقيل كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحى قصيا فإنه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك ونؤمن بك فالمعنى ولو أسمعهم كلام قصى الخ وقيل هم بنو عبد الدار بن قصى لم يسلم منهم إلا مصعب بن عمير وسويد بن حرملة كانوا يقولون نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه قاتلهم الله تعالى فقتلوا جميعا بأحد وكانوا أصحاب اللواء وعن ابن جريج أنهم المنافقون وعن الحسن رضى الله عنه أنهم أهل الكتاب .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر وتنبيههم على أن فيهم ما يوجب ذلك ﴿ استجيبوا لله وللرسول ﴾ بحسن الطاعة ﴿ إذا دعاكم ﴾ أى الرسول إذ هو

---

(١) فى ٤٣٠ فهم .

المباشر لدعوة الله تعالى ﴿ لما يحييكم ﴾ من العلوم الدينية التي هي مناط الحياة الأبدية كما أن الجهل مدار الموت الحقيقي أو هي ماء حياة القلب كما أن الجهل موجب موته وقيل لمجاهدة الكفار لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم كما في قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) روى أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبي بن كعب وهو يصلي فدعاه فعجل في صلاته ثم جاء فقال عليه الصلاة والسلام ما منعك من إجابتي قال كنت في الصلاة قال ألم تخبر فيما أوحي إلي (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم) الخ واختلف فيه فقيل هذا من خصائص دعائه عليه الصلاة والسلام وقيل لأن إجابته عليه الصلاة والسلام لا تقطع الصلاة وقيل كان ذلك الدعاء لأمر مهم لا يحتمل التأخير وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ تمثيل لغاية قربه تعالى من العبد كقوله تعالى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وتنبيه على أنه تعالى مطلع من مكنونات القلوب على ما عسى يغفل عنه صاحبها أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل إدراك المنية فإنها حائلة بين المرء وقلبه أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه بحيث يفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته ويبدله بالأمن خوفا وبالذكر نسيانا وما أشبه ذلك من الأمور المعترضة المفوتة للفرصة وقرىء بين المر بتشديد الراء على حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الراء وإجراء الوصل مجرى الوقف ﴿ وأنه ﴾ أي الله عز وجل أو الشأن ﴿ إليه تحشرون ﴾ لا إلى غيره فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم فسارعوا إلى طاعته تعالى وطاعة رسوله وبالغوا في الاستجابة لهما .

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ أي لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم بل يعمه وغيره كإقرار المنكر بين أظهرهم والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في الجهاد على أن قوله لا تصيبن الخ إما جواب الأمر على معنى أن إصابتكم لا تصيبن الخ وفيه جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما

تضمن معنى النهى ساغ فيه كقوله تعالى (ادخلوا) مساكنكم لا يحطمنكم وإما صفة لفتنة ولا للنفى وفيه شذوذ لأن النون لا تدخل المنفى فى غير القسم أو للنهى على إرادة القول كقول من قال :

حتى إذا جن الظلام واختلط جاؤا بمذق هل رأيت الذئب قط

وإما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيبن وإن اختلف المعنى فيهما وقد جوز أن يكون نهيا عن التعرض للظلم بعد الأمر باتقاء الذنب فإن وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه ومن فى منكم على الوجوه الأول للتبعيض وعلى الأخيرين للتبيين وفائدته التنبيه على أن الظلم منكم أقبح منه من غيركم ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه ﴿واذكروا إذ أنتم قليل ﴾ أى وقت كونكم قليلا فى العدد وإيثار الجملة الإسمية للإيذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف وقوله تعالى ﴿ مستضعفون ﴾ خبر ثان أو صفة لقليل وقوله تعالى ﴿ فى الأرض ﴾ أى فى أرض مكة تحت أيدى قريش والخطاب للمهاجرين أو تحت أيدى فارس والروم والخطاب للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء تحت أيدى الطائفتين وقوله تعالى ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ خبر ثالث أو صفة ثانية لقليل وصف بالجملة بعد ما وصف بالمفرد أو حال من المستكن فى مستضعفون والمراد بالناس على الأول وهو الأظهر إما كفار قريش وإما كفار العرب لقربهم منهم وشدة عداوتهم لهم وعلى الثانى فارس والروم أى واذكروا وقت قلتكم وذلتكم وهوانكم على الناس وخوفكم من اختطافهم ﴿ فآواكم ﴾ إلى المدينه أو جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم ﴿ وأيدكم بنصره ﴾ على الكفار أو بمظاهرة الأنصار أو بإمداد الملائكة ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ من الغنائم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم الجليلة .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ﴾ أصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام واستعماله فى ضد الأمانة لتضمنه إياه أى لا تخونوهما

بتعطيل الفرائض والسنن أو بأن تضمروا خلاف ما تظهرون أو فى الغلول فى الغنائم روى أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بنى قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح بنى النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء من الشام فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحا لهم لما أن ماله وعياله كانا فى أيديهم فبعثه إليهم فقالوا ما ترى هل ننزل على حكم سعد فأشار إلى حلقه إنه الذبح قال أبو لبابة فما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله فنزلت فشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فمكث سبعة أيام حتى خر مغشيا على ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك قال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاءه عليه الصلاة والسلام فحله فقال إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى فقال عليه الصلاة والسلام يجزئك الثلث أن تتصدق به ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ فيما بينكم وهو مجزوم معطوف على الأول أو منصوب على الجواب بالواو ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أنكم تخونون أو وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ لأنها سبب الوقوع فى الإثم والعقاب أو محنة من الله عز وجل ليبلوكم فى ذلك فلا يحملنكم حبهما على الخيانة كأبى لبابة ﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ لمن آثر رضاه تعالى عليهما وراعى حدوده فيهما فنيطوا هممكم بما يؤديكم إليه .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ تكرير الخطاب والوصف بالإيمان لإظهار كمال العناية بما بعده والإيذان بأنه مما يقتضى الإيمان مراعاته والمحافظة عليه كما فى الخطابين السابقين ﴿ إن تتقوا الله ﴾ أى فى كل ما تأتون وما تذرون ﴿ يجعل لكم ﴾ بسبب ذلك ﴿ فرقانا ﴾ هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أو نصرا يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين أو مخرجا

من الشبهات أو نجاة عما تحذرون فى الدارين أو ظهورا يشهر أمركم وينشر صيتكم من قولهم بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان أى الصبح ﴿ ويكفر عنكم سيئاتكم ﴾ أى يسترها ﴿ ويغفر لكم ﴾ ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لأنها فى أهل بدر وقد غفرها الله تعالى لهم وقوله تعالى ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ تعليل لما قبله وتنبيه على أن ماوعده الله تعالى لهم على التقوى تفضل منه وإحسان لا أنه مما يوجبه التقوى كما إذا وعد السيد عبده إنعاما على عمل .

نصر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم معطوف على قوله تعالى (واذكروا إذ أنتم) الخ مسوق لتذكير النعمة العامة للكل أى واذكر وقت مكرهم بك ﴿ ليثبتوك ﴾ بالوثاق ويعضده قراءة من قرأ ليقيدوك أو الإثخان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبته لا حراك به ولا براح وقرىء ليثبتوك بالتشديد وليبيتوك من البيات .

﴿ أو يقتلوك ﴾ أى بسيوفهم ﴿ أو يخرجوك ﴾ أى من مكة وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم له عليه الصلاة والسلام فرقوا واجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى أمره صلى الله عليه وسلم فدخل إبليس عليهم فى صورة شيخ وقال أنا من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا فقال أبو البحترى رأيى أن تحبسوه فى بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت فقال الشيخ بئس الرأى يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأيى أن تحملوه على جمل وتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع فقال وبئس الرأى يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فإذا طلبوا العقل عقلناه فقال صدق هذا الفتى

فتفرقوا على رأيه فأتى جبريل النبي عليهما الصلاة والسلام وأخبره بالخبر وأمره بالهجرة فبيت عليا رضى الله تعالى عنه على مضجعه وخرج هو مع أبى بكر رضى الله عنه إلى الغار ﴿ويمكرون ويمكر الله﴾ أى يرد مكرهم عليهم أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين وذلك بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم مالقوا ﴿ والله خير الماكرين ﴾ لايعبأ بمكرهم عند مكره وإسناد أمثال هذا إليه سبحانه مما يحسن للمشاكلة ولا مساغ له ابتداء لما فيه من إيهام مالا يليق به سبحانه ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ التى حقها أن يخر لها صم الجبال﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ قاله اللعين النضر بن الحرث وإسناده إلى الكل لما أنه كان رئيسهم وقاضيهم الذى يقولون بقوله ويأخذون برأيه وقيل قاله الذين ائتمروا فى أمره صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة وهذا كما ترى غاية المكابرة ونهاية العناد كيف لاولو استطاعوا شيئاً من ذلك فما الذى كان يمنعهم من المشيئة وقد تحدوا عشر سنين وقرعوا على العجز وذاقوا من ذلك الأمرين ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوا بما سواه مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا لا سيما فى باب البيان ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى مايسطرونه من القصص .

﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ هذا أيضا من أباطيل ذلك اللعين . روى أنه لما قال إن هذا إلا أساطير الأولين قال له النبى صلى الله عليه وسلم « ويلك إنه كلام الله تعالى » فقال ذلك والمعنى إن القرآن إن كان حقا منزلا من عندك فأمطر علينا الحجارة عقوبة على إنكارنا أو ائتنا بعذاب أليم سواه والمراد منه التهكم وإظهار اليقين والجزم التام على أنه ليس كذلك وحاشاه وقرىء الحق بالرفع على أن هو مبتدأ لافصل وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقا على الوجه الذى يدعيه صلى الله عليه وسلم وهو تنزيله لا الحق مطلقا لتجويزهم أن يكون مطابقا للواقع غير منزل كالأساطير ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للموجب لإمهالهم والتوقف فى

إجابة دعائهم واللام لتأكيد النفى والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبي عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم خارج عن عادته تعالى غير مستقيم فى حكمه وقضائه والمراد باستغفارهم فى قوله تعالى ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ إما استغفار من بقى منهم من المؤمنين أو قولهم اللهم اغفر أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) .

﴿ وما لهم أن لا يعذبهم الله ﴾ بيان لاستحقاقهم العذاب بعد بيان أن المانع ليس من قبلهم أى وما لهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يعذبون ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ أى وحالهم ذلك ومن صدهم عنه إلجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة وإحصارهم عام الحديبية ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ حال من ضمير يصدون مفيدة لكمال قبح ماصنعوا من الصد فإن مباشرتهم للصد عنه مع عدم استحقاقهم لولاية أمره فى غاية القبح وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرام[1] فنصد من نشاء وندخل من نشاء ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره تعالى ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أنه لا ولاية لهم عليه وفيه إشعار بأن منهم من يعلم ذلك ولكنه يعاند وقيل أريد بأكثرهم كلهم كما يراد بالقلة العدم ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت ﴾ أى دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعون موضعها ﴿ إلا مكاء ﴾ أى صفيراً فعال من مكا يمكو إذا صفر وقرىء بالقصر كالبكى ﴿ وتصدية ﴾ أى تصفيقا تفعلة من الصدى أو من الصد على إبدال أحد حرفى التضعيف بالياء وقرىء صلاتهم بالنصب على أنه الخبر لكان ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فإنها لا تليق بمن هذه صلاته روى أنهم كانوا يطوفون عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفقون

---

(١) فى ٤٣٠ : البيت الحرام .

فيها ويصفقون وقيل كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يصلى يخلطون عليه ويرون أنهم يصلون أيضا ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ أى القتل والأسر يوم بدر وقيل عذاب الآخرة واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود ائتنا بعذاب أليم ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ اعتقادا وعملا .

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر أوفى أبى سفيان استأجر ليوم أحد ألفين سوى من استجاش من العرب وأنفق فيهم أربعين أوقية أو فى أصحاب العير فإنه لما أصيب قريش يوم بدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك ثأرنا منه ففعلوا والمراد بسبيل الله دينه واتباع رسوله ﴿ فسينفقونها ﴾ بتمامها ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم فى تلك الحال وهو إنفاق يوم بدر والثانى إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو إنفاق يوم أحد ويحتمل أن يراد بهما واحد على مساق الأول لبيان الغرض من الإنفاق ومساق الثانى لبيان عاقبته وأنه لم يقع بعد ﴿ ثم تكون عليهم حسرة ﴾ ندما وغما لفواتها من غير حصول المقصود جعل ذاتها حسرة وهى عاقبة إنفاقها مبالغة ﴿ ثم يغلبون ﴾ آخر الأمر وإن كان الحرب بينهم سجالا قبل ذلك .

﴿ والذين كفروا ﴾ أى ثبتوا على الكفر وأصروا عليه ﴿ إلى جهنم يحشرون ﴾ أى يساقون لا إلى غيرها ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ أى الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح واللام متعلقه بيحشرون أو بيغلبون أو ما أنفقه المشركون فى عداوته صلى الله عليه وسلم مما أنفقه المسلمون فى نصرته واللام متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة وقرىء ليميز بالتشديد ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا ﴾ أى يضم بعضه إلى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم فيجمعه أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كما للكافرين ﴿ فيجعله فى جهنم ﴾ كله .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الخبيث إذ هو عبارة عن الفريق أو إلى المنفقين وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتهم في الخبث ﴿ هم الخاسرون ﴾ الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ﴿ قل للذين كفروا ﴾ هم أبو سفيان وأصحابه أي قل لأجلهم ﴿ إن ينتهوا ﴾ عما هم فيه من معاداة النبي صلى الله عليه وسلم بالدخول في الإسلام ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ من الذنوب وقرىء إن تنتهوا يغفر لكم ويغفر لكم على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿ وإن يعودوا ﴾ إلى قتالهم ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء عليهم السلام بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك ﴿ وقاتلوهم ﴾ عطف على قل وقد عمم الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمنه قوله تعالى فقد مضت سنة الأولين من الوعيد ﴿ حتى لا تكون فتنة ﴾ أي لا يوجد منهم شرك ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ وتضمحل الأديان الباطلة إما بإهلاك أهلها جميعا أو برجوعهم عنها خشية القتل ﴿ فإن انتهوا ﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿ فإن الله بما يعملون بصير ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم وقرىء بتاء الخطاب أي بما تعملون من الجهاد المخرج لهم إلى الإسلام وتعليقه بانتهائهم للدلالة على أنهم يثابون بالسببية كما يثاب المباشرون بالمباشرة ﴿ وإن تولوا ﴾ ولم ينتهوا عن ذلك ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ ناصركم فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿ نعم المولى ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿ ونعم النصير ﴾ لا يغلب من نصره .

من أحكام الغنائم

﴿ واعلموا أنما غنمتم ﴾ عن الكلبي أنها نزلت ببدر وقال الواقدي كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة وما موصولة وعائدها محذوف أي الذي أصبتموه من الكفار عنوة وأصل الغنيمة إصابة الغنم من العدو ثم اتسع وأطلق على كل ما أصيب منهم كائنا ما كان وقوله تعالى ﴿ من شيء ﴾ بيان للموصول محله

النصب على أنه حال من عائد الموصول قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة وأن لا يشذ عنها شيء أي ماغنمتموه كائنا مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط خلا أن سلب المقتول للقاتل إذا نفله الإمام وأن الأسارى يخير فيها الإمام وكذا الأراضي المغنومة وقوله تعالى ﴿ فإن لله خمسه ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي فحق أو واجب أن له تعالى خمسه وهذه الجملة خبر لأنما الخ وقرىء بالكسر والأولى آكد وأقوى في الإيجاب لما فيه من تكرر الإسناد كأنه قيل فلا بد من ثبات الخمس ولا سبيل إلى الإخلال به وقرىء فلله خمسه وقرىء خمسه بسكون الميم والجمهور على أن ذكر الله تعالى للتعظيم كما في قوله تعالى (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه بقوله تعالى ﴿ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ وإعادة اللام في ذي القربى دون غيرهم من الأصناف الثلاثة لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي صلى الله عليه وسلم لمزيد اتصالهم به عليه الصلاة والسلام وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل لما روى عن عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما أنهما قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم أرأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة فقال صلى الله عليه وسلم إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام إنما بنوهاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبك بين أصابعه وكيفية قسمتها عندنا أنها كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم سهم له عليه الصلاة والسلام وسهم للمذكورين من ذوي قرباه وثلاثة أسهم للأصناف الثلاثة الباقية وأما بعده صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط وكذا سهم ذوي القربى وإنما يعطون لفقرهم فهم أسوة لسائر الفقراء ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على الأصناف الثلاثة ويؤيده ماروى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه منع بني هاشم الخمس وقال إنما لكم أن يعطى فقيركم وتزوج أيمكم ويخدم من لاخادم له منكم ومن عداهم فهو بمنزلة ابن السبيل الغني لا يعطى من الصدقة شيئاً وعن زيد بن علي مثله قال ليس لنا أن نبني منه قصورا ولا نركب منه البراذين وقيل

سهم الرسول صلى الله عليه وسلم لولى الأمر بعده وأما عند الشافعى رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف إلى ما كان يصرفه عليه الصلاة والسلام من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من الكراع والسلاح ونحو ذلك وسهم لذوى القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين والباقى للفرق الثلاث وعند مالك رحمه الله الأمر فيه مفوض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء وإن رأى أعطاه بعضا منهم دون بعض وإن رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم وتعلق أبو العالية بظاهر الآية الكريمة فقال يقسم ستة أسهم ويصرف سهم الله تعالى إلى رتاج الكعبة لما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ منه قبضة فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسم ما بقى على خمسة أسهم وقيل سهم الله لبيت المال وقيل هو مضموم إلى سهم الرسول عليه الصلاة والسلام هذا شأن الخمس وأما الأخماس الأربعة فتقسم بين الغانمين للراجل سهم وللفارس سهمان عند أبى حنيفة رضى الله عنه وثلاثة أسهم عندهما رحمهما الله . قال القرطبى لما بين الله تعالى حكم الخمس وسكت عن الباقى دل ذلك على أنه ملك للغانمين وقوله تعالى ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ متعلق بمحذوف ينبىء عنه المذكور أى إن كنتم آمنتم به تعالى فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به إلى الله فاقطعوا أطماعكم منه واقتنعوا بالأخماس الأربعة وليس المراد به مجرد العلم بذلك بل العلم المشفوع بالعمل والطاعة لأمره تعالى .

﴿وما أنزلنا﴾ عطف على الاسم الجليل أى إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه ﴿ على عبدنا ﴾ وقرىء عبدنا وهو اسم جمع أريد به الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنون فإن بعض ما نزل نازل عليهم بالذات كما ستعرفه ﴿ يوم الفرقان ﴾ يوم بدر سمى به لفرقه بين الحق والباطل وهو منصوب بأنزلنا أو بآمنتم ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ أى الفريقان من المؤمنين والكافرين وهو بدل من يوم الفرقان أو منصوب بالفرقان والمراد ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام يومئذ من الوحى والملائكة والفتح على أن المراد بالإنزال مجرد الإيصال

والتيسير فينتظم الكل انتظاما حقيقيا وجعل الإيمان بإنزال هذه الأشياء من موجبات العلم بكون الخمس لله تعالى على الوجه المذكور من حيث أن الوحى ناطق بذلك وأن الملائكة والفتح لما كانا من جهته تعالى وجب أن يكون ما حصل بسببهما من الغنيمة مصروفة إلى الجهات التى عينها الله تعالى ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ يقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم .

فضل الله على المؤمنين

﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ﴾ بدل ثان من يوم الفرقان والعدوة بالضم شط الوادى وكذا بالفتح والكسر وقد قرىء بهما أيضاً ﴿ وهم بالعدوة القصوى ﴾ أى البعد من المدينة وهى تأنيث الأقصى وكان القياس قلب الواو ياء كالدنيا والعليا مع كونهما من بنات الواو لكنها جاءت على الأصل كالقود واستصوب وهو أكثر استعمالا من القصيا ﴿ والركب ﴾ أى العير أو قوادها ﴿ أسفل منكم ﴾ أى فى مكان أسفل من مكانكم يعنى الساحل وهو نصب على الظرفية واقع موقع الخبر والجملة حال من الظرف قبله وفائدتها للدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة وكذا ذكر مراكز الفريقين فإن العدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يمشى فيها إلا بتعب ولم يكن فيها ماء بخلاف العدوة القصوى وكذا قوله تعالى ﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ﴾ أى لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم فى الميعاد هيبة منهم ويأسا من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعا من الله عز وجل خارقا للعادات فيزدادوا إيمانا وشكرا وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس ﴿ ولكن ﴾ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا ﴾ حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وقهر أعدائه أو مقدرا فى الأزل

وقوله تعالى ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ﴾ بدل منه أو متعلق بمفعولا أى ليموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن بينة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة أو ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والإيمان والمراد بمن هلك ومن حي المشارف للهلاك والحياة أو من حاله فى علم الله تعالى الهلاك والحياة وقرىء ليهلك بالفتح وحيي بفك الإدغام حملا على المستقبل ﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾ اى بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد ﴿ إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ﴾ منصوب باذكر أو بدل آخر من يوم الفرقان أو متعلق بعليم أى يعلم المصالح إذ يقللهم فى عينك فى رؤياك وهو أن تخبر به أصحابكم فيكون تثبيتا لهم وتشجيعا على عدوهم ﴿ ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ﴾ أى لجبنتم وهبتم الإقدام ﴿ ولتنازعتم فى الأمر ﴾ أى أمر القتال وتفرقت آراؤكم فى الثبات والفرار ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أى أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع ولذلك دبر ما دبر ﴿ وإذ يريكموهم فى أعينكم قليلا ﴾ منصوب بمضمر خوطب به الكل بطريق التلوين والتعميم معطوف على المضمر السابق والضميران مفعولا يرى وقليلا حال من الثانى وإنما قللهم فى أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضى الله عنه لمن إلى جنبه أتراهم سبعين فقال أراهم مائة تثبيتاً لهم وتصديقا لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ ويقللكم فى أعينهم ﴾ حتى قال أبو جهل إنما أصحاب محمد أكلة جزور قللهم فى أعينهم قبل التحام القتال ليجترئوا عليهم ولا يستعدوا لهم ثم كثرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وهذه من عظائم آيات تلك الوقعة فإن البصر قد يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الوجه ولا إلى هذا الحد وإنما ذلك بصد الله تعالى الأبصار عن إبصار بعض دون بعض مع التساوى فى الشرائط ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا ﴾ كرر لاختلاف

الفعل المعلل به أو لأن المراد بالأمر ثمة الالتقاء على الوجه المذكور وههنا إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الكفر وحزبه ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ كلها يصرفها كيفما يريد لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد .

من قوانين الحرب

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ صدر الخطاب بحرفى النداء والتنبيه إظهاراً لكمال الاعتناء بمضمون ما بعده ﴿ إذا لقيتم فئة ﴾ أى حاربتم جماعة من الكفرة وإنما لم يوصفوا بالكفر لظهور أن المؤمنين لا يحاربون إلا الكفرة واللقاء مما غلب فى القتال ﴿ فاثبتوا ﴾ أى للقائهم فى مواطن الحرب ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ أى فى تضاعيف القتال مستمدين منه مستعينين به مستظهرين بذكره مترقبين لنصره ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أى تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه تنبيه على أن العبد ينبغى أن لا يشغله شىء عن ذكر الله تعالى وأن يلتجىء إليه عند الشدائد ويقبل إليه بكليته فارغ البال واثقا بأن لطفه لا ينفك عنه فى حال من الأحوال ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ فى كل ماتأتون وما تذرون فيندرج فيه ماأمروا به ههنا اندراجا أولياً ﴿ ولاتنازعوا ﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر أو أحد ﴿ فتفشلوا ﴾ جواب للنهى وقيل عطف عليه ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ بالنصب عطف على جواب النهى وقرىء بالجزم على تقدير عطف فتفشلوا على النهى أى تذهب دولتكم وشوكتكم فإنها مستعارة للدولة من حيث أنها تمشى أمرها ونفاذه مشبهة بها فى هبوبها وجريانها وقيل المراد بها الحقيقة فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى وفى الحديث نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ﴿ واصبروا ﴾ على شدائد الحرب ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ بالنصرة والكلاءة ومايفهم من كلمة مع من أصالتهم إنما هى من حيث أنهم المباشرون للصبر فهم متبعون من تلك الحيثية ومعيته تعالى إنما هى من حيث الإمداد والإعانة .

﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم ﴾ بعد ما أمروا بما أمروا به

من أحاسن الأعمال ونهوا عما يقابلها من قبائحها والمراد بهم أهل مكة حين خرجوا لحمايه العير ﴿ بطرا ﴾ أى فخرا وأشرا ﴿ ورئاء الناس ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك أنهم لما بلغوا جحفة أتاهم رسول أبى سفيان وقال ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبوا إلا إظهار آثار الجلادة فلقوا ما لقوا حسبما ذكر فى أوائل السورة الكريمة فنهى المؤمنون أن يكونوا أمثالهم مرائين بطرين وأمروا بالتقوى والإخلاص من حيث أن النهى عن الشيء مستلزم للأمر بضده ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ عطف على بطرا إن جعل مصدرا فى موضع الحال وكذا إن جعل مفعولا له لكن على تأويل المصدر ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ فيجازيهم عليه ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أى واذكر وقت تزيين الشيطان أعمالهم فى معاداة المؤمنين وغيرها بأن وسوس إليهم ﴿ وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ﴾ أى ألقى فى روعهم وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم حتى قالوا اللهم انصر إحدى الفئتين وأفضل الدينين ولكم خبر لا غالب أو صفته وليس صلته وإلا لانتصب كقولك لا ضاربا زيدا عندنا .

﴿ فلما تراءت الفئتان ﴾ أى تلاقى الفريقان ﴿ نكص على عقبيه ﴾ رجع القهقرى أى بطل كيده وعاد ما خيل إليهم أنه مجيرهم سببا لهلاكهم ﴿ وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله ﴾ أى تبرأ منهم وخاف عليهم ويئس من حالهم لما رأى إمداد الله تعالى للمسلمين بالملائكة وقيل لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحنة فكاد ذلك يثنيهم فتمثل لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك الكنانى وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى مجيركم من كنانة فلما رأى الملائكة تنزل نكص وكان يده فى يد الحرث بن هشام فقال له إلى أين أتخذلنا فى هذه الحالة فقال إنى أرى مالا ترون ودفع فى صدر الحرث وانطلق فانهزموا فلما بلغوا مكة

قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله إنى أخاف الله أخافه أن يصيبنى بمكروه من الملائكة أو يهلكنى ويكون الوقت هو الوقت الموعود إذ رأى فيه ما لم يره قبله والأول ما قاله الحسن واختاره ابن بحر ﴿ والله شديد العقاب ﴾ يجوز أن يكون من كلامه أو مستأنفاً من جهة الله عز وجل .

أحوال المنافقين

﴿ إذ يقول المنافقون ﴾ منصوب بزين أو بنكص أو بشديد العقاب ﴿ والذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان بعد وبقى فيها نوع شبهة وقيل هم المشركون وقيل هم المنافقون فى المدينة والعطف لتغاير الوصفين كما فى قوله :

يالهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب

﴿ غر هؤلاء ﴾ يعنون المؤمنين ﴿ دينهم ﴾ حتى تعرضوا لما لا طاقة لهم به فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف ﴿ ومن يتوكل على الله ﴾ جواب لهم من جهته تعالى ورد لمقالتهم ﴿ فإن الله عزيز ﴾ غالب لا يذل من توكل عليه واستجار به وإن قل ﴿ حكيم ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما تستبعده العقول وتحار فى فهمه ألباب الفحول وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه ﴿ ولو ترى ﴾ أى ولو رأيت فإن لو الامتناعية ترد المضارع ماضيا كما أن إن ترد الماضى مضارعا والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار) وكلمة إذ فى قوله تعالى ﴿ إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ ظرف لترى والمفعول محذوف أى ولو ترى الكفرة أو حال الكفرة حين يتوفاهم الملائكة ببدر وتقديم المفعول للاهتمام به وقيل الفاعل ضمير عائد إلى الله عز وجل والملائكة مبتدأ وقوله تعالى ﴿ يضربون وجوههم ﴾ خبره والجملة

حال من الموصول قد استغنى فيها بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منه أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على ضميريهما ﴿ وأدبارهم ﴾ أى واستاههم أو ما أقبل منهم وما أدبر من الأعضاء ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ على إرادة القول معطوفا على يضربون أو حالا من فاعله أى ويقولون أو قائلين ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهبت النار منها وجواب لو محذوف للإيذان بخروجه عن حدود البيان أى لرأيت أمرا فظيعا لا يكاد يوصف .

﴿ وذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الضرب والعذاب وما فيه من معنى البعد للإشعار بكونهما فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ أى ذلك الضرب والعذاب واقع بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصى ومحل أن قوله ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعا على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا قد مر تحقيقه فى سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أنها معطوفة على ما للدلالة على أن سببيته مقيدة بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم فليس (ذلك)[1] بسديد لما أن إمكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافى كون تعذيب هؤلاء الكفرة المعينة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج إلى اعتبار عدمه معه نعم لو كان المدعى كون جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين لاحتيج إلى ذلك .

﴿ كدأب آل فرعون ﴾ فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ما حل بهم من العذاب بسبب كفرهم لا بشىء آخر

---

(١) سقطت من ط .

من جهة غيرهم بتشبيه حالهم بحال المعرفين بالإهلاك بسبب جرائمهم لزيادة تقبيح حالهم وللتنبيه على أن ذلك سنة مطردة فيما بين الأمم المهلكة أى شأنهم الذى استمروا عليه مما فعلوا وفعل بهم من الأخذ كدأب آل فرعون المشهورين بقباحة الأعمال وفظاعة العذاب والنكال ﴿ والذين من قبلهم ﴾ أى من قبل آل فرعون من الأمم التى فعلوا من المعاصى ما فعلوا ولقوا من العقاب ما لقوا كقوم نوح وعاد وأضرابهم من أهل الكفر والعناد وقوله تعالى ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ تفسير لدأبهم الذى فعلوه لا لدأب آل فرعون ونحوهم كما قيل فإن ذلك معلوم منه بقضية التشبيه وقوله تعالى ﴿ فأخذهم الله ﴾ تفسير لدأبهم الذى فعل بهم والفاء لبيان كونه من لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرعة عليها وقوله تعالى ﴿ بذنوبهم ﴾ لتأكيد ما أفاده الفاء من السببية مع الإشارة إلى أن لهم مع كفرهم ذنوبا أخر لها دخل فى استتباع العقاب ويجوز أن يكون المراد بذنوبهم معاصيهم المتفرعة على كفرهم فتكون الباء للملابسة أى فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها فدأبهم مجموع ما فعلوا وفعل بهم لا ما فعلوه فقط كما قيل قال ابن عباس رضى الله عنهما أن آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبى الله فكذبوه كذلك هؤلاء جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق فكذبوه فأنزل الله تعالى بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون وجعل العذاب من جملة دأبهم مع أنه ليس مما يتصور مداومتهم عليه واعتيادهم إياه كما هو المعتبر فى مدلول الدأب إما لتغليب ما فعلوه على ما فعل بهم أو لتنزيل مداومتهم على ما يوجبه من الكفر والمعاصى منزلة مداومتهم عليه لما بينهما من الملابسة التامة وقوله تعالى ﴿ إن الله قوى شديد العقاب ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ الخ استئناف مسوق لتعليل ما يفيده النظم الكريم من كون ما حل بهم من العذاب منوطا بأعمالهم السيئة غير واقع بلا سابقة ما يقتضيه وهو المشار إليه لا نفس ما حل بهم من العذاب والانتقام كما قيل فإنه مع كونه معللا بما ذكر من كفرهم وذنوبهم لا يتصور تعليله بجريان عادته تعالى على عدم تغيير

نعمته على قوم قبل تغييرهم لحالهم وتوهم أن السبب ليس ما ذكر كما هو منطوق النظم الكريم بل ما يستفاد من مفهوم الغاية من جريان عادته تعالى على تغيير نعمتهم عند تغيير حالهم بناء على تخيل أن المعلل ترتب عقابهم على كفرهم من غير تخلف عنه ركوب شطط هائل وإبعاد عن الحق بمراحل وتهوين لأمر الكفر بآيات الله وإسقاط له عن رتبة إيجاب العقاب فى مقام تهويله والتحذير منه فالمعنى ذلك أى ترتب العقاب على أعمالهم السيئة دون أن يقع ابتداء مع قدرته تعالى على ذلك ﴿بأن الله﴾ أى بسبب أنه تعالى ﴿لم يك﴾ فى حد ذاته ﴿مغيرا نعمة أنعمها﴾ أى لم ينبغ له سبحانه ولم يصح فى حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أنعم بها ﴿على قوم﴾ من الأقوام أى نعمة كانت جلت أو هانت ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الأعمال والأحوال التى كانوا عليها وقت ملابستهم بالنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة أو قريبة من الصلاح بالنسبة إلى الحادثة كدأب هؤلاء الكفرة حيث كانوا قبل البعثة كفرة عبدة أصنام مستمرين على حالة مصححة لإفاضة نعمة الإمهال وسائر النعم الدنيوية عليهم فلما بعث اليهم النبى صلى الله عليه وسلم بالبينات غيروها إلى أسوأ منها وأسخط حيث كذبوه عليه الصلاة والسلام وعادوه ومن تبعه من المؤمنين وتحزبوا عليهم يبغونهم الغوائل فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال وعاجلهم بالعذاب والنكال وأصل يك يكن فحذفت النون تخفيفا لشبهها بالحروف اللينة ﴿وأن الله سميع عليم﴾ عطف على أن الله الخ داخل معه فى حيز التعليل أى وبسبب أنه تعالى سميع عليم يسمع ويعلم جميع ما يأتون وما يذرون من الأقوال والأفعال السابقة واللاحقة فيرتب على كل منها ما يليق بها من إبقاء النعمة وتغييرها وقرىء وإن الله بكسر الهمزة فالجملة حينئذ استئناف مقرر لمضمون ما قبلها وقوله تعالى :

﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييرا كائنا كدأب آل فرعون أى كتغييرهم

على أن دأبهم عبارة عما فعلوه فقط كما هو الأنسب بمفهوم الدأب وقوله تعالى ﴿كذبوا بآيات ربهم﴾ تفسير بتمامه وقوله تعالى ﴿فأهلكناهم﴾ إخبار بترتب العقوبة عليه لا أنه من تمام تفسيره ولاضير فى توسط قوله تعالى(وأن الله سميع عليم) بينهما كما مر نظيره فى سورة آل عمران حيث جوزوا انتصاب محل الكاف بلن تغنى مع ما بينهما من قوله تعالى (وأولئك هم وقود النار) وهذا على تقدير عطف الجملة على ما قبلها وأما على تقدير كونها اعتراضا فلا غبار فى توسطها قطعا وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قبله فالجملة حينئذ استئناف آخر مسوق لتقرير ما سبق له الاستئناف الأول بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين لكن لا بطريق التكرير المحض بل بتغيير العنوان وجعل الدأب فى الجانبين عبارة عما يلازم معناه الأول من تغيير الحال وتغيير النعمة أخذا مما نطق به قوله تعالى (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة) الآية أى داب هؤلاء وشأنهم الذى هو عبارة عن التغييرين المذكورين كدأب أولئك حيث غيروا حالهم فغير الله تعالى نعمته عليهم فقوله تعالى(كذبوا بآيات ربهم) تفسير لدأبهم الذى فعلوه من تغيير حالهم وقوله تعالى(فأهلكناهم) تفسير لدأبهم الذى فعل بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته وأما دأب قريش فمستفاد منه بحكم التشبيه فلله در شأن التنزيل حيث اكتفى فى كل من التشبيهين بتفسير أحد الطرفين وإضافة الآيات إلى الرب المضاف إلى ضميرهم لزيادة تقبيح ما فعلوا بها من التكذيب والالتفات إلى نون العظمة فى أهلكنا جريا على سنن الكبرياء لتهويل الخطب والكلام فى الفاء وفى قوله تعالى﴿بذنوبهم﴾ كالذى مر وعطف قوله تعالى ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ على أهلكنا مع اندراجه تحته للإيذان بكمال هول الإغراق وفظاعته كعطف جبريل عليه السلام على الملائكة ﴿وكل﴾ أى وكل من الفرق المذكورين أو كل من هؤلاء وأولئك أو كل من غرقى القبط وقتلى قريش ﴿كانوا ظالمين﴾ أى أنفسهم بالكفر والمعاصى حيث عرضوها للهلاك أو واضعين للكفر والتكذيب مكان الإيمان والتصديق ولذلك أصابهم ما أصابهم .

﴿إن شر الدواب﴾ بعد ما شرح أحوال المهلكين من شرار الكفرة شرع فى بيان أحوال الباقين منهم وتفصيل أحكامهم .

وقوله تعالى ﴿ عند الله ﴾ أى فى حكمه وقضائه ﴿ الذين كفروا ﴾ أى أصروا على الكفر ولجوا فيه جعلوا شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى أنهم بمعزل من مجانستهم وإنما هم من جنس الدواب ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل) وقوله تعالى ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ حكم مترتب على تماديهم فى الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أصل الطبع لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف أصلا جىء به على وجه الاعتراض لا أنه عطف على كفروا داخل معه فى حيز الصلة التى لا حكم فيها بالفعل وقوله تعالى ﴿ الذين عاهدت منهم ﴾ بدل من الموصول الأول أو عطف بيان له أو نصب على الذم أى عاهدتهم ومن للإيذان بأن المعاهدة التى هى عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين معتبرة ههنا من حيث أخذه عليه الصلاة والسلام عهدهم إذ هو المناط لقباحة ما نعى عليهم من النقض لا إعطاؤه عليه الصلاة والسلام إياهم عهده كأنه قيل الذين أخذت منهم عهدهم وقيل هى للتبعيض لأن المباشر بالذات للعهد بعضهم لا كلهم ﴿ ثم ينقضون عهدهم ﴾ عطف على عاهدت داخل معه فى حكم الصلة وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته فى كل حال أى ينقضون عهدهم الذى أخذته منهم ﴿ فى كل مرة ﴾ أى من مرات المعاهدة إذ هى التى يتوقع فيها عدم النقض ويستقبح وجوده لا من مرات المحاربة كما قيل إذ لا يتوقع فيها عدم النقض بل لا يتصور أصلا حتى يستقبح فيها وجوده لكونها مظنة لعدمه فلا فائدة فى تقييد النقض بالوقوع فى كل مرة من مراتها بل لا صحة له قطعاً لأن النقض لا يتحقق إلا فى المرة الواردة على المعاهدة لا فى المرات الواقعة بعدها بلا معاهدة ولئن سلم أن المراد هى المرات الواقعة إثر المعاهدة يبقى النقض الواقع بلا محاربة كبيع السلاح ونحوه خارجا من البيان ولئن عد ذلك من المحاربة فلا محيص من لزوم خلو الكلام عن الفائدة بالمرة لأن المحاربة بهذا المعنى عين النقض فيؤول الأمر إلى أن يقال ينقضون عهدهم فى كل مرة من مرات النقض وحمل المحاربة على محاربة غيرهم ليكون

المعنى ينقضون عهدهم فى كل مرة من مرات محاربة الأعداء مع كونه فى غاية البعد والركاكة يستلزم خروج بدئهم بالنقض من البيان ﴿ وهم لا يتقون ﴾ حال من فاعل ينقضون أى يستمرون على النقض والحال أنهم لا يتقون سبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار وقوله تعالى ﴿ فإما تثقفنهم ﴾ شروع فى بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى فإذا كان حالهم كما ذكر فإما تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿ فى الحرب ﴾ أى فى تضاعيفهم ﴿ فشرد بهم ﴾ أى ففرق عن مناصبتك تفريقا عنيفا موجبا للاضطرار والاضطراب ونكل عنها بأن تفعل بهم من النكاية والتعذيب ما يوجب أن تنكل ﴿ من خلفهم ﴾ أى من وراءهم من الكفرة وفيه إيماء إلى أنهم بصدد الحرب قريب من هؤلاء وقرىء شرذ بالذال المعجمة ولعله مقلوب شذر بمعنى فرق وقرىء من خلفهم أى افعل التشريد من ورائهم والمعنى واحد لأن إيقاع التشريد فى الوراء لا يتحقق إلا بتشريد من وراءهم ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالناقضين فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر وقوله تعالى ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة ﴾ بيان لأحكام المشرفين إلى نقض العهد إثر بيان أحكام الناقضين له بالفعل والخوف مستعار للعلم أى وإما تعلمن من قوم من المعاهدين نقض عهد فيما سيأتى بما لاح لك منهم من دلائل الغدر ومخايل الشر ﴿ فانبذ إليهم ﴾ أى فاطرح إليهم عهدهم ﴿ على سواء ﴾ على طريق مستو قصد بأن تظهر لهم النقض وتخبرهم إخباراً مكشوفا بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد كيلا يكون من قبلك شائبة خيانة أصلا فالجار متعلق بمحذوف هو حال من النابذ أى فانبذ إليهم ثابتا على سواء وقيل على استواء فى العلم بنقض العهد بحيث يستوى فيه أقصاهم وأدناهم أو تستوى فيه أنت وهم فهو على الأول حال من المنبوذ إليهم وعلى الثانى من الجانبين ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ تعليل للأمر بالنبذ إما باعتبار استلزامه للنهى عن المناجزة التى هى خيانة فيكون تحذيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها وإما باعتبار استتباعه للقتال بالآخرة

فيكون حثاً له عليه الصلاة والسلام على النبذ أولا وعلى قتالهم ثانياً كأنه قيل وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم ثم قاتلهم إن الله لا يحب الخائنين وهم من جملتهم لما علمت من حالهم .

﴿ ولا يحسبن الذين كفروا ﴾ أى أنفسهم فحذف للتكرار وقوله تعالى ﴿ سبقوا ﴾ أى فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم مفعول ثان ليحسبن والمراد إقناطهم من الخلاص وقطع أطماعهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ والاقتصار على دفع هذا التوهم مع أن مقاومة المؤمنين بل الغلبة عليهم أيضاً مما تتعلق به أمانيهم الباطلة للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حوله وهمهم وحسبانهم وإنما الذى يمكن أن يدور فى خلدهم حسبان المناص فقط وقيل الفعل مسند إلى أحد أو إلى من خلفهم والمفعول الأول الموصول المتناول لهم أيضاً وقيل هو الفاعل وأن محذوفة من سبقوا وهى مع ما فى حيزها سادة مسد المفعولين والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ويعضده قراءة من قرأ أنهم سبقوا ونظيره فى الحذف قوله تعالى (ومن آياته يريكم البرق خوفا) وقوله تعالى (أفغير الله تأمرونى أعبد) الآية قاله الزجاج وقرىء بالتاء على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى قراءة واضحة وقرىء ولا تحسبن الذين بكسر الباء وبفتحها على حذف النون الخفيفة وقوله تعالى ﴿ أنهم لا يعجزون ﴾ أى لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم تعليل للنهى على طريقة الاستئناف وقرىء بفتح الهمزة على حذف لام التعليل وقيل الفعل واقع عليه ولا زائدة وسبقوا حال بمعنى سابقين أى مفلتين هاربين وهذا على قراءة الخطاب لإزاحة ما عسى يحذر من عاقبة النبذ لما أنه إيقاظ للعدو وتمكين لهم من الهرب والخلاص من أيدى المؤمنين وفيه نفى لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجه وآكده كما أشير إليه وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين وقرىء لا يعجزون بكسر النون ولا يعجزون بالتشديد .

الاستعداد للحرب

﴿ وأعدوا لهم ﴾ توجيه الخطاب إلى كافة المؤمنين لما أن المأمور به من

من وظائف الكل كما أن توجيهه فيما سبق وما لحق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكون ما فى حيزه من وظائفه عليه الصلاة والسلام أى أعدوا لقتال الذين نبذ إليهم العهد وهيئوا لحرابهم أو لقتال الكفار على الإطلاق وهو الأنسب بسياق النظم الكريم ﴿ ما استطعتم من قوة ﴾ من كل ما يتقوى به فى الحرب كائنا ما كان وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر ألا إن القوة الرمى قالها ثلاثا ولعل تخصيصه عليه الصلاة والسلام إياه بالذكر لإنافته على نظائره من القوى ﴿ ومن رباط الخيل ﴾ الرباط اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله تعالى فعال بمعنى مفعول أو مصدر سميت هى به يقال ربط ربطا ورباطا ورابط مرابطة ورباطا أو جمع ربيط كفصيل وفصال أو جمع ربط ككعب وكعاب وكلب وكلاب وقرىء ربط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط وعطفها على القوة مع كونها من جملتها للإيذان بفضلها على بقية أفرادها كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة ﴿ ترهبون به ﴾ أى تخوفون وقرىء ترهبون بالتشديد وقرىء تخزون به والضمير لما استطعتم أو للإعداد وهو الأنسب ومحل الجملة النصب على الحالية من فاعل أعدوا مرهبين به أو من الموصول أو من عائدة المحذوف أى أعدوا ما استطعتموه مرهبا به ﴿ عدو الله وعدوكم ﴾ وهم كفار مكة خصوا بذلك من بين الكفار مع كون الكل كذلك لغاية عتوهم ومجاوزتهم الحد فى العداوة ﴿ وآخرين من دونهم ﴾ من غيرهم من الكفرة وقيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفرس ﴿ لا تعلمونهم ﴾ أى لا تعرفونهم بأعيانهم أو لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿ الله يعلمهم ﴾ أى لا غيره تعالى أيضاً ﴿ وما تنفقوا من شىء ﴾ لإعداد العتاد[1] قل أو جل ﴿ فى سبيل الله ﴾ الذى أوضحه الجهاد ﴿ يوف إليكم ﴾ أى جزاؤه كاملا ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ بترك الإثابة أو بنقص الثواب والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة

---

(١) فى ١٠ : الإعداد بالعدة .

للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه تعالى كما مر فى تفسير قوله تعالى فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴿وإن جنحوا﴾ الجنوح الميل ومنه الجناح ويعدى باللام وبإلى أى إن مالوا ﴿للسلم﴾ أى للصلح بوقوع الرهبة فى قلوبهم بمشاهدة ما بكم من الاستعداد واعتاد العتاد ﴿فاجنح لها﴾ أى للسلم والتأنيث لحمله على نقيضه قال :

السلم تأخذ منها مارضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وقرىء فاجنح بضم النون ﴿وتوكل على الله﴾ ولاتخف أن يظهروا لك السلم وجوانحهم مطوية على المكر والكيد ﴿إنه﴾ تعالى ﴿هو السميع﴾ فيسمع مايقولون فى خلواتهم من مقالات الخداع ﴿العليم﴾ فيعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه ويرد كيدهم فى نحرهم والآية خاصة باليهود وقيل عامة نسختها آية السيف ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ بإظهار السلم وإبطال الحراب ﴿فإن حسبك الله﴾ أى فاعلم بأن محسبك الله من شرورهم وناصرك عليهم ﴿هو الذى أيدك بنصره﴾ تعليل لكفايته تعالى إياه عليه الصلاة والسلام بطريق الاستئناف فإن تأييده تعالى إياه عليه الصلاة والسلام فيما سلف على ماذكر من الوجه البعيد من الوقوع من دلائل تأييده تعالى فيما سيأتى أى هو الذى أيدك بإمداد من عنده بلا واسطة كقوله تعالى (وما النصر إلا من عند الله) أو بالملائكة مع خرقه للعادات ﴿وبالمؤمنين﴾ من المهاجرين والأنصار ﴿وألف بين قلوبهم﴾ مع ما كان بينهم قبل ذلك من العصبية والضغينة والتهالك على الانتقام بحيث لايكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة وهذا من أبهر معجزاته عليه الصلاة والسلام ﴿لو أنفقت مافى الأرض جميعا﴾ أى لتأليف مابينهم ﴿ما ألفت بين قلوبهم﴾ استئناف مقرر لما قبله ومبين لعزة المطلب وصعوبة المأخذ أى تناهى التعادى فيما بينهم إلى حد لو أنفق منفق فى إصلاح ذات البين جميع مافى

الأرض من الأموال والذخائر لم يقدر على التأليف والإصلاح وذكر القلوب للإشعار بأن التأليف بينها لا يتسنى وإن أمكن التأليف ظاهرا ﴿ ولكن الله ألف بينهم ﴾ قلبا وقالبا بقدرته الباهرة ﴿ إنه عزيز ﴾ كامل القدرة والغلبة لا يستعصى عليه شيء مما يريده ﴿ حكيم ﴾ يعلم كيفية تسخير ما يريده وقيل الآية فى الأوس والخزرج كان بينهم إحن لا أمد لها ووقائع أفنت ساداتهم وأعاظمهم ودقت أعناقهم وجماجمهم فأنسى الله عز وجل جميع ذلك وألف بينهم بالإسلام حتى تصافوا وأصبحوا يرمون عن قوس واحدة وصاروا أنصارا .

﴿ يا أيها النبي ﴾ شروع فى بيان كفايته تعالى إياه عليه الصلاة والسلام فى مادة خاصة وتصدير الجملة بحرفى النداء والتنبيه للتنبيه على مزيد الاعتناء بمضمونها وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة للإشعار بعليتها للحكم ﴿ حسبك الله ﴾ أى كافيك فى جميع أمورك أو فيما بينك وبين الكفرة من الحراب ﴿ ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ فى محل النصب على أنه مفعول معه أى كفاك وكفى أتباعك الله ناصرا كما فى قول من قال :

* فحسبك والضحاك عضب مهند *

وقيل فى موضع الجر عطفا على الضمير كما هو رأى الكوفيين أى كافيك وكافيهم أو فى محل الرفع عطفا على اسم الله تعالى أى كفاك الله والمؤمنين والآية نزلت فى البيداء فى غزوة بدر قبل القتال وقيل أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر رضى الله عنه فنزلت ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى إسلام عمر رضى الله عنه ﴿ يا أيها النبي ﴾ بعدما بين كفايته إياهم بالنصر والإمداد أمر عليه الصلاة والسلام بترتيب مبادى نصره وإمداده وتكرير الخطاب على الوجه المذكور لإظهار كمال الاعتناء بشأن المأمور به ﴿ حرض المؤمنين على القتال ﴾ أى بالغ فى حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ما أمكن من الأمور المرغبة التى أعظمها تذكير وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم وأصل التحريض الحرض وهو أن ينهكه المرض حتى

يشفى على الموت وقال الراغب كأنه فى الأصل إزالة الحرض وهو مالا خير فيه ولا يعتد به قلت فالأوجه حينئذ أن يجعل الحرض عبارة عن ضعف القلب الذى هو من باب نهك المرض وقيل معنى تحريضهم تسميتهم حرضا بأن يقال إنى أراك فى هذا الأمر حرضا أى محرضا فيه لتهييجه إلى الإقدام وقرىء حرص بالصاد المهملة وهو واضح .

﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ وعد كريم منه تعالى بتغليب كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم بطريق الاستئناف بعد الأمر بتحريضهم وقوله تعالى ﴿ وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا ﴾ مع انفهام مضمونه مما قبله لكون كل منهما عدة بتأييد الواحد على العشرة لزيادة التقرير المفيدة لزيادة الاطمئنان على أنه قد يجرى بين الجمعين القليلين مالا يجرى بين الجمعين الكثيرين مع أن التفاوت فيما بين كل من الجمعين القليلين والكثيرين على نسبة واحدة فبين أن ذلك لا يتفاوت فى الصورتين وقوله تعالى ﴿ من الذين كفروا ﴾ بيان للألف وهذا القيد معتبر فى المائتين أيضا وقد ترك ذكره تعويلا على ذكره ههنا كما ترك قيد الصبر ههنا مع كونه معتبرا حتما ثقة بذكره هناك ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ متعلق بيغلبوا أى بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى وباليوم الآخر لا يقاتلون احتسابا وامتثالا بأمر الله تعالى وإعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان وإثارة ثائرة البغى والعدوان فلا يستحقون إلا القهر والخذلان وأما ماقيل من أن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر لا يؤمن بالميعاد فالسعادة عنده ليست إلا هذه الحياة الدنيوية[1] فيشح بها ولا يعرضها للزوال بمزاولة الحروب واقتحام موارد الخطوب فيميل إلى مافيه السلامة فيفر فيغلب وأما من اعتقد أن لا سعادة فى هذه الحياة الفانية وإنما السعادة هى الحياة الباقية فلا يبالى بهذه الحياة الدنيا ولا يقيم لها وزنا فيقدم على الجهاد بقلب قوى وعزم صحيح فيقوم الواحد من

(١) فى ١٠ : الحياة الدنيا .

مثله مقام الكثير فكلام حق لكنه لايلائم المقام ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ﴾ لما كان الوعد السابق متضمنا ألا يجاب مقاومة الواحد للعشرة وثباته لهم كما نقل عن ابن جريج أنه كان عليهم أن لايفروا ويثبت الواحد للعشرة وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة فى ثلاثين راكبا فلقى أبو جهل فى ثلثمائة راكب فهزمهم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه بعد مدة فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد للاثنين وقيل كان فيهم قلة فى الابتداء ثم لما كثروا نزل التخفيف والمراد بالضعف ضعف البدن وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين فى الاهتداء إلى القتال لا الضعف فى الدين كما قيل وقرىء ضعفا بضم الضاد وهى لغة فيه كالفقر والفقر والمكث والمكث وقيل الضعف بالفتح مافى الرأى والعقل وبالضم مافى البدن وقرىء ضعفاء جمع ضعيف والمراد بعلمه تعالى بضعفهم علمه تعالى به من حيث هو متحقق بالفعل لاعلمه تعالى به مطلقا كيف لا وهو ثابت فى الأزل وقوله تعالى :

﴿ فإن يكون منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾ تفسير للتخفيف وبيان لكيفيته وقرىء تكن ههنا وفيما سبق بالتاء الفوقانية ﴿ وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾ أى بتيسيره وتسهيله وهذا القيد معتبر فيما سبق من غلبة المائة المائتين والألف وغلبة العشرين المائتين كما أن قيد الصبر معتبر ههنا وإنما ترك ذكره ثقة بما مر وبقوله تعالى ﴿ والله مع الصابرين ﴾ فإنه اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله والمراد بالمعية معية نصره وتأييده ولم يتعرض ههنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين مع أن مدار الغلبة فى الصورتين مجموع الأمرين أعنى نصر المؤمنين وخذلان الكفرة اكتفاء بما ذكر فى كل مقام عما ترك فى المقام الآخر وما تشعر به كلمة مع من متبوعية مدخولها لأصالتهم من حيث إنهم المباشرون للصبر كما مر مرارا .

﴿ ماكان لنبى ﴾ وقرىء للنبى على العهد والأول أبلغ لما فيه من بيان أن ما يذكر سنة مطردة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة السلام أى ما صح وما استقام

لنبى من الأنبياء عليهم السلام ﴿ أن يكون له أسرى ﴾ وقرىء بتأنيث الفعل وأسارى أيضاً ﴿ حتى يثخن فى الأرض ﴾ أى يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الإسلام ويستولى أهله من أثخنه المرض والجرح إذا أثقله وجعله بحيث لاحراك به ولا براح وأصله الثخانة التى هى الغلظ والكثافة وقرىء بالتشديد للمبالغة ﴿ يريدون عرض الدنيا ﴾ استئناف مسوق للعتاب أى تريدون حطامها بأخذكم الفداء وقرىء يريدون بالياء ﴿ والله يريد الآخرة ﴾ أى يريد لكم ثواب الآخرة الذى لامقدار عنده للدنيا ومافيها أو يريد سبب نيل الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه وقرىء بجر الآخرة على إضمار المضاف كما فى قوله :

أكل امرىء تحسبين أمرأ ونار توقد بالليل نارا

﴿ والله عزيز ﴾ يغلب أولياءه على أعدائه ﴿ حكيم ﴾ يعلم مايليق بكل حال ويخصه بها كما أمر بالإثخان ونهى عن أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه وبين المن بقوله تعالى (فإما مناً بعد وإما فداء) لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسبعين أسيرا فيهم العباس وعقيل بن أبى طالب فاستشار فيهم فقال أبو بكر قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى اصحابك وقال عمر اضرب فلنضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر والله أغناك من الفداء مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكنى من فلان نسيب له فلنضرب أعناقهم فقال عليه الصلاة والسلام إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن والله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ومثلك ياعمر مثل نوح قال رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا فخير أصحابه فأخذوا الفداء فنزلت فدخل عمر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يارسول الله أخبرنى فإنى فإن وجدت بكاء بكيت

وإلا تباكيت فقال أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لو نزل عذاب من السماء لما نجا غير عمر وسعد بن معاذ وكان هو أيضا ممن أشار بالإثخان .

﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ أى لولا حكم منه تعالى سبق إثباته فى اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب المخطىء فى اجتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أوقوما لم يصرح لهم بالنهى وأما أن الفدية التى أخذوها ستحل لهم فلا يصلح أن يعد من موانع مساس العذاب فإن الحل اللاحق لا يرفع حكم الحرمة السابقة كما أن الحرمة اللاحقة كما فى الخمر مثلا لا ترفع حكم الإباحة السابقة على أنه قادح فى تهويل ما نعى عليهم من أخذ الفداء ﴿ لمسكم ﴾ أى لأصابكم ﴿ فيما أخذتم ﴾ أى لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿ عذاب عظيم ﴾ لا يقادر قدره ﴿ فكلوا مما غنمتم ﴾ روى أنهم أمسكوا عن الغنائم فنزلت قالوا الفاء لترتيب ما بعدها على سبب محذوف أى قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم والأظهر أنها للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى دعوه فكلوا مما غنمتم وقيل ما عبارة عن الفدية فإنها من جملة الغنائم ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه ﴿ حلالا ﴾ حال من المغنوم أو صفة للمصدر أى أكلا حلالا وفائدته الترغيب فى أكلها وقوله تعالى ﴿ طيبا ﴾ صفة لحلالا مفيدة لتأكيد الترغيب ﴿ واتقوا الله ﴾ أى فى مخالفة أمره ونهيه ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ فيغفر لكم ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل ورود الإذن فيه ويرحمكم ويتوب عليكم إذا اتقيتموه ﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم ﴾ أى فى ملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم ﴿ من الأسرى ﴾ وقرىء من الأسارى ﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا ﴾ خلوص إيمان وصحة نية ﴿ يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ من الفداء وقرىء أخذ على البناء للفاعل . روى أنها نزلت فى العباس كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفدى ابنى أخيه عقيل ابن أبى طالب ونوفل ابن الحرث فقال يا محمد تركتنى أتكفف قريشا مابقيت فقال له عليه الصلاة والسلام فأين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت

خروجك من مكة وقلت لها ما أدرى ما يصيبنى فى وجهى هذا فإن حدث بى حدث فهو لك ولعبدالله وعبيدالله والفضل فقال العباس ما يدريك فقال أخبرنى به ربى قال العباس فأنا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها فى سواد الليل ولقد كنت مرتابا فى أمرك فأما إذا أخبرتنى بذلك فلا ريب قال العباس بعد حين فأبدلنى الله خيرا من ذلك لى الآن عشرون عبدا وإن أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا وأعطانى زمزم ما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى يتأول به ما فى قوله تعالى ﴿ ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ فإنه وعد بالمغفرة مؤكد بما بعده من الاعتراض التذييلى .

﴿ وإن يريدوا خيانتك ﴾ أى نكث ما بايعوك عليه من الإسلام وهذا كلام مسوق من جهته تعالى لتسليته عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد له والوعيد لهم ﴿ فقد خانوا الله من قبل ﴾ بكفرهم ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿ فأمكن منهم ﴾ أى أقدرك عليهم حسبما رأيت يوم بدر فإن أعادوا الخيانة فاعلم أنه سيمكنك منهم أيضا وقيل المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء وهو بعيد ﴿ والله عليم ﴾ فيعلم ما فى نياتهم وما يستحقونه من العقاب ﴿ حكيم ﴾ يفعل كل ما يفعله حسبما تقتضيه حكمته البالغة ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا ﴾ هم المهاجرون هاجروا أوطانهم حبا لله تعالى ولرسوله ﴿ وجاهدوا بأموالهم ﴾ بأن صرفوها إلى الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاويج ﴿ وأنفسهم ﴾ بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوض فى المهالك ﴿ فى سبيل الله ﴾ متعلق بجاهدوا قيد لنوعى الجهاد ولعل تقديم الأموال على الأنفس لما أن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعا وأتم دفعا للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال ﴿ والذين آووا ونصروا ﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين وأنزلوهم منازلهم وبذلوا إليهم أموالهم وآثروهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ونصروهم على أعدائهم ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى

الفضيلة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ بعضهم ﴾ إما بدل منه وقوله تعالى ﴿ أولياء بعض ﴾ خبره وإما مبتدأ ثان وأولياء بعض خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول أى بعضهم أولياء بعض فى الميراث وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله تعالى (وأولو الأرحام) الآية وقيل فى النصرة والمظاهرة ويرده قوله تعالى (فعليكم النصر) بعد نفى موالاتهم ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ﴾ كسائر المؤمنين ﴿ مالكم من ولايتهم من شىء ﴾ أى من توليهم فى الميراث وإن كانوا من أقرب أقاربكم ﴿ حتى يهاجروا ﴾ وقرىء بكسر الواو تشبيها بالعمل والصناعة كالكتابة والإمارة وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿ إلا على قوم ﴾ منهم ﴿ بينكم وبينهم ميثاق ﴾ معاهدة فإنه لا يجوز نقض عهدهم بنصرهم عليهم ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ فلا تخالفوا أمره كيلا يحل بكم عقابه ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ آخر منهم أى فى الميراث أوفى المؤازرة وهذا بمفهومه مفيد لنفى الموارثة والمؤازرة بينهم وبين المسلمين وإيجاب المباعدة والمصارمة وإن كانوا أقارب .

﴿ إلا تفعلوه ﴾ أى ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم بعضا حتى التوارث ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿ تكن فتنة فى الأرض ﴾ أن تحصل فتنة عظيمة فيها وهى ضعف الإيمان وظهور الكفر ﴿ وفساد كبير ﴾ فى الدارين وقرىء كثير ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الإيمان مع الوعد الكريم بقوله تعالى ﴿ لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ لا تبعة له ولا منة فيه فلا تكرار لما أن مساق الأول لإيجاب التواصل بينهم ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا ﴾ بعد هجرتكم ﴿ وجاهدوا معكم ﴾ فى بعض مغازيكم ﴿ فأولئك منكم ﴾ أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار وهم الذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ألحقهم الله تعالى بالسابقين وجعلهم منهم تفضلا منه وترغيبا

فى الإيمان والهجرة وفى توجيه الخطاب إليهم بطريق الالتفات من تشريفهم ورفع محلهم ما لا يخفى ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ آخر منهم فى التوارث من الأجانب ﴿ فى كتاب الله ﴾ أى فى حكمه أو فى اللوح أو فى القرآن واستدل به على توريث ذوى الأرحام ﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ ومن جملته ما فى تعليق التوارث بالقرابة الدينية أولا وبالقرابة النسبية آخرا من الحكم البالغة . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه برىء من النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته والله تعالى أعلم .

* * *

سورة براءة

(مدنية وهى مائة وثلاثون آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ولها أسماء أخر : سورة التوبة ، والمقشقشة ، والبحوث ، والمنقرة ، والمبعثرة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمخزية ، والفاضحة ، والمنكلة ، والمشردة ، والمدمدمة ، وسورة العذاب ، لما فيها من ذكر التوبة ومن التبرئة من النفاق والبحث والتنقير عن حال المنافقين وإثارتها والحفر عنها وما يخزيهم ويشردهم ويدمدم عليهم واشتهارها بهذه الأسماء يقضى بأنها سورة مستقلة وليست بعضا من سورة الأنفال وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول نزولها فى رفع الأمان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعا بوصف الرحمة كما روى عن ابن عيينة رضى الله عنه لا الاشتباه فى استقلالها وعدمه كما يحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ولا رعاية ما وقع بين الصحابة رضى الله عنهم

من الاختلاف فى ذلك على أن ذلك ينزع إلى القول بأن التسمية ليست من القرآن وإنما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية وأن مناط إثباتها فى المصاحف وتركها إنما هو رأى من تصدى لجمع القرآن دون التوقيف ولا ريب فى أن الصحيح من المذهب أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها وأن لا مدخل لرأى أحد فى الإثبات والترك وإنما المتبع فى ذلك هو الوحى والتوقيف ولا مرية فى عدم نزولها ههنا وإلا لامتنع أن يقع فى الاستقلال اشتباه أو اختلاف فهو إما لاتحاد السورتين أو لما ذكرنا لا سبيل إلى الأول وإلا لبينه عليه الصلاة والسلام لتحقق مزيد الحاجة إلى البيان لتعاضد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولها فحيث لم يبينه عليه الصلاة والسلام تعين الثانى لأن عدم البيان من الشارع فى موضع البيان بيان للعدم .

﴿براءة﴾ خبر مبتدأ محذوف وتنوينه للتفخيم وقرىء بالنصب أى اسمعوا براءة ومن فى قوله تعالى ﴿من الله ورسوله﴾ ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لها ليفيدها زيادة تفخيم وتهويل أى هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله واصلة ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ وإنما لم يذكر ما تعلق به البراءة حسبما ذكر فى قوله تعالى (إن الله برىء من المشركين) اكتفاء بما فى حيز الصلة فإنه منبىء عنه إنباء ظاهرا واحترازا عن تكرير لفظة من وقيل هى مبتدأ لتخصصها بالصفة وخبره إلى الذين الخ والذى تقتضيه جزالة النظم هو الأول لأن هذه البراءة أمر حادث لم يعهد عند المخاطبين ذاتها ولا عنوان ابتدائها من الله تعالى ورسوله حتى يخرج ذلك العنوان مخرج الصفة لها ويجعل المقصود بالذات والعمدة فى الإخبار شيئا آخر هو وصولها إلى المعاهدين وإنما الحقيق بأن يعتنى بإفادته حدوث تلك البراءة من جهته تعالى ووصولها إليهم فإن حق الصفات قبل علم المخاطب بثبوتها لموصوفاتها أن تكون أخبارا وحق الأخبار بعد العلم بثبوتها لما هى له أن تكون صفات كما حقق فى موضعه وقرىء من الله

بكسر النون على أن الأصل فى تحريك الساكن الكسر ولكن الوجه هو الفتح فى لام التعريف خاصة لكثرة الوقوع والعهد العقد الموثق باليمين والخطاب فى عاهدتم للمسلمين وقد كانوا قد عاهدوا مشركى العرب من أهل مكة وغيرهم بإذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم فنكثوا إلا بنى ضمرة وبنى كنانة فأمر المسلمون بنبذ العهد إلى الناكثين وأمهلوا أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤا وإنما نسبت البراءة إلى الله ورسوله مع شمولها للمسلمين واشتراكهم فى حكمها ووجوب العمل بموجبها وعلقت المعاهدة بالمسلمين خاصة مع كونها بإذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم للإنباء عن تنجزها وتحتمها من غير توقف على رأى المخاطبين لأنها عبارة عن إنهاء حكم الأمان ورفع الحظر المترتب على العهد السابق من التعرض للكفرة وذلك منوط بجناب الله عز وجل لأنه أمر كسائر الأوامر الجارية على حسب حكمة تقتضيها وداعية تستدعيها تترتب عليها آثارها من غير توقف على شىء أصلا واشتراك المسلمين فى حكمها ووجوب العمل بموجبها إنما هو طريقه الامتثال بالأمر لا على أن يكون لهم مدخل فى إتمامها أو فى ترتب أحكامها عليها وأما المعاهدة فحيث كانت عقدا كسائر العقود الشرعية لا تتحصل فى نفسها ولا تترتب عليها أحكامها إلا بمباشرة المتعاقدين على وجوه مخصوصة اعتبرها الشرع لم يتصور صدورها عنه سبحانه وإنما الصادر عنه فى شأنها هو الإذن فيها وإنما الذى يباشرها ويتولى أمرها المسلمون

ولا يخفى أن البراءة إنما تتعلق بالعهد لا بالإذن فيه فنسبت كل واحدة منهما إلى من هو أصل فيها على أن فى ذلك تفخيما لشأن البراءة وتهويلا لأمرها وتسجيلا على الكفرة بغاية الذل والهوان ونهاية الخزى والخذلان وتنزيها لساحة السبحان والكبرياء عما يوهم شائبة النقص والبداء تعالى عن ذلك علوا كبيرا وإدراجه عليه الصلاة والسلام فى النسبة الأولى وإخراجه عن الثانية لتنويه شأنه الرفيع وإجلال قدره المنيع فى كلا المقامين صلى الله عليه وسلم وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية كأن يقال قد برىء الله ورسوله من الذين أو نحو ذلك للدلالة على دوامها واستمرارها وللتوسل إلى تهويلها بالتنوين التفخيمى

كما أشير إليه ﴿فسيحوا﴾ السياحه والسيح الذهاب فى الأرض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ما ليس فى سيروا ونظائره وزيادة قوله عز وجل ﴿فى الأرض﴾ لقصد التعميم لأقطارها من دار الإسلام وغيرها والمراد إباحة ذلك لهم وتخليتهم وشأنهم من الاستعداد للحرب أو تحصين الأهل والمال وتحصيل المهرب أو غير ذلك لا تكليفهم بالسياحة فيها وتلوين الخطاب بصرفه عن المسلمين وتوجيهه إليهم مع حصول المقصود بصيغة أمر الغائب أيضا للمبالغة فى الإعلام بالإمهال حسما لمادة تعللهم بالغفلة وقطعا لشأفة اعتذارهم[1] بعدم الاستعداد وإيثار صيغة الأمر مع تسنى إفادة ذلك المعنى بطريق الإخبار أيضا كأن يقال مثلا فلكم أن تسيحوا أو نحو ذلك لإظهار كمال القوة والغلبة وعدم الاكتراث لهم ولاستعدادهم فكأن ذلك أمر مطلوب منهم والفاء لترتيب الأمر بالسياحة وما يعقبه على ما تؤذن به البراءة المذكورة من الحراب على أن الأول مترتب على نفسه والثانى بكلا متعلقيه على عنوان كونه من الله العزيز لا لترتيب الأول عليه والثانى على الأول كما فى قوله تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا) الخ كأنه قيل هذه براءة موجبة لقتالكم فاسعوا فى تحصيل العدد والأسباب وبالغوا فى إعتاد العتاد من كل باب ﴿أربعة أشهر واعلموا أنكم﴾ بسياحتكم فى أقطار الأرض فى العرض والطول وإن ركبتم متن كل صعب وذلول ﴿غير معجزى الله﴾ أى لا تفوتونه بالهرب والتحصن .

﴿وأن الله﴾ وضع الاسم الجليل موضع المضمر لتربية المهابة وتهويل أمر الإخزاء وهو الإذلال بما فيه فضيحة وعار ﴿مخزى الكافرين﴾ أى مخزيكم ومذلكم فى الدنيا بالقتل والأسر وفى الآخرة بالعذاب وإيثار الإظهار على الإضمار لذمهم بالكفر بعد وصفهم بالإشراك وللإشعار بأن علة الإخزاء هى كفرهم ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا

---

(١) فى ١٠ لشافة عذرهم .

أوليا والمراد بالأشهر الأربعة هى الأشهر الحرم التى عاق القتال بانسلاخها فقيل هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقيل هى عشرون من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من ربيع الآخر وجعلت حرما لحرمة قتالهم فيها أو لتغليب ذى الحجة والمحرم على البقية وقيل من عشر ذى العقدة إلى عشر من شهر ربيع الأول لأن الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت للنسيء الذى كان فيهم ثم صار فى العام القابل فى ذى الحجة وذلك قوله عليه الصلاة والسلام «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» روى أنه عليه الصلاة والسلام أمر أبا بكر رضى الله تعالى عنه على موسم سنة تسع ثم أتبعه عليا رضى الله تعالى عنه على العضباء ليقرأها على أهل الموسم فقيل له عليه الصلاة والسلام لو بعثت بها إلى أبى بكر فقال صلى الله عليه وسلم لا يؤدى عنى إلا رجل منى وذلك لأن عادة العرب أن لا يتولى أمر العهد والنقض على القبيلة إلا رجل منها فلما دنا على سمع أبو بكر الرغاء فوقف فقال هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال أمير أو مأمور قال مأمور فمضيا ولما كان قبل يوم التروية خطب أبو بكر رضى الله عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام على رضى الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال يا أيها الناس إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال أمرت بأربع أن لا يقرب البيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده ﴿ وأذان من الله ورسوله ﴾ أى إعلام منهما فعال بمعنى الإفعال كالعطاء بمعنى الإعطاء ورفعه كرفع براءة والجملة معطوفة على مثلها وإنما قيل ﴿ إلى الناس ﴾ أى كافة لأن الأذان غير مختص بقوم دون آخرين كالبراءة الخاصة بالناكثين بل هو شامل لعامة الكفرة وللمؤمنين أيضا ﴿ يوم الحج الأكبر ﴾ هو يوم العيد لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ولأن الإعلام كان فيه ولما روى أنه عليه الصلاة والسلام وقف يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال هذا يوم الحج الأكبر وقيل يوم عرفة لقوله عليه الصلاة والسلام

الحج عرفة ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر أو لأن المراد بالحج ما يقع فى ذلك اليوم من أعماله فإنه أكبر من باقى الأعمال أو لأن الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون أو لأنه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين ﴿أن الله﴾ أى بأن الله وقرىء بالكسر لما أن الأذان فيه معنى القول ﴿برىء من المشركين﴾ أى المعاهدين الناكثين ﴿ورسوله﴾ عطف على المستكن فى برىء أو على محل أن واسمها على قراءة الكسر وقرىء بالنصب عطفا على اسم أن أو لأن الواو بمعنى مع أى برىء معه منهم وبالجر على الجوار وقيل على القسم ﴿فإن تبتم﴾ من الشرك والغدر التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد والفاء لترتيب مقدم الشرطية على الأذان بالبراءة المذيلة بالوعيد الشديد المؤذن بلين عريكتهم وانكسار شدة شكيمتهم .

﴿فهو﴾ أى فالتوب ﴿خير لكم﴾ فى الدارين ﴿وإن توليتم﴾ عن التوبة أو ثبتم على التولى عن الإسلام والوفاء ﴿فاعلموا أنكم غير معجزى الله﴾ غير سابقين ولا فائتين ﴿وبشر الذين كفروا﴾ تلوين للخطاب وصرف له عنهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن البشارة ﴿بعذاب أليم﴾ وإن كانت بطريق التهكم إنما تليق بمن يقف على الأسرار الإلهية .

من قوانين المعاهدات

﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ استدراك من النبذ السابق الذى أخر فيه القتال أربعة أشهر كأنه قيل لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين فى المسارعة إلى قتالهم بل أتموا إليهم عهدهم ولا يضر فى ذلك تخلل الفاصل بقوله تعالى (وأذان من الله ورسوله) الخ لأنه ليس بأجنبى بالكلية بل هو أمر بإعلام تلك البراءة كأنه قيل وأعلموها وقيل هو استثناء متصل من المشركين الأول ويرده بقاء الثانى على العموم مع كونهما عبارة عن فريق واحد وجعله استثناء من الثانى يأباه بقاء الأول كذلك وقيل هو استدراك من المقدر فى فسيحوا أى

قولوا لهم سيحوا أربعة أشهر لكن الذين عاهدتم منهم ﴿ثم لم ينقصوكم شيئاً﴾ من شروط الميثاق ولم يقتلوا منكم أحدا ولم يضروكم قط وقرىء بالمعجمة أى لم ينقضوا عهدكم شيأ من النقض وكلمة ثم للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة ﴿ولم يظاهروا﴾ أى لم يعاونوا ﴿عليكم أحدا﴾ من أعدائكم كما عدت بنو بكر على خزاعة فى غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح ﴿فأتموا إليهم عهدهم﴾ أى أدوه إليهم كاملا ﴿إلى مدتهم﴾ ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضى الأجل المضروب للناكثين ولا تعاملوهم معاملتهم قال ابن عباس رضى الله عنهما بقى لحى من بنى كنانة من عهدهم تسعة أشهر فأتم إليهم عهدهم ﴿إن الله يحب المتقين﴾ تعليل لوجوب الامتثال وتنبيه على أن مراعاة حقوق العهد من باب التقوى وأن التسوية بين الوفى والغادر منافية لذلك وإن كان المعاهد مشركا ﴿فإذا انسلخ﴾ أى انقضى استعير له من الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده والأغلب إسناده إلى الجلد والمعنى إذا انقضى ﴿الأشهر الحرم﴾ وانفصلت عما كانت مشتملة عليه ساترة له انفصال الجلد عن الشاة وانكشف عنه انكشاف الحجاب عما وراءه كما ذكره أبو الهيثم من أنه يقال أهللنا شهر كذا أى دخلنا فيه ولبسناه فنحن نزداد كل ليلة لباسا منه إلى مضى نصفه ثم نسلخه عن أنفسنا جزءاً فجزءاً حتى نسلخه عن أنفسنا كله فينسلخ وأنشد :

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله   كفى قاتلا سلخى الشهور وإهلالى

وتحقيقه أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد للحيوان وكذا كل جزء من أجزائه الممتدة من الأيام والشهور والسنين فإذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه وفيه مزيد لطف لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر كانت حرزا لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدى المسلمين فنيط قتالهم بزوالها والمراد بها إما ما مر من الأشهر الأربعة فقط ووضع المظهر موضع المضمر ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمة تأكيدا لما ينبىء عنه إباحة السياحة من حرمة التعرض لهم مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها أو هى مع ما فهم من قوله

تعالى فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم من تتمة مدة بقيت لغير الناكثين فعلى الأول يكون المراد بالمشركين فى قوله تعالى :

﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ الناكثين خاصة فلا يكون قتال البالغين مفهوما من عبارة النص من دلالته وعلى الثانى مفهوما من العبارة إلا أنه يكون الإنسلاخ وما نيط به من القتال حينئذ شيئاً فشيئاً لا دفعة واحدة كأنه قيل فإذا تم ميقات كل طائفة فاقتلوهم وحملها على الأشهر المعهودة الدائرة فى كل سنة لا يساعده النظم الكريم وأما أنه يستدعى بقاء حرمة القتال فيها إذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها فلا اعتداد به لا لأنها نسخت بقوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) كما توهم فإنه رجم بالغيب لأنه إن أريد به ما فى سورة الأنفال فإنه نزل عقيب غزوة بدر وقد صح أن المراد بالذين كفروا فى قوله تعالى (قل للذين كفروا) أبو سفيان وأصحابه وقد أسلم فى أواسط رمضان عام الفتح سنة ثمان وسورة التوبة إنما نزلت فى شوال سنة تسع وإن أريد ما فى سورة البقرة فإنه أيضاً نزل قبل الفتح كما يعرب عنه ما قبله من قوله تعالى (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أى من مكة وقد فعل ذلك يوم الفتح فكيف ينسخ به ما ينزل بعده بل لأن انعقاد الإجماع على انتساخها كاف فى الباب من غير حاجة إلى كون سنده منقولا إلينا وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم ﴿ حيث وجدتموهم ﴾ من حل وحرم ﴿ وخذوهم ﴾ أى أيسروهم والأخيذ الأسير ﴿ واحصروهم ﴾ أى قيدوهم أو امنعوهم من التقلب فى البلاد . قال ابن عباس رضى الله عنهما حيلوا بينهم[1] وبين المسجد الحرام ﴿ واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ أى كل ممر ومجتاز يجتازون منه فى أسفارهم وانتصابه على الظرفية أى ارصدوهم وارقبوهم حتى لا يمروا به وفائدته على التفسير الثانى دفع احتمال أن يراد بالحصر المحاصرة المعهودة .

---

(١) فى ١١ ، ٤٣٠ : حولوا .

﴿ فإن تابوا ﴾ عن الشرك بالإيمان بعد ما اضطروا بما ذكر من القتل والأسر والحصر ﴿ وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة ﴾ تصديقا لتوبتهم وإيمانهم واكتفى بذكرهما عن ذكر بقية العبادات لكونهما رأسى العبادات البدنية والمالية.

﴿ فخلوا سبيلهم ﴾ فدعوهم وشأنهم ولا تتعرضوا لهم بشيء مما ذكر ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر ويثيبهم بإيمانهم وطاعاتهم وهو تعليل للأمر بتخلية السبيل.

﴿ وإن أحد ﴾ شروع فى بيان حكم المتصدين لمبادى التوبة من سماع كلام الله تعالى والوقوف على شعائر الدين إثر بيان حكم التائبين عن الكفر والمصرين عليه وهو مرتفع بشرط مضمر يفسره الظاهر لا بالإبتداء لأن أن لا تدخل إلا على الفعل ﴿ من المشركين استجارك ﴾ بعد انقضاء الأجل المضروب أى سألك أن تؤمنه وتكون له جارا ﴿ فأجره ﴾ أى أمنه ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة مايدعو إليه والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخر فى الفهم لكونهم من أهل اللسن والفصاحة وحتى سواء كانت للغاية أو للتعليل متعلقة بما بعدها لا بقوله تعالى استجارك لأنه يؤدى إلى إعمال حتى فى المضمر وذلك مما لا يكاد يرتكب فى غير ضرورة الشعر كما فى قوله :

فلا والله لا يلفى أناس فتى حتاك يا ابن أبى يزيد

كذا قيل إلا أن تعلق الإجارة بسماع كلام الله تعالى بأحد الوجهين يستلزم تعلق الاستجارة أيضاً بذلك أو بما فى معناه من أمور الدين وما روى عن على رضى الله عنه أنه أتاه رجل من المشركين فقال إن أراد الرجل منا أن يأتى محمدا بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله تعالى أو لحاجة قتل قال لا لأن الله تعالى يقول (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره) الخ فالمراد بما فيه من الحاجة هى الحاجة المتعلقة بالدين لا ما يعمها وغيرها من الحاجات الدنيوية كما ينبيء عنه قوله أن يأتى محمدا فإن من يأتيه عليه السلام إنما يأتيه للأمور

المتعلقة بالدين ﴿ ثم أبلغه ﴾ بعد استماعه له إن لم يؤمن ﴿ مأمنه ﴾ أى مسكنه الذى يأمن فيه وهو دار قومه ﴿ ذلك ﴾ يعنى الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ قوم لا يعلمون ﴾ ما الإسلام وما حقيقته أو قوم جهلة فلا بد من إعطاء الأمان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة أصلا .

﴿ كيف يكون للمشركين عهد ﴾ شروع فى تحقيق حقيقة ما سبق من البراءة وأحكامها المتفرعة عليها وتبيين الحكمة الداعية إلى ذلك والمراد بالمشركين الناكثون لأن البراءة إنما هى فى شأنهم والاستفهام إنكارى لا بمعنى إنكار الواقع كما فى قوله تعالى (كيف تكفرون بالله) الخ بل بمعنى إنكار الوقوع ويكون من الكون التام وكيف فى محل النصب على التشبيه بالحال أو الظرف وقيل من الكون الناقص وكيف خبر يكون قدم على اسمه وهو عهد لاقتضائه الصدارة وللمشركين متعلق بمحذوف وقع حالا من عهد ولو كان مؤخرا لكان صفة له أو بيكون عند من يجوز عمل الأفعال الناقصة فى الظروف وعند متعلق بمحذوف وقع صفة لعهد أو بنفسه لأنه مصدر أو بيكون كما مر ويجوز أن يكون الخبر للمشركين وعند كما ذكر أو متعلق بالاستقرار الذى تعلق به للمشركين ويجوز أن يكون الخبر عند الله وللمشركين إما تبيين وإما حال من عهد وإما متعلق بيكون أو بالاستقرار الذى تعلق به الخبر ولا يبالى بتقديم معمول الخبر على الاسم لكونه حرف جر وكيف على الوجهين الأخيرين نصب على التشبيه بالظرف أو الحال كما فى صورة الكون التام وهو الأولى لأن فى إنكار ثبوت العهد فى نفسه من المبالغة ماليس فى إنكار ثبوته للمشركين لأن ثبوته الرابطى فرع ثبوته العينى فانتفاء الأصل يوجب انتفاء الفرع رأسا وفى توجيه الإنكار إلى كيفية ثبوت العهد من المبالغة ماليس فى توجهه إلى ثبوته لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى أى أو فى أى حال يوجد لهم عهد معتد به .

﴿ عند الله وعند رسوله ﴾ يستحق أن يراعى حقوقه ويحافظ عليه إلى إتمام

المدة ولا يتعرض لهم بحسبه قتلا ولا أخذا وأما أن يأمنوا به من عذاب الآخرة كما قيل فلا سبيل إلى اعتباره أصلا إذ لا دخل لعهدهم فى ذلك الأمن قطعا وإن كان مرعيا عند الله تعالى وعند رسوله كعهد غير الناكثين وتكرير كلمة عند للإيذان بعدم الاعتداد به عند كل منهما على حدة ﴿ إلا الذين ﴾ استدراك من النفى المفهوم من الاستفهام المتبادر شموله لجميع المعاهدين أى لكون الذين ﴿ عاهدتم عند المسجد الحرام ﴾ وهم المستثنون فيما سلف والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والإشعار بسبب وكادتها ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى :

﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ والفاء لتضمنه [1] معنى الشرط وما إما منصوبة المحل على الظرفية فتقدير المضاف أى فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم وإما شرطية منصوبة المحل على الظرفية الزمانية أى أى زمان استقاموا لكم فاستقيموا لهم أو مرفوعة على الابتداء والعائد محذوف أى أى زمان استقاموا لكم فيه فاستقيموا لهم فيه وقيل الاستثناء متصل محله النصب على الأصل أو الجر على البدل من المشركين والمراد بهم الجنس لا المعهود وأيا ما كان فحكم الأمر بالاستقامة ينتهى بانتهاء مدة العهد لأن استقامتهم التى وقت بوقتها الاستقامة المأمور بها عبارة عن مراعاة حقوق العهد وبعد انقضاء مدته لا عهد ولا استقامة فصار عين الأمر الوارد فيما سلف حيث قيل فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم خلا أنه [2] قد صرح به هناك مع كونه معتبرا قطعا وهو تقييد الإتمام المأمور به ببقائهم على ما كانوا عليه من الوفاء ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ تعليل للأمر بالاستقامة وإشعار بأن القيام بموجب العهد من أحكام التقوى كما مر ﴿ كيف ﴾ تكرير لاستنكار ما مر من أن يكون للمشركين عهد حقيق بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله صلى الله عليه وسلم وأما ما قيل من أنه لاستبعاد ثباتهم

---

(١) فى ١٠ : لتضمينه .

(٢) فى ١٠ : إلا أنه . وفى ٤٣٠ : عدا أنه

على العهد فكما ترى لأن مايذكر بصدد التعليل للاستبعاد عين عدم ثباتهم على العهد لا أنه شيء يستدعيه وإنما أعيد الاستنكار والاستبعاد تأكيدا لهما وتمهيدا لتعداد العلل الموجبة لهما لإخلال تخلل مافى البين من الارتباط والتقريب وحذف الفعل المستنكر للإيذان بأن النفس مستحضرة له مترقبة لورود مايوجب استنكاره لا لمجرد كونه معلوما كما فى قوله :

وخبرتمانى أنما الموت بالقرى فكيف وهاتا هضبة وقليب

فإنه علة مصححة لا مرجحة أى كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وإن يظهروا عليكم ﴾ أى وحالهم أنهم إن يظهروا عليكم أى يظفروا بكم ﴿ لا يرقبوا فيكم ﴾ أى لا يراعوا فى شأنكم وأصل الرقوب النظر بطريق الحفظ والرعاية ومنه الرقيب ثم استعمل فى مطلق الرعاية والمراقبة أبلغ منه كالمراعاة وفى نفى الرقوب من المبالغة ماليس فى نفيها ﴿ إلا ولا ذمة ﴾ أى حلفا وقيل قرابة ولا عهدا أو حقا يعاب على إغفاله مع ماسبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق يعنى أن وجوب مراعاة حقوق العهد على كل من المتعاهدين مشروط بمراعاة الآخر لها فإذا لم يراعها المشركون فكيف تراعونها على منوال قول من قال :

علام تقبل منهم فدية وهم لافضة قبلوا منا ولا ذهبا

وقيل الإل من أسماء الله عز وجل أى لايراعوا حق الله تعالى وقيل الجوار ومآله الحلف لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم لتشهيره ولما كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر موهما للرعاية عند عدمه كشف عن حقيقة شئونهم الجلية والخفية بطريق الاستئناف وبين أنهم فى حالة العجز أيضا ليسوا من الوفاء فى شيء وأن مايظهرونه مداهنة لا مهادنة فقيل :

﴿ يرضونكم بأفواههم ﴾ حيث يظهرون الوفاء والمصافاة ويعدون لكم بالإيمان والطاعة ويؤكدون ذلك بالأيمان الفاجرة ويتعللون عند ظهور خلافه

بالمعاذير الكاذبة ونسبة الإرضاء إلى الأفواه للإيذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق فى قلوبهم ﴿ وتأبى قلوبهم ﴾ مايفيد كلامهم ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ خارجون عن الطاعة فإن مراعاة حقوق العهد من باب الطاعة متمردون ليست لهم مروءة رادعة ولا عقيدة وازعة ولا يتسترون كما يتعاطاه بعضهم ممن يتفادى عن الغدر ويتعفف عما يجر أحدوثة السوء ﴿ اشتروا بآيات الله ﴾ بآياته الآمرة بالإيفاء بالعهود والاستقامة فى كل أمر أو بجميع آياته فيدخل فيها ما ذكر دخولا أوليا أى تركوها وأخذوا بدلها ﴿ ثمنا قليلا ﴾ أى شيئاً حقيرا من حطام الدنيا وهو أهواؤهم وشهواتهم التى اتبعوها أو ما أنفقه أبو سفيان من الطعام وصرفه إلى الأعراب ﴿ فصدوا ﴾ أى عدلوا ونكبوا من صد صدودا أو صرفوا غيرهم من صد صدا والفاء للدلالة على سببية الاشتراء لذلك ﴿ عن سبيله ﴾ أى الدين الحق الذى لا محيد عنه والإضافة للتشريف أو سبيل بيته الحرام حيث كانوا يصدون الحجاج والعمار عنه ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أى بئس ما كانوا يعملونه أو عملهم المستمر والمخصوص بالذم محذوف وقد جوز أن تكون كلمة ساء على أصلها من التصرف لازمة بمعنى قبح أو متعدية والمفعول محذوف أى ساءهم الذى يعملونه أو عملهم وقوله عز وعلا ﴿ لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ﴾ ناع عليهم[1] عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين على الإطلاق فلا تكرار وقيل هذا فى اليهود أو فى الأعراب المذكورين ومن يحذو حذوهم وأما ما قيل من أنه تفسير لقوله تعالى (يعملون) أو دليل على ما هو مخصوص بالذم فمشعر باختصاص الذم والسوء بعملهم هذا دون غيره ﴿ وأولئك ﴾ الموصوفون بما عدد من الصفات السيئة ﴿ هم المعتدون ﴾ المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشرارة ﴿ فإن تابوا ﴾ أى عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم والفاء للإيذان بأن تقريعهم بما نعى عليهم من مساوىء أعمالهم مزجرة عنها ومظنة للتوبة ﴿ وأقاموا الصلوة وآتوا

---

(١) ا، ء : نعى عليهم .

الزكوة ﴾ أى التزموهما وعزموا على إقامتهما ﴿ فإخوانكم ﴾ أى فهم إخوانكم وقوله تعالى ﴿ فى الدين ﴾ متعلق بإخوانكم لما فيه من معنى الفعل أى لهم مالكم وعليهم ماعليكم فعاملوهم معاملة الإخوان وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم مالا مزيد عليه والاختلاف بين جواب هذه الشرطية وجواب التى مرت من قبل مع اتحاد الشرط فهما لما أن الأولى سيقت إثر الأمر بالقتل ونظائره فوجب أن يكون جوابها أمراً بخلاف ذلك وهذه سيقت بعد الحكم عليهم بالاعتداء وأشباهه فلا بد من كون جوابها حكما بخلافه البتة ﴿ ونفصل الآيات ﴾ أى نبينها والمراد بها إما ما مر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين من الناكثين وغيرهم وأحكامهم حالتى الكفر والإيمان وإما جميع الآيات فيندرج فيها تلك الآيات اندراجا أوليا ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى ما فيها من الأحكام أو لقوم عالمين وهو اعتراض للحث على التأمل فى الأحكام المندرجة فى تضاعيفها والمحافظة عليها .

﴿ وإن نكثوا ﴾ عطف على قوله تعالى (فإن تابوا) أى وإن لم يفعلوا ذلك بل نقضوا ﴿ أيمانهم من بعد عهدهم ﴾ الموثق بها وأظهروا مافى ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القوة إلى الفعل حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا) الآية أو ثبتوا على ماهم عليه من النكث لا أنهم ارتدوا بعد الإيمان كما قيل ﴿ وطعنوا فى دينكم ﴾ قدحوا فيه بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ أى فقاتلوهم وإنما أوثر ماعليه النظم الكريم للإيذان بأنهم صاروا بذلك ذوى رياسة وتقدم فى الكفر أحقاء بالقتل والقتال وقيل المراد بأئمتهم رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر إما لأهمية قتلهم أو للمنع من مراقبتهم لكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم فإن قتلهم غالباً يكون بعد قتل من دونهم وقرىء أئمة بتحقيق الهمزتين على الأصل والأفصح إخراج الثانية بين بين وأما التصريح بالياء فلحن ظاهر عند القراء ﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾ أى على الحقيقة حيث لايراعونها ولا يعدون نقضها محذورا وإن أجروها على ألسنتهم وإنما علق النفى بها كالنكث فيما سلف لا

بالعهد المؤكد بها لأنها العمدة فى المواثيق وجعل الجملة تعليلا للأمر بالقتال لا يساعده تعليقه بالنكث والطعن لأن حالهم فى أن لا أيمان لهم حقيقة بعد النكث والطعن كحالهم قبل ذلك وحمله على معنى عدم بقاء أيمانهم بعد النكث والطعن مع أنه لاحاجة إلى بيانه خلاف الظاهر ولعل الأولى جعلها تعليلا لمضمون الشرط كأنه قيل وإن نكثوا وطعنوا كما هو المتوقع منهم إذ لا أيمان لهم حقيقة حتى لا ينكثوها أو لاستمرار القتال المأمور به المستفاد من سياق الكلام كأنه قيل فقاتلوهم إلى أن يؤمنوا إنهم لا أيمان لهم حتى يعقد معهم عهد آخر وقرىء بكسر الهمزة على أنه مصدر بمعنى إعطاء الأمان أى لا سبيل إلى أن تعطوهم أمانا بعد ذلك أبدا وأما العكس كما قيل فلا وجه له لإشعاره بأن معاهدتهم معنا على طريقة أن يكون إعطاء الأمان من قبلهم وذلك بين البطلان أو بمعنى الإسلام ففى كونه تعليلا للأمر بالقتال إشكال بل استحالة لأنه إن حمل على انتفاء الإسلام مطلقا فهو بمعزل عن العلية للقتال أو للأمر به كما قبل النكث والطعن وإن حمل على انتفائه فيما سيأتى فلا يلائم جعل الانتهاء غاية للقتال فيما سيجيء فالوجه أن يجعل تعليلا لما ذكر من مضمون الشرط كأنه قيل إن نكثوا وطعنوا وهو الظاهر من حالهم لأنه لا إسلام لهم حتى يرتدعوا عن نقض جنس أيمانهم وعن الطعن فى دينكم ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ متعلق بقوله تعالى (فقاتلوهم) أى قاتلوهم إرادة أن ينتهوا أى ليكن غرضكم من القتال انتهاءهم عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم التى يرتكبونها لا إيصال الأذية بهم كما هو ديدن المؤذين.

﴿ ألا تقاتلون ﴾ الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم للإنكار والتوبيخ تدل على تخصيصهم على المقاتلة بطريق حملهم على الإقرار بانتفائها كأنه أمر لا يمكن أن يعترف به طائعا لكمال شناعته فيلجأون إلى ذلك ولا يقدرون على الإقرار به فيختارون المقاتلة ﴿ قوما نكثوا أيمانهم ﴾ التى حلفوها عند المعاهدة على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بنى بكر على خزاعة ﴿ وهموا بإخراج الرسول ﴾ من مكة حين تشاوروا فى أمره بدار الندوة حسبما ذكر فى قوله تعالى (وإذ يمكر

بك الذين كفروا فيكون نعيا عليهم جناياتهم القديمة وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهموا بإخراجه من المدينة ﴿ وهم بدءوكم ﴾ بالمعاداة والمقاتلة ﴿ أول مرة ﴾ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولا بالكتاب المبين وتحداهم به فعدلوا عن المحاجة لعجزهم عنها إلى المقاتلة أو بدءوا بقتال خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم لأن إعانة بنى بكر عليهم قتال معهم ﴿ أتخشونهم ﴾ أى أتخشون أن ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم وبخهم أولا بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الرغبة فيها ويحقق أن من كان على تلك الصفات السيئة حقيق بأن لا تترك مصادمته ويوبخ من فرط فيها ﴿ فالله أحق أن تخشوه ﴾ بمخالفة أمره وترك قتال أعدائه ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن قضية الإيمان تخصيص الخشية به تعالى وعدم المبالاة بمن سواه وفيه من التشديد ما لا يخفى .

من أحكام الجهاد

﴿ قاتلوهم ﴾ تجريد للأمر بالقتال بعد التوبيخ على تركه ووعد بنصرهم وبتعذيب أعدائهم وإخزائهم وتشجيع لهم ﴿ يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم ﴾ قتلا وأسرا ﴿ وينصركم عليهم ﴾ أى يجعلكم جميعاً غالبين عليهم أجمعين ولذلك أخر عن التعذيب والإخزاء ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ ممن لم يشهد القتال وهم خزاعة قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه فقال عليه السلام أبشروا فإن الفرج قريب ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ بما كابدوا من المكاره والمكايد ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون فكان إخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ كلام مستأنف ينبىء عما سيكون من بعض أهل مكة من التوبة المقبولة بحسب مشيئته تعالى المبنية على الحكم البالغة فكان كذلك حيث أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم وقرىء بالنصب بإضمار أن

ودخول التوبة فى جملة ما أجيب به الأمر بحسب المعنى فإن القتال كما هو سبب لفشل شوكتهم وإلانة شكيمتهم فهو سبب للتدبر فى أمرهم وتوبتهم من الكفر والمعاصى وللاختلاف فى وجه السببية غير السبك والله تعالى أعلم ﴿ والله ﴾ إيثار إظهار الجلالة على الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة ﴿عليم﴾ لايخفى عليه خافية ﴿ حكيم ﴾ لايفعل ولا يأمر إلا بما فيه(١) حكمة ومصلحة ﴿ أم حسبتم ﴾ أم منقطة جىء بها للدلالة على الانتقال من التوبيخ السابق إلى آخر وما فيها من همزة الاستفهام الإنكارى توبيخ لهم على الحسبان المذكور أى بل أحسبتم ﴿ أن تتركوا ﴾ على ما أنتم عليه ولا تؤمروا بالجهاد ولا تبتلوا بما يمحصكم والخطاب إما لمن شق عليهم القتال من المؤمنين أو المنافقين ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ الواو حالية ولما للنفى مع التوقع والمراد من نفى العلم نفى المعلوم بالطريق البرهانى إذ لو شم رائحة الوجود لعلم قطعا فلما لم يعلم لزم عدمه قطعا أى أم حسبتم أن تتركوا والحال أنه لم يتبين الخلص من المجاهدين منكم من غيرهم وما فى لما من التوقع منبه على أن ذلك سيكون وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقا للعلم ومدارا للثواب وعدم التعرض لحال المقصرين لما ان ذلك بمعزل من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين .

﴿ ولم يتخذوا ﴾ عطف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة أو حال من فاعله أى جاهدوا حال كونهم غير متخذين ﴿ من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ أى بطانة وصاحب سر(٢) وهو الذى تطلعه على ما فى ضميرك من الأسرار الخفية من الولوج وهو الدخول ومن دون الله متعلق بالاتخاذ إن أبقى على حاله أو مفعول ثان له إن جعل بمعنى التصيير ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ أى بجميع أعمالكم وقرىء على الغيبة وهو تذييل يزيح ما يتوهم من ظاهر قوله تعالى (ولما يعلم) الخ أو حال

---

(١) فى ١٠ : إلا ما فيه :

(٢) فى ١٠ : وأصحاب سر

متداخلة من فاعله أو من مفعوله والمعنى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم والحال أنه يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها .

﴿ ما كان للمشركين ﴾ أى ما صح وما استقام لهم على معنى نفى الوجود والتحقق لا نفى الجواز كما فى قوله تعالى (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) أى ما وقع وما تحقق لهم ﴿ أن يعمروا ﴾ عمارة معتدا بها ﴿ مساجد الله ﴾ أى المسجد الحرام وإنما جمع لأنه قبلة المساجد وإمامها فعامره كعامرها أو لأن كل ناحية من نواحيه المختلفة الجهات مسجد على حياله بخلاف سائر المساجد إذ ليس فى نواحيها اختلاف الجهة ويؤيده القراءة بالتوحيد وقيل ما كان لهم أن يعمروا شيئاً من المساجد فضلا عن المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس ويأباه أنهم لا يتصدون لتعمير سائر المساجد ولا يفتخرون بذلك على أنه مبنى على كون النفى بمعنى نفى الجواز واللياقة دون نفى الوجود ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ أى بإظهار آثار الشرك من نصب الأوثان حول البيت والعبادة لها فإن ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر وإن أبوا أن يقولوا نحن كفار كما نقل عن الحسن رضى الله عنه وهو حال من الضمير فى يعمروا أى محال أن يكون ما سموه عمارة عمارة بيت الله مع ملابستهم لما ينافيها ويحبطها من عبادة غيره تعالى فإنها ليست من العمارة فى شيء وأما ما قيل من أن المعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله تعالى وعبادة غيره تعالى فليس بمعرب عن كنه المرام فإن عدم استقامة الجمع بين المتنافيين إنما يستدعى انتفاء أحدهما بعينه لا انتفاء العمارة الذى هو المقصود . روى أن المهاجرين والأنصار أقبلوا على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك وطفق على رضى الله تعالى عنه يوبخ العباس بقتال النبى صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم وأغلظ له فى القول فقال العباس تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقال ولكم محاسن ؟ قالوا نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى فنزلت ﴿ أولئك ﴾ الذين يدعون عمارة المسجد وما يضاهيها من أعمال البر مع ما بهم من الكفر ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ أى التى يفتخرون بها بما

قارنها من الكفر فصارت هباء منثورا ﴿ وفى النار هم خالدون ﴾ لكفرهم ومعاصيهم وإيراد الجملة الاسمية للمبالغة فى الدلالة على الخلود والظرف متعلق بالخبر قدم عليه للاهتمام به ومراعاة الفاصلة وكلتا الجملتين مستأنفة لتقرير النفى السابق . الأولى من جهة نفى استتباع الثواب والثانية من جهة نفى استدفاع العذاب .

﴿ إنما يعمر مساجد الله ﴾ الكلام فى إيراد صيغة الجمع كما مر فيما مر خلا أن إرادة جميع المساجد وإدراج الحرام فى ذلك غير مخالفة لمقتضى الحال فإن الإيجاب ليس كالسلب وقد قرىء بالإفراد أيضاً والمراد ههنا أيضاً قصر تحقق العمارة ووجودها على المؤمنين لاقصر جوازها ولياقتها أى إنما يصح ويستقيم أن يعمرها عمارة يعتد بها ﴿ من آمن بالله ﴾ وحده ﴿ واليوم الآخر ﴾ بما فيه من البعث والحساب والجزاء حسبما نطق به الوحى ﴿ وأقام الصلوة وآتى الزكوة ﴾ على ما علم من الدين فيندرج فيه الإيمان بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم حتما وقيل هو مندرج تحت الإيمان بالله خاصة فإن أحد جزأى كلمتى الشهادة علم للكل أى إنما يعمرها من جمع هذه الكمالات العلمية والعملية والمراد بالعمارة ما يعم مرمة ما استرم منها وقمها[1] وتنظيفها وتزيينها بالفرش وتنويرها بالسرج وإدامة العبادة والذكر ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك وصيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش » وقال عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى « إن بيوتى فى أرضى المساجد وإن زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره » وعنه عليه الصلاة والسلام « من ألف المسجد ألفه الله تعالى » وقال عليه الصلاة والسلام « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » وعن أنس رضى الله عنه « من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له مادام

(١) قمها : أى جمع القمامة منها

في ذلك المسجد ضوؤه »[١] ﴿ ولم يخش ﴾ في أمور الدين ﴿ إلا الله ﴾ فعمل بموجب أمره ونهيه غير آخذ له في الله لومة لائم ولا خشية ظالم فيندرج فيه عدم الخشية عند القتال ونحو ذلك وأما الخوف الجبلي من الأمور المخوفة فليس من هذا الباب ولا مما يدخل تحت التكليف والخطاب وقيل كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد نفي تلك الخشية عنهم ﴿ فعسى أولئك ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿ أن يكونوا من المهتدين ﴾ إلى مباغيهم من الجنة وما فيها من فنون المطالب العلية وإبراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات السنية في معرض التوقع لقطع أطماع الكفرة عن الوصول إلى مواقف الاهتداء والانتفاع بأعمالهم التي يحسبون أنهم في ذلك محسنون ولتوبيخهم بقطعهم بأنهم مهتدون فإن المؤمنين مع ما بهم من هذه الكمالات إذا كان أمرهم دائراً بين لعل وعسى فما بال الكفرة وهم هم وأعمالهم أعمالهم وفيه لطف للمؤمنين وترغيب لهم في ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى .

﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ﴾ أي في الفضيلة وعلو الدرجة ﴿ كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ﴾ السقاية والعمارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالأعيان فلا بد من تقدير مضاف في أحد الجانبين أي أجعلتم أهلهما كمن آمن بالله الخ ويؤيده قراءة من قرأ سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام أو أجعلتموهما كإيمان من آمن الخ وعلى التقديرين فالخطاب إما للمشركين على طريقة الالتفات وهو المتبادر من تخصيص ذكر الإيمان بجانب المشبه به وإما لبعض المؤمنين المؤثرين للسقاية والعمارة ونحوهما على الهجرة والجهاد ونظائرهما وهو المناسب للاكتفاء في الرد عليهم ببيان عدم مساواتهم عند الله للفريق الثاني وبيان أعظمية درجتهم عند الله تعالى على وجه يشعر بعدم حرمان الأولين بالكلية وجعل معنى التفضيل بالنسبة إلى زعم الكفرة لا يجدي كثير نفع لأنه إن لم يشعر بعدم الحرمان فليس بمشعر بالحرمان أيضاً

---

(١) الأحاديث أخرجها الحافظ الدمياطي في المتجر الرابح ورمز لصحتها .

أما على الأول فهو توبيخ للمشركين ومداره على إنكار تشبيه أنفسهم من حيث اتصافهم بوصفيهم المذكورين مع قطع النظر عما هم عليه من الشرك بالمؤمنين من حيث اتصافهم بالإيمان والجهاد أو على إنكار تشبيه وصفيهم المذكورين فى حد ذاتهما مع الإغماض عن مقارنتهما للشرك بالإيمان والجهاد وأما اعتبار مقارنتهما له كما قيل فيأباه المقام كيف لا وقد بين آنفا حبوط أعمالهم بذلك الاعتبار بالمرة وكونها بمنزلة العدم فتوبيخهم بعد ذلك على تشبيههما بالإيمان والجهاد ثم رد ذلك بما يشعر بعدم حرمانهم عن أصل الفضيلة بالكلية كما أشير إليه بما لا يساعده النظم التنزيلي ولو اعتبر ذلك لما احتيج إلى تقرير إنكار التشبيه وتأكيده بشيء آخر إذ لا شيء أظهر بطلانا من تشبيه المعدوم بالموجود فالمعنى أجعلتم أهل السقاية والعمارة فى الفضيلة كمن آمن (١) بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو أجعلتموهما فى ذلك كالإيمان والجهاد وشتان بينهما فإن السقاية والعمارة وإن كانتا فى أنفسهما من أعمال البر والخير لكنهما وإن خلتا عن القوادح بمعزل عن صلاحية أن يشبه أهلهما بأهل الإيمان والجهاد أو يشبه نفسهما بنفس الإيمان والجهاد وذلك قوله عز وجل :

﴿ لا يستوون عند الله ﴾ أى لا يساوى الفريق الأول الثانى من حيث اتصاف كل منهما بوصفيهما ومن ضرورته عدم التساوى بين الوصفين الأولين وبين الآخرين لأنه المدار فى التفاوت بين الموصوفين وإسناد عدم الاستواء إلى الموصوفين لأن الأهم بيان تفاوتهم وتوجيه النفى ههنا والإنكار فيما سلف إلى الاستواء والتشبيه مع أن دعوى المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين إنما هى الأفضلية دون التساوى والتشابه للمبالغة فى الرد عليهم فإن نفى التساوى والتشابه نفى للأفضلية بالطريق الأولى والجملة استئناف لتقرير الإنكار المذكور وتأكيده أو حال من مفعولى الجعل والرابط هو الضمير كأنه قيل أسويتم بينهم حال كونهم متفاوتين عنده تعالى وقوله تعالى ﴿ والله

---

(١) فى ١٠ : كالإيمان بالله . . . والجهاد .

لا يهدى القوم الظالمين﴾ حكم عليهم بأنهم مع ظلمهم بالإشراك ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ضالون فى هذا الجعل غير مهتدين إلى طريق معرفة الحق وتمييز الراجح من المرجوح وظالمون بوضع كل منهما موضع الآخر وفيه زيادة تقرير لعدم التساوى بينهم .

وقوله تعالى ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ استئناف لبيان مراتب فضلهم إثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم وزيادة الهجرة وتفصيل نوعى الجهاد للإيذان بأن ذلك من لوازم الجهاد لا أنه اعتبر بطريق التدارك أمر لم يعتبر فيما سلف أى هم باعتبار اتصافهم بهذه الأوصاف الجميلة ﴿أعظم درجة عند الله﴾ أى أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يتصف بها كائنا من كان وإن حاز جميع ما عداها من الكمالات التى من جملتها السقاية والعمارة ﴿وأولئك﴾ أى المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم فى الرفعة ﴿هم الفائزون﴾ المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم وأما على الثانى فهو توبيخ لمن يؤثر السقاية والعمارة من المؤمنين على الهجرة والجهاد روى أن عليا قال للعباس رضى الله عنهما بعد إسلامه يا عم ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألست فى أفضل من الهجرة أسقى حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام فلما نزلت قال ما أرانى إلا تارك سقايتنا فقال عليه السلام أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيرا وروى النعمان بن بشير قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالى ألا أعمل عملا بعد أن أسقى الحاج وقال آخر ما أبالى ألا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليتم استفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفتم فيه فدخل فأنزل الله عز وجل هذه الآية والمعنى

أجعلتم أهل السقاية والعمارة من المؤمنين فى الفضيلة والرفعة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو أجعلتموهما كالإيمان والجهاد وإنما لم يذكر الإيمان فى جانب المشبه مع كونه معتبرا فيه قطعا تعويلا على ظهور الأمر وإشعاراً بأن مدار إنكار التشبيه هو السقاية والعمارة دون الإيمان وإنما لم يترك ذكره فى جانب المشبه به أيضا تقوية للإنكار وتذكيراً لأسباب الرجحان ومبادىء الأفضلية وإيذانا بكمال التلازم بين الإيمان وما تلاه ومعنى عدم الاستواء عند الله تعالى على هذا التقدير ظاهر وكذا أعظمية درجة الفريق الثانى وأما قوله تعالى (والله لا يهدى القوم الظالمين) فالمراد به عدم هدايته تعالى إلى معرفة الراجح من المرجوح وظلمهم بوضع كل منهما موضع الآخر لا عدم الهداية مطلقا ولا الظلم عموما والقصر فى قوله تعالى (وأولئك هم الفائزون) بالنسبة إلى درجة الفريق الثانى أو إلى الفوز المطلق ادعاء كما مر والله أعلم.

﴿ يبشرهم ﴾ وقرىء بالتخفيف ﴿ ربهم برحمة ﴾ عظيمة ﴿ منه ورضوان ﴾ كبير ﴿ وجنات ﴾ عالية ﴿ لهم فيها ﴾ فى تلك الجنات ﴿ نعيم مقيم ﴾ نعم لا نفاد لها وفى التعرض لعنوان الربوبية تأكيد للمبشر به وتربية له ﴿ خالدين فيها ﴾ أى فى الجنات ﴿ أبدا ﴾ تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد به إذ قد يراد به المكث الطويل ﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ لا قدر عنده لأجور الدنيا أو للأعمال التى فى مقابلته والجملة استئناف وقع تعليلا لما سبق ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء ﴾ نهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجبة لانقسام الآحاد إلى الآحاد كما فى قوله عز وجل (وما للظالمين من أنصار) لا عن موالاة طائفة منهم فإن ذلك مفهوم من النظم دلالة لا عبارة والآية نزلت فى المهاجرين فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا وبقينا ضائعين فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ثم رخص لهم فى ذلك وقيل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا

بمكة نهيا عن موالاتهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحب فى الله أبعد الناس منه ويبغض فى الله أقرب الناس إليه ﴿إن استحبوا الكفر﴾ أى اختاروه ﴿على الإيمان﴾ وأصروا عليه إصرارا لا يرجى معه الإقلاع عنه أصلا وتعليق النهى عن الموالاة بذلك لما أنها قبل ذلك ربما تؤدى بهم إلى الإسلام بسبب شعورهم بمحاسن الدين ﴿ ومن يتولهم ﴾ أى واحدا منهم كما أشير إليه وإفراد الضمير فى الفعل لمراعاة لفظ الموصول وللإيذان باستقلال كل واحد منهم فى الاتصاف بالظلم لا أن المراد تولى فرد واحد وكلمة من فى قوله تعالى ﴿منكم﴾ للجنس لا للتبعيض ﴿فأولئك﴾ أى أولئك المتولون ﴿ هم الظالمون ﴾ بوضعهم الموالاة فى غير موضعها كأن ظلم غيرهم كلا ظلم عند ظلمهم .

﴿ قل ﴾ تلوين للخطاب وأمر له عليه الصلاة والسلام بأن يثبت المؤمنين ويقوى عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه من موالاة الآباء والإخوان ويزهدهم فيهم وفيمن يجرى مجراهم من الأبناء والأزواج ويقطع علائقهم عن زخارف الدنيا وزينتها على وجه التوبيخ والترهيب ﴿إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم﴾ لم يذكر الأبناء والأزواج فيما سلف لأن موالاة الأبناء والأزواج غير معتادة بخلاف المحبة ﴿وعشيرتكم﴾ أى أقرباؤكم مأخوذ من العشرة أى الصحبة وقيل من العشرة فإنهم جماعة ترجع إلى عقد كعقد العشرة وقرىء عشيراتكم وعشائركم ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أى اكتسبتموها وإنما وصفت بذلك إيماء إلى عزتها عندهم لحصولها بكد اليمين ﴿وتجارة﴾ أى أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح ﴿تخشون كسادها﴾ بفوات وقت رواجها بغيبتكم عن مكة المعظمة فى أيام الموسم ﴿ومساكن ترضونها﴾ أى منازل تعجبكم الإقامة فيها من الدور والبساتين والتعرض للصفات المذكورة للإيذان بأن اللوم على محبة ماذكر من زينة الحياة الدنيا ليس لتناسى ما فيها من مبادى المحبة وموجبات الرغبة فيها وأنها مع ما لها من فنون المحاسن بمعزل عن أن يؤثر حبها على حبه تعالى وحب رسوله عليه الصلاة والسلام كما فى قوله عز وجل (ماغرك بربك الكريم) ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله ﴾ بالحب

الاختيارى المستتبع لأثره الذى هو الملازمة وعدم المفارقة لا الحب الجبلى الذى لا يخلو عنه البشر فإنه غير داخل تحت التكليف الدائر على الطاقة .

﴿ وجهاد فى سبيله ﴾ نظم حبه فى سلك حب الله عز وجل وحب رسوله صلى الله عليه وسلم تنويها لشأنه وتنبيها على أنه مما يجب أن يحب فضلا عن أن يكره وإيذانا بأن محبته راجعة إلى محبتهما فإن الجهاد عبارة عن قتال أعدائهما لأجل عداوتهم فمن يحبهما يجب أن يحب قتال من لا يحبهما ﴿ فتربصوا ﴾ أى انتظروا ﴿ حتى يأتى الله بأمره ﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه فتح مكة وقيل هى عقوبة عاجلة أو آجلة ﴿ والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ الخارجين عن الطاعة فى موالاة المشركين أو القوم الفاسقين كافة فيدخل فى زمرتهم هؤلاء دخولا أوليا أى لايرشدهم إلى ماهو خير لهم وفى الآية الكريمة من الوعيد مالا يكاد يتخلص منه إلا من تداركه لطف من ربه والله المستعان .

﴿ لقد نصركم الله ﴾ الخطاب للمؤمنين خاصة ﴿ فى مواطن كثيرة ﴾ من الحروب وهى مواقعها ومقاماتها والمراد بها وقعات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة ﴿ ويوم حنين ﴾ عطف على محل فى مواطن بحذف المضاف فى أحدهما أى وموطن يوم حنين أو فى أيام مواطن كثيرة ويوم حنين ولعل التغيير للإيماء إلى ماوقع فيه من قلة الثبات من أول الأمر وقيل المراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين وقيل يوم حنين منصوب بمضمر معطوف على نصركم أى ونصركم يوم حنين .

﴿ إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ بدل من يوم حنين ولا منع فيه من عطفه على محل الظرف بناء على أنه لم يكن فى المعطوف عليه كثرة ولا إعجاب إذ ليس من قضية العطف مشاركة المعطوفين فيما أضيف إليه المعطوف أو منصوب بإضمار اذكر وحنين واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة[1] بين المسلمين وهم اثنا

---

(١) فى ١٠ : الموقعة .

عشر ألفا عشرة آلاف منهم ممن شهد فتح مكة من المهاجرين والأنصار وألفان من الطلقاء وبين هوازن وثقيف وكانوا أربعة آلاف فيمن ضامهم من أمداد سائر العرب وكانوا الجم الغفير فلما التقوا قال رجل من المسلمين اسمه سلمة بن سلامة الأنصارى لن نغلب اليوم من قلة فساءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا الذرارى فأكب المسلمون على الغنائم فتنادى المشركون ياحماة السوء اذكروا الفضائح فتراجعوا فأدركت المسلمين كلمة الإعجاب فانكشفوا وذلك قوله عز وجل ﴿ فلم تغن عنكم شيئا ﴾ والإغناء إعطاء مايدفع به الحاجة أى لم تعطكم تلك الكثرة ماتدفعون به حاجتكم شيئاً من الإغناء ﴿ وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ﴾ أى برحبها وسعتها على أن ما مصدرية والباء بمعنى مع أى لاتجدون فيها مفرا تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب ولا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكان ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ روى أنه بلغ فلهم مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ليس معه إلا عمه العباس آخذا بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن الحرث آخذا بركابه وهو يركض البغلة نحو المشركين وهو يقول أنا النبى لا كذب أنا ابن عبدالمطلب روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يحمل على الكفار فيفرون ثم يحملون عليه فيقف لهم فعل ذلك بضع عشرة مرة قال العباس كنت أكف البغلة لئلا تسرع به نحو المشركين وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق على أنه عليه الصلاة والسلام كان فى الشجاعة ورباطة الجأش سباقا للغايات القاصية وما كان ذلك إلا لكونه مؤيدا من عند الله العزيز الحكيم فعند ذلك قال يارب ائتنى بما وعدتنى وقال للعباس وكان صيتا صح بالناس فنادى الأنصار فخذا فخذا ثم نادى يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فكروا عنقا واحدا وهم يقولون لبيك لبيك وذلك قوله تعالى :

﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله ﴾ أى رحمته التى تسكن بها القلوب وتطمئن إليها اطمئنانا كليا مستتبعا للنصر القريب وأما مطلق السكينة فقد كانت

حاصلة له عليه الصلاة والسلام قبل ذلك أيضا ﴿ وعلى المؤمنين ﴾ عطف على رسوله وتوسيط الجار بينهما للدلالة على ما بينهما من التفاوت أى المؤمنين الذين انهزموا وقيل على الذين ثبتوا مع النبى صلى الله عليه وسلم أو على الكل وهو الأنسب ولا ضير فى تحقيق أصل السكينة فى الثابتين من قبل والتعرض لوصف الإيمان للإشعار بعلية الانزال ﴿ وأنزل جنوداً لم تروها ﴾ أى بأبصاركم كما يرى بعضكم بعضا وهم الملائكة عليهم السلام عليهم البياض على خيول بلق فنظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى قتال المسلمين فقال هكذا حين حمى الوطيس فأخذ كفا من التراب فرمى به نحو المشركين وقال شاهت الوجوه فلم يبق منهم أحداً إلا امتلأت به عيناه ثم قال عليه الصلاة والسلام انهزموا ورب الكعبة واختلفوا فى عدد الملائكة يومئذ فقيل خمسة آلاف وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفا وفى قتالهم أيضا فقيل قاتلوا وقيل لم يقاتلوا إلا يوم بدر وإنما كان نزولهم لتقوية قلوب المؤمنين بإلقاء الخواطر الحسنة وتأييدهم بذلك وإلقاء الرعب فى قلوب المشركين . قال سعيد بن المسيب حدثنى رجل كان فى المشركين يوم حنين قال لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم فلما انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء[1] تلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا ﴿ وعذب الذين كفروا ﴾ بالقتل والأسر والسبى .

﴿ وذلك ﴾ أى مافعل بهم مما ذكر ﴿ جزاء الكافرين ﴾ لكفرهم فى الدنيا ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ﴾ أن يتوب عليه منهم لحكمة تقتضيه أى يوفقه للإسلام ﴿ والله غفور ﴾ يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصى ﴿ رحيم ﴾ يتفضل عليهم ويثيبهم روى أن ناسا منهم جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الإسلام وقالوا يارسول الله أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا . قيل سبى يومئذ ستة آلاف نفس

(١) هو النبى صلى الله عليه وسلم .

وأخذ من الإبل والغنم مالا يحصى فقال عليه الصلاة والسلام إن عندى ما ترون. إن خير القول أصدقه اختاروا إما ذراريكم ونساءكم وإما أموالكم قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً فقام النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن هؤلاء جاءونا مسلمين وإنا خيرناهم بين الذرارى والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً فمن كان بيده سبى وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه قالوا قد رضينا وسلمنا فقال عليه الصلاة والسلام إنا لا ندرى لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ﴾ وصفوا بالمصدر مبالغة كأنهم عين النجاسة أوهم ذوو نجس لخبث باطنهم أو لأن معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس أو لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم . عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن من صافح مشركا توضأ وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين وقرىء نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف نجس ككبد فى كبد كأنه قيل إنما المشركون جنس نجس أو ضرب نجس وأكثر ما جاء تابعا لرجس ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام ﴾ تفريع على نجاستهم وإنما نهى عن القرب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم وهو مذهب عطاء وقيل المراد به النهى عن الدخول مطلقا وقيل المراد المنع عن الحج والعمرة وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله تعالى ويؤيده قوله عز وجل ﴿ بعد عامهم هذا ﴾ فإن تقييد النهى بذلك يدل على اختصاص المنهى عنه بوقت من أوقات العام أى لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة حين أمر أبو بكر رضى الله عنه على الموسم ويدل عليه قول على رضى الله عنه حين نادى ببراءة : ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عنده وعند الشافعى يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون من جميع المساجد ونهى المشركين أن يقربوه راجع

إلى نهى المسلمين عن تمكينهم من ذلك وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك.

﴿ وإن خفتم عيلة ﴾ أى فقرا بسبب منعهم من الحج وانقطاع ما كانوا يجلبونه إليكم من الإرفاق والمكاسب وقرىء عائلة على أنها مصدر كالعافية أو حالا عائلة ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ من عطائه أو من تفضله بوجه آخر فأرسل الله تعالى السماء عليهم مدرارا أغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض ﴿ إن شاء ﴾ أن يغنيكم مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها وإنما قيد ذلك بها لتنقطع الآمال إلى الله تعالى ولأن الإغناء ليس مطردا بحسب الأفراد والأحوال والأوقات ﴿ إن الله عليم ﴾ بمصالحكم ﴿ حكيم ﴾ فيما يعطى ويمنع ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ أمرهم بقتال أهل الكتابين إثر أمرهم بقتال المشركين وبمنعهم من أن يحوموا حول ما كانوا يفعلونه من الحج والعمرة غير خائفين من الفاقة المتوهمة من انقطاعهم ونبههم فى تضاعيف ذلك على بعض طرق الإغناء الموعود على الوجه الكلى وأرشدهم إلى سلوكه ابتغاء لفضله واستنجازا لوعده والتعبير عنهم بالموصول للإيذان بعلية ما فى حيز الصلة للأمر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك فى سلك المشركين فإن اليهود مثنية والنصارى مثلثة فهم بمعزل من أن يؤمنوا بالله سبحانه ولا باليوم الآخر فإن علمهم بأحوال الآخرة كلا علم فإيمانهم المبنى عليه ليس بإيمان به ﴿ ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ﴾ أى ما ثبت تحريمه بالوحى متلوا أو غير متلو وقيل المراد برسوله الرسول الذى يزعمون اتباعه أى يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقادا وعملا ﴿ ولا يدينون دين الحق ﴾ الثابت الذى هو ناسخ لسائر الأديان[1] وهو دين الإسلام وقيل دين الله ﴿ من الذين أوتوا الكتاب ﴾ من

---

(١) فى ١١ : لسائر الشرائع ، وهو الأصح

التوراة والإنجيل فمن بيانية لا تبعيضية حتى يكون بعضهم على خلاف ما نعت ﴿ حتى يعطوا ﴾ أى يقبلوا أن يعطوا ﴿ الجزية ﴾ أى ماتقرر عليهم أن يعطوه مشتق من جزى دينه أى قضاه أو لأنهم يجزون بها من من عليهم بالإعفاء عن القتل ﴿ عن يد ﴾ حال من الضمير فى يعطوا أى عن يد مؤاتية مطيعة بمعنى منقادين أو من يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدى غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه أو عن غنى ولذلك لم تجب الجزية على الفقير العاجز أو عن يد قاهرة عليهم أى بسبب يد بمعنى عاجزين أذلاء أو عن إنعام عليهم فإن إبقاء مهجتهم بما بذلوا من الجزية نعمة عظيمة عليهم أو من الجزية أى نقدا مسلمة عن يد إلى يد وغاية القتال ليست نفس هذا الإعطاء بل قبوله كما أشير إليه ﴿ وهم صاغرون ﴾ أى أذلاء وذلك بأن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ويؤخذ بتلبيبه ويقال له أد الجزية وإن كان يؤديها وهى تؤخذ عند أبى حنيفة رضى الله عنه من أهل الكتاب مطلقا ومن مشركى العجم لا من مشركى العرب وعند أبى يوسف رضى الله عنه لا تؤخذ من الأعجمى كتابيا كان أو مشركا وعند الشافعى رضى الله عنه تؤخذ من أهل الكتاب عربيا أو عجميا ولا تؤخذ من أهل الأوثان مطلقا وذهب مالك والأوزاعى إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار وأما المجوس فقد اتفقت الصحابة رضى الله عنهم على أخذ الجزية منهم لقوله عليه الصلاة والسلام سنوا بهم سنة أهل الكتاب وروى عن على رضى الله عنه أنه كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبيحتهم ومناكحتهم لقوله عليه الصلاة والسلام فى آخر مانقل من الحديث غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبيحتهم ووقت الأخذ عند أبى حنيفة رضى الله عنه أول السنة وتسقط بالموت والإسلام ومقدارها على الفقير المعتمل اثنا عشر درهما وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهما وعلى الغنى ثمانية وأربعون درهما ولا جزية على فقير عاجز عن الكسب ولا على شيخ فان أو زمن أو صبى أو امرأة وعند الشافعى رضى الله عنه تؤخذ فى آخر فى السنة من كل واحد دينار غنيا كان أو فقيرا كان له كسب أن لم يكن .

عدم إيمان أهل الكتاب

﴿وقالت اليهود﴾ جملة مبتدأة سيقت لتقرير ما من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه وانتظامهم بذلك فى سلك المشركين ﴿عزير ابن الله﴾ مبتدأ وخبر. وقرىء بغير تنوين على أنه اسم أعجمى كعازر وعزار غير منصرف للعجمة والتعريف وإما تعليله بالتقاء الساكنين أو بجعل الابن وصفا على أن الخبر محذوف فتعسف مستغنى عنه قيل هو قول قدمائهم ثم انقطع فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولا عبرة بإنكار اليهود وقيل قول بعض ممن كان بالمدينة . عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس منهم وهم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك وقيل قاله فنحاص بن عازوراء وهو الذى قال إن الله فقير ونحن أغنياء وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله تعالى عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم فخرج عزير وهو غلام يسيح فى الأرض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له أين تذهب قال أطلب العلم فحفظه التوراة فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفا فقالوا ما جمع الله التوراة فى صدره وهو غلام إلا أنه ابنه قال الإمام الكلبى لما قتل بخت نصر علماءهم جميعا وكان عزير إذ ذاك صغيرا فاستصغره ولم يقتله فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى عزيراً ليجدد لهم التوراة ويكون آية بعد ما أماته مائة عام يقال إنه أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت فى صدره فلما أتاهم فقال لهم إنى عزير كذبوه فقالوا إن كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة ففعل فقالوا إن الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب رجل إلا لأنه ابنه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فأنساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم ورفع التابوت فتضرع عزير إلى الله تعالى وابتهل إليه فعاد حفظ التوراة إلى قلبه فأنذر قومه به ثم إن التابوت نزل فعرضوا ما تلاه عزير على ما فيه فوجدوه مثله فقالوا ما قالوا .

﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ هو أيضاً قول لبعضهم وإنما قالوه استحالة لأن يكون ولد بغير أب أو لأن يفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن إلها ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمتين وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد درجة المشار إليه فى الشناعة والفظاعة ﴿قولهم بأفواههم﴾ إما تأكيد لنسبة القول المذكور إليهم ونفى التجوز عنها أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الموجود فى الأفواه من غير أن يكون له مصداق فى الخارج ﴿يضاهئون﴾ أى فى الكفر والشناعة وقرىء بغير همز ﴿قول الذين كفروا﴾ أى يشابه قولهم على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه عند انقلابه مرفوعا قول الذين كفروا ﴿من قبل﴾ أى من قبلهم وهم المشركون الذين يقولون الملائكة بنات الله أو اللات والعزى بنات الله لا قدماؤهم كما قيل إذ لا تعدد فى القول حتى يتأتى التشبيه وجعله بين قولى الفريقين مع اتحاد المقول ليس فيه مزيد مزية وقيل الضمير للنصارى أى يضاهى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير الخ لأنهم أقدم منهم وهو أيضاً كما ترى فإنه يستدعى اختصاص الرد والإبطال بقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم بقول النصارى ﴿ قاتلهم الله ﴾ دعاء عليهم جميعا بالإهلاك فإن من قاتله الله هلك أو تعجب من شناعة قولهم ﴿ أنى يؤفكون ﴾ كيف يصرفون من الحق إلى الباطل والحال أنه لا سبيل إليه أصلا .

﴿ اتخذوا ﴾ زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى ﴿ أحبارهم ﴾ وهم علماء اليهود واختلف فى واحده قال الأصمعى لا أدرى أهو حبر أم حبر وقال أبو الهيثم بالفتح لا غير وكان الليث وابن السكيت يقولان حبر وحبر للعالم ذميا كان او مسلما بعد أن كان من أهل الكتاب ﴿ ورهبانهم ﴾ وهم علماء النصارى من أصحاب الصوامع أى اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم لا الكل الكل ﴿أربابا من دون الله﴾ بأن أطاعوهم فى تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرمه أو بالسجود لهم ونحوه تسمية أتباع الشيطان عبادة له فى قوله تعالى (يا أبت لا تعبد الشيطان) وقوله تعالى (بل كانوا يعبدون الجن). قال عدى

ابن حاتم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنق صليب من ذهب وكان إذ ذاك على دين يسمى الركوسية فريق من النصارى وهو يقرأ سورة براءة فقال ياعدى اطرح هذا الوثن فطرحته فلما انتهى إلى قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قلت يارسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه الصلاة والسلام أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه فقلت بلى قال ذلك عبادتهم قال الربيع قلت لأبى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى إسرائيل قال إنهم ربما وجدوا فى كتاب الله تعالى مايخالف أقوال الأحبار فكانوا يأخذون بأقوالهم ويتركون حكم كتاب الله ﴿ والمسيح ابن مريم ﴾ عطف على رهبانهم أى اتخذه النصارى ربا معبودا بعد ما قالوا إنه ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا وتخصيص الاتخاذ به يشير إلى أن اليهود مافعلوا ذلك بعزير وتأخيره فى الذكر مع أن اتخاذهم له عليه الصلاة والسلام ربا معبودا أقوى من مجرد الإطاعة فى أمر التحليل والتحريم كما هو المراد باتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا لأنه مختص بالنصارى ونسبته عليه الصلاة والسلام إلى أمه من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية للإيذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة .

﴿ وما أمروا ﴾ أى والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا فى كتابهم ﴿ إلا ليعبدوا إلها واحدا ﴾ عظيم الشأن هو الله سبحانه وتعالى ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه فإن ذلك مخل بعبادته تعالى فإن جميع الكتب السماوية متفقة على ذلك قاطبة وقد قال المسيح عليه السلام إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وأما إطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر من أمر الله تعالى بطاعته فهى فى الحقيقة إطاعة(١) لله عز وجل أو وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أربابا من المسيح والأحبار والرهبان إلا ليوحدوا الله تعالى فكيف يصح أن يكونوا أربابا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم ولا يقدح فى

(١) فى ١٠ : طاعة .

ذلك كون ربوبية الأحبار والرهبان بطريق الإطاعة فإن تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق إلا بتخصيص الطاعة أيضاً به تعالى وحيث لم يخصوها به تعالى لم يخصوا العبادة به سبحانه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ صفة ثانية لإلها أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿ سبحانه عما يشركون ﴾ عن الإشراك به فى العبادة والطاعة ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله ﴾ إطفاء النار عبارة عن إزالة لهبها الموجبة لزوال نورها لا عن إزالة نورها كما قيل لكن لما كان الغرض من إطفاء نار لا يراد بها إلا النور كالمصباح إزالة نورها جعل إطفاؤها عبارة عنها ثم شاع ذلك حتى كان عبارة عن مطلق إزالة النور وإن كان لغير النار والسر فى ذلك انحصار إمكان الإزالة فى نورها والمراد بنور الله سبحانه إما حججه النيرة الدالة على وحدانيته وتنزهه عن الشركاء والأولاد أو القرآن العظيم الناطق بذلك أى يريد أهل الكتابين أن يردوا القرآن ويكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والأولاد والشرائع التى من جملتها ما خالفوه من أمر الحل والحرمة ﴿ بأفواههم ﴾ بأقاويلهم الباطلة الخارجة منها من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه أو أصل تستند إليه حسبما حكى عنهم وقيل المراد به نبوة النبى صلى الله عليه وسلم هذا وقد قيل مثلت حالهم فيما ذكر بحال من يريد طمس نور عظيم منبث فى الآفاق بنفخة ﴿ ويأبى الله ﴾ أى لا يريد ﴿ إلا أن يتم نوره ﴾ بإعلاء كلمة التوحيد وإعزاز دين الإسلام وإنما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفى كما أشير إليه لوقوعه فى مقابلة قوله تعالى (يريدون) وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس فى نفى الإرادة أى لا يريد شيئاً من الأشياء إلا إتمام نوره فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلا عن الإطفاء وفى إظهار النور فى مقام الإضمار مضافا إلى ضميره عز وجل زيادة اعتناء بشأنه وتشريف له على تشريف وإشعار بعلة الحكم ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة قبلها مقدرة وكلتاهما فى موقع الحال أى لا يريد الله إلا إتمام نوره لو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوه أى على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى

فى الباب حذفا مطرداً لدلاله الثانية عليها دلالة واضحة لأن الشيء إذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذا السر يدور ما فى أن ولو الوصليتين من التأكيد وقد مر زيادة تحقيق لهذا مرارا .

﴿ هو الذى أرسل رسوله ﴾ ملتبسا ﴿ بالهدى ﴾ أى القرآن الذى هو هدى للمتقين ﴿ ودين الحق ﴾ الثابت وهو دين الإسلام ﴿ ليظهره ﴾ أى رسوله ﴿ على الدين كله ﴾ أى على أهل الأديان كلهم أو ليظهر الدين الحق على سائر الأديان بنسخه إياها حسبما تقتضيه الحكمة والجملة بيان وتقرير لمضمون الجملة السابقة والكلام فى قوله عز وجل ﴿ ولو كره المشركون ﴾ كما فيما سبق خلا أن وصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الكفر بالله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ شروع فى بيان حال الأحبار والرهبان فى إغوائهم لأراذلهم إثر بيان سوء حال الأتباع فى اتخاذهم (لهم)[1] أربابا يطيعونهم فى الأوامر والنواهى واتباعهم لهم فيما يأتون وما يذرون ﴿ إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ﴾ يأخذونها بطريق الرشوة لتغيير الأحكام والشرائع والتخفيف والمسامحة فيها وإنما عبر عن ذلك بالأكل بناء على أنه معظم الغرض منه وتقبيحا لحالهم وتنفيراً للسامعين عنهم ﴿ ويصدون ﴾ الناس ﴿ عن سبيل الله ﴾ عن دين الإسلام أو عن المسلك المقرر فى التوراة والإنجيل إلى ما افتروه وحرفوه بأخذ الرشا ويصدون عنه بأنفسهم بأكلهم الأموال بالباطل ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾ أى يجمعونهما ويحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن أو بوجه آخر والموصول عبارة إما عن الكثير من الأحبار والرهبان فيكون مبالغة فى الوصف بالحرص والضن بهما بعد وصفهم بما سبق من أخذ الرشا والبراطيل فى الأباطيل وإما عن المسلمين الكانزين غير المنفقين وهو الأنسب بقوله عز وجل ﴿ ولا ينفقونها فى سبيل الله ﴾ فيكون نظمهم فى قرن المرتشين من أهل الكتاب تغليظا ودلالة على كونهم

---

(١) سقطت من ٤٣٠ .

أسوة لهم فى استحقاق البشارة بالعذاب الأليم فالمراد بالإنفاق فى سبيل الله الزكاة لما روى أنه لما نزل كبر ذلك على المسلمين فذكر عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن الله تعالى لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ولقوله عليه الصلاة والسلام ما أدى زكاته فليس بكنز أى بكنز أوعد عليه فإن الوعيد عليه مع عدم الإنفاق فيما أمر الله بالإنفاق فيه وأما قوله عليه الصلاة والسلام من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها ونحوه فالمراد بها ما لم يؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ خبر للموصول والفاء لتضمنه معنى الشرط ويجوز أن يكون الموصول منصوبا بفعل يفسره فبشرهم ﴿ يوم ﴾ منصوب بعذاب أليم أو بمضمر يدل عليه ذلك أى يعذبون أو باذكر ﴿ يحمى عليها فى نار جهنم ﴾ أى يوم توقد النار ذات حمى شديد عليها وأصله تحمى النار فجعل الإحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيها على المقصود فانتقل من صيغة التأنيث إلى التذكير كما تقول رفعت القصة إلى الأمير فإن طرحت القصة قلت رفع إلى الأمير وإنما قيل عليها والمذكور شيآن لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال على رضى الله عنه أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز وكذا الكلام فى قوله تعالى (ولا ينفقونها) وقيل الضمير للأموال والكنوز فإن الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لأنهما قانون التمول أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب كذلك بل أولى ﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ لأن جمعهم لها وإمساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية أو لأنهم ازوروا عن السائل وأعرضوا عنه وولوه ظهورهم أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسية التى هى الدماغ والقلب والكبد أو لأنها أصول الجهات الأربعة التى هى مقاديم البدن ومآخره وجنباه ﴿ هذا ما كنزتم ﴾ على إرادة

القول ﴿ لأنفسكم ﴾ لمنفعتها فكان عين مضرتها وسبب تعذيبها ﴿ فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ أى وبال كنزكم أو ما تكنزونه وقرىء بضم النون .

﴿ إن عدة الشهور ﴾ أى عددها ﴿ عند الله ﴾ أى فى حكمه وهو معمول لها لأنها مصدر ﴿ اثنا عشر ﴾ خبر لأن ﴿ شهرا ﴾ تمييز مؤكد كما فى قولك عندى من الدنانير عشرون دينارا والمراد الشهور القمرية إذ عليها يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿ فى كتاب الله ﴾ فى اللوح المحفوظ أو فيما أثبته وأوجبه وهو صفة اثناعشر أى اثناعشر شهرا مثبتا فى كتاب الله وقوله عز وجل ﴿ يوم خلق السموات والأرض ﴾ متعلق بما فى الجار والمجرور من معنى الاستقرار أو بالكتاب على أنه مصدر والمعنى إن هذا أمر ثابت فى نفس الأمر منذ خلق الله تعالى الأجرام والحركات والأزمنة ﴿ منها ﴾ أى من تلك الشهور الإثنى عشر ﴿ أربعة حرم ﴾ هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان والمعنى رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه من الحل والحرمة وعاد الحج إلى ذى الحجة بعد ما كانوا أزالوه عن محله بالنسىء الذى أحدثوه فى الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة ﴿ ذلك ﴾ أى تحريم الأشهر الأربعة المعينة المعدودة وما فى ذلك من معنى البعد لتفخيم المشار إليه هو ﴿ الدين القيم ﴾ المستقيم دين إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويكرهون القتال فيها حتى أنه لو لقى رجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه وسموا رجبا الأصم ومنصل الأسنة حتى أحدثوا النسىء فغيروا ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ بهتك حرمتهن وارتكاب ماحرم فيهن والجمهور على أن حرمة القتال فيهن منسوخة وأن الظلم ارتكاب المعاصى فيهن فإنه أعظم وزرا كارتكابها فى الحرم وعن عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم

إلا أن يقاتلوا وما نسخت ويؤيد الأول أنه عليه الصلاة والسلام حصر طائفا وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة .

﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ أى جميعا وهو مصدر كف عن الشىء فإن الجميع مكفوف عن الزيادة وقع موقع الحال ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أى معكم بالنصر والإمداد فيما تباشرونه من القتال وإنما وضع المظهر موضعه مدحا لهم بالتقوى وحثا للقاصرين عليه وإيذانا بأنه المدار فى النصر وقيل هى بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم .

﴿ إنما النسىء ﴾ هو مصدر نسأه إذا أخره نسأ ونساء ونسيئا نحو مس مسا ومساسا ومسيسا وقرىء بهن جميعا وقرى بقلب الهمزة ياء وتشديد الياء الأولى فيها كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر حتى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حرما ولذلك نص على العدد المعين فى الكتاب والسنة أى إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر ﴿ زيادة فى الكفر ﴾ لأنه تحليل ما حرمه الله وتحريم ما حلله فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم ﴿ يضل به الذين كفروا ﴾ ضلالا على ضلالهم القديم وقرىء على البناء للفاعل من الأفعال على أن الفعل لله سبحانه أى يخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه وهو المعنى على القراءة الأولى أيضاً وقيل المضلون حينئذ رؤساؤهم والموصول عبارة عن أتباعهم وقرىء يضل بفتح الياء والضاد من ضلل ونضل بنون العظمة ﴿ يحلونه ﴾ أى الشهر المؤخر ﴿ عاما ﴾ من الأعوام ويحرمون مكانه شهرا آخر مما ليس بحرام ﴿ ويحرمونه ﴾ أى يحافظون على حرمته كما كانت والتعبير عن ذلك بالتحريم باعتبار إحلالهم له فى العام الماضى أو لإسنادهم له إلى آلهتهم كما سيجىء ﴿ عاما ﴾ آخر إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم قال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان إذا هم الناس بالصدر من الموسم يقوم فيخطب ويقول لا مرد لما قضيت وأنا الذى لا أعاب ولا أجاب فيقول

له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول إن صفر العام حرام فإذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة وإن قال حلال عقدوا الأوتار وشدوا الأزجة وأغاروا وقيل هو جنادة بن عوف الكنانى وكان مطاعا فى الجاهلية كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى بأعلى صوته إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ثم يقوم فى العام القابل فيقول إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه وقيل هو رجل من كنانة يقال له القلمس. قال قائلهم :

ومنا ناسيء الشهر القلمس

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أول من سن النسيء عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف. والجملتان تفسير للضلال أو حال من الموصول والعامل عامله ﴿ ليواطئوا ﴾ أى ليوافقوا ﴿ عدة ما حرم الله ﴾ من الأشهر الأربعة واللام متعلقة بالفعل الثانى. أو بما يدل عليه مجموع الفعلين ﴿ فيحلوا ما حرم الله ﴾ بخصوصه من الأشهر المعينة ﴿ زين لهم سوء أعمالهم ﴾ وقرىء على البناء للفاعل وهو الله سبحانه والمعنى جعل أعمالهم مشتهاة للطبع محبوبة للنفس وقيل خذلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا فاستمروا على ذلك ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ هداية موصلة إلى المطلوب البتة وإنما يهديهم إلى ما يوصل إليه عند سلوكه وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم فتاهوا فى تيه الضلال.

عود إلى التحريض على القتال

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ رجوع إلى حث المؤمنين وتجريد عزائمهم على قتال الكفرة إثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك ﴿ ما لكم ﴾ استفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ ﴿ إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم ﴾

---

(١) جمع زج وهو السنان

تباطأتم وتقاعستم أصله تثاقلتم وقد قرىء كذلك أى أى شىء حصل أو حاصل لكم أو ما تصنعون حين قال لكم النبى صلى الله عليه وسلم انفروا أى اخرجوا إلى الغزو فى سبيل الله متثاقلين على أن الفعل ماض لفظاً مضارع معنى كأنه قيل تتثاقلون فالعامل فى الظرف الاستقرار المقدر فى لكم أو معنى الفعل المدلول عليه بذلك ويجوز أن يعمل فيه الحال أى مالكم متثاقلين حين قيل لكم انفروا وقرىء أثاقلتم على الاستفهام الإنكارى التوبيخى فالعامل فى الظرف حينئذ إنما هو الأول ﴿إلى الأرض﴾ متعلق باثاقلتم على تضمينه معنى الميل والإخلاد أى اثاقلتم مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل وكرهتم مشاق الغزو ومتاعبه المستتبعة للراحة الخالدة كقوله تعالى (أخلد إلى الأرض واتبع هواه) أو إلى الإقامة بأرضكم ودياركم وكان ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا فى وقت عسرة وقحط وقيظ وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ماخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها إلا ورى بغيرها إلا فى غزوة تبوك فإنه عليه الصلاة والسلام بين لهم المقصد فيها ليستعدوا لها ﴿أرضيتم بالحيوة الدنيا﴾ وغرورها ﴿من الآخرة﴾ أى بدل الآخرة ونعيمها الدائم ﴿فما متاع الحيوة الدنيا﴾ أظهر فى مقام الإضمار لزيادة التقرير أى فما التمتع بها وبلذائذها ﴿فى الآخرة﴾ أى فى جنب الآخرة ﴿إلا قليل﴾ أى مستحقر لا يؤبه له وفى ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ويستدعى الرغبة فيها وتجريد الآخرة عن مثل ذلك مبالغة فى بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة وعلوها ﴿إلا تنفروا﴾ أى إن لا تنفروا إلى ما استنفرتم إليه ﴿يعذبكم﴾ أى الله عز وجل ﴿عذاباً أليما﴾ أى يهلككم بسبب فظيع هائل كقحط ونحوه ﴿ويستبدل﴾ بكم بعد إهلاككم ﴿قوما غيركم﴾ وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد فى التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال أى قوما مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا ليسوا من أولادكم ولا أرحامكم كأهل اليمن وأبناء فارس وفيه من الدلالة على شدة السخط مالا يخفى

﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ أى لا يقدح تثاقلكم فى نصرة دينه أصلا فإنه الغنى عن كل شىء فى كل شىء وقيل الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم فإن الله عزوجل وعده بالعصمة والنصرة وكان وعده مفعولا لا محالة ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ فيقدر على إهلاككم والإتيان بقوم آخرين .

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ أى إن لم تنصروه فسينصره الله الذى قد نصره فى وقت ضرورة أشد من هذه المرة فحذف الجزاء وأقيم سببه مقامه أو إن لم تنصروه فقد أوجب له النصرة حتى نصره فى مثل ذلك الوقت فلن يخذله فى غيره ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ﴾ أى تسببوا لخروجه حيث أذن له عليه الصلاة والسلام فى ذلك حين هموا بإخراجه ﴿ ثانى اثنين ﴾ حال من ضميره عليه الصلاة والسلام وقرىء بسكون الياء على لغة من يجرى الناقص مجرى المقصور فى الإعراب أى أحد اثنين من غير اعتبار كونه عليه الصلاة والسلام ثانيا فإن معنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور أن ينصب ما بعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة وقد مر فى قوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) من سورة المائدة وجعله عليه الصلاة والسلام ثانيهما لمشى الصديق أمامه ودخوله فى الغار أولا لكنسه وتسوية البساط (له[1]) كما ذكر فى الأخبار بمحل مستغنى عنه ﴿ إذ هما فى الغار ﴾ بدل من إذ أخرجه بدل البعض إذ المراد به زمان متسع والغار ثقب فى أعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثا .

﴿ إذ يقول ﴾ بدل ثان أو ظرف لثانى ﴿ لصاحبه ﴾ أى الصديق ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ بالعون والعصمة والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لا تحوم حول صاحبها شائبة شىء من الحزن وماهو المشهور من اختصاص مع بالمتبوع فالمراد بما فيه من المتبوعية فى الأمر المباشر روى أن المشركين طلعوا

---

(١) ساقطة من ط .

فوق الغار فأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن نصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه الصلاة والسلام ما ظنك باثنين الله ثالثهما وقيل لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله تعالى أبصارهم عنه وفيه من الدلالة على علو طبقة الصديق رضى الله عنه وسابقة صحبته ما لا يخفى ولذلك قالوا من أنكر صحبة أبى بكر رضى الله عنه فقد كفر لإنكاره كلام الله سبحانه وتعالى ﴿ فأنزل الله سكينته ﴾ أمنته التى تسكن عندها القلوب ﴿ عليه ﴾ على النبى صلى الله عليه وسلم فالمراد بها ما لا يحوم حوله شائبة الخوف أصلا أو على صاحبه إذ هو المنزعج وأما النبى صلى الله عليه وسلم فكان على طمأنينة من أمره ﴿ وأيده بجنود لم تروها ﴾ عطف على نصره الله والجنود هم الملائكة النازلون يوم بدر والأحزاب وحنين وقيل هم الملائكة أنزلهم الله ليحرسوه فى الغار ويأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم وقوله عز وعلا ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ﴾ يعنى الشرك أو دعوة الكفر فإن ذلك الجعل لا يتحقق بمجرد الإنجاء بل بالقتل والأسر ونحو ذلك ﴿ وكلمة الله ﴾ أى التوحيد أو دعوة الإسلام ﴿ هى العليا ﴾ لا يدانيها شىء وتغيير الأسلوب للدلالة على أنها فى نفسها كذلك لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها دون غيرها من الكلم ولذلك وسط ضمير الفصل وقرىء بالنصب عطفاً على كلمة الذين ﴿ والله عزيز ﴾ لا يغالب ﴿ حكيم ﴾ فى حكمه وتدبيره .

﴿ انفروا ﴾ تجريد للأمر بالنفور بعد التوبيخ على تركه الإنكار على المساهلة فيه وقوله تعالى ﴿ خفافا وثقالا ﴾ حالان من ضمير المخاطبين أى على أى حال كان من يسر وعسر حاصلين بأى سبب كان من الصحة والمرض أو الغنى والفقر وقلة العيال وكثرتهم أوغير ذلك مما ينتظمه مساعدة الأسباب وعدمها بعد الإمكان والقدرة فى الجملة وما ذكر فى تفسيرهما من قولهم خفافا لقلة عيالكم وثقالا لكثرتها أو خفافا من السلاح وثقالا منه أو ركبانا ومشاة أو شبانا

وشيوخا أو مهازيل وسمانا أو صحاحا ومراضا ليس لتخصيص الأمرين المتقابلين بالإرادة من غير مقارنة للباقي وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلي أن أنفر قال عليه الصلاة والسلام نعم حتى نزل ليس على الأعمى حرج . وعن ابن عباس رضي الله عنهما نسخت بقوله عز وجل (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) الآية ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن وبأحدهما عند إمكانه وإعواز الآخر حتى أن من ساعده النفس والمال يجاهد بهما ومن ساعده المال دون النفس يغزي مكانه من حاله على عكس حاله إلى هذا ذهب كثير من العلماء وقيل هو إيجاب للقسم الأول فقط ﴿ ذلكم ﴾ أي ما ذكر من النفير والجهاد وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الشرف ﴿ خير لكم ﴾ أي خير عظيم في نفسه أو خير مما يبتغى بتركه من الراحة والدعة وسعة العيش والتمتع بالأموال والأولاد ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي تعلمون الخير علمتم أنه خير أو إن كنتم تعلمون أنه خير إذ لا احتمال لغير الصدق في أخبار الله تعالى فبادروا إليه .

﴿ لو كان ﴾ صرف للخطاب عنهم وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعديداً لما صدر عنهم من الهنات قولا وفعلا على طريق المباثة وبيانا لدناءة هممهم وسائر رذائلهم أي لو كان ما دعوا إليه ﴿ عرضاً قريباً ﴾ العرض ما عرض لك من منافع الدنيا أي لو كان ذلك غنما سهل المأخذ قريب المنال ﴿ وسفرا قاصداً ﴾ (ذا قصد[1]) بين القريب والبعيد ﴿ لاتبعوك ﴾ في النفير طمعا في الفوز بالغنيمة وتعليق الاتباع بكلا الأمرين يدل على عدم تحققه عند توسط السفر فقط ﴿ ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ أي المسافة الشاطة[2] التي تقطع بمشقة وقرىء بكسر العين والشين ﴿ وسيحلفون ﴾ أي المتخلفون عن الغزو وقوله تعالى ﴿ بالله ﴾ إما متعلق بيستحلفون أو هو من جملة كلامهم والقول مراد على الوجهين أي سيحلفون بالله اعتذاراً عند قفولك قائلين ﴿ لو استطعنا ﴾

(١) سقطت من ١٠ . (٢) الشاطة : البعيدة .

أو سيحلفون قائلين بالله لو استطعنا الخ أى ولو كان لنا استطاعة من جهة الصحة أو من جهتهما جميعاً حسبما عن لهم من الكذب والتعلل وعلى كلا التقديرين فقوله تعالى ﴿ لخرجنا معكم ﴾ ساد مسد جوابى القسم والشرط جميعاً أما على الثانى فظاهر وأما على الأول فلأن قولهم لو استطعنا فى قوة بالله لو استطعنا لأنه بيان لقوله تعالى (سيحلفون بالله) وتصديق له والإخبار بما سيكون منهم بعد القفول وقد وقع حسبما أخبر به من جملة المعجزات الباهرة وقرىء لو استطعنا بضم الواو تشبيها لها بواو الجمع كما فى قوله عز وجل (فتمنوا الموت) ﴿ يهلكون أنفسهم ﴾ بدل من سيحلفون لأن الحلف الكاذب إهلاك للنفس ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع . أو حال من فاعله أى مهلكين أنفسهم أو من فاعل خرجنا جىء به على طريقة الإخبار عنهم كأنه قيل نهلك أنفسنا أى لخرجنا معكم مهلكين أنفسنا كما فى قولك حلف ليفعلن مكان لأفعلن ﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ أى فى مضمون الشرطية وفيما ادعوا ضمنا من انتفاء تحقق المقدم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا .

﴿ عفا الله عنك ﴾ صريح فى أنه سبحانه وتعالى قد عفا عنه عليه الصلاة والسلام ما وقع منه عند استئذان المتخلفين فى التخلف معتذرين بعدم الاستطاعة وإذنه اعتمادا على أيمانهم ومواثيقهم لخلوها عن المزاحم من ترك الأولى والأفضل الذى هو التأنى والتوقف إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال وقوله عز وجل ﴿ لم أذنت لهم ﴾ أى لأى سبب أذنت لهم فى التخلف حين اعتلوا بعللهم بيان لما أشير إليه بالعفو من ترك الأولى وإشارة إلى أنه ينبغى أن تكون أموره عليه الصلاة والسلام منوطة بأسباب قوية موجبة لها أو مصححة وأن ما أبرزوه فى معرض التعلل والاعتذار مشفوعا بالأيمان كان بمعزل من كونه سببا للإذن قبل ظهور صدقه وكلتا اللامين متعلقة بالإذن لاختلافهما فى المعنى فإن الأولى للتعليل والثانية للتبليغ والضمير المجرور لجميع المستأذنين وتوجه الإنكار إلى الإذن باعتبار شموله للكل لا باعتبار تعلقه بكل فرد فرد لتحقق عدم استطاعة بعضهم كما ينبىء عنه قوله سبحانه ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾

أى فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة من جهة المال أو من جهة البدن أو من جهتهما معاً حسبما عن لهم هناك .

﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ فى ذلك فتعامل كلا من الفريقين بما يستحقه وهو بيان لذلك الأولى والأفضل وتحضيض له عليه الصلاة والسلام عليه فإن كلمة حتى سواء كانت بمعنى اللام أو بمعنى إلى لا يمكن تعلقها بقوله تعالى (لم أذنت) لاستلزامه أن يكون إذنه عليه الصلاة والسلام لهم معللا أو مغيا بالتبين والعلم ويكون توجه الاستفهام إليه من تلك الحيثية وذلك بين الفساد بل بما يدل عليه ذلك كأنه قيل لم سارعت إلى الإذن لهم وهلا تأنيت حتى ينجلى الأمر كما هو قضية الحزم .

قال قتادة وعمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشىء إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسارى فعاتبه الله تعالى كما تسمعون وتغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول الذى صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين وأن ما صدر من الآخرين وإن كان كذبا حادثا متعلقا بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشىء عن رسوخهم فى الكذب والتعبير عن ظهور الصدق بالتبين وعما يتعلق بالكذب بالعلم لما هو المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلى فظهور صدقه إنما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه بعد ما كان محتملا له احتمالا عقليا وأما كذبه فأمر حادث لا دلالة للخبر عليه فى الجملة حتى يكون ظهوره تبينا له بل هو نقيض لمدلوله فما يتعلق به يكون علما مستأنفا وإسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لا إلى المعلومين ببناء الفعل للمفعول مع إسناد التبين إلى الأولين لما أن المقصود ههنا علمه عليه الصلاة والسلام بهم ومؤاخذتهم بموجبه بخلاف الأولين حيث لا مؤاخذة عليهم ومن لم يتنبه لهذا قال حتى يتبين لك من صدق فى عذره ممن كذب فيه وإسناد التبين إلى الأولين وتعليق العلم بالآخرين مع أن

مدار الإسناد والتعلق أو لا وبالذات هو وصف الصدق والكذب كما أشير إليه لما أن المقصد هو العلم بكلا الفريقين باعتبار اتصافهما بوصفهما المذكورين ومعاملتهما بحسب استحقاقهما لا العلم بوصفيهما بذاتيهما أو باعتبار قيامهما بموصوفيهما هذا وفى تصدير فاتحة الخطاب ببشارة العفو دون ما يوهم العتاب من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام وتعهده بحسن المفاوضة ولطف المراجعة ما لا يخفى على أولى الألباب . قال سفيان بن عيينة انظر إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ولقد أخطأ وأساء الأدب وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت هب أنه كناية أليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف فى الخطاب والتخفيف فى العتاب وهب أن العفو مستلزم للخطأ فهل هو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء أويسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتعجب منها ولا يخفى أنه لم يكن فى خروجهم مصلحة للدين أو منفعة للمسلمين بل كان فسادا وخبالا حسبما نطق به قوله عز وجل (لو خرجوا) الخ وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى (ولكن كره الله انبعاثهم) الآية. نعم كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم آثر ذى أثير ويفتضحوا على رؤوس الأشهاد ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام وأرضوه بالأكاذيب على أنه لم يهنأ لهم عيش ولا قرت لهم عين إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان .

من أخلاق المنافقين

﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ تنبيه على أنه كان ينبغى أن يستدل باستئذانهم على حالهم ولا يؤذن لهم أى ليس من عادة المؤمنين أى يستأذنوك فى ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ وإن الخلص منهم يبادرون إليه من غير توقف على الإذن فضلا عن أن يستأذنوك فى التخلف وحيث

استأذنك هؤلاء فى التخلف كان ذلك مئنة للتأنى فى أمرهم بل دليلا على نفاقهم
وقيل المستأذن فيه محذوف ومعنى قوله تعالى (أن يجاهدوا) كراهة أن يجاهدوا ثم
قيل المحذوف هو التخلف والمعنى لا يستأذنك المؤمنون فى التخلف كراهة الجهاد
فيتوجه النفى إلى القيد وبه يمتاز المؤمن من المنافق وهو وإن كان فى نفسه أمرا
خفيا لا يوقف عليه بادىء الأمر لكن عامة أحوالهم لما كانت منبئة عن ذلك
جعل أمرا ظاهراً مقرراً وقيل هو الجهاد أى لا يستأذنك المؤمنون فى الجهاد
كراهة أن يجاهدوا بناء على أن الاستئذان فى الجهاد ربما يكون لكراهته
ولا يخفى أن الاستئذان فى الشىء لكراهته مما لا يقع بل لا يعقل ولو سلم وقوعه
فالاستئذان لعلة الكراهة مما لا يمتاز بحسب الظاهر من الاستئذان لعلة الرغبة
ولو سلم فالذى نفى عن المؤمنين يجب أن يثبت للمنافقين وظاهر أنهم لم يستأذنوا
فى الجهاد لكراهتهم له بل إنما استأذنوا فى التخلف .

﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ شهادة لهم بالانتظام فى سلك المتقين وعدة لهم
بأجزل الثواب وتقرير لمضمون ما سبق كأنه قيل والله عليم بأنهم كذلك
وإشعار بأن ما صدر عنهم معلل بالتقوى ﴿ إنما يستأذنك ﴾ أى فى التخلف
مطلقا على الأول أو لكراهة الجهاد على الثانى ﴿ الذين لا يؤمنون بالله واليوم
الآخر ﴾ تخصيص الإيمان بهما فى الموضعين للإيذان بأن الباعث على الجهاد
ببذل النفس والمال إنما هو الإيمان بهما إذ به يتسنى للمؤمنين استبدال الحياة
الأبدية والنعيم المقيم الخالد بالحياة الفانية والمتاع الكاسد ﴿ وارتابت قلوبهم ﴾
عطف على الصلة وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الريب وتقرره ﴿ فهم ﴾
حال كونهم ﴿ فى ريبهم ﴾ وشكهم المستقر فى قلوبهم ﴿ يترددون ﴾ أى يتحيرون
فإن التردد ديدن المتحير كما أن الثبات ديدن المستبصر والتعبير عنه به مما لا يخفى
حسن موقعه ﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ يدل على أن بعضهم قالوا عند الاعتذار
كنا نريد الخروج لكن لم نتهيأ له[1] وقد قرب الرحيل بحيث لا يمكننا

(١) فى ١٠ : لم يتهيأ لنا .

الاستعداد فقيل تكذيبا لهم لو أرادوه ﴿ لأعدوا له ﴾ أى للخروج فى وقته ﴿ عدة ﴾ أى أهبة من العتاد والراحلة والسلاح وغير ذلك مما لابد منه للسفر وقرىء عدة بحذف التاء والإضافة إلى ضمير الخروج كما فعل بالعدة من قال * وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا * أى عدته وقرىء عده بكسر العين وعدة بالإضافة ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ أى نهوضهم للخروج . قيل هو استدراك عما يفهم من مقدم الشرطية فإن انتفاء إرادتهم للخروج يستلزم انتفاء خروجهم وكراهة الله تعالى انبعاثهم تستلزم تثبيطهم عن الخروج فكأنه قيل ما خرجوا ولكن تثبطوا والاتفاق فى المعنى لا يمنع الوقوع بين طرفى لكن بعد تحقق الاختلاف نفيا وإثباتا فى اللفظ كقولك ما أحسن إلى زيد ولكن أساء والأظهر أن يكون استدراكا من نفس المقدم عن نهج ما فى الأقيسة الاستثنائية والمعنى لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن ما أرادوه لما أنه تعالى كره انبعاثهم لما فيه من المفاسد التى ستبين ﴿ فثبطهم ﴾ أى حبسهم بالجبن والكسل فثبطوا عنه ولم يستعدوا له ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ تمثيل لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج فى قلوبهم أو لوسوسة الشيطان بالأمر بالقعود أو هو حكاية قول بعضهم لبعض أى هو إذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم فى القعود والمراد بالقاعدين إما المعذورون أو غيرهم وأياً ما كان فغير خال عن الذم .

﴿ لو خرجوا فيكم ﴾ بيان لسر كراهته تعالى لانبعاثهم أى لو خرجوا مخالطين لكم ﴿ ما زادوكم ﴾ أى ما أورثوكم شيئا من الأشياء ﴿ إلا خبالا ﴾ أى فساداً وشراً فالاستثناء مفرغ متصل وقيل منقطع وليس بذلك ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ أى ولسعوا فيما بينكم بالنمائم والتضريب وإفساد ذات البين من وضع البعير وضعا إذا أسرع وأوضعته أنا أى حملته على الإسراع والمعنى لأوضعوا ركائبهم بينكم والمراد به المبالغة فى الإسراع بالنمائم لأن الراكب أسرع من الماشى وقرىء ولأوقصوا من وقصت الناقة أسرعت وأوقصتها أنا وقرىء ولأوفضوا أى أسرعوا ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ يحاولون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم وإلقاء الرعب فى قلوبكم وإفساد نياتكم والجملة حال من ضمير أوضعوا

أو استئناف ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ أى نمامون يسمعون حديثكم لأجل نقله إليهم أو فيكم قوم ضعفة يسمعون للمنافقين أى يطيعونهم والجملة حال من مفعول يبغونكم أو من فاعله لاشتمالها على ضميريهما أو مستأنفة ولعلهم لم يكونوا فى كمية العدد وكيفية الفساد بحيث يخل مكانهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهاد إخلالا عظيما ولم يكن فساد خروجهم معادلا لمنفعته ولذلك لم تقتض الحكمة عدم خروجهم فخرجوا مع المؤمنين ولكن حيث كان انضمام المنافقين القاعدين إليهم مستتبعا لخلل كلى كره الله انبعاثهم فلم يتسن اجتماعهم فاندفع فسادهم ووجه العتاب على الإذن فى قعودهم مع تقرره لا محالة وتضمن خروجهم لهذه المفاسد أنهم لو قعدوا بغير إذن منه عليه الصلاة والسلام لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر ولم يقدروا على مخالطتهم والسعى فيما بينهم بالأراجيف ولم يتسن لهم التمتع بالعيش إلى أن يظهر حالهم بقوارع الآيات النازلة ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ علما محيطاً بضمائرهم وظواهرهم وما فعلوا فيما مضى وما يتأتى منهم فيما سيأتى ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد فى الوعيد والإشعار بترتبه على الظلم ولعله شامل للفريقين السماعين والقاعدين.

﴿ لقد ابتغوا الفتنة ﴾ تشتيت شملك وتفريق أصحابك منك ﴿ من قبل ﴾ أى يوم أحد حين انصرف عبد الله بن أبى بن سلول المنافق بمن معه وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضاً بعدما خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذى جدة ، أسفل من ثنية الوداع ، وعن ابن جريج رضى الله عنه وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلا من المنافقين ليفتكوا به عليه الصلاة والسلام فردهم الله تعالى خاسئين ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ تقليب الأمر تصريفه من وجه إلى وجه وترديده لأجل التدبير والاجتهاد فى المكر والحيلة يقال للرجل المتصرف فى وجوه الحيل حول وقلب ، أى اجتهدوا ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء فى إبطال أمرك وقرىء بالتخفيف ﴿ حتى جاء الحق ﴾ أى النصر والتأييد الإلهى ﴿ وظهر أمر الله ﴾ غلب دينه

وعلاشرعه[1] ﴿ وهم كارهون ﴾ والحال أنهم كارهون لذلك أى على رغم منهم والآيتان لتسلية الرسوا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيان ما ثبطهم الله تعالى لأجله وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وإزاحة أعذارهم تداركا لما عسى يفوت بالمبادرة إلى الإذن وإيذانا بأن مافات بها ليس مما لا يمكن تلافيه تهوينا للخطب ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ﴾ فى القعود ﴿ ولا تفتنى ﴾ أى لا توقعنى فى الفتنة وهى المعصية والإثم يريد إنى متخلف لامحالة أذنت أو لم تأذن فائذن لى حتى لا أقع فى المعصية بالمخالفة أو لا تلقنى فى الهلكة فإنى إن خرجت معك هلك مالى وعيالى لعدم من يقوم بمصالحهم. وقيل قال الجد بن قيس قد علمت الأنصار أنى مشتهر بالنساء فلا تفتنى ببنات الأصفر يعنى نساء الروم ولكن أعينك بمالى فاتركنى وقرىء ولا تفتنى من أفتنه بمعنى فتنه ﴿ ألا فى الفتنة ﴾ أى فى عينها ونفسها وأكمل أفرادها الغنى عن الوصف بالكمال الحقيق باختصاص اسم الجنس به ﴿ سقطوا ﴾ لا فى شىء مغاير لها فضلا عن أن يكون مهربا ومخلصا عنها وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف والجراءة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ومن القعود بالإذن المبنى عليه وعلى الاعتذارات الكاذبة وقرىء بإفراد الفعل محافظة على لفظ من وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه مع تقديم الظرف إيذان بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة زعما منهم أن الفتنة إنما هى التخلف بغير إذن وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى أسفل سافلين.

وقوله عز وجل ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ وعيد لهم على ما فعلوا معطوف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه أى جامعة لهم يوم القيامة من كل جانب وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار أو محيطة بهم الآن

---

(١) فى ١٠ : وعلت شريعته.

تنزيلا لشيء سيقع عن قريب منزلة الواقع أو وضعا لأسباب الشيء موضعه فإن مبادي إحاطة النار بهم من الكفر والمعاصي محيطة بهم الآن من جميع الجوانب ومن جملتها مافروا منه وما سقطوا فيه من الفتنة وقيل تلك المبادي المتشكلة بصور الأعمال والأخلاق هي النار بعينها ولكن لا يظهر ذلك في هذه النشأة وإنما يظهر عند تشكلها بصورها الحقيقية في النشأة الآخرة والمراد بالكافرين إما المنافقون وإيثار وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر والإشعار بأنه معظم أسباب الإحاطة المذكورة وإما جميع الكافرين الشاملين للمنافقين شمولا أوليا .

﴿إن تصبك﴾ في بعض مغازيك ﴿حسنة﴾ من الظفر والغنيمة ﴿تسؤهم﴾ تلك الحسنة أي تورثهم مساءة لفرط حسدهم وعداوتهم لك ﴿وإن تصبك﴾ في بعضها ﴿مصيبة﴾ من نوع شدة ﴿يقولوا﴾ متبجحين بما صنعوا حامدين لآرائهم ﴿قد أخذنا أمرنا﴾ أي تلافينا مايهمنا من الأمر يعنون به الاعتزال عن المسلمين والقعود عن الحرب والمدارا مع الكفرة وغير ذلك من أمور الكفر والنفاق قولا وفعلا ﴿من قبل﴾ أي من قبل إصابة المصيبة في وقت تداركه يشيرون بذلك إلى أن المعاملة المذكورة إنما تروج عند الكفرة بوقوعها حال قوة الإسلام لا بعد إصابة المصيبة ﴿ويتولوا﴾ عن مجلس الاجتماع والتحدث إلى أهاليهم أو يعرضوا عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وهم فرحون﴾ بما صنعوا من أخذ الأمر وبما أصابه عليه الصلاة والسلام والجملة حال من الضمير في يقولوا ويتولوا لا في الأخير فقط لمقارنة الفرح لهما معاً وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام السرور وإسناد المساءة إلى الحسنة والمسرة إلى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال وإن تصبك مصيبة تسرهم للإيذان باختلاف حاليهم حالتي عروض المساءة والمسرة بأنهم في الأولى مضطرون وفي الثانية مختارون .

﴿قل﴾ بيانا لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد ﴿لن يصيبنا﴾ أبدا وقرىء هل يصيبنا وهل يصيبنا من فيعل لا من فعل لأنه واوي يقال

صاب السهم يصوب واشتقاقه من الصواب ﴿ إلا ما كتب الله لنا ﴾ أى أثبته لمصلحتنا الدنيوية أو الأخروية من النصرة عليكم أو الشهادة المؤدية إلى النعيم الدائم ﴿ هو مولانا ﴾ ناصرنا ومتولى أمورنا ﴿ وعلى الله ﴾ وحده ﴿ فليتوكل المؤمنين ﴾ التوكل تفريض الأمر إلى الله والرضا بما فعله وإن كان ذلك بعد ترتيب المبادى العادية(١) ، والفاء للدلالة على السببية والأصل ليتوكل المؤمنون على الله قدم الظرف على الفعل لإفادة القصر ثم أدخل الفاء للدلاله على استيجابه تعالى للتوكل عليه كما فى قوله تعالى (وإياى فارهبون) والجملة إن كانت من تمام الكلام المأمور به فإظهار الاسم الجليل فى مقام الإضمار لإظهار التبرك والتلذذ به وإن كانت مسوقة من قبله تعالى أمرا للمؤمنين بالتوكل إثر أمره عليه الصلاة والسلام بما ذكر فالأمر ظاهر وكذا إعادة الأمر فى قوله عز وجل :

﴿ قل هل تربصون بنا ﴾ لانقطاع حكم الأمر الأول بالثانى وإن كان أمر الغائب وأما على الوجه الأول فهى لإبراز كمال العناية بشأن المأمور به والإشعار بما بينه وبين ما أمر به أولا من الفرق فى السياق والتربص التمكث مع انتظار مجىء شىء خيرا كان أو شرا والباء للتعدية وإحدى التاءين محذوفة أى ما تنتظرون بنا ﴿ إلا إحدى الحسنيين ﴾ أى العاقبتين اللتين كل واحد ةمنهما هى حسنى العواقب وهما النصر والشهادة وهذا نوع بيان لما أبهم فى الجواب الأول وكشف لحقيقة الحال بإعلام أن مايزعمونه مضرة للمسلمين من الشهادة أنفع مما يعدونه منفعة من النصر والغنيمة ﴿ ونحن نتربص بكم ﴾ إحدى السوأيين من العواقب إما ﴿ أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ﴾ كما أصاب من قبلكم من الأمم المهلكة والظرف صفة عذاب ولذلك حذف عامله وجوبا ﴿ أو ﴾ بعذاب ﴿ بأيدينا ﴾ وهو القتل على الكفر ﴿ فتربصوا ﴾ الفاء فصيحة

---

(١) بل إن التفويض سابق على ترتيب المبادىء العادية ؛ فإن رتب ثم فوض فليس بمفوض بل هو متوكل خالص فتعريف التوكل بالتفويض مجانب للدقة ، انظر باب التفويض من (أعمال القلوب) للمحاسبي .

أى إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ﴿ إنا معكم متربصون ﴾ ما هو عاقبتكم فإذا لقى كل منا ومنكم مايتربصه لاتشاهدون إلا مايسرنا ولا نشاهد إلا ما يسوءكم .

﴿ قل أنفقوا ﴾ أموالكم فى سبيل الله ﴿ طوعا أو كرها ﴾ مصدران وقعا موقع الفاعل أى طائعين أو كارهين وهو أمر فى معنى الخبر كقوله تعالى (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) والمعنى أنفقتم طوعا أو كرها ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ ونظم الكلام فى سلك الأمر للمبالغة فى بيان تساوى الأمرين فى عدم القبول كأنهم أمروا بأن يمتحنوا الحال فينفقوا على الحالين فينظروا هل يتقبل منهم فيشاهدوا عدم القبول وهو جواب قول جد بن قيس ولكن أعينك بمالى ونفى التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم وأن يكون بمعنى عدم الإثابة عليه وقوله عز وجل ﴿ إنكم كنتم قوما فاسقين ﴾ أى عاتين متمردين تعليل لرد إنفاقهم ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم ﴾ وقرىء بالتحتانية ﴿ نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ استثناء من أعم الأشياء أى ما منعهم قبول نفقاتهم منهم شىء من الأشياء إلا كفرهم وقرىء يقبل على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿ ولا يأتون الصلوة إلا وهم كسالى ﴾ أى لا يأتونها فى حال من الأحوال كونهم متثاقلين ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ لأنهم لايرجون بهما ثوابا ولا يخافون على تركهما عقابا فقوله تعالى طوعا أى من غير إلزام من جهته عليه الصلاة والسلام رغبة أو هو فرضى لتوسيع الدائرة .

﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ فإن ذلك استدراج لهم ووبال عليهم حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا ﴾ بما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يقاسون فيها من الشدائد والمصائب وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر فى العاقبة فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة وأصل الزهوق الخروج بصعوبة ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم ﴾ فى الدين والإسلام ﴿ وماهم منكم ﴾ فى ذلك

﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ يخافون أن يفعل بهم ما يفعل بالمشركين فيظهرون الإسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة ﴿ لو يجدون ملجأ ﴾ استئناف مقرر لمضمون ماسبق من أنهم ليسوا من المسلمين وأن التجاءهم إلى الانتماء إليهم إنما هو للتقية اضطرارا حتى أنهم لو وجدوا غير ذلك ملجأ أى مكانا حصينا يلجأون إليه من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة وإيثار صيغة الاستقبال فى الشرط وإن كان المعنى على المضى لإفادة استمرار عدم الوجدان فإن المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس نصا فى إفادة انتفاء استمرار الفعل كما هو الظاهر بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا حسبما يقتضيه المقام فإن معنى قولك لو تحسن إلى لشكرتك أن انتفاء الشكر بسبب استمرار انتفاء الإحسان لا أنه بسبب انتفاء استمرار الإحسان فإن الشكر يتوقف على وجود الإحسان لا على استمراره كما حقق فى موضعه ﴿ أو مغارات ﴾ أى غيرانا وكهوفا يخفون فيها أنفسهم وقرىء بضم الميم من أغار الرجل إذا دخل الغور وقيل هو متعد من غار إذا دخل الغور أى أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم وأهليهم ويجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع بمعنى مهارب ومفار ﴿ أو مدخلا ﴾ أى نفقا يندسون فيه وينجحرون وهو مفتعل من الدخول وقرىء مدخلا من الدخول ومدخلا من الإدخال أى مكانا يدخلون فيه أنفسهم وقرىء متدخلا ومندخلا من التدخل والاندخال ﴿ لولوا ﴾ أى لصرفوا وجوههم وأقبلوا وقرىء لوالوا أى لالتجأوا ﴿ إليه ﴾ أى إلى أحد ما ذكر ﴿ وهم يجمحون ﴾ أى يسرعون بحيث لا يردهم شىء من الفرس الجموح وهو الذى لا يثنيه اللجام وفيه إشعار بكمال عتوهم وطغيانهم وقرىء يجمزون بمعنى يجمحون ويشتدون ومنه الجمازة .

﴿ ومنهم من يلمزك ﴾ بكسر الميم وقرىء بضمها أى يعيبك سرا وقرىء يلمزك ويلامزك مبالغة ﴿ فى الصدقات ﴾ أى فى شأنها وقسمتها ﴿ فإن أعطوا منها ﴾ بيان لفساد لمزهم وأنه لا منشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا أى

إن أعطوا منها قدر ما يريدون ﴿ رضوا ﴾ بما وقع من القسمة واستحسنوها ﴿ وإن لم يعطوا منها ﴾ ذلك المقدار ﴿ إذا هم يسخطون ﴾ أى يفاجئون السخط وإذا نائب مناب فاء الجزاء . قيل نزلت الآية فى أبى الجواظ المنافق حيث قال ألا ترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل وقيل فى ابن ذى الخويصرة واسمه حرقوص بن زهير التميمى رأس الخوارج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال اعدل يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام ويلك إن لم أعدل فمن يعدل وقيل هم المؤلفة قلوبهم والأول هو الأظهر ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ﴾ أى ما أعطاهم الرسول صلى الله عليه وسلم من الصدقات طيبى النفوس به وإن قل وذكر الله عز وجل للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم كان بأمره سبحانه ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ أى كفانا فضله وصنعه بنا وما قسمه لنا ﴿ سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ بعد هذا حسبما نرجو ونؤمل ﴿ إنا إلى الله راغبون ﴾ فى أن يخولنا فضله والآية بأسرها فى حيز الشرط والجواب محذوف بناء على ظهوره أى لكان خيرا لهم .

﴿ إنما الصدقات ﴾ شروع فى تحقيق حقية ما صنعه الرسول صلى الله عليه وسلم من القسمة ببيان المصارف ورد لمقالة القالة فى ذلك وحسم لأطماعهم الفارغة المبنية على زعمهم الفاسد ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق أى جنس الصدقات المشتملة على الأنواع المختلفة ﴿ للفقراء والمساكين ﴾ أى مخصوصة بهؤلاء الأصناف الثمانية الآتية لا تتجاوزهم إلى غيرهم كأنه قيل إنما هى لهم لا لغيرهم فما للذين لا علاقة بينها وبينهم يقولون فيها ما يقولون وما سوغهم أن يتكلموا فيها وفى قاسمها والفقير من له أدنى شىء والمسكين من لا شىء له هو المروى عن أبى حنيفة رضى الله عنه وقد قيل على العكس ولكل منهما وجه يدل عليه ﴿ والعاملين عليها ﴾ الساعين فى جمعها وتحصيلها ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ هم أصناف فمنهم أشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم ليسلموا

فيرضخ لهم ومنهم قوم أسلموا ونياتهم ضعيفة فيؤلف قلوبهم بإجزال العطاء كعيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس ومنهم من يترقب بإعطائهم إسلام نظرائهم ولعل الصنف الأول كان يعطيهم الرسول صلى الله عليه وسلم من خمس الخمس الذى هو خالص ماله وقد عد منهم من يؤلف قلبه بشيء منها على قتال الكفار وما نعى الزكاة وقد سقط سهم هؤلاء بالإجماع لما أن ذلك كان لتكثير سواد الإسلام فلما أعزه الله عز وعلا[1] وأعلى كلمته استغنى عن ذلك ﴿ وفى الرقاب ﴾ أى وللصرف فى فك الرقاب[2] بأن يعان المكاتبون بشيء منها على أداء نجومهم وقيل بأن يفدى الأسارى وقيل بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق وأياً ما كان فالعدول عن اللام لعدم ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية والاختصاص كالذين من قبلهم أو للإيذان بعدم قرار ملكهم فيما أعطوا كما فى الوجهين الأولين أو بعدم ثبوته رأسا كما فى الوجه الأخير أو للإشعار برسوخهم فى استحقاق الصدقة لما أن فى للظرفية المنبئة عن إحاطتهم بها وكونهم محلها ومركزها .

﴿ والغارمين ﴾ أى الذين تداينوا لأنفسهم فى غير معصية إذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم وكذلك عند الشافعى رضى الله عنه من غرم لإصلاح ذات البين وإطفاء الثائرة بين القبيلتين وإن كانوا أغنياء ﴿ وفى سبيل الله ﴾ أى فقراء الغزاة والحجيج والمنقطع بهم ﴿ وابن السبيل ﴾ أى المسافر المنقطع عن ماله وتكرير الظرف فى الأخيرين للإيذان بزيادة فضلهما فى الاستحقاق أو لما ذكر من إيرادهما بعنوان غير مصحح للمالكية والاختصاص فهذه مصارف الصدقات فللمتصدق أن يدفع صدقته إلى كل واحد منهم وأن يقتصر على صنف منهم لأن اللام لبيان أنهم مصارف لا تخرج عنهم لا لإثبات الاستحقاق وقد روى ذلك عن عمر وابن عباس وحذيفة رضى الله عنهم وعند الشافعى لا يجوز إلا أن يصرف إلى ثلاثة من تلك الأصناف ﴿ فريضة من الله ﴾

---

(١) فى ١٠ : عز وجل . (٢) فى ١٠ : فى عتق الرقاب .

مصدر مؤكد لما دل عليه صدر الآية أى فرض لهم الصدقات فريضة ونقل عن سيبويه أنه منصوب بفعله مقدرا أى فرض الله ذلك فريضة أوحال من الضمير المستكن فى قوله للفقراء أى إنما الصدقات كائنة لهم حال كونها فريضة أى مفروضة ﴿والله عليم﴾ بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم ﴿حكيم﴾ لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التى من جملتها سوق الحقوق إلى مستحقيها .

﴿ ومنهم الذين يؤذون النبى ﴾ نزلت فى فرقة من المنافقين قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام ما لا ينبغى فقال بعضهم لاتفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ذلك فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد : نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول إنما محمد أذن سامعة وذلك قوله عز وجل ﴿ ويقولون هو أذن ﴾ أى يسمع كل ما قيل من غير أن يتدبر فيه ويميز بين ما يليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له وبين ما لا يليق به ، وإنما قالوه لأنه عليه الصلاة والسلام كان لايواجههم بسوء ماصنعوا ويصفح عنهم حلما وكرما فحملوه على سلامة القلب وقالوا ما قالوا ﴿ قل أذن خير لكم ﴾ من قبيل رجل صدق فى الدلالة على المبالغة فى الجودة والصلاح كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الأذن ويجوز أن يكون المراد أذنا فى الخير والحق وفيما ينبغى سماعه وقبوله لا فى غيرذلك كما يدل عليه قراءة رحمة بالجر عطفا عليه أى هوأذن خيرورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله وقرىء أذن بسكون الذال فيهما وقرىء أذن خير على أنه صفة أو خبر ثان وقوله عز وجل ﴿ يؤمن بالله ﴾ تفسير لكونه أذن خير لهم أى يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة الموجبة له وكون ذلك خيرا للمخاطبين كما أنه خير للعالمين مما لايخفى ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾ أى يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص واللام مزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور وبين الإيمان بمعنى التسليم والتصديق كما فى قوله تعالى (أنؤمن لك) الخ وقوله تعالى (فما آمن لموسى) الخ .

﴿ ورحمة ﴾ عطف على أذن خير أى وهو رحمة بطريق إطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة ﴿للذين آمنوا منكم﴾ أى للذين أظهروا الإيمان منكم حيث يقبله منهم لكن لا تصديقا لهم فى ذلك بل رفقا بهم وترحما عليهم ولا يكشف أسرارهم ولا يهتك أستارهم وإسناد الإيمان إليهم بصيغة الفعل بعد نسبته إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار للإيذان بأن إيمانهم أمر حادث ما له من قرار وقرىء بالنصب على أنها علة لفعل دل عليه أذن خير أى يأذن لكم رحمة ﴿والذين يؤذون رسول الله﴾ بما نقل عنهم من قولهم هو أذن ونحوه وفى صيغة الاستقبال المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه إشعار بقبول توبتهم كما أفصح عنه قوله تعالى فيما سيأتى (فإن يتوبوا يك خيرا لهم) ﴿ لهم ﴾ بما يجترئون عليه من أذيته عليه الصلاة والسلام كما ينبىء عنه بناء الحكم على الموصول ﴿ عذاب أليم ﴾ وهذا اعتراض مسوق من قبله عز وجل على نهج الوعيد غير داخل تحت الخطاب وفى تكرير الإسناد بإثبات العذاب الأليم لهم ثم جعل الجملة خبرا للموصول ما لا يخفى من المبالغة وإيراده[1] عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مضافا إلى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته راجعة إلى جنابه عز وجل موجبة لكمال السخط والغضب .

﴿ يحلفون بالله لكم ﴾ الخطاب للمؤمنين خاصة وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالأيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم أن يحلفون لكم أنهم ما قالوا ما نقل إليهم مما يورث أذاة النبى صلى الله عليه وسلم وأما التخلف عن الجهاد فليس بداخل فى هذا الاعتذار ﴿ ليرضوكم ﴾ بذلك وإفراد إرضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم إرضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قبل عليه الصلاة والسلام ذلك منهم ولم يكذبهم للإيذان بأن ذلك بمعزل من أن يكون وسيلة إلى إرضائه عليه الصلاة والسلام

---

(١) فى ١٠ : وذكره .

وأنه صلى الله عليه وسلم إنما لم يكذبهم رفقاً بهم وستراً لعيوبهم لا عن رضا بما فعلوه كما أشير إليه ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ أى أحق بالإرضاء ولا يتسنى ذلك إلا بالطاعة والمتابعة وإيفاء حقوقه عليه الصلاة والسلام فى باب الإجلال والإعظام مشهدا ومغيبا وأما ما أتوا به من الأيمان الفاجرة فإنما يرضى به من انحصر طريق علمه فى الأخبار إلى أن يجىء الحق ويزهق الباطل والجملة نصب على الحالية من ضمير يحلفون أن يحلفون لكم لإرضائكم والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء منكم أى يعرضون عما يهمهم ويجديهم ويشتغلون بما لا يعنيهم وإفراد الضمير فى يرضوه إما للإيذان بأن رضاه عليه الصلاة والسلام مندرج تحت رضاه سبحانه وإرضاؤه عليه الصلاة والسلام إرضاء له تعالى لقوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وإما لأنه مستعار لاسم الإشارة الذى يشار به إلى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور كما فى قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق   كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ذلك لا يقال أى حاجة إلى الاستعارة بعد التأويل المذكور لأنا نقول لولا الاستعارة لم يتسن التأويل لما أن الضمير لا يتعرض إلا لذات ما يرجع إليه من غير تعرض لوصف من أوصافه التى من جملتها المذكورية وإنما المتعرض لها اسم الإشارة وإما لأنه عائد إلى رسوله والكلام جملتان حذف خبر الأولى لدلالة خبر الثانية عليه كما ذهب إليه سيبويه ومنه قول من قال :

نحن بما عندنا وأنت بما   عندك راض والرأى مختلف

أو إلى الله على أن المذكور خبر الجملة الأولى وخبر الثانية محذوف كما هو رأى المبرد ﴿إن كانوا مؤمنين﴾ جوابه محذوف تعويلا على دلالة ما سبق عليه أى إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله بما ذكر فإنهما أحق بالإرضاء ﴿ألم يعلموا﴾ أى أولئك المنافقون والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتها وقرىء بالتاء على الالتفات لزيادة التقريع والتوبيخ أى ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من فنون

القوارع والإنذارات ﴿ إنه ﴾ أى الشأن ﴿ من يحادد الله ورسوله ﴾ المحادة من الحد كالمشاقة من الشق والمعاداة من العدوة بمعنى الجانب فإن كل واحد من مباشرى كل الأفعال المذكورة فى محل غير محل صاحبه ومن شرطية جوابها قوله تعالى ﴿ فإن له نار جهنم ﴾ على أن خبره محذوف أى فحق أن له نار جهنم وقرىء بكسر الهمزة والجملة الشرطية فى محل الرفع على أنها خبر لأن وهى مع خبرها سادة مسد مفعولى يعلموا وقيل المعنى فله وإن تكرير الأولى تأكيداً لطول العهد لا من باب التأكيد اللفظى المانع الأولى من العمل ودخول الفاء كما فى قول من قال :

لقد علم الحى اليمانون أننى　　إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وقد جوز أن يكون فإن له معطوفا على أنه وجواب الشرط محذوف تقديره ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فإن له الخ ورد بأن ذلك إنما يجوز عند كون فعل الشرط ماضيا أو مضارعا مجزوما بلم ﴿ خالداً فيها ﴾ حال مقدرة من الضمير المجرور إن اعتبر فى الظرف ابتداء الاستقرار وحدوثه وإن اعتبر مطلق الاستقرار فالأمر ظاهر ﴿ ذلك ﴾ أشير إلى ما ذكر من العذاب الخالد بذلك إيذانا ببعد درجته فى الهول والفظاعة ﴿ الخزى العظيم ﴾ الخزى الذل والهوان المقارن للفضيحة والندامة وهى ثمرات نفاقهم حيث يفتضحون على رءوس الأشهاد بظهورها ولحوق العذاب الخالد بهم والجملة تذييل لما سبق ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم ﴾ فى شأنهم فإن ما نزل فى حقهم نازل عليهم ﴿ سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ﴾ من الأسرار الخفية فضلا عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق ومعنى تنبئتها إياهم بما فى قلوبهم مع أنه معلوم لهم وأن المحذور عندهم إطلاع المؤمنين على أسرارهم لا إطلاع أنفسهم عليها أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم فتنتشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة فكأنها تخبرهم بها أو المراد بالتنبئة المبالغة فى كون السورة مشتملة على أسرارهم كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه

فتنبئهم بها وتنعى عليهم قبائحم وقيل معنى يحذر ليحذر وقيل الضميران الأولان للمؤمنين والثالث للمنافقين ولا يبالى بالتفكيك عند ظهور الأمر بعود المعنى إليه أى يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوب المنافقين وتهتك عليهم أستارهم قال أبو مسلم كان إظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء فإنهم كانوا إذا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر كل شىء ويقول إنه بطريق الوحى يكذبونه ويستهزئون به ولذلك قيل :

﴿ قل استهزؤا ﴾ أى افعلوا الاستهزاء وهو أمر تهديد ﴿ إن الله مخرج ﴾ أى من القوة إلى الفعل أو من الكمون إلى البروز ﴿ ما تحذرون ﴾ أى ما تحذرونه من إنزال السورة ومن مخازيكم ومثالبكم المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لكم على ملأ الناس والتأكيد لرد إنكارهم بذلك لا لدفع ترددهم فى وقوع المحذور إذ ليس حذرهم بطريق الحقيقة ﴿ ولئن سألتهم ﴾ عما قالوا ﴿ ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ركب من المنافقين يستهزئون بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم ويقولون انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح حصون الشام وقصورها هيهات هيهات فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فأتاهم فقال : « قلتم كذا ، وكذا » ؟ فقالوا : يا نبى الله لا والله ما كنا فى شىء من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر ﴿ قل ﴾ غير ملتفت إلى اعتذارهم ناعيا عليهم جناياتهم منزلا لهم منزلة المعترف بوقوع الاستهزاء موبخا لهم على أخطائهم موقع الاستهزاء ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن ﴾ حيث عقب حرف التقرير بالمستهزأ به ولا يستقيم ذلك إلا بعد تحقق الاستهزاء وثبوته ﴿ لا تعتذروا ﴾ لا تشتغلوا بالاعتذار وهو عبارة عن محو أثر الذنب فإنه معلوم الكذب بين البطلان ﴿ قد كفرتم ﴾ أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والطعن فيه ﴿ بعد إيمانكم ﴾ بعد إظهاركم له ﴿ إن نعف عن طائفة منكم ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم

أو تجنبهم (عن)[١] الإيذاء والاستهزاء وقرىء إن يعف على إسناد الفعل إلى الله سبحانه وقرىء على البناء للمفعول مسندا إلى الظرف بتذكير الفعل وبتأنيثه أيضاً ذهابا إلى المعنى كأنه قيل إن ترحم طائفة ﴿ نعذب ﴾ بنون العظمة وقرىء بالياء على البناء للفاعل وبالتاء على البناء للمفعول مسندا إلى ما بعده ﴿ طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ مصرين على الإجرام وهو غير التائبين أو مباشرين له وهم غير المجتنبين قال محمد بن اسحق الذى عفى عنه رجل واحد هو يحى بن حمير الأشجعى لما نزلت هذه الآية تاب عن نفاقه وقال اللهم إنى لا أزال أسمع آية تقشعر منها الجلود وتجب[٢] منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فما أحد من المسلمين إلا عرف مصرعه غيره .

﴿ المنافقون والمنافقات ﴾ التعرض لأحوال الإناث للإيذان بكمال عراقتهم فى الكفر والنفاق ﴿ بعضهم من بعض ﴾ أى متشابهون فى النفاق والبعد عن الإيمان كأبعاض الشىء الواحد بالشخص وقيل أريد به نفى أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم فى حلفهم بالله أنهم لمنكم وتقرير لقوله تعالى (وما هم منكم) وقوله تعالى ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ أى بالكفر والمعاصى ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ أى عن الإيمان والطاعة استئناف مقرر لمضمون ما سبق ومفصح عن مضادة حالهم لحال المؤمنين أو خبر ثان ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ أى عن المبرات والإنفاق فى سبيل الله فإن قبض اليد كناية عن الشح ﴿ نسوا الله ﴾ أغفلوا ذكره ﴿ فنسيهم ﴾ فتركهم من رحمته وفضله وخذلهم والتعبير عنه بالنسيان للمشاكلة ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ الكاملون فى التمرد والفسق الذى هو الخروج عن الطاعة والانسلاخ عن كل خير والإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى :

---

(١) سقطت من ١١
(٢) أى توجل وتضطرب .

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ﴾ أى المجاهرين ﴿ نار جهنم خالدين فيها ﴾ مقدرين الخلود فيها مقدرين الخلود فيها ﴿ هى حسبهم ﴾ عقابا وجزاء وفيه دليل على عظم عقابها وعذابها ﴿ ولعنهم الله ﴾ أى أبعدهم من رحمته وأهانهم وفى إظهار الاسم الجليل من الإيذان بشدة السخط ما لا يخفى ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أى نوع من العذاب غير عذاب النار دائم لا ينقطع أبدا أو لهم عذاب مقيم فى الدنيا لا ينفك عنهم وهو ما يقاسونه من تعب النفاق الذى هم منه فى بلية دائمة لا يأمنون ساعة من خوف الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع عن أسرارهم ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد والكاف فى محل الرفع على الخبرية أى أنتم مثل الذين من قبلكم ﴿ كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا ﴾ تفسير وبيان لشبههم بهم وتمثيل لحالهم بحالهم ﴿ فاستمتعوا ﴾ تمتعوا وفى صيغة الاستفعال ما ليس فى صيغة التفعل من الاستزادة والاستدامة فى التمتع ﴿ بخلاقهم ﴾ بنصيبهم من ملاذ الدنيا واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير وهو ما قدر لصاحبه ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع ﴾ الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى استمتاعا كاستمتاع ﴿ الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية والتهائهم بها عن النظر فى العواقب الحقة واللذائذ الحقيقية تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم إياهم واقتفائهم أثرهم ﴿ وخضتم ﴾ أى دخلتم فى الباطل ﴿ كالذى خاضوا ﴾ أى كالذين بإسقاط النون أو كالفوج الذى أو كالخوض الذى خاضوه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المتصفين بالأوصاف المعدودة من المشبهين والمشبهة بهم لا إلى الفريق الأخير فقط فإن ذلك يقتضى أن يكون حبوط أعمال المشبهين وخسرانهم مفهومين ضمنا لا صريحا ويؤدى إلى خلو تلوين الخطاب عن الفائدة إذ الظاهر حينئذ أولئكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة .

﴿ حبطت أعمالهم ﴾ ليس المراد بها أعمالهم المعدودة كما يشعر به التعبير

وسيجيء لهذا مزيد بيان في قوله سبحانه إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات حالا ومآلا إثر بيان قبح حال أضدادهم عاجلا وآجلا والتعبير عن نسبة هؤلاء بعضهم إلى بعض بالولاية وعن نسبة أولئك بمن الاتصالية للإيذان بأن نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينية المبنية على المعاقدة المستتبعة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ أى جنس المعروف والمنكر المنتظمين لكل خير وشر ﴿ ويقيمون الصلوة ﴾ فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو فى مقابلة ما سبق من قوله تعالى نسوا الله ﴿ ويؤتون الزكوة ﴾ بمقابلة قوله تعالى ويقبضون أيديهم ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ أى فى كل أمر ونهى وهو بمقابله وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات الفاضلة وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد درجتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة ﴿ سيرحمهم الله ﴾ أى يفيض عليهم آثار رحمته من التأييد والنصرة البتة لما أن السين مؤكدة للوقوع كما فى قولك سأنتقم منك ﴿ إن الله عزيز ﴾ تعليل للوعد أى قوى قادر على إعزاز أوليائه وقهر أعدائه ﴿ حكيم ﴾ يبنى أحكامه على أساس الحكمة الداعية إلى إيصال الحقوق من النعمة والنقمة إلى مستحقها من أهل الطاعة وأهل المعصية وهذا وعد للمؤمنين متضمن لوعيد المنافقين كما أن ماسبق فى شأن المنافقين من قوله تعالى (فنسيهم) وعيد لهم متضمن لوعد المؤمنين فإن منع لطفه تعالى عنهم لطف فى حق المؤمنين .

﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات ﴾ تفصيل لآثار رحمته الدنيوية والإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بعلية وصف الإيمان لحصول ما تعلق به الوعد وعدم التعرض لذكر ما مر من الأمر بالمعروف وغير ذلك للإيذان بأنه من لوازمه ومستتبعاته أى وعدهم وعدا شاملا لكل أحد منهم على اختلاف

عنهم باسم الإشارة فإن غائلتها غنية عن البيان بل أعمالهم التى كانوا يستحقون بها أجورا حسنة لو قارنت الإيمان أى ضاعت وبطلت بالكلية ولم يترتب عليها أثر ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ بطريق المثوبة والكرامة أما فى الآخرة فظاهر وأما فى الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) ليس ترتبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة بل بطريق الاستدراج ﴿ وأولئك ﴾ أى الموصوفون بحبوط الأعمال فى الدارين ﴿ هم الخاسرون ﴾ الكاملون فى الخسران فى الدارين الجامعون لمباديه وأسبابه طرا فإنه قد ذهبت رءوس أموالهم التى هى أعمالهم فيما ضرهم ولم تنفعهم قط ولو أنها ذهبت فيما لا يضرهم ولا ينفعهم لكفى به خسرانا وإيراد اسم الإشارة فى الموضعين للإشعار بعلية الأوصاف المشار إليها للحبوط والخسران ﴿ ألم يأتهم ﴾ أى المنافقين ﴿ نبأ الذين من قبلهم ﴾ أى خبرهم الذى له شأن وهو ما فعل بهم والاستفهام للتقرير والتحذير ﴿ قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين ﴾ وهم قوم شعيب ﴿ والمؤتفكات ﴾ قريات قوم لوط ائتفكت بهم أى انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل وقيل قريات المكذبين وائتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ استئناف لبيان نبئهم ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ الفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام أى فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى فما ظلمهم بذلك وإيثار ما عليه النظم الكريم للمبالغة فى تنزيه ساحة السبحان عن الظلم أى ما صح وما استقام له أن يظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى قوله عز وجل ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ للدلالة على استمرار ظلمهم حيث لم يزالوا يعرضونها للعقاب بالكفر والتكذيب وتقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد إلى قصر المظلومية عليهم على رأى من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما فى قوله تعالى (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) من غير قصر للظلم على الفاعل أو المفعول

طبقاتهم فى مراتب الفضل كيفاً وكما ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ فإن كل أحد منهم فائز بها لا محالة ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أى وعد بعض الخواص الكمل منهم منازل تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش . فى الخبر أنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر ﴿ فى جنات عدن ﴾ هى أبهى أماكن الجنات وأسناها . عن النبى صلى الله عليه وسلم عدن دار الله لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك وعن ابن عمر رضى الله عنهما إن فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج وله خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حوراء لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد وعن ابن مسعود رضى الله عنه هى بطنان الجنة وسرتها فعدن على هذا علم وقيل هو بمعناه اللغوى أعنى الإقامة والخلود فمرجع العطف إلى اختلاف الوصف وتغايره فكأنه وصفه أولا بأنه من جنس ما هو أشرف الأماكن المعروفة عندهم من الجنات ذات الأنهار الجارية ليميل إليها طباعهم أول ما يقرع أسماعهم ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التى لا تكاد تخلو عنها أماكن الدنيا وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات فى جوار العليين لا يعتريهم فيها فناء ولا تغير ثم وعدهم بما هو أعلى من ذلك كله فقال ﴿ ورضوان من الله ﴾ أى وشىء يسير من رضوانه تعالى ﴿ أكبر ﴾ إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة وبه يناط نيل كل شرف وسيادة ولعل عدم نظمه فى سلك الوعد مع عزته فى نفسه لأنه متحقق فى ضمن كل موعود ولأنه مستمر فى الدارين . روى أنه تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون مالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا وأى شىء أفضل من ذلك قال أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سبق ذكره وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجته فى العظم والفخامة ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ دون ما يعده الناس فوزا من

حظوظ الدنيا فإنها مع قطع النظر عن فنائها وتغيرها وتنغصها وتكدرها ليست بالنسبة إلى أدنى شىء من نعيم الآخرة بمثابة جناح البعوض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء ونعما قال من قال :

تالله لو كانت الدنيا بأجمعها تبقى علينا ويأتى رزقها رغدا
ما كان من حق حر أن يذل بها فكيف وهى متاع يضمحل غدا

﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار ﴾ أى المجاهرين منهم بالسيف ﴿ والمنافقين ﴾ بالحجة وإقامة الحدود ﴿ واغلظ عليهم ﴾ فى ذلك ولا تأخذك بهم رأفة . قال عطاء نسخت هذه الآية كل شىء من العفو والصفح ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ جملة مستأنفة لبيان آجل أمرهم إثر بيان عاجله وقيل حالية ﴿ وبئس المصير ﴾ تذييل لما قبله والمخصوص بالذم محذوف ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ استئناف لبيان ما صدر عنهم من الجرائم الموجبة لما مر من الأمر بالجهاد والغلظة عليهم ودخول جهنم روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمعه من كان منهم معه عليه الصلاة والسلام فقال الجلاس بن سويد منهم لئن كان ما يقول محمد حقا لإخواننا الذين خلفناهم وهم سادتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير ، فقال عامر بن قيس الأنصارى للجلاس : أجل والله إن محمداً لصادق وأنت شر من الحمار ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم واستحضر فحلف بالله ما قال فرفع عامر يده فقال اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق فنزل[1] وإيثار صيغة الاستقبال فى يحلفون لاستحضار الصورة أو للدلالة على تكرير الحلف وصيغة الجمع فى قالوا مع أن القائل هو الجلاس للإيذان بأن بقيتهم برضاهم بقوله صاروا بمنزلة القائل .

(١) فى ١٠ فنزلت .

﴿ ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ هى ماحكى آنفا والجملة مع ماعطف عليها اعتراض ﴿ وكفروا بعد إسلامهم ﴾ أى وأظهروا مافى قلوبهم من الكفر بعد إظهارهم الإسلام ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ هو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه توافق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عليه الصلاة والسلام عن راحلته إذا تسنم العقبة بالليل وكان عمار بن ياسر آخذا بخطام راحلته يقودها وحذيفة ابن اليمان خلفها يسوقها فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح فالتفت فإذا قوم متلثمون فقال إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا وقيل هم المنافقون بقتل عامر لرده على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجوا عبد الله ابن أبى بن سلول وإن لم يرض به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما نقموا ﴾ أى وما أنكروا وما عابوا أو ماوجدوا مايورث نقمتهم ﴿ إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ سبحانه وتعالى ، وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فى غاية ما يكون من ضنك العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألف درهم فاستغنى والاستغناء مفرغ من أعم المفاعيل أو من أعم العلل أى وما أنكروا شيئاً من الأشياء إلا إغناء الله تعالى إياهم أو وما أنكروا لعلة من العلل إلا لإغناء الله إياهم ﴿ فإن يتوبوا ﴾ عما هم عليه من الكفر والنفاق ﴿ يك خيراً لهم ﴾ فى الدارين ، قيل لما تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الجلاس يارسول الله لقد عرض الله على التوبة والله لقد قلت وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته ﴿ وإن يتولوا ﴾ أى استمروا على ماكانوا عليه من التولى والإعراض عن الدين أو أعرضوا عن التوبة بعد هذا العرض ﴿ يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا ﴾ بالقتل والأسر والنهب وغير ذلك من فنون العقوبات ﴿ والآخرة ﴾ بالنار وغيرها من أفانين العقاب ﴿ وما لهم فى الأرض ﴾ مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها المصححة لوجدان ما نفى بقوله عز وجل ﴿ من ولى ولا نصير ﴾ ينقذهم من العذاب بالشفاعة أو المدافعة .

﴿ومنهم﴾ بيان لقبائح بعض آخر منهم ﴿من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ لنؤتين الزكاة وغيرها من الصدقات ﴿ولنكونن من الصالحين﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يريد الحج وقرىء بالنون الخفيفة فيهما . قيل نزلت فى ثعلبة بن حاطب أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال عليه الصلاة والسلام ياثعلبة قليل تؤدى حقه خير من كثير لاتطيقه فراجعه وقال والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لايسعه واد فقال ياويح ثعلبة فبعث مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه الفرائض فقال ماهذه إلا أخت الجزية وقال ارجعا حتى أرى رأيى وذلك قوله عز وجل ﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾ أى منعوا حق الله منه ﴿وتولوا﴾ أى أعرضوا عن طاعة الله سبحانه فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه ياويح ثعلبة مرتين فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال عليه الصلاة والسلام إن الله منعنى أن أقبل منك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال عليه الصلاة والسلام هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى فقبض عليه الصلاة والسلام فجاء بها إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها وجاء بها إلى عمر رضى الله عنه فى خلافته فلم يقبلها وهلك فى خلافة عثمان رضى الله عنه وقيل نزلت فيه وفى سهل بن الحرث وجد بن قيس ومعتب بن قشير والأول هو الأشهر ﴿وهم معرضون﴾ جملة معترضة أى وهم قوم عادتهم الإعراض أو حالية أى تولوا بإجرامهم وهم معرضون بقلوبهم .

﴿فأعقبهم﴾ أى جعل الله عاقبة فعلهم ذلك ﴿نفاقا﴾ راسخا ﴿فى قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾ إلى يوم موتهم الذى يلقون الله تعالى عنده أو يلقون فيه جزاء عملهم وهو يوم القيامة وقيل فأورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم ولا

يلائمه قوله عز وجل ﴿ بما أخلفوا الله ماوعدوه ﴾ أى بسبب إخلافهم ماوعده تعالى من التصدق والصلاح ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ أى وبكونهم مستمرين على الكذب فى جميع المقالات التى من جملتها وعدهم المذكور وتخصيص الكذب به يؤدى إلى تخلية الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل عن المزية فإن تسبب الإعقاب المذكور بالإخلاف والكذب يقضى بإسناده إلى الله عز وجل إذ لا معنى لكونهما سببين لإعقاب البخل للنفاق[1] والتحقيق أنه لما كانت الفاء الدالة على الترتيب والتفريع منبئة عن ترتب إعقاب النفاق المخلد على أفعالهم المحكية عنهم من المعاهدة بالتصدق والصلاح والبخل والتولى والإعراض وفيها مالا دخل له فى الترتيب المذكور كالمعاهدة أزيح مافى ذلك من الإبهام بتعيين ماهو المدار فى ذلك والله تعالى أعلم وقرىء بتشديد الذال .

﴿ ألم يعلموا ﴾ أى المنافقون أو من عاهد الله وقرىء بالتاء الفوقانية خطابا للمؤمنين فالهمزة على الأول للإنكار والتوبيخ والتهديد أى ألم يعلموا ﴿ أن الله يعلم سرهم ونجواهم ﴾ أى ما أسروا به فى أنفسهم وما تناجوا به فيما بينهم من المطاعن وتسمية الصدقة جزية وغير ذلك مما لا خير فيه وسر تقديم السر على النجوى سيظهر فى قوله سبحانه وستردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴿ وأن الله علام الغيوب ﴾ فلا يخفى عليه شىء من الأشياء حتى اجترأوا على ما اجترأوا عليه من العظائم وإظهار اسم الجلالة فى الموقعين لإلقاء الروعة وتربية المهابة وفى إيراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة مالا يخفى وعلى الثانى لتقرير علم المؤمنين بذلك وتنبيههم على أنه تعالى مؤاخذهم ومجازيهم بما علم من أعمالهم ﴿ الذين يلمزون ﴾ نصب أو رفع على الذم ويجوز جره على البدلية من الضمير فى سرهم ونجواهم وقرىء بضم الميم وهى لغة أى يعيبون ﴿ المطوعين ﴾ أى المتطوعين المتبرعين ﴿ من المؤمنين ﴾

---

(١) فى ط : النفاق .

حال من المطوعين وقوله تعالى ﴿ فى الصدقات ﴾ متعلق بيلمزون . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة فأتى عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب وقيل بأربعة آلاف درهم وقال لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة وأمسكت لعيالى أربعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك له حتى صولحت تماضر رابعة نسائه عن ربع الثمن على ثمانين ألفا وتصدق عاصم بن عدى بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصارى بصاع من تمر فقال بت ليلتى أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالى وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله عليه أن ينثره على الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا ما أعطى عبد عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت .

﴿ والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ عطف على المطوعين أى ويلمزون الذين لا يجدون إلا طاقاتهم وقرىء بفتح الجيم وهو مصدر جهد فى الأمر إذا بالغ فيه وقيل هو بالضم الطاقة وبالفتح المشقة ﴿ فيسخرون منهم ﴾ عطف على يلمزون أى يهزءون بهم والمراد بهم الفريق الأخير ﴿ سخر الله منهم ﴾ إخبار بمجازاته تعالى إياهم على مافعلوا من السخرية والتعبير عنها بذلك للمشاكلة ﴿ ولهم ﴾ أى ثابت لهم ﴿ عذاب أليم ﴾ التنوين للتهويل والتفخيم وإيراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار ﴿ استغفر لهم أولا تستغفر لهم ﴾ إخبار باستواء الأمرين الاستغفار لهم وتركه فى استحالة المغفرة وتصويره بصورة الأمر للمبالغة فى بيان استوائهما كأنه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال بأن يستغفر تارة ويترك أخرى ليظهر له جلية الأمر كما مر فى قوله عز وجل (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم) ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة فى الاستغفار إثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه . روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى وكان من

المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام محافظة على ما هو الأصل من أن مراتب الأعداد حدود معينة يخالف حكم كل منها حكم ما فوقها : « إن الله قد رخص لى فسأزيد على السبعين » فنزلت (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى مطلق التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنها العدد بأسره وقيل هى اكمل الأعداد لجمعها معانيها ولأن الستة أول عدد تام لتعادل أجزائها الصحيحة إذ نصفها ثلاثة وثلثها اثنان وسدسها واحد وجملتها ستة وهى مع الواحد سبعة فكانت كاملة إذ لا مرتبة بعد التمام إلا الكمال ثم السبعون غاية الكمال إذ الآحاد غايتها العشرات والسبعمائة غاية الغايات .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة فى الاستغفار أى ذلك الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل ﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ كفروا بالله ورسوله ﴾ كفرا متجاوزا عن الحد كما يلوح به وصفهم بالفسق فى قوله عز وجل ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ فإن الفسق فى كل شيء عبارة عن التمرد والتجاوز عن حدوده أى لا يهديهم هداية موصلة إلى المقصد البتة لمخالفة ذلك للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وأما الهداية بمعنى الدلالة على ما يوصل إليه فهى متحققة لا محالة ولكنهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا وهو تذييل مؤكد لما قبله من الحكم فإن مغفرة الكافر إنما هى بالإقلاع عن الكفر والإقبال إلى الحق والمنهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك وفيه تنبيه على عذر النبى صلى الله عليه وسلم فى استغفاره لهم وهو عدم يأسه من إيمانهم حيث لم يعلم أنهم مطبوعون على الغى والضلال إذ الممنوع هو الاستغفار لهم بعد تبين حالهم كما سيتلى من قوله عز وجل (ما كان للنبى) الآية .

﴿ فرح المخلفون ﴾ أى الذين خلفهم النبى صلى الله عليه وسلم بالإذن لهم

فى العقود عند استئذانهم أوخلفهم الله بتثبيطه إياهم لما علم فى ذلك من الحكمة الخفية أو خلفهم كسلهم أو نفاقهم ﴿ بمقعدهم ﴾ متعلق بفرح أى بقعودهم وتخلفهم عن الغزو ﴿ خلاف رسول الله ﴾ أى خلفه وبعد خروجه حيث خرج ولم يخرجوا يقال أقام خلاف الحى أى بعدهم ظعنوا ولم يظعن ويؤيده قراءة من قرأ خلف رسول الله فانتصابه على أنه ظرف لمقعدهم إذ لا فائدة فى تقييد فرحهم بذلك وقيل هو بمعنى المخالفة ويعضده قراءة من قرأ خلف رسول الله بضم الخاء فانتصابه على أنه مفعول له والعامل إما فرح أى فرحوا لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام بالقعود وإما مقعدهم أى فرحو بقعودهم لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام أو على أنه حال والعامل أحد المذكورين أى فرحوا مخالفين له عليه الصلاة والسلام أو فرحوا بالقعود مخالفين له عليه الصلاة والسلام ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ لا إيثارا للدعة والخفض على طاعة الله تعالى فقط بل مع ما فى قلوبهم من الكفر والنفاق فإن إيثار أحد الأمرين قد يتحقق بأدنى رجحان منه من غير أن يبلغ الآخر مرتبة الكراهية وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو إيذانا بأن الجهاد فى سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب وأشرف المطالب التى يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا بأقبح القبائح الذى هو القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وقالوا ﴾ أى لإخوانهم تثبيتا لهم على التخلف والقعود وتواصيا فيما بينهم بالشر والفساد أو للمؤمنين تثبيطا لهم عن الجهاد ونهيا عن المعروف وإظهارا لبعض العلل الداعية لهم إلى ما فرحوا به من القعود فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال الفرح بالقعود وكراهية الجهاد ونهى الغير عن ذلك ﴿ لا تنفروا فى الحر ﴾ فإنه لا يستطاع شدته .

﴿ قل ﴾ ردا عليهم وتجهيلا لهم ﴿ نار جهنم ﴾ التى ستدخلونها بما فعلتم ﴿ أشد حرا ﴾ مما تحذرون من الحر المعهود وتحذرون الناس منه فما لكم لا تحذرونها وتعرضون أنفسكم لها بإيثار القعود على النفير ﴿ لو كانوا يفقهون ﴾

إعتراض تذييلى من جهته سبحانه وتعالى غير داخل تحت القول المأمور به مؤكد لمضمونه وجواب لو إما مقدر أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك أو كيف هى أن مآلهم إليها لما فعلوا أو لتأثروا بهذا الإلزام وإما غير منوى على أن لو لمجرد التمنى المنبىء عن امتناع تحقق مدخولها أى لو كانوا من أهل الفطانة والفقة كما فى قوله عز وجل (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا ﴾ إخبار عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل والبكاء الطويل المؤدى إليه أعمالهم السيئة التى من جملتها ما ذكر من الفرح والفاء لسببية ما سبق للإخبار بما ذكر من الضحك والبكاء لا لنفسهما إذ لا يتصور السببية فى الأول أصلا وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية أى ضحكا قليلا وبكاء كثيرا أو زمانا قليلا وزمانا كثيرا وإخراجه فى صورة الأمر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به فإن أمر الآمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المأمور به خلا أن المقصود إفادته فى الأول هو وصف القلة فقط وفى الثانى وصف الكثرة مع الموصوف.

يروى أن أهل النفاق يبكون فى النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ويجوز أن يكون الضحك كناية عن الفرح والبكاء عن الغم وأن تكون القلة عبارة عن العدم والكثرة عن الدوام ﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ من فنون المعاصى والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددى ما داموا فى الدنيا وجزاء مفعول له للفعل الثانى أى ليبكوا جزاء أو مصدر حذف ناصبه أى يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء بما كسبوا من المعاصى المذكورة .

﴿ فإن رجعك الله ﴾ الفاء لتفريع الأمر الآتى على ما بين من أمرهم والفعل من الرجع المتعدى دون الرجوع اللازم أى فإن ردك الله تعالى ﴿ إلى طائفة منهم ﴾ أى إلى المنافقين من المتخلفين فى المدينة فإن تخلف بعضهم إنما كان لعذر عائق مع الإسلام أو إلى من بقى من المنافقين المتخلفين بأن ذهب بعضهم

بالموت أو بالغيبة عن البلد أو بأن لم يستأذن البعض . عن قتادة أنهم كانوا اثنى عشر رجلا قيل فيهم ما قيل ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿ فقل ﴾ إخراجا لهم عن ديوان الغزاة وإبعادا لمحلهم عن محفل صحبتك ﴿ لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا ﴾ من الأعداء وهو إخبار فى معنى النهى للمبالغة وقد وقع كذلك ﴿ إنكم ﴾ تعليل لما سلف أى لأنكم ﴿ رضيتم بالقعود ﴾ أى عن الغزوة وفرحتم بذلك ﴿ أول مرة ﴾ هى غزوة تبوك ﴿ فاقعدوا ﴾ الفاء لتفريع الأمر بالعقود بطريق العقوبة على ماصدر عنهم من الرضا بالعقود أى إذ رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا من بعد ﴿ مع الخالفين ﴾ أى المتخلفين الذين ديدنهم القعود والتخلف دائما وقرىء الخلفين على القصر فكان محو أساميهم من دفتر المجاهدين ولزهم فى قرن الخالفين عقوبة لهم أى عقوبة وتذكير اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث هو الأكثر الدائر على الألسنة فإنك لا تكاد تستمع قائلا يقول هى كبرى امرأة أو أولى مرة .

﴿ ولا تصل على أحد منهم مات ﴾ صفة لأحد وإنما جيء بصيغة الماضى تنبيها على تحقق الوقوع لا محالة ﴿ أبدا ﴾ متعلق بالنهى أى لا تدع ولا تستغفر لهم أبدا ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ أى لا تقف عليه للدفن أو للزيارة والدعاء . روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيه فلما دخل عليه قال عليه السلام أهلكك حب اليهود فقال يارسول بعثت إليك لتستغفر لى لا لتؤنبنى وسأله أن يكفنه فى شعاره الذى يلى جلده ويصلى عليه فلما مات دعاه ابنه وكان مؤمنا صالحا فأجابه عليه السلام تسلية له ومراعاة لجانبه وأرسل إليه قميصه فكفن فيه فلما هم بالصلاة أو صلى نزلت . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لما هلك عبد الله بن أبى ووضعناه ليصلى عليه قام رسول الله صلى الله وسلم عليه وسلم فقلت أتصلى على عدو الله القائل يوم كذا كذا وكذا والقائل يوم كذا وكذا وكذا وعددت أيامه الخبيثة فتبسم عليه

السلام وصلى عليه ثم مشى معه وقام على حفرته حتى دفن فوالله ما لبث إلا يسيرا حتى نزل (ولا تصل) الخ فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره وإنما لم ينه عن التكفين بقميصه صلى الله عليه وسلم لأن الضنة بالقميص كانت مظنة الإخلال بالكرم على أنه كان مكافأة لقميصه الذى كان ألبسه العباس رضى الله تعالى عنه حين أسر ببدر والخبر مشهور ﴿إنهم كفروا بالله ورسوله﴾ تعليل للنهى على معنى أن الاستغفار للميت والوقوف على قبره إنما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيل فى حقهم لأنهم استمروا على الكفر بالله ورسوله مدة حياتهم ﴿وماتوا وهم فاسقون﴾ أى متمردون فى الكفر خارجون عن حدوده كما بين من معنى الفسق .

﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾ تكرير لما سبق وتقرير لمضمونه بالإخبار بوقوعه ويجوز أن يكون هذا فى حق فريق غير الفريق الأول وتقديم الأموال فى أمثال هذه المواقع على الأولاد مع كونهم أعز منها إما لعموم مساس الحاجة إليها بحسب الذات وبحسب الأفراد والأوقات فإنها مما لا بد منه لكل أحد من الآباء والأمهات والأولاد فى كل وقت وحين حتى أن من له أولاد ولا مال له فهو وأولاده فى ضيق ونكال وأما الأولاد فإنما يرغب فيهم من بلغ مبلغ الأبوة وإما لأن المال مناط لبقاء النفس والأولاد لبقاء النوع وإما لأنها أقدم فى الوجود من الأولاد لأن الأجزاء المنوية إنما تحصل من الأغذية كما سيأتى فى سورة الكهف ﴿إنما يريد الله﴾ بما متعهم به من الأموال والأولاد ﴿أن يعذبهم بها فى الدنيا﴾ بسبب معاناتهم المشاق ومكابدتهم الشدائد فى شأنها ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أى فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها والالتهاء عن النظر والتدبر فى العواقب .

﴿وإذا أنزلت سورة﴾ من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها ﴿أن آمنوا بالله﴾ أن مفسرة لما فى الإنزال من معنى القول والوحى أو مصدرية حذف عنها الجار أى بأن آمنوا ﴿وجاهدوا مع رسوله﴾ لإعزاز دينه وإعلاء كلمته ﴿استأذنك

أولوا الطول منهم﴾ أى ذووا الفضل والسعة والقدرة على الجهاد بدناً ومالا ﴿وقالوا﴾ عطف تفسيرى لاستأذنك مغن عن ذكر ما استأذنوا فيه يعنى القعود ﴿ذرنا نكن مع القاعدين﴾ أى الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر ﴿رضوا﴾ استئناف لبيان سوء صنيعهم وعدم امتثالهم لكلا الأمرين وإن لم يردوا الأول صريحا ﴿بأن يكونوا مع الخوالف﴾ مع النساء اللاتى شأنهن القعود ولزوم البيوت جمع خالفة وقيل الخالفة من لا خير فيه ﴿وطبع على قلوبهم فهم﴾ بسبب ذلك ﴿لا يفقهون﴾ ما فى الإيمان بالله وطاعته فى أوامره ونواهيه واتباع رسوله عليه السلام والجهاد من السعادة وما فى أضداد ذلك من الشقاوة ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه﴾ بالله وبما جاء من عنده تعالى وفيه إيذان بأنهم ليسوا من الإيمان بالله فى شىء وإن لم يعرضوا عنه صريحا إعراضهم عن الجهاد باستئذانهم فى القعود ﴿جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ أى إن تخلف هؤلاء عن الغزو فقد نهد إليه ونهض له من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقدا وأقاموا أمر الجهاد بكلا نوعيه كقوله تعالى (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) ﴿وأولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لهم﴾ بواسطة نعوتهم المزبورة ﴿الخيرات﴾ أى منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى العقبى وقيل الحور كقوله عز قائلا (فيهن خيرات حسان) وهى جمع خيرة تخفيف خيّرة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أى الفائزون بالمطلوب لا من حاز بعضا من الحظوظ الفانية عما قليل وتكرير اسم الإشارة تنويه لشأنهم وربء لمكانهم ﴿أعد الله لهم﴾ استئناف لبيان كونهم مفلحين أى هيأ لهم فى الآخرة ﴿جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ حال مقدرة من الضمير المجرور والعامل أعد ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما فهم من إعداد الله سبحانه لهم الجنات المذكورة من نيل الكرامة العظمى ﴿الفوز العظيم﴾ الذى لا فوز وراءه

﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ شروع فى بيان أحوال منافقى الأعراب إثر بيان منافقى أهل المدينة والمعذرون من عذر فى الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد وحقيقته أن يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له

أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين وهم المعتذرون بالباطل وقرىء المعذرون من الإعذار وهو الاجتهاد في العذر والاحتشاد فيه قيل هم أسد وغطفان قالوا إن لنا عيالا وإن بنا لجهداً فائذن لنا في التخلف وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغار أعراب طيء على أهالينا ومواشينا فقال عليه السلام سيغنيني الله تعالى عنكم وعن مجاهد نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله سبحانه وعن قتادة اعتذروا بالكذب وقرىء المعذرون بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن إذ التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاي والصاد في المطوعين وأزكى وأصدق وقيل أريد بهم المعتذرون بالصحة وبه فسر المعذرون والمعذرون أي الذين لم يفرطوا في العذر ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ وهم منافقوا الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا فظهر أنهم كذبوا الله ورسوله بادعائهم الإيمان والطاعة ﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ أي من الأعراب أو من المعذرين فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عذاب أليم﴾ بالقتل والأسر في الدنيا والنار في الآخرة

من يرخص لهم في ترك بالجهاد

﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ كالهرمى والزمنى ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ لفقرهم كمزينة وجهينة وبني عذرة ﴿حرج﴾ إثم في التخلف ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ وهو عبارة عن الإيمان بهما والطاعة لهما في السر والعلن وتوليهما في السراء والضراء والحب فيهما والبغض فيهما كما يفعل المولى الناصح بصاحبه ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ استئناف مقرر لمضمون ما سبق أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل ومن مزيدة للتأكيد ووضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على انتظامهم بنصحهم لله ورسوله في سلك المحسنين أو تعليل النفي الحرج عنهم أي ما على جنس المحسنين من سبيل وهم من جملتهم ﴿والله غفور رحيم﴾ تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر مشير إلى أن بهم حاجة إلى المغفرة وإن كان تخلفهم بعذر .

﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ عطف على المحسنين كما يؤذن به قوله عز وجل فيما سيأتى (إنما السبيل) الآية وقيل عطف على الضعفاء وهم البكاؤن سبعة من الأنصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم ابن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن معقل وعلبة بن زيد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك فقال عليه السلام لا أجد فتولوا وهم يبكون وقيل هم بنو مقرن معقل وسويد ونعمان وقيل أبو موسى الأشعرى وأصحابه رضى الله تعالى عنهم ﴿ قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ حال من الكاف فى أتوك بإضمار قد وما عامة لما سألوه عليه السلام وغيره مما يحمل عليه عادة وفى إيثار لا أجد على ليس عندى من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين مالا يخفى كأنه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده ﴿ تولوا ﴾ جواب إذا ﴿ وأعينهم تفيض ﴾ أى تسيل بشدة ﴿ من الدمع ﴾ أى دمعا فإن من البيانيه مع مجرورها فى حيز النصب على التمييز وهو أبلغ من يفيض دمعها لإفادتها أن العين بعينها صارت دمعا فياضا والجملة حالية وقوله عز اسمه ﴿ حزنا ﴾ نصب على العلية أو الحالية أو المصدرية لفعل دل عليه ماقبله أى تفيض للحزن فإن الحزن يسند إلى العين مجازا كالفيض أو تولوا له أو حزنين أو يحزنون حزنا فتكون هذه الجملة حالا من الضمير فى تفيض ﴿ ألا يجدوا ﴾ على حذف لام متعلقه بحزنا أو تفيض أى لئلا يجدوا ﴿ ماينفقون ﴾ فى شراء ما يحتاجون إليه إذ لم يجدوه عندك .

﴿ إنما السبيل ﴾ بالمعاتبة ﴿ على الذين يستأذنونك ﴾ فى التخلف ﴿ وهم أغنياء ﴾ واجدون لأهبة الغزو مع سلامتهم ﴿ رضوا ﴾ استئناف تعليلى لما سبق كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا ﴿ بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ الذين شأنهم الضعة والدناءة ﴿ وطبع الله على قلوبهم ﴾ أى خذلهم فغفلوا عن وخامة العاقبة ﴿ فهم ﴾ بسبب ذلك ﴿ لا يعلمون ﴾ أبدا غائلة ما رضوا به وما يستتبعه آجلا كما لم يعلموا بخساسة شأنه عاجلا .

عود إلى المنافقين

﴿ يعتذرون إليكم ﴾ استئناف لبيان مايتصدون له عند القفول إليهم . روى أنهم كانوا بضعة وثمانين رجلا فلما رجع عليه السلام إليهم جاؤا يعتذرون إليه بالباطل والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فإنهم كانوا يعتذرون إليهم أيضاً لا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط أى يعتذرون إليكم فى التخلف ﴿ إذا رجعتم ﴾ من الغزو منتهين ﴿ إليهم ﴾ وإنما لم يقل إلى المدينة إيذانا بأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا إلى الرجوع إلى المدينه فلعل منهم من بادر إلى الاعتذار قبل الرجوع إليها ﴿ قل ﴾ تخصيص هذا الخطاب برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه فيما سبق لأصحابه أيضا لما أن الجواب وظيفته عليه السلام وأما اعتذارهم فكان شاملا للمسلمين شمول الرجوع لهم ﴿ لا تعتذروا ﴾ أى لا تفعلوا الاعتذار كقوله تعالى (اخسؤا فيها ولا تكلمون) أو لا تعتذروا بما عندكم من المعاذير وأما التعرض لعنوان كذبها فلا يساعده قوله تعالى ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ أى لن نصدقكم فى ذلك أبدا فإنه استئناف تعليلى للنهى مبنى على سؤال نشأ من قبلهم متفرع على ادعاء الصدق فى الاعتذار كأنهم قالوا لم نعتذر فقيل لأنا لا نصدقكم أبدا فيكون عبثا إذلا يترتب عليه غرض المعتذر وقوله عز وجل ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ تعليل لانتفاء التصديق أى أعلمنا بالوحى بعض أخباركم المنافية للتصديق مما باشرتموه من الشر والفساد وأضمرتموه فى ضمائركم وهيأتموه للإبراز فى معرض الاعتذار من الأكاذيب وجمع ضمير المتكلم فى الموضعين للمبالغة فى حسم أطماعهم من التصديق رأسا ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد من المؤمنين أصلا فإن تصديق البعض لهم ربما يطمعهم فى تصديق الرسول أيضا صلى الله عليه وسلم بواسطة المصدقين وللإيذان بأن افتضاحهم بين المؤمنين كافة ﴿ وسيرى الله عملكم ﴾ فيما سيأتى أتنيبون إليه تعالى مما أنتم فيه من النفاق أم تثبتون وكأنه استتابة وإمهال للتوبة وتقديم مفعول الرؤية على ما عطف على فاعله من قوله تعالى ﴿ ورسوله ﴾ للإيذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما وللإشعار بأن مدار الوعيد هو علمه

عز وجل بأعمالهم ﴿ ثم تردون ﴾ يوم القيامة ﴿ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال ووضع المظهر موضع المضمر لتشديد الوعيد فإن علمه سبحانه وتعالى بجميع أعمالهم الظاهرة والباطنة وإحاطته بأحوالهم البارزة والكامنة مما يوجب الزجر العظيم ﴿فينبئكم﴾ عند ردكم إليه ووقوفكم بين يديه ﴿ بما كنتم تعلمون ﴾ أى بما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من الأعمال السيئة السابقة واللاحقة على أن ما موصولة والعائد إليها محذوف أو بعملكم على أنها مصدرية والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به وإيثارها عليها لمراعاة ما سبق من قوله تعالى (قد نبأنا الله) الخ فإن المنبأ به الأخبار المتعلقة بأعمالهم وللإيذان بأنهم ما كانوا عالمين فى الدنيا بحقيقة أعمالهم وإنما يعلمونها يومئذ .

﴿ سيحلفون بالله لكم ﴾ تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة وتقريراً لها والسين للتأكيد والمحلوف عليه محذوف يدل عليه الكلام وهو ما اعتذروا به من الأكاذيب والجملة بدل من يعتذرون أو بيان له ﴿ إذا انقلبتم ﴾ أى انصرفتم من الغزو ﴿ إليهم ﴾ ومعنى الانقلاب هو الرجوع والانصراف مع زيادة معنى الوصول والاستيلاء وفائدة تقييد حلفهم به الإيذان بأنه ليس لدفع ما خاطبهم النبي عليه السلام به من قوله تعالى (لا تعتذروا) الخ بل هو أمر مبتدأ ﴿لتعرضوا﴾ وتصفحوا ﴿ عنهم ﴾ صفح رضا فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم كما يفصح عنه قوله تعالى (لترضوا عنهم) ﴿فأعرضوا عنهم﴾ لكن لا إعراض رضا كما هو طلبتهم بل إعراض اجتناب ومقت كما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿ إنهم رجس ﴾ فإنه صريح فى أن المراد بالإعراض عنهم إما الاجتناب عنهم لما فيهم من الرجس الروحانى وإما ترك استصلاحهم بترك المعاتبة لأن المقصود بها التطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير فلا يتعرض لهم بها وقوله عز وعلا[1] ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ إما من تمام التعليل فإن كونهم من أهل النار من دواعى

---

(١) فى ١٠ : عز وجل .

الاجتناب عنهم وموجبات ترك استصلاحهم باللوم والعتاب وإما تعليل مستقل أى وكفتهم النار عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوا أنتم فى ذلك ﴿ جزاء ﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر من لفظه وقع حالا أى يجزون جزاء أو لمضمون الجملة السابقة فإنها مفيدة لمعنى المجازاة قطعاً كأنه قيل يجزيون جزاء ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ فى الدنيا من فنون السيئات أو على أنه مفعول له ﴿ يحلفون لكم ﴾ بدل مما سبق وعدم ذكر المحلوف به لظهوره أى يحلفون به لظهوره أى يحلفون به تعالى ﴿ لترضوا عنهم ﴾ بحلفهم وتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم .

﴿ فإن ترضوا عنهم ﴾ حسبما راموا وساعدتموهم فى ذلك ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ أى فإن رضاكم عنهم لا يجديهم نفعاً لأن الله ساخط عليهم ولا أثر لرضاكم عند سخطه سبحانه ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللإيذان بشمول الحكم لمن شاركهم فى ذلك والمراد به نهى المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده فإن الرضا عمن لا يرضى عنه الله تعالى مما لا يكاد يصدر عن المؤمن وقيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين من دواعى رضا الله تعالى . قيل هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين منافقا فقال النبى صلى الله عليه وسلم للمؤمنين حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقيل جاء عبدالله بن أبى يحلف أن لا يتخلف عنه أبدا ﴿ الأعراب ﴾ هى صيغة جمع وليست بجمع للعرب قاله سيبويه لئلا يلزم كون الجمع أخص من الواحد فإن العرب هو هــذا الجيل الخاص سواء سكن البوادى أم القرى وأما الأعراب فلا يطلق إلا على من يسكن البوادى ولهذا نسب إلى الأعراب على لفظه فقيل أعرابى وقال أهل اللغة رجل عربى وجمعه العرب كما يقال مجوسى ويهودى ثم يحذف ياء النسب فى الجمع فيقال المجوس واليهود ورجل أعرابى ويجمع على الأعراب والأعاريب أى أصحاب البدو ﴿ أشد كفرا ونفاقا ﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوة قلوبهم وتوحشهم ونشئهم فى معزل من مشاهدة

العلماء ومفاوضتهم وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما فى قوله تعالى وكان الإنسان كفورا إذ ليس كلهم كما ذكر على ما ستحيط به خبرا ﴿ وأجدر أن لا يعلموا ﴾ أى أحق وأخلق بأن لا يعلموا ﴿ حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ لبعدهم عن مجلسه صلى الله عليه وسلم وحرمانهم من مشاهدة معجزاته ومعاينة ما ينزل عليه من الشرائع فى تضاعيف الكتاب والسنة ﴿ والله عليم ﴾ بأحوال كل من أهل الوبر والمدر ﴿ حكيم ﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم من العقاب والثواب .

﴿ ومن الأعراب ﴾ شروع فى بيان تشعب جنس الأعراب إلى فريقين وعدم انحصارهم فى الفريق المذكور كما يتراءى من ظاهر النظم الكريم وشرح لبعض مثالب هؤلاء المتفرعة على الكفر والنفاق بعد بيان تماديهم فيهما وحمل الإعراب على الفريق المذكور خاصة وإن ساعده كون من يحكى حاله بعضا منهم وهم الذين بصدد الإنفاق من أهل النفاق دون فقرائهم أو أعراب أسد وغطفان وتميم كما قيل لكن لايساعده ما سيأتى من قوله تعالى (ومن الأعراب من يؤمن) الخ فإن أولئك ليسوا من هؤلاء قطعا وإنما هم من الجنس أى ومن جنس الأعراب الذى نعت بنعت بعض أفراده ﴿ من يتخذ ما ينفق ﴾ من المال أى يعد ما يصرفه فى سبيل الله ويتصدق به صورة ﴿ مغرما ﴾ أى غرامة وخسرانا لازما إذ لا ينفقه احتسابا ورجاء لثواب الله تعالى ليكون له مغنما وإنما ينفقه رياء وتقية فهى غرامة محضة وما فى صيغة الاتخاذ من معنى الاختيار والانتفاع بما يتخذ إنما هو باعتبار غرض المنفق من الرياء والتقية لا باعتبار ذات منفقة أعنى كونها غرامة ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ أصل الدائرة ما يحيط بالشىء والمراد بها مالا محيص عنه من مصائب الدهر أى ينتظر بكم دوائر الدهر ونوبه ودوله ليذهب غلبتكم عليه فليتخلص مما ابتلى به ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين على نهج الاعتراض كقوله سبحانه غلت أيديهم بعد قول اليهود ما قالوا والسوء مصدر ثم أطلق على كل ضر وشر وأضيفت إليه الدائرة ذما كما يقال رجل سوء لأن من دارت عليه يذمها وهى من

باب إضافة الموصوف إلى صفته فوصفت فى الأصل بالمصدر مبالغة ثم أضيفت إلى صفتها كقوله عز وجل (ما كان أبوك امرأ سوء) وقيل معنى الدائرة يقتضى معنى السوء فإنما هى إضافة بيان وتأكيد كما قالوا شمس النهار ولحيا رأسه وقرىء بالضم وهو العذاب كما قيل له سيئة ﴿ والله سميع ﴾ لما يقولونه عند الإنفاق عما لا خير فيه ﴿ عليم ﴾ بما يضمرونه من الأمور الفاسدة التى من جملتها أن يتربصوا بكم الدوائر وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى .

﴿ ومن الأعراب ﴾ أى من جنسهم على الإطلاق ﴿ من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ﴾ أى يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاء والادخار ﴿ ما ينفق ﴾ أى ينفقه فى سبيل الله تعالى ﴿ قربات ﴾ أى ذرائع إليها وللإيذان بما بينهما من كمال الاختصاص جعل كأنه نفس القربات والجمع باعتبار أنواع القربات أو أفرادها وهى ثانى مفعولى يتخذ وقوله تعالى ﴿ عند الله ﴾ صفتها أو ظرف ليتخذ ﴿ وصلوات الرسول ﴾ أى وسائل إليها فإنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ولذلك سن للمصدق أن يدعوا للمتصدق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلى عليه كما فعله عليه الصلاة والسلام حين قال اللهم صل على آل أبى أو فى فإن ذلك منصبه فله أن يتفضل به على من يشاء والتعرض لوصف الإيمان بالله واليوم الآخر فى الفريق الأخير مع أن مساق الكلام لبيان الفرق بين الفريقين فى شأن اتخاذ ما ينفقانه حالا ومآلا وأن ذكر اتخاذه ذريعة إلى القربات والصلوات مغن عن التصريح بذلك لكمال العناية بإيمانهم وبيان اتصافهم به وزيادة الاعتناء بتحقيق الفرق بين الفريقين من أول الأمر وأما الفريق الأول فاتصافهم بالكفر والنفاق معلوم من سياق النظم الكريم صريحا ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديق لرجائهم والضمير لما ينفق والتأنيث باعتبار الخبر مع ما مر من تعدده بأحد الوجهين والتنكير للتفخيم المغنى عن الجمع أى قربة عظيمة لا يكتنه كنهها وفى إيراد الجملة اسمية وتصديرها بحرفى التنبيه والتحقيق من الجزالة ما لا يخفى والاقتصار على بيان كونها قربة لهم لأنها الغاية القصوى

وصلوات الرسول من ذرائعها وقوله تعالى ﴿ سيدخلهم الله فى رحمته ﴾ وعد لهم بإحاطة رحمته الواسعة بهم وتفسير للقربة كما أن قوله عز وعلا (والله سميع عليم) وعيد للأولين عقيب الدعاء عليهم والسين للدلالة على تحقق ذلك وتقرره البتة وقوله تعالى ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ تعليل لتحقق الوعد على نهج الاستئناف التحقيقى قيل هذا فى عبد الله ذى البجادين وقومه وقيل فى بنى مقرن من مزينة وقيل فى أسلم وغفار وجهينة وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم وغفار وشىء من جهينة ومزينة خير عند الله يوم القيامة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين ﴾ بيان لفضائل أشراف المسلمين إثر بيان فضيلة طائفة منهم والمراد بهم الذين صلوا إلى القبلتين أو الذين شهدوا بدرا أو الذين أسلموا قبل الهجرة ﴿ والأنصار ﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعين رجلا والذى آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير وقرىء بالرفع عطفا على والسابقون ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ أى ملتبسين به والمراد به كل خصلة حسنة وهم اللاحقون بالسابقين من الفريقين على أن من تبعيضية أو الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة فالمراد بالسابقين جميع المهاجرين والأنصار ومن بيانية ﴿ رضى الله عنهم ﴾ خبر للمبتدأ أى رضى الله عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿ ورضوا عنه ﴾ بما نالوه من رضاه المستتبع لجميع المطالب طرا ﴿ وأعد لهم ﴾ فى الآخرة ﴿ جنات تجرى تحتها الأنهار ﴾ وقرىء من تحتها كما فى سائر المواقع ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ من غير انتهاء ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ الذى لا فوز وراءه وما فى اسم الإشارة من معنى البعد لبيان بعد منزلتهم فى مراتب الفضل وعظم الدرجة من مؤمنى الإعراب .

المنافقون فى المدينة

﴿ وممن حولكم من الأعراب ﴾ شروع فى بيان أحوال منافقى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان حال أهل البادية منهم أى ممن حوله

بلدتكم ﴿ منافقون ﴾ وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها ﴿ ومن أهل المدينة ﴾ عطف على ممن حولكم عطف مفرد على مفرد وقوله تعالى ﴿ مردوا على النفاق ﴾ إما جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مسوقة لبيان غلوهم فى النفاق إثر بيان اتصافهم به وإما صفة للمبتدأ المذكور فصل بينها وبينه بما عطف على خبره وأن صفة لمحذوف أقيمت هى مقامه وهو مبتدأ خبره من أهل المدينة كما فى قوله « أنا ابن جلا وطلاع الثنايا » والجملة عطف على الجملة السابقة أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق أى تمهروا فيه من مرن فلان على عمله ومرد عليه إذا درب به وضرى حتى لأن عليه ومهر فيه غير أن مرد لا يكاد يستعمل إلا فى الشر فالتمرد على الوجهين الأولين شامل للفريقين حسب شمول النفاق وعلى الوجه الأخير خاص بمنافقى أهل المدينة وهو الأظهر والأنسب بذكر منافقى أهل البادية أولا ثم ذكر منافقى الأعراب المجاورين للمدينة ثم ذكر منافقى أهلها والله تعالى أعلم وقوله عز شأنه ﴿ لا تعلمهم ﴾ بيان لتمردهم أى لا تعرفهم أنت لكن لا بأعيانهم وأسمائهم وأنسابهم بل بعنوان نفاقهم يعنى أنهم بلغوا من المهارة فى النفاق والتنوق فى مراعاة التقية والتحامى عن مواقع التهم إلى مبلغ يخفى عليك حالهم مع ما أنت عليه من علو الكعب وسمو الطبقة فى كمال الفطنة وصدق الفراسة وفى تعليق نفى العلم بهم مع أنه متعلق بحالهم مبالغة فى ذلك وإيماء إلى أن ماهم فيه من صفة النفاق لعراقتهم ورسوخهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتهم أو مشخصاتهم بحيث لا يعد من لا يعرفهم بتلك الصفة عالما بهم وحمل عدم علمه عليه الصلاة والسلام بأعيانهم على عدم علمه عليه الصلاة والسلام بعد مجىء هذا البيان على أنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن فيهم منافقين لكن لا يعلمهم بأعيانهم مع كونه خلاف الظاهر عار عما ذكر من المبالغة .

وقوله عز وجل ﴿ نحن نعلمهم ﴾ تقرير لما سبق من مهارتهم فى فن النفاق أى لا يقف على سرائرهم المركوزة فى ضمائرهم إلا من لا تخفى عليه خافية لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر وإظهار الإخلاص وفى تعليق العلم بهم

مع أن المقصود بيان تعلقه بحالهم ما مر فى تعليق نفيه بهم وقوله عز شأنه ﴿ سنعذبهم ﴾ وعيد لهم وتحقيق لعذابهم حسبما علم الله فيهم من موجباته والسين للتأكيد ﴿ مرتين ﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قام خطيبا يوم الجمعة فقال أخرج يا فلان فإنك منافق أخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج ناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الأول والثانى إما القتل وإما عذاب القبر أو الأول هو القتل والثانى عذاب القبر أو الأول أخذ الزكاة لما أنهم يعدونها مغرما بحتا والثانى نهك الأبدان وإتعابها بالطاعات الفارغة عن الثواب ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير كما فى قوله تعالى (فارجع البصر كرتين) أى كرة بعد أخرى ﴿ ثم يردون ﴾ يوم القيامة ﴿ إلى عذاب عظيم ﴾ هو عذاب النار وفى تغيير السبك بإسناد عذابهم السابق إلى نون العظمة حسب إسناد ما قبله من العلم وإسناد ردهم إلى العذاب اللاحق إلى أنفسهم إيذان باختلافهما حالا وأن الأول خاص بهم وقوعا وزمانا يتولاه سبحانه وتعالى والثانى شامل لعامة الكفرة وقوعا وزمانا وإن اختلفت طبقات عذابهم .

﴿ وآخرون ﴾ بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم فى أمور الدين وهو عطف على منافقون أى ومنهم يعنى وممن حولكم ومن أهل المدينة قوم آخرون ﴿ اعترفوا بذنوبهم ﴾ التى هى تخلفهم عن الغزو وإيثار الدعة عليه والرضا بسوء جوار المنافقين وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة ولم يخفوا ما صدر عنهم من الأعمال السيئة كما فعله من اعتاد إخفاء ما فيه وإبراز ما ينافيه من المنافقين الذين اعتذروا بما لا خير فيه من المعاذير المؤكدة بالإيمان الفاجرة حسب ديدنهم المألوف وهم رهط من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد عندما بلغهم ما نزل فى المتخلفين فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين حسب عادته الكريمة ورآهم كذلك فسأل عن شأنهم فقيل أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم فقال عليه الصلاة

والسلام وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت ﴿خلطوا عملا صالحا﴾ هو ما سبق منهم من الأعمال الصالحة والخروج إلى المغازى السابقة وغيرها وما لحق من الاعتراف بذنوبهم فى التخلف عن هذه المرة وتذممهم وندامتهم على ذلك وتخصيصه بالاعتراف لا يناسب الخلط لا سيما على وجه يؤذن بتوارد المختلطين وكون كل منهما مخلوطا ومخلوطا به كما يؤذن به تبديل الواو بالباء فى قوله تعالى ﴿ وآخر سيئا ﴾ فإن قولك خلطت الماء باللبن يقتضى إيراد الماء على اللبن دون العكس وقولك خلطت الماء واللبن معناه إيقاع الخلط بينهما من غير دلالة على اختصاص أحدهما بكونه مخلوطا والآخر بكونه مخلوطا به وترك تلك الدلالة للدلالة على جعل كل منهما متصفا بالوصفين جميعا وذلك فيما نحن فيه بورود كل من العملين على الآخرة مرة بعد أخرى والمراد بالعمل السيء ما صدر عنهم من الأعمال السيئة أولا وآخرا وعن الكلبى التوبة والإثم وقيل الواو بمعنى الباء كما فى قولهم بعت الشاء شاة ودرهما بمعنى شاة بدرهم .

﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ أى يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ يتجاوز عن سيئات التائب ويتفضل عليه وهو تعليل لما تفيده كلمة عسى من وجوب القبول فإنها للإطماع الذى هو من أكرم الأكرمين إيجاب وأى إيجاب ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ ورى أنهم لما أطلقوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال عليه الصلاة والسلام ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزلت فليست هى الصدقة المفروضه لكونها مأمورا بها ولما روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ منهم الثلث وترك لهم الثلثين ووقع ذلك بيانا لما فى صدقة من الإجمال وإنما هى كفارة لذنوبهم حسبما ينبىء عنه قوله عزوجل ﴿تطهرهم﴾ أى عما تلطخوا به من أوضار التخلف والتاء للخطاب والفعل مجزوم على أنه جواب للأمر وقرىء بالرفع على أنه حال من ضمير المخاطب فى خذ أو صفة لصدقة والتاء للخطاب أو للصدقة والعائد على الأول محذوف ثقة بما بعده وقرىء تطهرهم من أطهره بمعنى طهره ﴿وتزكيهم بها﴾ بإثبات الياء وهو خبر لمبتدأ محذوف والجملة

حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه أى وأنت تزكيهم بها أى تنمى بتلك الصدقة حسناتهم إلى مراتب المخلصين أو أموالهم أو تبالغ فى تطهيرهم هذا على قراءة الجزم فى تطهرهم وأما على قراءة الرفع فسواء جعلت التاء للخطاب أو للصدقة وكذا إذا جعلت الجمله الأولى حالا من ضمير المخاطب أو صفة للصدقة على الوجهين فالثانية عطف على الأولى حالا وصفة من غير حاجة إلى تقدير المبتدأ لتوجيه دخول الواو فى الجملة الحالية ﴿ وصل عليهم ﴾ أى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ﴿ إن صلوتك ﴾ وقرىء صلواتك مراعاة لتعدد المدعو لهم ﴿ سكن لهم ﴾ تسكن نفوسهم إليها وتطمئن قلوبهم بها ويثقون بأن سبحانه قبل توبتهم والجملة تعليل للأمر بالصلاة عليهم ﴿ والله سميع ﴾ يسمع ما صدر عنهم من الاعتراف بالذنب والتوبة والدعاء ﴿ عليم ﴾ بما فى ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم ومن الإخلاص فى التوبة والدعاء أو سميع يجيب دعاءك لهم عليم بما تقتضيه الحكمة والجملة حينئذ تذييل للتعليل مقرر لمضمونه وعلى الأول تذييل لما سبق من الآيتين محقق لما فيهما .

﴿ ألم يعلموا ﴾ وقرىء بالتاء والضمير إما للتائبين فهو تحقيق لما سبق من قبول توبتهم وتطهير الصدقة وتزكيتها لهم وتقرير لذلك وتوطين لقلوبهم ببيان أن المتولى لقبول توبتهم وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه وإن أسند الأخذ والتطهير والتزكية إليه عليه الصلاة والسلام أى ألم يعلم أولئك التائبون ﴿ أن الله هو يقبل التوبة ﴾ الصحيحة الخالصة ﴿ عن عباده ﴾ المخلصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم كما يفصح عنه كلمة عن والمراد بهم إما أولئك التائبون ووضع المظهر فى موضع المضمر للإشعار بعلية العبادة لقبولها وإما كافة العباد وهم داخلون فى ذلك دخولا أوليا ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ أى يقبل صدقاتهم على أن اللام عوض عن المضاف إليه أو جنس الصدقات المندرج تحته صدقاتهم إندراجا أوليا أى أنه هو الذى يتولى قبول التوبة وأخذ الصدقات وما يتعلق بها من التطهير والتزكية وإن كنت أنت المباشر لها ظاهرا وفيه من تقرير ما ذكر ورفع شأن النبى صلى

الله عليه وسلم على نهج قوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) ما لا يخفى ﴿ وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ تأكيد لما عطف عليه وزيادة تقرير لما يقرره مع زيادة معنى ليس فيه أى ألم يعلموا أنه المختص المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة والرحمة وأن ذلك سنة مستمرة له وشأن دائم والجملتان فى حيز النصب بيعلموا بسد كل واحدة منهما مسد مفعولية وإما لغير التائبين من المؤمنين فقد روى أنهم قالوا لما تيب على الأولين هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت أى ألم يعلموا ما للتائبين من الخصال الداعية إلى التكرمة والتقريب والانتظام فى سلك المؤمنين والتلقى بحسن القبول والمجالسة فهو ترغيب لهم فى التوبة والصدقة وقوله تعالى .

﴿ وقل اعملوا ﴾ زيادة ترغيب لهم فى العمل الصالح الذى من جملته التوبة وللأولين فى الثبات على ما هم عليه أى قل لهم بعد ما بان لهم شأن التوبة اعملوا ما تشاؤن من الأعمال فظاهره ترخيص وتخيير وباطنه ترغيب وترهيب وقوله عز وجل ﴿ فسيرى الله عملكم ﴾ أى خيرا كان أو شرا وتعليل لما قبله وتأكيد للترغيب والترهيب والسين للتأكيد ﴿ ورسوله ﴾ عطف على الاسم الجليل وتأخيره عن المفعول للإشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت .

﴿ والمؤمنون ﴾ فى الخبر لو لا أن رجلا عمل فى صخرة لا باب لها ولا كوة لخروج عمله إلى الناس كائنا ما كان والمعنى أن أعمالكم غير خافية عليهم كما رأيتم وتبين لكم ثم إن كان المراد بالرؤية معناها الحقيقى فالأمر ظاهر وإن أريد بها مآلها من الجزاء خيراً أو شرا فهو خاص بالدنيوى من إظهار المدح والثناء والذكر الجميل والإعزاز ونحو ذلك من الأجزية وأضدادها ﴿ وستردون ﴾ أى بعد الموت ﴿ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ فى وضع الظاهر موضع المضمر من تهويل الأمر وتربية المهابة ما لا يخفى ووجه تقديم الغيب فى الذكر لسعة عالمه وزيادة خطره على الشهادة غنى عن البيان وقيل إن الموجودات الغائبة عن الحواس علل أو كالعلل للموجودات المحسوسة والعلم بالعلل علة للعلم بالمعلومات فوجب

سبق العلم بالغيب على العلم بالشهادة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيب مايسرونه من الأعمال والشهادة مايظهرونه كقوله تعالى (يعلم مايسرون وما يعلنون) فالتقديم حينئذ لتحقيق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة على أبلغ وجه وآكده لا لإيهام أن علمه سبحانه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته منزه عن أن يكون بطريق حصول الصورة بل وجود كل شىء وتحققه فى نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأمور البارزة والكامنة وإما للإيذان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلن إذ ما من شىء يعلن إلا وهو أو مباديه القريبة أو البعيدة مضمر قبل ذلك فى القلب فتعلق علمه تعالى به فى حالته الأولى متقدم على تعلقه به فى حالته الثانية ﴿ فينبئكم ﴾ عقب الرد الذى هو عبارة عن الأمر الممتد إلى يوم القيامة ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ قبل ذلك فى الدنيا والمراد بالتنبئة بذلك الجزاء بحسبه إن خيرا فخير وإن شرا فشر فهو وعد ووعيد .

﴿ وآخرون ﴾ عطف على آخرون قبله أى ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب قوم آخرون غير المعترفين المذكورين ﴿ مرجون ﴾ وقرىء مرجئون من أرجيته وأرجأته أى أخرته ومنه المرجئة الذين لا يقطعون بقبول التوبة ﴿ لأمر الله ﴾ فى شأنهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم كعب ابن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السوارى وإظهار الغم والجزع والندم على ما فعلوا فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى أصحابه عن أن يسلموا عليهم ويكلموهم وكانوا من أصحاب بدر فهجروهم والناس فى شأنهم على اختلاف فمن قائل هلكوا وقائل عسى الله أن يغفر لهم فصاروا عندهم مرجئين لأمره تعالى ﴿ إما يعذبهم ﴾ إن بقوا على ما هم عليه من الحال وقيل إن أصروا على النفاق وليس بذاك فإن المذكورين ليسوا من المنافقين ﴿ وإما يتوب عليهم ﴾ إن خلصت نيتهم وصحت توبتهم والجملة فى محل النصب على الحالية أى منهم

هؤلاء إما معذبين وإما متوبا عليهم وقيل آخرون مبتدأ ومرجون صفته وهذه الجملة خبره ﴿والله عليم﴾ بأحوالهم ﴿حكيم﴾ فيما فعل بهم من الارجاء وما بعده وقرىء والله غفور رحيم ﴿والذين اتخذوا مسجدا﴾ عطف على ما سبق أى ومنهم الذين أو نصب على الذم وقرىء بغير واو لأنها قصة على حيالها ﴿ضرارا﴾ أى مضارة للمؤمنين وانتصابه على أنه مفعول ثان لاتخذوا أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر منصوب على الحالية أى يضارون بذلك ضرارا أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا من ضمير اتخذوا أى مضارين للمؤمنين . روى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فيصلى بهم فى مسجدهم فلما فعله عليه الصلاة والسلام حسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا نبنى مسجدا ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ويصلى فيه أبو عامر الراهب أيضا إذا قدم من الشام وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق وقد كان قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل يفعل ذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هاربا إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر وآت بجنود ومخرج محمدا وأصحابه من المدينة فبنوا مسجدا إلى جنب مسجد قباء وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة فقال عليه الصلاة والسلام إنى على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قفل عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزلت عليه فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر ابن السكن ووحشى فقال لهم انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة وهلك أبو عامر الفاسق بالشام بقنسرين ﴿وكفرا﴾ تقوية للكفر الذى يضمرونه ﴿وتفريقا بين المؤمنين﴾ الذين كانوا يصلون فى مسجد قباء مجتمعين فيغص بهم فأرادوا أن يتفرقوا

وتختلف كلمتهم ﴿ وإرصادا ﴾ اعدادا وانتظارا وترقبا ﴿ لمن حارب الله ورسوله ﴾ وهو الراهب الفاسق أى لأجله حتى يجيء فيصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ من قبل ﴾ متعلق باتخذوا أى اتخذوه من قبل أن ينافقوا بالتخلف حيث كانوا بنوه قبل غزوة تبوك أو بحارب أى حاربهما قبل اتخاذ هذا المسجد ﴿ وليحلفن أن أردنا ﴾ أى ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿ إلا الحسنى ﴾ إلا الخصلة الحسنى وهى الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين أو إلا الإرادة الحسنى ﴿ والله يشهد أنهم لكاذبون ﴾ فى حلفهم ذلك .

﴿ لا تقم ﴾ للصلاة ﴿ فيه ﴾ فى ذلك المسجد حسبما دعوك إليه ﴿ أبدا لمسجد أسس ﴾ أى بنى أصله ﴿ على التقوى ﴾ يعنى مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة وقيل هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وعن أبى سعيد رضى الله عنه سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذى أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال مسجدكم هذا مسجد المدينة واللام إما للابتداء أو للقسم المحذوف أى والله لمسجد وعلى التقديرين فمسجد مبتدأ وما بعده صفته وقوله تعالى ﴿ من أول يوم ﴾ أى من أيام تأسيسه متعلق بأسس وقوله تعالى ﴿ أحق أن تقوم فيه ﴾ أى للصلاة وذكرا الله تعالى خبره وقوله تعالى ﴿ فيه رجال ﴾ جملة مستأنفة مبينة لأحقيته لقيامه عليه الصلاة والسلام فيه من جهة الحال بعد بيان أحقيته له من حيث المحل أو صفة أخرى للمبتدأ أو حال من الضمير فى فيه وعلى كل حال ففيه تحقيق وتقرير لاستحقاقه القيام فيه والمراد بكونه حقيقا به إذ لا استحقاق فى مسجد الضرار رأسا وإنما عبر عنه بصيغة التفضيل لفضله فى نفسه أو الأفضلية فى الاستحقاق المتناول لما يكون باعتبار زعم البانى ومن يشايعه فى الاعتقاد وهو الأنسب بما سيأتى ﴿ يحبون أن يتطهروا ﴾ من المعاصى والخصال الذميمة لمرضاة الله سبحانه وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها .

﴿ والله يحب المطهرين ﴾ أى يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه إدناء المحب حبيبه . قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر رضى الله تعالى عنه يا رسول الله أنهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه الصلاة والسلام[1] أترضون بالقضاء قالوا نعم قال عليه الصلاة أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال أتشكرون فى الرخاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام مؤمنون ورب الكعبة فجلس ثم قال يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا النبى عليه الصلاة والسلام فيه رجال يحبون أن يتطهروا وقرىء أن يطهروا بالادغام وقيل هو عام فى التطهر عن النجاسات كلها وكانوا يتبعون الماء أثر البول وعن الحسن رضى الله عنه هو التطهر عن الذنوب بالتوبة وقيل يحبرن أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم ﴿ أفمن أسس بنيانه ﴾ على بناء الفعل للفاعل والنصب وقرىء على البناء للمفعول والرفع وقرىء أسس بنيانه على الإضافة جمع أساس وأساس بالفتح والكسر جمع أس وقرىء أساس بنيانه جمع اس أيضا واس بنيانه وهى جملة مستأنفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين من أهل مسجد الضرار والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر أى أبعد ما علم حالهم من أسس بنيان دينه ﴿ على تقوى من الله ورضوان ﴾ أى على قاعدة محكمة هى التقوى من الله وابتغاء مرضاته بالطاعة والمراد بالتقوى درجتها الثانية التى هى التوقى عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك وقرىء تقوى بالتنوين على أن الألف للالحاق دون التأنيث ﴿ خير أمن أسس بنيانه ﴾ ترك الإضمار للايذان باختلاف للبنيانين ذاتا مع اختلافهما وصفا وإضافة ﴿ على شفا جرف هار ﴾ الشفا الحرف والشفير والجرف ما جرفه السيل أى استأصله

---

(١) فى ١٠ صلى الله عليه وسلم .

واحتفر ما تحته فبقى واهيا يريد الانهدام والهار الهائر المتصدع المشرف إلى السقوط من هار يهور ويهار أو هار يهير قدمت لامه على عينه فصار كغاز ورام وقيل حذفت عينه اعتباطا أى بغير موجب فجرى وجوه الإعراب على لامه ﴿ فانهار به فى نار جهنم ﴾ مثل ما بنوا عليه أمر دينهم فى البطلان وسرعة الانطماس بما ذكر ثم رشح بانهياره فى النار ووضع بمقابلة الرضوان تنبيها على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى الرضوان ومقتضياته التى أدناها الجنة وتأسيس هذا على ما هو بصدد الوقوع فى النار ساعة فساعة ثم مصيرهم إليها لا محالة وقرىء جرف بسكون الراء ﴿ والله لايهدى القوم الظالمين ﴾ أى لأنفسهم أو الواضعين للاشياء فى غير مواضعها أى لا يرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم ارشادا موجبا له لا محالة وأما الدلالة على مايرشدهم إليه أن استرشدوا به فهو متحقق بلا اشتباه .

﴿ لا يزال بنيانهم الذى بنوا ﴾ البنيان مصدر أريد به المفعول ووصفه بالموصول الذى صلته فعلا للايذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أوهن قاعدة وأوهى أساس وللاشعار بعلة الحكم أى لا يزال مسجدهم ذلك مبنيا ومهدوما ﴿ ريبة فى قلوبهم ﴾ أى سبب ريبة وشك فى الدين كأنه نفس ريبة أما حال بنيانه يظاهر لما أن اعتزالهم من المؤمنين واجتماعهم فى مجمع على حياله يظهرون فيه مافى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون فيه أمورهم ويتشاورون فى ذلك ويلقى بعضهم إلى بعض ما سمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين وأما حال هدمه فلما أنه رسخ به ما كان فى قلوبهم من الشر وتضاعفت آثاره وأحكامه أو سبب ريبة فى أمرهم حيث ضعفت قلوبهم ووهى اعتقادهم بخفاء أمرهم على المؤمنين لأنهم أظهروا من أمرهم على المؤمنين لأنهم أظهروا من أمرهم بعد البناء أكثر مما كانوا يظهرونه قبل ذلك وقت اختلاطهم بالمؤمنين وساءت ظنونهم بأنفسهم فلما هدم بنيانهم تضاعف ذلك الضعف وتقوى وصاروا مرتابين فى أن رسول الله صلى الله

صلى الله عليه وسلم هل يتركهم على ما كانوا عليه من قبل أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم وقال الكلبي معنى ريبة حسرة وندامة وقال السدى وحبيب والمبرد لا يزال هدم بنيانهم حزازة وغيظا فى قلوبهم ﴿ ألا أن تقطع ﴾ من التفعل بحذف أحدى التاءين أى إلا أن تتقطع ﴿ قلوبهم ﴾ قطعا وتتفرق أجزاء بحيث لا يبقى لها قابلية أدراك واضمار قطعا وهو استثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال ومحله النصب على الظرفية أى لا يزال بنيانهم ريبة فى كل الأوقات أو كل الأحوال إلا وقت تقطع قلوبهم أو حال تقطع قلوبهم فحينئذ يسلون عنها وأما مادامت سالمة فالريبة باقية فيها فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم ويجوز أن يكون المراد حقيقة تقطعها عند قتلهم أو فى القبور أو فى النار وقرىء تقطع على بناء المجهول من التفعيل وعلى البناء للفاعل منه على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم أى إلا أن تقطع أنت قلوبهم بالقتل وقرىء على البناء للمجهول من الثلاثى مذكرا ومؤنثا وقرىء إلى تقطع قلوبهم وإلى أن تقطع قلوبهم على الخطاب وقرىء ولو قطعت قلوبهم على إسناد الفعل مجهولا إلى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم على الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد يصلح للخطاب وقيل إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم ﴿ والله عليم ﴾ بجميع الأشياء التى من جملتها ما ذكر من أحوالهم ﴿ حكيم ﴾ فى جميع أفعاله التى من زمرتها أمره الوارد فى حقهم .

فضل الجهاد

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ ترغيب المؤمنين فى الجهاد ببيان فضيلته أثر بيان حال المتخلفين عنه ولقد بولغ فى ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله تعالى وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ثم جعل المبيع الذى هو العمدة والمقصد فى العقد أنفس المؤمنين وأموالهم

والثمن الذى هو الوسيلة فى الصفقة الجنة ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصد فى العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون فى مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها إيذانا بتعليق كمال العناية بهم وبأموالهم ثم أنه لم يقل بالجنة بل قيل ﴿ بأن لهم الجنة ﴾ مبالغة فى تقرير وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم كأنه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم وأما ما يقال من أن ذلك لمدح المؤمنين بأنهم بذلوا أنفسهم وأموالهم بمجرد الوعد لكمال ثقتهم بوعده تعالى وأن تمام الاستعارة موقوف على ذلك إذ لو قيل بالجنة لاحتمل كون الشراء حقيقة لأنها صالحة للعوضية بخلاف الوعيد بها فليس بشيء لأن مناط دلالة ما عليه النظم الكريم على الوعد ليس كونه جملة ظرفية مصدرة بأن فإن ذلك بمعزل من الدلالة على الاستقبال بل هو الجنة التى يستحيل وجودها فى الدنيا ولو سلم ذلك يكون العوض الجنة الموعود بها ﴿ يقاتلون فى سبيل الله ﴾ استئناف لكن لا لبيان مالا جله الشراء ولا لبيان نفس الاشتراء لأن قتالهم فى سبيل الله تعالى ليس باشتراء الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم بل هو بذل لهما فى ذلك بل لبيان البيع الذى يستدعيه الاشتراء المذكور كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة فقيل يقاتلون فى سبيل الله وهو بذل منهم لأنفسهم وأموالهم إلى جهة الله سبحانه وتعريض لهما للهلاك وقوله تعالى ﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾ بيان لكون القتال فى سبيل الله بذلا للنفس وأن المقاتل فى سبيله باذل لها وأن كانت سالمة غانمة فإن الإسناد فى الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فإنه يتحقق القتال من الكل سواء وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وإن لم يصدر منهم أحدهما أيضاً كما إذا وجدت المضاربة ولم يوجد القتل من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربة أيضا فإنه يتحقق للجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد وتقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية للايذان بعدم الفرق بينهما فى كونهما مصداقا لكون القتال

بذلا للنفس وقرىء بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة فى الباب وإيذانا بعدم مبالاتهم بالموت فى سبيل الله تعالى بل بكونه أحب إليهم من السلامة كما قيل فى حقهم :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
لا يقطع[1] الطعن إلا فى نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

وقيل فى يقاتلون الخ معنى الأمر كما فى قوله تعالى (تجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم)﴿ وعدا عليه ﴾ مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلا ﴿ حقا ﴾ نعت لوعدا والظرف حال منه لأنه لو تأخر لكان صفة له وقوله تعالى ﴿ فى التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لوعدا أى وعدا مثبتا فى التوراة والإنجيل كما هو مثبت فى القرآن ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة فى كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل واف فإن اختلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع إمكان صدوره عنهم فكيف بجناب الخلاق الغنى عن العالمين جل جلاله وسبك التركيب وإن كان على إنكار أن يكون أحد أوفى بالعهد منه تعالى من غير تعرض لإنكار المساواة ونفيها لكن المقصود به قصدا مطردا إنكار المساواة ونفيها قطعا فإذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل ﴿ فاستبشروا ﴾ التفات إلى الخطاب تشريفا لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرور والاستبشار إظهار السرور والسين فيه ليس للطلب كاستوقد وأوقد والفاء لترتيب الاستبشار أو الأمر به على ما قبله أى فإذا كان كذلك فسروا نهاية السرور وافرحوا غاية الفرح بما فزتم به من الجنة وإنما قيل ﴿ ببيعكم ﴾ مع أن الابتهاج به باعتبار أدائه إلى الجنة لأن المراد ترغيبهم فى الجهاد الذى عبر عنه بالبيع وإنما لم يذكر العقد بعنوان الشراء لأن ذلك من قبل الله سبحانه لا من قبلهم والترغيب إنما يكون

(١) فى ١٠ لا يقع .

فيما يتم من قبلهم وقوله تعالى ﴿الذى بايعتم به﴾ لزيادة تقرير بيعهم وللإشعار بكونه مغايراً لسائر البياعات فإنه بيع للفانى بالباقى ولأن كلا البدلين له سبحانه وتعالى عن الحسن رضى الله عنه أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها . روى أن الأنصار لما بايعوه عليه الصلاة والسلام على العقبة قال عبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنه اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال عليه الصلاة والسلام أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون به أنفسكم قال فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال لكم الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابى وهو يقرأها قال كلام من؟ قال كلام الله عز وجل قال بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج إلى الغزو واستشهد ﴿وذلك﴾ أى الجنة التى جعلت ثمنا بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالهم ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذى لا فوز أعظم منه وما فى ذلك من معنى البعد إشارة إلى بعد منزلة المشار إليه وسمو رتبته فى الكمال ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى البيع الذى أمروا بالاستبشار به ويجعل ذلك كأنه نفس الفوز العظيم أو يجعل فوزا فى نفسه فالجملة على الأول تذييل للآية الكريمة وعلى الثانى لقوله تعالى (فاستبشروا) مقرر لمضمونه .

﴿التائبون﴾ رفع على المدح أى هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين كما يدل عليه القراءة بالياء نصبا على المدح ويجوز أن يكون مجرورا على أنه صفة للمؤمنين وقد جوز الرفع على الابتداء والخبر محذوف أى التائبون من أهل الجنة أيضا وإن لم يجاهدوا كقوله تعالى (وكلا وعد الله الحسنى) ويجوز أن يكون خبره قوله تعالى ﴿العابدون﴾ وما بعده خبر بعد خبر أى التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه النعوت الفاضلة أى المخلصون فى عبادة الله تعالى ﴿الحامدون﴾ لنعمائه أو لما نابهم من السراء والضراء ﴿السائحون﴾ الصائمون لقوله عليه الصلاة والسلام سياحة أمتى الصوم شبه بها لأنه عائق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوسل بها إلى العثور على خفايا الملك والملكوت وقيل هم السائحون فى الجهاد وطلب العلم ﴿الراكعون الساجدون﴾ فى الصلاة

﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ عن الشرك والمعاصي والعطف فيه للدلالة على أن المتعاطفين بمنزلة خصلة واحدة وأما قوله تعالى ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ أى فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع عملا وحملا للناس عليه فلئلا يتوهم اختصاصه بأحد الوجهين ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أى الموصوفين بالنعوت المذكورة ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به للإيذان بخروجه عن حد البيان وفى تخصيص الخطاب بالأولين إظهار زيادة اعتناء بأمرهم من الترغيب والتسلية .

حكم الاستغفار للمشرك

﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا ﴾ بالله وحده أى ما صح لهم فى حكم الله عز وجل وحكمته وما استقام ﴿ أن يستغفروا للمشركين ﴾ به سبحانه ﴿ ولو كانوا ﴾ أى المشركين ﴿ أولى قربى ﴾ أى ذوى قرابة لهم وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة أخرى قبلها محذوفة حذفا مطردا كما بين فى قوله تعالى (ولو كره الكافرون) ونظائره . روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمه أبى طالب لما حضرته الوفاة ياعم قل كلمة أحاج لك بها عند الله فأبى فقال عليه الصلاة والسلام لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزلت وقيل لما افتتح مكة خرج إلى الأبواء فزار قبر أمه ثم قام مستعبرا فقال إنى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى وأنزل على الآيتين ﴿ من بعد ما تبين لهم ﴾ أى للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿ أنهم ﴾ أى المشركين ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحى بأنهم يموتون على ذلك ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه ﴾ بقوله واغفر لأبى أى بأن توفقه للإيمان وتهديه إليه كما يلوح به تعليله بقوله (إنه كان من الضالين) والجملة استئناف مسوق لتقرير ما سبق ودفع ما يتراءى بحسب الظاهر من المخالفة وقرىء وما استغفر إبراهيم لأبيه وقرىء وما يستغفر إبراهيم على حكاية

الحال الماضية وقوله تعالى ﴿ إلا عن موعدة ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أى لم يكن استغفاره عليه السلام لأبيه آزر ناشئا عن شيء من الأشياء إلا عن موعدة ﴿ وعدها ﴾ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إياه ﴾ أى أباه وقد قرىء كذلك بقوله لأستغفرن لك وقوله سأستغفر لك ربى بناء على رجاء إيمانه لعدم تبين حقيقة أمره وإلا لما وعدها إياه كأنه قيل وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة مبنية على عدم تبين أمره كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ فلما تبين له ﴾ أى لإبراهيم بأن أوحى إليه أنه مصر على الكفر غير مؤمن أبدا وقيل بأن مات على الكفر والأول هو الأنسب بقوله تعالى ﴿ أنه عدو لله ﴾ فإن وصفه بالعداوة مما يأباه حالة الموت ﴿ تبرأ منه ﴾ أى تنزه عن الاستغفار له وتجانب كل التجانب وفيه من المبالغة ما ليس فى تركه ونظائره ﴿ إن إبراهيم لأواه ﴾ لكثير التأوه وهو كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب ﴿ حليم ﴾ صبور على الأذية والمحنة وهو استئناف لبيان ماكان يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى ما صدر عنه من الاستغفار وفيه إيذان بأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان أواها حليما فلذلك صدر عنه ما صدر من الاستغفار قبل التبين فليس لغيره أن يأتسى به فى ذلك وتأكيد لوجوب الاجتناب عنه بعد التبين بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ منه بعد التبين وهو فى كمال رقة القلب والحلم فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتنابا وتبرؤا وأما أن الاستغفار قبل التبين لو كان غير محظور لما استثنى من الائتساء به فى قوله تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن) لك فقد حقق فى سورة مريم بإذن الله تعالى .

﴿ وما كان الله ليضل قوما ﴾ أى ليس من عادته أن يصفهم بالضلال عن طريق الحق ويجرى عليهم أحكامه ﴿ بعد إذ هداهم ﴾ للإسلام ﴿ حتى يبين لهم ﴾ بالوحى صريحا أو دلالة ﴿ ما يتقون ﴾ أى ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين فلا ينزجروا عما نهوا عنه وأما قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالا ولا يؤاخذون به فكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك وفيه دليل على أن الغافل غير مكلف بما لا يستبد بمعرفته العقل ﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾

تعليل لما سبق أى إنه تعالى عليم بجميع الأشياء التى من جملتها حاجتهم إلى بيان قبح مالا يستقل العقل فى معرفته فيبين لهم ذلك كما فعل ههنا ﴿إن الله له ملك السموات والأرض﴾ من غير شريك له فيه ﴿يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾ لما منعهم من الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولى قربى وضمن ذلك التبرؤ منهم رأسا بين لهم أن الله تعالى مالك كل موجود ومتولى أموره والغالب عليه ولا يتأتى لهم نصر ولا ولاية إلا منه تعالى ليتوجهوا إليه بشرا شرهم متبرئين عما سواه غير قاصدين إلا إياه ﴿لقد تاب الله على النبى﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو العفو عن إذنه للمنافقين فى التخلف عنه ﴿والمهاجرين والأنصار﴾ قيل هو فى حق زلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين وقيل المراد بيان فضل التوبة وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إليها حتى النبى صلى الله عليه وسلم لما صدر عنه فى بعض الأحوال من ترك الأولى ﴿الذين اتبعوه﴾ ولم يتخلفوا عنه ولم يخلوا بأمر من أوامره ﴿فى ساعة العسرة﴾ أى فى وقتها والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه وهى حالهم فى غزوة تبوك كانوا فى عسرة من الظهر يعتقب عشرة على بعير واحد ومن الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والإهالة الزنخة وبلغت بهم الشدة إلى أن اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء المتغير وفى عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها وفى شدة زمان من حمارة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة ووصف المهاجرين والأنصار بما ذكر من اتباعهم له عليه الصلاة والسلام فى مثل هاتيك المراتب من الشدة للمبالغة فى بيان الحاجة إلى التوبة فإن ذلك حيث لم يغنهم عنها فلأن لا يستغنى عنها غيرهم أولى وأحرى ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ بيان لتناهى الشدة وبلوغها إلى مالا غاية وراءها وهو إشراف بعضهم على أن يميلوا إلى التخلف عن النبى عليه الصلاة والسلام وفى كاد ضمير الشأن أو ضمير القوم الراجع إليه الضمير فى منهم وقرىء بتأنيث الفعل وقرىء من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم يعنى المتخلفين من المؤمنين كأبى لبابة وأضرابه ﴿ثم تاب عليهم﴾ تكرير للتأكيد

وتنبيه على أنه يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة والمراد أنه تاب عليهم لكيدودتهم ﴿ إنه بهم رؤف رحيم ﴾ استئناف تعليلي فإن صفة الرأفة والرحمة من دواعى التوبة والعفو ويجوز كون الأول عبارة عن إزالة الضرر والثانى عن إيصال المنفعة وأن يكون أحدهما للسوابق والآخر للواحق .

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ أى وتاب الله على الثلاثة الذين أخر أمرهم عن أمر أبى لبابة وأصحابه حيث لم يقبل معذرتهم مثل أولئك ولاردت ولم يقطع فى شأنهم بشىء إلى أن نزل فيهم الوحى وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وقرىء خلفوا أى خلفوا الغازين بالمدينة أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم وقرىء على المخلفين والأول هو الأنسب لأن قوله تعالى ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض ﴾ غاية للتخليف ولا يناسبه إلا المعنى الأول أى خلفوا وأخر أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض ﴿ بما رحبت ﴾ أى برحبها وسعتها لإعراض الناس عنهم وانقطاعهم عن مفاوضتهم وهو مثل لشدة الحيرة كأنه لا يستقر به قرار ولا تطمئن له دار ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ أى إذا رجعوا إلى أنفسهم لا يطمئنون بشىء لعدم الأنس والسرور واستيلاء الوحشة والحيرة ﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ أى علموا أنه لا ملجأ من سخطه تعالى إلا إلى استغفاره ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ أى وفقهم للتوبة ﴿ ليتوبوا ﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليصيروا من جملة التوابين أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ﴿ إن الله هو التواب ﴾ المبالغ فى قبول التوبة كما وكيفا وإن كثرت الجنايات وعظمت ﴿ الرحيم ﴾ المتفضل عليهم بفنون الآلاء مع استحقاقهم لأفانين العقاب . روى أن ناسا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به عليه الصلاة والسلام . عن الحسن رضى الله عنه أنه قال بلغنى أنه كان لأحدهم حائط كان خيرا من ألف درهم فقال ياحائطاه ما خلفنى إلا ظلك وانتظار ثمارك اذهب فأنت فى سبيل الله ولم يكن لآخر إلا أهله فقال يا أهلاه ما بطأنى ولا خلفنى إلا الفتن بك فلا جرم والله لأكابدن الشدائد حتى ألحق برسول الله

صلى الله عليه وسلم فتأبط زاده ولحق به عليه الصلاة والسلام قال الحسن رضى الله عنه كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها وعن أبى ذر الغفارى أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيا فقال عليه الصلاة والسلام لما رأى سواده كن أبا ذر فقال الناس هو ذاك فقال عليه الصلاة والسلام رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده وعن أبى خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظل وبسطت له الحصير وقربت إليه الرطب والماء البارد فنظر فقال ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح والريح ، ما هذا بخير ، فقام ورحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ، ومر كالريح ، فمد رسول الله طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال كن أبا خيثمة فكانه ففرح به رسول الله واستغفر له ومنهم من بقى لم يلحق به عليه الصلاة والسلام منهم الثلاثة . قال كعب رضى الله عنه لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد على كالمغضب بعد ما ذكرنى وقال ياليت شعرى ما خلف كعبا فقيل له ما خلفه إلا حسن برديه والنظر فى عطفيه فقال عليه الصلاة والسلام ما أعلم إلا فضلا وإسلاما ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع أبشر يا كعب بن مالك فخررت لله ساجدا وكنت كما وصفنى ربى وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وتتابعت البشارة فلبست ثوبى وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول إلى حتى صافحنى وقال لتهنك توبة الله عليك فلن أنساها لطلحة رضى الله عنه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر أبشر يا كعب بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية وعن أبى بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب عام يندرج فيه التائبون اندراجا أوليا وقيل لمن تخلف عليه من الطلقاء عن غزوة

تبوك خاصة ﴿ اتقوا الله ﴾ فى كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه المعاملة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر المغازى دخولا أوليا ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ فى إيمانهم وعهودهم أو فى دين الله نية وقولا وعملا أو فى كل شأن من الشئون فيدخل ما ذكر أو فى توبتهم وإنابتهم فيكون المراد بهم حينئذ هؤلاء الثلاثة وأضرابهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه خطاب لمن آمن من أهل الكتاب أى كونوا مع المهاجرين والأنصار وانتظموا فى سلكهم فى الصدق وسائر المحاسن وقرىء من الصادقين .

﴿ ما كان لأهل المدينة ﴾ ما صح وما استقام لهم ﴿ ومن حولهم من الأعراب ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأضرابهم ﴿ أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ عند توجهه عليه الصلاة والسلام إلى الغزو ﴿ ولا يرغبوا ﴾ نصب وقد جوز الجزم ﴿ بأنفسهم عن نفسه ﴾ أى لا يصرفوها عن نفسه الكريمة ولا يصونوها عما لم يصن عنه نفسه بل يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب والكلام فى معنى النهى وإن كان على صورة الخبر ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما دل عليه الكلام من وجوب المشايعة ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ لا يصيبهم ظمأ ﴾ أى عطش يسير ﴿ ولا نصب ﴾ ولا تعب ما ﴿ ولا مخمصة ﴾ أى مجاعة ما لا يستباح عنده المحرمات من مراتبها فإن الظمأ والنصب اليسيرين حين لم يخلوا من الثواب فلأن لا يخلو ذلك منه أولى فلا حاجة إلى تأكيد النفى بتكرير كلمة لا ويجوز أن يراد بها تلك المرتبة ويكون الترتيب بناء على كثرة الوقوع وقلته فإن الظمأ أكثر وقوعا من المخمصة بالمعنى المذكور فتوسيط كلمة لا حينئذ ليس لتأكيد النفى بل للدلالة على استقلال كل واحد منها بالفضيلة والاعتداد به ﴿ فى سبيل الله ﴾ وإعلاء كلمته ﴿ ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ﴾ أى لا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم دوسا أو مكانا يداس ﴿ ولا ينالون من عدو نيلا ﴾ مصدر كالقتل والأسر والنهب أو مفعول أى شيئا ينال من قبلهم ﴿ إلا كتب لهم به ﴾ أى بكل واحد من الأمور المعدودة ﴿ عمل صالح ﴾ وحسنة مقبولة مستوجبة بحكم الوعد

الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى والتنوين للتفخيم وكون المكتوب عين مافعلوه من الأمور لا يمنع دخول الباء فإن اختلاف العنوان كاف فى ذلك ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ على إحسانهم تعليل لما سلف من الكتب والمراد بالمحسنين إما المبحوث عنهم ووضع المظهر موضع المضمر لمدحهم والشهادة عليهم بالانتظام فى سلك المحسنين وأن أعمالهم من قبيل الإحسان وللإشعار بعلية المأخذ للحكم وإما جنس المحسنين وهم داخلون فيه دخولا أوليا ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ﴾ ولو تمرة أو علاقة سوط ﴿ ولا كبيرة ﴾ كما أنفق عثمان رضى الله عنه والترتيب باعتبار ماذكر من كثرة الوقوع وقلته وتوسيط لا للتنصيص على استبداد كل منهما بالكتب والجزاء لا لتأكيد النفى كما فى قوله عز وجل ﴿ ولا يقطعون ﴾ أى لا يجتازون فى مسيرهم ﴿ واديا ﴾ وهو فى الأصل كل منفرج من الجبال والآكام يكون منفذا للسيل اسم فاعل من ودى إذا سال ثم شاع فى الأرض على الإطلاق ﴿ إلا كتب لهم ﴾ ذلك الذى فعلوه من الإنفاق والقطع ﴿ ليجزيهم الله ﴾ بذلك ﴿ أحسن ما كانوا يعملون ﴾ أحسن جزاء أعمالهم أو جزاء أحسن أعمالهم ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ أى ما صح وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعا فإن ذلك مخل بأمر المعاش .

﴿ فلولا نفر ﴾ فهلا نفر ﴿ من كل فرقة ﴾ أى طائفة كثيرة ﴿ منهم ﴾ كأهل بلدة أو قبيلة عظيمة ﴿ طائفة ﴾ أى جماعة قليلة ﴿ ليتفقهوا فى الدين ﴾ أى يتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها ﴿ ولينذروا قومهم ﴾ أى وليجعلوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من ذلك إرشاد القوم وإنذارهم ﴿ إذا رجعوا إليهم ﴾ وتخصيصه بالذكر لأنه أهم وفيه دليل على أن التفقه فى الدين من فروض الكفاية وأن يكون غرض المتعلم الاستقامة والإقامة لا الترفع على العباد والتبسط فى التلاد كما هو ديدن أبناء الزمان والله المستعان ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ إرادة أن يحذروا عما ينذرون واستدلوا به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضى أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة إلى التفقه لتنذر فرقتها كى يتذكروا ويحذروا فلو لم يعتبر الإخبار مالم يتواتر لم

ينفر ذلك وقد قيل للآية وجه آخر وهو أن المؤمنين لما سمعوا ما نزل فى المتخلفين سارعوا إلى النفير رغبة ورهبة وانقطعوا عن التفقه فأمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع الفقه الذى هو الجهاد الأكبر لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فالضمير فى ليتفقهوا ولينذروا لبواقى الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفى رجعوا للطوائف أى ولينذر البواقى قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا فى أيام غيبتهم من العلوم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كما أمر عليه الصلاة والسلام أولا بإنذار عشيرته فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح قيل هم اليهود حوالى المدينة كبنى قريظة والنضير وخيبر وقيل الروم فإنهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة بالنسبة إلى العراق وغيره ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أى شدة وصبرا على القتال وقرىء بفتح الغين كسخطة وبضمها وهما لغتان فيها ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ بالعصمة والنصرة والمراد بهم إما المخاطبون ووضع الظاهر موضع الضمير للتنصيص على أن الإيمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى والشهادة بكونهم من زمرة المتقين وإما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والمراد بالمعية الولاية الدائمة وقد ذكر وجه دخول مع على المتبوع فى قوله تعالى (إن الله معنا) ﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ من سور القرآن ﴿ فمنهم ﴾ أى من المنافقين ﴿ من يقول ﴾ لإخوانه ليثبتهم على النفاق أو لعوام المؤمنين وضعفتهم ليصدهم عن الإيمان ﴿ أيكم زادته هذه ﴾ السورة ﴿ إيمانا ﴾ وقرىء بنصب أيكم على تقدير فعل يفسره المذكور أى أيكم زادته هذه الخ وإيراد الزيادة مع أنه لا إيمان فيهم أصلا باعتبار اعتقاد المؤمنين حسبما نطق به قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ جواب من جهته سبحانه وتحقيق للحق وتعيين لحالهم عاجلا وآجلا أى فأما الذين آمنوا بالله تعالى وبما جاء من عنده ﴿ فزادتهم إيمانا ﴾

بزيادة العلم اليقيني الحاصل من التدبر فيها والوقوف على ما فيها من الحقائق وانضمام إيمانهم بما فيها بإيمانهم السابق ﴿ وهم يستبشرون ﴾ بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية ﴿ وأما الذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى كفر وسوء عقيدة ﴿ فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾ أى كفرا بها مضموما إلى الكفر بغيرها وعقائد باطلة وأخلاقا ذميمة كذلك ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ واستحكم ذلك إلى أن يموتوا عليه ﴿ أولا يرون ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والواو للعطف على مقدر أى ألا ينظرون ولا يرون ﴿ أنهم ﴾ أى المنافقين ﴿ يفتنون فى كل عام ﴾ من الأعوام ﴿ مرة أو مرتين ﴾ والمراد مجرد التكثير لا بيان الوقوع حسب العدد المزبور أى يبتلون بأفانين البليات من المرض والشدة وغير ذلك مما يذكر الذنوب والوقوف بين يدى رب العزة فيؤدى إلى الإيمان به تعالى أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون ما ينزل عليه من الآيات لاسيما القوارع الزائدة للإيمان الناعية عليهم ما فيهم من القبائح المخزية لهم ﴿ ثم لا يتوبون ﴾ عطف على لا يرون داخل تحت الإنكار والتوبيخ وكذا قوله تعالى ﴿ ولا هم يذكرون ﴾ والمعنى أولا يرون افتتانهم الموجب لإيمانهم ثم لا يتوبون عما هم عليه من النفاق ولا هم يتذكرون بتلك الفتن الموجبة للتذكر والتوبة وقرىء بالتاء والخطاب للمؤمنين والهمزة للتعجيب أى ألا تنظرون ولا ترون أحوالهم العجيبة التى هى افتتانهم على وجه التتابع وعدم التنبه لذلك فقوله تعالى (ثم لا يتوبون) وما عطف عليه معطوف على يفتنون.

﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ بيان لأحوالهم عند نزولها وهم فى مجال تبليغ الوحى كما أن الأول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ تغامزوا بالعيون إنكارا لها أو سخرية بها أو غيظا لما فيها من مخازيهم ﴿ هل يراكم من أحد ﴾ أى قائلين هل يراكم أحد من المسلمين لننصرف مظهرين أنهم لا يصطبرون على استماعها ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون أو ترامقوا يتشاورون فى تدبير الخروج والانسلال لواذا يقولون هل يراكم من أحد إن قمتم من المجلس وإيراد ضمير الخطاب لبعث المخاطبين على الجد فى انتهاز الفرصة

فإن المرء بشأنه أكثر اهتماما منه بشأن أصحابه كما فى قوله تعالى (وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا) وقيل المعنى وما أنزلت سورة فى عيوب المنافقين ﴿ ثم انصرفوا ﴾ عطف على نظر بعضهم والتراخى باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم رؤية أحد من المؤمنين أى انصرفوا جميعا عن محفل الوحى خوفا من الافتضاح أو غير ذلك ﴿صرف الله قلوبهم﴾ أى عن الإيمان حسب انصرافهم عن المجلس والجملة اخبارية أو دعائية ﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ لسوء الفهم أو لعدم التدبر ﴿لقد جاءكم﴾ الخطاب للعرب ﴿رسول﴾ أى رسول عظيم الشأن ﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم عربى قرشى مثلكم وقرىء بفتح الفاء أى أشرفكم وأفضلكم ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أى شاق شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العذاب وهذا من نتائج ما سلف من المجانسة ﴿حريص عليكم﴾ فى إيمانكم وصلاح حالكم ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رؤوف رحيم﴾ قدم الأبلغ منهما وهى الرأفة التى هى عبارة عن شدة الرحمة محافظة على الفواصل ﴿فان تولوا﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى النبى صلى الله عليه وسلم تسلية له أى إن أعرضوا عن الإيمان بك ﴿ فقل حسبى الله﴾ فإنه يكفيك ويعينك عليهم ﴿ لا إله إلا هو ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ﴿ عليه توكلت ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ أى الملك العظيم أو الجسم الأعظم المحيط الذى تنزل منه الأحكام والمقادير وقرىء العظيم بالرفع وعن أبى أن آخر ما نزل هاتان الآيتان وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما نزل القرآن إلا آية آية وحرفا حرفا ما خلا سورة براءة وسورة قل هو الله أحد فإنهما أنزلتا على ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة .

سورة يونس عليه السلام
(مكية وآيها مائة وتسع آيات)
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الر ﴾ بتفخيم الراء المفتوحة وقرىء بالإمالة إجراء للأصلية مجرى المنقلبة عن الياء وقرىء بين بين وهو إما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الإعراب وإما اسم للسورة كما عليه إطباق الأكثر فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذه السورة مسماة بالر وهو أظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم بالتسمية بعد فحقها الإخبار بها لا جعلها عنوان الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بالانتساب كما مر . والإشارة إليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده صارت فى حكم الحاضر كما يقال هذا ما اشترى فلان أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو أذكر أو اقرأ وكلمة ﴿ تلك ﴾ إشارة إليها إما على تقدير كون الر مسرودة على نمط التعديد فقد نزل حضور مادتها التى هى الحروف المذكورة منزلة ذكرها فأشير إليها كأنه قيل هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف المبسوطة الخ وأما على تقدير كونه اسما للسورة فقد نوهت بالإشارة إليها بعد تنويهها بتعيين اسمها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتها فى الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ آيات الكتاب ﴾ وعلى تقدير كون الر مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الأول والمعنى هى آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمقصود ببيان بعضيتها منه وصفها بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة والصفات الكاملة والمراد بالكتاب إما جميع القرآن العظيم وإن لم ينزل الكل حينئذ إما باعتبار تعينه وتحققه فى علم الله عز وعلا أو فى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة إلى السماء الدنيا كما هو المشهور فإن فاتحة الكتاب كانت مسماة بهذا الاسم وبأم القرآن فى عهد النبوة ولما يحصل المجموع الشخصى إذ ذاك فلا بد من ملاحظة كل من الكتاب والقرآن بأحد الاعتبارات

المذكورة وما جميع القرآن النازل وقتئذ المتفاهم بين الناس إذ ذاك فإنه كما يطلق على المجموع الشخصي يطلق على مجموع ما نزل في كل عصر ألا يرى إلى ماروى عن جابر رضى الله عنه أنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول « أيهم أكثر أخذاً للقرآن » فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد فإن ما يفهمه الناس من القرآن في ذلك الوقت ويحافظون على التفاوت في أخذه إنما هو المجموع النازل حينئذ من غير ملاحظة لتحقق المجموع الشخصي في علم الله سبحانه أو في اللوح ولا لنزوله جملة إلى السماء الدنيا .

﴿ الحكيم ﴾ ذي الحكمة وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ونطقه بها أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه أو من باب الاستعارة المكنية المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة هذا وقد جعل الكتاب عبارة عن نفس السورة وكلمة تلك إشارة إلى ما في ضمنها من الآى فإنها في حكم الحاضر لا سيما بعد ذكر ما يتضمنها من السورة عند بيان اسمها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها وينبغي أن يكون المشار إليه حينئذ كل واحدة منها لا جميعها من حيث هو جميع لأنه عين السورة فلا يكون للإضافة وجه ولا لتخصيص الوصف بالمضاف إليه حكمة فلا يتأتى ما قصد من مدح المضاف بما للمضاف إليه من صفات الكمال ولأن في بيان اتصاف كل منها بالكمال من المبالغة ما ليس في بيان اتصاف الكل بذلك والمتبادر من الكتاب عند الإطلاق وإن كان كله بأحد الوجهين المذكورين لكن صحة إطلاقه على بعضه أيضاً مما لا ريب فيها والمعهود المشهور وإن كان اتصاف الكل بأحد الاعتبارين بما ذكر من نعوت الكمال إلا أن شهرة اتصاف كل سورة منه بما اتصف به الكل مما لا ينكر وعليه يدور تحقق مدح السورة بكونها بعضاً من القرآن الكريم إذ لولا أن بعضه منعوت بنعت كله داخل تحت حكمه لما تسنى ذلك وفيه ما لا يخفى من التكلف والتعسف .

دفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ أكان للناس عجبا ﴾ الهمزة لإنكار تعجبهم ولتعجب السامعين منه لكونه فى غير محله والمراد بالناس كفار مكة وإنما عبر عنهم باسم الجنس من غير تعرض لكفرهم مع أنه المدار لتعجبهم كما تعرض له فى قوله عز وجل (قال الكافرون) الخ لتحقيق ما فيه الشركة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعيين مدار التعجب فى زعمهم ثم تبيين خطئهم وإظهار بطلان زعمهم بإيراد الإنكار والتعجيب واللام متعلقة بمحذوف وقع حالا من عجباً وقيل بعجبا على التوسع المشهور فى الظروف وقيل المصدر إذا كان بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول جاز تقديم معموله عليه وقيل متعلقة بكان وهو مبنى على دلالة كان الناقصة على الحدث ﴿ أن أوحينا ﴾ اسم كان قد قدم عليه خبرها اهتماما بشأنه لكونه مدار الإنكار والتعجيب وتشويقا إلى المؤخر ولأن فى الاسم ضرب تفصيل ففى مراعاة الأصل نوع إخلال بتجاوب أطراف الكلام وقرىء برفع عجب على أنه الاسم وهو نكرة والخبر أن أوحينا وهو معرفة لأن أن مع الفعل فى تأويل المصدر المضاف إلى المعرفة البتة والمختار حينئذ أن تجعل كان تامة وأن أوحينا متعلقا بعجب على حذف حرف التعليل أى أحدث للناس عجب لأن أوحينا أو من أن أوحينا أو بدلا من عجب لكن لا على توجيه الإنكار والتعجيب إلى حدوثه بل إلى كونه عجبا فإن كون الإبدال فى حكم تنحية المبدل منه ليس معناه إهداره بالمرة وإنما قيل للناس لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم وفيه من زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى ﴿ إلى رجل منهم ﴾ أى إلى بشر من جنسهم كقولهم أبعث الله بشراً رسولا أو من أفنائهم من حيث المال لا من عظمائهم كقولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وكلا الوجهين من ظهور البطلان بحيث لا مزيد عليه . أما الأول فلأن بعث الملك إنما يكون عند كون المبعوث إليهم ملائكة كما قال سبحانه (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كيف لا وهى منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك إليهم مزاحم للحكمة التى عليها

يدور فلك التكوين والتشريع وإنما الذى تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك من بينهم إلى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا إلى جانب . وأما الثانى فلما أن مناط الاصطفاء للنبوة والرسالة هو التقدم فى الإتصاف بما ذكر من النعوت الجميلة والصفات الجليلة والسبق فى إحراز الفضائل العلية وحيازة الملكات السنية جبلة واكتسابا ولاريب لأحد منهم فى أنه عليه الصلاة والسلام فى ذلك الشأن فى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية وأما التقدم فى الرياسات الدنيوية والسبق فى نيل الحظوظ الدنية فلا دخل له فى ذلك قطعا بل له إخلال به غالبا قال عليه الصلاة والسلام لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء .

﴿ أن أنذر الناس ﴾ أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا كما فى قوله تعالى (وأن اقم وجهك) وذلك لأن الخبر والإنشاء فى الدلالة على المصدر سيان فساغ وقوع الأمر والنهى صلة حسب وقوع الفعل فليجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال ووجوب كون الصلة فى الموصول الاسمى خبرية إنما هو للتوصل بها إلى وصف المعارف بالجمل لا لقصور فى دلالة الإنشاء على المصدر أو مفسرة إذ الإيحاء فيه معنى القول وقد جوز كونها مخففة من المثقلة على حذف ضمير الشأن والقول من الخبر والمعنى أن الشأن قولنا أنذر الناس والمراد به جميع الناس كافة لا ما أريد بالأول وهو النكتة فى إيثار الإظهار على الإضمار وكون الثانى عين الأول عند إعادة المعرفة ليس على الإطلاق ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ بما أوحيناه وصدقوه ﴿ أن لهم ﴾ أى بأن لهم ﴿ قدم صدق ﴾ أى سابقة ومنزلة رفيعة ﴿ عند ربهم ﴾ وإنما عبر عنها بها إذ بها يحصل السبق والوصول إلى المنازل الرفيعة كما يعبر عن النعمة باليد لأنها تعطى بها وقيل مقام صدق والوجه أن الوصول إلى المقام إنما يحصل بالقدم وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها وللتنبيه على أن مدار نيل ما نالوه من المراتب العلية هو صدقهم فإن التصديق لا ينفك عن الصدق ﴿ قال

الكافرون ﴾ هم المتعجبون وإيرادهم ههنا بعنوان الكفر مما لا حاجة إلى ذكر سببه وترك العاطف لجريانه مجرى البيان للجملة التى دخلت عليها همزة الإنكار أو لكونه استئنافا مبنيا على السؤال كأنه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب هل بقوا على التردد والاستبعاد أو قطعوا فيه بشىء فقيل قال الكافرون على طريقة التأكيد ﴿ إن هذا ﴾ يعنون به ما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن الحكيم المنطوى على الإنذار والتبشير ﴿ لسحر مبين ﴾ أى ظاهر وقرىء لساحر على أن الإشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء ما هذا إلا سحر مبين وهذا اعتراف من حيث لا يشعرون بأن ماعاينوه خارج عن طوق البشر نازل من جناب خلاق القوى والقدر ولكنهم سموه بما قالوا تماديا فى العناد كما هو ديدن المكابر اللجوج ودأب المفحم المحجوج .

﴿ إن ربكم ﴾ كلام مستأنف سيق لإظهار بطلان تعجبهم المذكور وما بنوا عليه من المقالة الباطلة غب الإشارة إليه بالإنكار والتعجيب وحقق فيه حقية ما تعجبوا منه وصحة ما أنكروه بالتنبيه الإجمالى على بعض ما يدل عليها من شئون الخلق والتقدير وأحوال التكوين والتدبير ويرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير لاعترافهم به من غير نكير لقوله تعالى (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون) وقوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض) إلى قوله تعالى (ومن يدبر الأمر فسيقولون الله) أى إن ربكم ومالك أمركم الذى تتعجبون من أن يرسل إليكم رجلا منكم بالإنذار والتبشير وتعدون ما أوحى إليه من الكتاب الحكيم سحرا هو ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض ﴾ وما فيهما من أصول الكائنات ﴿ فى ستة أيام ﴾ أى فى ستة أوقات أو فى مقدار ستة أيام معهودة فإن نفس اليوم الذى هو عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأرض مما لا يتصور تحققه حين لا أرض ولا سماء وفى خلقها مدرجاً مع القدرة التامة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث لهم على التأنى فى الأحوال والأطوار وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر قد استأثر بعلم ما يستدعيه علام الغيوب جلت قدرته

ودقت حكمته وإيثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الإيذان بأنها أجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار والأحكام ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ العرش هو الجسم المحيط بسائر الأجسام سمى به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فإن الأوامر والتدابير منه تنزل وقيل هو الملك ومعنى استوائه سبحانه عليه استيلاؤه عليه أو استواء أمره وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف والمعنى أنه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذى عناه منزها عن التمكن والاستقرار وهذا بيان لجلالة ملكه وسلطانه بعد زمان عظمة شأنه وسعة قدرته بما مر من خلق هاتيك الأجرام العظام .

﴿يدبر الأمر﴾ التدبير النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود والمراد ههنا التقدير على الوجه الأتم الأكمل والمراد بالأمر أمر ملكوت السموات والأرض والعرش وغير ذلك من الجزئيات الحادثة شيئا فشيئا على أطوار شتى وأنحاء لا تكاد تحصى من المناسبات والمباينات فى الذوات والصفات والأزمنة والأوقات أى يقدر ما ذكر من أمر الكائنات الذى ما تعجبوا منه من أمر البعث والوحى فرد من جملته وشعبة من دوحته ويهيىء أسباب كل منها حدوثا وبقاء فى أوقاتها المعينة ويرتب مصالحها على الوجه الفائق والنمط اللائق حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير استوى وقد جوز كونها خبرا ثانيا لإن أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب مبنية على سؤال نشأ من ذكر الاستواء على العرش المنبىء عن إجراء أحكام الملك وعلى كل حال فإيثار صيغة المضارع للدلالة على تجدد التدبير واستمراره وقوله عز وجل ﴿ما من شفيع﴾ بيان لاستبداده سبحانه فى التقدير والتدبير ونفى للشفاعة على أبلغ الوجوه فإن نفى جميع أفراد الشفيع بمن الاستغراقية يستلزم نفى الشفاعة على أتم الوجوه كما فى قوله تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله) وهذا بعد قوله تعالى (يدبر الأمر) جار مجرى قوله تعالى (وهو يجير ولا يجار عليه) عقيب قوله تعالى (قل من بيده ملكوت كل شىء) وقوله تعالى ﴿ إلا من بعد إذنه ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأوقات أى ما من شفيع

يشفع لأحد فى وقت من الأوقات إلا بعد إذنه المبنى على الحكمة الباهرة وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار والمشفوع له عن يليق بالشفاعة كقوله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) وفيه من الدلالة على عظمة جلاله سبحانه ما لا يخفى ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة أى ذلكم العظيم الشأن المنعوت بما ذكر من نعوت الكمال التى عليها يدور استحقاق الألوهية ﴿ الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ ربكم ﴾ بيان له أو بدل منه أو خبر ثان لاسم الإشارة وهذا بعد بيان أن ربهم الله الذى خلق السموات والأرض الخ لزيادة التقرير والمبالغة فى التذكير ولتفريع الأمر بالعبادة عليه بقوله تعالى ﴿ فاعبدوه ﴾ أى وحدوه من غير أن تشركوا به شيئا من ملك أو نبى فضلا عن جماد لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وآمنوا بما أنزله إليكم ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى تعلمون أن الأمر كما فصل فلا تتذكرون ذلك حتى تقفوا على فساد ما أنتم عليه فترتدوا عنه ﴿ إليه ﴾ لا إلى أحد سواه استقلالا أو اشتراكا ﴿ مرجعكم ﴾ أى بالبعث كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ جميعا ﴾ فإنه حال من الضمير المجرور لكونه فاعلا فى المعنى أى إليه رجوعكم مجتمعين والجملة كالتعليل لوجوب العبادة ﴿ وعد الله ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله عز وجل (إليه مرجعكم) وعد منه سبحانه بالبعث أو لفعل مقدر أى وعد الله وأياً ما كان فهو دليل على أن المراد بالمرجع هو الرجوع بالبعث لأن ما بالموت بمعزل من الوعد كما أنه بمعزل من الاجتماع وقرىء بصيغة الفعل ﴿ حقاً ﴾ مصدر آخر مؤكد لما دل عليه الأول ﴿ إنه يبدأ الخلق ﴾ وقرىء يبدىء ﴿ ثم يعيده ﴾ وهو استئناف علل به وجوب المرجع إليه سبحانه وتعالى فإن غاية البدء والإعادة وهو جزاء المكلفين بأعمالهم حسنة أو سيئة وقرىء بالفتح أى لأنه ويجوز كونه منصوبا بما نصب وعد الله أى وعد الله وعداً بدء الخلق ثم إعادته ومرفوعا بما نصب حقاً أى حق بدء الخلق الخ ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أى بالعدل وهو حال من فاعل يجزى أى ملتبسا بالعدل أو متعلق بيجزى أى ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم وإنما أجمل

ذلك إيذانا بأنه لا يفى به الحصر أو بقسطهم وعدلهم عند إيمانهم ومباشرتهم للأعمال الصالحة وهو الأنسب بقوله عز وجل ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ فإن معناه ويجزى الذين كفروا بسبب كفرهم وتكرير الإسناد بجعل الجملة الظرفية خبراً للموصول لتقوية الحكم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على مواظبتهم على الكفر وتغيير النظم للإيذان بكمال استحقاقهم للعقاب وأن التعذيب بمعزل عن الانتظام فى سلك العلة الغائية للخلق بدءا وإعادة وإنما يحيق ذلك بالكفرة على موجب سوء اختيارهم وأما المقصود الأصلى من ذلك فهو الإثابة .

دلائل وحدة الله وعظمته

﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء ﴾ تنبيه على الاستدلال على وجوه تعالى ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته بآثار صنعه فى النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من إبداع السموات والأرض والاستواء على العرش وغير ذلك وبيان لبعض أفراد التدبير الذى أشير إليه إشارة إجمالية وإرشاد إلى أنه حيث دبرت أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بالمعاد بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وتبيين طرائق الهدى وتعيين مهاوى الردى أولى وأحرى والجعل إن جعل بمعنى الإنشاء والإبداع فضياء حال من مفعوله أى خلقها حال كونها ذات ضياء على حذف المضاف أو ضياء محضا للمبالغة وإن جعل بمعنى التصيير فهو مفعوله الثانى أى جعلها ضياء على أحد الوجهين المذكورين لكن لا بعد أن كانت خالية عن تلك الحالة بل أبدعها كذلك كما فى قولهم ضيق فم الركية ووسع أسفلها والضياء مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وسوط وياؤه منقلبة من الواو لانكسار ما قبلها وقرىء ضئاء بهمزتين بينهما ألف بتقديم اللام على العين .

﴿ والقمر نورا ﴾ الكلام فيه كالكلام فى الشمس والضياء أقوى من النور وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور ففيه إشعار بأن نوره مستفاد من

الشمس ﴿ وقدره ﴾ أى قدر له وهيأ ﴿ منازل ﴾ أو قدر مسيره فى منازل
أو قدره ذا منازل على تضمين التقدير معنى التصيير وتخصيص القمر بهذا التقدير
لسرعة سيره ومعاينة منازله وتعلق أحكام الشريعة به وكونه عمدة فى تواريخ
العرب وقد جعل الضمير لكل منهما وهى ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر
كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت
يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين فإذا كان فى آخر منازله دق
واستقوس ثم يستسر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ويكون مقام الشمس فى كل
منزلة منها ثلاثة عشر يوما وهذه المنازل هى مواقع النجوم التى نسبت إليها
العرب الأنواء المستمطرة وهى السرطان والبطين والثريا الدبران الهقعة الهنعة
الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزبانى الإكليل
القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ
الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت ﴿ لتعلموا ﴾ إما بتعاقب
الليل والنهار المنوطين بطلوع الشمس وغروبها أو باعتبار نزول كل منهما
فى تلك المنازل ﴿ عدد السنين ﴾ التى يتعلق بها غرض علمى لإقامة مصالحكم
الدينية والدنيوية ﴿ والحساب ﴾ أى حساب الأوقات من الأشهر والأيام
والليالى وغير ذلك مما نيط به شىء من المصالح المذكورة وتخصيص العدد بالسنين
والحساب بالأوقات لما أنه لم يعتبر فى السنين المعدودة معنى مغاير لمراتب الأعداد
كما اعتبر فى الأوقات المحسوبة وتحقيقه أن الحساب إحصاء ما له كمية انفصالية
بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين له اسم خاص وحكم
مستقل كالسنة المتحصلة من اثنى عشر شهرا قد تحصل كل من ذلك من ثلاثين
يوما قد تحصل كل من ذلك من أربع وعشرين ساعة مثلا والعد مجرد إحصائه
بتكرير أمثاله من غير اعتبار أن يتحصل بذلك شىء كذلك ولما لم يعتبر فى السنين
المعدودة تحصل حد معين له اسم خاص غير أسامى مراتب الأعداد وحكم مستقل
أضيف إليها العدد وتحصل مراتب الأعداد من العشرات والمئات والألوف
اعتبارى لا يجدى فى تحصل المعدود نفعا وحيث اعتبر فى الأوقات المحسوبة

وتحصل ما ذكر من المراتب التى لها أسام خاصة وأحكام مستقلة علق بها الحساب المنبىء عن ذلك والسنة من حيث تحققها فى نفسها مما يتعلق به الحساب وإنما الذى يتعلق به العد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة من تلك الطائفة ليس من الحيثية المذكورة أعنى حيثية تحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات فإن ذلك وظيفة الحساب بل من حيث أنها فرد من تلك الطائفة المعدودة من غير أن يعتبر معها شىء غير ذلك وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيها وجودا وعلما على العكس لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم إجمالى بما تعلق به الحساب تفصيلا وإن لم تتحد الجهة أو لأن العدد من حيث أنه لم يعتبر فيه تحصل أمر آخر حسبما حقق آنفا نازل من الحساب الذى اعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب ﴿ ما خلق الله ذلك ﴾ أى ما ذكر من الشمس والقمر على ما حكى من الأحوال وفيه إيذان بأن معنى جعلهما على تلك الأحوال والهيئات ليس إلا خلقهما كذلك كما أشير إليه ولا يقدح فى ذلك أن استفادة القمر النور من الشمس أمر حادث فإن المراد بجعله نورا إنما هو جعله بحيث يتصف بالنور عند وجود شرائط الاتصاف به بالفعل ﴿ إلا بالحق ﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال الفاعل أو المفعول أى ما خلق ذلك ملتبسا بشىء من الأشـــياء إلا ملتبسا بالحق مراعيا لمقتضى الحكمة البالغة أو مراعى فيه ذلك وهو ما أشير إليه إجمالا من العلم بأحوال السنين والأوقات المنوط به أمور معاملاتهم وعباداتهم ﴿ يفصل الآيات ﴾ أى الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيها الآيات المذكورة دخولا أوليا أو يفصل الآيات التنزيلية المنبهة على ذلك وقرىء بنون العظمة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ الحكمة فى إبداع الكائنات فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا أو يعلمون ما فى تضاعيف الآيات المنزلة فتؤمنون بها وتخصيص التفصيل بهم لأنهم المنتفعون به .

﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار ﴾ تنبيه آخر إجمالى على ما ذكر أى فى تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات

السموات وسكون الأرض أو فى تفاوتهما فى أنفسهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قربا وبعدا بحسب الأزمنة أو فى اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة إما فى الطول والقصر فإن البلاد القريبة من القطب الشمالى أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها وإما فى أنفسهما فإن كرية الأرض تقتضى أن يكون بعض الأماكن ليلا وفى مقابله نهارا ﴿ وما خلق الله فى السموات والأرض ﴾ من أصناف المصنوعات ﴿ لآيات ﴾ عظيمة أو كثيرة دالة على وجود الصانع تعالى ووحدته وكمال علمه وقدرته وبالغ حكمته التى من جملة مقتضياتها ما أنكروه من إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم وإنزال الكتاب والبعث والجزاء ﴿ لقوم يتقون ﴾ خصهم بذلك لأن الداعى إلى النظر والتدبر إنما هو تقوى الله تعالى والحذر من العاقبة فهم الواقفون على أن جميع المخلوقات آيات دون غيرهم (وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) .

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ بيان لمآل أمر من كفر بالبعث وأعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق أن مرجع الكل إليه تعالى وأنه يعيدهم بعد بدئهم للجزاء ثوابا وعقابا وتفصيل بعض الآيات الشاهدة بذلك والمراد بلقائه إما الرجوع إليه تعالى بالبعث أو لقاء الحساب كما فى قوله عز وعلا (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) وأيا ما كان ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالة من تهويل الأمر ما لا يخفى والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقا المنتظم لعدم الأمل وعدم الخوف فإن عدمهما لا يستدعى عدم اعتقاد وقوع المأمول والخوف أى لا يتوقعون الرجوع إلينا أو لقاء حسابنا المؤدى إما إلى حسن الثواب أو إلى سوء العذاب فلا يأملون الأول وإليه أشير بقوله عز وجل ﴿ ورضوا بالحيوة الدنيا ﴾ فإنه منبىء عن إيثار الأدنى الخسيس على الأعلى النفيس كقوله تعالى (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) ولا يخافون الثانى وإليه أشير بقوله تعالى ﴿ واطمأنوا بها ﴾ أى سكنوا فيها سكون من لا براح له منها آمنين من اعتراء

المزعجات غير مخطرين ببالهم ما يسوؤهم من عذابنا وقيل المراد بالرجاء معناه الحقيقي وباللقاء حسن اللقاء أى لا يأملون حسن لقائنا بالبعث والإحياء بالحياة الأبدية ورضوا بدلا منها ومما فيها من فنون الكرامات السنية بالحياة الدنيا الدنية الفانية واطمأنوا بها أى سكنوا إليها مكبين عليها قاصرين مجامع هممهم على لذائذها وزخارفها من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم وإيثار الباء على كلمة إلى المنبئة عن مجرد الوصول والانتهاء للإيذان بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة وحمل الرجاء على الخوف فقط يأباه كلمة الرضا بالحياة الدنيا فإنها منبئة عما ذكر من ترك الأعلى وأخذ الأدنى واختيار صيغة الماضى فى الصلتين الأخيرتين للدلالة على التحقق والتقرر كما أن اختيار صيغة المستقبل فى الأولى للإيذان باستمرار عدم الرجاء .

﴿ والذين هم عن آياتنا ﴾ المفصلة فى صحائف الأكوان حسبما أشير إلى بعضها أو آياتنا المنزلة المنبهة على الاستشهاد بها المتفقة معها فى الدلالة على حقية ما لا يرجونه من اللقاء المترتب على البعث وعلى بطلان ما رضوا به واطمأنوا إليه من الحياة الدنيا ﴿ غافلون ﴾ يتفكرون فيها أصلا وإن نبهوا على ذلك وذكروا بأنواع القوارع لانهماكهم فيما يصدهم عنها من الأحوال المعدودة وتكرير الموصول للتوسل به إلى جعل صلته جملة اسمية منبئة عما هم عليه من استمرار الغفلة ودوامها وتنزيل التغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى إيذانا بمغايرة الوصف الأخير للأوصاف الأول واستقلاله باستتباع العذاب هذا وأما ما قيل من أن العطف إما لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسا والانهماك فى الشهوات بحيث لا يخطر ببالهم الآخرة أصلا وإما لتغاير الفريقين والمراد بالأولين من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل فكلام ناء عن السداد فليتأمل ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿ مأواهم ﴾ أى مسكنهم ومقرهم الذى لا براح لهم منه ﴿ النار ﴾ لا ما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ من الأعمال القلبية المعدودة وما يستتبعه

من أصناف المعاصى والسيئات أو بكسبهم إياها والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددى والباء متعلقة بمضمون الجملة الأخيرة الواقعة خبرا عن اسم الإشارة وهو مع خبره خبر لأن فى قوله تعالى (إن الذين لا يرجون لقاءنا) الخ.

﴿إن الذين آمنوا﴾ أى فعلوا الإيمان أو آمنوا بما يشهد به الآيات التى غفل عنها الغافلون أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيندرج فيه ذلك اندراجا أوليا ﴿وعملوا الصالحات أى الأعمال الصالحة فى أنفسها اللائقة بالإيمان وإنما ترك ذكر الموصوف لجريانها مجرى الأسماء ﴿يهديهم ربهم﴾ أوثر الالتفات تشريفا لهم بإضافة الرب وإشعارا بعلة الهداية ﴿بإيمانهم﴾ أى يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم وهى الجنة وإنما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس إليها لا سيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة وما آواهم إليه من اعمالهم السيئة ومشاهدة ما لحق من التلويح والتصريح وفى النظم الكريم إشعار بأن مجرد الإيمان والعمل الصالح لا يكفى فى الوصول إلى الجنه بل لا بد بعد ذلك من الهداية الربانيه وأن الكفر والمعاصى كافية فى دخول النار ثم إنه لانزاع فى ان المراد بالإيمان الذى جعل سببا لتلك الهداية هو إيمانهم الخاص المشفوع بالأعمال الصالحة لا الإيمان المجرد عنها ولا ما هو أعم منهما إلا أن ذلك بمعزل عن الدلالة على خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الإيمان الخالى عن العمل الصالح يفضى إلى الجنة فى الجملة ولا يخلد صاحبه فى النار فإن منطوق الآية الكريمة أن الإيمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية إلى الجنة وأما أن كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه قطعا كيف لا وقوله عز وجل (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) مناد بخلافه فإن المراد بالظلم هو الشرك كما أطبق عليه المفسرون والمعنى لم يخلطوا إيمانهم بشرك ولئن حمل على ظاهره أيضا يدخل فى الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحا ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب ﴿تجرى من تحتهم الأنهار﴾ أى بين أيديهم كقوله سبحانه (وهذه الأنهار تجرى من تحتى) وهم

على سرر مرفوعة وأرائك مصفوفة والجملة مستأنفة أو خبر ثان لأن أو حال من مفعول يهديهم على تقدير كونه المهدى إليه ما يريدونه فى الجنة كما قيل وقيل يهديهم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى إلى الثواب والجنة وقوله (تجرى من تحتهم الأنهار) جار مجرى التفسير والبيان فإن التمسك بحبل السعادة فى حكم الوصول إليها وقيل يهديهم إلى إدراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية كما قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ﴿فى جنات النعيم﴾ خبر آخر أو حال أخرى منه أو من الأنهار أو متعلق بتجرى أو بيهدى فالمراد بالمهدى إليه إما منازلهم فى الجنة أو ما يريدونه فيها .

﴿دعواهم﴾ أى دعاؤهم وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿فيها﴾ متعلق به وقوله تعالى ﴿سبحانك اللهم﴾ خبره أى دعاؤهم هذا الكلام وهو معمول لمقدر لا يجوز إظهاره والمعنى اللهم إنا نسبحك تسبيحا ولعلهم يقولونه عند ما عاينوا فيها من تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتائج رحمته ورأفته مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر تقديسا لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصان وتنزيها لوعده الكريم عن سمات الخلف ﴿وتحيتهم فيها﴾ التحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياك الله حياة طيبة أى ما يحيي به بعضهم بعضا أو تحية الملائكة إياهم كما فى قوله تعالى (يدخلون عليهم من كل باب سلام) أو تحية الله عز وجل لهم كما فى قوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) ﴿سلام﴾ أى سلامة من كل مكروه ﴿وآخر دعواهم﴾ أى خاتمة دعائهم ﴿أن الحمد لله رب العالمين﴾ أى أن يقولوا ذلك نعتا له عز وجل بصفات الإكرام أثر نعته تعالى بصفات الجلال أى دعاؤهم منحصر فيما ذكر إذ ليس لهم مطلب مترقب حتى ينتظموا فى سلك الدعاء وأن هى المخففة من المثقلة أصله أنه الحمد لله فحذف ضمير الشأن كما فى قوله ٭أن هالك كل من يحفى وينتعل٭ وقرىء أن الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد ولعل توسيط ذكر تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمته للتوسل إلى ختم الحكاية بالتحميد تبركا مع أن التحية ليست بأجنبية على الإطلاق ودعوى.

كون ترتيب الوقوع أيضا كذلك بأن كانوا حين دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة من الآفات والفوز بأصناف الكرامات أو حياهم بذلك رب العزة فحمدوه تعالى وأثنوا عليه بأباها إضافة الآخر إلى دعواهم وقد جوز أن يكون المراد بالدعاء العبادة كما فى قوله تعالى (وأعتزلكم وما تدعون) الخ إيذانا بأن لا تكليف فى الجنة أى ما عبادتهم إلا أن يسبحوه ويحمدوه وليس ذلك بعبادة إنما يلهمونه وينطقون به تلذذا ولا يساعده تعيين الخاتمة .

من طبائع الإنسان

﴿ولو يعجل الله للناس﴾ هم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى لإنكارهم البعث وما يترتب عليه من الحساب والجزاء أشير إلى بعض من عظائم معاصيهم المتفرعة على ذلك وهو استعجالهم بما أوعدوا به من العذاب تكذيبا واستهزاء وإيرادهم باسم الجنس لما أن تعجيل الخير لهم ليس دائرا على وصفهم المذكور إذ ليس كل ذلك بطريق الاستدراج أى لو يعجل الله لهم ﴿الشر﴾ الذى كانوا يستعجلون به فإنهم كانوا يقولون اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ونحو ذلك وقوله تعالى ﴿استعجالهم بالخير﴾ نصب على أنه مصدر تشبيهى وضع موضع مصدر ناصبه دلالة على اعتبار الاستعجال فى جانب المشبه كاعتبار التعجيل فى جانب المشبه به وإشعارا بسرعة إجابته تعالى لهم حتى كأن استعجالهم بالخير نفس تعجيله لهم والتقدير ولو يعجل الله لهم الشر عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به فحذف ما حذف تعويلا على دلالة الباقى عليه ﴿لقضى إليهم أجلهم﴾ لأدى إليهم الأجل الذى عين لعذابهم وأميتوا وأهلكوا بالمرة وما أمهلوا طرفة عين وفى إيثار صيغة المبنى للمفعول جرى على سنن الكبرياء مع الإيذان بتعيين الفاعل وقرىء على البناء للفاعل كما قرى لقضينا واختيار صيغة الاستقبال فى الشرط وإن كان المعنى على المضى لإفادة أن عدم قضاء الأجل لاستمرار

عدم التعجيل فإن المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما حقق فى موضعه واعلم أن مدار الإفادة فى الشرطية أن يكون التالى أمراً مغايراً للمقدم فى نفسه مترتبا عليه فى الوجود كما فى قوله عز وجل (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) فإن العنت أى الوقوع فى المشقة والهلاك أمر مغاير لطاعته عليه الصلاة والسلام لهم مترتب عليها فى الوجود أو يكون فردا كاملا من أفراده ممتازا عن البقية بأمر يخصه كما فى الأجزية المحذوفة فى مثل قوله تعالى (ولو ترى إذ وقفو على ربهم) وقوله تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار) وقوله تعالى (ولو ترى إذ المجرمون) ونظائرها أى لرأيت أمراً هائلا فظيعا أو نحو ذلك وكما فى قوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) إذا فسر الجواب بالاستئصال فإنه فرد كامل من أفراد مطلق المؤاخذة قد عبر عنه بما لا مزيد عليه فى الدلالة على الشدة والفظاعة فحسن موقعه فى معرض التالى للمؤاخذة المطلقة وأما ما نحن فيه من القضاء فليس بأمر مغاير لتعجيل الشر فى نفسه وهو ظاهر بل هو إما نفسه أو جزئى منه كسائر جزئياته من غير مزية له على البقية إذ لم يعتبر فى مفهومه ما ليس فى مفهوم تعجيل الشر من الشدة والهول فلا يكون فى ترتبه عليه وجوداً أو عدما مزيد فائدة مصححه لجعله تاليا له فالحق أن المقدم ليس نفس التعجيل المذكور بل هو إرادته المستتبعه للقضاء المذكور وجودا وعدما كما فى قوله تعالى (لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) أى لو يريد مؤاخذتهم فإن تعجيل العذاب لهم نفس المؤاخذة أو جزئى من جزئياتها غير ممتاز عن البقيه فليس فى بيان ترتبه عليها وجودا أو عدما مزيد فائدة وإنما الفائدة فى ترتبه على إرادتها حسبما ذكر وأيضا فى ترتب التالى على إرادة المقدم ما ليس فى ترتبه على نفسه من الدلالة على المبالغه وتهويل الأمر والدلالة على أن الأمور منوطة بإرادته تعالى المبنية على الحكم البالغة ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ بنون العظمة الدالة على التشديد فى الوعيد وهو عطف على مقدر تنبىء عنه الشرطيه كانه قيل لكن لا نفعل ذلك

لما تقتضيه الحكمة فنتركهم إمهالا واستدراجا ﴿ فى طغيانهم ﴾ الذى هو عدم رجاء اللقاء وإنكار البعث والجزاء وما يتفرع على ذلك من أعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة ﴿ يعمهون ﴾ أى يترددون ويتحيرون فنى وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان للطغيان بما فى حيز الصلة وإشعار بعليته للترك والاستدارج .

﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾ أى أصابه جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد إصابة يسيرة ﴿ دعانا ﴾ لكشفه وإزالته ﴿ لجنبه ﴾ حال من فاعل دعا بشهادة ما عطف عليه من الحالين واللام بمعنى على كما فى قوله تعالى (يخرون للأذقان) أى دعانا كائنا على جنبه أى مضجعا ﴿ أو قاعدا أو قائما ﴾ أى فى جميع الأحوال بما ذكر وما لم يذكر وتخصيص المعدودات بالذكر لعدم خلو الإنسان عنها عادة أو دعانا فى جميع أحوال مرضه على أنه المراد بالضر خاصة مضجعا عاجزا عن القعود وقاعدا غير قادر على النهوض وقائما لا يستطيع الحراك ﴿ فلما كشفنا عنه ضره ﴾ الذى مسه غب ما دعانا حسبما ينبىء عنه الفاء ﴿ مر ﴾ أى مضى واستمر على طريقته التى كان ينتحيها قبل مساس الضر ونسى حالة الجهد والبلاء أو مر عن موقف الضراعة والابتهال ونأى بجانبه ﴿ كأن لم يدعنا ﴾ أى كأنه لم يدعنا نخفف وحذف ضمير الشأن كما فى قوله :

* كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا *

والجملة التشبيهية فى محل النصب على الحالية من فاعل مر أى مر مشبها بمن لم يدعنا ﴿ إلى ضر ﴾ أى إلى كشف ضر ﴿ مسه ﴾ وهذا وصف للجنس باعتبار حال بعض أفراده ممن هو متصف بهذه الصفات ﴿ كذلك ﴾ نصب على المصدرية وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الآتى وما فيه من معنى البعد للتفخيم والكاف مقحمة للدلالة على زيادة فخامة المشار إليه إقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل مكان أنت لا تبخل أى مثل ذلك التزيين العجيب ﴿ زين للمسرفين ﴾ أى للموصوفين بما ذكر من الصفات الذميمة

وإسرافهم لما أن الله تعالى إنما أعطاهم القوى والمشاعر ليصرفوها إلى مصارفها ويستعملوها فيما خلقت له من العلوم والأعمال الصالحة فلما صرفوها إلى ما لا ينبغي وهي رأس ما لهم فقد أتلفوها وأسرفوا إسرافا ظاهرا والتزيين إما من جهة الله سبحانه على طريقة التخلية والخذلان أو من الشيطان بالوسوسة والتسويل ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ من الإعراض عن الذكر والدعاء والانهماك في الشهوات وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أن في كل منهما إملاء للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الإنقاذ من الشر المقدر في الأولى ومن الضر المقرر في الأخرى .

﴿ ولقد أهلكنا القرون ﴾ أي القرون الخالية مثل قوم نوح وعاد وأضرابهم ومن في قوله تعالى ﴿ من قبلكم ﴾ متعلقة بأهلكنا أي أهلكناهم من قبل زمانكم والخطاب لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمي ﴿ لما ظلموا ﴾ ظرف للإهلاك أي أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتمادي في الغي والضلال من غير تأخير وقوله تعالى ﴿ وجاءتهم رسلهم ﴾ حال من ضمير ظلموا بإضمار قد وقوله تعالى ﴿ بالبينات ﴾ متعلق بجاءتهم على أن الباء للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من رسلهم دالة على إفراطهم في الظلم وتناهيهم في المكابرة أي ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينة الدالة على صدقهم أو ملتبسين بها حين لا مجال للتكذيب وقد جوز أن يكون قوله تعالى وجاءتهم عطفا على ظلموا فلا محل له من الإعراب عند سيبويه وعند غيره محله الجر لأنه معطوف على ما هو مجرور بإضافة الظرف إليه وليس الظلم منحصرا في التكذيب حتى يحتاج إلى الاعتذار بأن الترتيب الذكري لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعي كما في قوله تعالى (ورفع أبويه على العرش وخروا له) الخ بل هو محمول على سائر أنواع الظلم والتكذيب مستفاد من قوله تعالى ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ على أبلغ وجه وآكده فإن اللام لتأكيد النفي أي وما صح وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله تعالى إياهم لعلمه بأن الألطاف لا تنجع فيهم والجملة

على الأول عطف على ظلموا لأنه أخبار بإحداث التكذيب وهذا بالإصرار عليه وعلى الثانى عطف على ما عطف عليه وقيل اعتراض بين الفعل وما يجرى مجرى مصدره التشبيهى أعنى قوله تعالى ﴿ كذلك ﴾ فإن الجزاء المشار إليه عبارة عن مصدره أى مثل ذلك الجزاء الفظيع أى الإهلاك الشديد الذى هو الاستئصال بالمرة ﴿ نجزى القوم المجرمين ﴾ أى كل طائفة مجرمة وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لأهل مكة لاشتراكهم لأولئك المهلكين فى الجرائم والجرائر التى هى تكذيب الرسول والإصرار عليه وتقرير لمضمون ما سبق من قوله تعالى (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) وقرىء بالياء على الالتفات إلى الغيبة وقد جوز أن يكون المراد بالقوم المجرمين أهل مكة على طريقة وضع الظاهر موضع ضمير الخطاب إيذانا بأنهم أعلام فى الإجرام ويأباه كل الإباء قوله عز وجل :

﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم ﴾ فإنه صريح فى أنه ابتداء تعرض لأمورهم وأن ما بين فيه إنما هو مبادى أحوالهم لاختبار كيفيات أعمالهم على وجه يشعر باستمالتهم نحو الإيمان والطاعة فمحال أن يكون ذلك إثر بيان منتهى أمرهم وخطابهم ببت القول بإهلاكهم لكمال إجرامهم والمعنى ثم استخلفناكم فى الأرض من بعد إهلاك أولئك القرون التى تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها استخلاف من يختبر ﴿ لننظر ﴾ أى لنعامل معاملة من ينظر ﴿ كيف تعملون ﴾ فهى استعارة تمثيلية وكيف منصوب على المصدرية بتعملون لا بننظر فإن ما فيه من معنى الاستفهام مانع من تقدم عامله عليه أى أى عمل أو على الحالية أى على أى حال تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف من أوصاف الحسن كقوله عز وعلا (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) ففيه إشعار بأن المراد بالذات والمقصود الأصلى من الاستخلاف إنما هو ظهور الكيفيات الحسنة للأعمال الصالحة وأما الأعمال السيئة فبمعزل من أن تصدر عنهم لا سيما بعد ما سمعوا أخبار القرون المهلكة وشاهدوا آثار بعضها فضلا عن أن ينظم ظهورها فى سلك العلة الغائية للاستخلاف وقيل منصوب على أنه مفعول به أى

أى عمل تعملون أخيرا أم شرا فنعاملكم بحسبه فلا يكون فى كلمة كيف حينئذ دلاله على أن المعتبر فى الجزاء جهات الأعمال وكيفياتها لا ذواتها كما هو رأى القائل بل تكون حينئذ مستعارة لمعنى أن شىء .

﴿ وإذا تتلى عليهم ﴾ التفات من خطابهم إلى الغيبة إعراضا عنهم وتوجيها للخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديد جناياتهم المضادة لما أريد منهم بالاستخلاف من تكذيب الرسول والكفر بالآيات البينات وغير ذلك كدأب من قبلهم من القرون المهلكة وصيغة المضارع للدلالة على تجدد جوابهم الآتى حسب تجدد التلاوة ﴿ آياتنا ﴾ الداله على حقية التوحيد وبطلان الشرك والإضافة لتشريف المضاف والترغيب فى الإيمان به والترهيب عن تكذيبه ﴿ بينات ﴾ حال كونها واضحات الدلاله على ذلك وإيراد فعل التلاوة مبنيا للمفعول مسندا إلى الآيات دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنائه للفاعل للإشعار بعدم الحاجه لتعين التالى وللإيذان بأن كلامهم فى نفس المتلو دون التالى ﴿ قال الذين لا يرجون لقائنا ﴾ وضع الموصول موضع الضمير إشعارا بعلية ما فى حيز الصلة العظيمة المحكية عنهم وأنهم إنما اجترءوا عليها لعدم خوفهم من عقابه تعالى يوم اللقاء لإنكارهم له ولما هو من مباديه من البعث وذماً لهم بذلك أى قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما لم يذكر إيذانا بتعينه ﴿ إئت بقرآن غير هذا ﴾ أشاروا بهذا إلى القرآن المشتمل على تلك الآيات لا إلى نفسها فقط قصدا إلى إخراج الكل من البين أى إئت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والحساب والجزاء وما نكرهه من ذم آلهتنا ومعايبها والوعيد على عبادتها ﴿ أو بدله ﴾ بتغيير ترتيبه بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى خالية عنها وإنما قالوه كيدا وطمعا فى المساعدة ليتوسلوا به إلى الإلزام والاستهزاء به ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ ما يكون لى ﴾ أى ما يصح وما يستقيم لى ولا يمكننى أصلا ﴿ أن أبدله من تلقاء نفسى ﴾ أى من قبل نفسى وهو مصدر استعمل ظرفا وقرىء بفتح التاء وقصر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثانى للإيذان بأن استحالة ما اقترحوه أولا

من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها وأن التصدى لذلك مع كونه ضائعا ربما يعد من قبيل المجاراة مع السفهاء إذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء ولأن ما يدل على استحاله الثانى يدل على استحالة الأول بالطريق الأولى .

﴿ إن أتبع ﴾ أى ما أتبع فى شىء مما آتى وأذر ﴿ إلا ما أوحى إلى ﴾ من غير تغيير له فى شىء أصلا على معنى قصر حاله عليه السلام على اتباع ما يوحى إليه لا قصر اتباعه على ما يوحى إليه كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلى وقد مر تحقيق المقام فى سورة الأنعام وهو تعليل لصدر الكلام فإن من شأنه اتباع الوحى على ما هو عليه لا يستبد بشىء دونه قطعا وفيه جواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا به عليه الصلاة والسلام بهذا السؤال من أن القرآن كلامه عليه الصلاة والسلام ولذلك قيد التبديل فى الجواب بقوله من تلقاء نفسى وسماه عصيانا عظيما مستتبعا لعذاب عظيم بقوله تعالى ﴿ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ فإنه تعليل لمضمون ما قبله من امتناع التبديل واقتصار أمره عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى أى أخاف إن عصيته تعالى بتعاطى ما ليس لى من التبديل من تلقاء نفسى والإعراض عن اتباع الوحى عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة أو يوم اللقاء الذى لا يرجونه وفيه إشعار بأنهم استوجبوه بهذا الاقتراح والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتهويل أمر العصيان وإظهار كمال نزاهته عليه السلام عنه وإيراد اليوم بالتنوين التفخيمى ووصفه بالعظم لتهويل ما فيه من العذاب وتفظيعه ولا مساغ لحمل مقترحهم على التبديل والإتيان بقرآن آخر من جهة الوحى بتفسير قوله تعالى (ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى) بأنه لا يتسهل لى أن أبدله بالاستدعاء من جهة الوحى ما أتبع إلا ما يوحى إلى من غير صنع ما من الاستدعاء وغيره من قبلى لأنه يرده التعليل المذكور لا لأن المقترح حينئذ ليس فيه معصية أصلا كما توهم فإن استدعاء تبديل الآيات النازلة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بعضها ببعض لا سيما

بموجب اقتراح الكفرة مما لا ريب فى كونه معصية بل لأنه ليس فيه معصية الافتراء مع أنها المقصودة بما ذكر فى التعليل ألا يرى إلى ما بعده من الآيتين الكريمتين فإنه صريح فى أن مقترحهم الإتيان بغير القرآن وتبديله بطريق الافتراء وأن زعمهم فى الأصل أيضا كذلك وقوله عز وجل :

﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ﴾ تحقيق لحقية القرآن وكونه من عند الله تعالى إثر بيان بطلان ما اقترحوا الإتيان به واستحالته عبارة ودلالة وإنما صدر بالأمر المستقل مع كونه داخلا تحت الأمر السابق إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه وإيذانا باستقلاله مفهوما وأسلوبا فإنه برهان دال على كونه بأمر الله تعالى ومشيئته كما سيأتى وما سبق مجرد إخبار باستحالة ما اقترحوه ومفعول شاء محذوف ينبىء عنه الجزاء لا غير ذلك كما قيل فإن مفعول المشيئة إنما يحذف إذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمون الجزاء ولم يكن فى تعلقها به غرابة كما فى قوله ٭ولو شئت أن أبكى دما لبكيته٭ حيث لم يحذف لفقدان الشرط الأخير ولأن المستلزم للجزاء أعنى عدم تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن عليهم إنما هو مشيئته تعالى له لا مشيئته لغير القرآن والمعنى أن الأمر كله منوط بمشيئته تعالى شيء وليس لى منه قط ولو شاء عدم تلاوتى له عليكم لا بأن شاء عدم تلاوتى له من تلقاء نفسى بل بأن لم ينزله على ولم يأمرنى بتلاوته كما ينبىء عنه إيثار التلاوة على القراءة ما تلوته عليكم ﴿ ولا أدراكم به ﴾ أى ولا أعلمكم به بواسطتى والتالى وهو عدم التلاوة والإدراء منتف فينتفى المقدم أعنى مشيئته عدم التلاوة ولا يخفى أنها مستلزمة لعدم مشيئته التلاوة قطعاً فانتفاؤها مستلزم لانتفائه حتما وانتفاء عدم مشيئته التلاوة إنما يكون بتحقق مشيئة التلاوة فثبت أن تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن بمشيئته تعالى وأمره وإنما قيدنا الإدراء بكونه بواسطته عليه الصلاة والسلام لأن عدم الإعلام مطلقا ليس من لوازم الشرط الذى هو مشيئة عدم تلاوته عليه السلام فلا يجوز نظمه فى سلك الجزاء وفى إسناد عدم الإدراء إليه تعالى المنبىء عن استناد الإدراء إليه تعالى إيذان بأن لا دخل له

عليه السلام فى ذلك حسبما يقتضيه المقام وقرىء ولا أدرأتكم ولا أدرأكم بالهمزة فيهما على لغة من يقول أعطأت وأرضأت فى أعطيت وأرضيت أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أى ولا جعلتكم بتلاوته عليكم خصماء تدرؤننى بالجدال وقرىء ولا أنذرتكم به وقرىء لأدراكم بلام الجواب أى لو شاء الله ما تلوته عليكم أنا ولأعلمكم به على لسان غيرى على معنى أنه الحق الذى لامحيص عنه لو لم أرسل به أنا لأرسل به غيرى البتة أو على معنى أنه تعالى يمن على من يشاء فخصنى بهذه الكرامة .

﴿ فقد لبثت فيكم عمراً ﴾ تعليل للملازمة المستلزمة لكون تلاوته بمشيئة الله تعالى وأمره حسبما بين آنفاً لكن لا بطريق الاستدلال عليها بعدم تلاوته عليه الصلاة والسلام فيما سبق بسبب مشيئته تعالى إياه بل بطريق الاستشهاد عليها بما شاهدوا منه عليه الصلاة والسلام فى تلك المدة الطويلة من الأمور الدالة على استحالة كون التلاوة من جهته عليه الصلاة والسلام بلا وحى وعمرا نصب على التشبيه بظرف الزمان والمعنى قد أقمت فيما بينكم دهرا مديدا مقدار أربعين سنة تحفظون تفاصيل أحوالى طرا وتحيطون بما لدى خبرا ﴿ من قبله ﴾ أى من قبل نزول القرآن لا أتعاطى شيأ مما يتعلق به لا من حيث معناه الكاشف عن أسرار الحقائق وأحكام الشرائع ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أى ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلى ووجوب كونه منزلا من عند الله العزيز الحكيم فإنه غير خاف على من له عقل سليم والحق الذى لا محيد عنه أن من له أدنى مسكة من العقل إذا تأمل فى أمره عليه الصلاة والسلام وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل من غير مصاحبة العلماء فى شأن من الشئون ولا مراجعة إليهم فى فن من الفنون ولا مخالطة البلغاء فى المفاوضة والحوار ولا خوض معهم فى إنشاء الخطب والأشعار ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كل فصيح فائق وبذت بلاغته كل بليغ رائق أو علا نظمه كل منثور ومنظوم وحوى فحواه بدائع أصناف العلوم كاشف أسرار الغيب من وراء أستار الكمون ناطق بأخبار ما قد كان وما سيكون مصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة مهيمن عليها فى أحكامها

المجملة والمفصلة لا يبقى عنده شائبة اشتباه فى أنه وحى منزل من عند الله هذا هو الذى اتفقت عليه كلمة الجمهور ولكن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم واقتصار حاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى وامتناع الاستبداد بالرأى من غير تعرض هناك ولا ههنا لكون القرآن فى نفسه أمرا خارجا عن طوق البشر ولا لكونه عليه الصلاة والسلام غير قادر على الإتيان بمثله أن يستشهد ههنا على المطلب بما يلائم ذلك من أحواله المستمرة فى تلك المدة المتطاولة من كمال نزاهته عليه الصلاة والسلام عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه فى حق أحد كائنا من كان كما ينبىء عنه تعقيبه بتظليم المفترى على الله تعالى والمعنى قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحى لا أتعرض لأحد قط بتحكم ولا جدال ولا أحوم حول مقال فيه شائبه شبهة فضلا عما فيه كذب أو افتراء ألا تلاحظون فلا تعقلون أن من هذا شأنه المطرد فى هذا العهد البعيد مستحيل أن يفترى على الله عز وجل ويتحكم على كافة الخلق بالأوامر والنواهى الموجبة لسلب الأموال وسفك الدماء ونحو ذلك وأن ما أتى به وحى مبين تنزيل من رب العالمين وقوله عز وجل ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ استفهام إنكارى معناه الجحد أى لا أحد أظلم من كل ظالم وإن كان سبك التركيب مفيدا لإنكار أن يكون أحد أظلم منه من غير تعرض لإنكار المساواة ونفيها فإنه إذا قيل من أفضل من فلان أو لا أعلم منه يفهم منه حتما أنه أفضل من كل فاضل وأعلم من كل عالم وزيادة قوله تعالى كذبا مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك للإيذان بأن ما أضافوه إليه ضمنا وحملوه عليه الصلاة والسلام عليه صريحا مع كونه افتراء على الله تعالى كذب فى نفسه فرب افتراء يكون كذبه فى الإسناد فقط كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو وهذا للمبالغة منه عليه الصلاة والسلام فى التفادى عما ذكر من الافتراء على الله سبحانه ﴿ أو كذب بآياته ﴾ فكفر بها وهذا تظليم للمشركين بتكذيبهم للقرآن وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب الكلام على ما سبق من

بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره فلامجال لحمل الافتراء باتخاذ الولد والشريك أى وإذا كان الأمر كذلك فمن افترى عليه تعالى بأن يختلق كلاما فيقول هذا من عند الله أو يبدل بعض آياته تعالى ببعض كما تجوزون ذلك فى شأنى وكذلك من كذب بآياته تعالى كما تفعلونه أظلم من كل ظالم ﴿ إنه ﴾ الضمير للشأن وقع اسماً لأن والخبر ما يعقبه من الجملة ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصديرها به الإيذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه فيتمكن عند وروده عليه فضل تمكن فكأنه قيل إن الشأن هذا أى ﴿ لا يفلح المجرمون ﴾ أى لا ينجون من محذور ولا يظفرون بمطلوب والمراد جنس المجرمين فيندرج فيه المفترى والمكذب اندراجا أولياً .

﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم نشأت عنها جنايتهم الأولى معطوفة على قوله تعالى (وإذا تتلى عليهم) الآية عطف قصة على قصة ومن دون متعلق بيعبدون ومحله النصب على الحالية من فاعله أى متجاوزين الله سبحانه لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قرينا لعبادة الأصنام كما يفصح عنه سياق النظام الكريم ﴿ ما لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ أى ما ليس من شأنه الضر والنفع من الأصنام التى هى جمادات وما موصولة أو موصوفة وتقديم نفى الضرر لأن أدنى أحكام العبادة دفع الضرر الذى هو أول المنافع والعبادة أمر حادث مسبوق بالعدم الذى هو مظنة الضرر فحيث لم تقدر الأصنام على الضرر لم يوجد لإحداث العبادة سبب وقيل لا يضرهم إن تركوا عبادتها ولا ينفعهم إن عبدوها . كان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة عزى ومناة وهبل وإسافا ونائلة ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ عن النضر بن الحرث إذا كان يوم القيامة يشفع لى اللات قيل أنهم كانوا يعتقدون أن المتولى لكل إقليم روح معين من أرواح الأفلاك فعينوا لذلك الروح صنما معينا من الأصنام واشتغلوا بعبادته ومقصودهم ذلك الروح ثم اعتقدوا أن ذلك

الروح يكون عند الإله الأعظم مشتغلا بعبوديته وقيل إنهم كانوا يعبدون الكواكب فوضعوا لها أصناما معينة واشتغلوا بعبادتها تصدا إلى عبادة الكواكب وقيل إنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام ثم تقربوا إليها وقيل إنهم وضعوا هذه الأصنام على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يشفعون لهم عند الله تعالى :

﴿ قل ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ أتنبئون الله بما لا يعلم ﴾ أى أتخبرونه بما لا وجود له أصلا وهو كون الأصنام شفعاءهم عند الله تعالى إذ لولاه لعلمه علام الغيوب وفيه تقريع لهم وتهكم بهم وبما يدعونه من المحال الذى لا يكاد يدخل تحت الصحة والإمكان وقرىء أتنبيون بالتخفيف وقوله تعالى ﴿ فى السموات ولا فى الأرض ﴾ حال من العائد المحذوف فى يعلم مؤكدة للنفى لأن مالا يوجد فيهما فهو منتف عادة ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ عن إشراكهم المستلزم لتلك المقالة الباطلة أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءهم عند الله تعالى وقرىء تشركون بتاء الخطاب على أنه من جملة القول المأمور به وعلى الأول هو اعتراض تذييلى من جهته سبحانه وتعالى .

وحدة الإسلام والتوحيد

﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة ﴾ بيان لأن التوحيد والإسلام ملة قديمة أجمعت عليها الناس قاطبة فطرة وتشريعاً وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة خلافا للجمهور وشقا لعصا الجماعة وأما حمل اتحادهم على الاتفاق على الضلال عند الفترة واختلافهم على ما كان منهم من الاتباع والإصرار فمما لا احتمال له أى وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف وذلك من عهد آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن قتل قابيل هابيل وقيل إلى زمن إدريس عليه السلام وقيل إلى زمن نوح عليه السلام وقيل من حين الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا إلى أن ظهر فيما بينهم الكفر وقيل من لدن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أن أظهر عمرو بن لحى عبادة

الأصنام فالمراد بالناس العرب خاصة وهو الأنسب بإيراد الآية الكريمة إثر حكاية ما حكى عنهم من البنات وتنزيه ساحة الكبرياء عن ذلك ﴿ فاختلفوا ﴾ بأن كفر بعضهم وثبت آخرون على ماهم عليه فخالف كل من الفريقين الآخر لا أن كلا منهما أحدث ملة على حدة من ملل الكفر مخالفة لملة الآخر فإن الكلام ليس فى ذلك الاختلاف إذ كل منهما مبطل حينئذ فلا يتصور أن يقضى بينهما بإبقاء المحق وإهلاك المبطل والفاء التعقيبية لا تنافى امتداد زمان الاتفاق إذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيب انصرام مدة الاتفاق لاعقيب حدوث الاتفاق ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ بتأخير القضاء بينهم أو بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة فإنه يوم الفصل ﴿ لقضى بينهم ﴾ عاجلا ﴿ فيما فيه يختلفون ﴾ بتمييز الحق من الباطل بإبقاء الحق وإهلاك المبطل وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وللدلالة على الاستمرار ﴿ ويقولون ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم معطوفة على قوله تعالى (ويعبدون) وصيغة المضارع لاستحضار صورة مقالتهم الشنعاء والدلالة على الاستمرار والقائلون أهل مكة ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ أرادوا آية من الآيات التى اقترحوها كأنهم لفرط العتو والفساد ونهاية التمادى فى المكابرة والعناد لم يعدوا البينات النازلة عليه عليه الصلاة والسلام من جنس الآيات واقترحوا غيرها مع أنه قد انزل عليه من الآيات الباهرة والمعجزات المتكاثرة ما يضطرهم إلى الانقياد والقبول لو كانوا من أرباب العقول ﴿ فقل ﴾ لهم فى الجواب ﴿ إنما الغيب لله ﴾ اللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فإن الغيب والشهادة فى ذلك الاختصاص سيان والمعنى أن ما اقترحتموه زعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم إيمانكم بنزوله من الغيوب المختصة بالله تعالى لا وقوف لى عليه ﴿ فانتظروا ﴾ نزوله ﴿ إنى معكم من المنتظرين ﴾ أى لما يفعل الله بكم لاجترائكم على مثل هذه العظيمة من جحود الآيات واقتراح غيرها وجعل الغيب عبارة عن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة يأباه ترتيب الأمر بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ صحة وسعة ﴿ من بعد ضراء مستهم ﴾ أى خالطتهم

حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم وإسناد المساس إلى الضراء بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية كما فى قوله تعالى (وإذا مرضت فهو يشفين) ونظائره . قيل سلط الله تعالى على أهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فطفقوا يطعنون فى آياته تعالى ويعادون رسوله عليه الصلاة والسلام ويكيدونه وذلك قوله تعالى ﴿ إذا لهم مكر فى آياتنا ﴾ أى بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال فى دفعها وإذا الأولى شرطية والثانية جوابها كأنه قيل فاجأوا وقوع المكر منهم وتنكير مكر للتفخيم وفى متعلقة بالاستقرار الذى يتعلق به اللام ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ أى أعجل عقوبة أى عذابه أسرع وصولا إليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق وتسمية العقوبة بالمكر لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجودا أو ذكرا ﴿ إن رسلنا ﴾ الذين يحفظون أعمالكم والإضافة للتشريف ﴿ يكتبون ما تمكرون ﴾ أى مكركم أو ما تمكرونه وهو تحقيق للانتقام منهم وتنبيه على أن ما دبروا فى إخفائه غير خاف على الحفظة فضلا عن العليم الخبير وصيغة الاستقبال فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى والجملة تعليل من جهته تعالى لأسرعية مكره سبحانه غير داخل فى الكلام الملقن كقوله تعالى (ولو جئنا بمثله مددا) فإن كتابة الرسل لما يمكرون من مبادىء بطلان مكرهم وتخلف أثره عنه بالكلية وفيه من المبالغة ما لا يوصف وتلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم للتشديد فى التوبيخ وقرىء على لفظ الغيبة فيكون حينئذ تعليلا لما ذكر أو للأمر .

﴿ هو الذى يسيركم ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جناية أخرى لهم مبنية على مامر آنفاً من اختلاف حالهم حسب اختلاف مايعتريهم من السراء والضراء أى يمكنكم من السير تمكيناً مستمرا عند الملابسة به وقبلها ﴿ فى البر ﴾ مشاة وركبانا وقرىء ينشركم من النشر ومنه قوله عز وجل (بشر تنتشرون) ﴿ والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك ﴾ أى السفن فإنه جمع فلك على زنة أسد جمع أسد لا على وزن قفل وغاية التسيير ليست ابتداء ركوبهم فيها بل مضمون الشرطية بتمامه كما ينبىء عنه إيثار الكون المؤذن بالدوام على الركوب المشعر بالحدوث

﴿ وجرين ﴾ أى السفن ﴿ بهم ﴾ بالذين فيها والالتفات إلى الغيبة للإيذان بما لهم من سوء الحال الموجب للإعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوىء أحوالهم ليعجبهم منها ويستدعى منه الإنكار والتقبيح وقيل ليس فيه التفات بل معنى قوله تعالى حتى إذا كنتم فى الفلك إذا كان بعضكم فيها إذ الخطاب للكل ومنهم المسيرون فى البر فالضمير الغائب عائد إلى ذلك المضاف المقدر كما فى قوله تعالى (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه) أى أو كذى ظلمات يغشاه موج ﴿ بريح طيبة ﴾ لينة الهبوب موافقة لمقصدهم ﴿ وفرحوا بها ﴾ بتلك الريح لطيبها وموافقتها ﴿ جاءتها ﴾ جواب إذا والضمير المنصوب للريح الطيبة أى تلقتها واستولت عليها من طرف مخالف لها فإن الهبوب على وفقها لا يسمى مجيئاً لريح أخرى عادة بل هو اشتداد للريح الأولى وقيل للفلك والأول أظهر لاستلزامه للثانى من غير عكس لأن الهبوب على طريقة الريح اللينة يعد مجيئاً بالنسبة إلى الفلك دون الريح اللينة مع أنه لا يستتبع تلاطم الأمواج الموجب لمجيئها من كل مكان ولأن التهويل فى بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلقوا به حبال رجائهم أكثر ﴿ ريح عاصف ﴾ أى ذات عصف وقيل العصوف مختص بالريح فلا حاجة إلى الفارق وقيل الريح قد يذكر ﴿ وجاءهم الموج ﴾ فى الفلك ﴿ من كل مكان ﴾ أى من أمكنة مجىء الموج عادة ولا بعد فى مجيئه من جميع الجوانب أيضاً إذ لا يجب أن يكون مجيئه من جهة هبوب الريح فقط بل قد يكون من غيرها بحسب أسباب تتفق له ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ أى هلكوا فإن ذلك مثل فى الهلاك أصله إحاطة العدو بالحى أو سدت عليهم مسالك الخلاص ﴿ دعوا الله ﴾ بدل من ظنوا بدل اشتمال لما بينهما من الملابسة والتلازم أو استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه الأذهان كأنه قيل فماذا صنعوا فقيل دعوا الله ﴿ مخلصين له الدين ﴾ من غير أن يشركوا به شيئاً من آلهتهم لا مخصصين للدعاء به تعالى فقط بل للعبادة أيضاً فإنهم بمجرد تخصيص الدعاء به تعالى لا يكونون مخلصين له الدين .

﴿ لئن أنجيتنا ﴾ اللام موطئة للقسم على إرادة القول أى قائلين والله لئن

أنجيتنا ﴿ من هذه ﴾ الورطة ﴿ لنكونن ﴾ البتة بعد ذلك أبدا ﴿ من الشاكرين ﴾ لنعمك التى من جملتها هذه النعمة المسئولة وقيل الجملة مفعول دعوا لأن الدعاء من قبيل القول والأول هو الأولى لاستدعاء الثانى لاقتصار دعائهم على ذلك فقط وفى قوله لنكونن من الشاكرين من المبالغة فى الدلالة على كونهم ثابتين فى الشكر مثابرين عليه منتظمين فى سلك المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس فى أن يقال لنشكرن ﴿ فلما أنجاهم ﴾ مما غشيهم من الكربة والفاء للدلالة على سرعة الإجابة ﴿ إذا هم يبغون فى الأرض ﴾ أى فاجأوا الفساد فيها وسارعوا إليه متراقين فى ذلك متجاوزين عما كانوا عليه من حدود العيث من قولهم بغى الجرح إذا ترامى فى الفساد وزيادة فى الأرض للدلالة على التجدد والاستمرار وقوله تعالى ﴿ بغير الحق ﴾ تأكيد لما يفيده البغى أو معناه أنه بغير الحق عندهم أيضا بأن يكون ذلك ظلما ظاهرا لا يخفى قبحه على أحد كما فى قوله تعالى (ويقتلون النبيين بغير الحق) وأما ما قيل من أنه للاحتراز عن البغى بحق كتخريب الغزاة ديار الكفرة وقطع أشجارهم وإحراق زرعهم فلا يساعده النظم الكريم لا بتنائه على كون البغى بمعنى إفساد صورة الشىء وإبطال منفعته دون ما ذكر من المعنى اللائق بحال المفسدين .

﴿ يا أيها الناس ﴾ توجيه للخطاب إلى أولئك الباغين للتشديد فى التهديد والمبالغة فى الوعيد ﴿ إنما بغيكم ﴾ الذى تتعاطونه وهو مبتدأ وقول تعالى ﴿ على أنفسكم ﴾ خبره أى عليكم فى الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وإن ظن كذلك وقوله تعالى ﴿ متاع الحيوة الدنيا ﴾ بيان لكون ما فيه من المنفعة العاجلة شيئا غير معتد به سريع الزوال دائم الوبال وهو نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا وقيل على أنه مصدر وقع موقع الحال أى متمتعين بالحياة الدنيا والعامل هو الاستقرار الذى فى الخبر لا نفس البغى لأنه يؤدى إلى الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر ولا يخبر عن الموصول إلا بعد تمام صلته وأنت خبير بأنه ليس فى تقييد كون بغيهم على أنفسهم بحال تمتعهم بالحياة الدنيا معنى يعتد به وقيل على أنه ظرف زمان نحو

مقدم الحاج أى زمن متاع الحياة الدنيا وفيه ما مر بعينه وقيل على أنه مفعول لفعل دل عليه المصدر أى تبغون متاع الحياة الدنيا ولا يخفى أنه لا يدل على البغى بمعنى الطلب وجعل المصدر أيضاً بمعناه مما يخل بجزالة النظم الكريم لأن الاستئناف لبيان سوء عاقبة ما حكى عنهم من البغى المفسر بالافساد المفرط اللائق بحالهم فأى مناسبة بينه وبين البغى بمعنى الطلب وجعل الأول أيضاً بمعناه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقيل على أنه مفعول له أى لأجل متاع الحياة الدنيا والعامل ماذكر من الاستقرار وفيه أن المعلل بما ذكر نفس البغى لا كونه على أنفسهم وقيل العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر أى تبغون لأجل متاع الحياة الدنيا على أن الجملة مستأنفة وقيل على أنه مفعول صريح للمصدر وعلى أنفسكم ظرف لغو متعلق به والمراد بالأنفس الجنس والخبر محذوف لطول الكلام والتقدير إنما بغيكم على أبناء جنسكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ظاهر الفساد أو نحو ذلك وفيه ما مر من ابتنائه على ما يليق بالمقام من كون البغى بمعنى الطلب نعم لو جعل نصبه على العلة أى إنما بغيكم على أبناء جنسكم لأجل متاع الحياة الدنيا محذور كما اختاره بعضهم لكان له وجه فى الجملة لكن الحق الذى تقتضيه جزالة التنزيل إنما هو الأول وقرىء متاع بالرفع على أنه الخبر والظرف صلة المصدر أو خبر ثان أو خبر لمبتدأ محذوف أى هو متاع الخ فى قوله تعالى إلا ساعة من نهار بلاغ أى هذا بلاغ فالمراد بأنفسهم على الوجه الأول أبناء جنسهم وإنما عبر عنهم بذلك هزاً لشفقتهم عليهم وحثا لهم على ترك إيثار التمتع المذكور على حقوقهم ولا مجال للحمل على الحقيقة لأن كون بغيهم وبالا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ما حكى عنهم ولم يخبر به بعد حتى يجعل من تتمة الكلام ويجعل كونه متاعا مقصود الإفادة على أن عنوان كونه وبالا عليهم قادح فى كونه متاعا فضلا عن كونه من مبادى ثبوته للمبتدأ كما هو المتبادر من السوق .

وأما كون البغى على أبناء الجنس فمعلوم الثبوت عندهم ومتضمن لمبادىء التمتع من أخذ المال والاستيلاء على الناس وغير ذلك وأما على الوجهين الأخيرين

فلا موجب للعدول عن الحقيقة فإن المبتدأ إما نفس البغى أو الضمير العائد إليه
من حيث هو هو لا من حيث كونه وبالا عليهم كما فى صورة كون الظرف صلة
للمصدر فتدبر وقرىء متاعا الحياة الدنيا أما نصب متاعا فعلى ما مر وأما نصب
الحياة فعلى أنه بدل من متاعا بدل اشتمال وقيل على أنه مفعول به لمتاعا إذا لم
يكن انتصابه على المصدرية لأن المصدر المؤكد لا يعمل . عن النبى صلى الله عليه
وسلم أنه قال لا تمكر ولا تعن ماكراً ولا تبغ ولا تعن باغيا ولا تنكث ولا
تعن ناكثا وكان يتلوها وقال محمد ابن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغى
والنكث والمكر قال تعالى (إنما بغيكم على أنفسكم وما يمكرون إلا بأنفسهم) فمن
نكث فإنما ينكث على نفسه وعنه عليه الصلاة والسلام أسرع الخير ثوابا صلة
الرحم وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى
فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لو بغى
جبل على جبل لدك الباغى ﴿ ثم إلينا مرجعكم ﴾ عطف على ما مر من الجملة
المستأنفة المقدرة كأنه قيل تتمعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا وإنما
غير السبك إلى الجملة الاسميه مع تقديم الجار والمجرور للدلالة على الثبات والقصر
﴿ فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا على الاستمرار من البغى وهو وعيد
بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة
خفية مبنية على حكمة أبية وهى أن كل ما يظهر فى هذه النشأة من الأعيان
والأعراض فإنما يظهر بصورة مغايرة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة
الآخرة فإن المعاصى مثلا سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس
العصاة وكذا الطاعات مع كونها أحسن الأحاسن قد ظهرت عندهم بصور
مكروهة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار
بالشهوات فالبغى فى هذه النشأة وإن برز بصورة تشتهيها البغاة وتستحسنها الغواة
لتمتعهم به من حيث أخذ المال والتشفى من الأعداء ونحو ذلك لكن ذلك ليس
بتمتع فى الحقيقة بل هو تضرر من حيث لا يحتسبون وإنما يظهر لهم ذلك عند
إبراز ما كانوا يعملونه من البغى بصورته الحقيقية المضادة لما كانوا يشاهدونه

على ذلك من الصورة وهو المراد بالتنبئة المذكورة والله سبحانه وتعالى أعلم .

شأن الدنيا

﴿ إنما مثل الحيوة الدنيا ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان شأن الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود وقد شبه حالها العجيبة الشأن البديعة المثال المنتظمة لغرابتها فى سلك الأمثال فى سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غب إقبالها واغترار الناس بها بحال ما على الأرض من أنواع النبات فى زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاما لم يبق لها أثر أصلا بعد ما كانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وزينت الأرض بألوانها وتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح وليس المشبه به ما دخله الكاف فى قوله عز وجل ﴿ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ بل ما يفهم من الكلام فإنه من التشبيه المركب ﴿ مما يأكل الناس والأنعام ﴾ من البقول والزروع والحشيش ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ جعلت الأرض فى تزينها بما عليها من أصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة بالمونقة آخذة زخرفها على طريقة التمثيل بالعروس التى قد أخذت من ألوان الثياب والزين فتزينت بها ﴿ وازينت ﴾ أصله تزينت فأدغم وقرىء على الأصل وقرىء وازينت كأغيلت من غير إعلال والمعنى صارت ذات زينة وأزيانت كابياضت ﴿ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها ﴿ أتاها أمرنا ﴾ جواب إذا أى ضرب زرعها ما يجتاحه من الآفات والعاهات ﴿ ليلا أو نهارا فجعلناها ﴾ أى زرعها وساء ما عليها ﴿ حصيداً ﴾ أى شبيها بما حصد من أصله ﴿ كأن لم تغن ﴾ كأن لم يغن زرعها والمضاف محذوف للمبالغة وقرىء بتذكير الفعل ﴿ بالأمس ﴾ أى فيما قبل بزمان قريب فإن الأمس مثل فى ذلك كأنه قيل لم تغن آنفا ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك التفصيل البديع ﴿ نفصل الآيات ﴾ أى الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآية المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أى نوضحها ونبينها ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فى تضاعيفها ويقفون

على معانيها وتخصيص تفصيلها بهم لأنهم المنتفعون بها ويجوز أن يراد بالآيات ما ذكر فى أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات وبتفصيلها تصريفها على الترتيب المحكى إيجادا وإعداما فإنها آيات وعلامات يستدل بها من يتفكر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالا ومآلا ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ ترغيب للناس فى الحياة الأخروية الباقية إثر ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية أى يدعو الناس جميعا إلى دار السلامة عن كل مكروه وآفة وهى الجنة وإنما ذكرت بهذا الاسم لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضا للآفات أو إلى دار الله تعالى وتخصيص الإضافة التشريفية بهذا الاسم الكريم للتنبيه على ذلك أو إلى دار يسلم الله أو الملائكة فيها على من يدخلها أو يسلم بعضهم على بعض ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ هدايته منهم ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إليها وهو الإسلام والتزود بالتقوى وفى تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة وأن من أصر على الضلالة لم يرد الله رشده ﴿ الذين أحسنوا ﴾ أى أعمالهم أى عملوها على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿ الحسنى ﴾ أى المثوبة الحسنى ﴿ وزيادة ﴾ أى ما يزيد على تلك المثوبة تفضلا لقوله عز اسمه (ويزيدهم من فضله) وقيل الحسنى مثل حسناتهم والزيادة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان وقيل الحسنى الجنة والزيادة اللقاء ﴿ ولا يرهق وجوههم ﴾ أى لا يغشاها ﴿ قتر ﴾ غبرة فيها سواد ﴿ ولا ذلة ﴾ أى أثر هوان وكسوف بال والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من الحزن وسوء الحال والتنكير للتحقير أى شىء منهما والجملة مستأنفة لبيان أمنهم من المكاره إثر بيان فوزهم بالمطالب والثانى وإن اقتضى الأول إلا أنه ذكر إذكارا بما ينقذهم الله تعالى منه برحمته وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم وللتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده فعند وروده عليها يتمكن عندها فضل تمكن

ولأن فى الفاعل ضرب تفصيل كما فى قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وقوله عز وجل (وجاءك فى هذه الحق) وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بالصفات المذكورة وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم أى أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجميلة الفائزون بالمثوبات الناجون عن المكاره ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ بلا زوال دائمون بلا انتقال .

﴿والذين كسبوا السيئات﴾ أى الشرك والمعاصى وهو مبتدأ بتقدير المضاف خبره قوله تعالى ﴿جزاء سيئة بمثلها﴾ أى جزاء الذين كسبوا السيئات أن يجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لايزاد عليها كما يزاد فى الحسنة وتغيير السبك حيث لم يقل وللذين كسبوا السيئات السوآى لمراعاة ما بين الفريقين من كمال التنائى والتباين وإيراد الكسب للإيذان بأن ذلك إنما هو لسوء صنيعهم وبسبب جنايتهم على أنفسهم أوالموصول معطوف على الموصول الأول كأنه قيل وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها كقولك فى الدار زيد والحجرة عمرو وفيه دلالة على أن المراد بالزيادة الفضل ﴿وترهقهم ذلة﴾ وأى ذلة كما ينبىء عنه التنوين التفخيمى وفى إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذان بأنها محيطة بهم غاشية لهم جميعاً وقرىء يرهقهم بالياء التحتانية ﴿ما لهم من الله عاصم﴾ أى لا يعصمهم أحد من سخطه وعذابه تعالى أو مالهم من عنده تعالى من يعصمهم كما يكون للمؤمنين وفى نفى العاصم من المبالغة فى نفى العصمة ما لا يخفى والجملة مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل﴾ لفرط سوادها وظلمتها ﴿مظلما﴾ حال من الليل والعامل فيه أغشيت لأنه العامل فى قطعا وهو موصوف بالجار والمجرور والعامل فى الموصوف عامل فى الصفة أو معنى الفعل فى من الليل وقرىء قطعا بسكون الطاء وهو طائفة من الليل قال :

افتحى الباب وانظرى فى النجوم   كم علينا من قطع ليل بهيم

فيجوز كون مظلما صفة له أو حالا منه وقرىء كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم والجملة كما قبلها مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم ﴿ أولئك ﴾ أى الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة ﴿ أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وحيث كانت الآية الكريمة فى حق الكفار بشهادة السياق والسباق لم يكن فيها تمسك للوعيدية ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بعض آخر من أحوالهم الفظيعة وتأخيره فى الذكر مع تقدمه فى الوجود على بعض أحوالهم المحكية سابقا للإيذان باستقلال كل من السابق واللاحق بالاعتبار ولو روعى الترتيب الخارجى لعد الكل شيأ واحدا كما مر فى قصة البقرة ولذلك فصل عما قبله ويوم منصوب على المفعولية بمضمر أى أنذرهم أو ذكرهم وضمير نحشرهم لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات لأنه المتبادر من قوله تعالى :

﴿ جميعاً ﴾ ومن أفراد الفريق الثانى بالذكر فى قوله تعالى ﴿ ثم نقول للذين أشركوا ﴾ أى نقول للمشركين من بينهم ولأن توبيخهم وتهديدهم على رءوس الأشهاد أفظع والإخبار بحشر الكل فى تهويل اليوم أدخل وتخصيص وصف إشراكهم بالذكر فى حيز الصلة من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع مافيه من الإيذان بكونه معظم جناياتهم وعمدة سيئاتهم وقيل للفريق الثانى خاصة فيكون وضع الموصول موضع الضمير لما ذكر آنفاً ﴿ مكانكم ﴾ نصب على أنه فى الأصل ظرف لفعيل أقيم مقامه لا على أنه اسم فعل وحركته حركة بناء كما هو رأى الفارسى أى الزموه حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿ أنتم ﴾ تأكيد للضمير المنتقل إليه من عامله لسده مسده ﴿ وشركاؤكم ﴾ عطف عليه وقرىء بالنصب على أن الواو بمعنى مع ﴿ فزيلنا ﴾ من زلت الشيء مكانه أزيله أى أزلته والتضعيف للتكثير لا للتعدية وقرىء فزايلنا بمعناه نحو كلمته وكالمته وهو معطوف على نقول وإيثار صيغة الماضى للدلالة على التحقق المورث لزيادة التوبيخ والتحسير والفاء للدلالة على وقوع

التزييل ومباديه عقيب الخطاب من غير مهلة إيذانا بكمال رخاوة ما بين الفريقين من العلاقة والوصلة أى ففرقنا .

﴿ بينهم ﴾ وقطعنا أقرانهم والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا لكن لا من الجانبين بل من جانب العبدة فقط لعدم احتمال شمول الشركاء للشياطين كما سيجىء فخابت آمالهم وانصرمت عرى أطماعهم وحصل لهم اليأس الكلى من حصول ما كانوا يرجونه من جهتهم والحال وإن كانت معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب لكن هذه المرتبة من اليقين إنما حصلت عند المشاهدة والمشافهة وقيل المراد بالتزييل التفريق الحسى أى فباعدنا بينهم بعد الجمع فى الموقف وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم كما فى قوله تعالى (أينما كنتم تشركون من دون الله) قالوا ضلوا عنا فالواو حينئذ فى قوله تعالى ﴿ وقال شركاؤهم ﴾ حالية بتقدير كلمة قد عند من يشترطها وبدونه عند غيره ولا عاطفة كما فى التفسير الأول لاستدعاء المحاورة المحاضرة الفائتة بالمباعدة وليس فى ترتيب التزييل بهذا المعنى على الأمر بلزوم المكان ما فى ترتيبه عليه بالمعنى الأول من النكتة المذكورة ليصار لأجل رعايتها إلى تغيير الترتيب الخارجى فإن المباعدة بعد المحاورة حتما وأما قطع الأقران والعلائق فليس كذلك بل ابتداؤه حاصل من حين الحشر بل بعض مراتبه حاصل قبله أيضا وإنما الحاصل عند المحاورة أقصاها كما أشير إليه اعتداد بما فى تقديمه من التغيير لا سيما مع رعاية ما ذكر من النكتة ولو سلم تأخر جميع مراتبه عن المحاورة فمراعاة تلك النكتة كافية فى استدعاء تقديمه عليها ويجوز أن تكون حالية على هذا التقدير أيضاً والمراد بالشركاء قيل الملائكة وعزير والمسيح وغيرهم ممن عبدوه من أولى العلم ففيه تأييد لرجوع الضمير إلى الكل وقولهم :

﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ عبارة عن تبرئهم من عبادتهم وأنهم إنما عبدوا فى الحقيقة أهواءهم وشياطينهم الذين أغووهم لأنها الآمرة لهم بالإشراك دونهم كقولهم (سبحانك أنت ولينا من دونهم) الآية وقيل الأصنام ينطقها الله الذى أنطق

كل شيء فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي كانوا يتوقعونها ﴿ فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ﴾ فإنه العليم الخبير ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ أى عن عبادتكم لنا وتركه للظهور وللإيذان بكمال الغفلة عنها والغفلة عبارة عن عدم الارتضاء وإلا فعدم شعور الملائكة بعبادتهم لهم غير ظاهر وهذا يقطع احتمال كون المراد بالشركاء الشياطين كما قيل فإن ارتضاءهم بإشراكهم مما لا ريب فيه وإن لم يكونوا مجبرين لهم على ذلك وإن مخففة من أن واللام فارقة ﴿ هنالك ﴾ أى فى ذلك المقام الدهش أو فى ذلك الوقت على استعارة ظرف المكان للزمان ﴿ تبلو ﴾ أى تختبر وتذوق ﴿ كل نفس ﴾ مؤمنة كانت أو كافرة سعيدة أو شقية ﴿ ما أسلفت ﴾ من العمل وتعاينه بكنهه مستتبعاً لآثاره من نفع أو ضر وخير أو شر وأما ما علمت من حالها من حين الموت والابتلاء بالعذاب فى البرزخ فأمر مجمل وقرىء نبلو بنون العظمة ونصب كل وإبدال ما منه أى نعاملها معاملة من يبلوها ويتعرف أحوالها من السعادة والشقاوة باختبار ما أسلفت من العمل ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء أى العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فيكون ما منصوبة بنزع الخافض وقرىء تتلو أى تتبع لأن عملها هو الذى يهديها إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار أو تقرأ فى صحيفه أعمالها ما قدمت من خير أو شر ﴿ وردوا ﴾ الضمير للذين أشركوا على أنه معطوف على زيلنا وما عطف عليه قوله عز وجل هنالك تبلو الخ اعتراض فى أثناء الحكاية مقرر لمضمونها ﴿ إلى الله ﴾ أى إلى جزائه وعقابه ﴿ مولاهم ﴾ ربهم ﴿ الحق ﴾ أى المتحقق الصادق ربوبيته لا ما اتخذوه باطلا وقرىء الحق بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد أو على المصدر المؤكد .

﴿ وضل عنهم ﴾ وضاع أى ظهر ضياعه وضلاله لا أنه كان قبل ذلك غير ضال أو ضل فى اعتقادهم أيضاً ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم أو ما كانوا يدعون أنها آلهة هذا وجعل الضمير فى ردوا للنفوس المدلول عليها بكل نفس على أنه معطوف على تبلو وأن العدول إلى الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وأن إيثار صيغة الجمع للإيذان بأن ردهم إلى الله يكون على طريقة

الاجتماع لا يلائمه التعرض لوصف الحقية في قوله تعالى (مولاهم الحق) فإنه للتعريض بالمردودين حسبما أشير إليه ولئن اكتفى فيه بالتعريض ببعضهم أو حمل الحق على معنى العدل في الثواب والعقاب فقوله عز وجل (وضل عنهم ما كانوا يفترون) مما لا مجال فيه للتدارك قطعاً فإن ما فيه من الضمائر الثلاثة للمشركين فيلزم التفكيك حتما وتخصيص كل نفس بالنفوس المشتركة مع عموم البلوى للكل يأباه مقام تهويل المقام والله تعالى أعلم .

﴿ قل ﴾ أى لأولئك المشركين الذين حكيت أحوالهم وبين ما يؤدى إليه أعمالهم احتجاجا على حقية التوحيد وبطلان ما هم عليه من الإشراك ﴿ من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أى منهما جميعاً فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماية ومواد أرضية أو من كل واحدة منهما توسعة عليكم وقيل من لبيان كلمة من على حذف المضاف أى من أهل السماء والأرض ﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ أم منقطعة وما فيها من كلمة بل للإضراب عن الاستفهام الأول لكن لا على طريقة الإبطال بل على وجه الانتقال وصرف الكلام عنه إلى استفهام آخر تنبيها على كفايته فيما هو المقصود أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شيء يصيبهما ﴿ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ أى ومن يحي ويميت أو ومن ينشيء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ أى ومن يلى تدبير أمر العالم جميعاً وهو تعميم بعد تخصيص بعض ما اندرج تحته من الأمور الظاهرة بالذكر ﴿ فسيقولون ﴾ بلا تلعثم ولا تأخير ﴿ الله ﴾ إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه والخبر محذوف أى الله يفعل ما ذكر من الأفاعيل لا غيره .

﴿ فقل ﴾ عند ذلك تبكيتا لهم ﴿ أفلا تتقون ﴾ الهمزة لإنكار عدم الاتقاء بمعنى إنكار الواقع كما فى أتضرب أباك لا بمعنى إنكار الوقوع فى أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أتعلمون ذلك فلا تقون أنفسكم عذابه الذى ذكر لكم بما تتعاطونه من إشراككم به

ما لا يشاركه فى شيء مما ذكر من خواص الإلهية ﴿ فذلكم ﴾ فذلكة لما تقدم أى ذلكم الذى اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ الله ﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ ربكم ﴾ أى مالككم ومتولى أموركم على الإطلاق بدل منه أو بيان له وقوله تعالى ﴿ الحق ﴾ صفة له أى ربكم الثابت ربوبيته والمتحقق ألوهيته تحققا لا ريب فيه ﴿ فماذا ﴾ يجوز أن يكون الكل اسما واحدا قد غلب فيه الاستفهام على اسم الإشارة وأن يكون ذا موصولا بمعنى الذى أى ما الذى ﴿ بعد الحق ﴾ أى غيره بطريق الاستعارة وإظهار الحق إما لأن المراد به غير الأول وإما لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال والاستفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع ونفيه أى ليس غير الحق ﴿ إلا الضلال ﴾ الذى لا يختاره أحد فحيث ثبت أن عبادة من هو منعوت بما ذكر من النعوت الجميلة حق ظهر أن ما عداها من عبادة الأصنام ضلال محض إذ لا واسطة بينهما وإنما سميت ضلالا مع كونها من أعمال الجوارح باعتبار ابتنائها على ما هو ضلال من الاعتقاد ، والرأى هذا على تقدير كون الحق عبارة عن التوحيد وأما على تقدير كونه عبارة عن الأول فالمراد بالضلال هو الأصنام لا عبادتها والمعنى فماذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته إلا الضلال أى الباطل الضائع المضمحل وإنما سمى بالمصدر مبالغة كأنه نفس الضلال والضياع وهذا أنسب بقوله تعالى (وضل عنهم ما كانوا يفترون) على التفسير الثانى .

﴿ فأنى تصرفون ﴾ استفهام إنكارى بمعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه وفيه من المبالغة ما ليس فى توجيه الإنكار إلى نفس الفعل لأن كل موجود لا بد من أن يكون وجوده على الحال من الأحوال قطعا فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى كما مر مرارا والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله أى كيف تصرفون من الحق الذى لا محيد عنه وهو التوحيد إلى الضلال عن السبيل المستبين وهو الإشراك وعبادة الأصنام أو من عبادة ربكم الحق الثابت ربوبيته إلى عبادة الباطل الذى سمعتم ضلاله وضياعه فى الآخرة وفى إيثار صيغة المبنى للمفعول إيذان بأن الانصراف

من الحق إلى الضلال مما لا يصدر عن العاقل بإرادته وإنما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجى .

﴿ كذلك ﴾ أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق ﴿ حقت كلمة ربك ﴾ وحكمه وقضاؤه ﴿ على الذين فسقوا ﴾ أى تمردوا فى الكفر وخرجوا من أقصى حدوده ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ بدل الكلمة أو تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب ﴿ قل هل من شركائكم ﴾ احتجاج آخر على حقية التوحيد وبطلان الإشراك بإظهار كون شركائهم بمعزل من استحقاق الإلهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق وإعادته به سبحانه وتعالى وإنما لم يعطف على ما قبله إيذانا باستقلاله فى إثبات المطلوب والسؤال للتبكيت والإلزام وقد جعلت أهلية الإعادة وتحققها لوضوح مكانها وسنوح برهانها بمنزلة بدء الخلق فنظمت فى سلكه حيث قيل ﴿ من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ إيذانا بتلازمهما وجودا وعلما يستلزم الاعتراف بها وإن صدهم عن ذلك ما بهم من المكابرة والعناد ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك فقيل له ﴿ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أى هو يفعلهما لا غير كائنا ما كان لا بأن ينوب عليه الصلاة والسلام عنهم فى ذلك كما قيل لأن القول المأمور به غير ما أريد منهم من الجواب وإن كان مستلزما له إذ ليس المسئول عنه من يبدأ الخلق ثم يعيده كما فى قوله تعالى (قل من رب السموات والأرض قل الله) حتى يكون القول المأمور بين عين الجواب الذى أريد منهم ويكون عليه الصلاة والسلام نائبا عنهم فى ذلك بل إنما هو وجود من يفعل البدء والإعادة من شركائهم فالجواب المطلوب منهم لا غير نعم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يضمنه مقالته إيذانا بتعينه وتحققه وإشعارا بأنهم لا يجترئون على التصريح به مخافة التبكيت وإلقام الحجر لا مكابرة ولجاجا فتدبر وإعادة الجملة فى الجواب السابق لمزيد التأكيد والتحقيق ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ الإفك الصرف والقلب عن الشىء وقد يخص بالقلب عن الرأى وهو الأنسب بالمقام أى كيف تقلبون من الحق إلى الباطل والكلام فيه كما ذكر فى تصرفون ﴿ قل هل من شركائكم ﴾

احتجاج آخر على ما ذكر جيء به إلزاما لهم غب إلزام وإفحاما إثر إفحام وفصله عما قبله لما ذكر من الدلالة على استقلاله ﴿ من يهدى إلى الحق ﴾ أى بوجه من الوجوه فإن أدنى مراتب المعبودية هداية المعبود لعبدته إلى ما فيه صلاح أمرهم وأما تعيين طريق الهداية وتخصيصه بنصب الحجج وإرسال الرسل والتوفيق للنظر والتدبر كما قيل فمخل بما يقتضيه المقام من كمال التبكيت والإلزام فإن العجز عن الهداية على وجه خاص لا يستلزم العجز عن مطلق الهداية وهدى كما يستعمل بكلمة إلى لتضمنه معنى الانتهاء يستعمل باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الإتفاق ولذلك استعمل بها ما أسند إلى الله تعالى حيث قيل .

﴿ قل الله يهدى للحق ﴾ أى هو يهدى له دون غيره وذلك بما ذكر من نصب الأدلة والحجج وإرسال الرسل وإنزال الكتب والتوفيق للنظر والتدبر وغير ذلك من فنون الهدايات والكلام فى الأمر بالسؤال والجواب كما مر فيما مر ﴿ أفمن يهدى إلى الحق ﴾ وهو الله عز وجل ﴿ أحق أن يتبع أمن لايهدى ﴾ بكسر الهاء أصله يهتدى فأدغم وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين وقرىء بكسر الياء اتباعا لها لحركة الهاء وقرىء بفتح الهاء نقلا لحركة التاء إليها أى لا يهتدى بنفسه فضلا عن هداية غيره وفيه من المبالغة ما لا يخفى وإنما نفى عنه الاهتداء مع أن المفهوم مما سبق نفى الهداية لما أن نفيها مستتبع لنفيه غالبا فإن من اهتدى إلى الحق لا يخلو عن هداية غيره فى الجملة وأدناها كونه قدوة له بأن يراه فيسلك مسلكه من حيث لا يدرى والفاء لترتيب الاستفهام على ماسبق من تحقق هدايته تعالى صريحا وعدم هداية شركائهم المفهوم من القصر ومن عدم الجواب المنبىء عن الجواب بالعدم فإن ذلك مما يضطرهم إلى الجواب الحق لا لتوجيه الاستفهام إلى الترتيب كما يقع فى بعض المواقع فإن ذلك مختص بالإنكارى كما فى قوله تعالى (أفمن اتبع رضوان الله) الخ ونحوه والهمزة متأخرة فى الاعتبار وإنما تقديمها فى الذكر لإظهار عراقتها فى اقتضاء الصدارة كما هو رأى الجمهور حتى لو كان السؤال بكلمة أي لأخرت حتما ألا يرى إلى قوله تعالى (فأى

الفريقين أحق بالأمن إثر تقدير مايلجىء المشركين إلى الجواب من حالهم وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء لا يهدى بمعنى لا يهتدى لمجيئه لازما أو لا يهدى غيره وصيغة التفضيل إما على حقيقتها والمفضل عليه محذوف كما اختاره أبو حيان وأيا ما كان فالاستفهام للإلزام وأن يتبع فى حيز النصب أو الجر بعد حذف الجار على الخلاف المعروف أى بأن يتبع .

﴿إلا أن يهدى﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لايهتدى أولايهتدى غيره فى حال من الأحوال إلا حال هدايته تعالى له إلى الاهتداء أو إلى هداية الغير وهذا حال أشراف شركائهم من الملائكة والمسيح وعزيز عليهم السلام وقيل المعنى أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن ينقل إليه أو إلا أن ينقله الله تعالى من حاله إلى أن يجعله حيوانا مكلفا فيهديه وقرىء إلا أن يهتدى من التفعيل للمبالغة ﴿فما لكم﴾ أى أى شىء لكم فى اتخاذكم هؤلاء شركاء لله سبحانه وتعالى والاستفهام للإنكار التوبيخى وفيه تعجيب من حالهم وقوله تعالى ﴿كيف تحكمون﴾ أى بما يقضى صريح العقل ببطلانه إنكار لحكمهم الباطل وتعجب منه وتشنيع لهم بذلك والفاء لترتيب كلا الإنكارين على ما ظهر من وجوب اتباع الهادى إلى الحق إن قلت التبكيت بالاستفهام السابق إنما يظهر فى حق من يعكس جوابه الصحيح فيحكم بأحقية من لا يهدى بالاتباع دون من يهدى وهم ليسوا حاكمين بأحقية شركائهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى بل باستحقاقهما جميعاً مع رجحان جانبه تعالى حيث يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قلت حكمهم باستحقاقه تعالى للاتباع بطريق الاشتراك حكم منهم بعدم استحقاقه تعالى لذلك بطريق الاستقلال فصاروا حاكمين باستحقاق شركائهم له دون الله تعالى من حيث لايحتسبون ﴿ومايتبع أكثرهم﴾ كلام مبتدأ غير داخل فى حيز الأمر مسوق من قبله تعالى لبيان عدم فهمهم لمضمون ما أفحمهم وألقمهم الحجر من البرهان النير الموجب لاتباع الهادى إلى الحق الناعى عليهم بطلان حكمهم وعدم تأثرهم من ذلك لعدم اهتدائهم إلى طرق العلم أصلا أن ما يتبع أكثرهم فى معتقداتهم ومحاوراتهم ﴿إلا ظنا﴾

واهيا من غير التفات إلى فرد من أفراد العلم فضلا عن أن يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية إلى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الحقة فيفهموا مضمونها ويقفوا على صحتها وبطلان ما يخالفها من أحكامهم الباطلة فيحصل التبكيت والإلزام فالمراد بالاتباع مطلق الاعتقاد الشامل لما يقارن القبول والانقياد ومالا يقارنه وبالقصر ما أشير إليه من أن لا يكون لهم فى أثنائه اتباع لفرد من أفراد العلم والتفات إليه ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم الإشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيد وبطلان الشرك لا يقبلونه مكابرة وعناداً فيحصل بالنسبة إليهم التأثر من البرهان المزبور وإن لم يظهروه وكونهم أشد كفرا وأكثر عذابا من الفريق الأول لا يقدح فيما يفهم من فحوى الكلام عرفا من كون أولئك أسوأ حالا من غيرهم إذ المعتبر سوء الحال من حيث الفهم والإدراك لا من حيث الكفر والعذاب أو ما يتبع أكثرهم مدة عمرهم إلا ظنا ولا يتركونه أبدا فإن حرف النفى الداخل على المضارع يفيد استمرار النفى بحسب المقام فالمراد بالاتباع حينئذ هو الإذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم فى ذلك التلويح بما سيكون من بعضهم من اتباع الحق والتوبة كما سيأتى هذا وقد قيل المعنى وما يتبع أكثرهم فى إقرارهم بالله تعالى إلا ظنا غير مستند إلى برهان عندهم وقيل وما يتبع أكثرهم فى قولهم للأصنام إنها آلهة إلا ظنا والمراد بالأكثر الجميع فتأمل وقيل الضمير فى أكثرهم للناس فلا حاجة إلى التكلف ﴿ إن الظن لا يغنى من الحق ﴾ من العلم اليقينى والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع ﴿ شيئا ﴾ من الإغناء ويجوز أن يكون مفعولا به ومن الحق حالا فيه والجملة استئناف ببيان شأن الظن وبطلانه وفيه دلالة على وجوب العلم فى الأصول وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ وعيد لهم على أفعالهم القبيحة فيندرج تحتها ما حكى عنهم من الإعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجا أوليا وقرىء تفعلون بالالتفات إلى الخطاب لتشديد الوعيد .

﴿ وما كان هذا القرآن ﴾ شروع فى بيان ردهم للقرآن الكريم إثر بيان ردهم للأدلة العقلية المندرجة فى تضاعيفه أى وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للإتباع التى من جملتها هاتيك الحجج البينة الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك ﴿ أن يفترى من دون الله ﴾ أى افتراء من الخلق أى مفترى منهم سمى بالمصدر مبالغة ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾ من الكتب الإلهية المشهود على صدقها أى مصدقا لها كيف لا وهو لكونه معجزا دونها عيار عليها شاهد بصحتها ونصبه بأنه خبر كان مقدرا وقد جوز كونه علة لفعل محذوف تقديره لكن أنزله الله تصديق الخ وقرىء بالرفع على تقدير المبتدأ أى ولكن هو تصديق الخ ﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ عطف عليه نصبا ورفعا أى وتفصيل ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع ﴿ لا ريب فيه ﴾ خبر ثالث داخل فى حكم الاستدراك أى منتفيا عنه الريب أو حال من الكتاب وإن كان مضافا إليه فإنه مفعول فى المعنى أو استئناف لا محل له من الإعراب ﴿ من رب العالمين ﴾ خبر آخر أى كائنا من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو بتفصيل أو بالفعل المعلل بهما ولا ريب فيه اعتراض كما فى قولك زيد لا شك فيه كريم أو حال من الكتاب أو من الضمير فى فيه ومساق الآية الكريمة بعد المنع عن إتباع الظن لبيان ما يجب أتباعه ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أى بل أيقولون افتراه محمد عليه الصلاة والسلام والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده ﴿ قل ﴾ تبكيتا لهم وإظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة إن كان الأمر كما تقولون ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ أى فى البلاغة وحسن الصياغة وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلى فى العربية والفصاحة وأشد تمرنا منى فى النظم والعبارة وقرىء بسورة مثله على الإضافة أى بسورة كتاب مثله ﴿ وادعوا ﴾ للمظاهرة والمعاونة ﴿ من استطعتم ﴾ دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون بأنها ممدة لكم فى المهمات والملمات ومدارهكم الذين تلجأون إلى آرائهم فى كل ما تأتون وما تذرون ﴿ من دون الله ﴾ متعلق بادعوا ودون جار مجرى أداة الاستثناء وقد مر تفصيله فى قوله تعالى (وادعوا شهداءكم من دون الله) أى

ادعوا سواه تعالى من استطعتم من خلقه فإنه لا يقدر عليه أحد وأخرجه سبحانه من حكم الدعاء للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونهم فى عدوة المضادة والمشاقة لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى أنى افتريته فإن ذلك مستلزم لإمكان الاتيان بمثله وهو أيضاً مستلزم لقدرتكم عليه والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه .

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا فى حق القرآن العظيم بالتحدى إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشىء عن جهلهم بشأنه الجليل فما عبارة عن كله لا عما فيه من ذكر البعث والجزاء وما يخالف دينهم كما قيل فإنه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثلة أى سارعوا إلى تكذيبه آثر ذى أثير من غير أن يتدبروا فيه ويقفوا على ما فى تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه كما وصف آنفا ويعلموا أنه ليس مما يمكن أن يكون له نظير يقدر عليه المخلوق والتعبير عنه بما لم يحيطوا بعلمه دون أن يقال بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للإيذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به لما أن إدارة الحكم على الموصول مشعرة بعلية ما فى حيز الصلة له ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ عطف على الصلة أو حال من الموصول أى ولم يقفوا بعد على تأويله ولم يبلغ أذهانهم معانيه الرائقة المنبئة عن علو شأنه والتعبير عن ذلك بإتيان التأويل للإشعار بأن تأويله متوجه إلى الأذهان منساق إليها بنفسه أو لم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين أنه صدق أم كذب والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ومن جهة الإخبار بالغيب وهم قد فاجأوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفكروا فى معناه أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلة ونفى إتيان التأويل بكلمة لما الدالة على التوقع بعد نفى الإحاطة بعلمه بكلمة لم لتأكيد الذم وتشديد التشنيع فإن الشناعة فى تكذيب الشىء قبل علمه المتوقع إتيانه أفحش منها فى تكذيبه قبل علمه مطلقا والمعنى

أنه كان يجب عليهم أن يتوقفوا إلى زمان وقوع المتوقع فلم يفعلوا وأما أن المتوقع قد وقع بعد وأنهم استمروا عند ذلك أيضاً على ما هم عليه أو لا فلا تعرض له ههنا والاستشهاد عليه بعدم انقطاع الذم أو ادعاء أن قولهم افتراه تكذيب بعد التدبر ناشيء من عدم التدبر فتدبر كيف لا وهم لم يقولوه بعد التحدى بل قبله وادعاء كونه مسبوقا بالتحدى الوارد فى سورة البقرة يرده أنها مدنيه وهذه مكية وإنما الذى يدل عليه ما سيتلى عليك من قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم الخ وقوله تعالى :

﴿ كذلك ﴾ الخ وصف لحالهم المحكى وبيان لما يؤدى إليه من العقوبة أى مثل ذلك التكذيب المبنى على بادى الرأى والمجازفة من غير تدبر وتأمل ﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ أى فعلوا التكذيب أو كذبوا ما كذبوا من المعجزات التى ظهرت على أيدى أنبيائهم أو كذبوا أنبياءهم ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ وهم الذين من قبلهم من المكذبين وإنما وضع المظهر موضع المضمر للإيذان بكون التكذيب ظلما أو بعليته لإصابة ما أصابهم من سوء العاقبة وبدخول هؤلاء الظالمين فى زمرتهم جزما ووعيدا دخولا أوليا وقوله عز وجل ﴿ ومنهم ﴾ الخ وصف لحالهم بعد إتيان التأويل المتوقع إذ حينئذ يمكن تنويعهم إلى المؤمن به وغير المؤمن ضرورة امتناع الإيمان بشيء من غير علم به واشتراك الكل فى التكذيب والكفر به قبل ذلك حسبما أفاده قوله تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) أى ومن هؤلاء المكذبين ﴿ من يؤمن به ﴾ عند الإحاطة بعلمه وإتيان تأويله وظهور حقيته بعد ما سعوا فى المعارضة ورازوا قواهم فيها فتضاءلت دونها أو بعد ما شاهدوا وقوع ما أخبر به كما أخبر به مرارا ومعنى الإيمان به إما الاعتقاد بحقيته فقط أى يصدق به فى نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند ويكابر وهؤلاء هم الذين أشير بقصر اتباع الظن على أكثرهم إلى أنهم يعلمون الحق على التفسير الأول كما أشير إليه فيما سلف وإما الإيمان الحقيقى أى سيؤمن به ويتوب عن الكفر وهم الذين أشير بالقصر المذكور على التفسير الثانى إلى أنهم سيتبعون الحق كما مر ﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ أى لا يصدق

به فى نفسه كما لا يصدق به ظاهراً لفرط غباوته المانعة عن الإحاطة بعلمه كما ينبغى وإن كان فوق مرتبة عدم الإحاطة به أصلا أو لسخافة عقله واختلال تمييزه وعجزه عن تخليص علومه من مخالطة الظنون والأوهام التى ألفها فيبقى على ما كان عليه من الشك وهذا القدر من الإحاطة وإتيان التأويل كاف فى مقابلة ما سبق من عدم الإحاطة بالمرة وهؤلاء هم الذين أريدوا فيما سلف بقوله عز وجل (وما يتبع أكثرهم إلا ظنا) على التفسير الأول أو لا يؤمن به فيما سيأتى بل يموت على كفره معاندا كان أو شاكا وهم المستمرون على اتباع الظن على التفسير الثانى من غير إذعان للحق وانقياد له ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أى بكلا الفريقين على الوجه الأول لا بالمعاندين فقط كما قيل لاشتراكهما فى أصل الإفساد المستدعى لاشتراكهما فى الوعيد أو بالمصرين الباقين على الكفر على الوجه الثانى من المعاندين والشاكين ﴿ وإن كذبوك ﴾ أى إن استمروا على تكذيبك وأصروا عليه حسبما أخبر عنهم بعد إلزام الحجة بالتحدى ﴿ فقل لى عملى ولكم عملكم ﴾ أى تبرأ منهم فقد أعذرت كقوله تعالى (فإن عصوك فقل إنى برىء) والمعنى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا وتوحيد العمل المضاف إليهم باعتبار الاتحاد النوعى ولمراعاة كمال المقابلة ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ تأكيد لما أفادته لام الاختصاص من عدم تعدى جزاء العمل إلى غير عامله أى لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم ولما فيه من إيهام المتاركة وعدم التعرض لهم قيل إنه منسوخ بآية السيف .

﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ بيان لكونهم مطبوعا على قلوبهم بحيث لا سبيل إلى إيمانهم وإنما جمع الضمير الراجع إلى كلمة من رعاية لجانب المعنى كما أفرد فيما سيأتى محافظة على ظاهر اللفظ ولعل ذلك للإيماء إلى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب والظلمة أى ومنهم ناس يستمعون إليك عند قراءتك القرآن وتعليمك الشرائع ﴿ أفأنت تسمع الصم ﴾ همزة الاستفهام إنكارية والفاء عاطفة وليس الجمع بينهما لترتيب إنكار الإسماع كما هو رأى سيبويه والجمهور على أن يجعل

تقديم الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارة كما تقرر فى موضعه بل لإنكار ترتبه عليه حسبما هو المعتاد لكن لا بطريق العطف على الفعل المذكور لأدائه إلى اختلال المعنى لأنه إما صلة أو صفة وأياما كان فالعطف عليه يستدعى دخول المعطوف فى حيزه وتوجه الإنكار إليه من تلك الحيثية ولا ريب فى فساده بل بطريق العطف على مقدر مفهوم من فحوى النظم كأنه قيل أيستمعون إليك فأنت تسمعهم لا إنكارا لاستماعهم فإنه أمر محقق بل إنكارا لوقوع الاستماع عقيب ذلك وترتبه عليه حسب العادة الكلية بل نفيا لإمكانه أيضاً كما ينبىء عنه وضع الصم موضع ضميرهم ووصفهم بعدم العقل بقوله تعالى ﴿ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ أى ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم لأن الأصم العاقل ربما تفرس إذا وصل إلى صماخه صوت وأما إذا اجتمع فقدان السمع فقد تم الأمر ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ ويعاين دلائل نبوتك الواضحة ﴿ أفأنت ﴾ أى أعقيب ذلك أنت تهديهم وإنما قيل ﴿ تهدى العمى ﴾ تربية لإنكار هدايتهم وإبرازا لوقوعها فى معرض الاستحالة وقد أكد ذلك حيث قيل ﴿ ولو كانوا لا يبصرون ﴾ أى ولو انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة فإن المقصود من الإبصار الاعتبار والاستبصار والعمدة فى ذلك هى البصيرة ولذلك يحدس الأعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق فحيث اجتمع فيهم الحمق والعمى فقد انسد عليهم باب الهدى وجواب لو فى الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى (تسمع الصم) (تهدى العمى) عليه وكل منهما معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها فى الفحوى كلتاهما فى موضع الحال من مفعول الفعل السابق أى أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون أفأنت تهدى العمى لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون أى على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فإن الشىء إذا تحقق عند تحقق المانع أو المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أو عند تحقق المانع الضعيف أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى لو وأن الوصلتين من التأكيد وقد مر الكلام فى قوله تعالى (ولو كره الكافرون) ونظائره مرارا ﴿ إن الله لا يظلم الناس ﴾ إشارة إلى أن

ما حكى عنهم من عدم اهتدائهم إلى طريق الحق وتعطل مشاعرهم من الإدراك ليس لأمر مستند إلى الله عز وجل من خلقهم مؤفى المشاعر ونحو ذلك بل إنما هو من قبلهم أى لا ينقصهم ﴿ شيئاً ﴾ مما نيط به مصالحهم الدينية والدنيوية وكمالاتهم الأولوية والأخروية من مبادىء إدراكهم وأسباب علومهم من المشاعر الظاهرة والباطنة والإرشاد إلى الحق بإرسال الرسل وإنزال الكتب بل يوفيهم ذلك من غير إخلال بشىء أصلا ﴿ ولكن الناس ﴾ وقرىء بالتخفيف ورفع الناس وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة تعيين وتقرير أى لكنهم بعدم استعمال مشاعرهم فيما خلقت له وإعراضهم عن قبول دعوة الحق وتكذيبهم للرسل والكتب ﴿ أنفسهم يظلمون ﴾ أى ينقصون ما ينقصون مما يخلون به من مبادىء كمالهم وذرائع اهتدائهم وإنما لم يذكر لما أن مرمى الغرض إنما هو قصر الظلم على أنفسهم لا بيان ما يتعلق به الظلم والتعبير عن فعلهم بالنقص مع كونه تفويتا بالكلية وإبطالا بالمرة لمراعاة جانب قرينته وقوله عز وجل أنفسهم إما تأكيد للناس فيكون بمنزلة ضمير الفصل فى قوله تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) فى قصر الظالمية عليهم وإما مفعول ليظلمون حسبما وقد فى سائر المواقع وتقديمه عليه لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد إلى قصر المظلومية عليهم على رأى من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما فى قوله تعالى (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) من غير قصر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول وأما على رأى من يراه موجبا له فلعل إيثار قصرها دون قصر الظالمية عليهم للمبالغة فى بيان بطلان أفعالهم وسخافة عقولهم لما أن أقبح الأمرين عند اتحاد الفاعل والمفعول وأشدهما إنكارا عند العقل ونفرة لدى الطبع وأوجبهما حذرا منه عند كل أحد هو المظلومية لا الظالمية على أن قصر الأولى عليهم مستلزم لما يقتضيه ظاهر الحال من قصر الثانية عليهم ضرورة أنه إذا لم يظلم أحد من الناس إلا نفسه يلزم أن لا يظلمه إلا نفسه إذ لو ظلمه غيره يلزم كون ذلك الغير ظالما لغير نفسه والمفروض أن لا يظلم أحد إلا نفسه فاكتفى بالقصر الأول عن الثانى مع رعاية ما ذكر من الفائدة وصيغة المضارع

للاستمرار نفيا وإثباتا فإن حرف النفي إذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقام استمرار النفي لا نفي الاستمرار ألا يرى أن قولك ما زيدا ضربت يدل على اختصاص النفي لا على نفي الاختصاص ومساق الآية الكريمة لإلزام الحجة ويجوز أن يكون للوعيد فالمضارع المنفي للاستقبال والمثبت للاستمرار والمعنى أن الله لا يظلمهم بتعذيبهم يوم القيامة شيئاً من الظلم ولكنهم أنفسهم يظلمون ظلما مستمرا فإن مباشرتهم المستمرة للسيئات الموجبة للتعذيب عين ظلمهم لأنفسهم وعلى الوجهين فالآية الكريمة تذييل لما سبق .

﴿ ويوم نحشرهم ﴾ منصوب بمضمر وقرىء بالنون على الالتفات أى أذكر لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم ﴿ كأن لم يلبثوا ﴾ أى كأنهم لم يلبثوا ﴿ إلا ساعة من النهار ﴾ أى شيئا قليلا منه فإنها مثل فى غاية القلة وتخصيصها بالنهار لأن ساعاته أعرف حالا من ساعات الليل والجملة فى موقع الحال من ضمير المفعول أى يحشرهم مشبهين فى أحوالهم الظاهرة للناس بمن لم يلبث فى الدنيا ولم يتقلب فى نعيمها إلا ذلك القدر اليسير فإن من أقام بها دهرا وتمتع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثار نعمة وأحكام بهجة منافية لما بهم من رثاثة الهيئة وسوء الحال أو بمن لم يلبث فى البرزخ إلا ذلك المقدار ففائدة التقييد بيان كمال يسر الحشر بالنسبة إلى قدرته تعالى ولو بعد دهر طويل وإظهار بطلان استبعادهم وإنكارهم بقولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ونحو ذلك أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين فى الأشكال والصور فإن قلة اللبث فى البرزخ من موجبات عدم التبدل والتغير فيكون قوله عز وعلا ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ بيانا وتقريرا له لأن التعارف مع طول العهد ينقلب تناكرا وعلى الأول يكون استئنافا أى يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا وذلك أول ماخرجوا من القبور إذ هم حينئذ على ما كانوا عليه من الهيئة المتعارفة فيما بينهم ثم ينقطع التعارف بشدة الأهوال المذهلة واعتراء الأحوال المعضلة المغيرة للصور والأشكال المبدلة لها من حال إلى حال ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ شهادة من الله سبحانه وتعالى على خسرانهم وتعجب منه وقيل حال من

ضمير يتعارفون على إرادة القول والتعبير عنهم بالموصول مع كون المقام مقام إضمار لذمهم بما فى حيز الصلة والإشعار بعليته لما أصابهم والمراد بلقاء الله إن كان مطلق الحساب والجزاء أو حسن اللقاء فالمراد بالخسران الوضيعة والمعنى وضعوا فى تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائهم الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى ومعنى قوله تعالى ﴿وما كانوا مهتدين﴾ ما كانوا عارفين بأحوال التجارة مهتدين لطرقها وإن كان سوء اللقاء فالخسار الهلاك والضلال أى قد ضلوا وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا مهتدين إلى طريق النجاة .

﴿وإما نرينك﴾ أصله أن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة أكد الفعل بالنون أى بنصرتك بأن نظهر لك ﴿بعض الذى نعدهم﴾ أى وعدناهم من العذاب ونعجله فى حياتك فتراه والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار أى نعدهم وعدا متجددا حسبما تقضيه الحكمة من إنذار غب إنذار وفى تخصيص البعض بالذكر رمز إلى العدة بإراءة بعض الموعود وقد أراه يوم بدر ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ذلك ﴿فإلينا مرجعهم﴾ أى كيفما دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم أو لا فإلينا مرجعهم فى الدنيا والآخرة فننجز ما وعدناهم البتة وقيل المذكور جواب للشرط الثانى كأنه قيل فإلينا مرجعهم فنريكه فى الآخرة وجواب الأول محذوف لظهوره أى فذاك ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ من الأفعال السيئة التى حكيت عنهم والمراد بالشهادة إما مقتضاها ونتيجتها وهى معاقبته تعالى إياهم وإما إقامتها وأداؤها بإنطاق الجوارح وإظهار اسم الجلالة لإدخال الروعة وتربية المهابة وتأكيد التهديد وقرىء ثمة أى هناك ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الخالية ﴿رسول﴾ يبعث إليهم بشريعة خاصة مناسبة لأحوالهم ليدعوهم إلى الحق ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ فبلغهم ما أرسل به فكذبوه وخالفوه ﴿قضى بينهم﴾ أى بين كل أمة ورسولها ﴿بالقسط﴾ بالعدل وحكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وإهلاك المكذبين كقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ﴿وهم لا يظلمون﴾ فى ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم لأنه من نتائج أعمالهم أو ولكل أمة من الأمم يوم القيامة

رسول تنسب إليه وتدعى به فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان كقوله عز وجل (وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم) .
﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ استعجالا لما وعدوا من العذاب على طريقة الاستهزاء به والإنكار حسبما يرشد إليه الجواب لا طلبا لتعيين وقت مجيئه على وجه الإلزام كما فى سورة الملك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى أنه يأتينا والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعد المذكور وجواب الشرط محذوف اعتمادا على ما تقدم حسبما حذف فى مثل قوله تعالى (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) فإن الاستعجال فى قوة الأمر بالإتيان عجلة كأنه قيل فليأتنا عجلة إن كنتم صادقين ولما فيه من الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبى صلى الله عليه وسلم قيل ﴿ قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا ﴾ أى لا أقدر على شيء منهما بوجه من الوجوه وتقديم الضر لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملة للعجز وما وقع فى سورة الأعراف من تقديم النفع للإشعار بأهميته والمقام مقامه والمعنى إنى لا أملك شيئا من شئونى ردا وإيرادا مع أن ذلك أقرب حصولا فكيف أملك شئونكم حتى أتسبب فى إتيان عذابكم الموعود ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ استثناء منقطع أى ولكن ما شاء الله كائنا وحمله على الاتصال على معنى إلا ما شاء الله أن أملكه يأباه مقام التبرؤ من أن يكون له عليه السلام دخل فى إتيان الوعد فإن ذلك يستدعى بيان كون المتنازع فيه مما لا يشاء الله أن يملكه عليه السلام وجعل ما عبارة عن بعض الأحوال المعهودة المنوطة بالأفعال الاختيارية المفوضة إلى العباد على أن يكون المعنى لا أملك لنفسى شيئا من الضر والنفع إلا ما شاء الله أن أملكه منهما من الضر والنفع المترتبين على الأكل والشرب عدما ووجودا تعسف ظاهر وقوله تعالى ﴿ لكل أمة أجل ﴾ بيان لما أبهم فى الاستثناء وتقييد لما فى القضاء السابق من الإطلاق المشعر بكون المقضى به أمرا منجزا غير متوقف على شيء غير مجيء الرسول وتكذيب الأمة أى لكل أمة أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم أجل معين خاص بهم لا يتعدى إلى أمة أخرى مضروب لعذابهم

يحل بهم عند حلوله ﴿ إذا جاء أجلهم ﴾ إن جعل الأجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر وإن أريد به ما امتد إليه من الزمان فمجيئه عبارة عن انقضائه إذ هناك يتحقق مجيئه بتمامه والضمير إن جعل للأمم المدلول عليها بكل أمة فإظهار الأجل مضافا إليه لإفادة المعنى المقصود الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيئه إياها بعينها من بين الأمم بواسطة اكتساب الأجل بالإضافة عموما يفيده معنى الجمعية كأنه قيل إذا جاءهم آجالهم بأن يجيء كل واحدة من تلك الأمم أجلها الخاص بها وإن جعل لكل أمة خاصة كما هو الظاهر فالإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير والإضافة إلى الضمير لإفادة كمال التعيين أى إذا جاءها أجلها الخاص بها ﴿ فلا يستأخرون ﴾ عن ذلك الأجل ﴿ ساعة ﴾ أى شيئاً قليلا من الزمان فإنها مثل فى غاية القلة منه أى لا يتأخرون عنه أصلا وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له ﴿ ولا يستقدمون ﴾ أى لا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع إمكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا كما فى قوله سبحانه وتعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار) فإن من مات كافرا مع ظهور أن لا توبة له رأسا قد نظم فى عدم قبول التوبة فى سلك من سوفها إلى حضور الموت إيذانا بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة كما مر فى سورة الأعراف وقد جوز أن يراد بمجيء الأجل دنوه بحيث يمكن التقدم فى الجملة كمجيء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة معينة منه لكن ليس فى تقييد عدم الاستئخار بدنوه مزيد فائدة وتقديم بيان انتفاء الاستئخار على بيان انتفاء الاستقدام لأن المقصود الأهم بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة وذلك بالتأخر وأما ما فى قوله تعالى (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) من سبق السبق فى الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم له حسبما ينبيء عنه قوله عز وجل (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) فالأهم إذ ذاك بيان انتفاء السبق كما ذكر

هناك ﴿قل﴾ لهم غب ما بينت كيفية جريان سنة الله عز وجل فيما بين الأمم على الإطلاق ونبهتهم على أن عذابهم أمر مقرر محتوم لا يتوقف إلا على مجيء أجله المعلوم إيذانا بكمال دنوه وتنزيلا له منزلة إتيانه حقيقة ﴿أرأيتم﴾ أى أخبرونى ﴿إن أتاكم عذابه﴾ الذى تستعجلون به ﴿بياتاً﴾ أى وقت بيات واشتغال بالنوم ﴿أو نهارا﴾ أى عند اشتغالكم بمشاغلكم حسبما عين لكم من الأجل بمقتضى المشيئة التابعة للحكمة كما عين لسائر الأمم المهلكة وقوله عز وجل ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ جواب للشرط بحذف الفاء كما فى قولك إن أتيتك ماذا تطعمنى والمجرمون موضوع موضع المضمر لتأكيد الإنكار ببيان مباينة حالهم للاستعجال فإن حق المجرم أن يهلك فزعا من إتيان العذاب فضلا عن استعجاله والجملة الشرطية متعلقة بأرأيتم والمعنى أخبرونى إن أتاكم عذابه تعالى أى شيء تستعجلون منه سبحانه والشيء لا يمكن استعجاله بعد إتيانه والمراد به المبالغة فى إنكار استعجاله بإخراجه عن حيز الإمكان وتنزيله فى الاستحالة منزلة استعجاله بعد إتيانه بناء على تنزيل تقرر إتيانه ودنوه منزلة إتيانه حقيقة كما أشير إليه وهذا الإنكار بمنزلة النهى فى قوله عز وعلا (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) خلا أن التنزيل هناك صريح وهنا ضمنى كما فى قول من قال لغريمه الذى يتقاضاه حقه أرأيت إن أعطيتك حقك فماذا تطلب منى يريد المبالغة فى إنكار التقاضى بنظمه فى سلك التقاضى بعد الإعطاء بناء على تنزيل تقرره منزلة نفسه وقوله عز وجل ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾ إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة داخل مع ماقبله من إنكار استعجالهم به بعد إتيانه حكما تحت القول المأمور به أى أبعد ما وقع العذاب وحل بكم حقيقة آمنتم به حين لا ينفعكم الإيمان إنكارا لتأخيره إلى هذا الحد وإيذانا باستتباعه للندم والحسرة ليقلعوا عما هم عليه من العناد ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الوقت فتقديم الظرف للقصر وقيل ماذا يستعجل منه متعلق بأرأيتم وجواب الشرط محذوف أى تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه والشرطية اعتراض مقرر لمضمون الاستخبار وقيل الجواب قوله تعالى (أثم إذا ما وقع) الخ والاستفهامية

الأولى اعتراض والمعنى أخبرونى أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ثم جيء بكلمة التراخى دلالة على الاستبعاد ثم زيد أداة الشرط دلالة على استقلاله بالاستبعاد وعلى أن الأول كالتمهيد له وجيء بإذا مؤكدا بما ترشيحا لمعنى الوقوع وزيادة للتجهيل وأنهم لم يؤمنوا إلا بعد أن لم ينفعهم الإيمان البتة وقوله تعالى :

﴿ آلآن ﴾ استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت القول الملقن مسوق لتقرير مضمون ما سبق على إرادة القول أى قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به إنكارا للتأخير وتوبيخا عليه ببيان أنه لم يكن ذلك لعدم سبق الإنذار به ولا للتأمل والتدبر فى شأنه ولا لشيء آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير كان ذلك على طريق التكذيب والاستعجال به على وجه الاستهزاء وقرىء آلان بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وقوله تعالى ﴿ وقد كنتم به تستعجلون ﴾ أى تكذيبا واستهزاء جملة وقعت حالا من فاعل آمنتم المقدر لتشديد التوبيخ والتقريع وزيادة التنديم والتحسير وتقديم الجار والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل دون القصر وقوله تعالى ﴿ ثم قيل ﴾ الخ تأكيد للتوبيخ والعتاب بوعيد العذاب والعقاب وهو عطف على ما قدر قبل آلان ﴿ للذين ظلموا ﴾ إن وضعوا الكفر والتكذيب موضع الإيمان والتصديق أو ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب والهلاك ووضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما فى حيز الصلة والإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم ﴿ ذوقوا عذاب الخلد ﴾ المؤلم على الدوام ﴿ هل تجزون ﴾ اليوم ﴿ إلا بما كنتم تكسبون ﴾ فى الدنيا من أصناف الكفر والمعاصى التى من جملتها ما مر من الاستعجال ﴿ ويستنبئونك ﴾ أى يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء أو الإنكار ﴿ أحق هو ﴾ أحق خبر قدم على المبتدأ الذى هو الضمير للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى (إنه لحق) أو مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر والجملة فى موقع النصب بيستنبئونك وقرىء ألحق هو تعريضاً بأنه باطل كأنه قيل أهو الحق لا الباطل أو أهو الذى سميتموه الحق ﴿ قل ﴾ لهم غير ملتفت إلى استهزائهم مغضيا عما قصدوا مدوبانيا

للأمر على أساس الحكمة ﴿ إى وربى ﴾ إى من حروف الإيجاب بمعنى نعم في القسم خاصة كما أن هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة ولذلك يوصل بواوه ﴿ إنه ﴾ أى العذاب الموعود ﴿ لحق ﴾ لثابت البتة أكد الجواب بأتم وجوه التأكيد حسب شدة إنكارهم وقوته وقد زيد تقريرا وتحقيقا بقوله عز اسمه ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أى بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحق بكم لا محالة وهو إما معطوف على جواب القسم أو مستأنف سيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع ما فيه من التقرير المذكور ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ﴾ بالشرك أو التعدى على الغير أو غير ذلك من أصناف الظلم ولو مرة حسبما يفيده كون الصفة فعلا ﴿ ما فى الأرض ﴾ أى ما فى الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة بما كثرت ﴿ لافتدت به ﴾ أى لجعلته فدية لها من العذاب من افتداه بمعنى فداه ﴿ وأسروا ﴾ أى النفوس المدلول عليها بكل نفس والعدول إلى صيغة الجمع مع تحقق العموم فى صورة الإفراد أيضاً لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار بطريق المعية والاجتماع وإنما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق ما يتوخى من فرض كون جميع ما فى الأرض لكل واحدة من النفوس وإيثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص أو لتغليب ذكور مدلوله على إناثه ﴿ الندامة ﴾ على ما فعلوا من الظلم أى أخفوها ولم يظهروها لكن لا للاصطبار والتجلد هيهات ولات حين اصطبار بل لأنهم بهتوا ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أى عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة الأهوال ما لم يكونوا يحتسبون فلم يقدروا على أن ينطقوا بشىء فلما بمعنى حين منصوب بأسروا أو حرف شرط حذف جوابه لدلالة ما تقدم عليه وقيل أسرها رؤساؤهم ممن أضلوهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم ولكن الأمر أشد من أن يعتريهم هناك شىء غير خوف العذاب وقيل أسروا الندامة أخلصوها لأن أسرارها إخلاصها أو لأن سر الشىء خالصته حيث تخفى ويضن بها ففيه تهكم بهم وقيل أظهروا الندامة من قولهم أسر الشىء وأشره إذا أظهره حين عيل صبره وفنى تجلده ﴿ وقضى بينهم ﴾ أى أوقع القضاء بين الظالمين من المشركين وغيرهم من أصناف أهل الظلم بأن أظهر الحق سواء

كان من حقوق الله سبحانه أو من حقوق العباد من حقوق العباد من الباطل وعومل أهل كل منهما بما يليق به ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل وتخصيص الظلم بالتعدى وحمل القضاء على مجرد الحكومة بين الظالمين والمظلومين من غير أن يتعرض لحال المشركين وهم أظلم الظالمين لا يساعده المقام فإن مقتضاه إما كون الظلم عبارة عن الشرك أو عما يدخل فيه دخولا أوليا ﴿ وهم ﴾ أى الظالمون ﴿ لا يظلمون ﴾ فيما فعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمهم ولوازمه الضرورية ﴿ ألا إن لله ما فى السموات والأرض ﴾ أى ما وجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما وكلمة ما لتغليب غير العقلاء على العقلاء فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الأشياء وبيان لاندراج الكل تحت ملكوته يتصرف فيه كيفما يشاء إيجاداً وإعداما وإثابة وعقابا .

﴿ ألا إن وعد الله ﴾ إظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعار بعلة الحكم وهو إما بمعنى الموعود أى جميع ما وعد به كائنا ما كان فيندرج فيه العذاب الذى استعجلوه وما ذكر فى أثناء بيان حاله اندراجا أوليا أو بمعناه المصدرى أى وعده بجميع ما ذكر فمعنى قوله تعالى ﴿ حق ﴾ على الأول ثابت واقع لا محالة وعلى الثانى مطابق للواقع وتصدير الجملتين بحرفى التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونها المقرر لمضمون ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه ﴿ لكن أكثرهم ﴾ لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم والفهم بالأحوال المحسوسة المعتادة ﴿ لا يعلمون ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون ﴿ هو يحيى ويميت ﴾ فى الدنيا من غير دخل لأحد فى ذلك ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فى الآخرة بالبعث والحشر ﴿ يا أيها الناس ﴾ التفات ورجوع إلى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم إلى قبوله واتباعه غب تحذيرهم من غوائل الضلال بما تلى عليهم من القوارع الناعية عليهم سوء عاقبتهم وإيذان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم ﴿ قد جاءتكم موعظة ﴾ هى والوعظ والوعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والترغيب وكلمة من فى قوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ ابتدائية متعلقة

بجاءتكم أو تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لموعظة أى موعظة كائنة من مواعظ ربكم وفى التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع ما لا يخفى .

﴿ وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ أى كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع فإنه كاشف عن أحوال الأعمال حسناتها وسيئاتها مرغب فى الأولى ورادع عن الأخرى ومبين للمعارف الحقة التى هى شفاء لما فى الصدور من الأدواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة وهاد إلى طريق الحق واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس وفى مجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا إلى درجات الجنان والتنكير فى الكل للتفخيم ﴿قل﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأمر الناس بأن يغتنموا ما فى مجىء القرآن العظيم من الفضل والرحمة ﴿ بفضل الله وبرحمته ﴾ المراد بهما إما ما فى مجىء القرآن من الفضل والرحمة وإما الجنس وهما داخلان فيه دخولا أوليا والباء متعلقة بمحذوف وأصل الكلام ليفرحوا بفضل الله وبرحمته للإيذان باستقلالها فى استيجاب الفرح ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة القصر ثم أدخل عليه الفاء لإفادة معنى السببية فصار بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم قيل ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ للتأكيد والتقرير ثم حذف الفعل الأول لدلالة الثانى عليه والفاء الأولى جزائية والثانية للدلالة على السببية والأصل إن فرحوا بشىء فبذلك ليفرحوا إلا بشىء آخر ثم أدخل الفاء للدلالة على السببية ثم حذف الشرط ومعنى البعد فى اسم الإشارة للدلالة على بعد درجة فضل الله تعالى ورحمته ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فلعتنوا فبذلك فليفرحوا ويجوز أن يتعلق الباء بجاءتكم أى جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك أى فبمجيئها فليفرحوا وقرىء فلتفرحوا وقرأ أبى فافرحوا وعن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والإسلام وقيل فضله الإسلام ورحمته ما وعد عليه .

﴿ هو ﴾ أى ما ذكر من فضل الله ورحمته ﴿ خير مما يجمعون ﴾ من حطام الدنيا وقرىء تجمعون أى فبذلك فليفرح المؤمنون هو خير مما تجمعون أيها المخاطبون ﴿ قل أرأيتم ﴾ أى أخبرونى ﴿ ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ ما منصوبة المحل بما بعدها أو بما قبلها واللام للدلالة على أن المراد بالرزق ما حل لهم وجعله منزلا لأنه مقدر فى السماء محصل هو أو ما يتوقف عليه وجودا أو بقاء بأسباب سماوية من المطر والكواكب فى الإنضاج والتلوين ﴿ فجعلتم منه ﴾ أى جعلتم بعضه ﴿ حراما ﴾ أى حكمتم بأنه حرام ﴿ وحلالا ﴾ أى وجعلتم بعضه حلالا أى حكمتم بحله مع كون كله حلالا وذلك قولهم (هذه أنعام وحرث حجر) الآية وقولهم (ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) ونحو ذلك وتقديم الحرام لظهور إثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه ﴿ قل ﴾ تكرير لتأكيد الأمر بالاستخبار أى أخبرونى ﴿ الله أذن لكم ﴾ فى ذلك الجعل فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى ﴿ أم على الله تفترون ﴾ أم متصلة والاستفهام للتقرير والتبكيت لتحقق العلم بالشق الأخير قطعاً كأنه قيل أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه فأظهر الاسم الجليل وقدم على الفعل دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيدا للتبكيت إثر تأكيد مع مراعاة الفواصل ويجوز أن يكون الاستفهام للإنكار وأم منقطعة ومعنى بل فيها الإضراب والانتقال من التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى ما تفيده همزتها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريره وتقديم الجار والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر كأنه قيل بل أعلى الله تعالى خاصة تفترون .

﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب ﴾ كلام مسوق من قبله تعالى لبيان هول ما سيلقونه غير داخل تحت القول المأمور به والتعبير عنهم بالموصول فى موقع الإضمار لقطع احتمال الشق الأول من الترددو التسجيل عليهم بالافتراء وزيادة الكذب مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لإظهار كمال قبح ما افتعلوا وكونه كذبا فى اعتقادهم أيضا وكلمة ما استفهامية وقعت مبتدأ وظن خبرها ومفعولاه محذوفان وقوله عز وجل ﴿ يوم القيامة ﴾ ظرف لنفس الظن أى

أى شىء ظنهم فى ذلك اليوم يوم عرض الأفعال والأقوال والمجازاة عليها مثقالا بمثقال والمراد تهويله وتفظيعه بهول ما يتعلق به مما يصنع بهم يومئذ وقيل هو ظرف لما يتعلق به ظنهم اليوم من الأمور التى ستقع يوم القيامة تنزيلا له ولما فيه من الأحوال لكمال وضوح أمره فى التقرر والتحقق منزلة المسلم عندهم أى أى شىء ظنهم لما سيقع يوم القيامة أيحسبون أنهم لا يسألون عن افترائهم أو لا يجازون عليه أو يجازون جزاء يسيرا ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون كلا إنهم لفى أشد العذاب لأن معصيتهم أشد المعاصى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا وقرىء على لفظ الماضى أى أى ظن ظنوا يوم القيامة وإيراد صيغة الماضى لأنه كائن فكأنه قد كان ﴿ إن الله لذو فضل ﴾ أى عظيم لا يكتنه كنهه ﴿ على الناس ﴾ أى جميعاً حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ورحمهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل وبين لهم الإسرار التى لا تستقل العقول فى إدراكها وأرشدهم إلى ما يهمهم من أمر المعاش والمعاد ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ تلك النعمة الجليلة فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم إلى ما خلقت له ولا يتبعون دليل الشرع فيما لا يدرك إلا به وقد تفضل عليهم ببيان ما سيلقونه يوم القيامة فلا يلتفتون إليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييل لما سبق مقرر لمضمونه .

﴿ وما تكون فى شأن ﴾ أى فى أمر من شأنت شأنه أى قصدت قصده مصدر بمعنى المفعول ﴿ وما تتلو منه ﴾ الضمير للشأن والظرف صفة لمصدر محذوف أى تلاوة كائنة من الشأن إذ هى معظم شئونه عليه السلام أو للتنزيل والإضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ومن ابتدائية أو تبعيضية أو لله عز وجل ومن ابتدائية والتى فى قوله تعالى ﴿ من قرآن ﴾ مزيدة لتأكيد النفى أو ابتدائية على الوجه الأول وبيانه أو تبعيضية على الثانى والثالث ﴿ ولا تعملون من عمل ﴾ تعميم للخطاب إثر تخصيصه بمقتضى الكل وقد روعى فى كل من المقامين ما لا يليق به حيث ذكر أولا من الأعمال ما فيه فخامة وجلالة وثانيا ما يتناول الجليل والحقير ﴿ إلا كنا عليكم شهودا ﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال

المخاطبين بالأفعال الثلاثة أى ماتلابسون بشيء منها فى حال من الأحوال إلا حال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له ﴿إذ تفيضون فيه﴾ أى تخوضون وتندفعون فيه وأصل الإفاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة وحيث أريد بالأفعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضى أيضا أوثر فى الاستثناء صيغة الماضى وفى الظرف كلمة إذ التى تفيد المضارع معنى الماضى ﴿ وما يعزب عن ربك ﴾ أى لا يبعد ولا يغيب على علمه الشامل وفى التعرض لعنوان الربوبية من الإشعار باللطف ما لا يخفى وقرىء بكسر الزاء ﴿ من مثقال ذرة ﴾ كلمة من مزيدة لتأكيد النفى أى ما يعزب عنه ما يساوى فى الثقل نملة صغيرة أو هباء ﴿فى الأرض ولا فى السماء﴾ أى فى دائرة الوجود والإمكان فإن العامة لا تعرف سواهما ممكنا ليس فى أحدهما أو متعلقا بهما وتقديم الأرض لأن الكلام فى حال أهلها والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى ﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ كلام برأسه مقرر لما قبله ولا نافية للجنس وأصغر اسمها وفى كتاب خبرها وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر ومن عطف على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعاً كأنه قيل لا يعزب عن ربك شيء ما لكن جميع الأشياء فى كتاب مبين فكيف يعزب عنه شيء منها وقيل يجوز أن يكون الاستثناء متصلا ويعزب بمعنى يبين ويصدر والمعنى لا يصدر عنه تعالى شيء إلا وهو كتاب مبين والمراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ .

أولياء الله

﴿ ألا إن أولياء الله ﴾ بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين وغاية لما ذكر قبلة من كونه تعالى مهيمنا على نبيه عليه السلام وأمته فى كل ما يأتون وما يذرون وإحاطة علمه سبحانه بجميع ما فى السماء والأرض وكون الكل مثبتا فى الكتاب المبين بعد ما أشير إلى فظاعة حال المفترين على

الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم من الهول إشارة إجمالية على طريق التهديد والوعيد وصدرت الجملة بحرفى التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها والولى لغة القريب والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين لقربهم الروحانى منه سبحانه وتعالى كما سيفصح عنه تفسيرهم ﴿ لا خوف عليهم ﴾ فى الدارين من لحوق مكروه ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ من فوات مطلوب أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا من أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام وإنما لا يعتريهم ذلك لأن مقصدهم ليس إلا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى وذلك مما لا ريب فى حصوله ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة إليه تعالى وأما ما عدا ذلك من الأمور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهى بمعزل من الانتظام فى سلك مقصدهم وجوداً وعدما حتى يخافوا من حصول ضارها أو يحزنوا بفوات نافعها وقوله عز وجل .

﴿ الذين آمنوا ﴾ أى بكل ما جاء من عند الله تعالى ﴿ وكانوا يتقون ﴾ أى يقون أنفسهم عما يحق وقايتها عنه من الأفعال والتروك وقايه دائمة حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل بيان وتفسير لهم وإشارة إلى ما به نالوا ما نالوا على طريقة الاستئناف المبنى على السؤال ومحل الموصول الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف كأنه قيل من أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيين إلى كل خير المنجيين عن كل شر وقيل محله النصب أو الرفع على المدح أو على أنه وصف مادح للأولياء ولا يقدح فى ذلك توسط الخبر والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك التى يفيدها الإيمان أيضاً ومرتبة التجنب عن

كل ما يؤثم من فعل وترك أعنى تنزه الإنسان عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل إليه بالكلية وهى التقوى الحقيقى المأمور به فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) وبه يحصل الشهود والحضور والقرب الذى عليه يدور إطلاق الاسم عليه وهكذا كان حال كل من دخل معه عليه السلام تحت الخطاب بقوله عز وجل (ولا تعملون من عمل) خلا أن لهم فى شأن التبتل والتنزه درجات متفاوته حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية أقصاها ما انتهى إليه همم الأنبياء عليهم السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستى النبوة والولاية ولم يعقهم التعلق بعالم الأشباح عن الاستغراق فى عالم الأرواح ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن التبتل إلى جناب الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية فملاك أمر الولاية هو التقوى المذكور فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ويقرب منه ما قيل من أنهم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة إليه ولا يخالفه ما قيل من أنهم الذين يذكر الله برؤيتهم لما روى عن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم أى بسمتهم وإخباتهم وسكينتهم ولا ما قيل من أنهم المتحابون فى الله لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول إن من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس فإن ما ذكر من حسن السمت والسكينة المذكرة لله تعالى والتحاب فى الله سبحانه من الأحكام الدنيوية اللازمة للإيمان والتقوى والآثار الخاصة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورهما وقربهما من أفهام الناس قد أورد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما يقتضيه مقام الإرشاد والتذكير ترغيبا للسائلين أو غيرهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر

هناك من أحكامهم فلعل الحاضرين أولا كانوا محتاجين إلى إصلاح الحال من جهة الأقوال والأفعال والملابس ونحو ذلك والحاضرين ثانيا مفتقرين إلى تأليف قلوبهم وعطفها نحو المؤمنين الذين لا علاقة بينهم وبينهم من جهة النسب والقرابة وتأكيد ما بينهم من الأخوة الدينية ببيان عظم شأنها ورفعة مكانتها وحسن عاقبتها ليراعوا حقوقها ويهجروا من لا يوفقهم فى الدين من أرحامهم وأما ما ذكر من أنه يغبطهم الأنبياء فتصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل قال الكواشى وهذا مبالغة والمعنى لوفرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وجعل قوله عز وجل الذين آمنوا وكانوا يتقون تفسيرا لتوليهم إياه تعالى وقوله عز وجل:

﴿ لهم البشرى فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة ﴾ تفسيرا لتوليه تعالى إياهم ولا ريب فى أن اعتبار القيد الأخير فى مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيلها والثبات عليها وبشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك إذ التحصيل إنما يتعلق بالمقدور والاستبشار لا يحصل إلا بما علم بوجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم ويستبشروا بمحاسن آثارها بل التولى بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره فى عنوان الموضوع ثم الإخبار بعدم الخوف والحزن مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل فالذى يقتضيه نظمه الكريم أن الأول تفسير للأولياء حسبما شرح والثانى بيان لما أولاهم من خيرات الدارين بعد بيان إنجائهم من شرورهما ومكارههما والجملة مستأنفة كما سبق كأنه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل لهم ما يسرهم فى الدارين وتقديم الأول لما أن التخلية سابقة على التحلية مع ما فيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل إدخال المسرة بتبشير الخلاص عن الأهوال وتوسيط البيان السابق بين بشارة الخلاص عن المحذور وبشارة الفوز بالمطلوب لإظهار كمال العناية بتفسير الأولياء مع الإيذان بأن انتفاء الخوف والحزن لانتفائهم عما يؤدى إليهما من الأسباب والبشرى مصدر أريد

به المبشر به من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك والآجلة الغنية عن البيان وإيثار الإبهام والإجمال للإيذان بكونه وراء البيان والتفصيل والظرفان فى موقع الحال منه والعامل ما فى الخبر من معنى الاستقرار أى لهم البشرى حال كونها فى الحياة الدنيا وحال كونها فى الآخرة أى عاجلة وآجلة أو من الضمير المجرور أى حال كونهم فى الحياة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس .

عن أبى ذر رضى الله عنه قلت يا رسول الله الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال عليه السلام تلك عاجل بشرى المؤمن هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان متعلقان به . أما البشرى فى الدنيا فهى البشارات الواقعة للمؤمنين المتقين فى غير موضع من الكتاب المبين وعن النبى صلى الله عليه وسلم هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وعن عطاء لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى (تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة) وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ومايرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم ومايقرؤن منها وغير ذلك من البشارات فتكون هذه بشارة بما سيقع من البشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها ولايخفى أن صرف البشارة الناجزة عن المقاصد بالذات إلى وسائلها مما لا يساعده حلاله شأن التنزيل الكريم ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ لا تغيير لأقواله التى من جملتها مواعيده الواردة بشارة للمؤمنين المتقين فتدخل فيها البشارات الواردة ههنا دخولا أوليا ويثبت امتناع الإخلاف فيها ثبوتا قطعيا وعلى تقدير كون المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم الخلف بينها وبين نتائجها الدنيوية والأخروية بل عدم الخلف بينها وبين ما دل على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتى بطريق الوعد من قوله تعالى (لهم البشرى) فتدبر ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من أن لهم البشرى فى الدارين ﴿ هو الفوز

العظيم ﴾ الذى لا فوز وراءه وفيه تفسير لما أبهم فيما سبق وهاتيك الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه أن يكون بعده كلام متصل بما قبله أو هذه تذييل والسابقة اعتراض .

﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الأذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة وتبشير له عليه الصلاة والسلام بأنه عز وجل ينصره ويعزه عليهم ، إثر بيان أن له ولأتباعه أمنا من كل محذور وفوزا بكل مطلوب وقرىء ولا يحزنك من أحزنه وهو فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن الحزن كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بتكذيبهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وإبطال أمرك وسائر ما يتفوهون به فى شأنك مما لاخير فيه وإنما وجه النهى إلى قولهم للمبالغة فى نهيه عليه السلام عن الحزن لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر بأصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى إلى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك لا أرينك ههنا وتخصيص النهى عن الحزن بالايراد مع شمول النفى السابق للحزن أيضا لما أنه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتى ينهى عنه وربما كان يعنى به عليه السلام فى بعض الأوقات نوع حزن فسلى عن ذلك وقوله تعالى ﴿ إن العزة ﴾ تعليل للنهى على طريقة الإستئناف أى الغلبة والقهر ﴿ لله جميعا ﴾ أى فى ملكته وسلطانه لا يملك أحد شيئا منها أصلا لا هم ولا غيرهم فهو يقهرهم ويعصمك منهم وينصرك عليهم وقد كان كذلك فهى من جملة المبشرات العاجلة وقرىء بفتح أن على صريح التعليل أى لأن العزة لله ﴿ هو السميع العليم ﴾ يسمع ما يقولون فى حقك ويعلم ما يعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك ﴿ ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ أى العقلاء من الملائكة والثقلين وتخصيصهم بالذكر للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم فإنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم إذا كانوا عبيداً له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فماعداهم من الموجودات أولى بذلك وهو مع ما فيه من التأكيد لما

سبق من اختصاص العزة بالله تعالى الموجب لسلوته عليه السلام وعدم مبالاته بالمشركين وبمقالاتهم تمهيد لما لحق من قوله تعالى :

﴿ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ وبرهان على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنية عليها وما إما نافية وشركاء مفعول يتبع ومفعول يدعون محذوف لظهوره أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة وإن سموها شركاء فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون ويكون مفعول يتبع محذوفا لانفهامه من قوله تعالى ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ أى ما يتبعونه يقينا إنمـــا يتبعون ظنهم الباطل وإما موصولة معطوفة على من كأنه قيل والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم وتخصيصهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارة أو دلالة للمبالغة فى بيان بطلان اتباعهم وفساد ما بنوه عليه من ظنهم شركاءهم معبودين مع كونهم عبيداً له سبحانه وإما استفهامية أى وأى شىء يتبعون أى لا يتبعون إلاالظن والخيال الباطل كقوله تعالى ماتعبدون من دونه إلاأسماء سميتموها الخ وقرىء تدعون بالتاء فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ كأنه قيل وأى شىء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين تقريرا لكونهم متبعين لله تعالى مطيعين له وتوبيخا لهم على اقتدائهم بهم فى ذلك كقوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقيل إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن ولا يتبعون ما يتبعه الملائكة والنبيون من الحق ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ يكذبون فيما ينسبونه إليه سبحانه ويحزرون ويقدرون أنهم شركاء تقديرا باطلا .

﴿هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ تنبيه على تفرده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليدلهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة وتقرير لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه والجعل إن كان بمعنى الإبداع والخلق فمبصرا حال وإلا فلكم مفعوله الثانى أو هو حال

كما فى الوجه الأول والمفعول الثانى لتسكنوا فيه أو هو محذوف يدل عليه المفعول الثانى من الجملة الثانية كما أن العلة الغائية منها محذوفة اعتمادا على ما فى الأولى والتقدير هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمصالحكم كما سيجىء نظيره فى قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) الآية فحذف فى كل واحد من الجانبين ما ذكر فى الآخر اكتفاء بالمذكور عن المتروك وإسناد الإبصار إلى النهار مجازى كالذى فى نهاره صائم ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فى جعل كل منهما كما وصف أو فيهما وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه وعلو رتبته ﴿ لآيات ﴾ عجيبة كثيرة أو آيات أخر غير ما ذكر ﴿ لقوم يسمعون ﴾ أى هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية الآمرة بالتأمل فيها سماع تدبر واعتبار فيعملون بمقتضاها وتخصيص الآيات بهم مع أنها منصوبة لمصلحة الكل لما أنهم المنتفعون بها ﴿ قالوا ﴾ شروع فى ذكر ضرب آخر من أباطيلهم وبيان بطلانه ﴿ اتخذ الله ولدا ﴾ أى تبناه ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه وتقديس له عما نسبوا إليه وتعجيب من كلمتهم الحمقاء ﴿ هو الغنى ﴾ على الإطلاق عن كل شىء فى كل شىء وهو علة لتنزيهه سبحانه وإيذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة وقوله عز وجل ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى من العقلاء وغيرهم تقرير لغناه وتحقيق لمالكيته تعالى لكل ما سواه وقوله تعالى ﴿ إن عندكم من سلطان ﴾ أى حجة ﴿ بهذا ﴾ أى بما ذكر من قولهم الباطل وتوضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض فمن فى قوله تعالى من سلطان زائدة لتأكيد النفى وهو مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل للظرف لاعتماده على النفى وبهذا متعلق إما بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان وإما بمحذوف وقع صفة له وإما بما فى عندكم من معنى الاستقرار كأنه قيل إن عندكم فى هذا القول من سلطان والالتفات إلى الخطاب لمزيد المبالغة فى الإلزام والإفحام وتأكيد ما فى قوله تعالى .

﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ من التوبيخ والتقريع على جهلهم

واختلاقهم وفيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها فهى جهالة وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعى وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به ﴿ قل ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب ﴾ أى فى كل أمر فيدخل ما نحن بصدده من الافتراء بنسبة الولد والشريك إليه سبحانه دخولا أولياً ﴿ لا يفلحون ﴾ أى لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلا وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج فى ذلك من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لا يناسب مقام المبالغة فى الزجر عن الافتراء عليه سبحانه ﴿ متاع فى الدنيا ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن ما يتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على الإطلاق أو فى ضمن افترائهم بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح كأنه قيل كيف لا يفلحون وهم فى غبطة ونعيم فقيل هو متاع يسير فى الدنيا وليس بفوز بالمطلوب ثم أشير إلى انتفاء النجاة عن المكروه أيضاً بقوله عز وعلا ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ أى بالموت .

﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ فيبقون فى الشقاء المؤبد بسبب كفرهم المستمر أو بكفرهم فى الدنيا فأين هم من الفلاح وقيل المبتدأ المحذوف حياتهم أو تقلبهم وقد قيل إنه افتراؤهم ولا يخفى أن المتاع إنما يطلق على ما يكون مطبوعا عند النفس مرغوبا فيه فى نفسه يتمتع وينتفع به وإنما عدم الاعتداد به لسرعة زواله ونفس الافتراء عليه سبحانه أقبح القبائح عند النفس فضلا عن أن يكون مطبوعا عندها وعده كذلك باعتبار إجراء حكم ما يؤدى إليه من رياستهم عليه مما لا وجه له فالوجه ما ذكر أولا وليس ببعيد ما قيل أن المحذوف هو الخبر أى لهم متاع والآية إما مسوقة من جهة الله تعالى لتحقيق عدم إفلاحهم غير داخلة فى الكلام المأمور به كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى (ثم نذيقهم) وإما داخلة فيه على أن النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بنقله وحكايته عنه عز وجل .

أنباء نوح

﴿ واتل عليهم ﴾ أى على المشركين من أهل مكة وغيرهم لتحقيق ما سبق من أنهم لا يفلحون وأن ما يتمتعون به على جناح الفوات وأنهم مشرفون على العذاب الخالد ﴿ نبأ نوح ﴾ أى خبره الذى له شأن وخطر مع قومه الذين هم أضراب قومك فى الكفر والعناد ليتدبروا ما فيه من زوال ما تمتعوا به من النعيم وحلول عذاب الغرق الموصول بالعذاب المقيم لينزجروا بذلك عما هم عليه الكفر أو تنكسر شدة شكيمتهم أو يعترف بعضهم بصحة نبوءتك بأن عرفوا أن ما تتلوه موافقا لما ثبت عندهم من غير مخالفة بينهما أصلا مع علمهم بأنك لم تسمع ذلك من أحد ليس إلا بطريق الوحى وفيه من تقرير ما سبق من كون الكل لله سبحانه واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن عن أوليائه عز وعلا قاطبة وتشجيع النبى صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم ما لا يخفى .

﴿ إذ قال ﴾ معمول لنبأ أو بدل منه بدل اشتمال وأيا ما كان فالمراد بعض نبئه عليه السلام لا كل ما جرى بينه وبين قومه واللام فى قوله تعالى ﴿ لقومه ﴾ للتبليغ ﴿ يا قوم إن كان كبر ﴾ أى عظم وشق ﴿ عليكم مقامى ﴾ أى نفسى كما يقال فعلته لمكان فلان أى لفلان ومنه قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه) أى خاف ربه أو قيامى ومكثى بين ظهرانيكم مدة طويلة أوقيامى ﴿ وتذكيرى بآيات الله ﴾ فإنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة يقومون على أرجلهم والجماعة قعود ليظهر حالهم ويسمع مقالهم ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ جواب للشرط أى دمت على تخصيص التوكل به تعالى ويجوز أن يراد به إحداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ عطف على الجواب والفاء لترتيب الأمر بالإجماع على التوكل لا لترتيب نفس الإجماع عليه أو هو الجواب وما سبق جملة معترضة والإجماع العزم قيل هو متعد بنفسه وقيل فيه حذف وإيصال قال السدوسى أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه وقال أبو الهيثم أجمع أمره جعله مجموعا

بعد ما كان متفرقا وتفرقه أنه يقول مرة أفعل كذا وأخرى أفعل كذا وإذا
عزم على أمر واحد فقد جمعه أى جعله جميعا ﴿ وشركاءكم ﴾ بالنصب على أن
الواو بمعنى مع كما تدل عليه القراءة بالرفع عطفا على الضمير المتصل تنزيلا
للفصل منزلة التأكيد وإسناد الإجماع إلى الشركاء على طريقة التهكم وقيل إنه
عطف على أمركم بحذف المضاف أى أمر شركائكم وقيل منصوب بفعل محذوف
أى وادعوا شركاءكم وقد قرىء كذلك وقرىء فاجمعوا من الجمع أى فاعزموا
على أمركم الذين تريدون بى من السعى فى إهلاكى واحتشدوا فيه على أى وجه
يمكنكم ﴿ ثم لا يكن أمركم ﴾ ذلك ﴿ عليكم غمة ﴾ أى مستورا من غمه إذا
ستره بل مكشوفا مشهورا تجاهروننى به فإن السر إنما يصار إليه لسد باب تدارك
الخلاص بالهرب أو نحوه فحيث استحال ذلك فى حقى لم يكن للسر وجه وإنما
خاطبهم عليه السلام بذلك إظهارا لعدم المبالاة بهم وأنهم لم يجدوا إليه سبيلا
وثقة بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وكلاءته فكلمة ثم للتراخى فى الرتبة
وإظهار الأمر فى موقع الإضمار لزيادة تقرير يقتضيها مقام الأمر بالإظهار الذى
يستلزمه النهى عن التستر والإسرار قيل المراد بأمرهم ما يعتريهم من جهته عليه
السلام من الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم والغمة والغم كالكربة والكرب
وثم للتراخى الزمانى والمعنى لا يكن حالكم عليكم غمة وتخلصوا بإهلاكى من
ثقل مقامى وتذكيرى ولا يخفى أنه لا يساعده قوله عز وجل .

﴿ ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾ أى أدوا إلى أى احكموا ذلك الأمر
الذى تريدون بى ولا تمهلونى كقوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر) أو أدوا إلى
ما هو حق عليكم عندكم من إهلاكى كما يقضى الرجل غريمه فإن توسيط ما يحصل
بعد الإهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه وبين الأمر بقضائه من قبيل الفصل
بين الشجر ولحائه وقرىء أفضوا بالفاء أى انتهوا إلى بشركم أو ابرزوا إلى من
أفضى إذا خرج إلى الفضاء ﴿ فإن توليتم ﴾ الفاء لترتيب التولى على ما سبق
فالمراد به إما الاستمرار عليه وإما إحداث التولى المخصوص أى إن أعرضتم
عن نصيحتى وتذكيرى إثر ما شاهدتم منى من مخايل صحة ما أقول ودلائلها التى

من جملتها دعوتى إياكم جميعاً إلى تحقيق ما تريدون بى من السوء غير مبال بكم وبما يأتى منكم وإحجامكم من الإجابة علما منكم بأنى على الحق المبين مؤيد من عند الله العزيز ﴿ فما سألتكم ﴾ بمقابلة وعظى وتذكيرى ﴿ من أجر ﴾ تؤدونه إلى حتى يؤدى ذلك إلى توليكم إما لاتهامكم إياى بالطمع والسؤال وإما لثقل دفع المسئول عليكم أو حتى يضرنى توليكم المؤدى إلى الحرمان فالأول لإظهار بطلان التولى ببيان عدم ما يصححه والثانى لإظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه وعلى التقديرين فالفاء الجزائية لسببية الشرط لإعلام مضمون الجزاء لا لنفسه والمعنى إن توليتم فاعلموا أن ليس فى مصحح له ولا تأثر منه وقوله عز وجل ﴿ إن أجرى إلا على الله ﴾ ينتظم المعنيين جميعا خلا أنه على الأول تأكيد وعلى الثانى تعليل لاستغنائه عليه السلام عنهم أى ما ثوابى على العظة والتذكير إلا عليه تعالى يثيبنى به آمنتم أو توليتم ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره أو المستسلمين لكل ما يصيب من البلاء فى طاعة الله تعالى ﴿ فكذبوه ﴾ فأصروا على ما هم عليه من التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة وبين لهم المحجة وحقق أن توليهم ليس له سبب غير التمرد والعناد فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿ فنجيناه ومن معه فى الفلك ﴾ من المسلمين وكانوا ثمانين ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ من الهالكين ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى بالطوفان وتأخير ذكره عن ذكر الإنجاء والاستخلاف حسبما وقع فى قوله عز وعلا (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة) وغير ذلك من الآيات الكريمة لإظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللإيذان بسبق الرحمة التى هى من مقتضيات الربوبية على الغضب الذى هو من مستتبعات جرائم المجرمين ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ تهويل لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول عليه الصلاة والسلام وتسلية له عليه السلام ﴿ ثم بعثنا ﴾ أى أرسلنا ﴿ من بعده ﴾ أى من بعد نوح عليه السلام ﴿ رسلا ﴾ التنكير للتفخيم ذاتا ووصفا أى رسلا كراما ذوى عدد كثير ﴿ إلى قومهم ﴾ أى إلى

أقوامهم لكن لا بأن أرسلنا كل رسول منهم إلى أقوام الكل أو إلى قوم ما أى قوم كانوا بل كل رسول إلى قومه خاصة مثل هود إلى عاد وصالح إلى ثمود وغير ذلك ممن قص منهم ومن لم يقص ﴿ فجاءوهم ﴾ أى جاء كل رسول قومه المخصوصين به ﴿ بالبينات ﴾ أى المعجزات الواضحة الدالة على صدق ما قالوا والباء إما متعلقة بالفعل المذكور على أنها للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير جاءوا أى ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فإن مراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد إنما هى فيما بين ضميرى جاءوهم كما أشير إليه ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ بيان لاستمرار عدم إيمانهم فى الزمان الماضى لا لعدم استمرار إيمانهم كما مر مثله فى هذه السورة الكريمة غير مرة أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام فى وقت من الأوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم لشدة شكيمتهم فى الكفر والعناد ثم إن كان المحكى آخر حال كل قوم حسبما يدل عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم إيمانهم المذكور ههنا إصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتى وبما أشير إليه فى قوله عز وجل ﴿ بما كذبوا به من قبل ﴾ تكذيبهم من حين مجىء الرسل إلى زمان الإصرار والعناد وإنما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالأول حيث جعل صلة للموصول إيذانا بأنه بين بنفسه غنى عن البيان وإنما المحتاج إلى ذلك عدم إيمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم إلى القبول لو كانوا من أصحاب العقول. والموصول الذى تعلق به الإيمان والتكذيب سلبا وإيمانا عبارة عن جميع الشرائع التى جاء بها كل رسول أصولها وفروعها .

وإن كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجىء الرسل إلى آخره وبما أشير إليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلابد من كون الموصول المذكور عبارة عن أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم إليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجىء رسلهم أنهم ما كانوا فى

زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كل قوم من أولئك الأقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمود من بقايا عاد وعاد من بقايا قوم نوح عليه السلام فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجيء الرسل كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث إليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الإيمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فإنهم حيث لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن عليه يدور أمر العذاب والعقاب عند اجتماع المكذبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وإنما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع إلى قوم نوح عليه السلام والمعنى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب بمثله قوم نوح ولا يخفى ما فيه من التعسف وقيل الباء للسببية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يخفى أن ذلك يؤدى إلى مخالفة الجمهور من جعل ما المصدرية من قبيل الأسماء كما هو رأى الأخفش وابن السراج ليرجع إليها الضمير وفى إرجاعه إلى الحق بادعاء كونه مركوزا فى الأذهان ما لا يخفى من التعسف ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الطبع المحكم ﴿ نطبع ﴾ بنون العظمة وقرىء بالياء على أن الضمير لله سبحانه ﴿ على قلوب المعتدين ﴾ المتجاوزين عن الحدود المعهودة فى الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهماكهم فى الغى والضلال وفى أمثال هذا دلالة على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد ﴿ ثم بعثنا ﴾ عطف على قوله تعالى (ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم) عطف قصة على قصة ﴿ من بعده ﴾ أى من بعد أولئك الرسل عليهم السلام ﴿ موسى وهرون ﴾ خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكر ولم يكتف باندراج خبرهما فيما أشير إليه إجمالا من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وأوثر فى ذلك ضرب تفصيل إيذانا بخطر شأن القصة وعظم وقعها كما فى نبأ نوح عليه السلام ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أى

أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر لأصالتهم فى إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم فى النوازل والملمات ﴿ بآياتنا ﴾ أى ملتبسين بها وهى الآيات المفصلات فى الأعراف ﴿ فاستكبروا ﴾ الاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة أى فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين) الخ ﴿ وكانوا قوما مجرمين ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أى كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العظام فإن الإجرام مؤذن بعظم الذنب ومنه الجرم أى الجثة فلذلك اجترأوا على ما اجترأوا عليه من الاستهانة برسالة الله تعالى وحمل الاستكبار على الامتناع عن قبول الآيات لا يساعده قوله عز وعلا ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ فإنه صريح فى أن المراد باستكبارهم ما وقع منهم قبل مجىء الحق الذى سموه سحرا أعنى العصا واليد البيضاء كما ينبىء عنه سياق النظم الكريم وذلك أول ما أظهره عليه السلام من الآيات العظام والفاء فيه أيضا فصيحة معربة عما صرح به فى مواضع أخر كأنه قيل (قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم) إلى قوله تعالى (فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين) فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه قالوا من فرط عتوهم وعنادهم إن هذا لسحر مبين أى ظاهر كونه سحرا أو فائق فى بابه واضح فيما بين أضرابه وقرىء لساحر ﴿ قال موسى ﴾ استئناف مبنى على سؤال تنساق إليه الأذهان كأنه قيل فماذا قال لهم موسى حينئذ فقيل قال على طريقة الاستفهام الإنكارى التوبيخى ﴿ أتقولون للحق ﴾ الذى هو أبعد شىء من السحر الذى هو الباطل البحت ﴿ لما جاءكم ﴾ أى حين مجيئه إياكم ووقوفكم عليه أو من أول الأمر من غير تأمل وتدبر وكلا الحالين مما ينافى القول المذكور والمقول محذوف ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه وإيذانا بأنه مما لا ينبغى أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية أى أتقولون له ما تقولون من أنه سحر يعنى به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلم به متكلم أو القول بمعنى العيب والطعن من قولهم فلان يخاف القالة وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه

ونظيره الذكر فى قوله تعالى (سمعنا فتى يذكرهم) الخ فيستغنى عن المفعول أى أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل ﴿ أسحر هذا ﴾ إنكار مستأنف من جهته عليه السلام لكونه سحرا وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل أما على الأول فظاهر وأما على الثانى فوجه إيثار إنكار كونه سحرا على إنكار كونه معيبا بأن يقال مثلا أفيه عيب حسبما يقتضيه ظاهر الإنكار السابق التصريح بالرد عليهم فى خصوصية ما عابوه به بعد التنبيه بالإنكار السابق على أن ليس فيه شائبة عيب ما وما فى هذا من معنى القرب لزيادة تعيين المشار إليه واستحضار ما فيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله المنادية على امتناع كونه سحرا أى سحر هذا الذى أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة وتقديم الخبر للإيذان بأنه منصب الإنكار ولما استلزم كونه سحرا كون من أتى به ساحرا أكد الإنكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل بقوله عز وجل

﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلا ضمير كما فى قول من قال «جاء الشتاء ولست أملك عدة» وقولك جاء زيد ولم تطلع الشمس أى أتقولون للحق إنه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أى لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف يمكن صدوره من مثلى من المؤيدين من عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين من كل محذور وقوله تعالى (أسحر هذا) جملة معترضة بين الحال وصاحبها أكد بها الإنكار السابق ببيان استحالة كونه سحرا بالنظر إلى ذاته قبل بيان استحالته بالنظر إلى صدوره عنه عليه السلام هذا وأما تجويز أن يكون الكل مقول القول على أن المعنى أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون فمما لا يساعده النظم الكريم أصلا أما أولا فلأن ما قالوا هو الحكم بأنه سحر من غير أن يكون فيه دلالة على ما تعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه فصرف جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به إلى ما لا يفهم منه أصلا مما يجب تنزيه النظم التنزيلى عن الحمل على أمثاله وأما ثانيا فلأن التعرض لعدم إفلاح السحرة على

الإطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبين دون الكثرة المتشبثين بأذيال بعض منهم فى معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيص عدم الإفلاح بمن زعموه ساحرا بناء على غلبة من يأتون به من السحرة وأما ثالثا فلأن قوله عز وجل ﴿قالوا أجئتنا﴾ الخ مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلق بكلامه عليه السلام فضلا عن الجواب الصحيح واضطروا إلى التشبث بذيل التقليد الذى هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل عاجز لجوج على أنه استئناف وقع جوابا عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى (قال موسى) الخ حسبما أشير إليه كأنه قيل فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال فقيل قالوا عاجزين عن المحاجه أجئتنا ﴿لتلفتنا﴾ أى لتصرفنا فإن الفتل واللفت أخوان ﴿عما وجدنا عليه آباءنا﴾ أى من عبادة الأصنام ولا ريب فى أن ذلك إنما يتسنى بكون ما ذكر من تتمة كلامه عليه السلام على الوجه الذى شرح إذ على تقدير كونه محكيا من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خاليا من التبكيت الملجىء لهم إلى العدول عن سنن المحاجة ولا ريب فى أنه لا علاقة بين قولهم أجئتنا الخ وبين إنكاره عليه السلام لما حكى عنهم مصححة لكونه جوابا عنه ﴿ وتكون لكما الكبرياء ﴾أى الملك أو التكبر على الناس باستتباعهم وقرىء ويكون بالياء التحتانية.

وكلمة «فى» فى قوله تعالى ﴿ فى الأرض ﴾ أى أرض مصر متعلقة بتكون أو بالكبرياء أو بالاستقرار فى لكما لوقوعه خبراً أو بمحذوف وقع حالا من الكبرياء أو من الضمير فى لكما لتحمله إياه ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أى بمصدقين فيما جئتما وبه وتثنية الضمير فى هذين الموضعين بعد إفراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر وأما اللفت والمجىء له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصة ﴿ وقال فرعون ﴾ توحيد الفعل لأن الأمر من وظائف فرعون أى قال لملئه يأمرهم بترتيب مبادى إلزامهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأس من إلزامهما بالقول ﴿ إئتونى بكل ساحر عليم ﴾ بفنون.

السحر حاذق ماهر فيه وقرىء سحار ﴿ فلما جاء السحرة ﴾ عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف إيذانا بسرعة امتثالهم لأمر فرعون كما هو شأن الفاء الفصيحة فى كل مقام أى فأتوا به فلما جاؤا ﴿ قال لهم موسى ﴾ لكن لا فى ابتداء مجيئهم بل بعد ما قالوا له عليه السلام ما حكى عنهم فى السور الأخر من قولهم(إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين) ونحو ذلك ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ أى ملقون له كائنا ما كان من أصناف السحر ﴿ فلما ألقوا ﴾ ما ألقوا من العصى والحبال واسترهبوا الناس وجاؤا بسحر عظيم ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى ﴾ غير مكترث بهم وبما صنعوا ﴿ ما جئتم به السحر ﴾ ما موصولة وقعت مبتدأ والسحر خبره أى هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه من آيات الله سبحانه أو هو من جنس السحر يريهم أن حاله بين لا يعبأ به كأنه قال ما جئتم به مما لا ينبغى أن يجاء به وقرىء السحر على الاستفهام فما استفهامية أى أى شىء جئتم به أهو السحر الذى يعرف حاله كل أحد ولا يتصدى له عاقل وقرىء ما جئتم به سحر وقرىء ما أتيتم به سحر ودلالتهما على المعنى الثانى فى القراءة المشهورة أظهر ﴿ إن الله سيبطله ﴾ أى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدى من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلا أو سيظهر بطلانه للناس والسين للتأكيد ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ أى عمل جنس المفسدين على الإطلاق فيدخل فيه السحر دخولا أوليا أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلة الحكم وليس المراد بعد إصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحا بل عدم إثباته وإتمامه أى لا يثبته ولا يكمله ولا يديمه بل يمحقه ويهلكه ويسلط عليه الدمار والجملة تعليل لما سبق من قوله (إن الله سيبطله) والكل اعتراض تذييلى وفيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له ﴿ ويحق الله الحق ﴾ عطف على قوله سيبطله أى يثبته ويقويه وإظهار الاسم الجليل فى المقامين الأخيرين لإلقاء الروعة وتربية المهابة ﴿ بكلماته ﴾ بأوامره وقضاياه وقرىء بكلمته ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ذلك والمراد بهم كل من اتصف بالإجرام من السحرة وغيرهم ﴿ فما آمن موسى ﴾ معطوف على مقدر

قد فصل فى مواقع أخر أى فألقى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون الخ وإنما لم يذكر تعويلا على ذلك وإيثارا للإيجاز وإيذانا بأن قوله تعالى (إن الله سيبطله) مما لا يحتمل الخلف أصلا وعطفه على ذلك بالفاء مع كونه عدما مستمرا من قبيل ما فى قوله عز وجل (فاتبعوا أمر فرعون) وما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر والسر فى ذلك أن الإتيان بالشيء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث أى فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة ﴿ إلا ذرية من قومه ﴾ أى إلا أولاد من أولاد قومه بنى إسرائيل حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من شبانهم وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به عليه السلام أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وامرأته وماشطته وهو بعيد ﴿ على خوف ﴾ أى كائنين على خوف عظيم ﴿ من فرعون وملئهم ﴾ الضمير لفرعون والجمع لما هو المعتاد فى ضمائر العظماء ولا يأباه مقام بيان علوه فى الفساد وغلوه فى الشر والتسلط على العباد أو لأن المراد به آله كما يقال ربيعة ومضر أو للذرية أو للقوم أى على خوف من فرعون ومن أشراف بنى إسرائيل حيث كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم ﴿ أن يفتنهم ﴾ أى يعذبهم وهو بدل اشتمال أو مفعول خوف فإن إعمال المصدر المنكر كثير كما فى قوله عز وجل (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما) أومفعول له بعد حذف اللام وإسناد الفعل إلى فرعون خاصة لأنه الآمر بالتعذيب ﴿ وإن فرعون لعال فى الأرض ﴾ لغالب فى أرض مصر ﴿ وإنه لمن المسرفين ﴾ فى الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو فى الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء والجملتان اعتراض تذييلى مؤكد لمضمون ما سبق ﴿ وقال موسى ﴾ لما رأى تخوف المؤمنين منه ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله ﴾ أى صدقتم به وبآياته ﴿ فعليه توكلوا ﴾ وبه ثقوا ولا تخافوا أحداً غيره فإنه كافيكم كل شر وضر ﴿ إن كنتم مسلمين ﴾ مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين فإن المعلق

بالإيمان وجوب التوكل عليه تعالى فإنه المقتضى له والمشروط بالإسلام وجوده فإنه لا يتحقق مع التخليط ونظيره إن أحسن إليك زيد فأحسن إليه إن قدرت عليه ﴿ فقالوا ﴾ مجيبين له عليه السلام من غير تلعثم فى ذلك ﴿على الله توكلنا﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ثم دعوا ربهم قائلين ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة ﴾ أى موقع فتنة ﴿ للقوم الظالمين ﴾ أى لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يفتتنوا بنا ويقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا وقوله تعالى ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ دعاء منهم بالإنجاء من سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم بعد الإنجاء من ظلمهم عبر عنهم بالكفر بعد ماوصفوا بالظلم وفى ترتيب الدعاء على التوكل تلويح بأن الداعى حقه أن يبنى دعاءه على التوكل على الله تعالى ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ ﴾ أن مفسرة لأن فى الوحى معنى القول أى اتخذا مباءة ﴿ لقومكما بمصر بيوتا ﴾ تسكنون فيها وترجعون إليها للعبادة ﴿ واجعلوا ﴾ أنتما وقومكما ﴿ بيوتكم ﴾ تلك ﴿ قبلة ﴾ مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعنى الكعبة فإن موسى عليه السلام كان يصلى إليها ﴿ وأقيموا الصلوة ﴾ أى فيها أمروا بذلك فى أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ بالنصرة فى الدنيا إجابة لدعوتهم والجنة فى العقبى وإنما ثنى الضمير أولا لأن التبوؤ للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم بتشاور ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد ثم وحد لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالإيمان وللإشعار بأنه المدار فى التبشير ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة﴾ أى ما يتزين به من اللباس والمراكب ونحوها ﴿ وأموالا ﴾ وأنواعا كثيرة من المال ﴿ فى الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر بما علم بممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك لعن الله إبليس وقيل اللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت أو للعلة لأن إيتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولأنهم لما جعلوها ذريعة إلى الضلال فكأنهم أوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريرا للأول.

تأكيدا أو تنبيها على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم تقدمة لقوله تعالى ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ الطمس المحو وقرىء بضم الميم أى أهلكها ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ أى اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان كما هو قضية شأنهم ﴿ فلا يؤمنوا ﴾ جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهى أو عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أى يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما ﴾ يعنى موسى وهرون عليهما السلام لأنه كان يؤمن كما يشعر به إضافة الرب إلى ضمير المتكلم مع الغير فى المواقع الثلاثة ﴿ فاستقيما ﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائن فى وقته لا محالة . روى أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة .

﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ أى بعادات الله سبحانه فى تعليق الأمور بالحكم والمصالح أو سبيل الجهلة فى الاستعجال أو عدم الوثوق بوعد الله تعالى وقرىء بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ولا تتبعان من تبع ولا تتبعان أيضاً ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ﴾ هو من جاوز المكان إذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية أى جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه يبسا وحفظناهم حتى بلغوا الشط وقرىء جوزنا وهو من التجويز المرادف للمجاوزة لا بما هو بمعنى التنفيذ نحو ما وقع فى قول الأعشى * كما جوز السكى فى الباب فيتق * وإلا لقيل وجوزنا بنى إسرائيل فى البحر ولخلا النظم الكريم عن الإيذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العناية الإلهية لهم عنوا الجواز كما هو المشهور فى الفرق بين أذهبه وذهب به ﴿ فأتبعهم ﴾ يقال تبعته حتى اتبعته إذا كان سبقك فسبقته أى أدركهم ولحقهم ﴿ فرعون وجنوده ﴾ حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان ﴿ بغيا وعدوا ﴾ ظلما واعتداء أى باغين وعادين أو للبغى والعدوان وقرىء وعدوا وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببنى إسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم ووصل إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر

ومسلكهم باق على حاله يبسا فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم ﴿ حتى إذا أدركه الغرق ﴾ أى لحقه وألجه ﴿ قال آمنت أنه ﴾ أى بأنه والضمير للشأن وقرىء أنه على الاستئناف بدلا من آمنت وتفسيرا له ﴿ لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ﴾ لم يقل كما قاله السحرة آمنا برب العالمين رب موسى وهرون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته إيمان بنى إسرائيل به تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعا فى القبول والانتظام معهم فى سلك النجاة ﴿ وأنا من المسلمين ﴾ أى الذين أسلموا نفوسهم لله أى جعلوها سالمة خالصة له تعالى وأراد بهم إما بنى إسرائيل خاصة وأما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة على الأول عطف على آمنت وإيثار الاسمية لادعاء الدوام والاستمرار وعلى الثانى يحتمل الحالية أيضا من ضمير المتكلم أى آمنت مخلصا لله منتظما فى سلك الراسخين فيه ولقد كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا على القبول المفضى إلى النجاة وهيهات هيهات بعد ما فات وأنى ما هو آت وقوله عز وجل ﴿ آلآن ﴾ مقول لقول مقدر معطوف على قال أى فقيل آلآن وهو إلى قوله تعالى (آية) حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول ومقابلة ما أظهره بالرد على وجه الإنكار التوبيخى على تأخيره وتقريعه بالعصيان والإفساد وغير ذلك وفى حذف الفعل المذكور وإبراز الخبر المحكى فى صورة الإنشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب ما لا يخفى كما يفصح عنه ما روى من أن جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فإنه تأكيد للرد القولى بالرد الفعلى ولا ينافيه تعليله بمخافة إدراك الرحمة فيما نقل أنه قال للنبى عليهما السلام فلو رأيتنى يا محمد وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة إذ المراد بها الرحمة الدنيوية أى النجاة التى هى طلبة المخذول وليس من ضرورة إدراكها صحة الإيمان كما فى إيقان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم كراهته ما لا يتصور فى شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر إذ لا استحالة فى ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الإيمان وإن كان

ذلك فى حالة البأس واليأس فيحمل دسه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدة الحرد فتدبر والله الموفق وحق العامل فى الظرف أن يقدر مؤخراً ليتوجه الإنكار والتوبيخ إلى تأخير الإيمان إلى حد يمتنع قبوله فيه أى آلآن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات وقوله عز وعلا ﴿ وقد عصيت قبل ﴾ حال من فاعل الفعل المقدرجىء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الإيمان إلى هذا الآن ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة إليه ولا للتأمل والتدبر فى دلائله وآياته ولا لشىء آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والإفساد فإن قوله تعالى ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ عطف على عصيت داخل فى حيز الحال أى وكنت من الغالين فى الضلال والإضلال عن الإيمان كقوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) فهذا عبارة عن فساده الراجع إلى نفسه والسارى إلى غيره من الظلم والتعدى وصد بنى إسرائيل عن الإيمان والأول عن عصيانه الخاص به ﴿ فاليوم ننجيك ﴾ أى نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافيا وفى التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده بالإيمان هو النجاة كما مر وتهكم به أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيل وقرىء ننجيك من الإنجاء وننحيك بالحاء من التنحية أو نلقيك بناحيه الساحل ﴿ ببدنك ﴾ فى موضع الحال من ضمير المخاطب أى ننجيك ملابسا ببدنك فقط لا مع روحك كما هومطلوبك فهو تخييب له وحسم لأطماعه بالمرة أو عاريا عن اللباس أو كاملا سويا أو بدرعك وكانت له دروع من الذهب يعرف بها وقرىء بأبدانك أى بأجزاء بدنك كلها كقولهم هوى بأجرامه أو بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها ﴿ لتكون لمن خلفك آيه ﴾ لمن وراءك علامة وهم بنو إسرائل إذ كان فى نفوسهم من عظمته ما خيل إليهم أنه لا يهلك حتى يروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطروحا على ممرهم من الساحل أو تكون لمن يأتى بعدك من الأمم إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا من الطغيان أو حجة تدلهم على أن

الإنسان وإن بلغ الغاية القصوى من عظم الشأن وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية وقرىء لمن خلفك فعلا ماضيا أى لمن خلفك من الجبابرة وقرىء لمن خلقك بالقاف أى لتكون لخالقك آية كسائر الآيات فإن إفراده سبحانه إياك بالإلقاء إلى الساحل دليل على أنه قصد منه كشف تزويرك وإماطة الشبهة فى أمرك وبرهان نير على كمال علمه وقدرته وحكمته وإرادته وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة أيضا وفى تعليل تنجيته بما ذكر إيذان بأنها ليست لإعزازه أو لفائدة أخرى عائدة إليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رءوس الأشهاد وزيادة تفظيع حاله كمن يقتل ثم يجر جسده فى الأسواق أو يدار برأسه فى البلاد واللام الأولى متعلقة بننجيك والثانية بمحذوف وقع حالا من آية أى كائنة لمن خلفك ﴿ وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ لا يتفكرون بها ولا يعتبرون بها وهو اعتراض تذييلى جىء به عند الحكاية تقريرا لفحوى الكلام المحكى ﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان النعم الفائضة عليهم إثر نعمة الإنجاء على الإجمال وإخلالهم بشكرها وأداء حقوقها أى أسكناهم وأنزلناهم بعد ما أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم ﴿ مبوأ صدق ﴾ أى منزلا صالحا مرضيا وهو الشام ومصر ملكوهما بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فى نواحيهما حسبما نطق به قوله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أى اللذائذ ﴿ فما اختلفوا ﴾ فى أمر دينهم ﴿ حتى جاءهم العلم ﴾ أى إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها أو فى أمر محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فيميز بين المحق والمبطل بالإثابة والتعذيب ﴿ فإن كنت فى شك ﴾ أى فى شك ما يسير على الفرض والتقدير فإن مضمون الشرطية إنما هو تعليق شىء بشىء من غير تعرض لإمكان شىء منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعا كقوله عز وجل (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) وقوله تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) ونظائرهما ﴿ مما أنزلنا إليك ﴾ من القصص التى من جملتها قصة

فرعون وقومه وأخبار بنى إسرائيل ﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ فإن ذلك محقق عندهم ثابت فى كتبهم حسبما ألقينا إليك والمراد إظهار نبوته عليه السلام بشهادة الأحبار حسبما هو المسطور فى كتبهم وإن لم يكن إليه حاجة أصلا أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ فى العلم بصحة نبوته عليه السلام أو تهييجه عليه السلام وزيادة تثبيته على ما هو عليه من اليقين لا تجويز صدور الشك منه عليه السلام ولذلك قال عليه السلام لا أشك ولا أسأل وقيل المراد بالموصول مؤمنوا أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الدارى وكعب وأضرابهم وقيل الخطاب للنبى عليه السلام والمراد أمته أو لكل من يسمع أى إن كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا إليك على لسان نبينا وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم فاسأل الذين يقرءون الكتاب .

﴿لقد جاءك الحق﴾ الذى لا محيد عنه ولا ريب فى حقيته ﴿من ربك﴾ وظهر ذلك بالآيات القاطعة التى لا يحوم حولها شائبة الارتياب وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من التشريف مالا يخفى ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين ودم على ذلك كما كنت من قبل ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ من باب التهييج والإلهاب والمراد به إعلام أن التكذيب من القبح والمحذورية بحيث ينبغى أن ينهى عنه من لا يتصور إمكان صدوره عنه فكيف بمن يمكن اتصافه به وفيه قطع لأطماع الكفرة ﴿فتكون﴾ بذلك ﴿من الخاسرين﴾ أنفسا وأعمالا ﴿إن الذين حقت عليهم﴾ شروع فى بيان سر إصرار الكفرة على ما هم عليه من الكفر والضلال أى ثبتت ووجبت بمقتضى المشيئة على الحكمة البالغة ﴿كلمة ربك﴾ حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون فى النار كقوله تعالى (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم) إلى آخره ﴿لا يؤمنون﴾ أبدا إذ لا كذب لكلامه ولا انتقاض لقضائه أى لا يؤمنون إيمانا نافعا واقعا

فى أوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مثل فرعون باقيا عند الموت فيدخل فيهم المرتدون ﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ واضحة المدلول مقبولة لدى العقول لأن سبب إيمانهم وهو تعلق إرادته تعالى به مفقود لكن فقدانه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارهم المتفرع على عدم استعدادهم لذلك ﴿ حتى يروا العذاب ﴾ كدأب آل فرعون وأضرابهم ﴿ فلولا كانت ﴾ كلام مستأنف لتقرير ما سبق من استحالة إيمان من حقت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكنهم من التدارك فيكون الاستثناء الآتى بيانا لكون قوم يونس عليه السلام ممن لم يحق عليه الكلمة لاهتدائهم إلى التدارك فى وقته ولولا بمعنى هلا وقرىء كذلك أى فهلا كانت ﴿ قرية ﴾ من القرى المهلكة ﴿ آمنت ﴾ قبل معاينة العذاب ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته كما فعل فرعون وقومه ﴿ فنفعها إيمانها ﴾ بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف بسببه العذاب عنها ﴿ إلا قوم يونس ﴾ استثناء منقطع أى لكن قوم يونس ﴿ لما آمنوا ﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروا إلى حلوله ﴿ كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا ﴾ بعد ما أظلهم وكاد يحل بهم ويجوز أن تكون الجملة فى معنى النفى كما يفصح عنه حرف التحضيض فيكون الاستثناء متصلا إذ المراد بالقرى أهاليها كأنه قيل ما آمنت طائفة من الأمم الماضية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس عليه السلام فيكون قوله تعالى لما آمنوا استئنافا لبيان نفع إيمانهم ويؤيده قراءة الرفع على البدلية ﴿ ومتعناهم ﴾ بمتاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم ﴿ إلى حين ﴾ مقدر لهم فى علم الله سبحانه . روى أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وقيل قال لهم يونس عليه السلام أجلكم أربعون ليلة فقالوا إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان والدواب وأولادها فحن بعضها إلى بعض

وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضى الله عنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى أن الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده إلى صاحبه وقيل خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا يا حى حين لا حى وياحى محيي الموتى ويا حى لا إله إلا أنت فقالوا فكشف عنهم وعن الفضيل ابن عياض قالوا إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض﴾ تحقيق لدوران إيمان كافة المكلفين وجودا وعدما على قطب مشيئته تعالى مطلقا إثر بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وأن لا يكون فى تعلقها به غرابة كما هو المشهور أى لو شاء سبحانه إيمان من فى الأرض من الثقلين لآمن ﴿كلهم﴾ بحيث لا يشذ عنهم أحد ﴿جميعا﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه لكونه مخالفا للحكمة التى عليها بنى أساس التكوين والتشريع وفيه دلالة على أن من شاء الله إيمانه يؤمن لا محالة ﴿أفأنت تكره الناس﴾ على ما لم يشأ الله منهم حسبما ينبىء عنه حرف الامتناع فى الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل أربك لا يشاء ذلك فأنت تكرههم ﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ فيكون الإنكار متوجها إلى ترتيب الإكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الإنكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أن الهمزة متأخرة فى الاعتبار وإنما قدمت لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وأياً ما كان فالمشيئة على إطلاقها إذ لا فائدة بل لا وجه لاعتبار عدم مشيئة الإلجاء خاصة فى إنكار الترتيب عليه أو ترتيب الإنكار عليه وفى إيلاء الاسم حرف الاستفهام إيذان بأن الإكراه أمر ممكن لكن الشأن فى المكره من هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه لأنه القادر على أن يفعل فى قلوبهم ما يضطرهم إلى الإيمان وذلك غير مستطاع للبشر وفيه إيذان

باعتبار الإلجاء فى المشيئة كما أشير إليه ﴿ وما كان لنفس ﴾ بيان لتبعية إيمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجودا بعد بيان الدوران الكلى عليها وجودا وعدما أى ما صح وما استقام لنفس من النفوس التى علم الله تعالى أنها تؤمن ﴿ أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ أى بتسهيله ومنحه للألطاف وإنما خصت النفس بمن ذكر ولم يجعل من قبيل قوله تعالى (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) لأن الاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى ما كان لنفس أن تؤمن فى حال من أحوالها إلا حال كونها ملابسة بإذنه تعالى فلا بد من كون الإيمان مما يؤول إليه حالها كما أن الموت مآل لكل نفس بحيث لا محيص لها عنه فلا بد من تخصيص النفس بمن ذكر فإن النفوس التى علم الله أنها لا تؤمن ليس لها حال تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال من غيرها ﴿ ويجعل الرجس ﴾ أى الكفر بقرينة ما قبله عبر عنه بالرجس الذى هو عبارة عن القبيح المستقذر المستكره لكونه علما فى القبح والاستكراه وقيل هو العذاب أو الخذلان المؤدى إليه وقرىء بنون العظمة وقرىء بالزاى أى يجعل الكفر ويبقيه ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلا يحصل لهم الهداية التى عبر عنها بالإذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال أو مقهورين بالعذاب والنكال والجملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فيأذن لهم بمنح الألطاف ويجعل الخ ﴿ قل ﴾ مخاطبا لأهل مكة بعثا لهم على التدبر فى ملكوت السموات والأرض وما فيهما من تعاجيب الآيات الأنفسية والآفاقية ليتضح لك أنهم من الذين لا يعقلون وحقت عليهم الكلمة ﴿ انظروا ﴾ أى تفكروا وقرىء بنقل حركة الهمزة إلى لام قل ﴿ ماذا فى السموات والأرض ﴾ أى أى شىء بديع فيهما من عجائب صنعه الدالة على وحدته وكمال قدرته على أن ماذا جعل بالتركيب اسما واحدا مغلبا فيه الاستفهام على اسم الإشارة فهو مبتدأ خبره الظرف ويجوز أن يكون ما مبتدأ وذا بمعنى الذى والظرف صلته والجملة خبر المبتدأ وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبر فى محل النصب بإسقاط الخافض وفعل النظر معلق

بالاستفهام ﴿ وما تغنى ﴾ أى ما تنفع وقرىء بالتذكير ﴿ الآيات ﴾ وهى التى عبر عنها بقوله تعالى (ماذا فى السموات والأرض) ﴿ والنذر ﴾ جمع نذير على أنه فاعل بمعنى منذر أو على أنه مصدر أى لا تنفع الآيات والرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿ عن قوم لا يؤمنون ﴾ فى علم الله تعالى وحكمه فما نافية والجملة إما حالية أو اعتراضية ويجوز كون ما استفهامية إنكارية فى موضع النصب على المصدرية أى أى إغناء تغنى الخ فالجملة حينئذ اعتراضية ﴿ فهل ينتظرون ﴾ أى مشركوا مكة وأضرابهم ﴿ إلا مثل أيام الذين خلوا ﴾ أى إلا يوما مثل أيام الذين خلوا ﴿ من قبلهم ﴾ من مشركى الأمم الماضية أى مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم إذ لا يستحقون غيره من قولهم أيام العرب لوقائعها ﴿ قل ﴾ تهديدا لهم ﴿ فانتظروا ﴾ ما هو عاقبتكم ﴿ إنى معكم من المنتظرين ﴾ لذلك ﴿ ثم ننجى رسلنا ﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل أيام الذين خلوا وما بينهما اعتراض جىء به مسارعة إلى التهديد ومبالغة فى تشديد الوعيد كأنه قيل أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلة إليهم .

﴿ والذين آمنوا ﴾ وصيغة الاستقبال لحكاية الأحوال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الإهلاك على عكس ما فى قوله تعالى (فنجيناه ومن معه فى الفلك) الخ ونظائره الواردة فى مواقع عديدة ليتصل به قوله عز وجل ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الإنجاء ﴿ حقا علينا ﴾ اعتراض بين العامل والمعمول أى حق ذلك حقا وقيل بدل من المحذوف الذى ناب عنه كذلك أى إنجاء مثل ذلك حقا والكاف متعلقة بقوله تعالى ﴿ ننجى المؤمنين ﴾ أى من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه والمراد بالمؤمنين إما الجنس المتناول للرسل عليهم السلام وإما الأتباع فقط وإنما لم يذكر إنجاء الرسل إيذانا بعدم الحاجة إليه وأيا ما كان ففيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الإيمان ﴿ قل ﴾ لجمهور المشركين ﴿ يا أيها الناس ﴾ أوثر الخطاب باسم الجنس مصدرا بحرف التنبيه تعميما للتبليغ وإظهارا لكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم ﴿ إن كنتم فى شك من دينى ﴾ الذى أتعبد الله عز وجل به وأدعوكم

إليه ولم تعلموا ما هو وما صفته ﴿ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ فى وقت من الأوقات ﴿ ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ﴾ ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب أى فاعلموا أنه تخصيص العبادة به ورفض عبادة ما سواه من الأصنام وغيرها مما تعبدونه جهلا وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية كما فى كلمة التوحيد وللإيذان بالمخالفة من أول الأمر أو إن كنتم فى شك من صحة دينى وسداده فاعلموا أن خلاصته إخلاص العبادة لمن بيده الإيجاد والإعدام دون ما هو بمعزل منهما من الأصنام فاعرضوها على عقولكم وأجيلوا فيها أفكاركم وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا أنه حق لا ريب فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل فى هذا الباب هو الشك فى صحته وأما القطع بعدمها فمما لا سبيل إليه وإن كنتم فى شك من ثباتى على الدين فاعلموا أنى لا أتركه أبدا ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ بما دل عليه العقل ونطق به الوحى وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل الصرف بل بالإمداد السماوى والتوفيق الإلهى وحذف حرف الجر من أن يجوز أن يكون من باب الحذف المطرد مع أن وأن وأن يكون خاصا بفعل الأمر كما فى قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به .

﴿ وأن أقم وجهك للدين ﴾ عطف على أن أكون خلا أن صلة أن محكية بصيغة الأمر ولا ضير فى ذلك لأن مناط جواز وصلها بصيغ الأفعال دلالتها على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الإسمى إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف إلا بالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفى كذلك أى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه بأداء المأمور به والانتهاء عن المنهى عنه أو باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم الالتفات إلى اليمين والشمال ﴿ حنيفا ﴾ حال من الدين أو الوجه أى مائلا عن الأديان الباطلة ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ عطف على أقم داخل تحت الأمر وقيل على ما قبله من النهى

والوجه هو الأول لأن ما بعده من الجمل إلى آخر الآيتين متسقة لا يمكن فصل بعضها عن بعض كما ترى ولا وجه لإدراج الكل تحت الأمر وهو تأكيد للنهى المذكور وتفصيل لما أجمل فيه إظهارا لكمال العناية بالأمر وكشفا عن وجه بطلان ما عليه المشركون أى لا تدع ﴿ من دون الله ﴾ استقلالا ولا اشتراكا ﴿ ما لا ينفعك ﴾ إذا دعوته بدفع مكروه أو جلب محبوب ﴿ ولا يضرك ﴾ إذا تركته بسلب المحبوب دفعا أو رفعا أو بإيقاع المكروه وتقديم النفع على الضرر غنى عن بيان السبب ﴿ فإن فعلت ﴾ أى ما نهيت عنه من دعاء مالا ينفع ولا يضر كنى به عنه تنويها لشأنه عليه السلام وتنبيها على رفعة مكانه من أن ينسب إليه عبادة غير الله سبحانه ولو فى ضمن الجملة الشرطية ﴿ فإنك إذاً من الظالمين ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال من يسأل عن تبعة ما نهى عنه ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ تقرير لما أورد فى حين الصلة من سلب النفع من الأصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه ﴿ فلا كاشف له ﴾ عنك كائنا من كان وما كان ﴿ إلا هو ﴾ وحده فيثبت عدم كشف الأصنام بالطريق البرهانى وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاما ظاهراً فإن رفع المكروه أدنى مراتب النفع فإذا انتفى انتفى النفع بالكلية .

﴿ وإن يردك بخير ﴾ تحقيق لسلب الضرر الوارد فى حيز الصلة أى أن يرد أن يصيبك بخير ﴿ فلا راد لفضله ﴾ الذى من جملته ما أرادك به من الخير فهو دليل على جواب الشرط لا نفس الجواب وفيه إيذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل من غير استحقاق عليه سبحانه أى لا أحد يقدر على رده كائنا ما كان فيدخل فيه الأصنام دخولا أوليا وهو بيان لعدم ضرها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزم لعدم ضرها برفعه أو بإيقاع المكروه استلزاما جليا ولعل ذكر الإرادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الأمرين للإيذان بأن الخير مراد بالذات وأن الضر إنما يمس من يمسه لما يوجبه من الدواعى الخارجية لا بالقصد الأولى أو أريد معنى الفعلين فى كل من الضر والخير وأنه لا راد

لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر فى أحدهما المس وفى الآخر الإرادة ليدل بما ذكر فى كل جانب على ما ترك فى الجانب الآخر على أنه قد صرح بالإصابة حيث قيل ﴿ يصيب به ﴾ إظهاراً لكمال العناية بجانب الخير كما ينبىء عنه ترك الاستثناء فيه أى يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير وجعل الفضل عبارة عن ذلك الخير بعينه على أن يكون من باب وضع المظهر فى موضع المضمر لما ذكر من الفائدة يأباه قوله عز وجل ﴿ من يشاء من عباده ﴾ فإن ذلك ينادى بعموم الفضل وقوله عز قائلا ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ تذييل لقوله تعالى (يصيب به) الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل للشرطية الأخيرة محقق لمضمونها ﴿ قل ﴾ مخاطبا لأولئك الكفرة بعد ما بلغتهم ما أوحى إليك ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام التى من جملتها ما مر آنفا من أصول الدين واطلعتم على ما فى تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبق لكم عذر ﴿ فمن اهتدى ﴾ بالإيمان به والعمل بما فى مطاويه ﴿ فإنما يهتدى لنفسه ﴾ أى منفعة اهتدائه لها خاصة ﴿ ومن ضل ﴾ بالكفر به والإعراض عنه ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ أى فوبال الضلال مقصور عليها والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه عليه السلام من جلب نفع أو دفع ضر كما يلوح به إسناد المجىء إلى الحق من غير إشعار بكون ذلك بواسطته ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ بحفيظ موصول إلى أمركم وإنما أنا بشير ونذير ﴿ واتبع ﴾ اعتقاداً وعملا وتبليغا ﴿ ما يوحى إليك ﴾ على نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يوما فيوما وفى التعبير عن بلوغه إليهم بالمجىء وإليه عليه السلام بالوحى تنبيه على ما بين المرتبتين من التنائى ﴿ واصبر ﴾ على ما يعتريك من مشاق التبليغ ﴿ حتى يحكم الله ﴾ بالنصرة عليهم أو بالأمر بالقتال ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ إذ لا يمكن الخطأ فى حكمه لاطلاعه على السرائر إطلاعه على الظواهر . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطى له من الأجر عشر

حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون والحمد لله وحده .

﴿ تم الجزء الثانى من تفسير العلامة أبى السعود ويليه الجزء الثالث أوله سورة هود عليه السلام ﴾ .

٢٢ من رمضان ١٣٩١ هـ
١٠ من نوفمبر ١٩٧١ م

فهرس موضوعي

الجزء الثانى من تفسير

أبو السعود بن محمد العمادى الحنفى

فهرس موضوعى

للجزء الثانى من تفسير أبى السعود

الصحيفة	الموضوع

ص الموضوع

تم بحمد الله وتوفيقه